Potomac Books, Inc.



الأكثر مبيعاً في أميركا

الفوقية الإمبريالية الأميركية

لماذا يخسر الغربُ الحربَ على الإرهاب

★ مايكل شوير ★

«مجهول»

مؤلف كتاب «عبر عيون أعدائنا: أسامة بن لادن والإسلام الأصولي ومستقبل أميركا»

ترجمة: سمعة محمد عبدربه

الفوقيّة الامبرياليّة الأميركيّة



يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

IMPERIAL HUBRIS

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

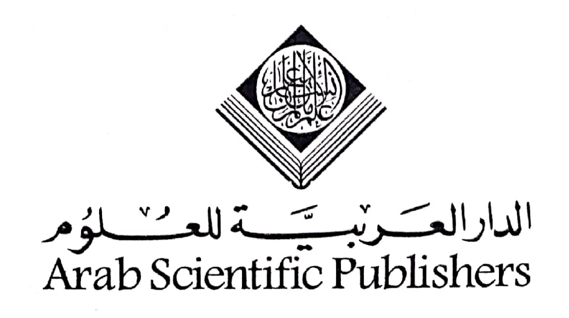
Potomac Books, Inc.

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

الفوقيّة الامبرياليّة الأميركيّة

تأليف
مايكل شوير
رئيس الوحدة المكلفة ملف أسامة بن لادن
في وكالة الاستخبارات المركزيّة CIA

المترجمة
سيمة عبد ربه



الدار العربيّة للعلوم
Arab Scientific Publishers

ISBN 9953-29-894-7

الطبعة الأولى

1426 هـ - 2005 م

لا يعبر هذا الكتاب المترجم عن رأي الدار العربية للعلوم، وتم نشره لتعريف القارئ العربي بوجهة نظر أميركيّة نافذة وفريدة



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1-961)
فاكس: 786230 (1-961) ص.ب: 5574-13 - بيروت - لبنان
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

حول الإصدار العربي

لكتاب Imperial Hubris

إن كتاب "الفوقيّة الامبرياليّة الأميركيّة" يضم الترجمة العربيّة لكتاب Imperial Hubris الذي ألّفه ضابط الاستخبارات الأميركيّة - مايكل شوير، وهو كما يذكر في سياق الكتاب قد تولى ولفترة من الزمن رئاسة الوحدة المكلفة ملف أسامة بن لادن في وكالة الاستخبارات الأميركيّة.

يقدم لنا شوير - ضابط الاستخبارات والحائز على درجة الدكتوراه في التاريخ - عملاً دراسياً موثقاً دعمه بكمٍّ لا يستهان به من أقوال أسامة بن لادن، وقادة القاعدة، وبعض علماء المسلمين الأفاضل بالإضافة إلى أعمال نخبة من الصحافيين العرب ممن كتبوا بإحدى اللغتين العربيّة أو الإنكليزيّة، وقد اعتمد السيد شوير في قسم من مصادره على أعمال هيئة البث الفدراليّة التابعة لوكالة الاستخبارات الأميركيّة، التي قامت بتقديم كافة تصريحات أسامة بن لادن وغيره إلى قادة الولايات المتحدة والمراجع المختصة بعد ترجمتها، وهو عمل يصفه السيد شوير بالعمل المتعذر على وسائل الإعلام التجاريّة سواء المكتوبة أو الإلكترونيّة.

وبناءً على ما تقدم، يستند هذا الكتاب وفي قسم كبير منه على أقوال وتصاريح أدلت بها شخصيات عربيّة، قامت وحدة البث الفدراليّة بترجمتها إلى الانكليزيّة لإتاحتها أمام قادة أميركا من سياسيين ورجال استخبارات، ومنهم السيد شوير الذي اعتمد عليها في كتابه هذا. ومما لا شك فيه أن الترجمة إلى الانكليزيّة وككل ترجمة أفقدت النصوص نسبة لا يستهان بها من دقتها.

وعندما عقدت الدار العربيّة للعلوم العزم على ترجمة هذا الكتاب لإتاحته أمام القرّاء العرب كنافذة يطلون منها على أدبيات رجال الاستخبارات الأميركيّة، تعذر عليها الوصول إلى مصادر النصوص العربيّة الأصليّة والتي بغالبيتها موجودة على

شبكة الإنترنت، نظراً للحرب الإلكترونية التي تشنّها أميركا على المواقع السقرية أو التابعة لتنظيم القاعدة أو المتعاطفة معه. فما كان، والحال على ما هي عليه، إلا أن طلبت الدار العربيّة للعلوم من السيد شوير تزويدها بالنصوص الأصليّة إلا أن الأمر تعذر. وبناء عليه، لم يعدّ أمام الدار إلا ترجمة النصوص مع يقينها بأن الترجمة ستُخسر النص الكثير من دقته، نظراً لما طاله من ترجمة ثنائية الاتجاه من العربيّة إلى الانكليزيّة، قامت بها هيئة البث الفدراليّة ثم من الإنكليزيّة إلى العربيّة وقامت بها الدار العربيّة.

لذلك وبناءً على ما تقدم، نعتذر وبشكل مسبق عن أي أخطاء غير متعمدة قد تكون أفقدت النص المترجم دقته القيمة، نظراً لعملية الترجمة السابقة الذكر. وحرصاً منا على نقل حقيقة هذه الأقوال، نطلب ممن تنسب إليهم هذه الأقوال أو الاقتباسات الواردة في الكتاب في حال وجدوا أن الترجمة قد حالت دون وصول أفكارهم بالصيغة التي عبروا عنها أساساً، تزويدنا بالنص الأصلي الحرفي كي نقوم بإذن الله تعالى بإضافته إلى الطبعة التالية من الكتاب.

وفي الختام، نشير إلى أن هذا الكتاب لا يعبّر بشكل من الأشكال - سواء من حيث المضمون أو بعض التعابير التي تطال الدول، والمنظمات، والأفراد - عن رأي الدار العربيّة للعلوم التي اقتصر دورها على ترجمة هذا العمل ووضعه بين يدي القرّاء العرب دون تبنّيها لمضمونه.

الناشر

مقدمة

الواجب، إنها الكلمة الأسمى في لغتنا. عليك أن تقوم بواجبك في كل مجالات الحياة. الواجب فقط... لا أكثر ولا أقل.

مذكرات. روبرت. إي. لي[1].

جاء في كتاب روبرت باير القيّم الذي كان بعنوان *الشر بعيداً* "أن اعتداء الحادي عشر من سبتمبر فاق بكافة المقاييس حدود الخيال لما نجم عنه من دمار. إلا أن الغريب في الأمر، هو أننا لم نحاول حتى معرفة ما الذي كان يتربص بنا"[2]. يروي كتاب السيد باير قصة مثيرة، اتسمت معظم أحداثها بالغموض والتشويق لضابط مخابرات ميداني ممتاز. وبالرغم من أن القصة تظهر ذكاء ومعرفة عميقة لضابط استخبارات ميداني وفهماً شاملاً تمتع به رجل كهذا جاب العالم، إلا أن النتيجة التي خلص إليها السيد باير أعلاه، هي نتيجة خاطئة حتماً. حيث إن حجم اعتداء الحادي عشر من سبتمبر لم يكن متوقعاً فحسب، بل إن السيد باير وغيره من ضباط المخابرات الأميركيّة - الذين غامروا بحياتهم - أمضوا قرابة عقد كامل وهم يجمعون ويحلّلون معلومات سرّية لو استخدمت بالشكل الأمثل، لكانت بالتأكيد قد مكّنت كل قادة الولايات المتحدة والمواطنين الأميركيين في آنٍ معاً من معرفة العاصفة الهوجاء التي كانت تتقدم نحوهم. لقد كان أولئك الضباط على علم بأن هناك قطاراً شارداً يتجه بسرعة نحو الولايات المتحدة دونما توقف، ووثّقوا تلك الحقيقة أيضاً ثم راقبوا ما حدث متفرجين لا حول لهم ولا قوة - أو استُبْعِدوا عندما أرادوا البوح بما لديهم من معلومات - بينما قام رؤساؤهم بتأخير العمل لتجنّب ما حدث، فأهملوا كل تلك المعلومات الاستخباراتيّة وتجاهلوا التحذيرات المتكررة وتصرفوا بشكل عام كما هم في الحقيقة، أعظم جيل في أميركا... جيل الجبناء الحقيقيين.

لست كالسيد باير ضابط مخابرات ميداني. بالرغم من أسفاري العديدة إلا

أنني في الواقع ضابط في مقر القيادة بحكم التدريب الذي تلقيته وطبيعة شخصيتي. لقد كنت محللاً حيث قمت بإدارة النشاطات الميدانيّة والتحليليّة. وعلى مرّ سبعة عشر عاماً تركّز عملي بشكل خاص على الإرهاب وحركات التمرّد الإسلاميّة، والإسلام الأصولي بالإضافة إلى شؤون جنوب آسيا أي أفغانستان وباكستان. اعتماداً على أسفاري المعدودة وتركيزي على الشؤون الإسلاميّة بشكل خاص، أعترف بأنني لا أمتلك الصلاحيات التي يتمتع بها السيد باير لكي أتحدث في شؤون عالميّة كبرى. إن التدريب الذي حصلت عليه، ومهنتي وخبراتي العمليّة، واهتماماتي محدودة بعض الشيء، إلا أنها عميقة وشاملة فيما يتعلق بالشؤون والأمور التي كنت مسؤولاً عنها. إنني أدين بهذه المعرفة التي اكتسبتها أثناء عملي والمستوى الرفيع الذي وصلت إليه مهنتي، إلى المواطن الأميركي الذي دفع ضرائبه ثمناً لهذه المعرفة. ولهذا آمل أن يأتي هذا الكتاب بالمنفعة كعرفان له بالجميل.

لقد كُتب هذا الكتاب بقلم شخص لا يدّعي معرفة أسرار العالم أو بكلمات أدق ليس متعمقاً في القضايا الملحّة مثل كوريا الشماليّة، الصين، روسيا، العولمة، الاتحاد الأوروبي، والتجارة العالميّة أو الأوبئة والأمراض المتفشيّة. كما أنني لا أعرف حتى كيف تتعامل المخابرات الأميركيّة مع هذه القضايا الخطيرة. بل إن معلوماتي ليست إلا غيض من فيض المخابرات لا أكثر. لكن تلك المعلومات على قلّتها كانت كافية لتجعلني قادراً على الكلام بقوة وثقة عن أسامة بن لادن، والقاعدة، والأخطار التي تمثّلها هذه الأخيرة بالنسبة للولايات المتحدة، والطريقة التي تعاملت بها الأوساط الاستخباراتيّة مع هذه القضايا. إن التحليل العميق لهذا الخطر لا بد وأن يتضمن مجموعة من المواد والمعلومات الاستخباراتيّة السرّية، والكتابات، والأبحاث العلنيّة على حدٍّ سواء. ومن نافل القول إن الكتاب لا يتضمن معلومات سرّية، وليس من شأن هذا أن يحول دون اعتبار هذا الكتاب كتاباً تحليلياً، فهو سيسلّط الضوء على حقيقة مأساة، ذلك لأنه يثبت أن نشأة وأبعاد وتمديد مشكلة بن لادن، إنما هي ببساطة خلاصة المعركة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. وتلك قضية واضحة بجلاء يعرفها أي شخص يمتلك الوقت الكافي لقراءة وتأمل عينة نموذجيّة من أي مصدر متاح قدمت فيه دراسات حول هذه القضايا.

إن النتائج التي قد يخلص إليها أي شخص حيادي من خلال هـذا العمـل، باعتقادي، ستشمل التالي:

- إن القادة الأميركيين يصرّون على رفض اعتبار ما يجري على أنه تمرد إسلامي عالمي، ونحن هنا لسنا بصدد محاربة الجريمة والإرهـاب، كمـا أن سياسـاتنا وعملياتنا لم تحقق إلا شرخاً بسيطاً في قوات العدو.
- إن القوة العسكريّة هي أداة أميركا الوحيدة الآن في الحرب، وستبقى كـذلك طالما استمر العمل بالسياسات الحالية. ولن تتمكن أي ديبلوماسيّة، أو إشـادة رئاسيّة بالإسلام، أو إقامة حوارات سياسيّة من تغطية حقيقة أن العديد مـن مسلمي العالم البالغ عددهم 1.3 مليار مسلم، يكرهوننا بسبب أفعالنا لا بسبب القيم التي نؤمن بها، فأي من تلك الحلول البديلة لن تتمكن من إنقاذ أميركـا وإخراجها من هذه الحرب.
- لقد كان بن لادن دقيقاً عندما أعلم أميركا بالأسباب التي دفعته لشنّ الحـرب عليها. لم تكن تلك الأسباب تتعلق بحريتنا وديموقراطيتنا، لكنها تتعلق بشـكل مباشر بسياسات أميركا وأفعالها في العالم الإسلامي.
- إن الحرب التي يشنّها بن لادن وثيقة الصلة بمعتقدات الدين الإسلامي. فهو لم يكن ليتوصل إلى النجاح الذي حقّقه اليوم - هذا النجاح المتزايد يوماً بعد يوم - لو لم يكن المسلمون على قناعة تامّة بأن دينهم، وإخوتهم، وثرواتهم تحـت تهديد الحرب التي تشنّها الولايات المتحدة؛ أو الغرب بشكل أعم. في الحقيقـة إن سياسة الولايات المتحدة وأفعالها هي الحليف الوحيد لبن لادن.
- إن نفط الخليج العربي، والغياب الخطير لتطوير الولايـات المتحـدة لمصـادر طاقة بديلة، هو في صميم قضية بن لادن. فسـعي واشـنطن والغـرب وراء نفط بخس الثمن هو السبب الـذي دفعهـا لـدعم حكومـات طاغيـة في البلاد الإسلاميّة، هذه الحكومات التي يناضل بن لادن وإسـلاميون آخـرون للقضاء عليها.
- قد تدوم هذه الحرب وتستمر لأجيال عدة، وأغلب الظنّ أن رحاها قد يـدور على أرض الولايات المتحدة.

ولأنه من الممكن استخلاص هذه الاستنتاجات البسيطة من الكتب الموجودة في المكتبات العامة والإنترنت، لذا فعلى الأميركيين أن يتساءلوا لماذا لم يتوصل قادتهم السياسيون، والعسكريون، ورؤساء أجهزة المخابرات، والإعلاميون إلى ذلك؟ إن الإجابة على هذا السؤال باعتقادي تتضح في نقطة أخرى أثارها روبرت باير، حيث جاء في كتابه *الشرّ بعيداً* "أعرف تماماً كيف يتعامل القادة في واشنطن مع هذا النوع من القضايا، لأنهم فعلوا كل ما بوسعهم لتكذيب من أتاهم بتلك المعلومات". يمكنني القول هنا وبكل الثقة، التي استمديتها من الأعوام الاثني وعشرين التي قضيتها في الأوساط الاستخباراتيّة، أن كلام السيد باير صحيح تماماً، إلا أن المشكلة أضخم وأعم بكثير مما يفترض. فهم يقومون بالتعتيم على تهديدات لا يريدون اتخاذ أي تدابير إزاءها، ويحافظون على الواجهة المزيفة التي توحي بأن التعاون في الأوساط الاستخباراتيّة هو أمر لا غبار عليه، حيث إنهم يخفون فشل وإهمال بعض الوكالات. كما أنهم يتجنبون النقاشات التي تمس الأمن القومي والتي تتطلب التركيز على قضايا سياسيّة حساسة كالدين، وإسرائيل، والسعوديّة. وأهمّ ما في ذلك أنهم يتجنبون المخاطرة باتخاذ أي خطوة من شأنها الحدّ من تقدمهم المهني وأعمالهم بعد الانتهاء من وظائفهم الحكوميّة وتطلعاتهم السياسيّة. لقد بذل معظم القادة الأميركيين في حقل الاستخبارات جهوداً حثيثة في سبيل تنحية معظم الضباط الذين أدركوا حجم التهديد الذي يمثله بن لادن قبل الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، حيث عملوا على إحالتهم إلى مراكز تدريب لغوي لا يمس العمل فيها قضايا مُتعلِّقة ببن لادن، أو استبعدوهم عن كافة الاجتماعات التي قد يكون فيها فرصة ولو ضئيلة لتقديم معلومات استخباراتيّة بنزاهة وصدق. غير أنه بعد الحادي عشر من سبتمبر، فشل هؤلاء القادة في مطابقة واستخدام النتائج التي جاء بها الضباط الخبراء والذين كان بإمكانهم تقديم معلومات غاية في الأهمّية بالنسبة للحرب ضد بن لادن. وقد رصد رالف بيترز - كعادته دائماً - تأثير جيلي على الأوساط الاستخباراتيّة عندما كتب الآتي: "بالمناسبة، إن إحدى مشكلاتنا مع وكالة الاستخبارات هي إداراتها التي يسيطر عليها رجال مهملون لا يحسنون التصرف، مجرد مبتدئين... إن شعار مؤسستنا الاستخباراتيّة العظيمة هو

'العبها بالسليم'. قد يحافظ هذا الموقف على مستقبلنا المهني إلا أنه لن يقدم أي شيء لبلدنا"[4].

إنني على يقين وأنا أكتب هذا الكتاب بأن القاعدة ستضرب الولايات المتحدة مرة أخرى في عقر دارها، وأن ضربتها الثانية ستخلّف دماراً أكبر من ذلك الذي خلفته في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، وقد يتم فيها استخدام أسلحة دمار شامل. وبعد الهجوم الثاني، سيطالب المواطنون الأميركيون المخدوعون وممثلوهم المنتخبون باقتلاع رؤوس رؤساء وكالات الاستخبارات. قد يكون عدم اقتلاع رؤوس أولئك الرؤساء بعد هجوم الحادي عشر من سبتمبر أكبر خطأ ارتكبناه.

أودّ أن أوضح من خلال هذا الكتاب - باستخدام معلومات متاحة للعامة - إنه لم يكن هناك في أي وقت من الأوقات، نقص في المعلومات حول طبيعة وجدّيّة تهديد بن لادن، وكل ما في الأمر هو غياب الشجاعة والجرأة للاعتراف بالحقيقة الكاملة أمام الملأ، ودون اعتبار لما قد يترتب من جراء قول الحقيقة على المستقبل المهني. لكن من المؤسف أن يرى الكثيرون من أبناء جيلي أن القيام بالمهمة التي يلقيها الواجب على عاتقهم هو أمر مستحيل. إن الواجب يرتكز على مصطلح "الجيل القادم" لقد كتب (كنت غرام) في هذا الصدد في كتابه غيتيسبرغ: *تأمل في الحرب والقيم*: "بما أن القيام بالواجب هو المطلب الأساسي لتحقيق مستقبل أفضل، وبما أن من يقوم بواجبه لا يكافأ في الغالب، وبما أن الواجب يتطلب تقديم التضحيات، وبما أن هذه التضحيات تُبْذَل في سبيل الجيل القادم، لذا فإننا اليوم نقدم الجيل القادم كتضحية لمتعتنا". إن فشل العديد من المسؤولين في تأدية واجبهم يكمن في صلب السبب الذي أودى بحياة ثلاثة آلاف أميركي في الحادي عشر من سبتمبر.

شكر وتقدير

أودّ أن أتقدم بالشكر الجزيل، وعلى وجه الخصوص لأربعة أشخاص وهيئات لما قدموه لي من مساعدة في إعداد هذا الكتاب.

أولاً: أودّ أن أشكر مديرة النشر الرائعة في دار براسي، السيدة كريستينا ديفيدسون التي آمنت بهذا العمل، وساندتني منذ البداية، والتي عملت جاهدة على حذف بعض التعابير القاسية التي تنم عن كراهيّة شديدة و لم يكن هناك من داعٍ لكتابتها، إضافة إلى إشارات ضمنيّة غير مباشرة كانت واضحة تماماً بالنسبة لي، لكنها كانت ستدخل القارئ في متاهات هو بغنى عنها. إن السيدة ديفيدسون شخصيّة صارمة وذكيّة، إلا أنها مراقِبة عمل لطيفة في الوقت ذاته، لقد أصبح كتابي بحالة أفضل مما كان عليه، وذلك بفضل الجهود الكبيرة التي بذلتها في هذا الخصوص. إنني أكنّ احتراماً كبيراً لمواهبها وصوابيّة رأيها، كما أنني أعتزّ بصداقتها.

ثانياً: أودّ أن أقدم تحية عطرة، كما فعلت في كتابي الأول، إلى ضباط الهيئة الفدراليّة لبث المعلومات. فأسامة بن لادن هو شخص متمسّك بكلامه بامتياز، حيث إنه يقرن أقواله بالأفعال على الدوام. لذا فإن العاملين في تلك الهيئة رجالاً ونساءً يعملون سبعة أيام في الأسبوع للتأكد من أن قادة بلادهم ومواطنيها لديهم وسيلة فوريّة ومضمونة ليكونوا على علم بكلمات بن لادن. حيث إن هذه الهيئة تقدم لقادة الولايات المتحدة كافة تصريحات بن لادن بحرفيتها، وهي خدمات لا يمكن لهيئات الإعلام التجاري المكتوب والإلكتروني حتى أن تقوم بمجرد محاولة تقديمها. فمنذ العام 1996 قام بن لادن علناً بوصف كل عمليّة ينوي القيام بها ضد الولايات المتحدة. وقد قامت تلك الهيئة الفدراليّة بإيصال كلماته بشكلٍ حرفي، وهو عمل يجب أن يفخر به ضباط الهيئة. وبالرغم من أن قادة المؤسسات الاستخباراتيّة لا يعيرون اهتماماً للمعلومات غير السرّية - والتي لا يهم كونها غير

سرّية – ففي نهاية الأمر، يجب أن يجد ضباط تلك الهيئة العزاء بمعرفتهم أنهم قد قدموا كل التحذيرات الممكنة حول نوايا بن لادن الخطيرة، وأدوا عملهم كأي هيئة أخرى. لكن من المؤسف أن ضباط الهيئة وكغيرهم في السلك الاستخباراتي قد وجدوا أنه من الممكن جرّ الحمار إلى النهر، لكن من غير الممكن إرغامه على الشرب.

ثالثاً: أودّ أن أشكر مجموعة صغيرة من الضباط الذين عملوا على إفشال أهداف بن لادن منذ العام 1996، وطوال تلك السنوات قدّمت هذه المجموعة – التي تتألف في معظمها من النساء – إلى الحكومة الأميركيّة فرصاً عديدة لإنهاء مشكلة بن لادن وقد قاموا بذلك دون كلل أو ملل وعلى حساب صحتهم، وحياتهم الزوجيّة، وترقياتهم المهنيّة، وعطلهم، والكثير من الأشياء الجميلة في الحياة. وتبقى هذه المجموعة اليوم هي أساس الجهود المبذولة لهزيمة بن لادن. إلا أن تلك النسوة كن عرضة لانتقادات ساخرة وذلك في ربيع عام 2004 من أحد الضباط ذوي المراكز العالية في وكالة الاستخبارات، وذلك بسبب تسرب معلومات سرّية من جهتهن إلى صحفي في واشنطن قام بنشر المعلومات مما سبب لهن ألماً عميقاً لا تستحقنه. والكلمة الوحيدة التي يمكنها وصف هذه الانتقادات وأولئك الذين وافقوا عليها هي الحقارة... وإذا تسنى لي أن أكتب ثانية عن موضوع بن لادن فسيكون ذلك للدفاع عن الضابطات ولأقوم بفضح كلام الذين أساؤوا إليهن كي يعرف العالم أجمع أكاذيبهم وافتراءاتهم. كما أنني سأفعل ذلك بشكل خاص كي أخبر كل المواطنين الأميركيين عن تلك المجموعة الوحيدة من مواطنيهم والتي تبذل كل ما بوسعها للدفاع عنهم والتي حققت أكثر من نجاح في هذا الشأن، تلك المجموعة التي خانها الجبن الأخلاقي الذي سيطر على العديد من القادة.

وأخيراً، أودّ أن أتقدم بالشكر إلى كل من هاري، وجو، وتشارلي، وديف الذين ذكرتهم في إهدائي، وذلك لكل ما علموني إياه. إن هؤلاء الرجال يتمتعون بنزاهة واستقامة في العمل، وعدل في إطلاق الأحكام، وتعاطف وقياديّة نادرة الوجود. كما أنهم يمثلون تذكيراً مؤلماً كيف أن أمثالهم لا يشكلون إلا قلة

قليلة آخذة في الاندثار اليوم في أميركا التي كانت في يوم من الأيام تمثل وطناً لأمثال أولئك الرجال. إن هؤلاء الأربعة كانوا ليشعروا بالانتماء الكامل لجيل والدي من أولئك الأميركيين العاديين الذين قاموا بواجبهم ببساطة في معاناتهم الشديدة في وادي فورج عندما أنقذوا وحدة أميركا وقضوا على العبوديّة، وقاتلوا جنباً إلى جنب مع (لي) حتى النهاية في (أبوماتوكس) إلى أن ألقوا القبض على (إيووجيما) ووقفوا وقفة عزّ عندما قاتلوا في فييتنام بعد أن تخلى عنهم معظم أبناء جيلي. هذا هو أكبر إطراء يمكنني أن أقدمه لكم. أدعو لربي أن يحفظكم أجمعين.

مقدمة:

"عجرفة تلتها هزيمة"

الجمهوريّة الواثقة الخطى والتي لا تقلقها أي هموم - تلك المدينة الواقعة أعلى التلة، والتي لطالما ظن أهلها أنهم محصنون من بطش التاريخ بهم - أصبحت الآن وجهاً لوجه ليس فقط مع قدر إمبريالي معالم نهايته غير واضحة، بل مع احتمال ضعيف بدا وكأنه يطارد تاريخ الإمبراطوريّة أيضاً، ألا وهو: عجرفة تتبعها هزيمة.

مايكل اغناتييف، 2003[1].

في الوقت الذي أقوم فيه بإتمام هذا الكتاب، لا تزال قوات التحالف الأميركي البريطاني إلى جانب قوات أخرى، تحاول السيطرة على ولايات لا يمكن السيطرة عليها على ما يبدو، في مرحلة ما بعد الحرب في أفغانستان والعراق، وتحاول في الوقت ذاته الوقوف في وجه مدّ حركات التمرّد الإسلاميّة الأصوليّة - وفي كل مرة يطلق قادتنا على هذا الفشل الذريع صفة النصر الساحق. وبإدارة الولايات المتحدة وسياساتها لعمليات كهذه والحملات العسكريّة التقليديّة التي تسبقها، فهي بذلك تحوّل العالم الإسلامي إلى عالم متطرّف، وهو هدف لطالما حاول أسامة بن لادن تحقيقه منذ أوائل التسعينات ونجح في ذلك إلى حدٍّ ما، لكن نجاحه لم يكتمل بعد. وفي النهاية - وبحسب اعتقادي - يمكننا أن نستخلص أن الولايات المتحدة الأميركيّة تبقى الحليف الوحيد والأقوى لبن لادن.

يغفل القادة الأميركيون كعادتهم عن هذه الحقيقة وعن التهديد الرهيب الذي يمثله بن لادن لأميركا، وذلك باتباعهم سياسات تجعل أميركا أقل أمناً وطمأنينة من أي وقت مضى. فهم يرفضون، على حدّ تعبير نيكولاس كريستوف، تعلّم درس حرب طروادة، فقد جاء في مقال عبقري كتبه في النيويورك تايمز: "يجب على السلطة العليا أن تستمع لوجهات النظر المشكّكة، وذلك لتجنب الوقوع في نشوة

الكبرياء المدمرة، والجهل المفرط الذي قد يشوش تفكير القوي..."[2]. فبدلاً من مواجهة الحقيقة، يتصرف القادة، ورجال النخبة، والإعلام الأميركي الذين أعماهم الغرور، واحتجزوا خلف جدار لا يمكن اختراقه من السياسة المحافظة والجبن اللاأخلاقي، بسذاجة وتكبّر كمشجعات في لعبة كرة سلة، وهم يلهثون وراء تطبيق القيم الغربيّة ويزجون بأنفسهم في عمليات عسكريّة خارجيّة عقيمة دون أي رادع أو أحد يضع حداً لجبروتهم ويطلقون عليها أسماء كالضربة القاسية، والحرّية الباقية، وتصميم الشتاء، وضربة الجبل الكارباثي، والعدالة اللامحدودة، والهجوم الباسل، والحارس اليقظ. وبينما يتعاظم الشعور بكراهيّة الأميركيين الذي تغذيه القاعدة في أوساط العالم الإسلامي، يتبجح القادة الأميركيون بقدرتهم على إنتاج ديموقراطيّة في أي مكان يختارونه، ويتجاهلون بذلك تاريخ المنطقة، كما جاء في كتاب ستانلي كيرتز *نقد السياسة* حيث ذكرهم بذلك: "وغاب عنهم

> النظر في تحذير هوبز الذي يقول إنه ليس هناك ما هو أكثر تدميراً للسلام من الغرور... وإذا افترضنا بمقياس أكبر أن السلام العالمي يتهدده غرور دولة ما، فلا بد أن السياسة الخارجيّة لتلك الدولة التي تسيطر عليها 'مجموعة من المغرورين' الذين يريدون فرض قوانينهم على العالم بأسره وفقاً لأهوائهم دون النظر إلى الاعتبارات المحليّة والحضاريّة الخاصة بكل مكان، ستؤدي حتماً إلى نشوب حرب خطيرة ضدها وكفاح يهدف للقضاء عليها.

إن الحرب على أفغانستان كانت ضروريّة، لكننا خسرناها بسبب عجرفتنا. فأولئك الذين فشلوا في إحلال السلام في أفغانستان بعد العام 1992، يكررون اليوم فشلهم وذلك بتشكيل هيئات حكوميّة ودستور جديد في كابل ليظهروا للعالم ولادة الديموقراطيّة، والتسامح الديني، وحقوق للمرأة بثوب غربي، بما يتنافى وحضارة الأفغان القبليّة والسياسيّة. إن كل تلك الأفكار الحديثة لم تجد إلا فئة قليلة وغير مسلّحة لتناصرها وتتبناها. إننا لم ننجح إلا في خداع أنفسنا. نعم، من المؤكد أن بعض الأفغان يريدون أن يكونوا مثلنا. وقد قمنا، بسبب تراجعنا عن العمليات العسكريّة الفعّالة ضد الأعداد المتزايدة من حركات التمرّد المناهضة للأميركيين، بإتاحة الفرصة للقاعدة وطالبان بإعادة التجمع والتنظيم. وهم يعدون العدة اليوم لتمرّد ستزداد قوته وتأثيره بشكل تدريجي كما سيكسب دعماً شعبياً كبيراً، مما

سيضع واشنطن أمام خيارين لا ثالث لهما، إما تصعيد العمل العسكري أو الجلاء عن أفغانستان بشكل نهائي. في الواقع، لم نقم نحن أو خلفاء كرزاي ببناء أي قاعدة سياسيّة أو اقتصاديّة في أفغانستان يمكنها الصمود والاستمرار بعد انسحاب قوات الناتو والقوات الأميركيّة. وما النظام الذي نشيد به ونشجعه اليوم على أنه نظام ديموقراطي أفغاني وليد - وذلك لعجرفتنا اللامحدودة - إلا وهمٌ من نسج خيالنا يعتمد في بقائه على قيد الحياة على أنابيب الإنعاش التي نمدّه بها، وهو في حقيقته نظام فرضه الغرب، سيتم اقتلاعه بالقوة إذا ما قامت أميركا وحلفاؤها بقطع الإنعاش عنه.

أما في ما يتعلق بالعراق، فيمكنني القول وبكل صراحة إنني أمقت بشدة الحروب الوقائيّة، كتلك التي قمنا بشنّها على العراق، حيث إن ذلك لم يكن من شيم أميركا على الإطلاق وذلك نظراً لتاريخنا، وحسّنا الأخلاقي، وحتى مبادئنا السلوكيّة الأساسيّة. وذلك لا يعني أبداً أنني لا أؤمن بأن الإجراءات الاحترازيّة هي خطوة ملحّة عندما يكون هناك خطر مباشر يتهددنا. وفي تاريخنا كله لم نكن أحوج لاتخاذ إجراءات احترازيّة مما كنا عليه في العقد الماضي وذلك لمقاومة الخطر الوشيك والمهلك الذي يمثله بن لادن والقاعدة، وحلفائهما. لكن غزو الولايات المتحدة للعراق لم يكن إجراءً احترازياً، بل كان كحربنا في المكسيك عام 1846 - حرب اغتصاب مع سبق الإصرار دون أي استفزاز من الخصم الذي لم يشكّل أي خطر مباشر لكن هزيمته قدّمت لنا امتيازات اقتصاديّة. "إن هذه الحرب لم تفرض علينا بل نحن الذين اخترنا خوضها بملء إرادتنا على الرغم من إنكار البيت الأبيض المستمر لهذه الحقيقة". هذا ما جاء في مقال كتبه البروفيسور في جامعة بوسطن، آندرو. جي. بيسفيتش، في صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*. وقد كتب في المقال أيضاً: "إن الولايات المتحدة لم تعد ترى أن استخدام القوة هو آخر حل تلجأ إليه. وهذا ما يدعى بالتسلط العسكري".

إنني لا أهدف إلى مناقشة الحاجة أو الأخلاقيات التي دعت إلى شنّ الحرب على العراق، فقد فات الأوان على ذلك، لكننا قمنا بشنّ هذه الحرب لأننا نظرنا إلى العراق بعينين تعميهما العجرفة والوهم لا الحقيقة. إلا أن ما أودّ قوله هو أننا

قمنا ببساطة باختيار التوقيت غير المناسب لخوض هذه الحرب من حيث مصلحة الأمن القومي لأميركا - هذا المصطلح القديم الذي لم يعدّ عصرياً والذي تم تجاهله كثيراً على اعتبار أن المصالح القوميّة هي مسألة حياة أو موت. وعلاوة على ذلك فإن اختيارنا لهذا التوقيت، يظهر فشلاً ذريعاً بل ومقصوداً من حيث التقدير السليم للقوة الأيديولوجيّة القاتلة، وإمكانيّة تعاظم الخطر المتجسد بأسامة بن لادن، بالإضافة إلى الدفع الذي تلقاه هذا الخطر بسبب الهجوم الذي قادته الولايات المتحدة واحتلال العراق المسلم. في هذا المعرض أميل إلى الاعتقاد بأنه في الوقت الذي كان علينا مواجهة حركات التمرّد المتزايدة في أفغانستان منذ أوائل العام 2003، كان يمكننا الاستفادة في ما يتعلق بموضوع العراق من نصيحة الرئيس لنكولن لوزير خارجيته ويليام هنري سيوارد في ربيع العام 1861، وذلك عندما اقترح الوزير سيوارد شنّ حرب ضد فرنسا وبريطانيا من أجل توحيد الشمال والجنوب لمواجهة عدو مشترك، حيث قال له الرئيس لينكولن بحكمة: "سيد سيوارد، لنهتم بحرب واحدة الآن"[5].

وبما أني أرفض أن أصدق - مع بعض الاستثناءات - أن القادة الأميركيين الحاليين ليسوا إلا زمرة من الأغبياء أو أنني أفوقهم ذكاء، لذا فإنه لا يسعني إلا أن أخلص إلى أنهم، ولسبب ما، يرفضون أو لا يستطيعون تقدير حجم بن لادن بشكل صحيح. ولإيماني واعتقادي الشديد أنني على علم تام بما يعنيه بن لادن، فإنني أقوم بمحاولة ثانية هنا - الأولى كانت في كتاب عنوانه *النظر من خلال عيون أعدائنا*: أسامة بن لادن والأصوليّة الإسلاميّة ومستقبل أميركا - لشرح الأخطار التي تواجهها بلادنا تحت تهديد القوى التي يقودها ويلهمها هذا الرجل المميز بحق، وذلك من جرّاء الحرب العقيمة التي تشنّها أميركا ضده.

إن فرضيتي التي أطرحها هنا هي نفس الفرضيّة التي كانت محور كتابي *النظر من خلال عيون أعدائنا* وهي تفيد بأن الأفكار هي التي تصنع التاريخ وهي، بحسب كلمات بيري ميللر المؤرخ الأميركي للتطهيريّة - البيوريتانيّة قواعد أساسيّة متلاحمة منطقياً تشكل المحرك الرئيسي للسلوك البشري[6]. باختصار، تقوم فرضيتي على أن الخطر الذي يمثله أسامة بن لادن يكمن في منطقيّة ووحدة أفكاره، ودقة

صياغتها، والعمليات الحربيّة التي يقوم بها لزرع تلك الأفكار. إن أفكار بن لادن ذات أسس راسخة مستقاة من معتقدات الدين الإسلامي، تزيد من قوته وخطورته وهي خطوط مقدسة، يعرفها تماماً معظم مسلمي العالم الذين يربو عددهم على المليار والذين يعيشون على هذه التعاليم ويتخذونها أساساً لحياتهم اليوميّة. إلا أنه يمكنني القول إن عموميّة الأفكار الدينيّة ونمط الحياة الذي تشكله، تزوّد بن لادن وغيره من المسلمين المتطرفين بطريقة مشتركة لفهم الأحداث العالميّة والتعامل معها. وقد وضّح ذلك البروفيسور بيرنارد لويس بقوله: "إن الإسلام ليس دين إيمان وعمل فحسب، بل هو هوية وولاء أيضاً. وهو بالنسبة للكثيرين هوية وولاء أكثر من أي شيء آخر"[7]. إلا أن المهم في الأمر هو أن بن لادن ومعظم مسلمي العالم، سواء كانوا من أنصار الطريقة العسكريّة التي يتبعها في الردّ على المقاصد الأميركيّة أم لا يتشاركون معه في فهم هذه المقاصد والنوايا. وقد جاء في مقال كتبه الصحفي البريطاني روبرت فيسك في أواخر العام 2002: "قد يستنكر العرب العنف الذي يقوم به بن لادن، إلا أن قلة منهم قد لا يشعرون بالتعاطف معه. ففي دوامة الوحشيّة التي تمارسها إسرائيل ضد الفلسطينيين، وتهديدات أميركا بغزو العراق، هناك عربي واحد على الأقل مستعد للردّ بنفس العنف"[8].

وفي سياق الأفكار المشتركة بين بن لادن وإخوته في الإسلام، فإنهم يعتبرون العمليات العسكريّة التي تنفذها القاعدة وحلفاؤها عمليات حربيّة وليست عمليات إرهابيّة، وهي جزء من الجهاد الدفاعي الذي فرضته كلمة الله الواضحة والصريحة كما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي محمد (ص). ومن شأن هذه الهجمات تحقيق أهداف السياسة الخارجيّة لبن لادن والتي تتسم بكونها واضحة، ودقيقة، ومحددة وذات تشجيع شعبي قوي وهذه الأهداف هي: إنهاء مساعدة الولايات المتحدة لإسرائيل والقضاء بشكل كامل على الكيان الإسرائيلي، سحب القوات الأميركيّة وغيرها من القوات الغربيّة من أراضي شبه الجزيرة العربيّة، وسحب القوات العسكريّة الأميركيّة وغيرها من القوات العسكريّة الغربيّة من العراق وأفغانستان والأراضي الإسلاميّة الأخرى، وإنهاء دعم الولايات المتحدة لقمع المسلمين في الصين وروسيا والهند، وإنهاء الحماية الأميركيّة للأنظمة المرتدة عن الإسلام في ...،

و...، و...، و... إلخ والحفاظ على مصادر الطاقة العالميّة التي بين يدي المسلمين وبيعها بأسعار أعلى. ولتحقيق هذه الأهداف، سيقوم بن لادن بتوجيه ضربات أقوى في الولايات المتحدة ويعززها في مناطق أخرى بضربات تقوم بها القاعدة أو أحد حلفائها، وذلك لإجبار أميركا على تغيير قراراتها المتعلقة بدعم إسرائيل، والحكام المرتدين عن الإسلام، ولدفعها على مغادرة القواعد العسكرية التي أقامتها في بلاد المسلمين، ورفع ضغوطها التي تؤدي إلى تدني أسعار النفط التي تعود عليها بالفائدة. إن بن لادن يسعى بكل قوته لتغيير سياسات أميركا والغرب إزاء العالم الإسلامي. وهذا لا يستدعي بالضرورة أنه يسعى إلى تدمير أميركا أو حتى الاقتراب من حرياتها. فهو محارب عملي وليس إرهابياً يدّعي التبصر لاهثاً وراء معركة الفصل بين قوى الخير وقوى الشر. وفي حال لم تقم أميركا بتغيير سياساتها، فستستمر الحرب بينها وبين الإسلاميين المتشددين في المستقبل القريب. عندئذ لا يمكن لأحد أن يتكهن بحجم الضرر الذي سينتج عن التزام أميركا الأعمى بالسياسات الفاشلة العقيمة أو عن افتقارها للشجاعة الأخلاقيّة التي باتت واضحة الآن في فشل سياسيي الولايات المتحدة لأكثر من ثلاثين عاماً في إعادة النظر وتغيير السياسة المتبعة إزاء الشرق الأوسط، ونقل أميركا إلى مرحلة جديدة من الاكتفاء الذاتي من الطاقة وأنواع الوقود البديلة.

بالرغم من أن فرضيتي لم تتغير، إلا أن هذا الكتاب يختلف عن كتابي الأخير من حيث شموليّة البحث. فعندما كتبت *النظر من خلال عيون أعدائنا* فاتتني مصادر بحث ذات صلة، وذلك بسبب الشبكة العنكبوتيّة التي لم أتمكن من الإمساك بكل خيوطها مع أنني وسّعت نطاق بحثي، وألقيت بشبكتي إلى أبعد الأمكنة. غير أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 أنتجت كمّاً هائلاً من الدراسات والنظريات الجديدة حول بن لادن، والقاعدة، وعلاقات أميركا مع العالم الإسلامي لدرجة أن تغطية تلك الأحداث بكتاب واحد يعدّ باعتقادي أمراً غير منطقي. كما أن نوعيّة المصادر والأبحاث الغزيرة اختلفت من حيث جودتها، فمنها ما كان ممتازاً والكثير كان جيداً أو مقبولاً، لكن كانت هناك أبحاث غبيّة وتافهة، فعلى سبيل المثال كان هناك تحليل ربط غضب وعنف بن لادن والإسلاميين الأصوليين تجاه

الغرب بالكبت الجنسي للذكور في الحضارة الإسلاميّة.

إن هذا العدد الكبير والمتزايد من الأبحاث الجديدة ينفي أي مزاعم من جهتي بأنني قد قمت بمراجعة كاملة لكل ما كتب عن بن لادن بعد الحادي عشر من سبتمبر. حيث إنني في كتابي الأول قمت بدراسة كل ما قاله بن لادن الذي أدلى بالعديد من التصاريح في هذا الصدد. وبالإضافة إلى هذا المصدر الأساسي الذي استمديت منه مراجعي، قمت بالاستعانة بتصريحات أيمن الظواهري، وهو الساعد الأيمن لبن لادن، وسليمان أبو غيث وهو باحث إسلامي كويتي محترم والناطق الرسمي باسم القاعدة، ومجموعة ممتازة من المقالات، والدراسات، والافتتاحيات الموجودة في ثلاثة مواقع على الإنترنت بدا لي أنها على صلة وثيقة بن لادن وهي: الأنصار، والنداء، والإصلاح. ويبدو أن الموقعين الأولين هما من تصميم وإنجاز أو على الأقل متأثرين بشكل كبير بقادة القاعدة، أما الثالث فهو موقع لسعد الفقيه وهو معارض سعودي يعيش في المملكة المتحدة ينتمي إلى حركة الإصلاح الإسلامي في السعودية، والتي تبث اليوم برامجها عبر قنوات راديو وتلفزيون فضائيّة عندما لا يتم التشويش عليها. إن المعلومات الموجودة على تلك المواقع متاحة لأي مسلم، في الحقيقة يمكن لأي شخص لديه اتصال بالإنترنت أن يطلع عليها. وتحرص هذه المواقع على تفسير وتوضيح لكل كلمات بن لادن بشكل مثير للإعجاب، وهي أساسيّة ولا غنى عنها لفهم وجهات نظر القاعدة للعالم ومقاصدها الرئيسيّة. أما آخر مصادر المعلومات التي اعتمدت عليها في دراستي هذه فهي مأخوذة من الكتابات التي تعود إلى ما بعد الحادي عشر من سبتمبر والتي كتبها الغربيون والمسلمون من مؤرخين، ومراسلين، وصحافيين، ومفكرين، ومعلقين، وقادة سياسيين. لقد حاولت أن أدرس مجموعة مختارة من الكتابات انتقيتها من بين هذا الكمّ الهائل من الأبحاث والدراسات التي كتبت في هذا الصدد، دون أن يكون لدي ضمان لنجاحي في ذلك إلا أن أقول إنني استخدمت ما بدا لي الأفضل.

كما أن الخطة التي اتبعتها في هذا الكتاب تختلف عن كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا*. حيث إنني عملت جاهداً في تلك الدراسة على ترتيب أفكار بن لادن وحياته بشكل زمني، إلا أنني عمدت هذه المرّة إلى تقسيم الكتاب إلى فصول

كل منها خاص بموضوع معين وفقاً لمقاربتي لهذا الموضوع، كالحرب التي شنّتها الولايات المتحدة على أفغانستان، وتحليل الخسائر والمكاسب في الحرب الدائرة بين أميركا والقاعدة وحلفائها منذ العام 2001 وحتى العام 2004، ومدى تأثير الأحداث العالميّة على الصراع بين الولايات المتحدة والإسلام، والأثر السلبي لعجرفة أميركا وسياستها التقليديّة على فهمها لبن لادن وقدرتها على التغلب على القوات التي يقودها.

كما أنني حاولت تحسين صورة بن لادن، وأفكاره، وكيف يراه الآخرون من مسلمين وغربيين. وعليّ أيضاً لفت نظر القارئ إلى نقطة هامة، وهي أن هذا الكتاب يحتوي على وجهات نظر شخصيّة أكثر من كتابي الأول وذلك اعتماداً على قراءتي لمصادر البحث والدراسات التاريخيّة والتي تكملها خبرة أكثر من عشرين عاماً في العمل في الأوساط الاستخباراتيّة الأميركيّة. إن تعليقاتي في هذا الكتاب غاضبة واتهاميّة في بعض الأحيان، حيث إنها تعكس إيماني العميق بأن حياة أبنائي وأحفادي في خطر، لأن معظم أبناء جيلي فشلوا عن عمد في فهم ومواجهة الخطر الذي تواجهه أميركا والمتمثل ببن لادن وحلفائه من المتشددين الإسلاميين.

وأخيراً، سأحاول الإشارة إلى العثرات والأخطاء في التقدير التي انطوى عليها كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا*، إن أحد الأخطاء في تقييم القاعدة يكمن في فهم أهمية الإنترنت بالنسبة للمجموعة. وقد أثار الصحفي روبرت. دي. كابلان هذه النقطة في الرسائل المتبادلة في النزاع والحرب التي تلت اختراع الطباعة حيث قال: "إن انتشار المعلومات على نطاق واسع لن يقوم بالضرورة بتشجيع الأمن والاستقرار". كما جاء في كتاب كابلان *سياسات محارب: لماذا تتطلب القياديّة أخلاقيات وثنيّة* "إن اختراع يوهان غوتنبرغ لأحرف الطباعة في أواسط القرن الخامس عشر لم يؤد إلى نشوء حركة الإصلاح الديني فقط، بل إلى الحروب الدينيّة التي تلتها أيضاً. حيث أدى الانتشار المفاجئ للنصوص إلى إثارة جدل مذهبي وإيقاظ أحقاد قديمة كانت طيّ النسيان"[9]. إنني أودّ أن أفسر هنا كيف أن النصوص العسكريّة والدينيّة لتنظيم القاعدة والمنشورة على

الإنترنت - وهي اليوم بمثابة أحرف الطباعة - تقوم بدور المحرك الذي يعمل على نمو عناصر المجموعة بشكل مطرد، ويزيد من طاقتها العسكريّة، كما أنه يستحث المسلمين على الجهاد.

إنني مسؤول بشكل كامل عن أي أخطاء قد ترد هنا، لكن بما أنني لا أنوي أن أكتب ثانية في هذا الموضوع، لذا سيكون على الآخرين تصحيحها. لكن في نهاية الأمر، إذا استمر القادة الأميركيون في الاستخفاف بالقاعدة، فقد يرى بن لادن عندها حاجة في أن يصحح معلوماتهم. ولست متفائلاً بما قد يحدث. وقد جاء في الكتاب الرائع لرالف بيترز *القتال من أجل المستقبل: هل ستنتصر أميركا؟* "إن كل الديانات العظمى تحذر متبعيها من خطر الغرور، وذلك من خلال استنكار خطيئة الغرور، أو الإصرار على أن التواضع فقط يمكنه أن يقود إلى التنور. إن في زحمة بعدنا عن الدين، سواء كان عملنا هذا خطأً أم صواباً، قد فقدنا دون شك نفاذ البصيرة في ما يخص هذا الأمر بالذات"[10]. ومن المؤسف أنه ليس هناك أي إشارة تنبئ بأننا ستزيل هذه الغشاوة عن أعيننا إلا إذا حررتنا منها قدرة إلهيّة، كما أنني أخشى أن القاعدة ترى العالم بصورة أوضح منا. فقد أتى في خطاب لأيمن الظواهري ألقاه في أواخر العام 2003: "**ونحمد الله إليكم أن أقر أعيننا برؤية الأميركيين في العراق من بعد أفغانستان والأميركيين في كلا البلدين بين نارين فإذا انسحبوا خسروا كل شيء وإذا بقوا استمر نزيفهم حتى الموت**"[11].



1

بعض الأفكار حول قوة الكراهيّة التي تقوم على مبدأ وحافز يغذيها

في زمن يتسم بالتوتر المتزايد، والأيديولوجيات المهزوزة، والولاءات الضعيفة، والمؤسسات المنحلة، هناك أيديولوجيّة جاءت بقوانين إسلاميّة وقدّمت ميزات عديدة وهي قاعدة عاطفيّة مألوفة لهوية جماعيّة وتضامن واستثناءات إضافة إلى قاعدة مقبولة من الشرعيّة، والسلطة، والقوة وصيغة مفهومة بشكل مباشر من المبادئ والأسس تقدم نقداً للحاضر وبرنامجاً للمستقبل في الوقت ذاته. بالربط بين كل ما سبق، يمكن للإسلام أن يقدم الرموز الأكثر فاعليّة للتعبئة سواء لنصرة قضية، أو نظام ما، أو لإسقاطه.

برنارد لويس، 2002[1].

إذا كان هناك قوة وحيدة يستخف بها الغرب، فهي دون شك قوة الكراهيّة الجماعيّة.

رالف بيترز 1999[2].

في المواجهة بين أميركا من جهة، وبين بن لادن والقاعدة وحلفائهما والعالم الإسلامي من جهة ثانية، هناك مثال واضح بشكل جلي يظهر كيف أن حب الإنسان بعنف والعاطفة القويّة يمكنهما أن يولدا كراهيّة كبيرة ويوجهاها في الوقت نفسه إلى الأشياء المهددة. إن هذه الكراهيّة هي التي تشكّل وتكوّن ردود الأفعال في العالم الإسلامي إزاء السياسات الأميركيّة وتطبيقاتها، ويستحيل فهم الخطر الذي يهدد أميركا ما لم يتم الاعتراف بشدة وكليّة هذه الكراهيّة.

في البدء، أريد الآن تجنب النقاش في قضية أن بن لادن يدعو الناس إلى تطبيق

الإسلام بطريقة مغلوطة يؤمن بها ويطبّقها بنفسه وما إلى ذلك من ادعاءات يطلقها غير المسلمين بشكل خاص، حيث يشيرون إلى أنه ليس سوى قاتل مختل يستغل الدين كحجة لتبرير أفعاله. وبالرغم من أنني أعرف تماماً بطلان هذه الادعاءات، إلا أنني لست بصدد تكذيبها في هذا المعرض. وأطلب من القارئ أن يُعلّق حكمه ويتأمل كيف يحب بن لادن والمسلمون الآخرون - أولئك الذين يدعمون عمليات بن لادن، وغيرهم ممن يدينون عملياته العسكريّة - ربهم، ودينهم، وإخوانهم في الدين بأسلوب عاطفي عميق لم يسبق لي أن عرفته من قبل، وأعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة للكثيرين في أميركا والغرب بشكل عام. إنني لا أقصد بقولي هذا أن الغربيين لا يحبون ربهم، ودينهم، وإخوانهم في الدين، فعلى سبيل المثال، يؤمن المسيحيون الإنجيليون بربهم، ويحبون إخوانهم الإنجيليين بطريقة مماثلة للإسلاميين المتشددين، إلا أنه ينقصهم حمل السلاح دفاعاً عن ربهم كي يكونوا كالمسلمين المتشددين. لكن لا يعيش الإنجيليون أنفسهم بشكل خالص لدينهم أو يحبونه بنفس العاطفة القويّة والعنيفة التي يشعر بها بن لادن والعديد من المسلمين، وذلك يعود أساساً لأنهم وغيرهم من المسيحيين يقبلون النظام التشريعي الأميركي والأوروبي الذي يفصل بين الكنيسة والدولة. وعلى الرغم من أن المسيحيين الإنجيليين يودون أن يكون للإنجيل تأثير أكبر على سلوك الدولة، إلا أن أي قائد سياسي إنجيلي أو أي قائد مسيحي لم يقم بالمطالبة بقيام دول غربيّة ثيوقراطيّة.

يعتقد معظم المسلمين - ومنهم بن لادن الذي يمثل الاتجاه الإسلامي المتشدد - أن فصل الدين عن الدولة هو ارتداد عن الدين. وقد جاء في رسالة وجهها إلى الأميركيين في أواخر العام 2002 انتقدهم فيها قائلاً: "**أنتم أمة قد اختارت الانصياع إلى قوانينها التافهة بدلاً من تنفيذ قوانين الله، وبعملكم هذا اتبعتم أهواءكم وشهواتكم الدنيويّة. إنكم تقودون مجتمعاً ينافي الفطرة البشريّة بفصلكم الدين عن السياسة**"[3] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). إن الأمر بالنسبة للمسلمين يتلخص في أن كلمة الله - كما جاءت في القرآن - وسنّة رسوله هي التي تقودهم في كل نواحي الحياة الشخصيّة، والعائليّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والخارجيّة العالميّة. إن الله عزّ وجل هو الذي يضع قوانين الحياة لا الإنسان. وقد وضّح ذلك

البروفيسور لويس بقوله: "إن فكرة وجود أي مجموعة من الأشخاص وأي نوع من النشاطات أو الفعاليات وأي جزء من الحياة الإنسانيّة خارج نطاق القانون أو السلطة الدينيّة، هو غريب عن الفكر الإسلامي"[4]. لذا فإن أي شيء يبدو وكأنه يهاجم مقدرة المسلمين أو حقهم في ممارسة هذا الواجب الذي فرضه الله عليهم بأن يعيشوا حياتهم وفقاً لقانونه، يعتبر بنظرهم عملاً حربياً موجهاً ضدهم، وهم يرونه على المستوى الشخصي هجوماً على دين يحبونه بشدة فقدها المسيحيون منذ أن أرسل البابا أوربان الثاني الصليبيين إلى المشرق بعد أن وعدهم "بغفران خطايا كل المسيحيين الذين يقاتلون المسلمين"، ومنذ عصر الحروب التي صاحبت حركة الإصلاح البروتستانتي.

هذا بالإضافة إلى أن الحب الذي يكنّه المسلمون والاحترام العميق لله ورسوله، يساعد على تفسير الأهميّة الكبيرة التي يعلقونها على الملاحظات السلبيّة حول الإسلام والنبي محمد (ص)، والتي يدلي بها رجال الدين من الأميركيين البروتستانت، وبشكل خاص أولئك الذين لهم صلة مباشرة بخدمة مصالح الإدارة الأميركيّة. إن التعليقات الإكليركيّة التي لا يعطها الأميركيون أهمية كافية، يأخذها المسلمون على أنها تهديد مباشر لهم، لأن معاييرهم المجتمعيّة هي من النوع الذي لا يوجد فيه فصل بين الدين والدولة. لذا فإن الكلمات التي لا وزن لها في المجتمع والسياسة الأميركيّة، لها وقع يسمعه المسلمون ويتذكرونه، كما يعتبرها العالم الإسلامي تهديداً وعدم احترام لمقدساته، مما يزيد من كراهيّة المسلمين لأميركا. فعندما يقول بات روبرتسون: "لقد كان أدولف هتلر إنساناً سيئاً لكن ما يفعله المسلمون باليهود هو أسوأ مما فعله هتلر"[5]. وعندما يشير الأب جيري فالويل في كلامه عن النبي محمد (ص) أنه "إرهابي"[6]. وعندما يقول جيمي سواغارت في صلاته: "ليبارك الله أولئك الذين يباركون إسرائيل ويحفظونها ويلعن أولئك الذين يلعنونها"[7]. وعندما يقول الأب فرانكلين غراهام عن الإسلام أنه "دين شرير" كما يقول إن المسيحيّة والإسلام "يختلفان عن بعضهما اختلاف النور والظلام"[8]. عندما يسمع المسلمون كل ذلك، فهم يرون أن "الإسلام لم يتعرض لمثل هذه الحملة المسعورة من الإهانات منذ قرون طويلة"[9] ومما يزيد من انزعاج المسلمين هو أن هذه التصاريح تصدر عن رجال دين يتولون مناصب عليا في

الكنيسة، وهم مقربون من الإدارة الأميركيّة لذا فهم يستنتجون أن "تصريحاتهم هي ذات تأثير كبير على شريحة كبيرة من المجتمع الأميركي"[10]. وهكذا فإن كلمات تعد بريئة وبسيطة بالنسبة للأميركيين، تُفسر على أنها اعتداء مسيحي - يهودي صارخ على الأشياء الأغلى على قلوب المسلمين. "إن لدى الولايات المتحدة رؤية خاصة وهدفاً واضحاً تسعى لتحقيقه لنفسها ولحليفتها إسرائيل"، هذا ما كتبه عاطف عدوان، وهو بروفيسور يدرّس العلوم السياسيّة في الجامعة الإسلاميّة في غزة، وذلك لتفسير مغزى كلمات رجال الدين الأميركيين في سياق الغزو الأميركي للعراق في مارس من العام 2003.

وتابع ذلك موضحاً: "تعتمد هذه الرؤية على تقسيم منطقة الشرق الأوسط إلى دويلات صغيرة، وضعيفة، وغير قادرة ولا يمكنها أن تشكل أي تهديد لإسرائيل، وتعتمد أيضاً على إعادة رسم خارطة المنطقة على ذلك الأساس. كما تتضمن تلك الرؤية تحقيق أهداف دينيّة، حيث أن سياسات الولايات المتحدة الجديدة، في عهد الرئيس جورج دبليو بوش على وجه الخصوص، ترتكز على رؤى توراتيّة. وهذا لا يعني أنه ليس ثمة مصالح ومكاسب اقتصاديّة ستتحقق من جراء ذلك أيضاً. إلا أن هذه المصالح الاقتصاديّة تسير جنباً إلى جنب مع أهداف واشنطن الدينيّة".

لقد لعبت إسرائيل والحركة الصهيونيّة المسيحيّة دوراً كبيراً في تسيير دفة السياسة الأميركيّة في الاتجاه الذي تريدانه وذلك بإساءة تفسير ما جاء في الإنجيل، والكتابات التوراتيّة، وبالتلاعب بعواطف الرؤساء والسياسيين الأميركيين، وقد جندوا لهذا الهدف أعداداً كبيرة من المتطرفين المسيحيين الموالين لإسرائيل واليهوديّة أكثر من موالاتهم للولايات المتحدة والمسيحيّة.

يقود حملة معاداة الإسلام عدد من القادة المسيحيين الذين ينتمون إلى اليمين المتطرف والذين يسيطرون حالياً على الإدارة الأميركيّة. وتشتمل إدارة الحملة أيضاً على المعلمين الروحيين للقادة المسيحيين اليمينيين، أمثال الإنجيليين بات روبرتسون، وجيمي سواغارت، وجيم بيكر، وجيري فالويل، وكيفن كوبلاند، وريتشارد هان، وآخرين. وقد قال الإنجيلي كوبلاند: "لقد قام الرب بخلق إسرائيل وهو الذي يساندها. إنه لمن الرائع أنه يتوجب علينا - الولايات المتحدة - أن ندعم حكومتنا ما دامت تدعم إسرائيل"[11].

---

* إن النص المنسوب إلى البروفيسور عاطف عدوان هو نص مترجم من الانكليزية وليس منقولاً بشكل مباشر عن البروفيسور.

إن رجال الدين والمقاتلين المسلمين بإصغائهم وتصديقهم لتعليقات رجال الدين الأميركيين الذين غالباً ما يتجاهلهم الأميركيون ولا يصغون لكلامهم، إنما يؤكد من جديد أهمية الكلام. لقد أكدت في كتابي *النظر من خلال عيون أعدائنا* على ضرورة أن يسمع الغرب كلام بن لادن ويصدق أنه يعني كل حرف منه، بنفس الطريقة التي يؤثر فيها الكلام الذي يقوله القادة السياسيون أو الدينيون الأميركيون على المسلمين، الذين لا يزال لدى العديد منهم ذلك الاعتقاد القديم بأن القادة الغربيون يقولون ما يفكرون به. ذلك لأنه في سياق حضارتهم، غالباً ما تكون الكلمة الأخيرة والملزمة هي كلمة علماء الدين. لذا فإن خصومنا المسلمين ينظرون إلى الكلام المذكور أعلاه على أنه الموقف الأميركي الرسمي، وعلى هذا فإن أميركا تعتقد بأنه "لشيء رائع" أن تسمح لإسرائيل بأن تفعل ما تريد في فلسطين، من قتل الفلسطينيين، وهدم آلاف البيوت في الضفة الغربيّة، إلى بناء الجدران عبر القدس، أو قتل مئات الآلاف في مخيمات اللاجئين. ولهذا فإن الكلمات التي نسقطها من حسابنا أو لا نقيم لها وزناً هي التي تغذي كراهيّة المسلمين التي وصلت إلى حدٍّ لم يخطر على بالنا قطّ.

بالرغم من أن وجهة نظري الخاصة التي أعرضها في هذا السياق، تفتح بكل تأكيد باب النقد والتصحيح أمام العديد ممن يتمتعون بخبرة أكبر في ما يخص الدين الإسلامي والعالم، إلا أنني متمسك بها بشدة كما أن لدي إيمان قوي بأن فهم علاقة المسلمين المباشرة بالله هي المحور الأساسي الذي يؤدي إلى فهم الكراهيّة التي جمعها بن لادن وركّزها دونما إرادة منه، إزاء الولايات المتحدة والغرب بشكل أعم. لدى سماع وقراءة كلام بن لادن، لا يسع المرء إلا أن يصدق شدة إخلاصه في تعبيره عن حبه لله واحترامه للنبي محمد (ص). عندما يصف بن لادن نفسه "أنه عبد الله"، و"الفقير لربه" و"خادم متواضع لله"، فهو يبدو ليس مخلصاً فحسب بل ومحباً أيضاً. وبن لادن ليس الوحيد الذي يستخدم هذه اللهجة المحبة في الحديث عن الله ورسوله، فهناك قادة غيره في القاعدة كأيمن الظواهري، وسليمان أبو غيث، وأبو حفص الموريتاني، والراحل محمد عاطف كلهم يرددون كلمات بن لادن وأسلوبه. إن هذه اللهجة سائدة أيضاً لدى قادة إسلاميين متطرفين آخرين ومنهم

الجماعة السلفيّة للدعوة والقتال في الجزائر، وجماعة لاشكار الطيبة في كشمير، والحزب الإسلامي في أفغانستان، والجماعة الإسلاميّة في أندونيسيا أو أي من الجماعات الإسلاميّة المتشددة التي لا تعد ولا تحصى والموجودة في جميع أنحاء القارات الخمس.

إن هذه اللهجة المحبة شائعة أيضاً لدى الأفراد الذين يصفهم الغرب بشكل عام على أنهم قادة مسلمون "معتدلون" - ومن بينهم أولئك الذين وقفوا مع الرئيس بوش ليشجبوا ويستنكروا هجمات الحادي عشر من سبتمبر والذين يفطرون معه كل عام في رمضان - إضافة إلى المنظمات "المعتدلة" التي تدعو إلى هداية الناس إلى الإسلام مثل الإخوان المسلمين والجماعات التبليغيّة، وكلها جماعات منتشرة في جميع أنحاء العالم ينتمي إليها أعداد كبيرة من الناس. ونفس اللهجة تتدفق أيضاً من أفواه القادة، والمتحدثين الرسميين، وممثلي المنظمات الإسلاميّة غير الحكوميّة ذات الانتشار الجغرافي الواسع، مثل الحرمين، ومنظمة الرحمة العالميّة، ومنظمة الإغاثة الإسلاميّة العالميّة، والجمعيّة الكويتيّة لإحياء التراث الإسلامي. ويستخدم هذه اللهجة كل مسلم ملتزم بدينه في كل ناحية من نواحي الحياة. وبالرغم من أن رحلاتي الشخصيّة إلى البلاد الإسلاميّة ليست إلا نذراً يسيراً إذا ما قورنت بخبرة تي إي لورنس، وكيرمت روزفلت، أو السير ريتشارد فرانسيس بيرتون في تلك البلاد، إلا أن تجربتي أفادتني بأن المرء لا يحتاج أن يمضي عشرات السنوات بين المسلمين كي يدرك أن معظمهم يكنون نفس الحب لله، حتى أن ذلك يدور بين قادتهم ذوي المراكز العليا. في نطاق رحلاتي الخاصة، دارت بيني وبين شخص مسلم محادثة لم تستغرق سوى عدة دقائق إلا أنها كشفت ببساطة الطريقة المتناغمة التي يرى المسلمون من خلالها الحياة وأسلوب تعاملهم مع الآخرين، كل ذلك من خلال موشور إسلامي يحيط بهم جميعاً. إن هذه المحادثة التي تمت بالصدفة، كانت كافية لتقنعني بأن إيمان المسلمين بأنهم "عبيد الله" و"فقراء ومساكين يتذللون لربهم" ليس قصراً على بن لادن والإسلاميين المتشددين، بل إنه معتقد يشترك فيه جميع المسلمين. تحدث أنتوني شديد عن هذه الحقيقة في كتابه الرائع *تراث النبي*: "لقد كان ذلك إخلاصاً، وقد أذهلني مرة بعد مرة في رحلاتي إلى العالم الإسلامي

– كيف يؤثر الدين في مظاهر الحياة... ويوجهها إلى مستوى يجده الغرباء عصياً على الفهم"[12]. هناك مثال واقعي على القول التالي: "إن الاستثناء يثبت القاعدة" حيث يتجسد هذا المثال الحي في اللهجة المحبة لله التي يستخدمها قادة الخليج العربي عندما يأتي ذكر الله. إن رعاياهم يتوقعون منهم هذه اللهجة لأن هذا ما هو متوقع من كل المسلمين. لذا فإن هؤلاء القادة يبدون وكأنهم بن لادن عندما يتحدثون عن الله في خطبهم وأثناء مراسم الوداع في المطارات قبل السفر. فلا عجب إذاً أن يجد الغربيون تسابيح بن لادن وأدعيته لله مثيرة للسخريّة. ففي نهاية الأمر، نحن في الغرب نسمع عادة الملوك والحكام الطغاة يرددون نفس الثناء على الله قبل الذهاب لدفع مبالغ طائلة على طاولات البوكر أو المرح مع عاهرات مراهقات.

إنني لا أنوي هنا أن أصوّر أعداء أميركا من المسلمين المتطرفين على أنهم مسلمون بسيطون نواياهم طيبة لا يريدون إلا أن يحبوا الله ويعبدوه، ويطيعوا رسوله، وينفّذوا تعاليمه. إن لهجتهم المحبّة، واحترامهم، وخضوعهم لله لا يجعل منهم أعداءً أقل خطورة، إنما يزيد ذلك من خطورتهم. إن ما يميّز علاقة المسلم بالله هوْ أنها علاقة مباشرة تفتقر إليها المسيحيّة المعاصرة، وبشكل خاص المذهب الكاثوليكي، وهي آخذة بالتناقص أيضاً في المذهب البروتستانتي. إن هذه العلاقة الخاصة بين المسلم والله تتسم بوجود خطاب سلس وبسيط مع الله، خطاب لا يلعب فيه أي إنسان دور الوسيط. ولذلك فالإسلام يبدو ديناً لكل الناس، وهو مفتوح أمام عدد لا يعدّ ولا يحصى من التفاسير، والقراءات، والتحليلات ولا يخضع لأي سلطة، كما تخضع المسيحيّة للفاتيكان والمجمع الكنسي المعمداني الجنوبي أو أي سلطة دينيّة أو نخبويّة. كما أن التجربة الدينيّة الإسلاميّة هي تجربة شخصيّة إلى أبعد الحدود، إلا أنها في الوقت ذاته تجربة يشترك فيها كل المسلمين.

فالقرآن، وأركان الإسلام، والسنّة هي ذاتها في كل أنحاء العالم، كما أن على كل مسلم في العالم مسؤوليّة – وهو ما يسبب الإزعاج للعالم المسيحي المعاصر – الدفاع عن دينه وإخوانه في الدين في حال تعرّضهم أو تعرّض أراضيهم لأي هجوم أو اعتداء. وهذا ما يذكر غالباً بشكل غير رسمي على أنه "الركن السادس من أركان الإسلام". إن الدفاع عن الدين يعرف بشكل عام بالجهاد الذي ذُكِرَ بشكل

متكرر في القرآن الكريم والسنّة ومن خلال أكثر من أربعة عشر قرناً من الاجتهادات في الشريعة وعلوم الدين الإسلامية. والجهاد يذكر دائماً في سياق يتخذ معانٍ ودلالات حربيّة، ولقد أشار دانييل بايبس إلى تلك المعاني بقوله: "هذه هي الطريقة التي فهمها المجاهدون الأصوليون من خلال مصطلح الجهاد... ويمكن أن نقول باختصار إن الجهاد بالمعنى البسيط للكلمة يظل قوة كبيرة في العالم الإسلامي. ويمكن أن يُفَسِّر هذا التأثير الهائل لشخصيّة هامة مثل أسامة بن لادن على المسلمين..."[13]. وهكذا فإن مبدأ الجهاد والمسؤوليات الفرديّة التي يقتضيها الجهاد، هما أمران معروفان لدى جميع المسلمين، وينقسم الجهاد إلى نوعين وهما الجهاد الهجومي والجهاد الدفاعي. وقد قال البروفيسور لويس في ذلك: "إن الجهاد هو أحد المهمات الأساسيّة التي أوصى بها النبي (ص) جميع المسلمين. إن الغالبيّة العظمى من التشريعات الإسلاميّة الأولى والتي يستدل عليها من القرآن، والتفاسير، والسنّة تشير إلى الجهاد وتتحدث عنه بمفهومه الحربي... وقد وجد الجهاد على مدى القرون الأربعة عشر من التاريخ الإسلامي المدوّن، وقد فُسِّر في معظم الحالات على أنه قتال مسلّح للدفاع عن الإسلام"[14]. وقد قال الدكتور بايبس إن الجهاد بدلالاته الحربيّة ليس أمراً مفاجئاً أو غريباً فالنبي محمد (ص) شارك بنفسه في 78 معركة. ولن أتحدث في هذا النقاش عن الأنواع الأخرى من الجهاد التي يشير إليها المسلمون كجهاد اليدين 'أي القيام بالأعمال الصالحة' وجهاد القلب 'أي الإحسان إلى الناس' وجهاد الذات 'أي العمل على تحسين النفس' وذلك لأن مصطلح الجهاد، كما أظهر كل من برنارد لويس ودانييل بايبس، يرد بكثرة في التعاليم الإسلاميّة في سياق المواقف أو الأعمال الحربيّة.

وفي هذه الفترة من التاريخ، علينا ألا نقلق من خطر جهاد هجومي توسعي بمعنى فتح بلاد جديدة واعتناق أهلها للإسلام. فهذا الجهاد هو جهاد جماعي - وليس جهاداً فردياً - وهو فرض عين على كل المسلمين، ويجب أن يدعو إليه الخليفة وهو القائد المعترف به والذي يحكم كل العالم الإسلامي أو الأمة الإسلاميّة. ولا يوجد شخص كهذا منذ أن قضى البريطانيون على آخر ما تبقى من الخلافة العثمانيّة عام 1924. إلا أن الخطر الذي يتهدد أميركا هو الجهاد الدفاعي

وهو ردّ عسكري إسلامي على اعتداء تقوم به جهة غير مسلمة على الدين الإسلامي، أو على المسلمين، أو على الأراضي الإسلاميّة، أو على الثلاثة معاً. وفي هذه الحالة، فإنه يترتب على كل مسلم – وهي مسؤوليّة شخصيّة لا مناص منها – أن يشارك بالقتال ضد المعتدي بكل ما أوتي من قوة. وفي جهاد كهذا، لا يفرض القرآن الكريم وجود قائد إسلامي رئيسي أو أي نوع من أنواع القيادة لإباحة القيام بالأعمال الحربيّة. فعندما يقع اعتداء على الإسلام، يعرف كل مسلم أن واجبه الشخصي هو القتال. وهو ليس بحاجة لإذن أي أحد ولا حتى إذن أبويه. حتى أنه يكون آثماً إذا لم يستجب للقتال بكل ما أوتي من قوة وعزم. وقد كتب الباحث الأميركي جيمس تيرنر جونسون عن مفهوم الجهاد قائلاً: "لقد تم الاتفاق بشكل جماعي بين المسلمين على أن الجهاد من النوع الأول (الجماعي) هو أمر مستحيل اليوم، ذلك لعدم وجود خليفة مركزي أو أمام للأمة الإسلاميّة، مما يزيد في أهمية ما كان يعدّ أصلاً حالة استثنائيّة ألا وهو فكرة الجهاد كواجب فردي في مواجهة الاعتداءات الخارجيّة"[15].

إن حقيقة المسؤوليّة الفرديّة في الجهاد الدفاعي تنسجم تماماً مع العلاقة الفرديّة المباشرة للمسلم مع الله ومع التاريخ الإسلامي. يفسر تيرنر ذلك قائلاً: "إن النموذج التاريخي لعمل كهذا هو البطل صلاح الدين الأيوبي الذي بالرغم من أنه لم يكن إلا قائداً إقليمياً (وليس الخليفة)، إلا أنه نظّم وقاد معركة دفاعيّة ضد قوات الحملة الصليبيّة الثانية"[16]. لذا فإن التعاليم الإسلاميّة وتطبيقاتها التاريخيّة تدحض أي ادعاء بأن بن لادن لا يمكنه أن يدعو إلى الجهاد لأنه ليس عالماً إسلامياً أو لأنه لا يتمتع بمرجعيّة دينيّة. فالحقيقة هي أن بن لادن يؤمن بأن الإسلام يتعرض لاعتداءات سافرة من الولايات المتحدة وحلفائها، وهو يقوم ببساطة بتأدية واجبه في القتال في جهاد دفاعي. وعلاوة على ذلك فإن بن لادن يدعو جميع المسلمين للاعتراف بهذا الخطر ليقوموا بدورهم أمام الله في القتال دفاعاً عن إخوانهم. إن اعتداء الكفرة على المسلمين هو الذي يستدعي ويحرّك الجهاد، لا النداء الذي يوجهه قائد قد تلقّى التعليم المناسب لهذه المهمة. إن بن لادن يشنّ حرباً جهاديّة دفاعيّة ضد الولايات المتحدة وهو يستحث الآخرين للانضمام إليه، لا لأنه يأمرهم

بذلك بل لأن الله قد أمرهم بذلك حسب ما جاء في القرآن الكريم. إن عبقريّة بن لادن لا تكمن في النداء الذي يوجّهه لجهاد دفاعي بل في بنائه وتفنيده لقضيّة مقنعة ومتينة، وهي أن أميركا تشنّ هجوماً على الإسلام. والآن بعد أن ازدادت حجته قوة عند المسلمين، فسيجد كل فرد أن عليه اتخاذ قرار مصيري سيحدد مكانه في الآخرة. فإذا كانت حجة بن لادن مقبولة، فعلى من يقدر على حمل السلاح واجب الجهاد أو دعم المجاهدين، وإلا فستحل عليه لعنة أبديّة لعدم تأدية فرض أمر به الله.

وبعد النظر في ما وصفته على أنه 'علاقة المحبة التي تربط المسلم بالله' ومسؤوليّة كل مسلم في قتال أولئك الذين يعتدون على دينه، وإخوانه في الدين، وأرضه، أودّ أن أدرس الآن كيف اجتمعت هذه العوامل لتولّد عدواً يشتعل كراهيّة، لكنه في الوقت ذاته يحسب تحركاته بتأن وببرودة أعصاب. أولاً: أريد أن أظهر الفرق بين الأمور التي قد يجدها المسلم هجوميّة وتلك التي يراها اعتداء سافراً من النوع الذي يستدعي ردّاً يندرج ضمن فرض الجهاد الدفاعي. فالتمييز ضروري جداً هنا، لأن من شأنه رسم الخطوط العريضة للتهديد الذي يمثّله بن لادن والقاعدة، وهو تهديد موجه لضرب أمننا القومي وهو مدروس بدقة ومصمم ليحقق النصر. إنه لا يهدف لإبادة وضرب كل ما هو غير إسلامي. كما أنه ليس عبارة عن رغبة أوليّة جامحة تهدف إلى قتل الكثيرين دونما تمييز، وذلك لإيذاء القلة التي تعتدي على مشاعر المسلمين. إن أحد أعظم المخاطر التي تواجهنا كأميركيين في اتخاذ القرار بكيفيّة مواجهة الخطر الإسلامي المتطرف، يكمن في استمرارنا بالاعتقاد – وذلك بسبب ما دفع القادة الأميركيون على الإيمان بهذه الفكرة – بأن المسلمين يكرهوننا ويهاجموننا بسبب أسلوب حياتنا، وطريقة تفكيرنا، وليس بسبب أفعالنا. إن العالم الإسلامي لا يترعج أو يتأذى كثيراً من نظامنا السياسي الديموقراطي، أو ضماننا للحقوق الشخصيّة، وحرياتنا المدنيّة، وفصلنا الكنيسة عن الدولة، لدرجة تدفعه ليشنّ علينا حرباً قد تترتب عليها نتائج خطيرة وذلك لمنعنا من التصويت والكلام بحريّة والصلاة أو عدمها. مع احترامي لأولئك الذين استنتجوا أننا مكروهون لأسلوب حياتنا وما نفكر فيه أو نمثله، إلا أنني أخالفهم

الرأي وأؤكد لهم بكل صراحة أن ما خلصوا إليه هو ضلال وهراء قاتل. فكما قال مرة رونالد سبيرز، وهو سفير سابق للولايات المتحدة في تركيا والباكستان: "إن الترديد الآلي لعبارة 'لأنهم يكرهون الحريّة' لا يمكنه أن يكون تفسيراً مجدياً"[17].

إن العالم يعج بالناس، والأشياء، والنشاطات، والمعتقدات التي قد تكون مزعجة لأي منا بطريقة أو بأخرى. ومن النادر – باعتقادي – أن يكون هناك شخص يذرع الأرض جيئة وذهاباً كل يوم ويمر بكل شيء دون أن يشعر بالانزعاج، أو القرف، أو الغضب تجاه بعض الأشياء التي مرّ بها. فبالنسبة للمسلمين الملتزمين – كما هي الحال بالنسبة لبعض المسيحيين الإنجيليين – لا بد وأن العالم الآن هو مكان كريه ومزعج وذلك بسبب انتشار الكثير من الأشياء التي تعتبر مظاهر حداثة وتنوع بالنسبة لمعظم الناس إلا أنها مصدر إزعاج لأولئك المسلمين الملتزمين بشدة. فالمدارس المختلطة، وأفلام الجنس، واليهود، والمشروبات الكحوليّة، والقوانين الوضعيّة، وحقوق الشاذين جنسياً، وإسقاط الأجنة المقصود، ورقص السالسا، والدولة ذات القانون المدني، وانحلال القيم الأخلاقيّة المطلقة، والكاثوليك، والبروتستانت، والهندوس والثياب غير المحتشمة، والبوذيين، وعبدة الشياطين، والملحدين، ومفهوم الدولة – الأمة، والربا. كل تلك الأشياء بل وأكثر من ذلك يعدّ مؤذياً بالنسبة للعديد من المسلمين رجالاً ونساءً بدءاً من دعاة التحرر الإسلامي وانتهاءً بالمحاربين. إلا أن المسلمين في العالم لا يقومون باعتداءات – فيما عدا حالات خاصة جداً – وحشيّة وعنيفة على جارهم البوذي، وموظف المصرف الذي يتعامل بالربا، ومشاهدي الأفلام الإباحيّة، أو الأطباء الذين يقومون بإجهاض الأجنة. وكذلك يرى العالم غير المسلم وبصورة يوميّة وفي الغالبيّة العظمى من الحالات، المسلمين يعيشون جنباً إلى جنب مع الموحدين، والمشركين، والحشاشين، والشيوعيين، والديموقراطيين، والمشعوذين، وحتى مشجعي الفريق الوطني للبيسبول. وقد يقرأ المرء أو يسمع قصصاً في القليل من الأحيان عن مسلمين غاضبين قاموا بقتل أحد الدعاة لفرضيّة مارتن لوثر أو ذبحوا شخصاً يعود إلى بيته كل يوم بعد الانتهاء من عمله ليعبد قرداً أزرق والآلهة شيفا. لكن أغلبهم يقبل بالعالم كما هو، وبالرغم من أنهم قد يترعجون من بعض مظاهر الحداثة أكثر من غيرهم ممن ينتمون

إلى الديانات السماويّة الأخرى – ربما أكثر مني – إلا أنه لم يسبق أن دعا قائد مسلم إخوانه في الدين إلى إعلان الجهاد لإسقاط الديموقراطيّة، والمؤسسة الوطنيّة لاتحادات التسليف الشعبي، أو مجموعة الجامعات الأميركيّة الأرستقراطيّة المختلطة. قد يكون هناك العديد من المسلمين الذين لا يعجبهم حالنا، لكن تلك الأشياء لا تصل بهم إلى كرهنا إلى الحدّ الذي قد يجعلهم يشنون حرباً علينا.

غير أن ما تفعله الولايات المتحدة من تخطيط لسياسات وتطبيقها بشكل يؤثر على العالم الإسلامي، هو الذي يستثير مشاعرهم ويؤذيهم بشدة. وبينما قد يكون هناك قلة من المقاتلين الإسلاميين الذين قد يقدمون على تفجير أنفسهم أو أناس غيرهم بسبب انزعاجهم من مطاعم ماك دونالدز، والحملة الرئاسيّة الأولى في آيوا، والصورة التي تظهر فيها الممثلة ديمي موور شبه عارية وهي حامل على غلاف مجلة إسكواير. إلا أنهم ليسوا إلا قلة قليلة ولا يشكلون على الإطلاق خطراً على الأمن القومي للولايات المتحدة. غير أن مصدر الخطر الحقيقي الذي يتهدد الأمن القومي الأميركي لا يتأتى من المسلمين الذين تؤذيهم طريقة حياة الأميركيين، بل من رؤيتهم الحقيقيّة للواقع الذي تقوم فيه أميركا بالاعتداء على أغلى ما لديهم وهو الله، والإسلام، وإخوانهم في الدين، وأراضيهم. لذا فإن ما نفعله كأمة هو العامل الأساسي المسبب لمواجهتنا مع الإسلام. إنني مؤمن أن رؤية المسلمين للأشياء التي يحبونها تتعرض للدمار على يد أميركا، هو الذي يغذي كراهيّة الإسلاميين الأصوليين ويجعلها عنصراً يشكّل خطراً على الولايات المتحدة، وهو الذي يدفع في الوقت ذاته بعض المسلمين للتصرف بفرديّة والاعتداء على مصالح الولايات المتحدة، كما أن ذلك كان السبب في انضمام العديد لمنظمات مثل القاعدة وحلفائها، والأعداد المهولة من الناس الذين يدعمون العمليات العسكريّة الدفاعيّة التي تقوم بها تلك المنظمات بالصلاة، والتبرعات، وغض النظر عنها، وتقديم مساعدات لوجستيّة لتسهيل عملياتها. إن أحد مظاهر عبقريّة بن لادن تتمثل بإدراكه منذ البداية الفرق بين القضايا التي قد يراها المسلمون مهينة أو مؤذيّة من جهة أميركا والغرب، وبين تلك التي يرونها لا تطاق وتشكل خطراً على حياتهم. في الحقيقة إن هذا الفرق هو الذي يقوم بنقل عدد كبير من الناس من المظاهرات

السلميّة وحمل اللافتات إلى التخريب والتدمير بالمتفجرات البلاستيكيّة. إن ما تتبعه الولايات المتحدة من استراتيجيات سياسيّة، وعسكريّة، واقتصـاديّة إزاء العـالم الإسلامي هو المسبب والدافع لتلك الحركات ذات الخطر المُدمّر.

لقد تعلم بن لادن معظم دروسه في أفغانستان، حيث ذهب هو وغيره مـن المسلمين غير الأفغانيين لقتال الجيش الأحمر لا لأن السوفييت كـانوا شـيوعيين ملحدين ولا لأسلوب حياتهم وطريقة تفكيرهم. بل لأنهم كانوا شيوعيين ملحدين اعتدوا على أراضٍ إسلاميّة، واحتلوها، وقتلوا أكثر من مليون مسلم من رجـال، ونساء، وأطفال دون أي سبب أو مبرّر وأبعدوا أكثر من ثلاثـة ملايـين مسـلم آخرين عن بلادهم وكان هدفهم الواضح من كل ذلك هو القضاء على الإسـلام في تلك البلاد. لقد حارب المجاهدون الأفغان، والمقاتلون المسلمون غـير الأفغـان السوفييت وقتلوهم لما فعلوه في أفغانستان، فالوجود السوفييتي وما اقترفه من جرائم حرب هناك هو الذي أطلق شرارة الجهاد الدفاعي الظافر الذي لا تـزال أصـداء انتصاره تتردد في العالم حتى اليوم. وعندما كان السوفييت في بلادهم في الاتحـاد السوفييتي - كانوا ملحدين وشيوعيين - لم يقم المسلمون من خارج الإمبراطوريّة السوفييتيّة ولفترة تربو عن السبعين عاماً ولا مرة واحدة بشنّ هجوم جهادي عليهم للقضاء على طريقة الحياة السوفييتيّة واحتلال أراضيهم من أجل الإسلام، بـالرغم من أن معظم المسلمين كانوا متأذين من إنكار السوفييت لوجود الله، وإسـاءاتهم المتكررة للدين الإسلامي، وإيذاءهم للمسلمين من شعبهم. غير أن السـوفييت لم يخدعوا أنفسهم ويتساءلوا عن السبب الذي جعل العـالم الإسـلامي يكـرههم ويحاربهم في أفغانستان. فقد كانوا يعلمون أن الكراهيّة أتت من أفعـال الجـيش الأحمر. إن رؤيتهم الباردة تلك لدافع عدوهم الإسلامي هو الشيء الوحيد الـذي يجب أن نقلده ونأخذه عن الاتحاد السوفييتي.

بالرغم من أن القادة الأميركيين يقولون بصدق أن أميركا لا تريد أن تشـنّ حرباً على الإسلام وهي ليست بصدد ذلك أيضاً، إلا أننا يجب أن نفهـم كيـف تبدو الأمور من وجهة نظر بن لادن الذي يجهز قواته ويستحث قـوات أخـرى للانضمام إليه. كما أن علينا أن نفهم بشكل خـاص كيـف يـرى المسـلمون

الأصوليون - وكذلك على الأغلب عشرات الملايين من المسلمين الآخرين - السياسات الأميركيّة وعملياتها التنفيذيّة؟ هل من الممكن، في سياق النقاش أعلاه حول الأمور الأغلى على قلوب المسلمين، أن يرى المسلمون في أفعال الولايات المتحدة اعتداءات على الإسلام، والمسلمين، وأراضيهم؟ وهل من الممكن أن تكون نظرة المسلمين إلى أفعال الولايات المتحدة في العالم الإسلامي هي نفس نظرتهم إلى الأفعال السوفييتيّة والعمليات التي قامت بها في أفغانستان؟ للأسف، إن الإجابة الموضوعيّة يجب أن تكون نعم، وفي ما يلي سلسلة من الأفكار التي باعتقادي توضح كيف يرى بن لادن والكثير من إخوانه في الدين السياسات الأميركيّة وعملياتها الحربيّة:

تحدي كلام الله

- لقد صرحت أميركا أن قيام المجاهدين الإسلاميين بشنّ هجمات هو عمل إجرامي، كما أنها قامت بحصار وأسر وسجن المئات - وغالباً دون محاكمة - ممن شكت أنهم مجاهدون من شتى أنحاء العالم. إن امتناع المسلم عن تلبية النداء للانضمام إلى جهاد دفاعي لحماية الإسلام، يعني أنه يعصي ما أمره به الله ولذا ستحل عليه لعنة الله. وقد كتب في ذلك الدكتور محمد عبد الحليم، الأستاذ في جامعة الأزهر في القاهرة: "**إن سياسة الولايات المتحدة تتمحور حول قمع فكرة الجهاد الإسلامي. والجهاد في الإسلام هو أحد أعظم الأعمال التي تهدف للقضاء على الطغيان، وإحياء العدالة، وإعادة الحقوق إلى أصحابها**"[18] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وقد ذهبت المؤرخة ماليس روثفن إلى أبعد من ذلك حيث قالت مؤكدة: "إن الجهاد بالنسبة للهوية الإسلاميّة هو أساسي وجوهري كما القداس بالنسبة للكاثوليكيّة"[19].
- لقد طلبت أميركا الدول الإسلاميّة بأن تقيّد، وتحدّ، وتراقب التبرعات التي يقدمها المسلمون للمنظمات والجمعيات الخيريّة التي تساعد إخوانهم في الدين من الفقراء، والمساكين، واللاجئين، ومنكوبي الحروب. مع العلم أن الزكاة هي ركن من أركان الإسلام الخمسة. وهكذا فإن أميركا تطلب من المسلمين أن يعصوا ما شرعه الله ويتبعوا القوانين الوضعيّة. وقد قال الشيخ يوسف

القرضاوي في ذلك محدثاً المسلمين: "**أعتقد أن تضييق الولايات الأميركيّة الخناق على الأعمال الخيريّة هدفه تفريق شمل المسلمين حتى تحتفظ كل جماعة بما لديها دون أن تفكر بالآخرين أو تساعدهم**"[20] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

- لقد طالبت أميركا الهيئات التعليميّة الإسلاميّة بأن تعدل مناهجها كي تعلّم الطلاب نسخة من الإسلام أكثر حداثة بشكل يتناسب والحفاظ على المصالح الأميركيّة في المنطقة. وهكذا فإن أميركا تطلب من المسلمين أن يتركوا كلام الله كما جاء في القرآن – الذي يعتبره المسلمون كاملاً منزلاً وغير قابل للتعديل أو التحوير – وسنّة النبي محمد (ص) والأحاديث النبويّة واتباع ما تقترحه وتمليه عليهم. وقد صرّح شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي في أوائل العام 2001 قائلاً: "**والشيء الآخر هو أنه لا يمكن لأي أحد – كائناً من يكون – أن يتدخل في المواد التي ندرسها... كما لا يمكن لأي أحد أن يتدخل في مناهجنا الدينيّة، التي نقررها نحن اعتماداً على شريعتنا الإسلاميّة. ولا أحد يمكنه أن يحشر أنفه في شؤوننا أو شؤون بلد مثل السعودية... إن الذي يظن أن بإمكانه أن يجبرنا على تدريس مقرّر دون آخر لم يخلق بعد**"[21] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

الاعتداء على المسلمين الملتزمين وعلى ثرواتهم

- إن السياسة الأميركيّة تدعم القمع، والاضطهاد، وأحياناً أعمال العنف التي يمارسها الهندوس في كشمير، والفيليبينيون الكاثوليك في ميندناو، والروس المسيحيون الأرثوذوكس في الشيشان، والأوزبكيون ممن كانوا شيوعيين سابقاً في أوزبكستان، والشيوعيون الصينيون في مقاطعة كزينجيانج، واليهود الإسرائيليون في فلسطين. كما أن القوات المسلحة الأميركيّة قامت بإرسال جنود لمساعدة الحكومات على قتل المجاهدين في الفليبين، والقوقاز، واليمن، وأفريقيا الشرقيّة. وقد قال الباحث دانييل بيمان في سياق تقييم رأي المسلمين في سياسات الولايات المتحدة للناشيونال إنترست: "من المثير للسخريّة أيضاً

أن جهود الولايات المتحدة الرامية لمحاربة الإرهاب قد تم بذلها في بعض الأحيان لاحتضان أصحاب الآراء المعاديّة لأميركا بدلاً من إضعافها. فدعم واشنطن ومساندتها لحكومات قذرة كنظام كريموف في أوزبكستان، والتزامها الصمت إزاء الوحشيّة الروسيّة في الشيشان، والامتيازات المقرفة التي منحتها لتلك الحكومات كي تضمن تعاونها للقضاء على أعضاء القاعدة. كل ذلك إنما يدعم الادعاءات التي تؤكد أن الولايات المتحدة تدعم اضطهاد وقمع المسلمين وتساند الحكومات الظالمة"[22].

- إن أميركا تدعم حكومات إسلاميّة في الكويت، والإمارات العربيّة المتحدة، ومصر، والأردن، والسعودية، وحكومات بلاد أخرى. ويرى الإسلاميون المتطرفون أن الديموقراطيّة الأميركيّة هي التي صادقت على هذه الدول وهي التي تقوم بحمايتها. وقد جاء في مقال لبرنارد لويس في هذا الصدد في صحيفة *وال ستريت جورنال* في خريف عام 2002: "إن الدليل الدامغ هو أن الغالبيّة العظمى من أعدائنا الإرهابيين إنما تأتي من الدول التي تدعي أنها دول صديقة"، كما جاء في المقال: "وإن اعتراضهم الأساسي الموجه ضدنا يعود إلى أننا مسؤولون بنظرهم عن الحفاظ على بقاء هذه الأنظمة التي تحكمهم. وهو اتهام أقل ما يمكن أن يقال عنه إنه يتمتع ببعض المصداقيّة"[23].
- إن أميركا تقوم سواء وحدها أو عن طريق الأمم المتحدة بفرض عقوبات اقتصاديّة وعسكريّة على المسلمين بما فيهم شعوب العراق، وسوريا، والسودان، وأفغانستان، وليبيا، وباكستان، وإيران، وإندونيسيا. وذلك لإجبار المسلمين على اتباع أوامر الولايات المتحدة. والولايات المتحدة، على سبيل المثال، تفرض عقوبات على باكستان لتطويرها لأسلحة نوويّة بينما تغض بصرها عن إسرائيل والهند رغم حيازتهما لنفس الأسلحة. وقد كتب محمد كواش في هذا الشأن في صحيفة أردنيّة يوميّة وذلك بعد أن أصدر الكونغرس الأميركي قراراً بفرض عقوبات على سوريا في أواخر العام 2003: **"لقد بدأت واشنطن بشنّ حملة تحريضيّة ضد دمشق ممهدة بذلك لفرض عقوبات عليها ومهددة بالقيام بعمل عسكري ضدها... لقد لجأت الإدارة الأميركيّة للتصعيد**

واستخدام لغة التهديد والوعيد وكشرت عن أنيابها أمام سوريا، لأن دمشق تدعم الفصائل الفلسطينيّة المعاديّة لإسرائيل، ولأنها رفضت أن تلعب دور الحارس الحدودي لقوات الاحتلال الأميركي في العراق"[24] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

- إن حكومة الولايات المتحدة وشركات النفط تسعى للسيطرة على شبه الجزيرة العربيّة وذلك لتضمن الحصول على مصادر الطاقة المباعة إلى الغرب بأسعار أقل من أسعار السوق العالميّة. إن هدف الحرب التي شنّتها الولايات المتحدة على العراق، بشكل أساسي، هو "السيطرة على آبار النفط"، هذا ما أكده أبو عبيد القرشي في جريدة الأنصار التابعة لتنظيم القاعدة في أغسطس عام 2002. "إذا أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أن الأراضي العراقيّة تحتوي على 112 مليار برميل من النفط الاحتياطي بشكل مؤكد بالإضافة إلى 215 مليار برميل من النفط الاحتياطي بشكل افتراضي، فإن العراق سيحتل المرتبة الثانية في العالم بعد السعودية من حيث المخزون من احتياطي النفط. هذا هو أحد الأسباب الرئيسيّة لضرب واحتلال ......، حتى ولو تم ذلك على مراحل"[25].

احتلال أو اقتطاع أجزاء من أراضي المسلمين

- لقد قامت أميركا بمساعدة الأمم المتحدة في إنشاء دولة مسيحيّة جديدة في تيمور الشرقيّة بحيث قامت باقتطاعها من إندونيسيا، الدولة الإسلاميّة الأكبر من حيث تعداد السكان، متجاهلة مبدأ تقرير المصير. وقد قالت القاعدة في سياق تبرير الاعتداء الذي قتل من جرائه سيرجيو فييرا دي ميلو الممثل الخاص للأمم المتحدة في العراق وذلك في أغسطس من العام 2003: **"لقد كان دي ميلو صليبياً اقتطع جزءاً من أرض الإسلام (تيمور الشرقيّة). في قانون الأمم المتحدة الموجه ضد الإسلام، الاستقلال ممنوع على المسلمين: فالاستقلال مسموح لتيمور الشرقيّة لكنه حرام على كشمير، والاستقلال مسموح لجورجيا المسيحيّة لكنه ممنوع على الشيشان، والاستقلال مسموح لكرواتيا الصليبيّة لكنه حرام على البوسنة..."**[26] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

- إن أميركا .... بلاداً إسلاميّة كأفغانستان، والعراق، ودول شبه الجزيرة العربيّة مسقط رأس النبي محمد (ص). وذلك حسبما جاء في تعليق ورد في جريدة الأنصار التابعة لتنظيم القاعدة أثناء الحرب الأميركيّة العراقيّة عام 2003: "...".[27]

- إن أميركا تقوم باستمرار بدعم احتلال إسرائيل لفلسطين المسلمة وقد قامت بغزو العراق لمساعدة اليهود في تحقيق هدفهم بتأسيس "إسرائيل الكبرى" من النيل إلى الفرات. وقد دان الشيخ السعودي المتنفّذ سلمان العودة هذا الدعم لإسرائيل، زاعماً أن المساعدة التي تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل تهدف إلى تحضير الأخيرة للقضاء على الإسلام. وقد وضّح ذلك بقوله: "**في الكيان الإسرائيلي يتم تدريب حتى الشابات. ولماذا يدربوهن؟ إنهم يفعلون ذلك حتى يقمن بدورهن ويجنّدن الأجيال القادمة. إن اليهود يخططون للاستيلاء على البلاد العربيّة والإسلاميّة وهو الهدف الذي تتمحور عليه مخططاتهم وطموحاتهم. وهم يهدفون لتأسيس ما أطلقوا عليه حلم 'إسرائيل الكبرى'**"[28] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

ويبدو أن هذا الخطر لا يوجد في عقول المسلمين فقط. "وإسرائيل، بالرغم من الجهود المبذولة في المدارس العلمانيّة لتقديم رؤية أكثر توازناً عن التاريخ العربي، تسمح للمدارس الدينيّة التي تمولها الدولة بأن تؤكد لطلابها أن حكم الدولة اليهوديّة يجب أن يمتد من النيل في مصر إلى الفرات في العراق وأن المملكة الأردنيّة ليست إلا أرضاً يهوديّة محتلة"[29].

دعوني أؤكد من جديد أنني لا أحاول أن أثبت أن ما ذكرته سابقاً هو

ملخص يعبّر بدقة عن سياسات الولايات المتحدة ونواياها أو أفعالها. إلا أن هذه التصورات تصف في الحقيقة تأويلات بن لادن لتلك السياسات ومعه نسبة كبيرة من مسلمي العالم على امتداده السياسي، بدءاً من التحرريين وانتهاء بالمقاتلين منهم وسواءً كانوا ممن يدعمون أو يستنكرون عمليات القاعدة العسكريّة. إن الانطباع الناتج عن سياسات أميركا هو أنها أمة مصممة على القضاء على كل مظاهر الإسلام التي لا تناسبها، أو حتى على المسلمين أنفسهم. وإذا كان ثمة شك في هذه النقطة الأخيرة، فإن نظرة سريعة على التغطية الإخباريّة للحرب على العراق وللتمردات التي ظهرت بعد الحرب هناك، في محطات الراديو والتلفزيون الفضائيّة العربيّة، والصحافة والمجلات الإسلاميّة، وحتى جهات أخرى كمحطة بي بي سي BBC، ومحطة الموجة الألمانيّة Deutsche Welle، ستظهر بأن تأويلات مقاصد وأهداف السياسة الأميركيّة التي ذكرتها أعلاه ليست غريبة أو بعيدة عن الحقيقة. وكذلك الأمر بالنسبة لمضمون العديد من الفتاوى الهجوميّة العنيفة التي يتردد فيها كلام بن لادن، والتي تدعو إلى جهاد دفاعي ضد الولايات المتحدة بسبب غزوها للعراق، حيث انها تظهر أن الباحثين الإسلاميين على اختلاف انتماءاتهم يشاطرون بن لادن الكثير من آرائه ووجهات نظره حيال السياسات الأميركيّة. وقد جاء في مقال كتبه أحمد الخطيب في جريدة الشعب بعد أن بحث في فتاوى الأزهر وعدد من الفتاوى الأخرى الصادرة من رجال دين شيعة وسنّة "**إن ما تعنيه هذه الفتاوى هو حث رجال الدين للناس كي يهبّوا إلى الجهاد... كما أنها توضح أن التضحية بالنفس لقتل عدد من الرجال في صفوف الأعداء يعتبر شهادة في سبيل الله**"[30] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وقد يبدو من خلال ذلك أن وجهات نظر بن لادن وآرائه باتت هي المسيطرة في العالم الإسلامي. "إن الفتاوى التي تصدر عن الأزهر تعكس الرأي العام السائد الذي يرتبط بشكل مباشر مع الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في العالم الإسلامي". هذا ما خلص إليه الباحث الأميركي في الشؤون الإسلاميّة جون إسبوزيتو. كما أضافت الصحافيّة البارعة جنيف عبدو أن الفتاوى تظهر: "أن رجال الدين المسلمين المحافظين في

الشرق الأوسط الذين كانوا قد شجبوا واستنكروا أسامة بن لادن في السابق، يستحثون المسلمين اليوم على النهوض والوقوف في وجه الولايات المتحـــدة... وهذه إشارة إلى أن بعض الإسلاميين المعتدلين أصبحوا يجدون قضية مشتركة مع المتطرفين"[31].

لقد تم اقتراح توجيه رسالة إلى العالم الإسلامي وذلك في محاولة فاشلة من القسم الديبلوماسي في وزارة الشؤون الخارجيّة الأميركيّة وذلك بعد أحـــداث الحادي عشر من سبتمبر. وقد سميت تلك الحملة "قيم مشـــتركة". وكانـــت المسؤولة عن تصميم تلك الحملة مديرة تنفيذيّة موهوبة في إحـــدى شـــركات الإعلانات الناجحة في ماديسون آفنيو. وقد وصفت تلك المهمة قائلة: "كـــان الأمر أشبه بإعادة تعريف ما تعنيه أميركا. لقد كان تصميم تلـــك الإعلانـــات أصعب مهمة أوكلت إلي في حياتي"[32]. وقد تلخصت الحملة بتصـــوير أفـــلام إعلانية قصيرة تبث تلفزيونياً ضمن إطار إعلانات الخدمات العامـــة في الـــبلاد الإسلاميّة، وتحفظ في أقراص ليزريّة، وكتيبات بالإضافة إلى إنشاء مجلة مـــثيرة للاهتمام توجه إلى الشباب المسلم. إلا أن مادة الأفلام كانت على ما يبدو من الأساس فكرة سيئة حيث إنها كانت تظهر نوعيّة الحياة الرغيدة الـــتي يعيشـــها المسلمون في أميركا والمعاملة الحسنة التي يلقونها هناك، بدلاً من أن تدور حول تفسير وتوضيح السياسات الأميركيّة والدفاع عنها. والأسوأ من ذلك هـــو أن البلاد التي طلب منها أن تعرض الأفلام وهي مصر، والأردن، ولبنان رفضـــت ذلك بقولها إنها لن تعرض أفكاراً موجهة بالنيابة عن حكومات بلاد أخرى"[33]. ومع أن حملة "قيم مشتركة" قد أنهيت في بداية العام 2003، إلا أنه من الواضح أن القادة الأميركيين مستمرون بتجاهل أن الأوان قد فات على الديبلوماســيّة الحكوميّة أو أي نوع من أنواع الحوار بهدف نزع فتيل الكراهيّة - إلا ما كان بشكل هامشي - التي يشعر بها المسلمون إزاء الولايـــات المتحـــدة. "نحـــن في الغرب، في الولايات المتحدة تحديداً، ليس بإمكاننا شنّ ذلك النوع من الحروب الفكريّة. والسبب الأساسي في ذلك هو كوننا غير جديرين بالثقة" هذا ما أكده شبلي تلهامي في جريدة الشرق الأوسط.

> **أنا لا أعتقد أن سياسات الولايات المتحدة قادرة حالياً على أن تكون موجهة "لكسب القلوب والعقول" في الشرق الأوسط على المدى القريب. إن هذا لن يحدث. فللولايات المتحدة ماضٍ سيئ في المنطقة يمتد لعشرات السنين يرتكز على سياساتنا المتبّعة هناك من جهة، وعلى الانطباع المأخوذ عنا من جهة أخرى. ولن تتمكن حملة سحريّة من تغيير هذه الصورة بين ليلة وضحاها... فالناس لن يثقوا بالرسالة إذا لم يكونوا واثقين بالمرسل**[34] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

إن وصف الأستاذ تلهامي الدقيق لعدم مصداقيّة أميركا بالنسبة للعالم الإسلامي يلخّص نتائج نصف قرن من سياسة أميركا في الشرق الأوسط التي غيّرت صورة أميركا من دولة ينظر إليها العالم أجمع بإعجاب، واحترام، كدولة تناصر الحرّية والديموقراطيّة إلى دولة مكروهة يخشاها الجميع، فهي تدعو إلى نظام استبدادي جديد، نظام يمتلك نفس خصائص الإمبرياليّة الأوروبيّة الذي كانت سائدة في القرن التاسع عشر: من عمليات عسكريّة، وتغلغل اقتصادي، واستبداد، ودعم للقادة، بغض النظر عن وحشيتهم وطغيانهم طالما أن أوامر السلطة الإمبرياليّة تنفذ بدقة، إضافة إلى استغلال واستنزاف المصادر الطبيعيّة.

وبما أن المسلمين قد مرّوا بتلك التجربة من قبل، لذا فإن أميركا لم تعد بالنسبة لهم دولة فرانكلين روزفلت الذي قضى على الفاشيّة وأرغم تشرتشل على البدء بتفكيك الإمبراطوريّة البريطانيّة، ولا دولة دوايت أيزنهاور الذي أوقف المخطط الفرنسي - الإنكليزي - الإسرائيلي الدنيء للاستيلاء على قناة السويس، ولا حتى دولة رونالد ريغن الذي تحدى السوفييت الملحدين ومدّ المجاهدين الأفغان بالسلاح وحرّر أوروبا الشرقيّة. لقد مضى ذلك الزمان ولم تعد أميركا تلك الدولة التي سيأخذ المسلمون أفعالها بنيّة حسنة في مواقف تدّعي فيها أميركا أنها عادلة وصادقة في التعامل معهم فيما يتعلق بمواجهتهم مع إسرائيل أو غيرها من القضايا. لقد استنفدنا كل الفرص الممكنة مع المسلمين. بحيث أصبحت أميركا تصنف الآن على أنها دولة تدعم وتحمي الطغاة العرب من المحيط إلى الخليج، دولة سلمت عدة أجيال من الفلسطينيين للعيش في مخيمات اللجوء من المهد إلى اللحد، دولة تدعم إسرائيل دون أي إحساس بالمسؤوليّة، وتزودها بالأسلحة لتغذي عنفها ضد الفلسطينيين، وتمنع المسلمين في نفس الوقت من التسلح بشكل يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم.

ومما جرد الولايات المتحدة من مصداقيتها أيضاً هو سمعتها الجديدة التي اكتسبتها كدولة أحيت النظام الاستعماري الأوروبي الذي ساد في القرنين التاسع عشر والعشرين. حيث إن احتلالها لأفغانستان، والعراق، وسيطرتها على شبه الجزيرة العربيّة ضمن لها الحصول على حاجاتها من النفط الرخيص. ومن المؤسف أن صحيفة *الأنصار* التابعة للقاعدة قد وصفت بدقة رؤية المسلمين للولايات المتحدة على أنها القوة المفترسة الاستعماريّة الجديدة بدباباتها التي تذرع شوارع العاصمة العراقيّة، حيث وضّح أبو عبيد القرشي في خطابه ما يلي:

> **بعد سقوط بغداد، علا العويل والنواح في العديد من البلاد الإسلاميّة، بينما ساد فقدان الإحساس واللامبالاة في أوساط أخرى. وبينما أخذ البعض يرثي عاصمة الرشيد ويتحسر عليها، استعاد آخرون ذكرى سقوط الأندلس. لكنهم نسوا أن العالم العربي بأكمله بحكم المنتهي طالما أن القانون الإسلامي ملغى والشعوب الإسلاميّة تملأ السجون والمعتقلات... نعم، لقد عادت الاستعماريّة المباشرة من جديد وها هي عاصمة عربيّة أخرى قد سقطت بأيديهم كما سقطت القدس من قبلها وبيروت (قبل أن تهب المقاومة لنجدتها) وكابل**[35] (نص مترجم عن الانكليزية وغير حرفي نظراً لتعذر الوصول إلى مصدر النص على الإنترنت بسبب الحظر الأميركي على المواقع التابعة أو الناطقة باسم القاعدة).

إن مواجهة رؤية المسلمين لأفعال الولايات المتحدة كما هي في الحقيقة – لا كما يجب أن تكون برأينا – هي نقطة الانطلاق لبحث ونقاش أكثر، وهي عمليّة ستنفي الفكرة التي تقول بأن الولايات المتحدة في حربها ضد بن لادن تواجه خطراً بدائياً، يزعجه اهتمامنا بالحياة الدنيا وابتعادنا عن الدين إلى الحدّ الذي يجعله يقوم بالاعتداء علينا بهدف القتل دون تمييز. وسترى عوضاً عن ذلك أننا في مواجهة شخص خطير يمتلك تفكيراً دقيقاً منظماً وكراهيّة عميقة يخطط لنصر مبين في سبيل الله في حرب شنّها مقاتلون يحبون الله. إن بن لادن والقاعدة سيمضون في حربهم وقتلهم للأميركيين – أقولها مرة ثانية – بسبب ما اقترفته أيدينا وما تقترفه الآن أيضاً في العالم الإسلامي وليس بسبب طريقة تفكيرنا وكيفيّة إدارتنا لأنظمتنا السياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة. إن المحلل اللامع رالف بيترز كان مخطئاً عندما كتب عن بن لادن أنه: "إرهابي مهووس بالقتل وأن مخططه السطحي... لا يقارن

بهوسه الذي يدفعه للقتل والذبح"[36]. إن النرجسيّة، وهوس القتل، والتدمير هي أبعد ما تكون عن بن لادن وخصومنا من الإسلاميين المتطرفين. فهم لا يحاولون تدمير العالم ودفعه إلى معركة الفصل بين الخير والشر، وهم ليسوا أناساً مصابين بخلل عقلي أو نفسي يدفعهم إلى قتل الأبرياء والتلذذ بذلك. ومع احترامي الشديد للأستاذ برنارد لويس، إلا أن بن لادن وجماعته ليسوا أيضاً مدفوعين "بفشل المجتمع الإسلامي" في التحديث والتطوير بالشكل الناجح الذي توصل إليه الغرب. وعندما يسألون سؤال الأستاذ لويس، "أين هو الخطأ؟" تأتيهم الإجابة في الحال: إن ما تقوم به الولايات المتحدة كوريثة للإمبراطوريّة البريطانيّة في العالم الإسلامي، هو الخطأ. وهم يشيرون، كدليل على زعمهم، إلى حقائق معينة تحدث في العالم الآن. فمشكلة هؤلاء الرجال واضحة وجليّة حيث إن هناك هجوماً على الإسلام والحل يكمن في الحرب أو - بمصطلحات إسلاميّة - في الجهاد الدفاعي. وقد قال بن لادن في أكتوبر من العام 2002 موجهاً كلامه إلى الشعب الأميركي "**أدعوكم إلى تفهم رسالة غزوتي نيويورك وواشنطن اللتين جاءتا رداً على بعض جرائمكم السابقة والبادي أظلم**" (نص حرفي).

> **"غير أن أولئك الذين يتبعون حركة عصابة المجرمين في البيت الأبيض، عملاء اليهود الذين يعدون العدة للاعتداء على العالم الإسلامي وتقسيمه، دون أن يخالفونهم الرأي، أولئك الذين لم يفهموا الرسالة من وراء الغزوتين. ولهذا فإنني أقول لكم الآن والله على ما أقوله شهيد، سواء قامت الولايات المتحدة بتصعيد حدة النزاع أو لم تفعل، فسوف نقوم بالردّ على ذلك بالمثل بإذن الله، وأشهد الله على ذلك، فشباب الإسلام يعدون لكم ما يملأ قلوبكم رعباً، ويستهدفون مفاصل اقتصادكم إلى أن تكفوا عن ظلمكم وعدوانكم أو يموت الأعجل منا"**[37].

ولهذا فإنه يمكن القول إن بن لادن ومعظم المقاتلين الإسلاميين المتطرفين يحاربون بدافع حبهم لله وكرههم لبعض السياسات الأميركيّة المحددة والأفعال التي يعتقدون بأنها تؤذي - وتهدد بالقضاء - الأشياء التي يحبونها. إن حربهم هي حرب ضد هدف محدد ومن أجل أغراض معينة ومعروفة. وبالرغم من أنهم سيستخدمون أي سلاح يقع تحت أيديهم - بما فيه أسلحة دمار شامل - إلا أن هدفهم ليس القضاء على ديموقراطيتنا الماديّة، وإنما منعنا بوسائل عسكريّة من الاعتداء على

الأشياء التي يحبونها. إن بن لادن وأعضاء القاعدة ليسوا محاربين أبديين، فلا يوجد أي دليل يثبت أنهم يقاتلون بهدف القتال أو أنهم لن يجدوا أي شيء يفعلونه إذا لم تكن هناك حرب يشنونها على أعدائهم. بل هناك دليل يثبت عكس ذلك ويظهر أنهم يريدون لهذه الحرب أن تنتهي، ليعودوا إلى عائلاتهم، وليعيشوا حياة أقل عنفاً من هذه الحياة. إن حالتهم تشبه حالة المجاهدين الأفغان خلال الحرب الأفغانيّة السوفييتيّة الذين أنهكتهم الحرب لكنهم لم يكونوا منهكين إلى الحدّ الذي يجعلهم مستعدين للتسوية أو للقتال بحماسة أقل. وفي كلتا الحالتين كان الجهاد الدفاعي فرضاً أمر به الله، ولهذا كان لا بد من متابعة النضال حتى النصر أو الشهادة. وقد استمر الجهاد بالنسبة للأفغان حتى أوقفوا السوفييت عن التعدي على الإسلام، وقتل المسلمين، واحتلال الأراضي الأفغانيّة وهي الأشياء الثلاثة الأغلى على قلوبهم وهذا ما وحد الجماعات المتمردة التي يختلف أفرادها عن بعضهم من حيث اللغة والانتماءات العرقيّة. أما بالنسبة لبن لادن والإسلاميين، فإن الجهاد ضد أميركا هو مثل جهاد الأفغان لكنه يشمل العالم كله، وكما الجهاد الأفغاني فإن هذا الجهاد يدعمه كراهيتهم للولايات المتحدة بسبب ما يرونه على أنه اعتداء أميركي على أكثر ما يحبونه – دينهم، وإخوانهم، وأراضيهم.

وأخيراً ثمة عامل آخر يزيد من شدة الكراهيّة التي يكنها أعداء أميركا من المسلمين. ففي عالم يكون فيه معظم القادة المسلمين ملوكاً ضعفاء يدعون إلى التزمت والتقشف في الوقت الذي ينغمسون في حياة الملذات الدنيويّة والترف والبذخ، أو ديكتاتوريات عائليّة من القتلة ....

.... إلى سدة الحكم بعد انقلابات ليمسكوا بزمام الأمور بعد أن أفرغ السياسيون خزائن الدول. يأتي بن لادن، وتنظيم القاعدة، والملا عمر، و"المجاهدون" ليكتسبوا هالة روبن هود. وذلك احتراماً لشجاعتهم وولائهم لدينهم من جهة، واعترافاً بفراغ القيادة الإسلاميّة من جهة أخرى، إضافة إلى الإعجاب بحياة البطولة والصعوبات التي يعيشها المقاتلون المسلمون. فبن لادن على سبيل المثال هو النموذج المثالي لنسخة حديثة من قصة قتال داوود وغوليات *الخصم العملاق*: فها هو الأمير التاجر بقامته الطويلة وجسمه

الهزيل الذي أنهكه المرض والذي تخلى عن رغد الحياة ليعيش في أفغانستان ويتحدى، ببلاغة سجلها التاريخ، القوة العسكريّة للاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة بقضائه على الأولى قضاء مبرماً وبتركه الثانية تترف حتى الموت. أضف إلى هذا الخليط إصابات بن لادن في المعارك والتي كان آخرها في أواخر العام 2001 واستعداده لإنفاق ثروته لتمويل الجهاد، ورعايته لضحايا الجهاد من المسلمين، وتفاؤله الدائم وإيمانه بوعد الله بالنصر الأكيد. وستكون لديك مادة غنيّة يمكن لهوليود أن تستخدمها في كتابة دور بطولة يلعبه إيرول فلين.

وهكذا فإن بن لادن والمجاهدين يشكلون سبباً آخر لكراهيّة المسلمين للولايات المتحدة. وفي مجتمع محروم من القادة الأشداء ذوي الذكاء، والعزة، والورع، يصبح المجاهدون أبطالاً شرعيين ومثاليين في آنٍ معاً. وكما في قصة روبن هود فإن أولئك الذين يدافع عنهم روبن كانوا يكرهون الذين يحاولون قتله والقضاء على عصابته أكثر من غيرهم.

ومع غياب المنافسة في قيادة العالم الإسلامي وظهور معاركهم في كل أنحاء العالم اليوم من خلال شاشات المحطات الفضائيّة العربيّة الكثيرة العدد، فإن المجاهدين يتمتعون باحترام، وامتنان، وحب العديد من المسلمين. وهم بالنسبة لعشرات الملايين من المسلمين وبخاصة الشباب منهم "فرسان تحت راية الرسول" بحسب عنوان مذكرات أيمن الظواهري.

وهكذا فإن بن لادن وجماعته يدافعون عن الأشياء التي يحبونها - وهو حب يتمسك به معظم المسلمين - وهم نفسهم محبوبون لا لدفاعهم عن الدين فحسب بل لأنهم باتوا يشكلون رموزاً للأمل في عالم إسلامي اعتاد على الهزائم العسكريّة المريرة وعلى حكام دجالين يدعّون الإسلام، والتدين، إلا أنهم طغاة تحتضنهم الولايات المتحدة وتحميهم. وبينما يصور قادة أميركا السياسيون والاقتصاديون والإعلاميون الجهود المبذولة لقتل بن لادن على أنها ليست سوى إجراء ضروري للقضاء على مجرم مختل، ينظر العديد من المسلمين إلى هذا الإجراء على أنه محاولة اغتيال رمز ديني بطولي يتجسد في هذا الرجل الذي نذر حياته وعمله لحماية إخوانه والحفاظ على دينهم. وبينما يصرّح الأميركيون أن قواتهم تلاحق النسخة

العربيّة المعدلة من تيموثي ماك فاي، يصلي المسلمون لربهم داعين بالنجاة لرجل يجمع بنظرهم صفات روبن هود والقديس سانت فرانسيس أسيزي، حيث إنه قائد ملهم ومتفانٍ ويستبعد أن يخونه أحد أو يشي به أحد مقابل المكافأة الماليّة التي تبلغ خمسة وعشرين مليون دولار أميركي. ولهذا فإن الكراهيّة التي يشعر بها العديد من المسلمين بسبب ما يرونه هجوماً مقصوداً تشنه الولايات المتحدة على الإسلام والمسلمين، تزداد قسوة وشدة بسبب إصرار أميركا على قتل رجل لا يرمز إلى قلعة الدفاع عن الدين فحسب، بل رجل أصبح - بسبب أفعاله الشجاعة وعدم وجود قادة مسلمين - أكثر شخصيّة محترمة، ومحبوبة، وبطوليّة، وشعبيّة ظهرت منذ أكثر من مئة وخمسين عاماً من التاريخ الإسلامي. لذا فإنه من المستحسن أن يضع الأميركيون في ذهنهم أن بن لادن في عيون المسلمين وقلوبهم ليس له مثيل بين الرجال في هدوئه، وورعه، وإخلاصه لدينه. هذا الرجل الذي جاهد لأربع سنوات داميّة للقضاء على الولايات المتحدة وبعمله هذا استثار ولاء وحباً غير مسبوقين من ملايين المسلمين الذين يكنون له هذه المشاعر حتى هذا اليوم. "إن أي نقد يوجه إلي سيحض على غضب عارم"، هذا ما جاء في كتاب كنت غراهام عندما تحدث عن الفيرجيني في كتابه المؤثر غيتيسبرغ: *تأملات في الحرب والقيم*. وقد كتب في ذلك:

> من كان لي إذن؟ لم يكن بطلاً تراجيدياً، ولم يكن شخصيّة تراجيدية على الإطلاق، بل كان ببساطة جندياً يمتلك شعبيّة واسعة. ونحن نعلق أمانينا على الشخصيات الشعبيّة ونلبسهم وفقاً لأحلامنا. وهم يقفون في مواجهة يأسنا الهادئ، وآخر شيء نسمح لهم بأن يكونوه هو حقيقتهم فحسب[38].

وكذلك يقف أسامة بن لادن صامداً بينما يُعلّق عليه ملايين المسلمين أمانيهم ويلبسونه أحلامهم.

2

اندفاع أهوج متهور نحو الهزيمة - الولايات المتحدة في أفغانستان

إن فنّ الحرب بسيط للغاية، اعرف مكان عدوك، اذهب إليه بأقصى سرعة ممكنة، اضربه بأقصى قوة لديك، وبأشد تواتر وكثافة ممكنة، وتابع التقدم إلى الأمام على الدوام.

الجنرال غرانت. الولايات المتحدة[1].

توهم الولايات المتحدة اليوم نفسها بغرور القوة الظاهرة، وتتخيل أن نهايتها ستكون أفضل من نهاية الغزاة السابقين... من الواضح أنها لم تقرأ بتمعن تاريخ أفغانستان. (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

الملا عمر، 13 سبتمبر 2002[2].

وعلاوة على ذلك، فالروس وبكل غباء لم يحاولوا أن يعاقبوا الأفغان المارقين كما فعل روبرتس لورد بريطانيا، بل حاولوا أن يحكموا البلد. وبما أن أفغانستان بلد لا يمكن السيطرة عليه، لذا كان الفشل الذي منيت به جهودهم متوقعاً... يجب ألا تسعى أميركا إلى تغيير نظامهم وإنما عليها ببساطة أن تعثر على الإرهابيين وتقتلهم.

جون كيغان، 24 سبتمبر 2001[3].

عندما بدأت بالعمل كضابط في المخابرات قبل أكثر من عشرين عاماً، كان أحد أول رؤسائي في العمل يردد باستمرار أن الخطوة الأساسيّة في تحديد وحلّ المشاكل الاستخباراتيّة هي القيام أولاً "بفحص المعطيات التي بحوزتنا". والمعطيات أو الإشارات هي تلك الأجزاء التي تشكل مشكلة ما والتي تكون معلومة بالنسبة

لنا، كأشياء يكون لدينا معلومات عنها في سجلات سرّية في أرشيفنا، وتجربة أتت بمعلومات خاصة بتلك المشكلة وموجودة أصلاً لدينا، وأشخاص يعملون على قضيّة ذات صلة بها يمكننا استشارتهم، أو حتى نتائج أبحاث أكاديميّة أو إعلاميّة متعلقة بها، وهذه الأخيرة لم يعدّ يستعان بها مؤخراً وذلك بسبب الافتراض الخاطئ الذي يفيد بأن المعلومات لا يمكنها أن تأتي بفائدة إلا إذا كانت سرّية. إن هذه الوصفة التي علمنا إياها رئيسي في العمل كانت تقتضي بالاستفادة حتى النفس الأخير من كل معلومة قد تعرفنا بتاريخ المشكلة، وما يحيط بها، وتحديد ما نعرفه عنها بدقة متناهية، وتثبيت الأشياء التي نعرف القليل عنها أو لا نعرف عنها شيئاً، ومن ثم تحديد المعلومات التي نحن بحاجة لمعرفتها قبل اتخاذ أي إجراء لحل المشكلة. وقد كان تأكيد رئيسي على اتباع هذه الخطوات في كل مرة بالنسبة لي آنذاك أمراً بديهياً ولا يحتاج لعبقريّة فذة، حيث إنني كنت ذلك الضابط الجديد في وكالة الاستخبارات الذي يدعي المعرفة والخبرة في كل شيء. إلا أنه من المذهل الآن، وبعد مرور عقدين من الزمان، كيف يتم تجاهل هذه "المعطيات أو الإشارات" أو في أفضل الحالات، يتم استخدامها بشكل جزئي وبسيط. حيث إنني لم أعرف ومنذ العام 1945 بفشل في السياسة الخارجيّة والعسكريّة الأميركيّة، أكبر من فشل السياسيين الأميركيين في استغلال المعطيات والذي أدى بدوره إلى كارثة مريعة وذلك بدءاً من الفترة التي سبقت الحملة الأميركيّة في أفغانستان وحتى بعد القيام بها. مع أن المكلفين بقضية العراق لا زالوا يبحثون في هذا الصدد. إن أدائنا في أفغانستان كان سيئاً لدرجة أنه يمكن للمرء أن يتخيل قائمة طويلة من المعطيات - كجثة جون براون - وهي ترقد في خزانة في الأرشيف يعلوها الغبار وقد أكل عليها الدهر وشرب. لذا فمن الصعوبة بمكان أن نخالف تنظيم القاعدة في تقييمه للحملة الأميركيّة الأفغانيّة، كما جاء في تقييم الصحيفة اليوميّة التابعة للقاعدة على الإنترنت - الأنصار - وذلك في أغسطس 2002: **"حيث إنه من الواضح أن الإدارة في الولايات المتحدة، وفي تحديدها لهذا الهدف [كسب الحرب في أفغانستان]، لم تباشر عملياتها انطلاقاً من دراسة متعمقة ودقيقة للعدو الذي كانت بصدد مواجهته. لكنها عوضاً عن ذلك، انطلقت من حالة هستيريّة جعلت موقفها يفقد**

القواعد العلميّة الأساسيّة التي يجب أخذها بعين الاعتبار عند اتخاذ قرار ما"[4] (مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

في بداية الحرب: ثمن الفشل الذريع، الحادي عشر من سبتمبر والسابع من أكتوبر 2001

تقع اعتداءات نيويورك والبنتاغون في الحادي عشر من سبتمبر في أسفل قائمة انتصارات القاعدة الكثيرة. فقبل ذاك اليوم الذي تطلق عليه القاعدة اسم "ثلاثاء النصر"، وهو يوم "الهجمات المباركة ضد العالم الكافر"، والذي تصفه المؤرخة ماليس روثفن على أنه "أكبر مثال حيّ على الدمار وعلى عقاب العجرفة والتكبر الذي تمرغ في التراب"[5]. في ذلك اليوم أضاف مقاتلو بن لادن انتصاراً جديداً إلى سلسلة انتصاراتهم الطويلة في كل من عدن - اليمن (1992)، مقاديشو - الصومال (1993)، الرياض - المملكة العربيّة السعودية (1995)، الظهران - المملكة العربيّة السعودية (1996)، نيروبي - كينيا، ودار السلام - تترانيا (1998)، ثم عدن - اليمن مرة أخرى (2000). ونظراً إلى هذه الاعتداءات وتزايد قوة تدميرها وحقيقة وجود بن لادن وتمركزه وتنظيمه في أفغانستان منذ مايو 1996، لا بد وأن يتوقع المرء من الحكومة الأميركيّة أن تكون قد أعدت قواتها العسكريّة؛ إذا لم يكن بعد وقوع اعتداءات شرق أفريقيا في العام 1998، فمن المؤكد أن تكون قد أعدت عدتها بعد هجمات عدن عام 2000، وذلك للردّ مباشرة على هجوم القاعدة التالي والذي يمكن أن يؤكد حدوثه أي شخص كان يستمع لأقوال بن لادن. حتى ولو قامت إدارة كلينتون التي تسيطر عليها مجموعة من الجبناء بحسابات سياسيّة منعت تشكيل قوة دفاعيّة في أواخر العام 2000، كان لا بد للمواطنين الأميركيين وقادة القاعدة من أن يكونوا على ثقة بأن أعظم قوة عسكريّة في العالم لن تدع هجوماً ضد الولايات المتحدة يمرّ وكأن شيئاً لم يكن. كما حدث عندما عادت المدمرة USS Cole إلى الوطن محملة على حوض إصلاح السفن بعد أن ضربها بن لادن وكذلك ضربت الانتخابات الرئاسيّة عام 2000 وانتهت إلى هذه النهاية المحزنة. فبعد كل ذلك، كان الافتراض المنطقي يقول إنه عندما يضع بن لادن يده على

الزناد ليطلق الرصاصة التالية لضرب أميركا، ستخترق جسده ضربة تصيبه في الصميم يوجهها هجوم عسكري أميركي مدمر على أهداف للقاعدة وطالبان تم تحديدها منذ زمن طويل. لا بد أنه كان من ضمن تلك الأهداف معسكرات تدريب، ومطارات، ودفاعات جويّة، ومنشآت حكوميّة في مدن أفغانيّة كبرى، ومستودعات للعتاد الحربي، والآليات، ومخازن للذخائر، وأقبية تخزين الأسلحة، ومنشآت صناعة تنقية الهيروين التي كانت تساعد في تمويل طالبان والقاعدة، وثكنات الجنود، والمقرات الرئيسيّة للاستخبارات، ومجمعات الأنفاق والكهوف التي تم تحديد مواقعها منذ الثمانينات. إن هجوماً مباشراً كهذا لن يتم لأن بن لادن يستحق ذلك فحسب، بل لأن الجنرالات الأميركيين كانوا يعرفون أن عليهم أن يقوموا بتوجيه ضربتهم القاضية إلى طالبان والقاعدة بسرعة وبقوة قبل أن ينتشر هؤلاء في الجبال والقرى الأفغانيّة أو يعبرون الحدود إلى باكستان، وإيران، أو آسيا الوسطى. وعلاوة على ذلك فإن ردّاً أميركياً فورياً كان ممكناً لعلمنا أن العدو لا يمكنه أن يردع هجوماً كهذا. فأسطول طالبان الجوّي ونظام دفاعها الجوّي برمته عبارة عن خردة سوفييتيّة عمرها ثلاثين عاماً وهي مقاتلات ميغ قديمة لم تمتد إليها يد عامل صيانة أبداً، ورادارات ولى زمانها، وأسلحة مضادة للطائرات تعود إلى حقبة فييتنام. وقد صادق على هذه المعلومات التي كانت لدينا قبل الحرب، الفريق في القوات الجوّيّة الأميركيّة سي. إف. والد. حيث قال إن دفاعات طالبان الجويّة وأنظمة التحكم لديها قد دمرت "في الخمس عشرة دقيقة الأولى أو نحو ذلك" من بداية الحرب. وبشكل عام، فإن الملا عمر لم يكن قادراً على التدخل وشنّ هجوم معاكس ضد القوات الأميركيّة اعتماداً على قوة رجاله، وأسلحته، ومنشآته. وقد كتب دون تشيبمان رأيه بصراحة في تاريخ القوات الجويّة: "من حيث الأسلحة التقليديّة، لم تكن دفاعات طالبان قويّة بما فيه الكفاية"[6].

لم تثر قوة الولايات المتحدة العسكريّة الرعب في قلب بن لادن حيث إنه صرّح مرات عديدة بعد الهجوم الذي شنّه على المدمرة كول، أنه ينوي ضرب الولايات المتحدة في أراضيها وفي الخارج متوعداً بأن كل هجوم سيكون أقوى من سابقه كمّاً ونوعاً أي أن عدد الضحايا سيكون أكبر وكذلك الدمار من الناحية

الاقتصاديّة أيضاً. لقد كان بن لادن برأي معظم الأميركيين يلعب بالنار، فمن المؤكد أن القوات العسكريّة الأميركيّة قد حددت وصوبت أسلحتها إلى القاعدة وطالبان في أفغانستان إضافة إلى أهداف مواقع تابعة لها في السودان، واليمن، والصومال، والفليبين. ففي النهاية دولة كالولايات المتحدة تمتلك أقماراً صناعيّة مهمتها الاستطلاع والتجسس، ومقاتلات جويّة تحلّق على ارتفاعات عالية جداً، ووكالة استخبارات يدفع عليها ثمانية وعشرين مليار دولار، وأكثر الأسلحة فتكاً في العالم، لا بد وأن تكون قادرة على ضرب رجل تمكن من العثور عليه، واللقاء به، وتغطية أخباره صحفيون كثر كبيتر بيرغن، وعبد الباري عطوان، وجون ميلر، وروبرت فيسك، وحامد مير، وجمال إسماعيل، وبيتر أرنيت، ورحيم الله يوسفساي. وحتى الأميركي الطالباني جون واكر ليند التقى بن لادن عدة مرات. وقد افترض الأميركيون - بكل ثقة - أن بامتلاك الولايات المتحدة لكل هذه الوسائل إضافة إلى مرور خمس سنوات من التخطيط لشنّ هجوم معاكس منذ إعلان بن لادن الحرب على أميركا عام 1996، أن هجوم القاعدة سيكون الأخير.

إلا أن التوقعات - كما هي الحال في أميركا اليوم - المبنيّة على المنطق وأسس التصرف السليم، أثبتت خطأها عندما خططت القاعدة ونفذت ببراعة وذكاء الهجوم الذي استمر أكثر من ساعتين يوم الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. وبينما أخذت كتل الدخان تتصاعد فوق انتصارات القاعدة العظيمة في نيويورك والعاصمة واشنطن، لم تقم الحربيّة الأميركيّة بأي ردّ مباشر عنيف ومدروس، حيث إنه لم تكن هناك أي استعدادات ليوم كهذا ولم يخطط لأي دفاع في الأشهر الأحد عشر التي تلت الاعتداء على USS Cole وحتى ذاك اليوم أو منذ خمس سنوات عندما أعلن بن لادن الحرب. إلا أن الغريب في الأمر أن مجلس الأمن القومي ومكتب التحقيقات الفدراليّة FBI أسرعا إثر الاعتداءات في ترحيل أفراد عائلة بن لادن الذين يبلغ عددهم أكثر من عشرين شخصاً من الولايات المتحدة إلى السعودية. إلا أن مكتب التحقيقات الفدراليّة لم "يتأكد فيما إذا كان أفراد عائلة بن لادن الذين تم ترحيلهم، بعيدون من الناحية الشخصيّة والماديّة عن أسامة"[7].

بالرغم من أن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر تسببت في فاجعة إنسانيّة

واقتصاديّة، إلا أن فشل واشنطن في إعداد قواتها العسكريّة لشنّ هجوم معاكس على القاعدة في اليوم التالي حوّل تلك المأساة إلى كارثة حقيقيّة. فقد كلّف ذلك أميركا ضياع فرصة ذهبيّة - وقد تكون فرصتها الوحيدة - لتنفيذ عمليّة "استئصال" تمكنها وبضربة واحدة من قتل العديد من قادة القاعدة وطالبان. وحتى لو نجا القادة من تلك الضربة، فستتبعها القوات الأميركيّة بضربات متلاحقة وتقضي على الآلاف من جنود العدو. غير أنه لم يتم تنفيذ أي هجوم يوم الثلاثاء في الحادي عشر من سبتمبر أو الأربعاء في الثاني عشر أو الخميس في الثالث عشر وحتى بعد ذلك، حيث إن عدم القيام بأي حركة أو عمليّة هجوم معاكس - هذا الأمر المخزي - لم يتم تجاهله عالمياً فحسب، بل وقد قام باحثون أمثال فريدريك دبليو كيغن بتعنيف إدارة بوش ولومها لا على الشلل الذي أصابها بل على الاستسلام "لرؤيتهم المغلوطة بعدم التسرع في شنّ عمليات عسكريّة في أفغانستان"[8].

وفي الأيام الأولى التي تلت الاعتداءات، كثرت الأعذار ذات الطبيعة الكلينتونيّة حيث قال البعض: "لا بد أن يكون لدينا أولاً دليل دامغ على تورطهم". و"لا يمكن أن يكون ذلك من صنع القاعدة، لا بد أن هناك دولة ما وراء ذلك كإيران أو العراق"، "ماذا عن حزب الله؟"، أو تلك الأعذار القديمة التي تريد تبرير ذلك الكسل السلبي مثل: "يجب أن نستشير حلفاءنا أولاً ثم ننشئ ائتلافاً" ثم كان أولئك الذين كانت استجاباتهم البافلوفيّة تلوم أميركا، وتدعو بشكل ضمني إلى ردّ عسكري محدود، حيث أكد الخبير في قضايا الإرهاب برايان إم. جينكيتز بكل سخافة أن "أسامة بن لادن هو إلى حدٍّ كبير من صنعنا، حيث إن الولايات المتحدة هي التي شجعته وساعدته في شنّ حربه المقدسة على الجيش السوفييتي في أفغانستان"[9]. وقد ألبست هذه الافتراضات المغلوطة، والتعليقات السخيفة التي كثرت آنذاك، الولايات المتحدة ثوب الاتزان والرصانة والرغبة - التي ترضي أوروبا أيضاً - بتجنب شنّ هجوم معاكس على هدف خاطئ. على الرغم من أن أميركا لم تعرف إلا خصماً واحداً منذ العام 1996 وهو عدوها الذي أعلن الحرب عليها وهاجمها. ولدى استعراض الأحداث يتضح أن كل تلك الأعذار والأقاويل

كانت تهدف لتغطية حقيقة أن الجيش الأميركي لم يكن مستعداً على الإطلاق، فلم تكن هناك أي قوات متوضعة في مواقعها، وليست هناك أي خطة عسكريّة واضحة المعالم، حتى أنه لم تكن هناك أي خطة لتدمير مصانع الهيروين الأفغانيّة التي قتلت عدداً يفوق ما حصدته هجمات الحادي عشر من سبتمبر من أرواح الأميركيين. ولم يكن في جعبة الجيش إلا الإهمال والتقصير على أوسع نطاق. "إن الجيش الأميركي، الذي يبدو أن لديه خطط طوارئ لأسوأ ما يمكن تخيله، لم يكن في جعبته أدنى تصور أو خطة حيال أفغانستان، معقل بن لادن وشبكته. حيث إنه لم يكن هناك أي شيء على الرف يمكن سحبه والاستعانة به لوضع خطوط عريضة على الأقل لخطة ما"[10]. هذا ما جاء في كتاب بوب وودورد *بوش في الحرب*، هذا الكتاب المثير للرعب والدهشة في آنٍ معاً من حيث وصفه للدعم شبه المعدوم، والمعلومات الشحيحة التي تلقاها الرئيس وهو يقود أميركا إلى الحرب. وكان أفضل ما أمكن فعله هو طلب وزير الدفاع دونالد رامسفيلد من المسؤولين عن التخطيط في وزارته بتقديم دراسة عن "خيارات عسكريّة معقولة" وذلك كان في الثاني عشر من سبتمبر، وهذا بحدّ ذاته دليل دامغ على التقصير والإهمال، وقد تلقى الردّ في الواحد والعشرين من سبتمبر. ثم أعاد الدراسة إليهم في الأول من أكتوبر طالباً تفصيلاً أكثر "من تحديد للأهداف ومتطلبات القوات العسكريّة"، ولم تحصل هذه الخطة على موافقة الرئيس بوش حتى الثاني من أكتوبر[11]. وهكذا تأخر الردّ العسكري الأميركي شهراً كاملاً. "في أميركا فقط، يمكن أن تستهين القوات المسلحة بالدفاع المباشر عن أراضي الوطن"[12].

وقد أمنّ هذا التأخير غير المبرّر، لقادة القاعدة وطالبان وقتاً كافياً لنشر كوادرهم، ومخازن عتادهم العسكري، وأموالهم في أرجاء أفغانستان التي تقارب مساحتها مساحة ولاية تكساس، ومن ثم عبروا الحدود نحو إيران، وباكستان، وآسيا الوسطى ومن هناك إلى باقي أنحاء العالم. وربما كانت هذه العمليّة قيد التطبيق قبل الحادي عشر من سبتمبر، لأن القاعدة كانت تتوقع هجوماً عنيفاً من الولايات المتحدة منذ تفجيرات شرق أفريقيا عام 1998، وعلى وجه الخصوص بعد ضرب المدمرة كول في أكتوبر من العام 2000. "إن من المعروف أن الحملة

الصليبيّة ضد الإسلام وأفغانستان قد تم التخطيط لها منذ زمن طويل، حتى قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر"[13]. هذا ما صرحت به القاعدة في يوليو عام 2002. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تم تحذير بن لادن قبل ستة أيام من هجمات الحادي عشر من سبتمبر وقد يكون قد استعد وقام باتخاذ تدابير احتياطيّة. بالرغم من ذلك، هذا العدو، الذي كان معرضاً لخطر هجوم، كان من الممكن إحداث أضرار جسيمة في صفوفه يوم الحادي عشر من سبتمبر، إلا أنه أصبح عند بداية الحرب في السابع من أكتوبر بعيداً عن أنظار أميركا وقادراً على متابعة عملياته التي تهدف لضرب أميركا في كل أنحاء العالم. وبذلك ربما تكون أميركا قد خسرت الحرب على القاعدة في الحادي عشر من سبتمبر لأن الجيش الأميركي كان عندئذ غير مستعد لها على الإطلاق. أما التأخير الذي طال لثلاثة أسابيع فقد ضيّع على أميركا فرصة الردّ على هجوم للقاعدة، ولو لمرة واحدة، بعنف وتعطش للدماء كان بإمكانه أن يجعل بن لادن يدفع ثمناً غالياً لهجماته، وكان الرأي العام والحكومات الغربيّة ليجيزان ذلك لأن صور تداعي البرجين والبنتاغون المحترق كانت لا تزال ماثلة في القلوب والعقول. غير أن نافذة الوحشيّة كانت قد أغلقت بحلول السابع من أكتوبر، وأخذت أصوات المنتحبين الذين يرفعون شعارات "الخسائر الإضافيّة" و"الأفغان المساكين" تُقيّد شيئاً فشيئاً قدرة الرئيس بوش على اتخاذ إجراءات "عنيفة" على حدّ تعبير أحد المتشددين من موظفي وكالة الاستخبارات المركزيّة المحيطين به. وقد قام غراهام أليسون، الأستاذ في جامعة هارفرد بوصف الأثر السلبي الذي سببه فشل الولايات المتحدة في الاستعداد لمثل هذا الهجوم في مقالة كتبها في الإكونوميست *The Economist* في نوفمبر عام 2001: "إن حالة الطرفين المتحاربين كانت مختلفة كاختلاف الليل والنهار. حيث إن الأميركيين كانوا في طريقهم إلى حرب لم يعدوا لها العدة، بينما أمضى الإسلاميون الأصوليون وقتاً طويلاً في الاستعداد لها.

> غير أن الحكومة الأميركيّة وهي تندفع لخوض حرب لم تستعد لها، كان عليها أن تفعل كما يقال: "أن تمضي مستعينة بما تمتلك من وسائل". وذلك بجمع ائتلاف من رفاق لا يجمعهم أي أمر مشترك، وباكتساب معلومات استخباراتيّة من

مصادر ووسائل كانت قد أهملت معظمها في السابق. وبإقامة دفاعات حول أكثر مناطقها ضعفاً من الناحية الأمنيّة. ثم بدأت بالجري في كافة الاتجاهات كفرس جامحة، دون أن تقوم بتقييم دقيق للأخطار التي تتهددها الآن، ودون أن تضع استراتيجيّة متينة تمكنها من الفوز في حربها على الإرهاب العالمي.

وفي الجهة الأخرى، كان السيد بن لادن وشبكته من أعضاء تنظيم القاعدة، يفكرون، ويخططون، ويتدربون استعداداً لهذه الحرب منذ أكثر من عشر سنوات. إن أحداث الحادي عشر من سبتمبر أظهر مستوىً من الحنكة، والذكاء، والجرأة لم تكن لتتصوره الحكومة الأميركيّة أو أي حكومة أخرى من قبل[14].

وفي القسم التالي، سأحاول أن أُفسّر لماذا لم تستعد أميركا عن عمد، لهجمات نيويوك وواشنطن، وما هو الثمن الذي تستمر بدفعه لعدم استعدادها ذاك حتى الآن. وسيكون آخر ما تدفعه أميركا – بالطبع – كثمن لعدم استعدادها، هو بعد الهجوم التالي الذي ستشنه القاعدة في الولايات المتحدة. وعندها ستقف أميركا وهي تستشيط غضباً وهي بكامل قوتها وعظمتها لكنها عاجزة عن الردّ إلا إذا كان في نيتها تدمير المقاطعة الحدوديّة الشماليّة الغربيّة من باكستان والتي يعتقد أنها تأوي مقاتلي طالبان والقاعدة، إن من شأن هذه الضربات تدمير باكستان لا عدونا. وقد كتب في هذا السياق جوناثان ستيفنسن في صحيفة *وال ستريت*: "إن القاعدة اليوم أقل عرضة لأي إجراءات تهدف لمكافحة الإرهاب مما كانت عليه قبل الحادي عشر من سبتمبر، وذلك لعدم وجود قاعدة إقليميّة لها تعيق من حركة أعضائها وحريّة انتشارهم، وتجعلهم هدفاً سهلاً لصورايخ كروز"[15]. وإذا استبدلنا كلمة "أقل" بكلمة "ليست" فسيكون ستيفنسن قد قدّم الرؤية الدقيقة والصحيحة تماماً للوضع.

إلى أفغانستان: بلد مأساوي... وتحليل سخيف

أفغانستان، من الصعب التفكير بدولة في العالم عانت بقدر ما عانت أفغانستان في ربع القرن الماضي. فمنذ أن احتلها الجيش الأحمر في ديسمبر عام 1979، قام الأفغان بشنّ حرب دفاعيّة لطرد الكفرة الأجانب من بلادهم. وحتى اليوم كان النجاح حليفهم إلى حدٍّ ما، لكن ثمن نجاحهم كان باهظاً لدرجة لا

يمكن أن يتصورها العقل، فقد دفع البلد الذي كان يبلغ عدد سكانه قبل الغزو قرابة خمسة عشر مليون نسمة ثمناً لحريته، حوالى مليون ونصف مليون قتيل، وحوالى خمسة ملايين مهجّر إلى معسكرات اللجوء الباكستانيّة أو الإيرانيّة، بالإضافة إلى عدة ملايين تم ترحيلهم عن أراضيهم لينتشروا داخل أفغانستان. هذا عدا عن التخريب الذي تعرضت له أثناء الحرب أنظمة الري والزراعة في المصاطب التي تعود إلى عدة قرون مضت، والتي كانت تعد أساس الاقتصاد الأفغاني، سواء بسبب عوامل هدم طبيعيّة بعد أن تركها المزارعون الذين أجبروا على الرحيل أو بتعبير أدق، بسبب التخريب المتعمد الذي افتعله السوفييت وذلك في سياق سعيهم الحثيث لإبعاد سكان المناطق التي تدعم حركات المقاومة والتمرّد عن أراضيهم. كما تم تدمير نظام الطرقات المحدود بنفس الطريقة. وقد دفع الفقر المدقع – الذي نجم عن سنوات طويلة من الحرب – بالمزارعين إلى استبدال زراعة الحبوب والفواكه ببرنامج مربح لزراعة الخشخاش لرفد صناعة الهيروين الآخذة بالتوسع. وقد قال أحد المحللين الغربيين للحرب السوفييتيّة الأفغانيّة في هذا السياق: "لقد أنزل الاتحاد السوفييتي بأفغانستان آلاماً ومعاناة فاقت الأهوال التي أنزلها الألمان بالاتحاد السوفييتي في الحرب العالميّة الثانية"[16]. إلا أن الأفغان وهم يعيشون هذا الكابوس المرعب، استمروا بحربهم ضد الأجانب وتأثيرهم – حتى في ما بينهم – وتشبثوا بأسلوب حياتهم الذي تسوده الطقوس القبليّة والعرقيّة إلى حدٍّ لا يمكن للغرب أن يتصوره.

وفي نهاية الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، عادت أفغانستان من جديد لتعتلي خشبة المسرح العالمي وتلعب دور البطولة وتكون عما قريب الهدف الذي حددته الولايات المتحدة مؤخراً لتصيبه في الصميم. وبتأمل هذه الحقيقة فإن قادة أميركا السياسيين، وجنرالاتها، ومخططيها العسكريين يجب أن يمتلئوا بهجة وسروراً لأن أسامة بن لادن والقاعدة اتخذوا من أفغانستان مقراً رئيسياً لهم. حيث إن جماعة الاستخبارات الأميركيّة بالإضافة إلى الجيش الأميركي، بمجال أضيق، كانوا معنيين بشكل مباشر بأفغانستان وما حولها حتى قبل أيام الاجتياح السوفييتي عام 1979 وذلك يعود إلى موقع أفغانستان الاستراتيجي، بالنسبة للحرب الباردة، في المنطقة

الحدوديّة الجنوبيّة من الاتحاد السوفييتي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تلك المؤسسات قامت - بقيادة وكالة الاستخبارات المركزيّة - بتطبيق أكبر، وأغلى، وأكثر برنامج تم الإعلان عنه لأكبر عمليّة سرّية في تاريخ الولايات المتحدة بدعمها للمجاهدين في أفغانستان في حربهم ضد السوفييت. وقد تكلل ذلك البرنامج الذي استمر ثلاثة عشر عاماً بالنجاح عندما انسحب آخر جنرال بولشيفي من أراضي أفغانستان في فبراير عام 1989، وعندما تم القضاء على النظام الأفغاني الشيوعي في أبريل عام 1992.

وفي سياق تنفيذ هذه العمليّة، كوّن عدة مئات من المسؤولين العسكريين، وضباط المخابرات، والمحللين، واللوجستيين، والمدربين الحربيين، والأطباء، والجغرافيين، ومحللي الصور، وخبراء القنابل المدمرة وسائقي البغال، وأخصائيي الاتصالات، ورسامي الخرائط خبرات واسعة وجمعوا معلومات متعمقة عن أفغانستان. وبذات الأهميّة، قاموا بتجربة التعرف عن قرب على الرجال الذين يتسمون بالصبر، والشجاعة، والورع، والعنف والعناد والذين تمكنوا من دحر السوفييت والأفغان الشيوعيين. وبالإضافة إلى ذلك فقد شارك المئات من ضباط إدارة التطوير الخارجي في وزارة الخارجيّة، في رسم معالم السياسة الأميركيّة في أفغانستان من النواحي الديبلوماسيّة، والاقتصاديّة، والإنسانيّة. وأخيراً كثرت متطلبات أعضاء الكونغرس من البرنامج السرّي في أفغانستان، وأخذ العديد من أعضاء مجلس الشيوخ والكونغرس يطالبون المسؤولين عن البرنامج بتقارير يوميّة مفصلة حول الحرب، كما سافروا بشكل متكرر إلى المنطقة وصوتوا بحماس لرفع الميزانيّة الآخذة بالتزايد بشكل مستمر والمخصصة للعمليّة الحربيّة السرّية. وقد تراوحت دوافع هذا الحماس بين السياسيين بين من كانت لديه الرغبة بمدّ يد العون للشعب الأفغاني المسكين الفقير لصد العملاق السوفييتي المدجج بالأسلحة النوويّة، إلى من كان ببساطة يتوق إلى الانتقام من موسكو بسبب فيتنام.

في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 كانت الفكرة الأساسيّة عن أفغانستان هي أنها بلد يعرف الأميركيون جغرافيته رغم صعوبتها، ويعرفون مداخله ومخارجه، بالإضافة إلى أن وكالات الاستخبارات الأميركيّة جمعت عنه كماً هائلاً من

المعلومات معظمها حديث العهد يغطي كل المستجدات. فقد كان لدى الولايات المتحدة خبراء في كل ما يتعلق بالحقائق الثابتة في أفغانستان إضافة إلى خفايا المجتمع الأفغاني، وتاريخه، ونظامه القبلي، وديموغرافيّة البلد، وطبوغرافيته وحتى في دور المجموعات العرقيّة المتعددة ونزاعاتها التي تكون خطيرة أحياناً وتأثيرها على أفغانستان. والأهم من كل ذلك هو الخبرة التي اكتسبتها حكومة الولايات المتحدة في التعامل وجهاً لوجه مع الأفغان، وإدراكها للإصرار العنيد والصبر الذي لا حدود له الذي يتمتع به الأفغان، خاصة عندما يحملون السلاح في وجه الأجانب الذين يسعون لفرض إرادتهم على بلدهم. وأكثر ما كان يعلمه هؤلاء الخبراء هو أنه من المستحيل إقامة حكومة مركزيّة بأسلوب غربي ديموقراطي تتشارك فيها جميع القوى في كابل. كما كانوا يدركون تماماً أن أي محاولة للقيام بذلك سيكون مصيرها الفشل المحتم، وستقود هذا البلد الذي تعرض للأذى الشديد من جديد إلى طريق طويلة تراق فيها الدماء ستنتهي في وقت من الأوقات بإعادة حكومة إسلاميّة أصوليّة يسيطر عليها البشتون إلى البلاد، ستكون نسخة طبق الأصل عن طالبان لا يميزها عنها إلا الاسم.

باختصار، كانت قائمة "المعطيات أو الإشارات" طويلة للغاية، كما أن الخبراء المؤهلين الذين قدموا تلك المعطيات كانوا كثيري العدد، وبالرغم من ذلك - ولسوء حظ الأميركيين والأفغان - لم يتم فحص أي من تلك المعطيات أو التحقق منها. في الحقيقة، إن المعلومات الرسميّة التي اعتمدت عليها الاستخبارات الأميركيّة في استراتيجيتها الحربيّة في أفغانستان في السابع من أكتوبر عام 2001، كانت تدل على جهل رهيب بحيث بدا الأمر وكأن مهمة مستشاري صنّاع السياسة وتخطيط العمليّة السرّية كانت قد أوكلت إلى خبراء من أفريقيا وأميركا اللاتينيّة. وكما سأوضح لاحقاً، على سبيل المثال، الخطة التي وصفها بوب وودورد في كتابه بوش في الحرب على أنها "خطة تينيت" التي تم تطبيقها لأنها تتوافق والعقليّة الأميركيّة - بحيث نستخدم فيها نفوذ المال وعدد قليل من الأميركيين بينما ندع الأجانب يموتون من أجلنا - لا لأنها تعتمد على مخزون المعلومات الغني عن أفغانستان الذي تمتلكه الحكومة الأميركيّة[17]. غير أن الفشل الذريع الذي حاق بالاستراتيجيّة فور

تنفيذها أظهر الجهل الكبير لواضعي هذه الخطة بحقائق أفغانستان الدينيّة، والعرقيّة، والقبليّة.

إن الاستعانة بأناس عديمي الخبرة لوضع خطة استراتيجيّة كهذه، بينما كان الخبراء في متناول يدهم، إنما يعتبر عملاً مؤذياً بشكل خطير من طرف المجتمع الاستخباراتي ويمس الشعب الأميركي وقادته المنتخبين. لكن في نهاية الأمر ظهرت الحقيقة بعد بداية الحرب بقليل حيث نشرت النيويورك تايمز نقلاً عن "مسؤولين كبار في وكالة الاستخبارات" لم يعلنوا عن أسمائهم، ادعاءات تفيد بأن "الحكومة الأميركيّة لم تقم بالاستعانة بالخبراء الذين يمتلكون معلومات عن أفغانستان للاستفادة منها بالشكل المطلوب". وقد قاد أولئك المسؤولين الصحافيّة دايانا جين سكيمو إلى أن تستنتج في النهاية "أنه بينما كانت الولايات المتحدة في صدد شنّ حرب ضد الإرهاب ستتطلب ذكاء بشرياً، بالإضافة إلى القنابل الذكيّة، فإنها في الوقت نفسه تواجه نقصاً على المستوى القومي في الخبرات الأميركيّة في ما يخص لغات وحضارات أفغانستان وما حولها..."[18]. بينما كانت أميركا تعاني بالفعل من نقص في عدد الخبراء الذين يتحدثون اللغات المحليّة في تلك المنطقة، إلا أن الأمر الذي لا يمكن تصديقه هو أن "أي مسؤول يحتل مركزاً رفيعاً في الاستخبارات كانت لديه القدرة بأن يتشدق بالكذبة المفضوحة التي تقول إن الحكومة الأميركيّة لم يكن لديها المعلومات والخبرة الكافيّة عن جنوب آسيا وهي المنطقة التي رُجح أن تشهد أول حرب نوويّة في العالم. لقد اكتشفت من خلال عملي أن المجتمع الاستخباراتي يسرّب تصريحات كهذه عندما يفشل المدراء في المراكز العليا في تطوير كادر من الخبراء الحقيقيين، وعندما يريدون أن يكلفوا أحداً من "جماعتهم" مهمة إدارة البرامج التي لم يجدوا لها خبراء حقيقيين، أو عندما يريدون تحضير الشعب لقبول الفشل والهزيمة. ومن الواضح أن الدافع الأول لا ينطبق على الحالة هنا، كما أن عجرفتنا لم تترك مجالاً للتفكير بأننا قد نتعرض للهزيمة. وهكذا فإن الخبراء الحقيقيين أهملوا و لم يستعان بهم، ونحن الآن ندفع ثمناً باهظاً لأننا تجاهلنا نصيحة سن تسو بألا "نطالب أولئك الذين لا يمتلكون الموهبة أن يحققوا إنجازات عظيمة". وفي ما يلي نظرة على الكوارث التي حلت بأميركا في أفغانستان وتوقع

للكوارث التي ستتبعها. إن حصاد الألم هذا كان متوقعاً في الماضي وحتى في المستقبل الآتي لكن لم يتنبأ أحد بحدوثه، وذلك بسبب عدم تلقي أي رئيس أميركي تقارير وتحليلات من شأنها الأخذ بيده ليرى أبعد من الجانب الأسهل في الحرب وهو قصف طالبان التي لا تمتلك أي دفاعات جويّة.

عفواً، هل يعلم أحد أن الجيش الأحمر خسر حرباً في أفغانستان؟

لقد كان تصعيد العمليات العسكريّة الأميركيّة منذ أكتوبر عام 2001، مهولاً ومرعباً بالنسبة لأولئك الذين حالفهم الحظ وشاهدوا المجاهدين الأفغان وهم يجبرون الجيش السوفييتي على الانسحاب من أفغانستان. وبالرغم من أن الإعلام في أواخر العام 2001 انتقد جهل الحكومة الأميركيّة وانعدام معرفتها بأفغانستان، غير أن بعض الادعاءات – كما هو مذكور أعلاه – قد تكون أكثر خطأً من غيرها. وكما جاء في كتاب جورج كرايل الرائع حرب *تشارلي ويلسون*، فإن المساعدات العسكريّة الأميركيّة التي قدّمت إلى المجاهدين الأفغان عن طريق وكالة الاستخبارات المركزيّة، كانت تعتبر أكبر وأنجح عمليّة سرّية شهدها التاريخ الأميركي[19]، نظراً لضخامة هذا البرنامج الذي استمر لثلاثة عشر عاماً وتنوع طبيعته – بحيث اشتمل على مسدسات، وطعام، وآليات، وأموال، وتدريب، وأزياء عسكريّة موحدة، وشراب البرتقال، وحمير، وأشياء أخرى لا تخطر على بال – فقد اكتسب المئات من الضباط، والديبلوماسيين، ورجال الاستخبارات خبرة ومعرفة مهمة حول أفغانستان. وقد استمرت فترة عمل الكثير منهم في البرنامج الأفغاني لأكثر من الفترة المعهودة في الخدمات الفدراليّة التي لا تتجاوز عادة سنتين أو ثلاث سنوات، وهي فترة طويلة تتناسب وحجم هذا البرنامج الفريد من نوعه، بسبب الرغبة القويّة لرؤية الجيش الأحمر ينهزم أمام المدنيين، واللهفة الشديدة لردّ صفعة فيتنام إلى موسكو. كما فتن العديد من الضباط بروعة جنوب آسيا. وقد أُخذ الأميركيون في الثمانينات بسحر المنطقة كما أُخذ البريطانيون من قبلهم في حوالى العام 1870 حيث فتنهم شعب، وطبوغرافيّة وتاريخ منطقة، كانت قديمة عندما

اقترب الإسكندر بجيوشه من نهر الإندوس في القرن الرابع قبل الميلاد. ومع ذلك فحتى يومنا هذا لم تتم الاستفادة من أي من الخبرات الواسعة التي كلف اكتسابها ثمناً باهظاً، وهذا ما يمكن رؤيته في كارثة أميركا في أفغانستان التي يبلغ عمرها سنتين حتى الآن.

ومما ضاعف من صدمة عدم اعتماد أميركا على خبراتها في أفغانستان، فشلنا في تعلم الدرس من تجربة الاتحاد السوفييتي، وهي أحدث أمة انضمت إلى قائمة الأمم التي لم تتمكن من كسب أي حرب في أفغانستان. وهنا أيضاً ثمة دراسات مفصلة عن التجربة المريرة للسوفييت في أفغانستان، وهي متاحة للجميع في المكتبات المحليّة. فقد كتب جنود سوفييت من المجندين الإلزاميين، والضباط الميدانيين، والجنرالات، عدداً كبيراً من المذكرات عن أيامهم في الحرب. كما أن صحيفة جامعة كنساس كانت قد نشرت ترجمة قام بها ليستر غرو ومايكل إي. غريس لتقرير قائد أركان الحرب السوفييتي عقب انتهاء العمليات العسكريّة عن الحرب الأفغانيّة السوفييتيّة[20]. وتتحدث هذه الدراسة بشكل تفصيلي عما فعلته القوات المسلحة في أفغانستان - دون التطرق إلى الفظائع التي ارتكبتها هناك بالطبع - كما تقيّم الإجراءات السياسيّة والعسكريّة سواء الناجحة أو الفاشلة منها. وبشكل عام تصف هذه الدراسة خيبات الأمل التي تعرضت لها قوة عظمى معتدّة بنفسها وهي تحاول أن تتعامل مع شعب وبلد لم تكن قادرة على فهمه، ومع عدو استطاع أن يصد العمليات العسكريّة التقليديّة وأثبت قدرته العالية على التعامل مع القوات الخاصة (Spetsnaz) وقد أكد مسؤول روسي رفيع المستوى النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة في لقاء مع مسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة في أواسط سبتمبر عام 2001 قائلاً: "يؤسفني أن أقول لكم إنكم ستطردون من أفغانستان شرّ طردة". وعندها ردّ عليه أحد الأميركيين بكلمات ستكون موجودة يوماً ما في دراسة عسكريّة أميركيّة تتحدث عن الحرب الخاسرة التي خاضتها الولايات المتحدة في أفغانستان، حيث أكد له الأميركي بقوله: "سنقتلهم جميعاً، وسنعلّق رؤوسهم على الأعمدة، وسنزلزل الأرض من تحت أقدامهم"[21]. إن التبجح بالقوة والتظاهر بالشجاعة عوضاً عن التفكير المنطقي

السليم هي بحق خصال أبديّة يتصف بها الضباط العسكريون ومسؤولو الاستخبارات الأميركيّة.

إن ترجمة غرو للدراسة السوفييتيّة هي مادة يجب أن يقرأها كل من كان مسؤولاً عن غزو أفغانستان، وبصورة أعم، أي أحد يستعد لاستخدام القوى التقليديّة ضد منظمة كبيرة تتمتع بخبرة واسعة في قيادة حركات التمرد. وبغض النظر عن هذه الدراسة التي تعد مادة سهلة في متناول الجميع، فعلى المرء أن يفترض أن الأسلحة المتطورة التحليليّة المتعددة التي يمتلكها جهاز الاستخبارات الأميركي، لا بد وأنها قد حصلت إلكترونياً على فيض من التقارير السرّية حول جميع أوجه الحياة السياسيّة الأفغانيّة من الانقلابات على السلطة، والغزو، والاحتلال، والحرب إلى النصر الذي أدى إلى الانسحاب الكامل للسوفييت ومن ثم الحرب الأهليّة، وقيام طالبان، والمتاجرة بالهيروين على أوسع نطاق، ثم حكم الملا عمر وعودة أسامة بن لادن. ولا بد أن يكون الجهاز الاستخباراتي بشكل خاص قد قدّم تقارير مفصّلة عن سبب فشل وهزيمة الجيش الأحمر في أفغانستان وما الذي كان بإمكانه القيام به لينتصر. وبالنظر إلى غزارة المعلومات سواء العامة منها أو السرّية التي يبدو أنها ضاعت هباء دون أن يتم استغلالها، لذا فإن المرء يجد نفسه مدفوعاً لإعادة صياغة أقوال تشرتشل، بحيث أنه لم يحدث أبداً في تاريخ السياسة الخارجيّة الأميركيّة أن كان هناك هذا العدد الكبير من المسؤولين الذين فشلوا بإلقاء الضوء على هذا الكم من المعلومات ذات الصلة التي كان يمكنها أن تبعد الأذى والخطر عن العديد من مواطنيهم.

المعطيات أو الإشارات: يعتمد النجاح على الطريقة الأمثل التي يتم فيها جمع ومراجعة وفهم المعلومات وتحليلها بشكل صحيح. وربما تكون أكثر الملاحظات دقة حول فعاليّة عمليات السوفييت في أفغانستان، تنطبق للأسف على عمليات أميركا هناك بين العام 2001 والعام 2004. إن الملاحظات والانتقادات التي وردت في دراسة رئيس أركان الحرب السوفييتي المذكورة أعلاه من شأنها أن تقض مضاجع القادة الأميركيين الذين لم يقرؤوها قبل بدئهم "بزلزلة الأرض من تحت أقدام الأفغان" يوم السابع من أكتوبر عام 2001.

عندما قام القادة السياسيون الكبار في الاتحاد السوفييتي بإرسال قواتهم إلى الحرب، لم يأخذوا بعين الاعتبار خصائص أفغانستان التاريخيّة، والدينيّة، والقوميّة. وبعد دخول تلك القوات إلى أفغانستان أثبتت تلك الخصائص بأنها العوامل الأهم التي ستسيطر على طبيعة النزاع المسلح الذي سيستمر لفترة طويلة وسيكون قاسياً جداً. الآن أصبح من الواضح تماماً أن إرسال القوات السوفييتيّة إلى هذه الأراضي كان أمراً متهوراً وقد انجلت الحقيقة الآن التي تفيد بأن الأفغان، الذين ينطوي تاريخهم على قرون طويلة من الحروب بين مجموعات مختلفة متنازعة فيما بينها، لا يمكنهم أن يروا في هؤلاء المسلحين الغرباء إلا محتلين يريدون اغتصاب أرضهم بقوة السلاح. وبما أن هؤلاء الغرباء لا يدينون بالإسلام، فيضاف هذا إلى الشعور القومي بالعداء تجاههم. لقد كان هذان العاملين كافيين لإثارة مقاومة شعبيّة كبيرة بين أفراد هذا الشعب الذي أفشل محاولات مقاتلين مختلفين على مرّ العصور بالتغلب عليه. وهذا ما واجهته القوات السوفييتيّة عندما وصلت إلى أرض أفغانستان[22].

ومما يثير الاهتمام هو أن رئيس أركان الحرب السوفييتي حاول ربط فشل الجيش الأحمر بحقيقة أنه لم يسبق له أن خاض مثل هذا النوع من الحروب، مما يشبه إلى حدّ كبير كلام القادة الأميركيين الذين يقولون الآن إن القوات الأميركيّة في أفغانستان تخوض نوعاً "جديداً" من الحروب. ويرفض كل من غرو وغريس حجج رئيس أركان الحرب السوفييتي – وقد يكون موقف الأميركيين مماثلاً يوماً ما فيما يخص ادعاءات القادة "بخوض حرب من نوع جديد" – ويثيران نقطة مهمة وهي خوض الجيش الأحمر لحروب شبيهة عندما قمع حملات التمرّد في الحرب العالميّة الثانية، بالإضافة إلى الكم الكبير من المعلومات المتوافرة حول قتال الجماعات المتمردة في أفغانستان، والتي كانت متاحة قبل الاجتياح السوفييتي لأفغانستان عام 1979 بوقت طويل. "ولهذا، فإن فشل الهجوم الأولي الأربعيني الذي قام به الجيش السوفييتي في قتاله للجماعات المتمردة بطريقة 'حرب العصابات' لم يكن بسبب عدم وجود تجربة تاريخيّة مماثلة يمكنهم الاعتماد عليها". هذا ما جاء في انتقاد غرو وغريس الغاضب. "وعلاوة على ذلك فإن التجربة البريطانيّة في حدودهم الشماليّة الغربيّة الهنديّة، متخمة بحلول تكتيكيّة لقتال أجدادهم من المجاهدين. فاستراتيجيّة المجاهدين وتكتيكهم الحربي لم تغيره عقود طويلة من الزمان لذا فالدروس البريطانيّة لا تزال فاعلة"[23].

منذ اليوم الأول – حتى الشريك الأسوأ في الرقص كان غائباً عن الحفل

بحلول الأول من سبتمبر عام 2001 كانت حركة طالبان قد تمكنت من إلحاق الهزيمة بحلف الشمال متعدد الأصول العرقيّة، بمساعدة من القاعدة. وقد كان هذا الحلف بقيادة أحمد شاه مسعود يسيطر على 10 إلى 15% من الأراضي الأفغانيّة - وفي بعض التقديرات 5% فقط – وقد كان هذا الحلف قوة عسكريّة كتب عنها المؤرخ فريدريك دبليو كيغن "إنها قد أنهكت من الحروب المتواصلة مع طالبان"[24]. كما أن استمراريّة الحلف كانت تعتمد بشكل كامل – كما هي الحال دائماً - على ذكاء قائده المنقطع النظير كقائد حركة تمرد، وعلى حضوره الإعلامي القوي إضافة إلى المساعدات من أسلحة وتمويل التي كانت تمده بها كل من روسيا، وإيران، والهند، وأوزبكستان. وقد كانت الدول الثلاث الأولى تحاول من خلال مساعدتها للحلف، إغلاق أفغانستان، وعزلها كيلا تنتقل إليها عدوى طالبان وتؤثر على شعوبها. أما الهند فقد كانت تسعى من وراء ذلك لإقامة نظام في كابل معادٍ لباكستان يقوم بوضع قوات عسكريّة فاعلة بالقرب من حدود باكستان الغربيّة. كما أن فرنسا ظهرت في الصورة أيضاً حيث إنها قدّمت لمسعود دعماً معنوياً دائماً في كل المناسبات، بالإضافة إلى المساعدات العسكريّة السرّية، والتمويل الذي أغدقته على مقاتليه دون أن تكون لها أي مصلحة استراتيجيّة في أفغانستان التي لم تكن تعرف الكثير عنها في كل الأحوال، إلا أن تورطها في الأمر كان يعود فقط إلى علاقة الحب من طرف واحد التي كانت تربطها بصورة مسعود ومعاناته الطويلة كممثل تحوّل إلى مقاتل، وإسلامي معتدل. وهي صورة عمل مسعود على رسمها وترسيخها حتى أن الصحافيين الأوروبيين والسياسيين أفرطوا في استخدامها لأكثر من عشرين عاماً. ولا بد أن فرنسا بكت لموت قائد حلف الشمال وأحزنتها الأخبار التي أفادت أنه في الليلة التي سبقت موته ظل ساهراً يقرأ الشعر الفارسي جهراً مع عدد من زملائه حتى الثالثة فجراً.

كان بإمكان الدعم الخارجي مساعدة حلف مسعود على الصمود لبضع

سنوات أخرى، وربما مكنه حتى من إضافة أجزاء صغيرة من الأراضي إلى منطقة نفوذه خلال حرب الكر والفر مع طالبان. لكن في نهاية الأمر، حسمت طالبان المسألة ووقفت شامخة منتصرة في الأول من سبتمبر عام 2001، وأرست بقسوة دعائم نظام ثابت يعتمد على القانون، سادت سلطته على معظم الأراضي الأفغانيّة. والأهم من ذلك هو أن نظام الملا عمر أخذ يحظى بشعبيّة وقبول متزايدين لدى الشعب الأفغاني الذي وجد فيه نهاية لحرب العصابات، وعودة تدريجيّة للأمن لهم ولأولادهم ولممتلكاتهم القليلة. وبدا أن معظم الأفغان وجدوا في هذا النظام بديلاً عادلاً لتطبيق طالبان المتشدد والقاسي للإسلام السني.

وقد توّج نصر طالبان في التاسع من سبتمبر عام 2001 عندما نفذت القاعدة عمليّة تميّزت بالصبر والذكاء تم فيها اغتيال مسعود عندما جلس ليجري لقاءً صحفياً فوجد اثنين من مقاتلي بن لادن والقاعدة في انتظاره. فقد استغل مقاتلو القاعدة اعتقاد مسعود أن استمراريّة الحلف تتطلب تغطية إعلاميّة إيجابيّة وولعه الذي يعرفه الجميع بالتلاعب بالصحافيين وكسبهم إلى صفه، وقاما بتفجير نفسهما مع مسعود. ويعتقد أن عبد الرسول سيّاف الذي كان شريك مسعود في حلف الشمال وهو الآن رئيس الاتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان - والذي يصادف أنه صديق أسامة بن لادن - قد دبّر هذا اللقاء الذي أودى بحياة مسعود. وقد تمكن القتلة من اللقاء بمسعود "لأن سيّاف كان قد منح امتيازاً يسمح للعرب بتخطي الحواجز الأمنيّة"[25]. هذا ما جاء على لسان المهندس عارف، وهو ضابط كبير في حلف مسعود.

وقد قضى موت مسعود على فرص حلف الشمال بالاستمرار والبقاء كقوة سياسيّة وعسكريّة، ناهيك عن إمكانيّة كونه قوة من شأنها تشكيل إطار لحكومة محليّة. وقد كتب في هذا السياق البروفيسور مايكل دوران في فصليّة العلوم السياسيّة: "لقد قام بن لادن بالتخطيط لقطع رأس حلف الشمال وذلك ليزج به في حالة من الفوضى العارمة كيلا تتمكن الولايات المتحدة من الاستفادة منه واستغلاله بأي شكل من الأشكال"[26]. وبالفعل فإن عمليّة اغتيال مسعود التي تأخرت ثلاثة أسابيع عن موعدها المحدد، جنّبت طالبان عناء سحق فلول الحلف

الباقية، وبذلك تبددت آمال الولايات المتحدة في حصولها على حليف أفغاني. فقد كان مسعود هو حلف الشمال، لأنه لم يعدّ أي من رجاله لتولي منصبه بعد رحيله. وعندما كان على قيد الحياة، كان من الواضح أن "قادة الحلف" الآخرين كمحمد فهيم، وعبد الله عبد الله، ورشيد دستم، ويونس قانوني، وغيرهم كانوا في أحسن الأحوال قادة من الدرجة الثانية. ربما كانوا قادرين على العمل بفاعليّة كبيرة تحت إمرة القائد العظيم، لكنهم لا يستطيعون أن يحلوا محله. بالإضافة لعدم تمتعهم بالاحترام الكافي ضمن الحلف - مع أن أعضاء الحلف كانوا يخشون قانوني كونه المسؤول الأمني لمسعود[27] - كما أنهم لم يكونوا معروفين عالمياً.

وعندما أصبح قادة حلف الشمال في مواجهة انفجار تنظيمي داخلي، وهزيمة حربيّة أخيرة على يد طالبان، وجدوا ورقة رابحة في اللحظة الأخيرة يمكنها أن تكون حلاً يضمن استمراريتهم وهو الولايات المتحدة. فالاعتداءات التي تعرضت لها واشنطن ونيويورك على يدي القاعدة بعد 48 ساعة من اغتيال مسعود، تركتها مذهولة وغير مستعدة أبداً للقيام بردّ عسكري تنفذه قواتها العسكريّة، لذا قامت واشنطن بإحياء علاقاتها القديمة مع حلف الشمال مؤجلة بذلك موته المحتم. وبالفعل قامت الولايات المتحدة باستغلال حلف الشمال لفتح نافذة محليّة لقواتها الجوّيّة تمكنها من ضرب أفغانستان. وقد أبقت إدارة بوش حلف الشمال حياً، ومدّت بعمره لدرجة جعلت قادته يصدقون أنهم هزموا طالبان، وانتصروا في الحرب. إلا أن حقيقة الأمر هي أن أميركا انتصرت في معركة وحيدة مستغلة قوات تابعة لحلف الشمال تسيطر عليها العناصر الطاجكيّة والأوزبكيّة، وهي الآن "مدينة سياسياً لحلفائها المحليين" الذين كانوا يشكلون نظاماً هزيلاً لا يمكن الدفاع عنه[28]. وقد قال البروفيسور كيغن في ذلك: "في أي ظرف من الظروف، سيكون من الصعب تخيل دولة أفغانيّة مستقرة يسيطر فيها الطاجكيون والأوزبكيون على الحكم ويبقى البشتون تحت إمرتهم"[29] ولهذا فإن نهاية طريق الحروب لا تزال بعيدة، وهي حروب لن يتمكن الحلف من كسبها ما لم تمده الولايات المتحدة بعدد كبير من القوات المسلحة، وتقضي على تمرد القاعدة وطالبان، وتكون مستعدة لاحتلال أفغانستان إلى

الأبد. هذا المخطط يعدّ بعيد المنال حتى بالنسبة لأناس محظوظين كخلفاء مسعود.

إن الخطأ الذي اقترفته أميركا في الأشهر الأولى من حربها على أفغانستان لم يكن استغلالها لحلف الشمال لإبعاد طالبان عن الحكم، ولم يكن أيضاً تصوير الحلف على أنه قوة عسكريّة لها وزنها على المدى البعيد. بل من الواضح أنه كان على أميركا الاستعانة بحلف الشمال لتحقيق أهدافها بشكل سريع ومباشر لأنه كان الورقة الرابحة الوحيدة التي في يدها، حيث إنه كان في حالة حرب مع طالبان، وكانت لديه قوات عسكريّة في الميدان، والأهم من هذا وذاك أنه كان لديه عدداً كبيراً من المجندين مما جنّب أميركا - على الأقل على المدى القريب - الحاجة لنشر أعداد كبيرة من كتائب المشاة الأميركيين الذين قد يقتلون في أفغانستان بكل سهولة. لقد قام المخططون العسكريون الأميركيون بالتصرف بحكمة عندما استغلوا يأس الحلف الواضح بعد مقتل مسعود، غير أنهم لم يقيموا أي حساب للمستقبل. وقد كتب رالف بيترز في هذا الصدد: "إن أعداءنا يضعون خططهم للعب معنا على المدى البعيد، بينما نحن نلعب بأسلوب الهجوم في الشطرنج، حيث إننا لا نفكر أبداً أبعد من الخطوة التالية التي سنقوم بها"[30]. وقد ارتكبت واشنطن خطأً فادحاً نتيجة لسوء تقديرها، وزادت من الأمر سوءاً عندما لم تتمكن من رؤية أن الحلف كان على وشك أن يصبح جثة هامدة، وتصرفت كما لو أنه قد تضرر بشكل مؤقت نتيجة مقتل قائده. وبالإضافة إلى ذلك لم تدرك واشنطن أن الحلف لا يمكنه أن يتوسع ليشكل قاعدة لحكومة ديموقراطيّة في أفغانستان بعد القضاء على طالبان. إن هذه السلسلة من الأخطاء تستدعي دراسة أكثر، أما الآن فقد حان الوقت للنظر في بعض المعطيات التي كان من السهل التحقق منها والتي يبدو أن أحداً لم يكترث لها.

هل كلّف أحد نفسه عناء كتابة فروضه المنزليّة؟

ما هي المعلومات التي كنا نعرفها عن حلف الشمال في الحادي عشر من سبتمبر والتي كان بإمكانها أن تدلنا على الطريق الصحيح الذي كان علينا أن

نسلكه عندئذ وحتى الآن؟ حسناً، لقد كنا نعلم أن مسعود شكّل الحلف لمقاومة جماعات المجاهدين البشتون عندما أصبح القتال على أشده بين الفصائل التي تشكل المقاومة الأفغانيّة، وذلك بعد انهيار نظام الحكم الأفغاني المناصر للسوفييت في كابل في أبريل عام 1992. ومنذ البداية كان الحلف منظمة تسيطر عليها العناصر الطاجكيّة إلى حدٍّ كبير، إضافة إلى أن أغلب قادته كانوا ينتمون إلى مجموعة صغيرة من الأقليات الطاجكيّة الموجودة في البلاد أصلها من وادي بانجشير، مما يعني أن حلفاً كهذا ولد يائساً، ولم تكن لديه أي فرصة ليكون قاعدة لحكومة محليّة. وبالرغم من قيادة مسعود العبقريّة، فإن الهدف الذي نشأ الحلف من أجله، وهو إجبار البشتون على تقاسم السلطة بالتساوي مع الأقليات، كان هدفاً بعيد المنال. فالبشتون لم ولن يقيموا أي علاقة سياسيّة مع الأقليات، ما لم تكن لهم اليد العليا عليهم. لقد كان مسعود يتصف بدونكيخونيّة محزنة، فبالرغم من الثقة الكبيرة التي سيطرت على خطابه السياسي، إلا أن رجلاً في موقعه لا يمكنه إلا أن يأمل بأن تتدخل قوى ما وتجبر البشتون على التعامل مع الأقليات بعدالة.

وقد كان مسعود أهم طاجكي بانجشاري سياسياً وعسكرياً. وقد بذل جهوداً جبارة لجمع وتوحيد الأقليات العرقيّة الأخرى في البلاد من الأوزبك، وبشتون الشمال، والتركمان، والهزارا الشيعة، والإسماعيليين، وغيرهم تحت لواء الحلف. وقد أثمر عمله الدؤوب حيث إن قوات الجنرال الأوزبكي رشيد دستم انضمت إلى حلفه وكذلك حزب الوحدة، أكبر مجموعة شيعيّة في البلاد بالإضافة إلى بعض أعضاء النظام الشيوعي السابق. كما أضفى مسعود على الحلف تكاملاً زائفاً بعد أن سيطرت طالبان على القسم الجنوبي من أفغانستان بين عامي 1994 - 1995 وذلك بضم المجموعات البشتونيّة وكسب ولائها للحلف - بشكل يشوبه الغموض - بقيادة عبد الرسول سيّاف وقلب الدين حكمتيار إضافة إلى IULA والحزب الإسلامي. وقد أصبح الحلف في ذروة تماسكه بين أواخر العام 1995 وحتى منتصف العام 1996. إلا أنه بدأ يضعف بعد أن تمكنت طالبان من السيطرة على كابل في سبتمبر عام 1996، عندها أخذت قوات الحلف بالتراجع شيئاً فشيئاً إلى الشمال نحو مركز الطاجكيين.

وكما ذكر آنفاً، فإن طالبان بحلول الأول من سبتمبر كانت قد حاصرت الحلف وقواته في قطعة من الأرض لا تشكل سوى 10 - 15% من مساحة أفغانستان، متاخمة للحدود مع أوزبكستان وطاجكستان. وفي تلك المقاطعة التي تقطنها الأقليات العرقيّة، كان لدى الحلف عدد كبير من المقاتلين إلا أنه كان يعتمد في وجوده على المساعدات الماليّة والعسكريّة وغيرها من المساعدات التي كانت تأتيه من إيران، وروسيا، والهند وكانت فرصته في الإبقاء على الأرض التي يحتلها ضئيلة جداً ناهيك عن احتمال التوسع الذي كان شبه مستحيل. لكن مسعود، وبفضل عبقريته الحربيّة الفذة وشهرته العالميّة، كان السبب الوحيد الذي ضمن استمرار تدفق هذه المساعدات التي كانت السبب في بقاء الحلف على قيد الحياة حتى في أبسط أشكالها. وعندما قامت القاعدة باغتيال مسعود، مات الحلف معه، لأنه لم يكن هناك ببساطة أي أحد يمكنه استلام قيادة الحلف من بعده. ولو لم يحدث تدخل أجنبي بعد موت مسعود في التاسع من سبتمبر عام 2001، لكنا قد شهدنا هزيمة الحلف عسكرياً، وتضامن الشعب الأفغاني بالكامل مع حكم طالبان، وانبثاق بصيص من الأمل لأول فرصة لسلام وأمن تحظى به أفغانستان منذ قرابة ربع قرن.

إن كل هذه الأمور كانت في نطاق "المعلومات المعروفة مسبقاً" يوم الحادي عشر من سبتمبر بينما كان مركز التجارة العالمي والبنتاغون يحترقان. ولهذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا لم تؤخذ المعلومات التي أتت من دراسة المعطيات وتطبق أثناء التخطيط السياسي والعسكري للحرب على أفغانستان؟

ثمن التسرع في شنّ الحرب

من المؤسف أن الإجابة على هذا السؤال هي أنه لم يتم حفظ، ودراسة، وترتيب، واستخدام المعلومات المتوافرة. فبالنظر إلى المواضيع التي تمت مناقشتها في اجتماعات الرئيس، والوزراء، والمستشارين الرئاسيين التي تطرق إليها كتاب بوب وودورد *بوش في الحرب* حيث إنه من المحتمل ألا يكون أحد قد طلب الحصول على تلك المعلومات أصلاً[31]. فربما كان الأمر قد حصل كما في أفلام جودي

غارلاند وميكي روني أيام سينما الثلاثينات، فقد جمعت الهيئات الحكوميّة الأميركيّة أطفال الحي وأعطت كلاً منهم دوراً ونصاً مكتوباً، ثم توقعت أن تنتج مسرحيّة غنائيّة في الفناء الخلفي للمنزل بمستوى مسرحيات برودوي الاحترافيّة وقد يكون عنوانها - آندي هاردي يغزو كابل ويعيد إعمارها. لكن للأسف فإن النجاح الذي يحصده "التسرع في شنّ حرب دون تفكير" لا يحصل إلا في الأفلام وإن المحاولة التي قامت بها واشنطن لتطبيق حيل وأساليب هوليود في أفغانستان نجم عنها كارثة انفجرت في وجهها. وقد كان رالف بيترز حكيماً عندما وصف هذا الوضع بقوله: "إذا قام المرء بتدخل عسكري عن جهل بالظروف المحليّة، فعلى الأرجح سيكون الفشل حليفه، ومن المؤكد أنه سيدفع الثمن دماً"[32].

بالطبع لن يعترف أي مسؤول رفيع أميركي أو بريطاني بأن قرار الحرب كان قراراً متهوراً أو متسرعاً. وسيكون الردّ الفوري الذي قد يجيب به صانعو السياسة الأميركيّة أو المخططون العسكريون إذا ما سئلوا عن قيامهم بدراسة "المعطيات" ومراجعتها بشكل جيد مثلاً: "لم يكن لدينا الوقت الكافي للقيام بذلك". أو "كان علينا أن نعمل على المعلومات التي كانت بحوزتنا عندئذ". أو "كان علينا أن ندافع عن أميركا". وهي إجابات منمقة وبراقة، يمكن أن تصدق عندما كانت العواطف جياشة، ولم يكن من الممكن تحكيم العقل، وعندما لفت جثث قتلى الحادي عشر من سبتمبر بالعلم الأميركي. لكن الحقيقة أن تلك الإجابات مزيفة ومضللة. فعندما لم تقدر الولايات المتحدة وحلفاؤها على شنّ هجوم على من اعتدى عليهم عشية الحادي عشر من سبتمبر أو في اليوم التالي أو الذي تلاه، عندها كانت القاعدة وطالبان قد نجحا في الاختفاء عن الأنظار. ولهذا فقد كان لدينا الوقت الكافي للتفكير بما كنا نريد أن نفعله في أفغانستان، وننظم مصادر قوتنا، والأهم من هذا وذاك أن نعرف ونتقبل الأشياء التي لا يمكن أن تتحقق هناك. إلا أن هذا لم يحدث، وعوضاً عن ذلك قامت واشنطن بالهجوم وتكاتفت مع جماعة كان قادتها في أحسن الأحوال قادة من الدرجة الثانية من مافيا مسعود البانجشاريّة كفهيم، وعبد الله، وقانوني، والقائد الأوزبكي دستم. والنتيجة كانت، كما كتب الصحافي مايكل ماسينغ أن "الوزارات الأساسيّة في الحكومة [وهي وزارة الدفاع،

والخارجيّة، والداخليّة] هي بيد رجال ينتمون إلى مجموعة ثانويّة صغيرة من أقليّة عرقيّة... حتى أن العديد من الطاجكيين غير مرتاحين لسيطرة البانجشاريين لأنهم يرونهم مجرمي حرب"[33]. وقد قامت أميركا بإقامة علاقة صداقة مع دستم، وهو أكثر رجل مكروه في أفغانستان وذلك بسبب سلوكه منذ الحرب السوفييتيّة الأفغانيّة. حيث إن من العادات المحببة على نفسه أن يجعل الدبابات تدوس المدنيين أو أسرى الحرب وهم مشدودي الوثاق وإغراق القرويين من رجال ونساء، وأطفال وخاصة إن كانوا من البشتون بالبنزين ثم إشعال النار في أجسادهم. إن تصنيف دستم على أنه أحد أنذل وأحقر عشرة رجال في العالم قد تراجع فقط عندما ظهر على الساحة العالميّة عدد أكبر من الوحوش القتلة في البلقان وأفريقيا الوسطى.

بشكل عام، قامت أميركا بالتقاط حلف الشمال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأنعشته ليبقى على قيد الحياة، ووحّدت صفوفه وذلك بجهود عشرات من ضباط الاستخبارات الأميركيّة الذين يتمتعون بالشجاعة المتناهية، والموهبة الفذة، والحظ السعيد ثم قدّمت له الدعم للاستيلاء على كابل بمساعدة القوات الجويّة الأميركيّة والقوات الخاصة. وقد لعب قادة الحلف دورهم بشكل جيد، وهم يختالون بكبرياء وغرور، وهم يدخلون إلى كابل وسط تصفيق وهتاف حماسي التهبت به أكف سكان كابل الذين لا يمثلون أفغانستان، حيث إن كابل اليوم، وكما كانت قديماً، هي أقل انتماء للإسلام، وأكثر انفتاحاً على العالم من غيرها من المدن الأفغانيّة، وكشاهد على ذلك فإنها كانت في الستينيات مأوى للهيبيين، بالإضافة إلى استعداد الكابليين ورغبتهم في تقبل وجودهم اللاإسلامي وهي نقطة لم أسمع أي صحافي أو خبير إعلامي غربي يثيرها في سياق تحليل فرحة الجماهير العارمة بهزيمة طالبان. وقد قدّم بوب وودورد أفضل وصف لردّ الفعل الأميركي الذي كان ساذجاً لدرجة رهيبة، حيث جاء في كتابه *بوش في الحرب* "وفي الحال كانت هناك صور تلفزيونيّة لتحرير حقيقي، حيث خرجت النساء إلى شوارع المدينة لتفعل أشياء كانت محرّمة عليها في السابق. وقد شعرت مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس أن القادة الأميركيين قد استخفوا بالرغبة المكبوتة للشعب الأفغاني في الوقوف في وجه طالبان

والتصدي لهم"[34]. وأخذ قادة الحلف يتصرفون على أنهم المنتصرون الشرفاء أمام الكاميرات، بينما كانوا يغرقون العاصمة بهدوء وبسرعة، بمقاتلين وعناصر استخبارات لم يكونوا مختلفين عن مقاتلي طالبان الذين حلوا محلهم. لكن الحقيقة هي أن قادة الحلف كانوا ولا يزالون موتى لا حياة فيهم بدلاً من أن يكونوا زعماء وحكام حقيقيين للأراضي التي استولوا عليها.

وبما أن الولايات المتحدة لم تقم بدراسة موسّعة وعميقة لحلف الشمال، فليس من الغريب أن يزداد الضغط على قادة البشتون، الذين ألصقتهم أميركا الآن بالحلف الذي يقوده فهيم ليشكلوا حكومة مؤقتة "ذات قاعدة شعبيّة واسعة"، لدرجة أنهم سيشكلون كارثة ستنفجر في وجه أميركا. حيث إن المسؤولين الأميركيين كرروا نفس الإخفاق الذي باءت به مخططاتهم في أفغانستان بين عامي 1989 و1992 عندما حاولت الولايات المتحدة، والأمم المتحدة، وديبلوماسيون غربيون آخرون بناء حكومة ذات قاعدة شعبيّة عريضة - وبكلمات أصح لاإسلاميّة - لتحل محل النظام الشيوعي الأفغاني السوفييتي. وقد كان الهدف من تلك المحاولة - كما هو اليوم - هو تقليص مشاركة المجاهدين، الذين كسبوا الحرب في النظام الجديد إلى الحدّ الأدنى، أولئك الرجال الملتحين والمتزمتين، والمتخلفين، والعنيفين. وبعد أن قام الديبلوماسيون بتهميش هؤلاء الإسلاميين القذرين ذوي العقليات القروسطيّة وإبعادهم عن إطار الحياة السياسيّة، قاموا بمنح المراكز المهمة في الحكومة الجديدة إلى أناس يشبهونهم أي إلى أفغان علمانيين ذوي ثقافات وطباع غربيّة، ممن رفضوا الدفاع عن وطنهم، واختاروا حياة مريحة في بلاد لجأوا إليها طوعاً سواء في أوروبا، أو الهند، أو الولايات المتحدة إضافة إلى التكنوقراطيين الذين عملوا لمصلحة السوفييت والأفغان الشيوعيين، أو أفغان من رؤساء القبائل الذين كانوا قد هاجروا ليترأسوا مخيمات اللاجئين في باكستان أو إيران خوفاً من أن يقتلوا، أو الملك الأفغاني المخلوع الذي يعيش في روما مع رجال حاشيته الذين تطبّعوا بالحضارة الإيطاليّة وفضّلوها على حضارتهم، أولئك القادة الذين يرتدون بذات عسكريّة من صنع غوتشي، والذين لم يطلقوا رصاصة واحدة في حياتهم، وحتى نجيب الله السفاح الأكبر للنظام الأفغاني الشيوعي المدحور. هذه هي الحال دوماً مع

الديبلوماسيين الغربيين، حيث إن الرجال الأنيقين ذوي البذات الباهظة الثمن، والمعرفة السطحيّة بإحدى اللغتين الفرنسيّة أو الإنجليزيّة، والذين يحقدون على الدين ويحتقرونه بشدة، هم دائماً رؤساء وقادة أفضل من أولئك الرجال ذوي الشعر الأشعث الذين يلبسون ثياباً مضحكة تشبه ثياب النوم الذين كان إنجازهم الوحيد هو القتال وإلحاق الهزيمة بعدو قاتل جبار هو أكبر قوة عظمى في العالم في حرب استمرت عشرة أعوام لا أكثر. ففي كل مرة كان الأسلوب والشكل أهم من المصداقيّة والفعل.

وبعد مرور عقد من الزمان يتكرر هذا السيناريو لكن بتطور للأحداث بشكل أكثر سخافة وغباء من ذي قبل. فهذه المرة يقوم نفس الديبلوماسيون الأميركيون، والغربيون، ومسؤولو الأمم المتحدة بمحاولة لإنتاج حكومة مؤقتة يأتون بقادتها من مجموعة أقل مصداقيّة من تلك التي سبقتها، ليثبتوا من جديد براعتهم الفائقة في انتقاء الحثالة، حيث تبنت الولايات المتحدة القوة التي كان نجمها في أفول وهي حلف الشمال، الذي كسب ضباط الاستخبارات والجنود الأميركيون معركة لصالحه لم يكن الحلف قادراً على خوضها لوحده، وأضاف المسؤولون الأميركيون إلى طبختهم البشتوني المتأثر بالغرب حامد كرزاي كرئيس للحكومة الجديدة، وهو عموماً رجل محترم وشجاع وذكي، غير أن كرزاي تغيّب عن القتال ضد السوفييت، كما أنه لم يحارب طالبان، إلى أن قفز فجأة إلى جانب الأميركيين وقواتهم العسكريّة الساحقة. من الواضح أن كرزاي، الذي لا يمثل أي مرجعيّة إسلاميّة متزمتة والذي لا يتمتع بدعم من القبائل الأفغانيّة، والذي تلقى تعليمه في الهند، أثبت أنه خبير في مخالطة النخبة الأميركيّة والبريطانيّة، لكنه يجد صعوبة بالغة في أكل لحم الماعز باستخدام يديه من صحن مشترك بين المعارضين الإسلاميين بأصابعهم الغليظة، وشيوخ القبائل، وقادة قواتهم. وقد عُيّن كرزاي كرئيس للحكومة الانتقاليّة في اجتماع تلاعبت به الولايات المتحدة، وتم تحت إشراف الأمم المتحدة عقد في بون في ألمانيا، كان ذلك أيضاً تجريداً لشرعيّة كرزاي بالنسبة للأفغان الذين يكرهون كل ما هو أجنبي وغريب. ومن ثم أضفنا بحرّية الملح إلى طبختنا - النظام الحكومي الجديد - بعدد من المهاجرين الأفغان الذين يتمتعون بثقافة عالية وحدٍّ أدنى من الانتماء الإسلامي وابتعاد كامل عن القبليّة، الذين كانوا

ينتظرون في الغرب منذ العام 1990 ليحصلوا على جائزة لم يخاطروا أو يضحوا من أجلها بأي عزيز، ثم قمنا بتعيين قادة عسكريين قبليين أمثـال هـازرت علـي في مقاطعة نانجارهار، وباشا خان زادران في مقاطعة خوست، ومحمـد شـيرزاي في مقاطعة قندهار، ليؤمنوا لكرزاي بسط سلطة عسكريّة على المناطق الـتي تسـيطر عليها القبائل البشتونيّة عسكرياً وديموغرافياً.

ولم تكن تلك خطة رابحة. فبينما كان كرزاي ومساعدوه المغتربون يرتجفون برداً في كابل المعتمة المفلسة، كان الجنرالات يعتمدون على دعم ومساعدة قـوات الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة لأن قواتهم المزعومة لم يكن لها أي وجـود على الإطلاق.

وهكذا فإن الغرب الذي تجاهل "المعلومات التي كانت متاحة أمامه" سـرعان ما أدرك أن هؤلاء القادة والجنرالات إنما تم نفيهم وإبعادهم عن الحيـاة السياسـيّة والعسكريّة من قبل السلطات لا لاختلافهم في الآراء مع طالبان، بل لأنهم فشلوا في توفير الأمن وإثبات قدرتهم القياديّة عندما كانوا يحكمون أفغانستان قبل قيام طالبان وتوليها الحكم (وعندها تخصصوا في تشكيل عصابات قطـع الطـرق والاتجـار بالهيروين)، كما أنهم لا يتمتعون بأي دعم شعبي، ويخشون من بطـش القاعـدة وقوات طالبان.

وهكذا فإن الحكومة التي عينها الغرب في كابل في بداية العام 2002 كانـت تفتقد لكل العناصر التي من شأنها أن تمنحها حتى فرصة ضئيلة في الاستمراريّة دون دعم دائم من جهات أجنبيّة غير إسلاميّة. كان حلف الشمال يمثل في السابق عدة أقليات عرقيّة لكنه لم يتجاوز - سابقاً وحتى الآن - كونه أداة بيد قبيلة مسـعود البنجشاريّة تفعل به ما يحلو لها. كما أنه ليس هناك أي تمثيل حقيقي للبشـتون في الحكومة الجديدة، بالرغم من أن كرزاي وبعض المغتربين العائدين من المهجر هـم من البشتون، إلا أنهم لا يعدون ممثلين للبشتون بأي شكل من الأشـكال، حيـث كانوا يعيشون إما في الغرب أو في باكستان، ولم يشاركوا بالحرب ضـد العـدو السوفييتي، بالإضافة إلى أنهم مسلمون بشكل اسمي فقط. والأمر عينه ينطبق علـى الجنرالات في الحكومة المؤقتة، حيث إنهم لا يساوون شيئاً من الناحية العسكريّة في

حال انقطع عنهم دعم القوات العسكريّة الأميركيّة والبريطانيّة. وفي نهاية الأمر فإن حكومة كرزاي هي أوضح مثال عن الفوضى التي كان من الممكن تجنبها فيما لو اقتطع بعض الوقت لمراجعة واستيعاب "المعطيات المتاحة". ومما يزيد الأمر سوءاً هنا هو أن المعطيات كانت متوافرة في مكتبات الجامعات الحكوميّة والمكتبات العامة، وفي أرشيف الحكومة الفدراليّة، وفي مذكرات وخبرات مئات من موظفي الحكومة الأميركيّة ممن لا يزالون في الخدمة أو المتقاعدين منهم. ولم تكن المعلومات مخبئة حتى تبذل الهيئات الاستخباراتيّة الغربيّة مجهوداً عظيماً، وسرّية تامة للحصول عليها. ونظراً إلى هذا الوضع فلا بدّ للمرء إلا أن يكوّن انطباعاً قوياً - لكنه خاطئ بالتأكيد - أن مهمة السياسيين ومسؤولي التخطيط العسكري الأميركيين للحرب في أفغانستان قد أوكلت عمداً إلى مسؤولين أمضوا حياتهم المهنيّة وهم يعملون في الشؤون الأفريقيّة والروسيّة لا في قضايا الشرق الأوسط، وجنوب آسيا، والإسلام. لكن لا يمكن أن يكون أبناء جيلي من المسؤولين الحكوميين الرفيعي المقام بهذا الإهمال الذي وصل إلى حدّ الإجرام بحق الشعب، أليس كذلك؟

لماذا يبدو وكأن كل المقاتلين هم مع الطرف الآخر؟

لقد شهد النصف الثاني من العام 2003 وأوائل العام 2004 تزايداً ملحوظاً في هجمات طالبان والقاعدة على القوات العسكريّة التابعة لحكومة كرزاي، وقوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، إضافة إلى الشكوك المتزايدة في صحة تقارير مجموعة أخرى من الخبراء الغربيين حول الحرب في أفغانستان. حيث إن ارتفاع وتيرة الهجمات كذّب تقارير كتلك التي وردت في مجلة نيوزويك في أوائل العام 2003، بأنه من الممكن أن يكون "ظهر القاعدة قد قصم أخيراً"[35]، وكذلك النتيجة التي خلص إليها ماكس بوت، بأن هزيمة طالبان عام 2001 لا بد وأنها سحقت أسطورة وغموض هذه العصابة إلى غير رجعة"[36]، كما أكد ذلك ستيفن سايمون ودانييل بنجامين في شباط عام 2003 "بعد الهزيمة التي أوقعتها القوات الأميركيّة بحركة طالبان في أواخر عام 2001، يستبعد أن نواجه أياً من قواتها في ساحة المعركة من جديد"[37]. أما في الوقت الراهن فقد أصبح هناك إجماع، سواء

في الإعلام أو في تقارير المسؤولين الأميركيين، على أن "فلول" القاعدة وطالبان قد "تجمعت وتنظمت من جديد" وهي تقوم بشنّ حرب عصابات ضد حكومة كابل وحلفائها الأجانب. وقد كتب سكوت بالدوف في هذا الصدد في عدد أيار 2003 في *المسيحيّة العلميّة* "لقد تجمعوا، وتسلحوا، وتمولوا من جديد وهم على استعداد للمضي في حرب العصابات مهما طال بهم الوقت حتى يطردوا القوات الأميركيّة من أفغانستان"[38]. إن هذه النتيجة تستند إلى ما يجري على أرض الواقع والجثث التي خلفتها هذه الحرب – وأياً كان الشخص الذي أتى بكلمة "فلول" ليعبّر عن قوات بن لادن والملا عمر التي لم تهزم، فهو سيندم على ذلك دون شك. وقد أكد صحة هذه المعلومات الجنرال جون أبي زيد، رئيس القيادة المركزيّة الأميركيّة وذلك في منتصف شهر نوفمبر عام 2003 عندما قال إن المعارك اليوميّة في أفغانستان "تتسم بنفس صعوبة وكثافة المعارك التي تدور في العراق من حيث التفاصيل"[39]. غير أن القوات المعارضة لحكومة كرزاي وحلفائه تتجاوز إلى أقصى الحدود طالبان والقاعدة وهنا بالذات يتضح مثال آخر عن الثمن الباهظ الذي ندفعه لعدم قيامنا بمراجعة ودراسة المعطيات قبل التحرك والهجوم.

وبالرغم من التغطية الإعلاميّة الغربيّة الضئيلة – باستثناء التقارير الممتازة التي ترد دائماً عن *المسيحيّة العلميّة* – للحرب التي قادتها حركات التمرّد الأفغانيّة ضد الجيش الأحمر والشيوعيين الأفغان، فإن هذه الحرب كانت من أعنف، وأطول، وأكثر الحروب تفرّداً مما يعرف اليوم "بالحروب الصغيرة" في القرن العشرين. وبالرغم من توافد أعداد كبيرة ومتزايدة من المسلمين من غير الأفغان ليحاربوا جنباً إلى جنب مع المقاومة الإسلاميّة الأفغانيّة، إلا أن الأفغان هم الذين حاربوا وانتصروا. أما التدخل الأميركي والسعودي في تلك الحرب فكان مهماً من حيث التمويل فقط – مما سمح لهم استخدام أسلحة مثل AK-47 وقذائف RPG بدلاً من بنادق Lee-Einfield التي يبلغ عمرها أكثر من مئة سنة، إلا أن الحرب كانت حربهم فهم الذين خاضوها، وحاربوا عدوهم، وانتصروا لبلادهم. وقد كان أبرع، وأفضل، وأكثر المقاتلين صموداً في تلك الحرب أولئك الذين ينتمون إلى المنظمات الإسلاميّة الأصوليّة التي كانت تشنّ حرب العصابات، وأولئك الذين كانوا تحت

قيادة أحمد شاه مسعود، ويونس خليل، وجلال الدين حقاني، وعبد الرسول سيّاف، وإسماعيل خان، وقلب الدين حكمتيار. كما حصلت هذه المجموعات على حصة الأسد من التمويل، والمعدات الحربيّة، وأعداد كبيرة من الرجال المدربين على القتال من الحكومات، والأفراد، والمنظمات الدينيّة على امتداد العالم الإسلامي ومن بينهم طبعاً أسامة بن لادن.

ولم يكن القادة الأفغان الإسلاميين على وفاق فيما بينهم وهذا يعود إلى اختلاف أصولهم العرقيّة وتنافسهم السياسي، كما أن كلاً منهم كان خصماً لمجموعة سياسيّة في حركة المقاومة الأفغانيّة. وكان كل منهم يأخذ وقتاً مستقطعاً من قتل الشيوعيين ليقتل أحد خصومه. لم تكن المعارك والاغتيالات تعد ولا تحصى بين قوات مسعود وحكمتيار على سبيل المثال لا الحصر. لهذا السبب، فإن قوة وصمود الأفغان الإسلاميين لم تنبع من الاشتراكيّة أو من قرابالهم وعلاقالهم الشخصيّة، بل من دينهم، ومن كراهيتهم، وحقدهم على الشيوعيّة، والإلحاد لما يشكلانه من إهانة لله ورسوله. إن أهم مصادر قوتهم هو اعتدادهم بنفسهم الذي لا مثيل له، وعنادهم، وعصبيتهم القبليّة، وكرههم للأجانب الذي يعدّ متأصلاً في الطبع الأفغاني، وكلها سمات تجعل من المستحيل بالنسبة للأفغان أن ينصاعوا لقيادة وأوامر غيرهم - غير الأفغان - أو يتقبلوا وجوداً أجنبياً لوقت طويل على أرض بلادهم. وكي يتأكد القارئ من صحة هذه الادعاءات، فما عليه إلا أن يقرأ كتاب روبرت. دي كابلان الرائع والجريء الذي يتحدث فيه عن المجاهدين استناداً إلى أحداث واقعيّة وحقيقيّة، وهو بعنوان جنود *الله: مع المحاربين المسلمين في أفغانستان وباكستان*. صحيح أن الإمدادات الخارجيّة من الأسلحة والأموال كانت مصادر قوة لعبت دوراً هاماً في هزيمة الروس بمدة لم تتجاوز عشرة أعوام، إلا أن المساعدات الخارجيّة لم تكن ثمناً دفعه المانحون الأجانب ليشتروا به حق ذرة من السلطة على المجاهدين الأفغان، فقد قبل الأفغان تلك المساعدات من أموال وأسلحة ليقتلوا السوفييت. في حين أن دينهم، وقبليتهم، وكرههم للوجود الأجنبي في بلادهم كوّنوا العوامل الأساسيّة التي جعلتهم يتراصون ويقاتلون في صف واحد ليركزوا عمليات المقاومة على السوفييت والشيوعيين الأفغان. ولم تعد الاشتباكات

العرقيّة والمذهبيّة التي أدت إلى حلّ المقاومة بشكل نهائي، إلا بعد هزيمة الجيش الأحمر، وانسحابه بالكامل من أفغانستان. وقد أدى حلّ المقاومة بدوره إلى حرب أهليّة دامت عشرة أعوام أنهتها طالبان في منتصف العام 2001. وبالرغم من نشوب الحرب الأهليّة الدامية التي تبعت النصر على الاتحاد السوفييتي والتي أدت إلى قيام طالبان، فإن القادة الأفغان المذكورين أعلاه وغيرهم من القادة الإسلاميين دخلوا التاريخ الأفغاني من أوسع أبوابه بوصفهم أبطالاً عسكريين. وهم يشبهون بذلك جنرالات كونفيدراليّة الولايات المتحدة إبان الحرب الأهليّة، فالرجال أمثال جوزيف جونستون، وجيمس لونغستريت، وإدوارد بورتر ألكساندر الذين كان شعب الشمال يحتقرهم ويكرههم لأنهم كانوا خونة أثناء الحرب الأهليّة. بالرغم من ذلك فقد تغيّرت صورتهم، وأصبحوا في ما بعد "أبطالاً أميركيين" بنظر أولئك الذين حاربوهم، وقتلوا أبناءهم، والحكومات التي سعوا إلى القضاء عليها. هذه هي حال الجيل الأقدم من القادة الأفغان، فهم أبطال في عيون ملايين الأفغان الذين خبروا الحرب، وعاشوا فظائعها بشكل يومي، وكذلك الحال بالنسبة لعشرات الآلاف الذين عاشوا طفولتهم، وشبابهم، وتزوجوا في مخيمات اللجوء في باكستان أو إيران.

أودّ أن أؤكد من جديد أن كل المعلومات الآنفة الذكر هي من المعطيات المتاحة للجميع وهي في معظمها لا تتطلب تصريحاً لمراجعة ملفات استخباراتيّة مشفّرة، أو طريقة سرّية للحصول عليها، أو تقارير ديبلوماسيّة، أو صور أقمار صناعيّة. قد تكفي زيارة قصيرة للمكتبة المحليّة لمعرفة الأهميّة العظيمة لأولئك المجاهدين. كما أن رحلة سريعة إلى مكتبة الجامعة تفي بالغرض. أما بالنسبة للكسالى الذين لا يحبون الابتعاد عن كراسيهم فيمكنهم ببساطة الدخول إلى الإنترنت للحصول على كل المعلومات ذات الصلة دون تكبد أي عناء. ومع ذلك فلا توجد أي إشارة تظهر أن المسؤولين الغربيين قد بذلوا أي جهد للاتصال بهؤلاء الرجال أو قادتهم للوصول إلى تحقيق مبتغاهم سواء في الحصول على مساعدتهم للتخلص من طالبان أو قتلهم إذا ما رفضوا التعاون معهم. لكن من الواضح أن القادة الأميركيين قد تجاهلوا تماماً هؤلاء الرجال، حيث إنهم سلموا على ما يبدو

بالنتيجة التي تدل على جهل مدقع، التي تمخضت عن فكر مسؤولين سابقين عن قضايا الإرهاب، كانا يحتلان مراكز عالية في مجلس الأمن القومي، التي تقول إن "أكثر قائدين أفغانيين يتسمان بالإسلاميّة الأصوليّة أي عبد الرسول سيّاف وقلب الدين حكمتيار... كانا رجلين فاسدين وعاجزين لا طائل فيهما"[40]. وبالفعل فإن الإشارة الوحيدة التي أرسلت إليهما تشبه اللافتة المعلقة اليوم في بغداد والتي تقول: "لسنا بحاجة للإسلاميين، لا تقدموا خدماتكم!".

إن هؤلاء الزعماء المحنكين، قادة قوات حرب العصابات هم القوة المسيطرة في الميزان السياسي العسكري الأفغاني. وهم في معظمهم من البشتون، إلا أنهم حاربوا السوفييت تحت لواء قوات مسعود. وبما أنهم من البشتون، فلديهم قواسم مشتركة مع طالبان من الناحية العرقيّة، واللغويّة، والثقافيّة بالرغم من اختلافهم في الرأي حول شكل الإسلام الأفضل لأفغانستان. وجوهر المسألة بالنسبة للولايات المتحدة، هو أنه بينما كان من الممكن أن تكسب تعاون هؤلاء الرجال أو قتلهم، لم يكن يجدر بها أن تتجاهلهم فيما لو كان مقدراً لواشنطن أن تحصل على فرصة للنجاح على المدى البعيد في أفغانستان، من حيث تشكيل حكومة تتمتع بشيء من الاستقرار والثبات. وقد كان هؤلاء القادة خبراء عسكريين معادين للغرب، معتادين على تحدي القوى العظمى، وإلحاق الهزيمة بها، يكرهون كل ما هو أجنبي، ويمقتونه إلى أقصى الحدود، ويسيطرون على أعداد قد تقل أو تكثر من المتمردين المسلحين ذوي الخبرة الواسعة في هذا المجال. وقد كان يكفي تعاون زعيمين للمتمردين يعودان إلى الحقبة السوفييتيّة ليذكرا الولايات المتحدة قبل أن تشنّ هجومها العاتي على أفغانستان، بالقوة والعداء الذي تكنه هذه الجماعة للغرب.

"نحن لا نعطي أي أحد الحق في شنّ هجوم على أفغانستان، وإن أي أحد يقوم بأي هجوم متذرعاً بأي حجة مهما كانت، فهو معتد وسيحاربه ويهزمه الأفغان بعون الله كما فعلوا بالمعتدين في الماضي"[41]. هذا ما صرّح به يونس خالص رئيس الحزب الإسلامي لوكالة الأنباء الإسلاميّة الأفغانيّة في 21 سبتمبر عام 2001. ثم جاء تصريح قلب الدين حكمتيار الذي جاء فيه: "علينا أن ندافع عن بلدنا... لقد حاربتنا قوات طالبان [نا = حلف الشمال] لكننا سننسى اليوم

خلافاتنا معهم ونحارب عدونا المشترك"[42]. ومع الوقت - ولن يكون وقتاً طويلاً - سيحرك الحقد على الأجانب، والعصبيّة القبليّة المجاهدين القدماء، وسيدفعهم للقتال ومساعدة طالبان والقاعدة لتخليص أفغانستان من جيش محتل أجنبي آخر، وسيتركون أولئك الذين ساعدوا الأجانب إلى مرحلة ما بعد النصر، لينتقموا منهم شرّ انتقام، ومن ثم سيعودون للتزاع على السلطة، ويتحاربوا مع بعضهم البعض من جديد.

وهناك معلومة كانت في متناول يد الولايات المتحدة، كان بإمكانها أن تقول للمخططين السياسيين الأميركيين أن قادة الجهاد ضد السوفييت تربطهم علاقات شخصيّة وقويّة بمجاهدين معروفين يعودون إلى تلك الفترة أيضاً، يقودهم رجل سعودي نحيل الجسم هو أسامة بن لادن. فسيّاف مثلاً قد سمح له بإقامة معسكرات لتدريب قواته في منطقة تقع شرقي أفغانستان تقع تحت سيطرته. أما حكمتيار فقد وقّع بنفسه على جواز سفر بن لادن ليدخل ثانية إلى أفغانستان عائداً من السودان وذلك في مايو عام 1996، ثم بذل كل ما بوسعه لتقديم الدعم والمساعدة لطالبان، في وقت كانت فيه قواته في صف حلف الشمال - عندما رفض الملا عمر تسليم بن لادن إلى الولايات المتحدة أو إلى أي بلد آخر. وكان يونس خالص قد تعاون مع بن لادن أثناء الحرب السوفييتيّة كما أنه انتدب المهندس محمود وهو أحد قادته الكبار لمساعدة بن لادن على الاستقرار في مقاطعة نانجارهار إبان عودته من الخرطوم. وعندما قتل محمود بعد ذلك بفترة وجيزة، تدخل خالص ثانية لمساعدة بن لادن وسمح له بأن يستخدم اثنتين من القواعد العسكريّة البعيدة الخاصة بمنظمته في نانجارهار، كانت إحداها في تورابورا والأخرى في مالاوي. وكذلك قام جلال الدين حقاني وهو القائد العسكري الأعلى لقوات خالص، وهو فعلياً أمير مقاطعة باكتيا وأقدم وأقرب صديق وزميل أفغاني لعرب الخليج بمساعدة بن لادن على الاستقرار، وترتيب أموره، وسمح للقاعدة باستخدام معسكرات التدريب الخاصة بقواته التي تقع بالقرب من خوست، ووافق على طلب بن لادن بإرسال بعض المقاتلين الأشداء لدعم نضال طالبان الذي توّج بالنصر في كابل عام 1996. ومن المثير للسخريّة - نظراً للدور الذي لعبته القاعدة في اغتيال مسعود - أن مسعود قد

أخبر بنفسه الإعلام الروسي في العام 2000 عن الدور الإسلامي الفعّال الذي لعبه بن لادن في تمويل الجماعات الإسلاميّة الأفغانيّة في حربها ضد الاتحاد السوفييتي[43].

ومع ارتفاع وتيرة حرب العصابات الجديدة في أفغانستان في منتصف العام 2003، فليس من الصعوبة بمكان أن نحزر من هم القادة الذين يظهرون إعلامياً وهم يدينون احتلال الولايات المتحدة لبلدهم، ويتوعدون الأميركيين بتلقينهم درس الجهاد الذي لقنوه فيما مضى للبريطانيين والسوفييت. فها هم القادة المذكورين آنفاً خالص، وحقاني، وحكمتيار الذي يعدّ أكثرهم نشاطاً سواء من حيث إطلاق التهديدات الصريحة أو من الناحية العسكريّة، يدخلون الحرب بكل ثقلهم، ويساعدون طالبان والقاعدة في القتال ضد قوات كرزاي والقوات الغربيّة والأميركيّة التي تحميها. أما مسعود فقد قتل ولم يعدّ بإمكانه أن يفعل شيئاً من مكانه، أما سيّاف - الذي لعب دوراً بارزاً في قتل مسعود - فلا يزال حتى الآن في حالة من الهدوء المؤقت في معاقله الجبليّة المنيعة في باغمان، وميدان شهر، غرب وجنوب غرب كابل. إلا أنه عندما يحين الوقت فسيضرب سيّاف ومقاتلوه حكومة كرزاي إلى جانب قوات الملا عمر، وبن لادن، وقادة آخرين ممن يعودون إلى فترة الجهاد ضد السوفييت. إن موقف "المجاهدين القدماء" قد تحدد عندما دعا يونس خالص إلى الجهاد ضد "القوات الأجنبيّة التي تقودها الولايات المتحدة" وذلك في أكتوبر عام 2003. وقد جاء فيه: "إن العدوان الذي تقوده الولايات المتحدة على أفغانستان هو عدوان ظالم وجائر ولا يقل سوءاً عن سابقه السوفييتي"، وقد نادى في فتواه "كل الأفغان من مجاهدين ومواطنين عاديين" إلى الجهاد. "وإذا لم تقم القوات الأجنبيّة بانسحاب كامل من أفغانستان فعليها أن تتحمل العواقب المترتبة على ذلك"[45]. إن فشل الولايات المتحدة في كسب قادة وقوات الجيل السابق من المجاهدين الأفغان إلى صفها أو القضاء عليهم، جعلها تقف في مواجهة عدو خطير، حيث إن هذا العدو نفسه كان مسؤولاً عن إفشال المحاولات والجهود التي بذلتها الولايات المتحدة لإحلال السلام في أفغانستان ما بين عامي 1992 و1996.

وخلاصة القول، لقد طال أمد الوجود الغربي في أفغانستان وحانت ساعة الرحيل، وقد كان لحكمتيار، وحقاني، وخالص الكلمة الفصل في نهاية الأمر لمصلحة

طالبان والقاعدة وهذا بدوره يعني القضاء على الحكومة الانتقاليّة الأفغانيّة التي يترأسها كرزاي. إن هزيمة كرزاي قد لا تحدث غداً، أو بعد غد، أو حتى السنة القادمة - ولا يمكنني أن أحدد بالضبط حيث إنني قد أخطأت مرات عديدة في التكهن بتوقيت الأحداث في أفغانستان - لكن هذا سيحصل وسترفع راية الرسول لترفرف عالياً في كابل. وستزداد الأمور سوءاً بعد هلاك الحكومة الانتقاليّة الأفغانيّة، حيث سيكتشف الغرب عاجلاً أم أجلاً أن بعض أطراف الائتلاف التي تدعم وتساند كرزاي اليوم - وبشكل خاص المقاتلين الذين ينتمون إلى كتائب مسعود - ستبدأ بالعمل ضد الحكومة الانتقاليّة الأفغانيّة وستسعى للتوصل إلى صيغة تعايش سلمي مع المعارضة التي تقودها حركة طالبان. إن التوصل إلى هذه المعلومات لم يتطلب حكمة عظيمة، أو قوة استبصار خفيّة، بل استعداداً لدراسة المعطيات المتاحة، ومتابعة اليوميات الإلكترونيّة التي تصدر عن القاعدة فحسب. إن قوات حلف الشمال تربطها مصالح مشتركة مع روسيا وإيران أكثر بكثير من تلك التي تربطها بالولايات المتحدة. هذا ما وضحته 'النداء' في سبتمبر عام 2002، "... وهؤلاء لن يكونوا موالين لكرزاي، بل لرؤساء أحزابهم، وسيحاربون في صفوف أحزابهم، عندما تكون هناك حاجة لذلك"[46]. إن رجال مسعود، شأنهم شأن كل الذين يعارضون كرزاي، هم ممن حاربوا الجيش الأحمر لتخليص بلادهم من احتلال عسكري معادٍ للإسلام. وإن أهم ما في الموضوع أن رجال مسعود يرون أن أميركا أقل وحشيّة، وشجاعة، وتصميماً من السوفييت، لكنها تكنّ ذات عداء السوفييت للإسلام، حيث إنهم رأوا حكومة كرزاي التي لم تتضح معالم إسلاميتها، وسمعوا وزير الدفاع رمسفيلد يُعرّف "تقرير المصير" بأنه إقامة أي حكومة ما دامت حكومة غير إسلاميّة. إلا أن أهم نقطة هنا هي أن مقاتلي مسعود هم من الأفغان، وبالرغم من أنهم ليسوا من البشتون، إلا أن لديهم نفس الكره والحقد المتأصل في شخصيتهم الأفغانيّة ضد الأجانب ونفس الإخلاص لله، ونفس التصميم على عدم التنازل عن إنش واحد من أرضهم مهما بلغت قوة عدوهم. لذا فهم لن يستبدلوا سيداً وحاكماً سوفييتياً بسفير أميركي طموحاته كبيرة ليصبح في المستقبل حاكماً إدارياً بصلاحيات غير محدودة في بلادهم. ولن يستبدلوا الديانة الإسلاميّة التي يصفها الغرب بأنها قاسيّة

ومتخلفة بالنسخة الجديدة من المسيحيّة التي يعرضها الآن الفاتيكان وكانتربري - Pillsbury Doughboy - ولن تحل نغمات الكورس الناعم "Kumbaya" محل صوت الآذان وهو ينادي عالياً "الله أكبر" في بلاد جبال الهندوكوش.

لقد كان من الممكن التكهن بهذا التبدل التدريجي في الولاء سابقاً لو تم التحقق من المعلومات والمعطيات التي كانت في متناول أيدينا. وكان من شأن زيارة قصيرة إلى المكتبة العامة توثيق هذا النوع من الارتداد عند أولئك الأفغان الذين تحالفوا في يوم من الأيام مع السوفييت والبريطانيين - حيث إن هذا الأمر حصل لمرتين مع البريطانيين - وكذلك تأكيد حقيقة أن أولئك الأفغان الذين وقفوا حتى النهاية في صف الأجانب لم يتوقعوا ولم يجدوا أي رحمة أو شفقة على يدّ محرري البلاد من الاستعمار. وهذا ما واجهه الرقيب بيللي فيش في رواية كيبلينغ الخالدة *الرجل الذي سيصبح ملكاً* التي تروي قصة أجانب يبتلون بكوارث رهيبة في أفغانستان. لم يكن أي من مقاتلي مسعود قبل موته أو بعده كما لم يكن هو يوماً من المناصرين للغرب، أو الأميركيين، أو من المسلمين المعتدلين. فقد كانوا ولا يزالون معادين للغرب، ومسلمين أصوليين، وعسكريين يكرهون الأجانب شأنهم شأن القوات التي يقودها خالص، وحقاني، وحكمتيار. ونحن في الغرب شجعنا الوهم الذي نسجه خيالنا حول مسعود وما يمثله، ويعود كل ذلك لعبقريّة مسعود التي لا غبار عليها في التلاعب بالإعلام كما يريد، بالإضافة إلى بحث الإعلام الغربي اليائس عن قائد أفغاني كبير يمكن لكلامه أن يجسده بشكل أو بآخر كرجل مثلنا، وقد أعمى الغرب الحزن على موت مسعود والذكرى الخالدة لهذا البطل، بحيث لم يتمكنوا من رؤية حقيقة خلفائه الذين ليسوا إلا شرذمة من الدرجة الثانية من الخونة لا حول لهم ولا قوة. إلا أن هؤلاء الطفيليين الضعفاء سيرتدون علينا، وسنعاني من جديد لتجاهلنا المعطيات التي كانت في متناولنا.

السبعة القاتلة

إن قائمة المعطيات الأفغانيّة التي تم تجاهلها، والتي كان بإمكانها أن تجنب الولايات المتحدة الكابوس الذي يسيطر عليها الآن، والعار الذي تتعرض له يوماً

بعد يوم، هي قائمة طويلة جداً لدرجة أنه لا يمكن أن يتم البحث فيها بشكلٍ وافٍ هنا. ولهذا فقد اخترت، وفي هذا المعرض أن أقدّم اعتذاري إلى تي. إي لورنس لاستعارتي لجزء من عنوان خاص به، ما يمكن أن يطلق عليه "أعمدة الحقيقة السبعة حول أفغانستان". إن تجاهل أي من هذه الأعمدة من شأنه تقليص فرص نجاح الولايات المتحدة في أفغانستان، وبما أننا في الجهة المعاكسة لهذه الأعمدة بل ونقوم في هذه الأثناء باقتراف أخطاء رهيبة بحسب هذه المقاييس، ستؤدي إلى دمارنا وذلك كنتيجة حتميّة لما صنعناه بأيدينا. أما بالنسبة للمهتمين بالاطلاع على دراسة مفصلة تبعث على الأسى، والألم، وأحياناً تثير السخريّة والضحك على ما تم تجاهله من هذه الأعمدة بين القادة الأميركيين - وعلى ما يبدو بين المحللين في وكالات الاستخبارات الذين قدموا لهم تقارير فارغة - فيمكنهم الرجوع إلى كتاب بوب وودورد *بوش في الحرب*.

العمود الأول: يمكن للأقليات أن تسيطر على الحكم في كابل، لكن ليس لوقت طويل

لقد سيطرت القبائل الأفغانيّة البشتونيّة بعاداتها وتقاليدها القبليّة، وتمسكها بدعائم إسلام محافظ إلى حدّ التزمت، على الحكم في أفغانستان لمدة تزيد على ثلاثة قرون بعد أن كان نظام الحكم في أفغانستان ملكياً مركزياً. وقد كانت هناك ثلاثة استثناءات لهذه القاعدة وهي: حكم الطاجكي حبيب الله غازي - أو ابن حمال الماء 'Bacho-i-saqo' - الذي أطاح بحكم ملك بشتوني متطبع بطباع الغرب، لقد كان غازي إسلامياً وليس بشتونياً. أما الاستثناء الثاني فهو النظام الشيوعي الأفغاني الذي كان بشتونياً حتى النخاع، لكنه لم يكن إسلامياً على الإطلاق. والاستثناء الثالث هو حكومة كرزاي التي يغلب عليها العنصر الطاجكي، وهو لا يمت للإسلام والبشتونيّة إلا بالاسم فقط. إن أول تجربتين لحكم الأقليّة في أفغانستان تم إنهاؤهما بعنف على يد قوات بشتونيّة، فحبيب الله؛ وهو الحالة الوحيدة في تاريخ أفغانستان التي يتم فيها تسليم الحكم إلى عنصر طاجكي؛ انتهى حكمه بعد تسعة أشهر فقط (ديسمبر 1928 - سبتمبر 1929) والنظام الشيوعي الأفغاني لم يستمر خمسة عشر عاماً لولا دعم الجيش الأحمر له طوال تلك المدة (1978 - 1992).

ويبدو أن حكومة كرزاي التي تسيطر عليها الأقليات ستواجه نفس المصير. وقد فسّر الرئيس السابق لموظفي الجيش الباكستاني، الجنرال ميرزا أسلام بيغ هذا الأمر قائلاً: "إن البشتون الذين حكموا أفغانستان لمئتين وخمسين عاماً، هُمِّشوا وهم الآن يضمرون الشر، وذلك لغضبهم من سوء المعاملة الذي يلقاه إخوانهم من البشتون على يد حكومة كرزاي"[47]. إن الحكومة الأفغانيّة لن يكتب لها البقاء إلا إذا حصل ازدياد كبير في عدد القوات الأجنبيّة التي تقودها الولايات الأميركيّة، وكانت تلك القوات على استعداد للقتل بحرّية، والبقاء في أفغانستان إلى الأبد.

العمود الثاني: إن الأفغان الذين يمتلكون مقومات السلطة في البلاد هم مسلمون قبليون يكرهون الأجانب

في العام 1989 أو 1990 أوكلت إليّ مهمة مرافقة مسؤول رفيع المستوى في وكالة الاستخبارات لتقديم تقرير عن أفغانستان للجنة خاصة بالاستخبارات في مجلس الشيوخ. وكان دوري الصغير في هذه المهمة يقتصر على تقديم مسودة ترسم خطوطاً عريضة توضح الوضع السياسي والعسكري الراهن في أفغانستان. وقد كان من المقرر أن ينتهي هذا العرض بسرعة وذلك لتخصيص معظم وقت الجلسة للأسئلة التي سيطرحها أعضاء مجلس الشيوخ على رئيسي في العمل. وقد سار كل شيء حسب الخطة، لكنني حالما انتهيت، طرح عليّ أحد الأعضاء سؤالاً وقد بدا عليه الانزعاج إلى حدٍّ كبير. وعندما التفتت نحوه، تنحنح هذا الرجل الأنيق - الذي كان يمثل إحدى الولايات التي كان لينكولن يطلق عليها اسم 'الولايات الحدوديّة' - ثم بدأ يتكلم ببطء قائلاً: "سيدي، أودّ أن أتأكد من أنني فهمت قصدك تماماً، هل أردت القول إن الولايات المتحدة قد أمضت عشر سنوات من العمل، وأنفقت مليارات الدولارات لدعم المقاومة الأفغانيّة، حتى نحصل بعد كل هذا على مجموعة من المسلمين يديرون دفة الحكم في كابل؟ هل تريد أن تقول لي إننا قد ساعدنا على إقامة حكومة إسلاميّة في أفغانستان؟". فتسمرت في مكاني دون أن أقوم بأي حركة، وحاولت أن أكبت ابتسامة كادت تفلت مني، لكن رئيسي أنقذني في آخر لحظة، وأخذ يطمئن السيناتور حيث أخبره أن الإسلاميين الأفغان لهم بالفعل اليد الطولى في الحكومة في الوقت الراهن، لكن عند تشكيل الحكومة الجديدة سيتغير كل هذا.

إن السبب الذي دعاني لأن أقص عليكم هذه الحادثة، هو أن بعض المسؤولين الأميركيين الحاليين فاجأهم حقيقة أن الأفغان هم مسلمون، وقبليون، ويكرهون الأجانب تماماً كما كانت ردّة فعل سيناتور الولاية الحدوديّة عندما أدرك تلك الحقيقة. وقد كانت تلك القوات الإسلاميّة هي القوات الوحيدة - في الحرب الأفغانيّة السوفييتيّة - التي تمكنت من الحفاظ على تماسك الاتحاد الهش بين مجموعات المقاومة الأفغانيّة التي تنتمي إلى أصول عرقيّة مختلفة، في الوقت الذي سيطر فيه الجيش الأحمر وانتشرت أعمال السلب والنهب التي كان يقوم بها. وهم يتمتعون اليوم بنفس القوة التي كانوا يتمتعون بها منذ عشرين عاماً، أما إسلامهم فقد أصبح أقوى بكثير مما كان عليه منذ عشرين عاماً مضت. والحفنة القليلة من الأفغان المؤيدة للغرب تتحلق اليوم حول كرزاي في كابل، بالإضافة إلى المهاجرين العائدين من بلاد الغربة الذين احتلوا بعض المراكز في الحكومة الانتقاليّة التي شكلتها الأمم المتحدة، بحسب اتفاقيات بون، والتي أقامتها الولايات المتحدة بقوة العصا، وضغط سلاحها الجوّي. في الحقيقة، إن كرزاي والمغتربين العائدين إلى بلادهم هم أفغان بالاسم فقط. فهم في معارضتهم للقبليّة، ودعمهم للرؤى الدينيّة التحرريّة، والسياسيّة العلمانيّة، وفي إيمانهم بالنمو السريع للديموقراطيّة، أقرب بذلك للغربيين، وهم في عيون الشعب الأفغاني ليسوا قادة بأي شكل من الأشكال. لقد كتب في هذا السياق قلب الدين حكمتيار في رسالة وجهها إلى الحزب الديموقراطي الأميركي مفسراً فيها سبب ازدراء الشعب الأفغاني لكرزاي وجماعته، جاء فيها:

> "نحن لا نعرف من هو الإنسان الذي يفترض أنه يمتلك تفكيراً منطقياً وضميراً يقظاً، الذي يمكنه أن يقبل بتنصيب حكام على بلده وهم يوكلون مسؤوليّة الحفاظ على أمنهم الشخصي إلى أجانب، لأنهم لا يثقون بأي أحد من مواطنيهم في طول البلاد وعرضها، كما أنه لا يمكنهم أن يجدوا أي قوة في بلادهم لتحميهم حتى داخل قصورهم الخاصة، أولئك الذين يذهبون إلى مقاطعتهم التي أتوا منها وإلى أبناء بلدهم تحت حماية الكوماندوس الأميركي وبالرغم من ذلك فهم يتعرضون للهجوم"[48].

وبعد وقت قصير - انقضى معظمه في الوقت الراهن - سيتمخض عن

امتعاض الشعب الأفغاني من تشكيل الكفرة للحكومة وإدارتها واحتلال الأراضي، وعن عصبيّة الأفغان القبليّة المتأصلة، وتعصبهم الإقليمي، وكرههم للأجانب، سلوك عنيف معادٍ للولايات المتحدة وبخاصة في أوساط البشتون وبعض الأقليات التي ساعدت على تسليم كرزاي سدة الحكم. فمنذ شهر يناير 2004، بدأت القوات الأميركيّة تواجه بتغيّر تدريجي بطيء في مواقف الأفغان قد ينتهي باتحاد كل الأفغان من مختلف الأصول العرقيّة، وتجمعهم لمحاربة القوات التي تقودها الولايات المتحدة، بهدف إجلائها عن الأراضي الأفغانيّة. ومع اقتراب حدوث هذه النتيجة المتوقعة، فستكون هناك شكاوى واتهامات من قبل الأفغان بأن الغرب، والولايات المتحدة، واليابان قد فشلوا في تأمين ما يكفي من الطعام، والمال، والتقنيّة، والخبرات، وقوات حفظ السلام، والكومبيوترات وكل ما تتطلبه عمليّة "إعادة بناء الأمة الأفغانيّة" وأنهم قد حنثوا بوعودهم - كما حدث بين عامي 1989 و1992 - وتخلوا عن أفغانستان. وهذا كله هراء، حيث إن حجم المساعدات الأجنبيّة التي تتدفق إلى أفغانستان لا علاقة له بالأمر، وإن زيادة حجم تلك المساعدات قد يمنح كرزاي فترة أطول في الحكم لا أكثر إلا أنه لن يضمن استمراره بأي شكل من الأشكال. وإن زيادة الاحتكاك بالأجانب، في أفغانستان بالذات دوناً عن أي مكان آخر في العالم، لا يولّد ازدراءً تجاههم فحسب، بل يتسبب في قيام حروب حتى الموت.

العمود الثالث: لا يمكن شراء الأفغان

ربما تكون أكبر أسطورة عن أفغانستان، هي أن المال يمكنه أن يشتري أي شيء، وأي أحد في هذا البلد. وقد ترددت هذه الأسطورة مراراً وتكراراً قبل وبعد بدء الغزو الأميركي في أكتوبر عام 2001. وقد أخذ الإعلام كلام العشرات من مسؤولي الاستخبارات الأميركيّة ممن"لم يفصحوا عن أسمائهم" على محمل الجد والذين قصوا على الإعلاميين حكايات عن قيام ضباط من المخابرات، وجنود أميركيين بالتجول في أنحاء الريف الأفغاني، وهم يحملون صناديقاً من المال ليشتروا بها بذكاء ولاء الأفغان، ليضمنوا سقوط طالبان، وللحدّ من خسائر الولايات المتحدة، ولتمهيد الطريق للديموقراطيّة. وقد تبجح مدير سابق لمحطة تابعة لوكالة

الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة قائلاً في هذا الخصوص: "لطالما رأيت أن رمي بعض الملايين هنا وهناك يصنع المعجزات في أفغانستان، فمسألة الولاء معقدة هناك، لكن لا يزال المال قادراً على إيجاد حل لكل المشاكل"[49]. إن الحقيقة وراء هذه الأسطورة التي كثر الكلام عنها هي أنها كذب وليس لها أي أساس من الصحة، لكنها من كثرة تكرارها ترسخت في عقول الناس لدرجة أنهم صدقوها حتى عندما رأوا دليلاً دامغاً يثبت عكسها، ونعود ثانية إلى كتاب *بوش في الحرب*. ففي البداية يعيد وودورد روايات عدد من المسؤولين الرفيعين في حكومة الولايات المتحدة التي فسّروا فيها كيف قاموا بشراء ولاء حلف الشمال، وجاء في إحدى تلك الروايات وصف لضباط من وكالة الاستخبارات الأميركيّة وهم يعطون قائداً من أهم قادة حلف الشمال خمسمئة ألف دولار بعشرة رزم من فئة المئة دولار مع وعد بأنه "سيكون هناك المزيد من المال في انتظاره أكثر من هذا المبلغ بكثير"[50]. ثم يستشهد وودورد بكلام وزير الخارجيّة الأميركي حيث قال: "لا أحد يريد حلف الشمال في كابل، ولا حتى حلف الشمال"، يُفسّر وودورد السبب، "لأن القبائل الجنوبيّة قد تفقد صوابها إذا رأت خصومها في العاصمة"[51]. وإذا كانت هذه هي الحال فعلاً، فقد يكون المرء معذوراً إذا ما افترض أنه كانت هناك رزم من فئة المئة دولار قد استخدمت لإبقاء حلف الشمال خارج كابل، لكن الحلف دخل كابل متجاهلاً تماماً المخاوف الأميركيّة، وذلك في الثالث عشر من ديسمبر عام 2003.

سيأخذ الأفغان المال منك دائماً، لكنهم لن يفعلوا ما تريده منهم، إلا إذا كانوا يريدون فعله بالأساس، كما أن الأفغان يتمسكون بعناد رهيب بحبهم للمعارضة، حيث إنهم قد يأخذون منك مالاً، ثم يقرروا أنهم لن يفعلوا ما كان بنيتهم أن يفعلوه وذلك ليتجنبوا أن يبدوا وكأنهم قد حققوا ما أردته. لقد أرسلت أميركا، والسعودية، ودول أخرى إلى المقاومة الأفغانيّة مليارات الدولارات بشكل أموال، وأسلحة، ورشاوي، ومرتبات شهريّة، ومؤن وذلك طيلة عشر سنوات من الجهاد ضد السوفييت، وقد تحدث العديد من المسؤولين والسياسيين الأميركيين عن ذلك وكأن الأفغان صاروا في قبضتهم يحركونهم كيفما شاؤوا. لكن الحقيقة هي أن المجاهدين الأفغان أخذوا كل الغنائم التي سلمناها لهم نحن وغيرنا طوعاً، ثم فعلوا

ما كانوا سيفعلونه أصلاً - وهو قتل الروس. لقد كان الأفغان على الدوام يرفضون التحرك أو التحدث كما كنا نطلب منهم أو نقترح عليهم، مهما كان الدعم المادي الذي نقدمه لهم. ومن المثير للسخريّة أن مسعود ومقاتليه من الجماعة الإسلاميّة كانوا أكثر حركة منظمة متلهفة لأخذ الأموال منا، وأقلها استعداداً لتنفيذ ما نطلبه منهم. هؤلاء الذين تبجح المسؤولون في واشنطن بأنهم قد اشتروهم في أواخر العام 2001. والحكاية التالية التي قد تكون حقيقيّة هي أكبر مثال على تصميم الأفغان على أن يذهبوا في الاتجاه الذي يختاروه لأنفسهم. يقال إنه في أواخر الثمانينات قابل ديبلوماسي أميركي رفيع - يتحدث بلسان حكومة كانت تتبرع بمليارات الدولارات للمجاهدين - رئيس الحزب الإسلامي يونس خالص وهو من أكثر المتمتعين بالكرم الأميركي، وأخبره أنه نظراً إلى أن الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشيف يُفكّر جدياً في الانسحاب من أفغانستان، فإن على الجماعات المتمردة أن تشجع موسكو وذلك بالتخفيف من وتيرة المعارك. ويقال إن خالص ردّ عليه بكل هدوء: "كلا، سنظل نقاتلهم حتى يرحلوا". فصدم الديبلوماسي عندما سمع ما قاله خالص، فقرر أن يراجع حجته، فأكد هذه المرة أن الولايات المتحدة والنشاط الديبلوماسي الغربي كانا حجر الأساس في إجبار السوفييت على الانسحاب، وأن هذا الضغط قد يكون أقوى إذا خفف الأفغان هجماتهم على الجيش الأحمر. فقال خالص وهو ينصرف بعيداً: "كلا، إنهم سيرحلون لأننا نقاتلهم وسنقاتلهم حتى يرحلوا، وإذا استمرينا في قتالهم سيرحلون".

وبالرغم من ادعاءات المسؤولين الأميركيين الكبار "المجهولي الهوية"، فإن إسرافنا في توزيع صناديق وحقائب النقود الذي تم بين السابع من أكتوبر 2001 وما آلت إليه معركة شاهي كوت في مارس 2002، قد اشترى لنا شيئين وهما: قوات يفترض أنها في خدمتنا قامت بإحداث ظروف ساعدت على عودة قوات طالبان والقاعدة إلى وضعها الطبيعي، كقوات تمرد قويّة، وأتاحت الفرصة لإقامة حكومة جديدة - لكنها ميتة مسبقاً - تحكمها أقليات مكروهة في كابل. كما أن قوات المرتزقة الأفغانيّة التي اعتمدنا عليها سمحت لكبار قادة القاعدة وطالبان بالهرب - باستثناء محمد عاطف ورئيس الاستخبارات السابق قاري عماد الله

اللذان قتلا نتيجة لقصف جوي أميركي. كما أن أعداداً كبيرة من جنود القاعدة وطالبان تمكنوا من الفرار من حلفائنا الذين اشترينا ولائهم للتو - وقد جاء في تقدير دراسة قدّمها المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجيّة في المملكة المتحدة أن "تسعين بالمئة من قوات بن لادن تمكنت من النجاة"[52] - والمعارك التي جرت في تورابورا وشاهي كوت هي أكبر مثال على إهمال حلفائنا سدّ الثغرات التي تمكن جنود العدو من النجاة من خلالها. وقد كتب أبو عبيد القرشي فور انتهاء معركة شاهي كوت في هذا الخصوص: **"يمكن لأي أحد يتابع أخبار أفغانستان أن يرى كيف تتلاعب الفصائل المختلفة بالأميركيين، وذلك لتستفيد من تدفق الدولارات إلى جيوبها لأطول فترة ممكنة، وكيف يحاولون الوصول إلى مصالحهم الشخصيّة دون المشاركة في الحملة الأميركيّة بشكل جدي"**[53](مقتطف مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وأخيراً، إذا كانت هناك حاجة لدليل آخر يثبت رفض الأفغان لشراء ولائهم، يمكننا أن نلاحظ أنه لم يُقدّم أي أفغاني معلومات تفيد في القبض على ما يسمى "بالأهداف ذات الأهميّة الكبرى". فبالرغم من أن الأفغان يعيشون في واحدة من أفقر دول العالم، والإغراء الذي قد يمثله مبلغ المكافأة وقدره مئة مليون دولار والذي تم الإعلان عنه بشكل واسع في محطات الراديو، والصحف، وعلب الكبريت، والملصقات الجداريّة لكن لم يكن هناك أفغاني واحد - من تلك السلالة التي قد تفعل أي شيء مقابل الحصول على المال - على استعداد لخيانة الإسلام وعهد قبيلته لمساعدة الأميركيين في القبض على أي من الملا عمر، وبن لادن، والظواهري ويمتع نفسه بالمكافأة.

"إن مبالغ المكافآت الخرافية التي تقدر بملايين الدولارات، فشلت في دفع المسلمين في أفغانستان مسافة إنش واحد بعيداً عن مبادئهم"، هذا ما جاء في موضوع نشرته الأنصار تحت عنوان "أوهام أميركا" كما تضمن الموضوع الاستهزاء بجهل الولايات المتحدة بعدوها. "إن أميركا لم تتلقَ أي معلومات هامة قد تمكنها من كسب الحرب. وقد كان هذا مثالاً عن الإخلاص الذي أصبح غير معروف في التاريخ الحديث، وهو إخلاص لم يدخل في حسابات أميركا، والذي

بدأ عده التنازلي ليقود إلى الهزيمة التامة لأميركا"[54]. وكما يقال فإن تلك كانت مجازفة قام بها المشتري... فلم يكن هناك ضمان على البضاعة...

العمود الرابع: الحكومات القويّة في كابل تسبب الحرب

يبدو أن الرئيس كرزاي ومستشاريه الغربيين لم يدركوا هذه الحقيقة البديهيّة حتى الآن. فوزارة الخارجيّة الأميركيّة مثلاً تريد أن تكون الحكومة في كابل حكومة مركزيّة قويّة لمنع تقلقل الأوضاع والتساهل بشكل "تقوم فيه بعض الجهات بوضع يدها على مناطق أو مقاطعات ما والاستقلال بها أو فرض سيطرتها عليها وتصريف مصالحها فيها"، كما أن كرزاي نفسه، بحسب تقرير المستشار السياسي للأمم المتحدة حول أفغانستان عام 1990، "حاول فرض حكم مركزي يشبه في طبيعته ذلك الذي تصورته حركة طالبان؛ أو على الأقل من حيث أسسه الدينيّة"[55]. وهذا أيضاً مؤشر قوي إن دل على شيء فإنه يدل على أن كرزاي لا يمثل الشعب الأفغاني، وأن مستشاريه الغربيين لم يتكبدوا عناء قراءة دراسة أو اثنتين عن التاريخ الأفغاني، فأفغانستان تتميز عن غيرها من البلاد بأنها بلد الأقاليم، والأقاليم فيها تقسم إلى أقاليم فرعيّة، والأقاليم الفرعيّة تقسم إلى مناطق فرعيّة أصغر، وتستند هذه التقسيمات إلى الاختلافات العرقيّة، والقبليّة، واللغويّة. وفي خضم هذه الشبكة المعقدة من العلاقات المتداخلة، فإن الحكومة المركزيّة في كابل قد لعبت منذ القدَم دوراً محدوداً في سياسة البلاد، وهو يتركز بشكل رئيسي على الشؤون الخارجيّة وإدارة المؤسسة العسكريّة المحليّة بشكل محدود. كما لعبت كابل ومنذ عام 1945 دور القناة التي كانت تمرّ من خلالها المساعدات من الحكومات الأجنبيّة، والمؤسسات الدوليّة، والمنظمات غير الحكوميّة وتوزع على سائر الأقاليم. وحتى عندما كان الحكم فيها ملكياً - حتى عام 1973 - كانت الحكومة المركزيّة ضعيفة. ومع أن الملك كان يتمتع باحترام عميق إلا أنه في ما يخص الحكم المباشر، لم تكن صلاحيات وفعاليّة حكومته تتعدى حدود كابل. وهكذا فإن لقب كرزاي الحالي هو "عمدة كابل". وآخر حكومة حاولت فرض حكم مباشر وقوانين موحدة لتسري على كافة الأقاليم، والمجموعات العرقيّة، والقبائل الأفغانيّة كانت حكومة الحزب الديموقراطي الشعبي الأفغانيّة أي الأفغان الشيوعيين. وأي شخص

على اطلاع على الأخبار لا بد وأن يذكر أن محاولة مركزة الحكم من كابل الـتي تمت باسم التحديث، وماركس، والعلمانيّة أدت إلى تأجيج ثورات في طول البلاد وعرضها كادت تحدث انقلاباً في الحكم في أواخر السبعينات ثم تسببت بالغزو السوفييتي وما تبعه من فظائع وأهوال. وبعد عشرين عاماً من الحرب والحكومات الأجنبيّة أو الضعيفة في كابل، فإن الأقاليم، والأقاليم الفرعيّة، والقبائل لم تكن يوماً بهذه الاستقلاليّة عن بعضها البعض والغيرة من الامتيازات التي تتمتع بها بعضها دون أخرى كما هي اليوم. لذا فإن أي توجه مهما كان بسيطاً من كرزاي، في هذه الظروف السياسيّة التي تسيطر على البلاد، قد يُفسّر على أنه ديكتاتورية وسيقاوم، مما سيجعل كرزاي يواجه موقفاً حرجاً، سينتهي بالفشل سواءً تخلى عن سياساته المركزيّة أو طبقها بالقوة على الشعب الأفغاني بيد جند الكفار.

العمود الخامس: إنها حلبة مصارعة دوليّة وليست منطقة نائيّة لم يسمع بها أحد

"تقوم روسيا بتسليح أحد القادة العسكريين، وتسلح إيران آخر، وقد عاد .... الأغنياء إلى تمويل المتطرفين الإسلاميين، وتقوم بعض جمهوريات آسيا الوسطى بتقديم الدعم لحلفائهم من نفس الأصول العرقيّة. أما الهند وباكستان فهما يخوضان منافسة قويّة وهما يدعمان سرّاً القوى المتصارعة".

هذا ما أخبره الصحافي الباكستاني المحنك أحمد رشيد للغرب في بداية العام 2003. ففي أغلب الأحيان يتجاهل الغرب الحقيقة التي تحدث فيما أسماه رشيد "حلبة أفغانستان للعب" ويعتقد أنه إذا قامت فقط حكومة مستقرة ثابتة في أفغانستان، فستغط هذه الدولة في ظلمة وعزلة، يمكن للأفغان فيها أن يعذبوا بعضهم بعضاً في صمت، ويتوقفون عن إزعاج باقي العالم. وهذا ما أشار إليه المؤرخ ثوسيديدس بقوله: "الأمل هو عكاز اليائس". وبينما تتحدث كل الدول المجاورة لأفغانستان في المحافل الدوليّة عن رغبتها ودعمها لأفغانستان موحدة، ومستقرة، وآمنة، غير أنه ليست هناك دولة واحدة تشارك الأخرى في تعريفها للوحدة والاستقرار، ولن تتقبل أي منها أفغانستان مستقرة ما لم تحمي مصالحها. فباكستان تريد أن تكون حكومة كابل حكومة إسلاميّة مستقرة يسيطر عليها

البشتون، وأن تكون معادية للهند، وتتطلع إلى أسلمة آسيا الوسطى وبذلك تبقى أنظار الحكومة الأفغانيّة متجهة شمالاً لا شرقاً نحو باكستان. أما روسيا، وأوزبكستان، وتركيا، وطاجكستان فتريد حكومة يسيطر عليها مسلمون معتدلون من الأفغان الطاجكين والأوزبك، الأمر الذي من شأنه إحداث حاجز في القسم الشمالي من البلاد يعيق تدفق المقاتلين السنّة إلى آسيا الوسطى القادمين من جنوب أفغانستان والخليج العربي. وقد قامت كل من موسكو وتركيا، بغيّة التوصل إلى هذا الهدف بتوجيه إعاناتهما إلى القائد الطاجكي الأعلى المارشال فهيم والجنرال الأوزبكي دستم، بدلاً من تقديمها إلى حكومة كرزاي ككل. وإيران، كعادتها، تتطلع إلى حكومة أفغانيّة تقوم بحماية أرواح ومصالح الأقليّة الشيعيّة المضطهدة، وتخفض إنتاج وتصدير الهيروين إلى حدٍّ كبير، وتفتح طريقاً لانتشار الشيعيّة الإيرانيّة في آسيا الوسطى. وبالمقابل .... ودول الخليج لا تزال تطلب ما كانت تطلبه من المجاهدين ضد السوفييت ألا وهو حكومة إسلاميّة سنيّة شبيهة بنظام طالبان تقوم بالحدّ من انتشار الشيعيّة من أفغانستان نحو آسيا الوسطى، وتشجع الانتشار العسكري السنّي هناك. أما الهند فمن البديهي أنها تحلم بحكومة في كابل أقرب إلى العلمانيّة، وتكون على ودّ مع نيودلهي، ولا تساعد على انتشار أي من المذهبين السنّي أو الشيعي في أفغانستان وآسيا الوسطى، وتعمل مع الهيئات الاستخباراتيّة والعسكريّة الهنديّة على التجسس والسعي إلى تدمير باكستان، وبهذا تضمن الهند أن إسلام أباد ستبقى دائماً قلقة بشأن أمن واستقرار حدودها الغربيّة. أما الولايات المتحدة، والغرب، والأمم المتحدة فهم يريدون أن يصدقوا أن دعم حكومات الدول الآنفة الذكر لحكومة كرزاي الانتقاليّة هو أمر حقيقي، لذا فإنهم سيصابون بخيبة أمل كبيرة.

العمود السادس: يجب أن تضمن باكستان وجود حكومة إسلاميّة يسيطر عليها العنصر البشتوني في أفغانستان

بالرغم من أن هذه الحقيقة ترتبط بشكل مباشر بما جاء في العمود الخامس، إلا أنها تستحق معالجة خاصة بشكل منفصل، لأنها غائبة عن الغرب، كما أنها تتعلق باستقرار وحتى باستمراريّة قوة نوويّة. فمنذ أن تم تقسيم شبه القارة الهنديّة

عام 1947، كانت هناك ثلاثة مخاوف أمنيّة عظيمة تقض مضجع باكستان، أهمها وضع حدود لتوسع جارتها الهندوسيّة العملاقة الهند، والحصول على أسلحة نوويّة ومن ثم حمايتها والحفاظ عليها، وضمان وجود حكومة صديقة في كابل يسيطر عليها البشتون. وقد كانت باكستان مستعدة لبذل ما بوسعها لتحقيق ذلك. وفي الحقيقة، فإن وضع الحدود والحواجز في وجه الهند هو أهم ما تسعى باكستان لتحقيقه وذلك لضرورات أمنها القومي، والأمران التاليان يدعمان بدورهما عمليّة الحدّ من طموحات الهند. وقد تم لباكستان ما أرادته ولأول مرّة في تاريخها، حيث إنها حققت أهدافها الثلاثة المذكورة في الوقت ذاته، وذلك بين عامي 1998 و2001. ففي مايو عام 1998، نجحت باكستان في اختبار سلاح نووي – يماثل القنبلة التي امتلكتها الهند منذ وقت طويل، وفي نفس الوقت تمكنت حركة طالبان من وضع يدها على أكثر من ثلاثة أرباع أفغانستان وبهذا ضمنت باكستان حدوداً صديقة على طول خط دوراند الذي يشكّل الحدود الباكستانيّة الأفغانيّة. وهكذا رأت باكستان ولفترة ذهبيّة أن الله قد استجاب لصلواتها.

أما اليوم فإن الشق الأفغاني من ثالوث الأمن القومي الباكستاني قد تحطم إلى ألف قطعة وأكثر، وبذلك أخذت الأمور تسوء شيئاً فشيئاً. فطالبان أبعدت عن السلطة بعد أول معركة كبرى من الحرب الأميركيّة الأفغانيّة فتحولت بذلك إلى حركة معارضة – في الانتظار – لكنها ستعود لتستلم الحكم والسؤال فقط يتعلق بالزمان والاسم الذي ستحمله. وما يقلق إسلام أباد أيضاً هو الحكومة الأفغانيّة الانتقاليّة التي تدعمها الولايات المتحدة – لا لاحتمال نجاحها، بل لأنها ستفقد أفغانستان استقرارها. إضافة إلى أن هذه الحكومة تحاول وضع أسس لما قد يكون دولة إسلاميّة بالاسم فقط، دولة من الواضح أنها ليست بشتونيّة المضمون، كما أنها مناصرة لروسيا والهند. أما نيودلهي التواقة دائماً لتوجيه الضربات إلى باكستان، فقد قدّمت دعمها لحكومة كرزاي حيث أرسلت مراقبين عسكريين إلى أفغانستان، وقامت بتدريب الضباط الأفغان في الأكاديميات العسكريّة الهنديّة، كما أنها فتحت من جديد أبواب سفارتها في كابل، وعينت فيفيك كاتجو المعادي لباكستان سفيراً لها هناك، كما

أسست ووضعت أسساً لوجود ديبلوماسي مكثف حيث أقامت قنصليات في هرات، ومزار شريف، وجلال أباد، وقندهار.

وبالإضافة إلى ذلك، فواشنطن والقادة العسكريين الأميركيين - المستعدون للقتال حتى آخر قطرة دم تنزف من الأطراف الأخرى التي تساندهم - يدفعون باكستان لنقل قواتها العسكريّة النظاميّة إلى المنطقة الحدوديّة الباكستانيّة المتاخمة لأفغانستان. وهي منطقة بعيدة عن مراقبة إسلام أباد كما أنها تشكل حالة من عدم الاستقرار لباكستان بسبب ثورات القبائل البشتونيّة الاستقلاليّة الحدوديّة ضد باكستان - بمساعدة إخوانهم من البشتون الأفغان - التي ظهرت على الأرجح بتشجيع من الولايات المتحدة، الأمر الذي انقلب ضدها الآن. وقد أكد ذلك ديفيد رود في تقرير كتبه في صحيفة *النيويورك تايمز* جاء فيه: "لقد أكدت الزيارات الراهنة لمنطقة القبائل تزايد المعارضة الشديدة للولايات المتحدة... وكنتيجة لذلك فإن المناطق القبليّة تظهر إلى النور اليوم، وبعد مرور عام واحد على سقوط طالبان، كمعاقل حصينة للقوات الإسلاميّة الهجوميّة"[56]. ونظراً لمخاوف باكستان وقلقها من الخطر الهندي الذي يتهددها، فإن وضع أفغانستان الراهن من وجهة نظر إسلام أباد، هو وضع لا يحتمل ولا يمكن تقبله على الإطلاق. وبينما تحاول باكستان أن تفعل كل ما بوسعها لتبدو وكأنها تمدّ يد المساعدة للولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه تظهر للعالم بموقف الداعم والمشجع الكامل لحكومة كرزاي الانتقاليّة، فإن الواقع هو أن مصلحة الأمن القومي الباكستاني تعتمد بشكل أساسي على عودة نظام شبيه بنظام طالبان إلى سُدّة الحكم في كابل، وتجنب النشاطات أو الأفعال التي قد تشعل فتيل الحرب، حرب أهليّة حقيقيّة بين القبائل البشتونيّة الباكستانيّة المسلحة والجيش الباكستاني. إن الرئيس مشرّف سينقل وحدات الجيش إلى المناطق القبليّة ليسترضي واشنطن - كما فعل في خريف عام 2003 وبداية عام 2004 - لكن على الأرجح ستكون تلك الوحدات متأخرة قليلاً عندما تظهر على الساحة فرص لتدمير أهداف تابعة لطالبان أو للقاعدة. حيث إنه من الضروري أن يكون أمن واستقرار الحزام القبلي من أهم أولويات إسلام أباد مهما كانت رغبات الأميركيين.

ففي النهاية لن تتمكن إسلام أباد من الاستمرار إلى الأبد في لعبة أميركا ضد أفغانستان، والمراهنة على بقاء الحكومة واستمرار السيادة الباكستانيّة على تلك المناطق. وستقوم باكستان سواء تحت قيادة مشرّف أو خلفه بدعم جهود طالبان لاستعادة السيطرة على أفغانستان. بينما سيشجب الغرب هذا العمل ويعتبره عملاً قامت به "عناصر مارقة" من الجيش أو جهاز الاستخبارات الباكستانيّة، وبالطبع سيكون الغرب مخطئاً في ذلك. فكما كان الأمر منذ الغزو السوفييتي عام 1979، ستظل طالبان تحظى بالدعم على مستوى الحكومة الباكستانيّة حتى وإن كان ذلك سرّاً، حيث إن باكستان لن تألو جهداً لضمان إقامة حكومة صديقة لباكستان في كابل. وبالفعل يرجح أن باكستان لم تتوقف يوماً عن تقديم المساعدة لطالبان. فالوحدات الحدوديّة الباكستانيّة مثلاً لم تقم باعتراض طريق الفارين من تنظيم القاعدة بعد معارك تورابورا وشاهي كوت، ويبدو أنها الآن تسمح لقوات طالبان والقاعدة بعبور الحدود للقيام بضرب أهداف تابعة للولايات المتحدة والحكومة الأفغانيّة الانتقاليّة ومن ثم العودة إلى باكستان. كما وردت تقارير تفيد بأن الاستخبارات الباكستانيّة قامت بنقل مقاتلي القاعدة إلى برّ الأمان في كشمير الباكستانيّة، كما أن المجموعات الكشميريّة الباكستانيّة المتمردة 'لاشكار الطيبة وجيش محمد' قامت بتقديم المساعدة إلى القاعدة بتفويض من الحكومة الباكستانيّة، كما أن حكومة المقاطعة الشماليّة الغربيّة الحدوديّة لن تسمح بحدوث عمل عسكري جدي يقوم به الجيش الباكستاني ضد طالبان والقاعدة في المناطق الحدوديّة مع أنه من الواضح أنها قد وافقت على وجود وحدات عسكريّة إضافيّة في المنطقة بناء على تعليمات من إسلام أباد. وستقوم هذه الوحدات بعرض عمليات عسكريّة وإراقة الدماء بشكل يرضي المطالب الأميركيّة بالقيام "بعمل عسكري فعال"، وبذلك تكون قد تفادت إعطاء قادة الولايات المتحدة أساساً للقيام بعمل عسكري أحادي الجانب في باكستان، لكنهم لن يتجرؤوا على القيام بعمل قد يساهم في المساعدة على القبض على بن لادن أو الملا عمر وهو أمر قد يسيء كثيراً إلى المحسنين الخليجيين إلى باكستان وقد يتسبب بإضرام نار نزاع مسلح مع القبائل البشتونيّة. وبما أن باكستان تواجه اليوم اقتصاداً آخذاً بالانهيار

وقوة إسلاميّة أصوليّة متزايدة في المجتمع، والسياسة، والجيش، وأجهزة الأمن في البلاد بالإضافة إلى قوة الهند العسكريّة التقليديّة التي تزداد يوماً بعد يوم. لذا فإن حكام باكستان لا يمكنهم ببساطة أن يزيدوا من المخاطر التي تتهدد أمنهم القومي من خلال السماح بقيام نظام معادٍ في كابل، أو من خلال القيام بعمل عسكري عنيف لضرب القاعدة وطالبان في المنطقة الحدوديّة الباكستانيّة الأفغانيّة بشكل يؤدي إلى إشعال فتيل حرب أهليّة، أو دفع القبائل البشتونيّة الأفغانيّة والباكستانيّة للانفصال وتشكيل دولة مستقلة.

العمود السابع: ستكون هناك حكومة إسلاميّة متطرفة في كابل

سأشير هنا إلى أمر بديهي ومعروف، وهو أن أفغانستان بلد يميل بشدة إلى التمسك بالإسلام المحافظ. وقد كان الحال هكذا في عهد الحُكم البريطاني، وعندما استولى الشيوعيون الأفغان على السلطة في السبعينات، وعندما احتلت موسكو أفغانستان عام 1979، وهذا الوضع مستمر حتى يومنا هذا. أما الترعة الرائجة في الوقت الراهن فهي الاتجاه نحو إسلام أكثر تطرفاً وأكثر تشدداً من أي وقت مضى. لماذا يحصل هذا؟ أولاً، لأن الأفغان خاضوا الحرب التي دامت ثلاثة عشر عاماً ضد الاتحاد السوفييتي والشيوعيين الأفغان باسم الله وكان إيمانهم المتين والراسخ في قلوبهم هو الدافع للنصر. ثانياً، بسبب الحرب الأهليّة التي استمرت عامين كاملين (1992 - 1994) والتي كان السبب في اندلاعها قيام الولايات المتحدة، والغرب، والأمم المتحدة - في النسخة الأولى من المذهب المتبع في العراق اليوم - بمنع القوات الإسلاميّة الأصوليّة الأفغانيّة التي انتصرت على السوفييت من تولي السلطة وتطبيق الشريعة الإسلاميّة. فكما هي الحال في العراق فإن حق الدولة في تقرير المصير قد تم تعريفه على أنه قيام حكومة توافق عليها الولايات المتحدة بشرط ألا تكون حكومة إسلاميّة. ثالثاً، بسبب سبع سنوات من النزاع المسلح (1994 - 2001) التي تطلّبها الخروج من هذه الورطة والبدء بتشكيل حكومة محليّة والاقتراب من التوصل إلى أمن واستقرار يشمل كافة أرجاء أفغانستان. رابعاً، لأن الأفغان يشنون حرباً الآن، بالرغم من أنها من صنع طالبان، غير أنها قادت بلدهم الذي تسيطر عليه كراهيّة الأجانب والعصبيّة القبليّة إلى حقبة جديدة من السيطرة

الأجنبيّة، تتمثل في مقاومة مسلحة للاحتلال الغربي والنظام الذي فرض على الأفغان بقوة العصا دون أن يتمتع بأي خلفيّة إسلاميّة.

وقد صرّح عبد الرسول سيّاف الحليف الاسمي لكرزاي لصحيفة *الشرق الأوسط*: "**إنني لا أجد أي سبب مقنع لاستمرار وجود قوات حلف الناتو والقوات الأميركيّة على أراضينا، فنحن لم نتخلص من السوفييت ليأتينا الأميركيون في نهاية الأمر**"[57] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وقد جاء الأفغان كعادتهم بأفضل ما يمكن أن يوصف به هذا الوضع قبيل الاحتلال الأميركي عام 2001، حيث بثت إذاعة طالبان تعليقاً يمكن أن يقال عن الكفار المحتلين بلسان أي مجموعة عرقيّة من سنّة أو شيعة اليوم أو في أي فترة من ألفي عام من التاريخ الأفغاني:

> نحمد الله أن الأفغان بقوتهم البسيطة وفقرهم المدقع يواجهون أميركا هذه القوة العظمى التي جاءت بكل قواتها لتحارب الأفغان من الشرق إلى الغرب. ونحن الأفغان، ردّاً على ذلك نشكر الله أيضاً أن الولايات المتحدة تقف ضدنا... وإذا قامت أميركا بشنّ هجوم على بلدنا فسنكون على أتم الاستعداد للردّ عليها بكل ما نملك. وأولادنا مستعدون أيضاً والحمد لله. ونطلب من الله القوي العزيز أن تأتي أميركا إلى أرضنا[58].

فقد حرم المسلمون الأفغان، من وجهة نظر الشعب الأفغاني من قطف ثمار انتصارهم العسكري مرتين، لذا فهم مصممون على المحاولة من جديد. وهناك ثلاثة عوامل ستساعدهم على الوصول إلى السلطة علاوة على إيمانهم القوي وكرههم الأزلي للأجانب. فمنذ العام 1979 أمضى حوالى ستة ملايين أفغاني حياتهم كلاجئين في المخيمات في إيران وباكستان، حيث كان تعليم الأطفال، سواء ممن كبر في المخيمات أو ولد وتربى هناك، عبارة عن ثقافة عسكريّة حربيّة أصوليّة تلقوها على يد رجال دين من الجنسيتين .... أو رجال دين من بلدان الخليج العربي وباكستانيين تم تدريبهم في الجامعات .... أو على يد رجال دين .... وأفغان - مثل زعيم طالبان الملا عمر الذي تدرب على يد رجال دين سعوديين، وباكستانيين، وإيرانيين، وخليجيين. ولهذا فإن عودة

اللاجئين إلى أفغانستان لا بد وأن تعزز سيطرة العناصر القتاليّة الإسلاميّة الأصوليّة من السنة والشيعة في المجتمع الأفغاني، مما سيؤدي إلى تغيير شكل الإسلام الذي كان معروفاً في أفغانستان إلى الشكل السائد في العالم الإسلامي اليوم. وكذلك فإن المنظمات غير الحكوميّة الإسلاميّة السنيّة، والتي في غالبها منظمات ......، كانت تعمل بجد وفاعليّة في أفغانستان لربع قرن على تعليم الأفغان الشباب نفس المنهج الإسلامي السلفي الذي يدرس في مخيمات اللاجئين في باكستان، وهو نفس المنهج الذي تلقاه أسامة بن لادن في .... كما أن عمل تلك المنظمات غير الحكوميّة على تأمين المياه الصالحة للشرب، وتقديم الرعاية للنساء الحوامل، وتعليم الشعب الأفغاني مهارات الصناعات المترليّة كان حافزاً آخر على تعميق التشدد الإسلامي الأفغاني. وأخيراً، فإن الأغلبيّة العظمى من الأفغان تدرك أنه كانت هناك ثلاثة أطراف وقفت باستمرار إلى جانبهم من أيام العدوان السوفييتي وحتى اليوم وهي الله، والمنظمات الإسلاميّة غير الحكوميّة، وأسامة بن لادن. وقد أخبر الملا عمر الشعب الأفغاني "أن أسامة قد ساعدنا في الحرب ضد الروس وهو لن يتخلى عنا الآن... إن أسامة سيعيش معنا ويموت معنا"[59]. إن هذه الحقائق علّمت الأفغان أن الإسلام هو سرّ البقاء والاستمرار ومفتاح النصر الأكيد وأنه لن تكون هناك مساعدات غير إسلاميّة في طريقها إليهم وإن كانت فهي شحيحة وقليلة وهذه الأخيرة هي حقيقة شكلت دافعاً آخر للتمسك بالدين. إن إعادة تشكيل حكومة ونظام إسلامي في كابل هو أمر سيحدث في مدة أقصر مما يمكن أن يتبادر إلى الذهن. ولا يسع المرء عندئذ إلا أن يتمنى أن ينجو كرزاي ومن حوله من المغتربين الأفغان الذين تأجنبوا، وتعلمنوا، وتخلوا عن دينهم أولئك الذين سلمناهم الحكم في كابل، نتمنى أن يتمكنوا من النجاة بحياتهم.

3

القاعدة: لم تنتحر ولم تطرد إنما هي نحو مزيد من المرونة، والتوسع، والقوة

بالرغم من التفوق الكبير الذي يميّز قواتنا من حيث الذكاء والقوة عن جيش شمال فرجينيا، غير أنهم بالتمسك بالالتزام والنظام فحسب، تمكنوا من اكتساب قدرة على التحكم بفعاليّة وصلابة منقطعة النظير لم يعرفها - باعتقادي - التاريخ القديم أو الحديث.

اللواء جوزيف هوكر، سي. 1863[1].

لا يمكن أن تكون هناك مجموعة من الرجال تشبههم في قوتهم، بشرتهم السمراء، ومظهرهم المهيب تقشعر لرؤيته الأبدان. لا شك أنهم أقل تحضراً وثقافة من شعبنا الذي ولد وترعرع هنا، غير أنهم ضمن محيط إدراكهم يتمتعون بسرعة بديهة لا مثيل لها، بالإضافة إلى قدرتهم على التعامل مع الأسلحة بمهارة فائقة. وأكثر ما يميزهم هو رجولتهم الصلبة فهم لا يتذللون أبداً، ولا يتذمرون أو يشتكون بل على العكس إنهم ينظرون في عينك مباشرة نظرة لا تحمل أي حقد أو عداء وكأنهم لم يسمعوا طلقة نار قط.

الكولونيل ثيودور دريبر، 1922[2].

جيش فيرجينيا الشماليّة بقيادة الجنرال روبرت إي. لي. لم يكن هناك أي مؤسسة عسكريّة في التاريخ الأميركي تضاهي هذا الجيش شهرة، وشعبيّة، واحتراماً بين أفراد الشعب. لقد اخترت هذه الأقوال المأثورة أعلاه لأنها أتت على لسان هوكر ودريبر وهما من ضباط الولايات المتحدة ممن فهموا واستخدموا إلى

أقصى حدٍّ ممكن المميزات الكبيرة التي تمتع بها الاتحاد، وتفوّق بها على الولايات الانفصاليّة سواء من الناحية العسكريّة أو الاقتصاديّة، أو تعداد الرجال وقوتهم الحربيّة، لكنهم أدركوا أن هذه المزايا الهائلة لن تضمن هزيمة الثوار وإعادة الاتحاد إلى وضعه السابق. لكن قبل التوصل إلى هذه النهاية المرجوة، كان عليهم أن يحاربوا رجال جيش شمال فرجينيا وينتصروا عليهم عسكرياً ونفسياً، أولئك الرجال الجائعين، القذرين، الفقراء ذوي الملابس الرثة الممزقة، الذين لا يتمتعون بأي دعم لوجستي، والمسلحين بخليط من الأسلحة القديمة والحديثة. وكان على رجال الاتحاد أن يجعلوا هذا الجيش يرى ويصدق بالقوة أن أي مقاومة من طرفه لن تجدي نفعاً. لقد كان السادة هوكر ودريبر - بالإضافة إلى غرانت، وشيرمان، وتوماس، وشيريدان، وستانتون، والسيد لينكولن، ومئات آخرين - على علم بأن مظاهر الثوار كانت خادعة، وأنهم مهما كانوا يبدون ومهما كانت هيئتهم، فهم على الأقل يضاهونهم من حيث التصميم، والجرأة، والقدرة على الصبر، والتحمل، والولاء للقضية، والحماس الديني، والتفاؤل، والشجاعة. كما أن هوكر، ودريبر، وغيرهم كانوا يعرفون أنه من أجل إنقاذ الاتحاد، عليهم بفعل أي شيء إلا القضاء على جيش شمال فيرجينيا، وهذا كان شرطهم عندما سلّم لي نفسه لغرانت عند محكمة أبوماتوكس.

إن ما يواجهه من هم في مكان هوكر ودريبر في اتحاد اليوم هم مجاهدو الأمة الإسلاميّة. وحال هؤلاء تشبه حال رجال لي حيث إنهم غالباً ما يكونون قذرين، ومهلهلي الثياب، ولحاهم طويلة ولا يتقاضون أجوراً إلا في ما ندر وكذلك الحال بالنسبة لتمويلهم، كما أنهم يمتلكون مجموعة متنوعة من الأسلحة. وكما كان رجال لي، يتمتع هؤلاء بشجاعة نادرة، وجرأة منقطعة النظير، بالإضافة إلى التزامهم وإخلاصهم لقضيتهم، وتفاؤلهم، وحماسهم الديني. ويدرك الضباط العسكريون والقادة السياسيون لاتحاد اليوم أيضاً التفوق الاقتصادي، والسياسي، والعسكري الطاغي الذي يمتاز به الاتحاد، تماماً كما أدرك ذلك هوكر ودريبر آنذاك. إلا أن قادة الاتحاد اليوم يختلفون عن أولئك الرجال في انخداعهم بمظاهر عدوهم، وهكذا فنحن اليوم كأمة، لا تزال أمامنا طريق طويلة للوصول إلى أبوماتوكس.

البقاء أولاً

إن أول عمل يقوم به تنظيم معارض كتنظيم القاعدة، لا يتمثل بالوقوف والقتال المباشر ضد العدو، فهو لا يمتلك القدرة على توجيه ضربة واحدة إلى العدو لتقضي عليه. بل إن أول مسؤوليّة تلقى على عاتق تنظيم كهذا، هي أن يكون دائماً في وضع يتجنب فيه أن يقضى عليه بواسطة ضربة عسكريّة قاتلة، أو حملة شعواء يشنّها عليه عدوه الذي يتمتع دائماً بقوة وسلطة أكبر منه. **"إذا قمتم بتحويل القوة العسكريّة للمجاهدين إلى وحدات صغيرة تمتلك مهارات إداريّة جيدة، فإن هذا سيجنبنا الكثير من الخسائر، فالوحدات العسكريّة الكبيرة تنتج مشاكل إداريّة، كما أنها تشغل مساحات كبيرة مما يجعل إخفاء وجودها عن العدو، وإبعادها عن مرمى القصف الجوّي أمراً صعباً"**[3] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). هذا ما أوصى به قائد العمليات العسكريّة في تنظيم القاعدة، سيف العادل في مارس عام 2003 لحركة المقاومة الإسلاميّة العراقيّة الوليدة. وكما أشار العادل فإن طريقة العمل التي اتبعتها الجماعات المتمردة الناجحة منذ الأزل تتعلق ببعض التدابير التي يجب اتباعها وهي أولاً: عدم تجميع القوات في مكان واحد وذلك لتجنب الهزائم الكبيرة. ثانياً: تأمين أقصى درجات الحماية الممكنة للقادة الكبار، والاستعداد لخسائر قيادية فادحة في نفس الوقت، وإعداد قيادات بديلة في حالات الطوارئ. ثالثاً: استخدام كل الأسلحة المتوافرة في متناول اليد لإرهاق العدو من النواحي الاقتصاديّة، والعسكريّة، والسياسيّة، والنفسيّة. لقد اتبعت القاعدة هذه الطريقة التاريخيّة في عملها منذ نشأتها في أواخر الثمانينات وبذلك تمكنت من الاستمرار، ومتابعة نشاطاتها، وعملياتها حتى بعد مرور سبع سنوات من الحرب ضد الولايات المتحدة. وهي ناشطة لدرجة أن المسؤولين يكررون باستمرار تحذيراتهم للمواطنين من أن مقاتلي بن لادن لا يزالون يشكلون خطراً يتهددهم الآن كما كان في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. وقد قال مدير المخابرات المركزيّة في بداية العام 2004 في هذا الشأن: "لا يزال بمقدور القاعدة أن تقوم بهجمات تضاهي تلك التي شنّتها في الحادي عشر من سبتمبر وبنفس المقاييس الكارثيّة"[4]، وبالفعل، فهناك العديد من المسؤولين الأميركيين رفيعي المستوى ممن يعتقدون أن القاعدة قد تكون

حتى أخطر من أي وقت مضى، ويحذرون من أنها في طور الاستعداد لاستخدام سلاح دمار شامل في القارة الأميركيّة. لقد حذرنا مرات عديدة من اهتمام القاعدة في تطوير واستخدام أسلحة كيميائيّة، وبيولوجيّة، وإشعاعيّة. كما رأينا أيضاً زيادة في التهديدات بشنّ هجمات يتم فيها استخدام أوسع لأسلحة دمار شامل أكثر تطوراً من قبل وذلك طوال العام الماضي"[5].

كيف تمكنت القاعدة من النجاة بعد الهجوم الشرس الذي شنّته عليها الولايات المتحدة، التي تعد أعظم دولة في العالم والتي تتمتع بأكبر قوة عسكريّة؟ في البدء، يمكننا القول إن القاعدة مدينة لقرار المسؤولين الأميركيين بتعريفها بالمجموعة الإرهابيّة وتعريف حكومة طالبان التي تحتضنها على أنها دولة تقليديّة مستقلة. حيث إن الإجماع الكامل على تأييد هذه القرارات نجم عنه ما أشرت إليه في الفصل الأول على أنه "التأخير المميت". فلو أن ما افترضته أميركا كان صحيحاً، لكانت طالبان جالسة بانتظار أن يتم القضاء عليها عندما قمنا بالهجوم عليها في السابع من أكتوبر عام 2001، ولكانت الأعداد القليلة نسبياً من الإرهابيين - أو المجموعات الإرهابيّة حسب تعريف المسؤولين الأميركيين - ممن ينتمون للقاعدة، قد تجمعت حول أشلاء وجثث رجال الملا عمر الذين كان من المفترض أن الهجمات الأميركيّة قد قضت عليهم. لكن من المؤسف أن كلاً من الافتراضين كان خاطئاً ولتزيد الأمور سوءاً، فقد تم إثبات عدم صحتهما بشكل مؤكد قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 بوقت طويل.

إنقاذ أكثر ما يمكن إنقاذه في أفغانستان

بالرغم من أن طالبان كانت تسيطر على أكثر من خمسة وثمانين بالمئة من الأراضي الأفغانيّة عندما قتل مسعود، إلا أنها كانت لا تزال بعيدة عن اعتبارها حكومة وطنيّة بالمعنى الغربي للمصطلح. فقد أبقت طالبان مقرها الرئيسي في قندهار - ولم تقم أبداً بنقل مكاتبها إلى كابل - ومن هناك أخذت تبسط سيطرتها تدريجياً على الريف والمدن المحيطة، وتطبق في أنحاء البلاد القانون والعدالة القاسية التي تعتمد على الشريعة الإسلاميّة. وعلى الرغم من قيام طالبان بكل هذه

النشاطات السياسيّة، فهي ظلت كما كانت أصلاً، حركة تمرد ومعارضة إسلاميّة أصوليّة تتمركز في ريف أفغانستان وتعتمد على الحكم بالقوة، وسيطرة الأغلبيّة العرقيّة، وتطبيق الشريعة الإسلاميّة. ونظراً إلى وضعها هذا، فإنه كان من الممكن طرد طالبان من المدن، وهذا ما حصل بالفعل حيث أبعدت طالبان عن المدن الأفغانيّة في أواخر عام 2001، لكن خسارتها هذه لم تكن هزيمة بالطريقة التي تمزم بما الحكومات التقليديّة عادة عندما تخسر مراكزها المدنيّة الكبرى. فبعد أن خسر الملا عمر وقواته معركة المدن عاد ببساطة وقواته إلى حالتهم الطبيعيّة كمنظمة ثوريّة متمردة أتت من الريف. لقد أصبحت طالبان بعد خسارتها للمدن أقوى وأكثر تركيزاً في نشاطها من نواحٍ عديدة، فقد تخلّصت من الحمل الثقيل الذي كان على عاتقها من تأمين المياه، والكهرباء، والخدمات الصحيّة، والأمنيّة، والطعام، والدواء، والتعليم لسكان المدن. كما أنها تنحّت بذكاء عن تمركزها في مكان واحد - كان يمثل قلب الرميّة بالنسبة لأميركا تصيبه متى شاءت - وذلك من خلال الانتشار - بكامل أسلحتها - في الأرياف لمتابعة الحياة في القرى الأفغانيّة الكثيرة التي أتت منها، وهناك ستحتمي بالقبائل والعائلات المتعاطفة معها. وهذه الحقيقة لم تكن في مصلحة قوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة "لأنه سمح بانتشار عناصر معادية على امتداد القرى الأفغانيّة"[6]. هذا ما كتبه ستيفن بيدل الأستاذ في الكلية الحربيّة الأميركيّة.

وقد خلص الموقع الإلكتروني *Stratfor.com* الخاص بالقضايا الدفاعيّة في نوفمبر عام 2001 إلى أن طالبان "قد نزعت عنها كل القشور لتعود إلى جوهرها، وأصلها العرقي، والأيديولوجي الذي ظل سليماً لم يتعرض لأذى ومعها معظم أسلحتها وعتادها... إن طالبان تستعد اليوم لتبني استراتيجيّة أكثر توافقاً مع مواردها وقوتها التكتيكيّة"[7]. كما يجب الإشارة أيضاً إلى أن القادة الأميركيين قد قاموا بدورهم أيضاً في حماية طالبان وذلك بسبب رفضهم القاطع اقتلاع جذور هذه الجماعة من ريف أفغانستان وجبالها، بحجة أن هذه العمليّة قد تؤدي إلى خسائر كبيرة في أرواح المدنيين الأفغان والعسكريين الأميركيين. ورغم أنه قد يكون من الجنون مناقشة إن كان في نيّة طالبان أن تخسر المدن - لأنه من المؤكد

أنها لم ترد ذلك - لكن الأمر لا يمكن أن يكون منطقياً إذا صدقنا أن طالبان هزمت بهذه البساطة، حيث إن المدن قد سقطت في أول معركة مما كان يفترض أن يكون سلسلة طويلة من المعارك التي كانت نهايتها ستحسم بشكل شبه حتمي لمصلحة طالبان.

كما أن القاعدة استفادت من حقيقة أن حركة طالبان كانت لا تزال حركة نشيطة، بالرغم من أنها قد خسرت معركة، بل والأفضل من ذلك أنها قد أصبحت منتشرة جغرافياً على نطاق أوسع من ذي قبل، ولهذا فهي قادرة على تأمين مخبأ لمقاتلي بن لادن في المناطق الحدوديّة في أفغانستان. وعلى عكس الافتراضات التي قدّمتها استخبارات واشنطن، فإن القاعدة كانت تتمتع بعدد هائل من الموظفين في أفغانستان أكثر، مما قد يوجد لدى جماعة إرهابيّة تقليديّة. ذلك لأن القاعدة هي حركة تمرّد شكّلت منظمة إرهابيّة هدفت إلى تحقيق هدفين أساسيين يعتمدان على كثرة العدد وهما: تأمين أفضل تدريب حربي قتالي يمكن أن يحظى به المسلمين من شتى أنحاء العالم، وبناء كادر واسع من المحاربين الأشاوس الذين يمكن إيفادهم إلى الخارج بشكل فيالق ليعملوا كقادة للمعارك، ومدربين، ومهندسين، ومستشارين ماليين، أو إداريين في أي مكان يحتاجهم فيه الإسلام النضالي. في سبتمبر عام 2001 كان يتم تدريب المقاتلين في معسكرات القاعدة في أفغانستان كما هي الحال منذ أواخر الثمانينات، حيث إنه كان من المؤكد أن بعض الإرهابيين أو المختصين بالحروب التي تجري في المدن - وهناك الكثير من القواسم المشتركة بين الاثنين - قد تلقوا تدريبات مكثفة في تلك المعسكرات.

وكما أشرنا في الفصل الثاني (وكما ستتم دراسة هذه النقطة بالتفصيل في الفصل السادس) فإن الوثائق التي تم الحصول عليها من المعسكرات الأفغانيّة، والمعلومات السرّية التي أخذت من أسرى الحرب، بالإضافة إلى الأداء الحربي المتميز الذي أظهرته القاعدة، والوحدات التي تدربت على يد القاعدة في المعارك التي جرت ضد القوات التي تقودها الولايات المتحدة، كلها تظهر أن الغرب كان مخطئا بشأن الهدف الأساسي للمعسكرات وذلك طيلة عشرة أعوام كاملة. فقد غصت معسكرات القاعدة بمحاربين متمرسين يقومون بتدريب المقاتلين ليرسلوهم إلى

المعارك ليس بهدف قتال حلف الشمال في أفغانستان فحسب، بل لقتال الجيوش الوطنيّة أيضاً في كشمير الهنديّة، والشيشان، وأوزبكستان، وإريتريا، و.....، و........، و........، وطاجكستان، و...، والبوسنة، والصين الغربيّة، وإندونيسيا، وماليزيا، ومقدونيا، وكوسوفو، والفليبين.

وهنا أودّ أن أشير ثانية أن هذا الكلام لا يعني أنهم لم يقوموا بتدريب الإرهابيين في تلك المعسكرات، بل على العكس، فبالنظر إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر يتبيّن أنهم قاموا بتدريب أكثر إرهابيي العالم براعة ومهارة. إلا أنني أودّ أن أقول هنا إن التدريب على الإرهاب وحروب المدن كان فرعاً ثانوياً من نظام التدريب الأساسي الذي يتم في المعسكرات، كما أن الرجال الذين تلقوا مثل هذه التدريبات هم في الواقع القوات الخاصة التابعة للقاعدة، وطالبان، والجماعات الإسلاميّة الأجنبيّة التي ترسل برجالها إلى المعسكرات للتدريب. ومعظم الرجال الذين يأتون إلى معسكرات القاعدة يتم تدريبهم ليكونوا "مقاتلين ميدانيين لا ينتمون إلى جيش نظامي"، هذا ما أوضحه الجنود الأميركيون بعد اطلاعهم على بعض كتيبات القاعدة التي تمكنوا من الحصول عليها في كابل. لكن نظام الجماعة يبدو "وكأنه نظام جامعي يعلّم كيفيّة شنّ الحروب الإسلاميّة ويتألف من صفين"، وفئة قليلة فقط من الرجال تترفع إلى الصف الثاني لتتلقى تدريباً على "المهمات الإرهابيّة الخارجيّة"[8]. وكما أن هناك رتبة "رماة" أو حملة بندقيّة من الصف الأول في البحريّة الأميركيّة، فإن الرجال الذين يتلقون تدريبهم على يد محاربي القاعدة هم مقاتلون متمردون من الصف الأول، وكما هي حال بعض الرجال في البحريّة، فإن بعض الرجال في كادر القاعدة يتلقون تدريبات في الصف الثاني تضيف تخصصاً إلى مهاراتهم الأساسيّة وهي هنا القتال المدني، أو بشكل أعم، مهارات إرهابيّة.

وهكذا، فإن لدى القاعدة عدد كبير من المقاتلين لينتشروا ويحتموا من الهجوم الأميركي. وبالرغم من عدم وجود توثيق كامل لهذا الموضوع، إلا أنه يمكن الافتراض ببساطة أن قادة القاعدة بدأوا بعمليّة الانتشار قبل اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر وكما أشرت سابقاً، فإن بن لادن كان يعرف تاريخ الهجمات قبل ستة أيام من تنفيذها، وكان يريد منذ وقت طويل أن تقوم

الولايات المتحدة بهذا الردّ الذي أثارته تلك الهجمات بالتحديد، لأنه أراد أن تقوم القوات الأميركيّة بغزو أفغانستان وتوقع ذلك، فمن الطبيعي أن يقوم بن لادن عندئذ بنشر الحدّ الأدنى من قواته في الأراضي الأفغانيّة متبعاً بذلك أول قاعدة من قواعد حروب الجماعات المتمردة وهي عدم منح العدو هدفاً يمكّنه من هزيمتك في حملة واحدة. كما أن الانتشار سمح لبن لادن وقادة قواته بتركيز الوحدات القتاليّة في المناطق الأفغانيّة التي أرادوا هم وطالبان أن يحاربوا فيها، بينما أبعدوهم عن الأماكن التي لا فائدة منها. لقد كان تأخير هجوم واشنطن على أفغانستان لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً بالنسبة للقاعدة نعمة من السماء، وربما كان ذلك هو السبب الأهم الذي جعل القاعدة تتضرر دون أن تنسحق تماماً في أول جولة من المعارك في أفغانستان.

عندما بدأت المعارك في السابع من أكتوبر، كان بن لادن والقاعدة قد أنقصوا عدد رجالهم المتمركزين في أفغانستان إلى حدٍّ كبير، وذلك كي لا يكونوا أهدافاً سهلةً تضربها قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة. وكذلك لأن الحرب التي كانوا ينوون شنّها ضد قوات التحالف لا يزال أمامها عدة أشهر لتبدأ وحتى ذلك الحين فإن أعداداً قليلة من المقاتلين ستفي بالغرض. "لقد قامت القاعدة بتفكيك وحداتها بسرعة ولم تبقِ على أعداد كبيرة من العرب داخل أفغانستان، فقد أبقى زعماء القاعدة الكوادر العسكريّة والجماعات اللازمة لإدارة العمليات العسكريّة مع المجاهدين الأفغان وذلك لمدة سنة أو سنة ونصف"[9]. هذا ما صرّح به ناطق بلسان المنظمة عبد الرحمن الرشيد في حديث لمجلة 'المجلة' ومقرها في لندن. وبعد أن اتخذت القاعدة هذا القرار، قامت بنقل مقاتليها إلى الريف الأفغاني، والجبال، وكذلك إلى باكستان وإيران. وبالرغم من صعوبة تحديد أعداد المقاتلين الذين خرجوا من أفغانستان، لكن من الواضح أن عدد المقاتلين التابعين للقاعدة والمقاتلين الإسلاميين من غير الأفغان الذين توجهوا إلى باكستان كان يفوق كثيراً أولئك الذين ذهبوا إلى إيران. وقد أرسل مقاتلون آخرون إلى آسيا الوسطى أو إلى أوطانهم. وقلة قليلة منهم أرادت الرحيل، وقد تحدث عن ذلك أحد قادة المعارك البارزين في القاعدة وهو عبد الهادي بقوله: "لقد واجهتنا صعوبات كبيرة في إقناع

العديد منهم بترك أفغانستان... أقسم أن رجالاً منهم بكوا عندما أخبرناهم أن عليهم الرحيل"[10] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

كما استفادت القاعدة من علاقاتها القديمة بالقبائل البشتونيّة الموجودة في الأقاليم الأفغانيّة الشرقيّة والجنوبيّة - التي في معظمها قبائل حليفة لطالبان التي يغلب عليها العنصر البشتوني - لإبقاء الطريق مفتوحة للخروج والعودة على امتداد الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة. كما أن العلاقات التي كانت تربط القاعدة وطالبان من جهة بزعماء شبكات تهريب الهيروين في جنوب أفغانستان من جهة أخرى، مكنتهم من نقل مقاتلين عبر الحدود الأفغانيّة الإيرانيّة والأفغانيّة الباكستانيّة واستخدام مدن مشهد، وزاهدان شامان، وكيتا، وكراتشي كمناطق للإقامة المؤقتة وملاذاً يلجأون إليه. كما أن القاعدة تمكنت عن طريق شبكة الطرقات التي أنشأها المهربون التي تمرّ بإيران، من نقل مقاتليها إلى دول الخليج العربي وتركيا ومن تركيا إلى أوروبا.

وعندما وصل المقاتلون الذين يريدون مغادرة جنوب آسيا إلى المنطقة الحدوديّة الأفغانيّة الباكستانيّة وهي "غير واضحة الحدود والمعالم" قامت القبائل البشتونيّة وبعض البيروقراطيين الباكستانيين المرتشين أو المتعاطفين معهم بتقديم المساعدة لكي تمكنهم من التقدم إلى الامام، بالإضافة إلى عدد كبير من الإسلاميين الأصوليين الباكستانيين العاملين في الجيش، والمخابرات، والأمن، وقوات حرس الحدود. كما أن المنظمات الإسلاميّة غير الحكوميّة العاملة بالقرب من الحدود قدّمت لهم يد المساعدة، وهذا ما قامت به أيضاً أعداد كبيرة من المنظمات السرّية والعلنيّة التابعة لأهم الأحزاب السياسيّة الباكستانيّة - مثل الجماعة الإسلاميّة بقيادة كازي حسين أحمد - والشبكات التي تديرها جماعات كشميريّة متمردة مثل جيش محمد، ولاشكار طيبة، وحزب المجاهدين[11]. في الحقيقة، إن الدور الحيوي الذي لعبته المنظمات الكشميريّة في مساعدة مقاتلي القاعدة على الفرار، يعدّ أحد التطورات التي تزداد خطورة منذ اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر. صحيح أن هذا التعاون بين الطرفين يعود إلى فترة طويلة مضت، إلا أنه لم يكن يوماً بشكل علاقات فعالة ومثمرة بهذا الشكل. وبالنتيجة فإن القاعدة نقلت مقاتليها إلى برّ

الأمان في باكستان وبلاد أخرى مستفيدة من نظام دعم غير رسمي، لكنه في الوقت ذاته فعال وله قاعدة عريضة جداً، وقد كان في معظمه ناشطاً منذ عشرات السنين، أو في ما يخص القبائل، منذ مئات السنين. وقد كتب في سجل القاعدة 'النداء' - تعبيراً عن شكرها للمساعدات التي تلقتها - ما يلي:

"إن القاعدة تقدم جزيل الشكر والامتنان لكل أولئك الذين تعاونوا معها وسهلوا مهمتها سواء بالتضحيّة بأرواحهم أو بمالهم أو بالدعاء لها. كما نود أن نخص بالذكر القبائل الباكستانيّة والأفغانيّة التي فتح لنا أهلها بيوتهم ووضعونا في المقام الأول قبل أولادهم وأهلهم في المأكل، والمشرب، والملبس، والمأوى... وكيف لا وقد كانت هذه الجبال الوعرة موطن هذه القبائل المكان الذي تحطمت عليه عظمة الإمبراطوريّة البريطانيّة"[12] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وكما ذكرت في الفصل الثاني فإن المقاتلين الذين تركتهم القاعدة ليحاربوا لاحقاً القوات الأميركيّة ومرتزقتهم الأفغان، ساقوا تلك القوات إلى المواقع التي اختاروها بأنفسهم وحاربوا بشجاعة. وقد كتب البروفيسور ستيفن بيدل بعد مقابلته لعشرات الضباط الأميركيين الذين حاربوا في أفغانستان: "لقد أثبت مقاتلو القاعدة غير الأفغان جدارتهم... وقدرتهم العالية على القتال بعزم وقوة. وقد كان حسم المعارك لمصلحة الولايات المتحدة، بالنظر إلى المقاومة العنيفة التي أبدتها القاعدة، أمراً غير مضمون على الإطلاق حتى مع تفوق سلاح الولايات المتحدة الجوّي وقوات الكوماندوس التي تقوده والتي تتمتع بكل تقنيات القرن الحادي والعشرين"[13]. وعلاوة على ذلك فقد تكون أكبر معركتين خاضتهما القاعدة في تورابورا وشاهي كوت مجرد إجراءات مضلّلة أرادت القاعدة من ورائها منح مقاتليها وقتاً كافياً لمغادرة أفغانستان. فمعركة تورابورا مثلاً أعطت المقاتلين في جنوب ننجارهار حوالى ثلاثة أسابيع لدخول باكستان دون أي إزعاج، بينما معركة شاهي كوت التي وقعت في مارس 2002، فقد منحت المقاتلين حوالى ثلاثة أسابيع أيضاً لينطلقوا عبر كامل الحدود الأفغانيّة إلى باكستان دون أن يتعرض لهم أو يكشفهم أحد.

ومنذ أن انتهت معركة شاهي كوت، قامت قوات التحالف الذي تقوده

الولايات المتحدة باتباع سياسة يمكن أن يطلق عليها "توقف عن القصف" حيث إنها لم تشنّ أي هجمات مستمرة ومدمرة سواء على الأرض أو من الجوّ. وقد كتب أحد النقاد الغربيين مبدياً انزعاجه الشديد من هذا الوضع قائلاً: "يود بعضنا لو أنه يأخذ استراحة من حالة التوقف عن القصف"، بينما سخرت القاعدة من القوات الأميركيّة حيث وجهت كلامها إلى الأميركيين في أبريل عام 2002 قائلة: **"نقول للأميركيين، ها نحن قد عدنا ثانية إلى ساحات المعارك لكن أين أنتم اليوم؟"**[14] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). فمنذ مارس 2002 لم تتعرض القاعدة وطالبان لأي ضغط عسكري يذكر في أفغانستان، باستثناء بعض العمليات المتفرقة والقصيرة الأجل التي نفذتها الولايات المتحدة برّاً، والتي كانت تهدف إلى القبض على قادة طالبان والقاعدة - لا قتلهم - والقصف الجوّي الذي ندر حدوثه أدى إلى ضرب عدة حفلات أعراس أو احتفالات بمناسبات اجتماعيّة بدلاً من ضرب الإرهابيين. وقد جاء في مقال كتبه ديفيد زوكينو في هذا الصدد في صحيفة *لوس أنجلوس تايمز* وذلك في آخر يوم من عام 2002: "إن الحملة العسكريّة التي بدأتها الولايات المتحدة بنجاح منقطع النظير، أخذت تتطور في ما بعد إلى ما يشبه في بعض الأحيان عمليات الاقتحام التي تقوم بها الشرطة بدلاً من عمليات عسكريّة يقوم بها جيش جرّار..."[15]. أما ادعاءات القادة الغربيين بأن قوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، تقوم بالقضاء على "آخر فلول" القاعدة وطالبان، فهي ادعاءات باطلة وهي ناجمة عن سوء فهم شديد وتقدير سيئ للأوضاع أو تضليل إعلامي مقصود. ولم تبدأ جولة جديدة من المعارك في الحرب الأفغانيّة الأميركيّة إلا في مارس عام 2003 عندما قامت القاعدة وطالبان بالتعاون مع المجاهدين "القدماء" بتصعيد هجماتها على القواعد الأميركيّة، والقوافل، ودوريات الحراسة التابعة للقوات الأميركيّة وحلفائهم الأفغان. كما أن القاعدة بدأت باستخدام ألغام يتم تفجيرها عن بعد، بينما أخذت طالبان تقتل وتغتال الأفغان الذين يعملون لصالح التحالف. وقد أظهرت أحداث الأشهر القليلة الماضية أن القاعدة وحلفاءها لم ينجوا فحسب من الحملة العسكريّة العقيمة التي شنّتها ضدهم أميركا بكل غباء، بل حافظوا أيضاً على وجود قوي في أفغانستان، وتحكموا بزمام المبادرة في الهجوم

على القوات الأميركيّة. وعندما سنحت للقاعدة وحركة طالبان الفرصة المناسبة أعدوا سماً قاتلاً ليتجرعه أعداؤهم يوماً بعد يوم.

إنه لخطأ جسيم تعريف المقاتلين المتمردين بأنهم إرهابيون

لا يسع المرء إلا أن ينحني إجلالاً واحتراماً أمام النجاحات العديدة والمنقطعة النظير التي حققتها الاستخبارات الأميركيّة ضد قوة القاعدة الإرهابيّة/الحربيّة المدنيّة منذ الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. وقد كانت هذه الانتصارات تتمة للسجل الحافل بانتصارات الاستخبارات الأميركيّة التي بدأت العمل في هذا الشأن قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وقد تم توثيق ذلك في كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا*[16]. وقد حققت الهيئات السرّية الأميركيّة نجاحاً ساحقاً، وذلك بقيامها بعمليات بمفردها أو بالتعاون مع هيئات أجنبيّة، ضد قادة بارزين في الجناح الإرهابي لتنظيم القاعدة، ومع ذلك فإن الغريب في الأمر هو أن القائد البارز الوحيد الذي قتل هو رئيس الاستخبارات السابق في تنظيم القاعدة قاري عماد الله. في حين أنه في ميزان الأرباح والخسائر التي تعرضت لها كل من الولايات المتحدة والقاعدة - الذي سيظهر لاحقاً في هذا الفصل - يجب أن نعترف أن أسر أبو زبيدة، وخالد شيخ محمد، وخالد بن عطاش، ونرجمان رضوان عصام الدين (الملقب بالحنبلي)، ورمزي بن الشبه، ومقتل يوسف بن صالح الأياري، يعتبر نصراً مبيناً إذا نظرنا إلى الأمر بشكل عام وذلك يدل على أن الاستخبارات الأميركيّة قد تكون ساهمت بشكل فعال - وإن كان تأثيرها على المدى القريب - في إضعاف قدرات القوات الإرهابيّة للقاعدة من الناحيتين القياديّة والتخطيطيّة.

وأقول "قد تكون" ساهمت بشكل فعال في إضعاف القدرات الإرهابيّة لأنه لا يزال عليّ أن أجد - أو أسمع مسؤولين أميركيين يرجعون إلى - دراسة حول الطريقة التي يتبعها تنظيم القاعدة المعارض في ترتيب قواته العسكريّة قبل بدء المعارك. ومن المستحيل تحديد الضرر الذي تعرضت له القاعدة بشكل موضوعي إذا لم أتمكن من الاطلاع على هذا المرجع الأساسي. وكما كَتَبَ في هذا الصدد مؤخراً البروفيسور دانييل بايمان في *الناشونال إنترست* *The National Interest*

"فبدون وجود تقارير دقيقة عن ترتيب الوحدات القتاليّة التابعة للقاعدة، ستكون ادعاءات الولايات المتحدة عن الخسائر التي ألحقتها بقوات القاعدة شبيهة بما كان يحدث أيام حرب فيتنام، حيث كان يتم إحصاء جثث القتلى لمعرفة حجم الضرر بدلاً من تقديم تحليل قائم على تقصي الحقائق وراء المعارك". وقد أكد بايمان ذلك قائلاً: "إن تعداد الجثث قد يكون مضللاً، لأن حجم الكادر الإرهابي غير معروف والكثير ممن قتلوا أو أسروا كانوا عادة من المجندين ذوي الرتب الدنيا الذين يمكن استبدالهم بسهولة. والأهم من هذا وذاك أن تعداد الجثث لا يمكنه أن يعكس صورة حقيقيّة عن الأثر الذي خلفته المعارك على معنويات الخصوم، وعمليات التجنيد، ومواردهم الماليّة، وقدرتهم على القيام بهجمات عنيفة"[17]. كما طرح موقع *Stratfor.com* الخاص بالقضايا الدفاعيّة، هذه النقطة لكن بطريقة أكثر قسوة وذلك في سبتمبر عام 2002 في مقال عنوانه 'القاعدة بعد مضي عام واحد' جاء فيه: "إن القاعدة هي جيش غير نظامي ينتشر أفراده في كل أنحاء العالم، يقوم بشنّ حرب رخيصة غير نظاميّة، ولا يوجد بحوزة واشنطن أي معلومات أوليّة عن ترتيب القتال الخاص بقوات القاعدة، كما أنها لا تعلم حجم الضرر الذي تسببت به عمليات الولايات المتحدة الهجوميّة التي نفذتها منذ الحادي عشر من سبتمبر، وليست لديها أدنى فكرة عن معدل سرعة الإمداد العسكري وإصلاح ما تم تخريبه من جراء تلك العمليات، بالإضافة إلى عدم وجود مصدر موثوق يفيد في معرفة عدد القتلى والمصابين بشكل دقيق"[18]. إن صحة الحجة التي طرحها البروفيسور بايمان وموقع *Stratfor.com* يؤكدها التعارض الغريب في أعداد مقاتلي القاعدة الذي يظهر في كل ما كتب بهذا الشأن.

- في مارس عام 2003، قال سيف العادل أحد قادة القاعدة في 'النداء' أنه كان لدى القاعدة ألف وتسعمئة مجاهد عربي قتل منهم 350 وجرح 180[19].
- في أبريل عام 2002، جاء في مقال في النداء، لم يذكر اسم كاتبه، أنه خلال الحرب الأفغانيّة قامت الجماعة بنشر ألف وستمئة مجاهد عربي قتل منهم 350 وأسر 150[20].
- في يونيو عام 2003، صرّح مسؤولون في الاستخبارات الأميركيّة –

بعد أن أغفلوا أسماءهم – "لأخبار الولايات المتحدة وأخبار العالم" *U.S News and World Report* أن "الأعضاء المحلّفين" في القاعدة قد خُفّض عددهم ليصبحوا 180 عضواً فقط[21].

- في يوليو عام 2003، قدّر المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجيّة الذي يقع مقره الأساسي في المملكة المتحدة، "عدد المجاهدين الذين تدربوا في معسكرات القاعدة في أفغانستان بعشرين ألفاً على الأقل، كما أن هناك أكثر من ثمانية عشر ألفاً من مقاتلي القاعدة – ممن يفترض أنهم إرهابيون – لا يزالون أحراراً طلقاء"[22].
- في أغسطس عام 2003، نشرت لجنة الشؤون الخارجيّة في البرلمان البريطاني تقريراً زعم أن هناك سبعة عشر ألفاً من مقاتلي القاعدة منتشرون في أنحاء العالم. وقال البروفيسور بول ويلكنسون من جامعة غلاسغو وهو الذي قام بتلك الدراسة، أن هذا العدد هو "تقدير متواضع" لمقاتلي القاعدة [23].
- في أغسطس عام 2003، قال الباحث في شؤون القاعدة روان غوناراتنا أنه كان لدى القاعدة أربعة آلاف مقاتل في الأول من أكتوبر عام 2001 لكن "لم يتبقَ منهم اليوم سوى ثمانمئة فقط"[24].

كما أن القاعدة أكدت النقطة التي أثارها بايمان فيما يخص عدم وجود نظام للوحدات القتاليّة قبل خوض المعارك، وقد قال في هذا الصدد في منتصف العام 2002: "لقد كانت القيادة العسكريّة الأميركيّة على جهل تام بما يحدث وذلك بسبب عدم توفر أي معلومات عن عدوها. وحتى اليوم فإن القيادة الأميركيّة لا تعرف العدد الحقيقي لمجاهدي القاعدة، ولا وحداتهم القتاليّة، ولا مواقع تمركزهم أو حتى نوع الأسلحة التي بحوزتهم"[25]. ويعود هذا الجهل إلى استمرار المسؤولين الأميركيين برؤية القاعدة على أنها ليست إلا جماعة إرهابيّة تقليديّة من الإسلاميين الأصوليين. "**سنباغت عدونا إن شاء الله بين الحين والآخر بهجمات لن يتوقعها لأنه لا يعرف إلا النذر اليسير عن عدوه/المجاهد، والسبب في ذلك هو أن ثقافة العدو التقليديّة ومعلوماته القديمة عن الجماعات الجهاديّة لن تساعده على فهم هذا الجيل الجديد، جيل النصر والتحرير بإذن الله**"[26] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

هذا ما كتبه أبو عبيد الهلالي في موقع الأنصار على الإنترنت *Al-Ansar*.com (هذا الموقع وغيره من المواقع القريبة من القاعدة يتعذر الوصول إليها). وقد سخرت القاعدة من عدوها مُصرِّحة: إن عدم توفر أي معلومات عن ترتيب الوحدات القتاليّة قبل المعارك أجبر الضباط الأميركيين على إخفاء جهلهم بادعائهم بعد كل معركة مع المجاهدين أنها المعركة الأخيرة.

> وأخذ مسلسل الخداع ينكشف، عندما دخلت الولايات المتحدة في حرب مباشرة مع المجاهدين في أفغانستان، وحاولت أن تظهر أمام العالم على أنها الفائزة. لقد كان هذا أداءً هزلياً مضحكاً بحق لَعِب أدوار البطولة فيه حفنة من الجبناء أتقنوا أدوار القوة والشجاعة. وقد صورت كل العمليات الأميركيّة على أنه تم فيها "القضاء على آخر فلول القاعدة وطالبان" و"تدمير آخر كهف من كهوفهم" و"السيطرة على آخر معقل من معاقلهم". وقد تكرر الكثير من الكلام لدرجة أن "الآخر" أصبح ممتداً إلى اللانهاية[27] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

للأسف الشديد فإن السيد الهلالي على حق، فليس لدى أميركا والغرب أي وسيلة تمكنهما من قياس انتصارهما على القاعدة. فالمقياس القديم الذي اعتمدته الاستخبارات الأميركيّة – وهو أن احتمالات حدوث هجوم جديد تتناقص عندما ينقضي وقت طويل على آخر هجوم – قد أثبت خطأه بالدليل القاطع. فمنذ إعلان الحرب، أظهرت القاعدة بشكل واضح أن انقطاعها عن تصعيد الاعتداءات لفترة من الوقت لا يعني أبداً عدم قدرتها على القيام بذلك. وكذلك فإن الاعتقاد الذي كان راسخاً في أذهان القادة الأميركيين "بأن الحرب على الإرهاب ستعتمد دائماً وبشكل رئيسي على الاستخبارات ومجهود قوات الشرطة لا على القوة العسكريّة" هو اعتقاد خاطئ تماماً[28]. لقد قامت وكالة الاستخبارات بعملها على أكمل وجه منذ اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر وحتى قبل ذلك لكن أميركا لا تزال تخسر الحرب، ويعود ذلك بشكل أساسي إلى عقليّة قوات الشرطة التي تؤثر على مواقف أميركا في الحرب على الإرهاب. "بما أن الحدود الفاصلة بين المهمات العسكريّة ومهمات الشرطة آخذة بالانهيار في عالمنا الممزق، لذا فعلينا التعامل مع المجرمين القتلة الأجانب الذين يعتدون على مواطنينا على أنهم أهداف عسكريّة"[29]. هذا ما قاله رالف بيترز في كتابه *القتال من أجل المستقبل: هل ستنتصر أميركا؟*

إذن، فعلى الأميركيين الفرحين بانتصارات الاستخبارات الأميركيّة، أن يرجوا الله أن تضع واشنطن الشارة ومذكرة الاعتقال بعيداً، وأن تبدأ أجهزة التحقيق والقيادات العسكريّة الغربيّة والأميركيّة التي كانت في حالة من الخدر مؤخراً، بتكثيف نشاطها وعملياتها ضد القاعدة، وذلك من خلال اتخاذ قرار حاسم بالتعامل مع القاعدة على أنها خصم عسكري وليست خصماً إجرامياً وعليها للانتصار عليها استخدام قوات عسكريّة بيد من حديد. والحقيقة دون أي لفّ أو دوران هي أن الاستخبارات الأميركيّة كانت تحارب القاعدة لوحدها منذ العام 1995، ولم يكن بإمكانها على الإطلاق أن تفعل أكثر من منح واشنطن وقتاً كافياً لتعبئة قواها وكسب حلفاء إلى صفها، أما الآن فقد قارب دور الاستخبارات على الانتهاء وعليها أن تتنحى جانباً.

وكما ذكرت آنفاً، فإن تأثير إنجازات وكالة الاستخبارات قد أصبح أضعف عندما أصبح معروفاً أن القاعدة لا يمكن أن تهزم إذا استمر تخطيط وتنفيذ الهجمات الأميركيّة على أنها النسخة الدوليّة من قصص بطولات الغرب الأميركي حيث يتم إرسال ضباط الاستخبارات والجنود الأميركيين إلى هناك، كما لو أنهم شرطة تكساس الجوّالة "Texas Rangers" الذين اشتهروا في قصص الغرب الأميركي، ويتوقع منهم دائماً النجاح في القبض على المطلوبين. إن إرسال عصبة صغيرة من الشرطة للقضاء على مجموعة إرهابيّة أثبت فشله في ربع القرن الماضي - فحزب الله، ونمور التاميل، والمجموعات الفلسطينيّة التي لا تعد ولا تحصى، وإيتا في الباسك، وسينديرو لومينوزو، كلها جماعات لا تزال ناشطة، وهو أسلوب لن يفلح أبداً في القضاء على منظمة متمردة تتميز بدرجة عالية من الموهبة والذكاء مثل منظمة القاعدة. ولن تؤدي هذه الطريقة إلى القتل أو الأسر بالسرعة الكافيّة للتغلب على قدرة القاعدة الفريدة من نوعها على الاستنساخ. وقد جاء في صحيفة '*Spectator*' اللندنيّة في هذا الشأن ما يلي: "المشكلة أنه في كل مرة يتم فيها القبض على أحد زعماء القاعدة الأساسيين، تلجأ المنظمة إلى تنصيب آخر مكانه دون أن يؤثر عليها هذا بأي شكل من الأشكال"[30]. وعلاوة على ذلك، إذا كانت طريقة المطاردة والاعتقال والأسر ستنجح، فلا بد أن تكون هناك قاعدة أساسيّة

يتم على أساسها تحديد عدد الأشخاص الذين سيقومون بمهمة المطاردة، والاعتقال، أو القتل إذا ما كان أمر تقدم خطوات العمليّة، ومزاعم النصر سيؤخذ على محمل الجدّ. غير أنه، كما ذكرت سابقاً، لا توجد أي قاعدة أساسيّة في هذا الخصوص على حدّ علمي.

كما أن طريقة عمل الغرب القديم تتصف بأنها تتركز بشكل كثيف جداً في إطار جغرافي ضيق لدرجة أنه يتم إهمال المناطق المحيطة بشكل كامل. فالانتصارات الكبيرة التي حققتها الولايات المتحدة ضد قادة القاعدة الإرهابيين البارزين على سبيل المثال، قد تم تسجيلها بشكل مكثف ضمن حدود الممر الجغرافي الضيق بين إسلام أباد – باكستان، وعمّان – الأردن. وبالرغم من أنه كانت هناك اعتقالات كبيرة وتفكيك لعدة خلايا تابعة للقاعدة في أمكنة متفرقة من العالم كالمغرب، وتايلاند، وبوفالو، ونيويورك لكن معظم الهزائم الكبرى التي تعرضت لها القاعدة كانت بين إسلام أباد وعمان. (سأذكر لاحقاً تفاصيل هزائم القاعدة بين العامين 2001 - 2003) وهكذا بينما تغمرنا نشوة انتصارات الاستخبارات على القاعدة، تتزايد الرقعة الجغرافيّة لانتشار القاعدة بشكل يناقض مزاعم القادة والخبراء الأميركيين بأنهم قضوا بشكل كامل عليها. فقد قال السياسي البارز إدوارد لتواك في سبتمبر عام 2003 إن القاعدة "لن تعد بعد اليوم جماعة ناشطة"[31] لقد تزامن هذا الادعاء مع التحذيرات التي أطلقتها الاستخبارات بأن القاعدة تمتلك خلايا في تسعين بلداً أو أكثر. قد تكون القاعدة لا تزال حتى اليوم تسرح وتمرح حتى في الممر بين إسلام أباد وعمان – باستثناء العراق وأفغانستان طبعاً – إلا أن النجاح المحدود الذي حققته الولايات المتحدة ضد القاعدة خارج هذا النطاق يوحي بأن العديد من خلاياها لا يزال يتمتع بنفس النشاط الذي شهده العالم يوم الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، وربما يكون قد أصبح أقوى مما كان عليه سابقاً في الوقت الذي تختال فيه الاستخبارات الأميركيّة زهواً وفرحاً بنجاحاتها التي حققتها بين باكستان والأردن.

عندما توضع فترة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر تحت المجهر، تظهر للعيان صورة غير متوازنة وهي هجمات قاسية، عنيفة، وفعالة على القاعدة في جزء صغير

نسبياً من العالم، يقابلها نجاح محدود في باقي أنحاء العالم، وفي تلك الأثناء تأتي العمليات العسكريّة المستمرة التي تقوم بها القاعدة. ويجدر بالذكر أن الفشل الذي تمنى به محاولات التصدي لعمليات القاعدة في الأماكن الأخرى من العالم يسجل بشكل خاص في الولايات المتحدة. ونظراً إلى اهتمام بن لادن الكبير الذي يصل إلى حدّ الهوس بشنّ هجمات على أميركا في أرضها، لذا فإنه يجب النظر إلى هذه الحقيقة بعين القلق خاصة وأنها تشكل قنبلة فضائح توشك أن تنفجر في وجه وكالات الأمن الأميركيّة. واعتماداً على هذه الصورة العالميّة، فمن مصلحة أميركا أن يأخذ قادتها بعض الوقت لإعادة النظر في طريقة المطاردة، والاعتقال، والسجن التي يتبعونها في التعامل مع القاعدة، واتخاذ قرار فيما إذا كانوا سيتابعون انتهاج الأسلوب الذي طالما سيطر على سياسة الحكومة الأميركيّة في حربها ضد القاعدة. "لقد كانت أميركا محظوظة في اعتقالها لبعض الإرهابيين البارزين، لكننا ما نزال نفتقر إلى برنامج متكامل للتعامل مع حركات التمرّد المتزايدة في كل أنحاء العالم والخطر الطويل الأمد الذي يمثله الإسلام الأصولي، الذي لن تكون الاستخبارات وقوى الأمن كافيّة للتصدي له"[32]. هكذا حذّر ستيفن سايمون ودانييل بنجامين صنّاع السياسة الأميركيّة في مقال كتباه في صحيفة *نيويورك تايمز*.

وهذا ما سنراه بالفعل، حيث إن الطريقة المتبعة حالياً ليست قادرة حتى على الحدّ من قدرة القاعدة على النمو في مناطق كان لها وجود فيها أو التوسع إلى مناطق جديدة.

تستمر القاعدة في التحرك بكل حرّية في مناطق مألوفة...

على الرغم من الجهود الكبيرة التي تبذلها الولايات المتحدة في الممر الذي يصل بين إسلام أباد وعمّان، فإن منظمة بن لادن لا تزال موجودة وبقوة في مناطق كانت قد رسَّخت وجودها فيها قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الصومال، وكينيا، والساحل الشرقي لأفريقيا، وبلدان المحيط الهادي مثل إندونيسيا، وماليزيا، والفليبين، بالإضافة إلى الشيشان، وكشمير، والبلدان الحديثة العهد في آسيا الوسطى، وبلدان أوروبا الغربيّة، واليمن،

والسعودية، والولايات المتحدة، وكندا. لقد استغلت القاعدة السنتين التاليتين لهجمات الحادي عشر من سبتمبر لتعزز وجودها في تلك البلدان، وتزيد من نشاط وخطورة حركات التمرّد الإسلاميّة الأصوليّة الآخذة في النمو في الفليبين وآتشه (في إندونيسيا) وكشمير والشيشان، ولشنّ هجمات في بلدان مثل كينيا، واليمن، والسعودية، وإندونيسيا، والعراق، والمغرب. وفي الحقيقة فإنه من الممكن ألا تكون الانتصارات الهامة التي سجلتها الاستخبارات الأميركيّة في ضمن إطار المنطقة الواقعة بين إسلام أباد وعمّان قد أثرت على التقدم الذي أحرزته القاعدة وحلفاؤها في أماكن أخرى من العالم. ومما يثبت صحة ذلك أن التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة فشل في القضاء على وجود القاعدة، حتى في البلد الوحيد الذي كانت قد رسخت وجودها فيه قبل الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. وهناك دراستان نشرتا مؤخراً حول التوسع المستمر للقاعدة، الأولى كتبها جيسن بيرك عام 2003 حملت عنوان *طغيان شبح الإرهاب* والثانية كتبها روان غوناراتنا عام 2002 بعنوان: *داخل القاعدة: شبكة إرهابيّة عالميّة*[33]. وهناك مقياسان آخران لازدهار وتوسّع القاعدة الجغرافيّة لهذا التنظيم والتي تعود إلى مرحلة ما قبل الحادي عشر من سبتمبر، يوجد الأول في القوائم التي يثابر الخبراء في الغرب على إعدادها والخاصة بالبلدان التي أصابتها عدوى القاعدة - وقد بلغ آخر تعداد لها في منتصف صيف العام 2003 ستين دولة، وذلك بحسب المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجيّة في المملكة المتحدة[34] - وسأذكر لاحقاً في هذا القسم من البحث تفاصيل الانتصارات التي حققتها القاعدة بين عامي 2001 - 2004.

ربما تكون السعودية هي أهم موقع سجل ازدياداً في نشاط القاعدة. إلا أن الصعوبة في تحليل ودراسة هذا التطور تكمن في تحديد ما إذا كانت القاعدة قد كثفت من وجودها في المملكة أو أن تنظيمها الذي كان قد تأسس منذ وقت طويل هناك قد أصبح أكثر نشاطاً بين العامين 2001 و2004. ليس هناك أدنى شك في أن بن لادن يتمتع بشعبيّة كبيرة في المملكة. هذا ما أكده عبد الباري عطوان في مقال كتبه في صحيفة *القدس العربي* في أغسطس عام 2002، جاء فيه: "إن الغالبيّة العظمى من أفراد الشعب السعودي تؤيد الشيخ أسامة بن لادن، وتراه بطلاً نجح في

توجيه ضربة قاسية للولايات المتحدة المؤيدة الأولى للعدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني"[35]. وقد اعتمد عطوان في كلامه ذاك على استطلاع للرأي أشار إليه آدم غارفينكل في عدد ربيع عام 2002 لمجلة ناشونال إنترست *National Interest* وجاء فيه: "أظهر استطلاع للرأي أجرته .... بعلم الحكومة الأميركيّة أن أكثر من خمسة وتسعين بالمئة من السعوديين الذين تتراوح أعمارهم بين 25 و41 عاماً أظهروا تعاطفاً مع أسامة بن لادن"[36]. هذا ما أشار إليه أيضاً كنان الغامدي، رئيس تحرير صحيفة *الوطن* السابق قائلاً: "لقد نجحت القاعدة في التغلغل داخل السعودية لدرجة لا يمكن تخيلها، ذلك لأن الأفكار المتطرفة، مثل أفكار بن لادن، تتمتع بجذور راسخة هنا. فعندما يدعو بن لادن للجهاد أو لتعبئة الجيوش، فإن دعوته تلك ستحظى بقبول واستجابة العديد من السعوديين هنا... لذا علينا الاعتراف بهذا. فهذه ليست حالات استثنائيّة"[37].

كما يبدو أن القاعدة قد اخترقت المنشآت الأمنيّة .... فحالما سقطت كابل في أواخر عام 2001، على سبيل المثال، تم العثور في أحد كومبيوترات القاعدة على مجموعة من وثائق حكوميّة سرّية ...... يبدو أن بعض المتعاطفين مع القاعدة من أصحاب السلطة في الحكومة قاموا بسرقتها. وقد اشتملت هذه الوثائق على نسخ مصورة عن تقارير كتبها بخط اليد أحد عملاء الاستخبارات السرّية .... ممن أوكلت إليهم مهمة مراقبة نشاطات دعاة الإسلام المتشددين ومن يتبعهم"[38] ....

....

....

....

......"[39] كما أن روان غونارانتا، الخبير في شؤون القاعدة، ادعى أيضاً أن القاعدة "قد جنّدت عملاء لها في العديد من الدول العربية داخل المؤسسات السياسيّة، وقوات الأمن، أو الأجهزة الاستخباراتيّة والسياسيّة..."[40] وبالإضافة إلى ذلك، فإن التقارير الصحفيّة والأكاديميّة التي كتبت حول الحرب الأفغانيّة السوفييتيّة طوال العشر سنوات الماضية تشير إلى أن السعوديين قد يكونوا أكبر جماعة مسلمة

ممن هم من غير الأفغان أو الباكستانيين، شاركت في تلك الحرب. ولهذا فنحن على علم بأن بن لادن هو شخصيّة تتمتع باحترام وشعبيّة في المملكة، ولذلك فمن الطبيعي أن نفترض أن كادراً كبيراً من المقاتلين الأشداء كانوا قد استقروا ثانية في السعودية. فقد صرّح الأمير نايف وزير الداخليّة السعودي في منتصف عام 2003 في هذا الخصوص، أنه علم أن "**عدداً صغيراً من المقاتلين ربما يكون قد تلقى تدريبات في مزارع أو أماكن بعيدة داخل المملكة**"[41] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

بغض النظر عما إذا كان وجود القاعدة في السعودية كثيفاً أم تكثف الآن ونشط فإن عملياتها في العام 2003 تعتبر أمراً غير مسبوق. فقد قتل العديد من الموظفين الأميركيين والأوروبيون المقيمين هناك، كما شهدت عدة مدن سعودية مظاهرات .... واغتيل مسؤولون بارزون في الحكومة، وتم تفجير سيارتين مفخختين في مجمعات سكنيّة في الرياض في الثاني عشر من مايو والثامن من نوفمبر. وبالرغم من أن تفجيرات الثاني عشر من مايو عام 2003 هي الوحيدة التي يمكن أن تكون مرتبطة بالقاعدة بشكل مباشر، لكن الاعتداءات الأخرى لم يتم ربطها مباشرة بالجماعة نفسها، لكن من المؤكد أن الجماعات التي قامت بها لا تختلف عن القاعدة بشيء سوى الاسم. لقد بدأت هيئة الأمن الوطني السعودية منذ مايو عام 2003 بتنفيذ عدة عمليات اقتحام لعدة مساكن وأوكار كان يختبئ فيها إسلاميون في الرياض، ومكة المكرمة، ومدن أخرى كما قامت باعتقال المئات، وقتل وأسر العديد من الأشخاص الذين كان يعتقد أنهم عملاء سريّون بارزون للقاعدة في السعودية، كما تمت مصادرة كميات كبيرة من الأسلحة. وقد نجم عن تلك العمليات خسارة الهيئة لاثني عشر عنصراً على الأقل بين قتيل وجريح. وقد عثرت الهيئة أيضاً على قنابل بلاستيكيّة، وأقنعة ضد الغازات السامة، وكميات كبيرة من المال. وبالرغم من تلك الانتصارات، فإن السعوديين يخوضون معركة شاقة. كما أن هناك كميات ضخمة من المعدات الحربيّة تتدفق إلى المملكة اليوم من مخزون العراق الذي أصبح متاحاً بكثرة بعد سقوط صدام. فقد نشرت مجلة نيوزويك في منتصف نوفمبر عام 2003، على سبيل المثال، تقريراً أفاد

بظهور الكثير من الأسلحة العراقيّة من طراز AK-47 وRPG بشكل متزايد في الآونة الأخيرة في السعودية، وأنه يمكن الحصول على بندقيّة AK-47 مقابل خمس أو ست دولارات أميركيّة[42].

....

....

....

....

....

....

....

....

....

.... [43] ....

....

....

....

....

.... [44] ....

....

....

....

....

... تمهيد الطريق للاتجاه نحو مناطق جديدة...

سؤال: ما هو القاسم المشترك بين العراق، ولبنان، والإنترنت؟

جواب: كلها حقول سخّرها بن لادن والقاعدة كميادين لخدمة عملياتهما

ونشاطاتهما. فقد قام أتباع بن لادن بفتح مناطق جديدة لتنفيذ عملياتهم على امتداد العراق منذ أبريل عام 2003 وهذا ينطبق أيضاً على لبنان، بالإضافة إلى وجود القاعدة الكثيف على شبكة الإنترنت. كل ذلك في جوٍّ سياسي تزعم فيه أميركا بأنها قضت على "بقايا" القاعدة وطالبان قضاء مبرماً.

لقد كان للقاعدة علاقات طيبة في شمال العراق، وقد كان لها وجود هناك قبل 11 - 9 - 2001، لكنها توسّعت، وتعمّقت، واكتسبت أهمية أكبر منذ ذلك الحين. لقد كان معروفاً منذ زمن أن كردستان كانت موطناً لجماعات متعددة من الأكراد السنّة غير المتدينين والمعارضين لصدام حسين ونظامه، فإن وجود خليط من المجموعات الكرديّة السنّية المعارضة لصدام والتي تختلف عن بعضها فمنها العلماني ومنها المتزمت، هو أمر لم يعرفه الغرب. غير أن ما غفل عنه معظم المراقبين الغربيين، لم تغفل عنه الطالبان والقاعدة. فقد جاء في تقرير نشرته صحيفة *نيويورك تايمز*، على سبيل المثال، أن بعض الوثائق التي عثر عليها في أجهزة الكومبيوتر التابعة للقاعدة التي كانت القوات الأميركيّة قد وضعت يدها عليها في كابل، أشارت إلى أن بن لادن استقبل زعماء عدة جماعات إسلاميّة أصوليّة كرديّة في أفغانستان في العامين 2000 و2001 وقد حضر تلك اللقاءات ممثلون عن طالبان[45]. وقد نقلت تلك الاجتماعات رسالة إلى العراقيين تتألف من ثلاثة محاور وهي: توحيد الفصائل الإسلاميّة السنّية المتفرقة في شمالي العراق. والدعوة إلى اتباع التعاليم السلفيّة في أوساط السنّة هناك، والسعي لتشكيل نظام على غرار نظام طالبان في العراق. وتدريب وإعداد مقاتلين يحاربون القوات الأميركيّة في حال قامت واشنطن بغزو العراق ثانية. وبالإضافة إلى ما سبق فقد تلقى الأكراد العراقيون 350 ألف دولار من مال، وأسلحة، وسيارات لاند كروزر، وتعليمات في الإدارة والسوقيات، وأساليب التدريب العسكري وفوق ذلك فقد تلقوا عرضاً - وتم قبوله - لإرسال عناصر من القاعدة إلى هناك للمساعدة في ترتيب قياداتهم من الناحيتين السياسيّة والعسكريّة. وأخيراً يبدو أن جماعة أنصار الإسلام قد تلقت تدريبات في معسكرات القاعدة في مجال صنع واستخدام الأسلحة السميّة، بالإضافة إلى كتيبات حول إنتاج السموم عثر عليها في معسكرات الأنصار في العراق عام 2002 وهي

تطابق تماماً تلك التي أخذت من معسكرات القاعدة في أفغانستان. وفي أواخر عام 2002 قامت جماعة أنصار الإسلام ببناء مصنع لإنتاج السموم بالقرب من خرمه في العراق وقامت باختبار الريسين وأنواع أخرى من المواد السامة على حيوانات المزارع – ولربما تم كل ذلك بإشراف أبي مصعب الزرقاوي وهو أحد حلفائهم البارزين من القاعدة. وقد أفادت تقارير وردت عن الإعلام البريطاني أنه من المحتمل أن يكون معسكر خرمه هو المسؤول عن تحضير الريسين وتوريده إلى الإسلاميين الذين اعتقلوا في لندن في أواخر عام 2002 حيث تم العثور على آثار للريسين في متعلقاتهم الخاصة. وقد خلص مراسل صحيفة *نيويورك تايمز* سي جاي شيفرز إلى النتيجة التالية اعتماداً على الوثائق التي تم الحصول عليها في كابل عام 2001 وفي العراق عام 2003:

> لقد أمدت القاعدة أنصار الإسلام بمقاتلين محنكين قاموا بمساعدة الجماعة على تنظيم تدريباتها، وإداراتها، وطموحاتها... كما اشتملت الوثائق التي تم الحصول عليها في العراق على جوازات سفر، وإجازات قيادة، وبطاقات شخصيّة، وشهادات جامعيّة لشباب من الجزائر، والسودان، وسوريا، والمغرب، وتونس، وقطر، والسعودية، وألمانيا، وإسبانيا، وإيطاليا، وكندا... لقد قطع التعاون المنهجي الذي تم بينهما أشواطاً أبعد بكثير من مجرد مساعدة القاعدة للأنصار ليبدأوا بداية صحيحة وإن لفي هذا إشارة إلى امتلاك القاعدة القدرة على تصدير دروسها التدريبيّة إلى أماكن أخرى[46].

يبدو أن المقاتلين الأكراد السنّة كانوا طلاباً نجباء، ففي صيف عام 2001 قامت منظمة أنصار الإسلام – التي كان يترأسها آنذاك الملا كريكر المستقر في النرويج ويتولى رئاستها اليوم أبو عبد الله الشافعي – ببذل جهود حثيثة لتوحيد جماعة جند الإسلام الكبيرة وعدة جماعات سنّية أخرى وضمها تحت لواء الأنصار. وقد توّجت جهود الجماعة بالنجاح وارتفع عدد قواها من ستمئة إلى ألفي مقاتل بحلول يناير عام 2003، ومن المعلوم أن هذه الأرقام لا تشمل المقاتلين العرب الذين دخلوا العراق بعد سقوط نظام طالبان في أفغانستان. وقد اتخذت الجماعة الموحدة حديثاً الجبال القريبة من حلبجة مقراً لها، وبدأت في صيف عام 2001 بشنّ هجمات بطريقة حرب العصابات على الجماعات الكرديّة غير المتدينة والمتحالفة مع

الولايات المتحدة، وشملت عملياتها اغتيالات، وتفجير سيارات، ونصب أفخاخ. وقد أظهرت تلك العمليات التي قام بها أنصار الإسلام براعة حربيّة مذهلة، ومخزوناً كبيراً من الأسلحة الحديثة، واستعداداً للقيام بهجمات انتحاريّة. كما أن هذه العمليات برهنت من جديد على التفوق والقوة النوعيّة التي تمكّن عدداً قليلاً من مدرّبي القاعدة ومقاتليها المحنكين من تقديمها لجماعة سنّية محاربة. ففي كل دولة تظهر على ساحتها حركة تمرّد إسلاميّة، تكون القاعدة بمدربيها وراء تحسين المهارات العسكريّة، وتعزيز الحماسة الدينيّة للمقاتلين المحليين. إن مدربي القاعدة يثبتون كل يوم أن الحقيقة التي صرّح بها مراراً وتكراراً معلم بن لادن الراحل الشيخ عبد الله عزام وهي أن القرآن وبندقيّة AK-47 ينتج عنهما معاً مستويات من القوة المهلكة هي بالضبط ما يحتاج إليه الإسلام لينتصر.

> إن التاريخ لا تخط سطوره إلا بالدم، والمجد لا يسمو بنيانه الشامخ إلا على جماجم قتلاه، والكرامة والاحترام لا يمكن إقامتهما إلا على قاعدة من جثث القتلى... حقاً، إن أولئك الذين يظنون أنه بإمكانهم تغيير الحقائق أو المجتمعات دون بذل الدماء الغزيرة، والجراح الأليمة، ودون أرواح طاهرة، وقلوب سليمة لا يفهمون جوهر ديننا[47] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

لقد وسّعت القاعدة أيضاً من تواجدها أيضاً في لبنان، البلد الذي نشأت فيه منذ زمن طويل منظمة حزب الله، التي لا تزال تصنف على أنها أخطر منظمة في العالم، وقد أكد العديد من المسؤولين، والسياسيين، والباحثين الأميركيين ومنهم عضو بارز في مجلس الشيوخ أن هذه المنظمة التي سبقت القاعدة "تحتل المركز الأول في قائمة الجماعات الإرهابيّة..."[48]، كما خلص أحد الأكاديميين البارزين في جامعة هارفرد إلى أن الجماعة اللبنانيّة "هي أكثر الجماعات الإرهابيّة تطوراً وحنكة في العالم"[49]. وقد أكد هذه الادعاءات سيل لا ينتهي من "الخبراء" الإعلاميين الذين لم يتمكنوا من الخروج عن دائرة الاعتقاد بأن الدول التي تدعم تلك الجماعة هي التي تشكل الخطر الأعظم الذي يهدد المصالح الأميركيّة. وقد اختلق بالفعل أولئك المسؤولون، والسياسيون، والخبراء تحليلاً يفترض وجود تحالف بين القاعدة وحزب الله تكون فيه القاعدة شريكاً تابعاً لحزب الله تحت إدارة إيرانيّة

ويهدف هذا التحالف بزعمهم إلى القضاء على الولايات المتحدة وإسرائيل. حتى إن رالف توليدانو مثلاً صرّح في مجلة *إنسايت* في مارس عام 2004 أن ما قاله نائب وزير الخارجيّة ريتشارد أرميتاج "إن حزب الله قد يكون من أقوى المجموعات الإرهابيّة العالميّة" هو أقل من الحقيقة معتمداً في رأيه هذا على "إثباتات غير قابلة للجدل"[50]. وقد قام العديد من "الشخصيات المطّلعة سياسياً" بطرح هذه الرؤية مراراً وتكراراً لدرجة أنها أصبحت اليوم من المسلمات التي لا تحتمل أي شك في مصداقيتها. غير أنها تحليلات خاطئة تماماً. فالقاعدة وحزب الله يشتركان في الأمرين التاليين: كلاهما يشجّع مشاعر الكراهيّة العميقة تجاه الولايات المتحدة، وكلاهما لديه مجموعة من معسكرات تدريب إرهابيّة تجاهلتها الولايات المتحدة وحلفاؤها لعشرات السنين. وبالرغم من أن ثمة اتصالات على الأرجح بين الجماعتين وربما يكون هناك تبادل للمعلومات والخبرات، فإنه ليس هناك أي تعاون عملي بينهما أو هجمات مشتركة إلا في عقول المسؤولين، والمحللين السياسيين الغربيين، والأميركيين الذين فقدوا رشدهم تماماً - ومنهم المدير السابق للاستخبارات المركزيّة - والذين لم يتمكنوا من التخلص من النموذج القديم وهو تمويل الحكومات ودعمها للإرهاب الذي يسيطر على عقولهم.

وقد اتجهت القاعدة نحو لبنان لسبب بسيط جداً وهو رغبتها في إقامة قاعدة لعملياتها بالقرب من مسرح الحرب الإسرائيليّة الفلسطينيّة والحرب العراقيّة. إن حصول بن لادن على موقع في لبنان منحه ولأول مرّة أرضاً يمكنه استخدامها لشنّ هجمات على الإسرائيليين وقتلهم، وبذلك يمكنه تحقيق هدف وضعته القاعدة نصب عينيها. وقد كتب أبو عبيد القرشي في هذا الشأن في الأنصار: "**إذا أردنا أن نساعد الانتفاضة فعلاً، فيتوجب علينا تقديم دعم أكبر بكثير من مجرد إطلاق الشعارات والكلام الرنان. فالدراسات التي أجريت حول المجاهدين في فلسطين تشير إلى أنهم بحاجة إلى دعم أكبر. فهناك حاجة على سبيل المثال لتأسيس قواعد لمؤازرة المجاهدين في كافة البلاد. كما يجب القيام بمحاولات لاختراق الحدود مع فلسطين لمدّ المجاهدين بالأسلحة. ويجب تنفيذ عمليات عسكريّة ضد الصهاينة ومن يرعاهم، ويحميهم، وينصرهم**"[51] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كما أن تواجد

القاعدة في لبنان من شأنه تسهيل عمليّة مرور المقاتلين إلى العراق عن طريق سوريا والأردن. ويبدو أن اللبنانيين من المسلمين السنّة المتشددين قد رحّبوا بالقاعدة، كما يبدو أيضاً أن مقاتلين من جماعة الجهاد الإسلامي المصريّة التي يتزعمها الظواهري هم أول فرقة يتم إرسالها إلى هناك. وقد جاء في تقرير كتب في مجلة *المجلة* اللندنيّة في فبراير عام 2003 أن "مبادئ وأيديولوجيات القاعدة" تقتحم شيئاً فشيئاً "مخيمات اللاجئين الفلسطينيين"[52]. وفي الوقت الراهن تتمركز القاعدة في واحد أو أكثر من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان – ويُعتقد أن أهم وأقوى وجود لها يكمن في مخيم عين الحلوة[53] – وفي المناطق التي يسكنها السنّة في شمال لبنان. إلا أنه لا يوجد أي دليل حتى الآن على أن القاعدة قد شنّت هجمات على إسرائيل من لبنان. غير أن رؤية إسرائيل في وجود القاعدة المادي والمبدئي في لبنان على أنه خطر يتهددها بشكل مباشر يتضح جلياً في عمليّة اغتيال عبد الستار المصري زعيم جماعة الجهاد الإسلامي المصريّة التي نفذها الموساد أو أحد عملائه وذلك بتفجير سيارته في عين الحلوة.

كما أن العراق ولبنان يشكلان دليلاً آخر على ضآلة حجم الضرر الذي تعرضت له القاعدة من جراء الحرب على الإرهاب خارج ممر إسلام أباد – عمّان، وعلى قدرتها ليس على الهجوم فحسب، بل على إقامة قواعد في مناطق كانت بالكاد تتمتع فيها بأي وجود قبل الحادي عشر من سبتمبر. وفي بداية العام 1999 أخذت القاعدة تعمل بسرعة على توحيد الجماعات السنّية العراقيّة وحلت بعض مشاكلها التنظيميّة والإداريّة، وأدخلت بعضاً من كوادرها التدريبيّة الخاصة ومقاتليها إلى المنطقة. وهكذا ضَمِنَ بن لادن أن القاعدة قد أسست قواعد لها في مواقع داخل العراق وحوله وهذه القواعد ستكون مستعدة عندما سيدعو أهم رجال الدين السنّة في العالم المسلمين جميعاً – وهو أمر كان متأكداً من حدوثه – إلى جهاد دفاعي ضد القوات الأميركيّة والبريطانيّة "التي ستحتل العراق". وكذلك فإن الغزو الأميركي للعراق قدّم فرصة للقاعدة المتمركزة في لبنان لدعم قواتها في العراق التي تشارك في المقاومة ضد التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. كما أن لبن لادن إداريين ولوجستيين متمرسين يتواجدون في العراق يمكنهم بكل سهولة أن

يستقبلوا ويأووا، ويطعموا، ويسلحوا، ويدربوا، المتطوعين المسلمين الذين يتدفقون إلى العراق قادمين من كافة أنحاء العالم الإسلامي، تماماً كما فعلوا أثناء الحرب السوفييتيّة الأفغانيّة.

... وها هم يقتحمون مجالاً جديداً

إن أهم نمو حققته القاعدة منذ اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر لم يكن نمواً مادياً بل كان نمواً على الإنترنت. لقد استخدم بن لادن ومقاتلو القاعدة الإنترنت لأغراض الدعوة والتواصل فيما بينهم قبل الاعتداءات، لكن استخدامهم لهذه الوسيلة أخذ يتوسع بسرعة منذ ذلك الحين. ويعود جزء من هذا التوسع إلى حاجتهم لهذه الوسيلة، فأفغانستان لم تعد نوعاً ما ذات فائدة بالنسبة لهم، كملجأ آمن يمكنهم الاعتماد عليه، كما أن تشتت المقاتلين الذي نجم عن ذلك، أجبر المنظمة على أن تصبح أكثر "افتراضيّة" كومبيوتريّة أو "القاعدة 2.0" على حدّ تعبير بيتر بيرغن من محطة سي. أن. أن. الذي وصف وضع القاعدة الراهن بإدراك كامل[54]. كما أن توجه القاعدة نحو الإنترنت يعود إلى التطور السريع الذي شهدته هذه الوسيلة والحواسيب معاً، وكذلك الهواتف الخليويّة، والهواتف التي تعمل بواسطة الأقمار الصناعيّة وراديوهات "INMARSAT International Maritime Satellite Organization" منظمة الأقمار الصناعيّة البحريّة الدوليّة، التي يمكن القيام بالاتصالات عن طريقها. إن الشبكة العنكبوتيّة العالميّة تستمر بالتطور نحو تعقيد أكبر، والكومبيوترات تزداد سرعة وصغراً ورخصاً في الثمن، وقوة وفعاليّة في الوقت ذاته، كما أن عمليّة تحويل المعلومات إلى رموز أو التشفير التجاري جعل المعلومات منيعة ضد عمليات التجسس. إن الانتشار الواسع لمقاهي الإنترنت في كل أنحاء العالم يوفر لعناصر القاعدة، وحلفائهم، ومقاتلين إسلاميين متشددين آخرين من الذين ليست لديهم كمبيوترات خاصة بهم اتصالاً سريعاً ورخيصاً بالإنترنت. إلا أن من الصعب أن نعرف كيف يتم تقسيم الاتصالات العملياتيّة في القاعدة بين الإنترنت، والهواتف الأرضيّة، والخليويّة، والتي تعتمد على الأقمار الصناعيّة، وراديوهات INMARSAT، والراديوهات القديمة من طراز HF/VHF والتي لا يزال بالإمكان

الاعتماد عليها بالإضافة إلى الرسل حاملي الرسائل السرّية. وهذه الوسيلة "البدائيّة" الأخيرة تستخدمها القاعدة في أفغانستان "لنقل التقارير السرّية أو الرسائل التي يتم حفظها عن ظهر قلب" وذلك للتغلب على إمكانات التجسس الإلكتروني التي يمتلكها الأميركيون. هذا ما جاء في تقرير روبرت فيسك في *الإندبندنت*[55]. إن استخدام القاعدة للإنترنت بشكل واسع في مجال الاتصالات هو أمر واضح ومعروف. إلا أنه بالاعتماد على المنطق، والتسريب المتكرر للمعلومات من مجلس الشيوخ والتي تشير إلى إمكانيّة التجسس على البريد الإلكتروني، تنبهت القاعدة إلى تجسس الولايات المتحدة على البريد الإلكتروني، وبذلك أضاعت الولايات المتحدة فرصة كبيرة للنيل من القاعدة.

كما أن القاعدة تستخدم الإنترنت أيضاً لأغراض دعويّة وتعليميّة. فمنذ شهر يناير 2002 بدأت القاعدة باستخدام موقعين على الإنترنت هما النداء والأنصار ويعرف موقع النداء أيضاً بمركز الدراسات والأبحاث الإسلاميّة وقد وصفه أحد خبراء الإنترنت بول إيدل بأنه: "موقع يتمتع بقاعدة بيانات غنية، تم تقديمها بكفاءة عالية، بالإضافة إلى الذكاء، وسعة الخيال التي يتميز بهما مصمم الموقع"[56]. وعلى الرغم من أن القاعدة لم تدعِ ملكيتها لأي من الموقعين، فإن أحد قادة القاعدة البارزين أبو ليث الليبي نصح قرّاء الجهاد الإسلامي بالاطلاع على موقع النداء قائلاً: "إنه موقع يديره إخوان موثوقون... ويموّله إخوان تعرفونهم جيداً. إنه موقع جيد ونطلب من الله أن يتقبل أعمال القيّمين عليه... ونحن لن نبخل بأي جهد أو أي شيء يمكننا أن نقدمه لهذا الموقع"[57]. كما أن الأنصار والنداء يصدران دوريات إلكترونيّة مرتين في الأسبوع - من بين أشياء أخرى - تحتوي على تحليلات للحرب في أفغانستان والعراق، وتقييم وتفسير لعلماء ورجال دين مسلمين، لما قامت به القاعدة، وما تعتزم القيام به، وما تطلب من الآخرين أن يفعلوه، إضافة إلى مقالات متعمقة، تنم عن معرفة واسعة، ودراسة وافية، تصف الأهداف التي تطمح إليها القاعدة من وراء الحرب، وتحديد أهمية النتائج التي ستترتب على تحقيق تلك الأهداف، بما يخدم مصالح الأمة الإسلاميّة من خلال هزيمة الولايات المتحدة، وبالتالي هزيمة إسرائيل، والحكومات الإسلاميّة المرتدة في العالم. وفي الجوّ السياسي

العاصف الذي تلا هجمات الحادي عشر من سبتمبر، عمد بن لادن إلى التواري عن الأنظار، وغاب إعلامياً، وذلك لمنع العدو من تحديد موقعه، ولأنه يعلم أن الصمت يبث الرعب في نفوس الأعداء. في هذه الأجواء توفر مواقع الإنترنت لأتباع بن لادن، ولأولئك الذين يحاول حثهم على الجهاد، فيضاً من المعلومات والتعليقات التي يسهل الوصول إليها على الدوام والتي تحمل موافقة القاعدة على النشر. وقد كتب إيدل حول الأثر الذي أحدثته تلك المواقع: "إن الإدلاء بأي رأي يعارض الرؤية الجهاديّة يتطلب شجاعة كبيرة... كما أن النقاشات الشعبيّة في العالم الإسلامي أصبحت اليوم تتصف بالراديكاليّة الشديدة وكل ذلك يعدّ من النتائج التي ترتبت على وجهات نظر القاعدة الواسعة الانتشار"[58].

ومن المثير للسخريّة أن الولايات المتحدة وحلفائها، زادوا من الإغراء والأهميّة المفترضة لتلك المواقع، وذلك من خلال الهجمات المعلوماتيّة المتكررة التي قاموا بشنها عليها لحجبها، مما يدعو منتجيها إلى البحث عن مخدمات استقبال جديدة. فقد كتبت صحيفة *الحياة* العربيّة التي تصدر من المملكة المتحدة – على سبيل المثال – إن موقع النداء كان هدفاً لعشرين اعتداءً أميركياً[59](*). وقد أثبتت هذه الاعتداءات القدرات العالية التي تمتلكها آلة حرب المعلومات الأميركيّة وبالطبع جعلت الوصول إلى المواقع الإسلاميّة أمراً في غاية الصعوبة بالنسبة للقراء المسلمين. إلا أنه في نهاية الأمر فسّر الإسلاميون هذه الاعتداءات على أنها دليل يثبت خوف الولايات المتحدة مما تقوله القاعدة، علاوة على أنها إثبات لادعاءات بن لادن أن حرّية التعبير والكلام ليست للمسلمين، وربما كانت سبباً في دفع الناس إلى القراءة أكثر من أي وقت مضى. وقد جاء في النداء في أكتوبر 2002 ما يلي: "**في كل مرة تقومون فيها (الولايات المتحدة) بإغلاق موقع لنا، فإنكم تكشفون للعالم أجمع حقيقة ديموقراطيتكم التي تتبجحون بها، إنها ديموقراطيّة تم تفصيلها لتناسب مقاسكم فقط، وعندما يعارضكم الناس تتحول ديموقراطيتكم إلى أبشع صور الهيمنة، والطغيان، والاستبداد في العالم**"[60] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كما أن

(*) وهذا هو سبب الاشارة إلى أن النصوص التي تنسب إلى هذين الموقعين هي مترجمة عن الانكليزية لتعذر الوصول إلى مصدرها العربي الأصلي.

الاعتداءات حرمت محللي الاستخبارات الأميركيّة من وسيلة سهلة للوصول إلى ما تفكّر به القاعدة وما تخبر به أتباعها. "'إن النقاشات الحقيقيّة' التي تدور بين المسلمين حول مستقبل الإسلام ومواجهاته مع الغرب تجري في المواقع، وحلقات الحوار على الإنترنت، وقوائم البريد الإلكتروني، وغرف الدردشة"[61]. وفي الوقت ذاته فإن أولئك القادة الذين يعطون الأوامر لمحاربي المعلومات يسربون بكل غباء معلومات عن براعة الولايات المتحدة في القيام باعتداءات كهذه. وخلاصة القول إن هذه الهجمات تضع أميركا في موقع الخاسر في كل الأحوال: فنحن نرفض الهدية التي قدّمت إلينا على طبق من فضة، وذلك بإغلاق تلك المواقع، بينما نقول لخصومنا إننا نتجسس على اتصالاتهم.

وقد أثار روفن باس أهم محلل في قضايا الإرهاب الإسرائيلي - وأحد القلائل الذين لا يبدون وكأنهم شركاء للحكومة يشدون من أزرها على حساب الحقيقة - نقطة حساسة وهي أهمية "مترجمي الإنترنت" الذين يترجمون كل ما يصرّح به بن لادن والقاعدة مؤكداً أن أولئك يقدمون معلومات في غاية الأهمّيّة تغني معرفة الغرب وتظهر الأبعاد الخطيرة - التي لم تعطَ حق قدرها حتى الآن - للتهديد الذي يمثله الإسلاميون. وقد كتب باس في بداية العام 2003 في هذا الشأن:

> هناك "ظاهرة مثيرة" تعد إحدى نتائج اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر وهي ظهور مجموعة من المهتمين بترجمة وتحليل أقوال أسامة بن لادن وتصريحات تنظيم قاعدة الجهاد (تنظيم القاعدة) وكل ما كتب عن طبيعة الحرب بين الإسلام الأصولي والغرب. وقد نشر هؤلاء المترجمين والمحللين - وهم بشكل أساسي باحثين ومفكرين سعوديين، ويمنيين، ومصريين - خلال السنة الماضية فقط عشرات المقالات في مواقع الإسلاميين الأصوليين وفي مجلات الإنترنت. وتنتشر مقالاتهم بشكل واسع في منتديات عديدة للحوار على الإنترنت، وتمثل الردود الكثيرة على تلك المقالات دليلاً دامغاً على شعبيتها الكبيرة...
>
> وتكمن أهمية أولئك المترجمين والمحللين في نشر الأفكار السياسيّة للجهاد الشامل في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي، وفي ترويج وتشجيع الشباب الإسلامي المتشدد ودفعه نحو مزيد من الكراهيّة تجاه الغرب واليهود. وقد يرى الغرب قسماً من تلك المقالات على أنها تحتوي على معلومات مضللة ومزيفة وأن هدفها هو شنّ حرب معلوماتيّة نفسيّة، إلا أنه يجب القيام بدراسة عميقة لظاهرة

الجهاد الشامل، واتجاهاتها الجهاديّة السلفيّة الأصوليّة، وسياسات القاعدة... فعلى الرغم من أن أهدافهم النهائيّة غامضة، إلا أن رؤيتهم للصراع هي رؤية ذكيّة، ومثابرتهم واضحة وجليّة[62].

وإحدى التطورات الأخرى المتعلقة بالإنترنت والتي تعد في مصلحة بن لادن هي العدد المتزايد للجماعات الإسلاميّة المتشددة والأصوليين الذين يعرضون المقالات، ويتبادلون المعلومات والآراء، بواسطة نظام الدردشة الصوتيّة ويناقشون الأفكار في المواقع ومنتديات الحوار التي قاموا بإنشائها. واليوم تفسح الإنترنت المجال للمقاتلين المسلمين من كل بلاد العالم ليلتقوا، ويتحاوروا، ويتعرفوا على بعضهم إلكترونياً وهي طريقة للتعارف والتواصل كانت تتطلب في الثمانينات وأوائل التسعينات رحلة إلى السودان، أو اليمن، أو أفغانستان أو باكستان. وقد أشار ديفيد مارتن جونز في *الناشونال إنترست* إلى "أن المجتمع أو الأمة الإسلاميّة لم يعد مفهوماً جغرافياً، فالعالم "الافتراضي" للخلافة المعلوماتيّة المحتملة لا تقف في وجهه أي حدود تقليديّة"[63]. إن العديد من المواقع تقف موقف تأييد واضح لبن لادن، تثني عليه وتراه البطل المسلم الوحيد في هذا العصر، كما أنها تُحيّي تصريحات القاعدة والهجمات التي تشنّها على أعدائها. ويعتبر كل هذا بالطبع دعاية مجانيّة لقضية القاعدة، لكن أهم أوجه هذا التطور بالنسبة لبن لادن هو عدد الجماعات الإسلاميّة والأفراد الذين أصبحوا على اطلاع بالعمليات المتعلقة بالجهاد، ومرجعيتها، ومبرّراتها الدينيّة. فهناك مواقع جديدة تظهر على الساحة باستمرار، وثمة قوائم طويلة للمتقدمين الذين ينتظرون الموافقة على انتسابهم لمنتديات الحوار، كما أن معظم المواقع قادرة تقنياً على توفير وسائل الاتصال السمعيّة والبصريّة والربط بمواقع أخرى. كل ذلك يقدم مساهمة هائلة لما تحدث عنه بن لادن دائماً على أنه أهم أولويّة بالنسبة له وللقاعدة، ألا وهي حث أكبر عدد ممكن من المسلمين على الجهاد بشكل يغطي أكبر مساحة جغرافيّة ممكنة. ويجدر بالذكر أن القاعدة لا تقوم بتمويل أو إدارة أو تقديم المقالات لمعظم تلك المواقع، لكن الأخيرة تشكل بالنسبة لها قوة مضاعفة غاية في الأهمّية تدعم برنامج التحريض والانتشار الذي وضعته لنفسها. واعترافاً من القاعدة بهذه الفوائد التي جنتها من تلك المواقع،

أكدت "لإخوانها على الإنترنت" أن "الحرب الإعلاميّة ضد عدوهم الصليبي الظالم تتطلب بذل جهود مشتركة ويمكنها استخدام الكثير من الأفكار. لذا فنحن على استعداد للمساعدة بتقديم أفكارنا وتجاربنا"[64].

ومن الناحية الأضيق والأكثر فعالية، فمواقع الإنترنت ومنتديات الحوار التي لا تتبع للقاعدة تلعب دوراً هاماً في تقديم تدريبات عسكريّة وأمنيّة واستخباراتيّة للمسلمين المهتمين، وغيرهم من المتصفحين المهتمين من كافة الأديان والعقائد وأعداء أميركا غير التقليديين كأعضاء الجريمة المنظمة، وتجار المخدرات، والإرهابيين، وغيرهم. ومنذ اندلاع الحرب في أفغانستان في أكتوبر عام 2001 شاع انتشار المواقع التي تقدم تدريبات عسكريّة على شبكة الإنترنت، وتشمل تلك التدريبات تصنيع واستخدام المتفجرات، وكيفيّة استخدام الأسلحة، ومعادلات لتركيب السموم، والمتاجرة بالمعلومات الاستخباراتيّة، وكتيبات تعليم الفنون القتاليّة، والتعامل مع النظريّة، وصنع أسلحة الدمار الشامل، بالإضافة إلى موسوعة الجهاد التي ذاع صيتها مؤخراً والتي صدرت عن القاعدة، كما اشتملت - بالطبع - على تعاليم دينيّة تتعلق بالجهاد الدفاعي. وعلى الرغم من أن معظم كتيبات التدريب مكتوبة بالإنكليزيّة أو بالعربيّة، فإن الترجمات التي تظهر كل يوم من شأنها تسهيل استخدام المعلومات الواردة في المواقع والرجوع إليها.

إن توافر هذا الكم الهائل من المعلومات المختلفة بدأ يعوض خسارة القاعدة بشكل مؤقت لعدد من معسكراتها في أفغانستان. وقد بالغت صحيفة *وال ستريت جورنال* بعض الشيء في مقال جاء فيه: "لم يعدّ وجود معسكرات التدريب التابعة للقاعدة في أفغانستان ضرورياً... وذلك بفضل التقنيّة الحديثة"، إلا أن الأعضاء والمدربين في القاعدة يمكنهم الحصول على تدريبات استخدام الأسلحة من أي مكان في العالم، ومن ثم القيام بتلك التدريبات في البيوت والمعسكرات المحليّة والأماكن المعزولة، فالأقبية يمكنها أن تحل محل المعسكرات بالنسبة للتدريبات على استخدام المتفجرات، والمواد السامة، واللقاءات السرّية، وأساليب القتال في المعارك - كما يمكنهم القيام بتلك التدريبات في منشآت تابعة لحلفائهم من الجماعات الإسلاميّة الأصوليّة في باكستان، واليمن، والشيشان، وأوزبكستان، وطاجكستان،

والسودان، وماليزيا، وإندونيسيا، والفليبين، وغيرها من البلدان التي قد ترحّب بوجودهم. وقد كتب الكولونيل هاكوورث في هذا الخصوص: "إن الإرهابيين الدوليين اليوم ليسوا بحاجة لأماكن آمنة ليختبئوا فيها أو لمساعدات خارجيّة كي يتمكنوا من تسليح وتدريب وإخفاء جنودهم"[66]. وإذا أضفنا إلى ما سبق مكتبة الحرب هذه المتوفرة على الإنترنت فهي تسمح للمسلمين من أفراد وجماعات غير ذات صلة بالقاعدة أو حلفائها بالتدريب في أوقات فراغهم، ومن منازلهم ومن ثم شنّ هجمات يدبرونها وعمليات يتم التخطيط لها وتنفيذها دون أن يكون هناك أي فرصة لكشفها أو اعتراضها. كما أن التدريب المنزلي يخفض إلى حدٍّ كبير من حاجة المجاهدين المستقبليين للسفر مما يحدّ بشكل كبير من قدرة الحكومات على القبض على المقاتلين بالطرق التقليديّة التي تعتمد على مراقبة بعض الأشخاص الذين ذكرت أسماءهم في لائحة المتهمين، والتحقق من وثائق السفر، ومطابقة الصور، والبصمات، وأشكال العين. وباختصار، فإن مكتبة الجهاد على الإنترنت تفسح المجال لشنّ هجمات من النوع الذي لا يمكن السيطرة عليه وهو أقصى ما يطمح إليه بن لادن، وفي الوقت نفسه تحدّ من قدرة الحكومات على الاستفادة من دوائر الهجرة، والجمارك، والشرطة للإيقاع بالمحاربين المسافرين.

كما أن مواقع الإنترنت تلعب دوراً تعليمياً هاماً من حيث نشر الدراسات الدينيّة المؤيدة لتحريض بن لادن ودعوته كافة المسلمين في العالم إلى الجهاد الدفاعي. وتعد تلك المواقع غاية في الأهمّيّة من حيث نشر كتيبات الدعوة للمذهب الإسلامي السنّي السلفي الذي يعدّ المذهب الأكثر عنفاً، والأسرع نمواً، وانتشاراً في أوساط السنّة في الوقت الحاضر. وقد خدمت الإنترنت قضية المجاهدين وذلك عن طريق تسهيل الوصول إلى النصوص الدينيّة الشرعيّة. هذا ما وضّحه موقع الإصلاح التابع لسعد الفقيه كما جاء فيه:

> يمكن أن يضغط الشباب اليوم زراً واحداً ليحصلوا على المعلومات، التي كانت ولفترة ليست ببعيدة حكراً على الباحثين في علم الحديث. وهنا تكمن المفارقة، حيث إن تقنيّة المعلومات قد ساهمت بشكل كبير في ازدهار الفكر السلفي كما أن تحديات العولمة اليوم تؤيد قيام مشروع هدفه العودة إلى النصوص الشرعيّة الدينيّة وسيطرتها على الفكر الإسلامي[67].

فكما تقدم القاعدة خدمات للإسلاميين على الإنترنت، كذلك يفعل المجاهدون المستقبليون حيث يقدمون معلومات مهمة للقاعدة عن طريق الوسيلة نفسها. ففي ما يخص عمليات القاعدة، إن جمع المعلومات السرّية وعمليات المراقبة والاستطلاع وتصوير المواقع - أي القيام بفحص المعطيات المتاحة - كلها عناصر أساسيّة تدخل في مرحلة التخطيط قبل الهجوم. فقد سمحت الإنترنت للجماعة بالإعلان عن حاجتها لمعلومات معينة وسؤال المسلمين عن هذه المعلومات، ومعظم من أجابها منهم لم يكن أحد أعضاء القاعدة وقد يكونوا ممن لم يقترفوا أي جرم يلفت أنظار الشرطة إليهم، وقد ظلوا مجهولين لم يعرفهم أحد. ففي نوفمبر عام 2002 على سبيل المثال، أصدرت القاعدة "نداء إلى إخواننا العمال" في شبه الجزيرة العربيّة لدعم الجهاد من خلال تقديم معلومات عن المنشآت التي تستخدمها الولايات المتحدة. وقد كتب أحد أعضاء القاعدة في هذا الشأن (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي):

> "ويمكنكم أن تتساءلوا: ماذا يمكننا أن نفعل ونحن أبعد ما يكون عن ساحات معارك الجهاد؟ نقول لكم إنكم في وسط هذه الساحات. فالأعداء الذين نسعى للقضاء عليهم هم الكفرة الذين تخدمونهم وتساندونهم ضدنا. أنتم تعرفون مواقعهم، وتحركاتهم، وإمكانياتهم. أنتم تعرفون نقاط ضعفهم العسكرية. وبهذه المعرفة يمكنكم أن تكونوا مصدر قوة لنا. وهذه الميزة ستمنحكم دوراً مصيرياً بإذن الله في خدمة دين الله وخدمة أمتكم.

وقد حدد إعلان القاعدة نوعيّة المعلومات التي يحتاجونها. "يمكنكم أن تزودنا بتقارير حول الأهداف العسكريّة والاقتصاديّة الهامة... للغزاة الأميركيين الكفرة"، هذا ما طلبه كاتب الإعلان، ثم ذكر بعض المعلومات المطلوبة بدقة كمواقع المكاتب، وأنابيب شركات النفط الأميركيّة، وأماكن مخازن الذخيرة الحربيّة الأميركيّة، وأماكن الأبنية السكنيّة والترفيهيّة للموظفين العسكريين الأميركيين. والممرات الجوّيّة ومواقع التزود بالوقود الإضافي التي تستخدمها الطائرات الحربيّة الأميركيّة، وأرصفة تحميل السفن التي تستخدمها السفن الحربيّة والتجاريّة الأميركيّة. كما طلب الكاتب أسماء وعناوين الضباط الأميركيين البارزين في مجال

الاستخبارات والعمليات العسكريّة. "يمكنكم أن تنشروا هذه التقارير عبر هذه المواقع علناً"، هذا ما قاله الكاتب المجهول.

> ومن الأفضل أن تكون تلك المعلومات مدعومة بصور، أو إذا كانت المعلومات حول موقع ما فمن المستحسن أن يشار إليه بنقطة على خارطة تجاريّة يتم مسحها وتحميلها عن الموقع وترفق بالتقرير... من مواقعكم يجب أن تقوموا بما تتوقعه أمتكم منكم في مثل هذه الأوقات الحرجة في تاريخها. وبإذن الله ستحققون أحد أفضل هدفين: الشهادة أو النصر. إنكم تعلمون جيداً كيف يمكنكم أن تضربوا أولئك الكفرة، لأنكم تعرفونهم وتعرفون نقاط ضعفهم[68].

وأخيراً، فإن وجود مواقع ذات صلة بشؤون القاعدة، إضافة إلى الانتشار المستمر للمواقع ومنتديات الحوار الإسلاميّة الأصوليّة، لا بد وأن ينجم عنه كم وفير من الكلام الطليق، والمبالغات، والخطط الهجوميّة التي غالباً ما تكون موجودة فقط في أذهان المتحاورين. ولهذا فإن الجوّ العام في الإنترنت يعبق بتهديدات ضد الولايات المتحدة التي تختلف درجات حدتها من الخطف إلى شنّ حرب نوويّة. إلا أنه يجب أخذ بعض تلك التهديدات على محمل الجدّ، خاصة إذا كانت قد نشرت على مواقع تابعة للقاعدة. فعلى الرغم من أنها تتصف بالغموض بشكل عام، إلا أنها غالباً ما تكون واقعيّة وقابلة للتطبيق، بشكل يحمل المحللين الاستخباراتيين على أخذها على محمل الجدّ، مما يقض مضاجع مخططي السياسة الأميركيّة. وقد كتب أبو عبيد القرشي في أوائل عام 2002 في هذا الشأن في موقع الأنصار: "**إن أكثر ما يثير مخاوف المسؤولين الأميركيين هو الفرص الواسعة التي منحتها العولمة لأولئك الذين يريدون إدخال أسلحة كهذه (النوويّة والإشعاعيّة) إلى أميركا. ففي العام 1996 دخل إلى أميركا من المكسيك وحدها 254 مليون شخص و75 مليون سيارة و3.5 مليون شاحنة، لم يفتش إلا 5% من هذا الكم الهائل في النقاط الحدوديّة الرسميّة التي يبلغ عددها 38 نقطة**" (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وبعد أن أكد القرشي هذه النقطة استأنف كلامه ثم خلص إلى ما يلي: "إن هذه الأرقام تدعو بحق إلى التأمل والتفكير العميق"[69]. وهذه الجملة حملت تهديداً دق نواقيس الخطر.

ومع ذلك فإن أي إنسان عادي عاقل قد يطلّع على هذا الكم الكبير من التهديدات، ويقيّم معظمها على أنها احتمالات ضعيفة، سيعمل بتركيز أكبر على أكثرها واقعيّة ومنطقيّة. إلا أنه في ما يخص تقييم المخاطر، فالجهاز الإداري الأميركي هو أبعد ما يكون عن العقلانيّة والرشد. حيث إن المسؤولين الأميركيين في تركيزهم الأعمى على حماية من يليهم، يصرّون على تحذير كل مواطن أميركي من أي تهديد يقع تحت أيديهم. فقد أصبحت لائحة التهديدات التي يتلقى الرئيس تقارير عنها كل صباح - وكذلك البرنامج التلفزيوني الذي أصبح يبث اليوم بشكل أسبوعي في محطة في متناول الجميع - تضاهي في شهرتها نظام إنذار إشارة خطر الموت المتعدد الألوان الذي أصدرته هيئة الأمن الوطني، مما يعدّ بالتأكيد مثالاً عما وصفه مارك هيلبرين على أنه "سلسلة من السخافات البيروقراطيّة التي لا طائل منها، فهي لا تحقق شيئاً ولا تحمي أحداً"[70]. وهي من سمات انتصار دوافع الدناءة والجبن الوظيفي، على المنطق والعقلانيّة وهما علامتان إضافيتان تظهران فوز القاعدة وبن لادن. وأولاهما التأثير المدمر لتعقب مصدر كل تهديد مهما كان حجمه. إن انعدام البصيرة الرهيب هذا - فقلة قليلة من المسؤولين الإداريين البارزين يهملون تهديداً إذا كان احتمال حدوثه واحد في المليون - ينجم عنه كل يوم سوء استغلال للقوى العسكريّة، وهدر في الوقت الذي يصرف على الكومبيوترات وأنظمة جمع المعلومات على المستوى القومي من أجل تهديدات لا تعد ولا تحصى، معظمها تافه وسخيف بشكل واضح لا خلاف عليه. ونتيجة لذلك، فإن الجوّ العام يبدو أشبه بمحطة إطفاء الحرائق من حيث الجلبة التي تسيطر عليه من الإنذارات الكاذبة، والجواسيس، والمعدات، والمحللين، والشرطة بكافة أقسامها ومستوياتها وقد خارت قوى الجميع من مطاردة تهديدات خياليّة لا وجود لها. وهكذا تم إحداث جوّ أضعف من قدرتنا على تحليل الوقائع بشكل سليم، وزاد من خطر أخطاء الإداريين الكبار الذين أعماهم الرعب. وعندما سيتم ضرب أميركا في عقر دارها دون سابق إنذار في هجوم تشنه القاعدة - وهذا ما سيحدث فعلاً - قد يعود السبب في ذلك عندئذ إلى إرهاق وتشاؤم موظفي حكومتها، وبشكل خاص أفضل ضباطها الذين كان يطلب منهم مراراً وتكراراً التأهب إلى أقصى حدّ والانطلاق لمطاردة تهديدات

يعرفون هم ومدراؤهم أنها كاذبة لا أساس لها من الصحة، وذلك في الأيام الماطرة، والليالي الباردة، كل ذلك على حساب صحتهم، وعائلاتهم، وحياتهم الزوجيّة.

إن هاجس التهديدات يؤكد من جديد أن بن لادن لا يزال هو المنتصر في هذه المعركة. إن التركيز الكبير والاهتمام الذي يوليه المسؤولون الأميركيون للتهديدات يترجم عملياً إلى هوس بالدفاع، حيث إنه يتم التعامل مع كل تهديد وكأنه خطر حقيقي قائم، وبتصرفنا هذا فإننا نحاول بالنتيجة أن نحمي كل شيء مما يؤدي في النهاية إلى عدم تمكننا من حماية أي شيء تقريباً. فقد نسينا ما قاله فيلسوف صيني في يومٍ ما: "عندما تستعد في كل مكان فستصبح ضعيفاً في كل مكان". إن استمرار المسؤولين الأميركيين بالتعلق بطريقة العمل هذه يدل على أنهم لا يصدقون أننا في حالة حرب، وأنهم يعتقدون أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر هي حالة طارئة وعارضة ببساطة. فلو أن القادة الأميركيين آمنوا حقاً أن البلاد تخوض حرباً ضد بن لادن والإسلاميين المتشددين، عندها سيعمدون إلى تجريد المراهقين الإداريين من مناصبهم، وإهمال تقاريرهم عن التهديدات، وسيقبلون ويخبرون الناخبين أن الحرب قد تأتي بهزائم متكررة وأحياناً مريرة كما أنها تجلب الانتصارات. كما أنهم قد يستأنفون هذه الحرب بعنف ووحشيّة دون كلل أو ملل، نعم عن طريق القيام بعمليات عسكريّة هجوميّة تراق فيها الدماء حتى نقضي تماماً على الإسلاميين الذين يهددوننا أو نضرب قواهم، والشعوب التي تؤيدهم وتدعمهم، وبناهم التحتيّة الماديّة إلى الحدّ الذي يجبرهم على الاعتراف بأن استمرارهم في الحرب هو أمر لا فائدة ترجى منه. إن الخسائر الكبيرة التي قد تنجم من جراء عمل كهذا من المسلمين والأميركيين، يمكن الحدّ منها بشكل كبير إذا قامت الولايات المتحدة بتغيير سياساتها تجاه العالم الإسلامي - فاتباع سياسات جديدة من شأنه قطع الدعم عن الإسلاميين الأصوليين - لكن بما أنه لا يوجد أي طرح صريح لضرورة إجراء أي تغييرات، فعلى أميركا الاستمرار في اتباع سياسة الحرب. فالسياسة المتبعة في الوقت الراهن لا تترك أي خيار أمام أميركا إلا أن تشنّ حرب إبادة. الحرب جهنم، هذه هي المقولة الشهيرة لويليام تيكومسه شيرمان، لكن خيار أميركا الحالي بالنظر إلى سياساتها الخارجيّة المتحجرة، هو كما كان قد

وصفه بدقة الجنرال كيرتس ليماي خلال الحرب العالميّة الثانية. "سأقول لكم ما هي الحرب، إنها تتلخص بأن عليكم أن تقتلوا الناس وعندما تقتلون عدداً كبيراً منهم سيتوقفون عن القتال"[71]. وفي حال لم تُتبع نصيحة الجنرال ليماي و لم تغيّر الولايات المتحدة من سياساتها فإن بن لادن سيفوز لا محالة.

الحصيلة الإجماليّة: من الثاني عشر من سبتمبر عام 2001 حتى الثاني عشر من سبتمبر عام 2003

لقد حاولت في ما يلي أن أقدّم ميزان الخسائر والأرباح بين عامي 2001 و2004 في الحرب بين قوات بن لادن وقوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. وكما كانت حال الميزان الذي قدمته في كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا*، فهذا الميزان أيضاً ليس شاملاً ولذلك فهو لا يتمتع بدقة متناهية، وهو يهدف فقط إلى توثيق الأحداث الرئيسة في الحرب لأقصى درجة ممكنة إلا أنه وبخلاف الميزان الذي طرح في الكتاب السابق، يتضمن أغراضاً اقتصاديّة وسياسيّة وإجراءات لم يسبق لأميركا أن اتخذتها قبل الحادي عشر من سبتمبر 2001. وعلى الرغم من أنها لا تعد مقياساً علمياً لتطور الحرب، فهي تحدد الخطوط الرئيسة لتكوين فكرة عن مجريات الحرب.

في هذا السياق أودّ أن أقول كلمة توضيحيّة قبل متابعة الموضوع: سيلاحظ القارئ أن المادة التالية لا تتضمن معلومات عن خمسة من الحركات الإسلاميّة الأصوليّة السبعة الموجودة في العالم اليوم والحروب التي أهملت هنا هي تلك التي تجري في كشمير، والفليبين، والجزائر، وفلسطين، وآتشه في إندونيسيا وقد تم استثناؤها لأنها حروب تتم على نطاق زمني وجغرافي واسع، لذا فإن تسجيل وقائعها الأساسيّة يتطلب كتاباً كاملاً. ومن البديهي أن هذه الاستثناءات من شأنها التقليل من أهمية تقدم وخطورة العنف الإسلامي الأصولي العام. أما الحركتان الإسلاميتان الأساسيتان اللتان تبقيان وهما في أفغانستان والشيشان، فقد تم الحديث عنهما وذلك لأسباب واضحة ومعروفة. فقد تمت تغطية الحرب في أفغانستان كي يرى العالم أن ادعاءات أميركا بالنصر هي ادعاءات متسرّعة وطائشة. أما الشيشان

فقد تكلمت عنها لأحذّر الغرب الذي يعتقد أن الخطر الإسلامي سيضمحل وينقشع بمجرد القبض على بن لادن أو قتله. كما سيرى القارئ أن تقدم وخطورة الهجمات التي شنّتها القوات الشيشانيّة الإسلاميّة على قوات موسكو، قد ازداد بشكل كبير بعد أن سمم الروس ابن الخطاب في مارس عام 2002. لقد كان ابن الخطاب القائد العربي الأعلى في الشيشان كما أنه كان يتمتع بخبرة واسعة في حقل المعارك في ما يخص حروب الجهاد في أفغانستان وطاجكستان، وكان بعد بن لادن أشهر زعماء المجاهدين وأكثرهم شعبيّة في العالم الإسلامي. وقد تلا موته (استشهاده) شنّ هجمات أكثر خطورة وبراعة من أي وقت مضى.

وأخيراً، أودّ أن أؤكد من جديد أنني لا أربط بن لادن والقاعدة بالهجمات التي تقوم بها الجماعات الكشميريّة، والشيشانيّة، والإندونيسيّة أو أي جماعة أخرى. فقيادة القاعدة لتلك العمليات هي فكرة غير صحيحة. إلا أن الهجمات التي تشنّها تلك الجماعات تدل على أن دعوة بن لادن لجهاد عالمي، ربما تكون قد لقيت آذاناً صاغية. كما أن الهجمات ترفع منزلة بن لادن والقاعدة لأن الإعلام يميل غالباً إلى الإشارة إلى بن لادن على أنه قائدهم، أو مديرهم، أو المسؤول عن تمويلهم، أو ملهمهم.

الانتصارات التي حققتها الولايات المتحدة وحلفاؤها، 2001 - 2004

إن الانتصارات التي تم تسجيلها ضد القاعدة في الفترة الممتدة بين عامي 2001 - 2004 على يد الولايات المتحدة وحلفائها، هي انتصارات مذهلة فعلاً. كما أنها تعتمد في طبيعتها على التكتيك الحربي بشكل كامل، وتعتبر أقوى دليل على سيطرة عقليّة الشرطة – التي تعتمد أسلوب المطاردة، والاعتقال، ومن ثم السجن – على العمليات العسكريّة التي تقودها الولايات المتحدة. كما أنها تشير إلى مدى اعتماد أميركا والغرب على العمليات السرّية التي قامت بها الاستخبارات الأميركيّة. وبالرغم من الانتصارات العديدة التي حققتها الولايات المتحدة، فإنها لم تتمكن – كما ذكرت أعلاه – من وضع حدٍّ لنشاطات القاعدة أو التخفيف من

حدمّا التي بدأت منذ الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. وفي الحقيقة فإن هذا الأسلوب الذي يتميز بالمحدوديّة والجمود الذي تتبعه الحكومة الأميركيّة إن دل على شيء فهو يدل على أن المسؤولين الأميركيين لم يخطر في بالهم على الإطلاق أنهم يجب أن يقضوا على التهديد، الذي يتحدث عنه بن لادن ويجسده، بشكل نهائي قبل أن تتمرغ كرامة أميركا في الوحل أو تترف قواها حتى الموت بينما نرقص فرحاً احتفالاً بالانتصارات التي لم تعد علينا بأي فائدة حقيقيّة تذكر.

- 9 - 24 ديسمبر 2001: تقتحم الشرطة السنغافوريّة مقر إحدى خلايا الجماعة الإسلاميّة وتعتقل خمسة عشر رجلاً من الإسلاميين، أربعة عشر منهم سنغافوريين وواحد ماليزي. وقد كان ثلاثة عشر منهم من أعضاء الجماعة الإسلاميّة وتلقى ثمانية منهم تدريبات بدنيّة ودينيّة في ماليزيا وتدريبات عسكريّة في أفغانستان. كانت تلك الخليّة قد تشكلت عام 1997 وقد خططت ونفذت مذاك ست عمليات تفجير شاحنات استهدفت من خلالها أهدافاً عسكريّة وديبلوماسيّة، أميركيّة، وبريطانيّة، وإسرائيليّة، وأستراليّة بالإضافة إلى عمليات قامت بها ضد مصالح وأعمال يديرها رجال أعمال أميركيون.
- 14 ديسمبر 2001: تدخل القوات البحريّة الأميركيّة إلى مطار قندهار لتؤسس مقر قيادة قوات التحالف الذي تتزعمه الولايات المتحدة في عاصمة طالبان. تنهي تلك العمليّة أول معركة في الحرب الأفغانيّة لمصلحة قوات التحالف، وتكون النتيجة إجلاء طالبان والقاعدة عن المدن الأفغانيّة.
- 20 - 21 ديسمبر 2001: تم تسليم زعيمي فصيلة الجهاد الإسلامي المصري أحمد حسين عجيزة ومحمد ابراهيم الرازي من السويد إلى الحكومة المصريّة. مع العلم أن عجيزة كان قد لعب دوراً هاماً في ضرب السفارة المصريّة في باكستان عام 1995.
- 19 مارس 2002: تم اغتيال ابن الخطاب وهو زعيم الأفغان العرب في الشيشان، بواسطة رسالة مسممة. كانت السلطات الروسيّة قد حضّرت الرسالة وسلمتها إلى أحد الشيشانين الذين دسهم الروس. وقد كان ابن

خطاب قد شارك في حروب الجهاد في طاجكستان وأفغانستان. بالإضافة إلى أنه كان بطلاً شعبياً بالنسبة للإسلاميين وقد كان سعودياً واسمه الحقيقي سليم سويلم.

- 28 مارس 2002: تم اعتقال أبو زبيدة، أحد حلفاء القاعدة وذلك في فيصل أباد في باكستان. وهو فلسطيني الأصل يحمل الجنسيّة السعودية ويبلغ من العمر ثلاثين عاماً، كان أبو زبيدة رئيس التجنيد كما أنه كان يدير معسكر تدريب في أفغانستان. كان قد صدر بحقه حكم بالإعدام في الأردن بسبب دوره في المؤامرة التي خططت لها القاعدة في الألفيّة الجديدة لضرب أهداف أميركيّة وإسرائيليّة.
- أواخر مايو 2002: اعتقلت السلطات الأمنيّة المغربيّة خمسة من مقاتلي القاعدة يحملون الجنسيّة السعودية في الرباط والدار البيضاء لتخطيطهم لهجمات على سفن حربيّة أميركيّة وبريطانيّة في مضيق جبل طارق. وكان السعوديون قد أتوا إلى المغرب من أفغانستان بعد أن توقفوا في إيران وسوريا.
- 10 سبتمبر 2002: تم اعتقال رمزي بن الشبه في كراتشي. كان من المفترض أن يكون أحد الطيارين في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، لكنه لم يتمكن من الحصول على تأشيرة دخول إلى أميركا.
- 12 سبتمبر 2002: قتل زعيم القاعدة لمنطقة شمال وغرب أفريقيا عماد عبد الواحد أحمد علوان بيد الشرطة الجزائريّة في شرقي الجزائر. كان علوان يمني الجنسيّة وعمره سبعة وثلاثون عاماً وكان يعدّ مسؤول الارتباط بين القاعدة والجماعة السلفيّة للدعوة والقتال وهي جماعة جزائريّة إسلاميّة مسلحة.
- 13 - 15 سبتمبر 2002: اعتقل مكتب التحقيقات الفدراليّة سبعة رجال من أصول يمنيّة في بوفالو نيويورك بتهمة أنهم خليّة غير ناشطة من خلايا القاعدة. كانوا قد تلقوا تدريباً دينياً في باكستان وعسكرياً في أفغانستان.
- أواخر أكتوبر 2002: اعتقلت سلطات الأمن الإماراتيّة زعيم عمليات القاعدة في الخليج العربي عبد الرحيم الناشري، وهو مواطن سعودي من مواليد اليمن،

واتهم الناشري بالتخطيط لتدمير "أهداف اقتصاديّة حيويّة" في الإمارات. كما أنه ساهم في التخطيط لهجمات على سفن حربيّة بريطانيّة وأميركيّة في مضيق جبل طارق وسفن أميركيّة تابعة للأسطول الخامس في البحرين. كان الناشري خبيراً بالمتفجرات حارب إلى جانب بن لادن في أفغانستان، كما قاتل في حرب البوسنة ولعب دوراً هاماً في اعتداءات القاعدة في شرقي أفريقيا والاعتداءات التي استهدفت المدمرتين الأميركيتين سوليفانز وكول والهجمات التي ضربت الناقلة الفرنسيّة ليمبرغ.

- 3 نوفمبر 2002: فجّرت طائرة الاستخبارات الأميركيّة "المفترسة Preditor" التي تعمل دون طيار، سيارة كانت تقلّ ستة من أعضاء القاعدة قتلوا جميعاً من جراء ذلك، كان من بينهم زعيم القاعدة في اليمن القائد سنان الحارثي والمواطن الأميركي - وأحد أعضاء القاعدة - أحمد حجازي. بعد تلك العمليّة قال الرجل الثاني في تنظيم القاعدة أيمن الظواهري ما يلي: "عندما قتل الحارثي بصواريخ أميركيّة، كان ذلك بمثابة تحذير لنا بأن الأسلوب الإسرائيلي في قتل المجاهدين في فلسطين امتد إلى باقي البلاد العربيّة"[72].
- 5 - 23 يناير 2003: اعتقلت الشرطة البريطانيّة ثمانية رجال، ستة منهم كانوا جزائريين، وواحد إثيوبي، وآخر مغربي، وامرأة في لندن. وقد عثرت الشرطة على تجهيزات لمختبر كيميائي وآثار سم الريسين في أحد الشقق التي تم اقتحامها. وقد اشتبه البريطانيون أن تكون تلك الجماعة مرتبطة بالجزائريين الإسلاميين في فرنسا والقائد الإسلامي الأصولي أبي مصعب الزرقاوي المتحالف مع القاعدة.
- 12 - 15 فبراير 2003: اعتقلت هيئة الأمن القومي البحرينيّة أربعة بحرينيين متورطين مع القاعدة في التخطيط لهجمات إرهابيّة. كما أنها عثرت على أربعة بنادق من طراز AK-47 ومسدسين وذخيرة حربيّة و"مساحيق" كيميائيّة وإرشادات لصناعة القنابل مخزّنة على أسطوانة مدمجة.
- 13 فبراير 2003: اعتقلت شرطة كويتا محمد عبد الرحمن ابن الزعيم الروحي للجماعة الإسلاميّة عمر عبد الرحمن المعتقل. وقد كان بن لادن قد تولى

رعايته بعد اعتقال والده في الولايات المتحدة.

- 24 فبراير 2003: اعتقلت الشرطة الكويتيّة ثلاثة مواطنين كويتيين كانوا قد خططوا للهجوم على قوافل عسكريّة أميركيّة في الكويت. كانت إحداها في أفغانستان عام 2001، ويجدر بالذكر أن الثلاثة عبّروا عن تأييدهم لبن لادن بعد أن تم القبض عليهم.
- 1 مارس 2003: قتل زعيم الجماعة الإسلاميّة المصريّة عبد الستار المصري في مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين في لبنان. كان المصري واسمه الحقيقي محمد عبد الحميد شنوا خبير متفجرات ومقاتل أفغاني محنّك. كما كان زعيم القاعدة في المخيم، وقد قتل على يد الإسرائيليين أو أحد جواسيسهم الفلسطينيين.
- 1 مارس 2003: اعتقلت الشرطة الباكستانيّة قائد عمليات القاعدة الرئيس خالد شيخ محمد في عمليّة متميزة في روالبيندي. كما قامت الشرطة بمصادرة كومبيوتره، وهواتفه الخليويّة، وكافة ملفاته. كان محمد هو العقل المدبر لاعتداءات الحادي عشر من سبتمبر كما كان متورطاً في عمليات شرق أفريقيا والهجمات التي استهدفت المدمرة كول. كما شارك في التخطيط للعمليّة التي نظمها رمزي أحمد يوسف عام 1995 لتدمير الطائرات التي تسافر بشكل دوري عبر المحيط الهادي.
- 1 مارس 2003: اعتقلت الشرطة الباكستانيّة المسؤول المالي للقاعدة مصطفى أحمد الحساوي. كان الحساوي المسؤول عن تمويل منفذي هجمات الحادي عشر من سبتمبر عبر تحويلات بنكيّة.
- 15 مارس 2003: اعتقلت الشرطة الباكستانيّة المواطن المغربي ياسر الجازري الذي كان - بحسب ادعاءات المسؤولين الأميركيين - "مساعداً موثوقاً لأسامة بن لادن" كان الجازري مسؤولاً عن تسهيل الاتصالات بين زعماء القاعدة. وقد تم القبض عليه في حي فخم من أحياء لاهور.
- 29 أبريل 2003: اعتقلت الشرطة الباكستانيّة في كراتشي توفيق بن عطاش وعمار البلوشي ابن أخت خالد شيخ محمد. وبن عطاش هو مواطن سعودي من أصل يمني وهو صديق مقرّب لبن لادن وقد حارب معه في أفغانستان -

وقد بترت إحدى رجليه هناك – وقاد الهجوم على المدمرة الأميركيّة كول. أما البلوشي فقد كان مسؤولاً مالياً وكان قد أرسل حوالى 120 ألف دولار إلى محمد عطا قائد هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

- 6 مايو 2003: اقتحمت أجهزة الأمن السعودية أحد المنازل التي اتخذتها القاعدة كمخبأ لأعضائها في الرياض كان يقع بالقرب من مجمّع سكني للأجانب. لم يقم السعوديون باعتقال أي أحد، لكنهم عثروا على أكثر من أربعمئة كيلوغرام من المتفجرات، وخمس وخمسين قنبلة يدويّة، وعشرات البنادق وغيرها من الأسلحة بالإضافة إلى أقنعة وأدوات تنكر وألفين وخمسمئة مشط من الطلقات ومبلغ ثمانين ألف دولار. وبتعقب مصدر بعض الأسلحة التي عثر عليها، تبيّن أنها تعود إلى مخازن الحرس الوطني السعودي.
- 31 مايو 2003: قتلت الشرطة السعودية يوسف بن صالح العياري أكبر داعية للقاعدة، وألقت القبض على نائبه عبد الله بن إبراهيم عبد الله الشبراني. وقد تمت تلك الصدامات بالقرب من مدينة حائل، ونجم عنها مقتل ضابطين سعوديين وجرح ثلاثة آخرين. كان العياري يدير موقع "النداء" كما يقال إنه كان "الجندي المجهول" في القاعدة. وقد قال عنه المنفي هاني السباعي الذي يعيش في القاهرة وهو عضو في جماعة الجهاد الإسلامي المصري وخبير في قضايا الإسلام الأصولي: "كان العياري يدعو المسلمين إلى طريق الهداية الإسلاميّة لصالح القاعدة في منطقة الخليج العربي". كما أن العياري كان صديقاً مقرّباً لبن لادن وكان معه على نفس الطائرة عندما سافر زعيم القاعدة من أفغانستان إلى السودان عام 1991 [73].
- 12 يونيو 2003: قامت القوات الأميركيّة باقتحام وتدمير قاعدة للمجاهدين من غير العراقيين في رواح في العراق، وهي منطقة تبعد حوالى ستين كيلومتر عن الحدود السوريّة. وقد نجم عن هذه العمليّة مقتل أكثر من ثمانين مسلماً أجنبياً كانوا في العراق بهدف قتال قوات الاحتلال الأميركية. ومن بين القتلى كان هناك سعوديين، ويمنيين، وسوريين، وأفغان، وسودانيين.
- 12 أغسطس 2003: اعتقلت الشرطة التايلانديّة قائد عمليات الجهاد الإسلامي

نورجمان رضوان عصام الدين – المعروف أيضاً بلقب الحنبلي – في أيوتاهيا شمال بانكوك. وقد قال مسؤولون أميركيون إنه قد لعب "دوراً هاماً" في اعتداء بالي في أكتوبر 2002 وأنه كان "أكبر مخطط استراتيجي" للقاعدة في جنوب شرق آسيا. كان الحنبلي يعيش في المجتمع الإسلامي في فنوم فين في كمبوديا وذلك من سبتمبر 2002 لغاية مارس 2003، قبل أن ينتقل إلى تايلاند. كان الحنبلي ممن حاربوا السوفييت في أفغانستان كما عمل مع خالد شيخ محمد ورمزي يوسف، وقد كان من القلائل ممن هم من غير العرب في القاعدة الذين سمح لهم باتخاذ قرارات مستقلة عن باقي القادة.

- 20 سبتمبر 2003: اعتقل الأمن الباكستاني خمسة عشر طالباً يدرسون في معهد إسلامي في كراتشي – اثنان من ماليزيا، والثلاثة عشر الآخرين من إندونيسيا – بتهمة الانتماء إلى الجماعة الإسلاميّة وهي الجماعة الإندونيسيّة المسلحة المتحالفة مع القاعدة.
- 25 نوفمبر 2003: أعلنت السلطات اليمنيّة عن اعتقال أبو عاصم المكي وهو عضو بارز في تنظيم القاعدة في اليمن. كما أعلن اليمنيون عن اعتقال سابق لهادي دلقم أحد زعماء القاعدة.
- 15 و23 يناير 2004: اعتقلت السلطات الأميركيّة في العراق ناشطين في القاعدة وهما حسام اليمني وحسن غول. ويقال إن غول كان من أهم المساعدين لمخطط اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر خالد شيخ محمد.
- 15 مارس 2004: قتلت قوات الأمن السعودية ناشطين بارزين في القاعدة هما خالد علي علي حاج، وإبراهيم المزيني في الرياض عندما حاولا تجاوز حاجز أمني في الطريق العام. وقد عثر في سيارة المواطنين اليمنيين على ست قنابل يدويّة، وبندقيتين من طراز AK-47، وثلاثة مسدسات عيار 9 ملم، ومبلغ 137 ألف دولار.
- 31 مارس – 2 أبريل 2004: ألقي القبض على عشر مقاتلين إسلاميين في كندا وبريطانيا بعد تحقيقات طويلة قامت بها الشرطة، كانوا جميعاً من التابعية الباكستانيّة وآخرين ممن حصلوا على جنسيات كنديّة وبريطانيّة. كما

صادرت الشرطة البريطانيّة حوالى خمسمئة كيلوغرام من السماد الذي يصلح للاستخدام في صناعة القنابل. وقد أعلنت مصادر استخباراتيّة بريطانيّة للإعلام أن الثمانية الذين تم اعتقالهم في لندن كانوا على صلة بأعضاء القاعدة في باكستان.

- 4 أبريل 2004: حاصرت الشرطة الإسبانيّة ستة من أعضاء خليّة القاعدة التي قادت تفجيرات سكة الحديد في مدريد في الحادي عشر من مارس 2004. وقد فجّر المقاتلون الستة أنفسهم قبل أن تتمكن الشرطة من القبض عليهم. كان قائد عمليّة تفجير سكة الحديد التونسي سرحان عبد المجيد فاخت من بينهم. وقد تمكن الشرطة من العثور على حوالى أحد عشر كيلوغراماً من المتفجرات بحوزتهم مطابقة لتلك التي استخدمت في تفجيرات سكة الحديد.

انتصارات القاعدة، 2001 - 2003

إن هجمات القاعدة وحلفائها والدمار الذي خلفته بين الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 وأوائل عام 2004 هي أعظم بكثير من تلك التي نفذت في الفترة الممتدة ما بين 1994 و2001، وهي الفترة التي غطيتها في كتابي السابق *النظر من خلال عيون أعدائنا*[74] وبالإضافة إلى ذلك ثمة عدد من "الانتصارات" في القائمة اللاحقة، كانت عمليات قام بها آخرون لكنها كانت بالنتيجة لمصلحة القاعدة. ومنها غزو الولايات المتحدة واحتلالها لأفغانستان والعراق، وكذلك القرار الذي اتخذته بعض الصحف واليوميات العلميّة الغربيّة بمنع نشر أي مقالات قد تعود بالفائدة على الإسلاميين، وتأييد واشنطن المتكرر وبشكل علني لكل من روسيا، والصين، والهند في قمع الحركات الإسلاميّة المحلّيّة، بالإضافة إلى الاعتداءات التي استهدفت مواطنين أميركيين ومصالح تابعة للولايات المتحدة وحلفائها التي نفذها مسلمون من جماعات وأفراد لا تربطهم بالقاعدة أي علاقة في ما عدا إعجابهم ببن لادن.

ويظهر تعداد انتصارات القاعدة في القائمة اللاحقة أن هناك نقلة موضوعيّة في الجوّ الاستراتيجي العام لمصلحة منظمة بن لادن، والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها. فقد تمكنت القاعدة من النجاة بعد الهجوم الضاري الذي شنّته القوات العسكريّة

الأميركيّة عليها، واليوم عادت القاعدة لتنمو بقوة من الناحية العسكريّة على الأقل بمقياس نشاطها وتواتر عملياتها العسكريّة. والأهم من ذلك هو أن بن لادن قد خطا خطوات كبيرة – من خلال هجمات القاعدة والدعاية الإعلاميّة وتصريحاته – نحو تثبيت مشاعر الكراهيّة ضد الغرب لدى المسلمين وتوجيهها بشكل خاص نحو الولايات المتحدة. وهذا يدل على نجاح عمليات بن لادن التحريضيّة، ويظهر ذلك بشكل واضح في الهجمات التي ينفّذها أفراد وجماعات من المسلمين الذين لا ينتمون للقاعدة بأي شكل من الأشكال. وعلاوة على ذلك، فإن الأمر المثير للسخريّة فعلاً، هو أن العمليات التي تقوم بها الولايات المتحدة وحلفاؤها قد زادت من فعاليّة وتأثير الجهود التي تبذلها القاعدة للوصول إلى مساعيها، تاركة واشنطن تواجه موقفاً تمنى فيه بالهزيمة في كل مرة تكون فيه بحاجة لاتخاذ قرار يخص ما تطلق عليه خطأً "الحرب العالميّة على الإرهاب".

- 7 أكتوبر 2001: تقصف القوات الجوّيّة البريطانيّة والأميركيّة قواعد تابعة لطالبان في أفغانستان ممهدة بذلك لبدء الغزو الذي تقوده الولايات المتحدة، وحرب العصابات التي طالما أرادها بن لادن.
- 1 – 15 ديسمبر 2001: بعد مرور أسبوعين على القصف الجوّي الأميركي لقوات القاعدة في جبال تورابورا، لم يتمكن حلف الشمال من هزيمة القاعدة، وبن لادن، والظواهري بشكل كامل، ونجح مقاتلوهم في الهروب إلى باكستان. وقد علّق بن لادن على هذا الانتصار قائلاً: "**إذا لم تتمكن كل قوى الشر في العالم من تحقيق أهدافها ضد عدد قليل من المجاهدين في منطقة لا تتجاوز مساحتها ميلاً مربعاً واحداً... فكيف ستتمكن قوى الشرّ هذه أن تنتصر وتتغلب على العالم الإسلامي؟**"[75] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).
- 23 يناير 2002: تم اختطاف مراسل صحيفة *وال ستريت* *Wall Street Journal* دانييل بيرل في كراتشي وهو في طريقه للقاء الشيخ سعيد الجيلياني زعيم جماعة الفقراء، وهي جماعة تتمركز في باكستان وأميركا الشماليّة وهي مرتبطة بالقاعدة والجماعات الكشميريّة المسلحة. تم قطع رأس بيرل وعثر على بقايا جثته في مايو 2002.

- 27 فبراير – 2 مارس 2002: بعد أن قام مسلمون بإضرام النار في مقصورات قطار للركاب في جودرا في ولاية جوجارات الهنديّة مما أدى إلى مقتل ثمانية وخمسين هندوسياً وجرح أربعين منهم، ردّت عصابات هندوسيّة على تلك العمليّة بالتسبب بأحداث شغب في أحمد أباد مما نجم عنه مقتل حوالى ألفي شخص معظمهم من المسلمين. وقد أفادت التقارير التي وردت عن الحادثة أن الحكومة الهندوسيّة غضت نظرها عن عمليات القتل والتدمير التي جرت هناك. وقد أثبتت المشاهد التي بثتها القنوات التلفزيونيّة الفضائيّة في تغطية أعمال الشغب هناك من جديد لكافة المسلمين، صحة حجة بن لادن التي تقول إن الغرب لن يتدخل لوقف عمليات إبادة وقتل المسلمين.
- 3 – 18 مارس 2002: فشلت عمليّة عسكريّة أميركيّة في التوغل في منطقة شاهي كوت عندما تمكنت معظم قوات القاعدة من الهرب إلى باكستان. كما وقد ترددت القوات الأفغانيّة التي تعمل تحت إمرة الجيش الأميركي للمرة الثانية في القتال، مما أدى إلى مقتل ثمانية جنود أميركيين وإصابة مئة. وقد كان السبب في حدوث خسائر كبيرة هو فشل تلك القوات في كشف كمين كانت قوات القاعدة قد نصبته في منطقة هبوط المروحيات. زعمت التقديرات الأوليّة أن سبعمئة إلى ألف من مقاتلي القاعدة قد قتلوا في تلك الحادثة، لكن لم يتم العثور إلا على بضع عشرات من الجثث هناك.
- 17 مارس 2002: تسبب اعتداء على الكنيسة البروتستانتيّة العالميّة في الحيّ الديبلوماسي في إسلام أباد في مقتل خمسة أشخاص وإصابة ستة وأربعين بجروح. كان في عداد المصابين تسعة جرحى وقتيلين من الجنسية الأميركية. كان رواد الكنيسة من الديبلوماسيين الأجانب وعائلاتهم وغيرهم من المغتربين.
- 5 أبريل 2002: خرج أربعة آلاف رجل في سكاكا في منطقة الجوف في السعودية في مظاهرة احتجاجاً على دعم الرياض ....
على إثرها، تم إرسال خمسمئة عنصر من عناصر مكافحة الشغب للسيطرة على المنطقة.
- 11 أبريل 2002: قام أحد مقاتلي القاعدة بتفجير شاحنة اقتحمت كنيساً

يهودياً في جزيرة جربا التونسيّة، مما تسبب في مقتل أربعة عشر سائحاً ألمانيـاً وسبعة آخرين. وقد جاء في تصريح عن القاعدة بعد تنفيذ العمليّة: "لقـد تم استهداف الكنيس اليهودي في قرية جربا بجهود رجل واحد فقط، البطل نزار (سيف الدين التونسي)... وقد اتبع في هذا الهجوم نفس الأسلوب والمنـهج الذي يطبع الجهاد المقدس في الدفاع عن المقدسات الإسلاميّة في دعم جهـاد إخواننا المسلمين في كافة أنحاء العالم"[76].

- 17 – 18 أبريل 2002: في السابع عشر من أبريل قتل المقاتلون الشيشـانيون ستة جنود روس في نوفيه أتاجي وهي قرية تقع على بعد عشرة أميال جنـوب شرق غروزني. وفي الثامن عشر من أبريل قام هؤلاء المقاتلون بتفجير مـنجم يقع في الطريق إلى غروزني مما أدى إلى مقتل سبعة عشر عـاملاً يعملـون في قطاع الخدمات الروسي.
- 8 مايو 2002: تم دفع سيارة مفخخة في طريق باص صغير في كراتشي كـان يقلّ فنيين بحريين فرنسيين يعملون في سلاح البحريّة الباكستانيّة. قتل من جـراء التصادم أحد عشر فرنسياً وجرح اثنا عشر كما قتل باكستاني واحد وجرح اثنـا عشر أيضاً. وقد قالت القاعدة حول تلك الحادثة: "إن العمليّـة المسـلحة الـتي استهدفت الفنيين العسكريين الفرنسيين أظهرت ضعف هذا النظام [الباكسـتاني] وأثبتت أن البنيان الذي أقامه النظام قد بدأ يتداعى كورق اللعب"[77].
- 17 يونيو 2002: انفجرت سيارة كان بداخلها قنبلة خارج مـبنى القنصـليّة الأميركيّة في كراتشي نجم عنه مقتل أحد عشر شخصاً وإصابة أكثر من أربعين شخصاً بجروح.
- 4 يوليو 2002: قتل المصري هشام محمد علي هداية مـواطنين أميركـيين في المكان المخصص لشركة الطيران الإسرائيليّة "العال" في مطار لوس أنجلـوس ثم قتل على يد موظفي أمن العال.
- 13 يوليو 2002: ألقيت رمانات (قنابل يدويّة) على موقع تنقيب أثري يقـع بالقرب من مانشيرا في باكستان مما أدى إلى إصابة سبعة ألمان ونمساوي، وآخر سلوفاكي.

- 5 أغسطس 2002: اقتحم إسلاميون مسلحون مدرسة مسيحيّة يرتادها أطفال عمال الإغاثة الأجانب في شمال غرب إسلام أباد. وقد أسفر ذلك عن مقتل ستة موظفين ممن يعملون هناك.
- 10 أغسطس 2002: تم تفجير كنيسة في تاكسيلا في باكستان ما أدى إلى مقتل خمسة أشخاص من ضمنهم ثلاث ممرضات وإصابة خمسة وعشرين آخرين بجروح.
- 19 أغسطس 2002: تقوم عصابات شيشانيّة بإسقاط مروحيّة روسيّة من طراز MI-26 باستخدام صاروخ STRELA أرض – جو ونجم عن هذه العمليّة مقتل مئة وثمانية عشر شخصاً وإصابة تسعة وعشرين بجروح.
- 27 أغسطس 2002: أعلن وكيل وزارة الخارجيّة الأميركيّة ريتشارد أرميتاج في بكين دعم بلاده وتأييدها للعمليات العسكريّة الصينيّة ضد الانفصاليين (ويغور) في غرب الصين وقال إن الولايات المتحدة وافقت على أن الويغور قد "قاموا بنشاطات إرهابيّة" كما أضاف قسم الشؤون الخارجيّة في واشنطن الحركة الإسلاميّة التركستانيّة الشرقيّة إلى قائمة المنظمات الإرهابيّة.
- 6 أكتوبر 2002: أبحر مجاهد انتحاري تابع لبن لادن بقارب مملوء بالمتفجرات باتجاه الناقلة الفرنسيّة ليمبورغ التي تزن 290000 طن بعيداً عن ميناء عدن. كانت الناقلة تحمل 397000 برميل نفط خام سعودي متوجهة نحو ماليزيا. وقد تبنت القاعدة تلك العمليّة وأعلنت: "إن تلك العمليّة هي تحذير لفرنسا وللنظام العميل الخائن في اليمن الذي بذل كل ما بوسعه... لمطاردة، وتعقب، واعتقال الشباب المجاهد المسلم في اليمن". كان هذا الاعتداء ثاني نجاحات القاعدة في الجهاد البحري كما كان يهدف "لإيقاف سرقة ثروة المسلمين (أي النفط) الذي لا يدفع مقابله أي مبلغ يذكر"[78].
- 8 أكتوبر 2002: قتل إسلاميان مسلحان جندياً من سلاح البحريّة الأميركيّة وجرحا آخر في جزيرة فيلكة الكويتيّة. قتل الإسلاميان بعد ذلك. وقد تبنت القاعدة العمليّة وأعلنت "أن هذا الهجوم كان ضرورياً وهاماً في هذه المرحلة"

وقالت للأميركيين "إن طريقكم إلى العراق وبلاد المسلمين الأخرى لن تكون بالسهولة التي تتخيلونها وتتمنونها"[79].

- 12 أكتوبر 2002: قامت الجماعة الإسلاميّة في إندونيسيا المرتبطة بشكل مباشر مع القاعدة بتفجير انتحاري لسيارة عند نادٍ ليلي في بالي مما أدى إلى مقتل أكثر من مئة شخص نصفهم من الأستراليين. وقد قال أحد مقاتلي الجماعة الإسلاميّة ويدعى أمورزي وهو الذي كان مسؤولاً عن العمليّة بعد انتهائها: "إنني أشعر بالفخر لقيادة هذه العمليّة، فالبيض يعرفون تماماً كيف يتم القضاء على الدين من خلال أكثر الأساليب مكراً، وذلك بإقامة الحانات وأوكار القمار"[80].
- 23 – 26 أكتوبر 2002: حاصر إسلاميون شيشان مسرحاً في موسكو واحتجزوا أكثر من ثمانمئة شخص كرهائن لثمانية وخمسين ساعة قبل أن تستعيد القوات الروسيّة سيطرتها على المكان. وقد نجم عن هذه العمليّة مقتل أكثر من أربعين مقاتلاً شيشانياً ومن ضمنهم عدة مقاتلات. كما قتل 129 من الحضور من جراء استخدام وحدات الأمن للغاز قبل اقتحامها المسرح. وقد علقت القاعدة على تلك العمليّة مهنئة الشيشانيين: "كانت تلك عمليّة جريئة للغاية حققت هدفاً صعباً... وقد أظهر المجاهدون بكل وضوح قدرتهم على ضرب العدو في عقر داره متى شاؤوا"[81].
- 28 أكتوبر 2002: قام مهاجمان – أحدهم ليبي والآخر أردني – بقتل الديبلوماسي الأميركي لورنس فولي في منزله في عمّان – الأردن. كان فولي يعمل في السفارة الأميركيّة. وقد يكون المهاجمان من جماعة الزرقاوي المرتبطة بالقاعدة والجماعة العراقيّة التي تدعى أنصار الإسلام.
- 20 نوفمبر 2002: أيد الرئيس بوش الطريقة التي تعاملت بها روسيا مع حادثة اقتحام المقاتلين الشيشان للمسرح في موسكو في أكتوبر 2002 حيث ذكر إن موضوع الشيشان "هو أمر روسي داخلي..." ووصف الشيشانيين على أنهم "المجرمون الذين قدموا إلى أميركا"، كما قال إن على بوتن "أن يبذل كل ما بوسعه لحماية شعبه"، وأدان أولئك الذين "حاولوا إلقاء اللوم على فلاديمير.

فالأحرى بهم أن يلوموا الإرهابيين. فهم الذين تسببوا بذاك الوضع لا الرئيس بوتن". وقد أدانت القاعدة واشنطن وحلفائها لسماحهم لروسيا "بتصفية حساباتها مع الشيشان بتلك الطريقة الوحشيّة"[82].

- 20 نوفمبر 2002: قتلت الممرضة الأميركيّة بوني بينر ويذرول في كنيسة في صيدا – لبنان. كانت بينر ناشطة في مجال تشجيع المسلمين الشباب على ترك الإسلام واعتناق المسيحيّة. وقد تم تحذير بينر باستمرار لتتوقف عما تفعله لكنها لم تستمع لتلك التحذيرات، وقد علّق الشيخ ماهر حمود من صيدا على ما حدث قائلاً: "لقد حصلت تلك الجريمة بسبب الغضب الشديد والحنق بين أفراد الشعب على أميركا... ونحن لا ندينها"[83].
- 20 – 23 نوفمبر 2002: حدث شغب تسبب به المسلمين في كادونا في نيجيريا أسفر عن مقتل 220 شخصاً، وإصابة ألف وخمسمئة بجروح، وتشريد ستة آلاف عائلة، وتدمير ست عشرة كنيسة، وتسعة مساجد. وقد أشعل فتيل أحداث العنف التي تسببت بتلك الكارثة تعليق أحد المراسلين "المهين" أنه لو كان النبي حياً اليوم لكان قد أراد لنفسه زوجة من النساء المتسابقات لنيل لقب أجمل امرأة في العالم التي كانت ستقام في كادونا. وقد تم نقل فعاليات تلك المسابقة إثر أحداث العنف هذه إلى المملكة المتحدة. وقد قال القادة المسلمون إن تلك المسابقة هي "مهرجان للعري" كما انتقدوا الحكومة لموافقتها على استضافة مسابقة ملكة جمال العالم في رمضان.
- 21 نوفمبر 2002: قام شرطي كويتي بإصابة جنديين أميركيين بجروح بعد أن أوقف سيارتهما. هرب الشرطي بعد تلك الحادثة إلى السعودية لكنه أعيد إلى بلاده.
- 28 نوفمبر 2002: شنّت القاعدة اعتداءات على مصالح إسرائيليّة في مومباسا، كينيا حيث إنها استخدمت سيارة مفخخة في تفجير فندق بارادايس الذي تمتلكه شركة إسرائيليّة، كما أنها أطلقت صاروخ أرض – جو على طائرة بوينغ 757 تمتلكها شركة نقل جوي إسرائيليّة أيضاً. وقد أسفرت هذه العمليّة عن مقتل اثني عشر كينياً وثلاثة إسرائيليين في الفندق وأصيب أربعون آخرون

بجروح. أما الصاروخ فقد أخطأ الطائرة التي كانت تقل 261 راكباً إسرائيلياً. وأوضح موقع الأنصار: "**أن الرسالة التي وجهتها القاعدة من وراء تلك الهجمات هي أنها ستطارد دوماً الأهداف الصهيونيّة في كل أنحاء العالم...**"[84] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

- 27 ديسمبر 2002: قتل المدعو أحمد علي جار الله رئيس الحزب الاشتراكي اليمني. وعندما ألقي القبض عليه أعلن أنه قتل الرجل لأنه كان "كافراً بالدين" وقال: "لست بنادم على ما فعلت لأنني أسعى لدخول الجنة. وأتمنى لو أن لديّ قنبلة ذريّة لأفجّر وأحرق كل كافر ومرتد"[85].
- 27 ديسمبر 2002: قاد مقاتلون شيشان في غروزني سيارات مفخخة إلى داخل مقر النظام الذي تدعمه روسيا ومركز للاتصالات. وقد نجم عن هذه العمليّة مقتل أكثر من ستين شخصاً وإصابة أكثر من مئة بجروح.
- 30 ديسمبر 2002: قام مقاتلون إسلاميون بالاعتداء على مشفى جبلة جنوبي اليمن قتل ثلاثة أميركيين يعملون في الحقل الطبي وأصيب آخر بجروح. كانت تدير المشفى ومنذ خمسة وثلاثين عاماً بعثات تبشيريّة تابعة للكنيسة المعمدانيّة الجنوبيّة من الولايات المتحدة. وقد علّق المسؤولون اليمنيون على تلك الحادثة لاحقاً بقولهم إنه قد تم الاعتداء على المنشأة لأنها كانت تدعو المسلمين لاعتناق الدين المسيحي.
- 21 يناير 2003: قتل مقاول مدني أميركي يعمل لدى الجيش الأميركي وجرح آخر في كمين نصبه لسيارتهما عامل خدمات مدنيّة يدعى سامي المطيري على طريق سفر في الكويت بالقرب من قطر. وقد هرب المطيري إلى السعودية إثر تلك العمليّة، إلا أنه اعتقل هناك وأعادته السلطات السعودية إلى بلده. وقد أخبر المطيري المسؤولين الكويتيين أن هذا الهجوم كان "هدية لأسامة بن لادن".
- 16 فبراير 2003: أعلنت مجموعة تتألف من اثنين وثلاثين محرراً يمثلون أهم المجلات والصحف العلميّة في العالم، إنهم سيقومون بمحو وإلغاء كافة التفاصيل من الدراسات التي سيتم نشرها إذا كانت ستقدم أي مساعدة للإرهابيين في

تطوير أسلحة بيولوجيّة. كما قال المحررون أنهم سيفرضون "رقابة على المعلومات العلميّة" واعترفوا أن هذا قد يؤخر الاكتشافات العلميّة في العلوم الأساسيّة والهندسة. ومن بين تلك المجلات العلم (*Science*) والطبيعة (*Nature*) – لانسيت (*The Lancet*) ومجلة نيو إنغلاند الطبيّة (*The New England Journal of Medicine*) وسجلات الأكاديميّة الوطنيّة للعلوم (*The Proceedings of the National Academy of Sciences*).

- 17 فبراير 2003: نصب إسلاميون كميناً تسبب بمقتل الدكتور حامد بن عبد الرحمن الوردي، الذي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة، نائب حاكم منطقة الجوف في السعودية. كان الوردي يدعو السياسيين إلى اجتماعات تحضرها نساء وبذلك يكون، بحسب رأي موقع إيلاف الإسلامي، قد "أثار غضب أهل منطقة الجوف المعروفين بصلابة مواقفهم في ما يتعلق بقضايا الشرف"[86].
- 20 فبراير 2003: قتل روبرت دنت، وهو موظف بريطاني في هيئة الأرصاد الجوّيّة، حيث تم إطلاق النار عليه حتى الموت عند إشارة ضوئيّة في الرياض. وقد قامت الشرطة السعودية باعتقال منفذ الهجوم، وهو يمني المولد سعودي الجنسيّة ويدعى سعود بن علي بن ناصر، واشتبهت بأن يكون مرتبطاً بالقاعدة.
- 21 فبراير 2003: تم تسليم مظاريف تحتوي على السيانيد إلى السفارة الأميركيّة والبعثات الديبلوماسيّة العليا الأستراليّة والبريطانيّة في ويلينغتون، نيوزيلندا. وقد جاء في الرسالة: "إن هدفنا هو تحدي الأفعال التي تقوم بها أميركا الشيطانيّة، ومقاومة طموحاتها الإمبرياليّة في العالم الإسلامي"[87].
- 28 فبراير 2003: هاجم إسلاميون عناصر من الشرطة الباكستانيّة كانوا يقومون بحراسة القنصليّة الأميركيّة في كراتشي، مما أسفر عن مقتل اثنين منهم وإصابة خمسة آخرين بجروح. وقد ادّعى مسؤولون باكستانيون أن "عناصر الشرطة كانوا هدفاً صبّ عليه الإسلاميون غضبهم لأنهم كانوا يحمون الأميركيين"[88].

- 18 مارس 2003: أطلق إسلامي يمني النار على أربعة موظفين في شركة هنت النفطيّة في منطقة السفير شمالي اليمن مما أدى إلى مقتل رجل أميركي، وآخر يمني، وثالث كندي، كما أصيب رجل كندي بجروح. وقد انتحر منفذ الهجوم إثر انتهاء العمليّة.
- 20 مارس 2003: قامت قوات التحالف الذي تتزعمه أميركا بغزو العراق. "لا بد أن بن لادن الآن يضحك في كهفه أو في قبره... فالأمر الذي كان مستحيل الحدوث قبل ثمانية عشر شهراً قد حدث اليوم. فقد أبعدت الولايات المتحدة عنها كل من كان أملها الأخير في العالم الإسلامي". هذا ما كتبه جرجس فواز في صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*. وقد حيّت القاعدة هذه الحرب حيث إنه بوجود قوات أميركيّة في أفغانستان وعدد آخر من تلك القوات في شبه الجزيرة العربيّة، والعراق فإن "العدو قد انتشر الآن وأصبح في متناول اليد ومن السهل استهدافه"[89].
- 25 مارس 2003: تم إطلاق النار على ضابطين من الأمن السعودي في منطقة الجوف، مما أسفر عن مقتل أحدهما وإصابة الآخر بجروح.
- 11 أبريل 2003: تمكن عشرة مقاتلين من القاعدة من الهروب من سجن يمني كانت عليه حراسة مشددة. وكانوا جميعاً متهمين في تفجير المدمرة الأميركيّة كول الذي حدث في أكتوبر عام 2000 ويعتقد أن اثنين منهم كانا مسؤولين عن قيادة ذلك الاعتداء، وهما جمال البدوي وفهد القاصا.
- 1 مايو - 1 يونيو 2003: هاجم مسلحون شيشان القوات الروسيّة وذلك بواسطة نصب الأفخاخ وتفجير المناجم في بعض الأحيان. وفي هذه الفترة قتل اثنان وثلاثون من أفراد الجيش الروسي وموظفي الأمن وجرح ثمانية، ودمرت تسعة وعشرين شاحنة، وسيارة، وآلية مصفحة أيضاً وقد قام خبراء بالألغام من الروس بتعطيل 120 جهاز تفجير - بما فيها أربعة وعشرون لغماً أرضياً - بين 26 مايو و1 يونيو.
- 12 مايو 2003: صدم انتحاريون شيشان بناءً مؤلفاً من طابقين في مدينة زنامنسكويه، بشاحنة كانت تحتوي على طن من المادة المتفجرة TNT مما أسفر

عن مقتل تسعة وخمسين شخصاً وإصابة مئة وسبعة وتسعين بجروح. ويجدر بالذكر أن البناء كان يشغله مسؤولون في الحكومة الشيشانية المدعومة من الروس، بالإضافة إلى مسؤولين في هيئة الأمن الروسيّة.

- 12 مايو 2003: قاد انتحاريون تابعون للقاعدة سيارات تحتوي على قنابل ومواد متفجرة وهاجموا ثلاثة مجمعات سكنيّة للأجانب في الرياض، وقد كان بن لادن قد لّمح لتلك الهجمات في أواخر عام 2002 محذراً: "**إن شعب شبه الجزيرة... سيواجه أياماً عصيبة ومحن خطيرة جداً ستكون امتحاناً يختبر بها الله صبرهم وإيمانهم...**" (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وقد كانت الهجمات متزامنة، وخلّفت وراءها أربعة وثلاثين قتيلاً - تسعة منهم كانوا أميركيين - ومئتي جريح. كانت السيارات قد دخلت في عمق مجمّعين من الثلاثة قبل أن تنفجر مما يوحي بأن حرس المجمّعين قاموا بتسهيل دخولهم.
- 16 مايو 2003: قام خمسة عشر إسلامياً مقسّمين إلى خمسة فرق بضرب أهداف في الدار البيضاء، المغرب، من بينها مطعم إسباني، ومطعم إيطالي يملكه يهودي، ومقبرة يهوديّة، وفندق يملكه كويتي، ومركز اجتماعي يهودي. وقد كانت الهجمات شبه متزامنة تم فيها استخدام متفجرات بيتيّة الصنع شدت إلى أحزمة المعتدين. وقد قتل أربعة عشر من الإسلاميين الخمسة عشر، كما أسفرت العمليات عن مقتل ستة وأربعين شخصاً وإصابة حوالى مئة شخص بجروح. وقد أعلنت الشرطة المغربيّة أن المقاتلين كانوا ينتمون لجماعات إسلاميّة محليّة إلا أنهم كانوا قد تلقوا مبلغاً لتمويل العمليات من القاعدة وقدره خمسون ألف دولار.
- 5 يونيو 2003: فجّرت انتحاريّة شيشانيّة نفسها في باص بالقرب من مطار روسيا العسكري في موزدوك شمال أوستيا. أسفرت العمليّة عن مقتل عشرين من موظفي القوى الجويّة الروسيّة، وإصابة خمسة عشر آخرين بجروح. وموزدوك هي القاعدة الجويّة الرئيسة في شمال كوزاسوس لانطلاق الطائرات الحربيّة في رحلاتها الثابتة والدوارة المتوجهة إلى الشيشان في مهام حربيّة.

- 7 يونيو 2003: انفجرت سيارة أجرة بالقرب من باص تابع للجنود الألمان من القوات الدوليّة للإغاثة وتوطيد الأمن في كابل وأدى ذلك إلى مقتل أربعة وإصابة تسعة وعشرين بجروح.
- 5 يوليو 2003: فجّرت مقاتلتين انتحاريتين من الشيشان نفسيهما في حفلة موسيقيّة في مطار توشينو في موسكو، مما أسفر عن مقتل ستة عشر شخصاً وإصابة عشرين آخرين بجروح.
- 1 أغسطس 2003: قام مقاتلون شيشان بتفجير شاحنة، قادها انتحاريون في المشفى العسكري الروسي في موزدوك مما أدى إلى مقتل خمسين شخصاً وجرح ستة وأربعين، وتدمير المشفى.
- 5 أغسطس 2003: قام مقاتل انتحاري ينتمي إلى الجماعة الإسلاميّة بتفجير في فندق الماريوت في جاكرتا - وهو مكان معروف بشعبيته كمكان يلتقي فيه الأميركيون - مما أسفر عن وقوع عشرة قتلى ومئة واثنين وخمسين جريحاً. وقد قالت الشرطة الإندونيسيّة أنه كان من الممكن أن تكون هناك خسائر أكبر بكثير إلا أن سائق الشاحنة قام بالتفجير في وقت مبكر مما حدّ من نتائج الكارثة. وقد قال إمام سامودرا خلال محاكمته عن تفجيرات بالي: "أشعر بالسعادة... الحمد لله... فقد كان الهجوم على فندق الماريوت جزءاً من الحرب ضد أميركا. وسيستمر الانتقام ممن يقمعون المسلمين"[90].
- 7 أغسطس 2003: تم تفجير سيارة عند الجدار المحيط بالسفارة الأردنية في بغداد، مما أدى إلى إحداث فتحة في الجدار بطول ثلاثين قدماً وتدمير عدة أبنية. أسفر الاعتداء عن مقتل تسعة عشر شخصاً وإصابة خمسة وستين بجروح. واشتبه في الجماعة المرتبطة بالقاعدة وهي جماعة أنصار الإسلام على أنها هي التي نفذت العمليّة.
- 20 أغسطس 2003: اقتحمت شاحنة تحتوي على قنابل المقر الرئيسي للأمم المتحدة في فندق القنال في بغداد في عمليّة انتحاريّة أدت إلى مقتل ممثل الأمم المتحدة الخاص سيرجيو فييرا دي ميللو ومعه اثنين وعشرين آخرين، وإصابة أكثر من مئة شخص بجروح. وقد كتبت القاعدة في إعلانها عن تبني العمليّة:

"هذا المجرم سيرجيو فيرا دي ميللو... كان الصليبي الذي سلخ جزءاً من أرض الإسلام (تيمور الشرقيّة)"[91] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

- 25 أغسطس 2003: تم تفجير سيارتي أجرة مملوءتين بالمتفجرات الحربيّة RDX مع فارق زمني يقدر بخمس عشرة دقيقة في موقعين مختلفين في المدينة الهنديّة مومباي، مما أدى إلى وقوع ثلاثة وخمسين قتيلاً وأكثر من مئة وتسعين جريحاً. وقد اعتقلت الشرطة الهنديّة إثر العمليّة أربعة رجال قالت إنهم ينتمون إلى الجماعة الكشميريّة لاشكاره طيبة - وهي حليفة للقاعدة - كما أنهم مرتبطون بحركة الطلاب المسلمين الهنديّة. كما قال الهنود أن تلك الجماعات قد فجّرت قنابل في مومباي أيضاً في ديسمبر 2002، مما أدى إلى مصرع سبعة عشر شخصاً وإصابة مئة وتسعة وثمانين آخرين، وقد توقعوا أن يكون كلا الاعتداءين ردّاً انتقامياً على أحداث الشغب ضد المسلمين التي حدثت في ولاية جوجرات في مارس 2002.
- سبتمبر - أكتوبر 2003: قامت مصر بإطلاق سراح مئة وثلاثة عشر سجيناً من الإسلاميين كانوا قد قاربوا على إتمام محكومياتهم. وكذلك فعلت اليمن حيث أطلقت سراح ألف من الإسلاميين لأنهم ندموا على أفعالهم. ويجدر بالذكر أن العديد من اليمنيين المطلق سراحهم ينتمون للقاعدة وكل المصريين ينتمون إلى الجماعة الإسلاميّة. ويحاكي تحرير السجناء هذا نفس ما فعلته بعض الحكومات العربيّة عندما حررت الإسلاميين في بداية حرب الجهاد الأفغانية بشرط ذهابهم إلى أفغانستان للانضمام إلى المجاهدين هناك. وقد كتب فيكتور هانسن ديفيس عن ذلك أنه إذا عادت أحداث الماضي لتتكرر اليوم فإن الحكومات العربيّة ستستخدم نفس الوسيلة "لتصديرهم إلى العراق"[92].
- سبتمبر - أكتوبر 2003: أضعفت الأحداث السياسيّة من تأييد الرئيس الباكستاني مشرف للولايات المتحدة. فقد قام رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون بزيارة رسميّة للهند وقد أيد سياساتها في كشمير وباعها ثلاثة أنظمة

رادار من طراز فالكون مما سيسمح للهند بأن تتمتع برؤية أفضل داخل باكستان، "وقد منح ذلك الهند امتيازاً تفوقت به على باكستان" بحسب ما جاء في المجلة الأسبوعيّة *Jane's Defense*. وقد تصادفت تلك الزيارة مع الانتقاد الذي وجهته الولايات المتحدة لمشرف لسماحه للمقاتلين الكشميريين بدخول الهند، كما قامت الولايات المتحدة بتشكيل قوات خاصة مع الهند لتوطيد الأمن في كشمير. وقد ذكر أيمن الظواهري الرجل الثاني في القاعدة تلك الأحداث محذراً من صفقة الأسلحة و"**زيارة المجرم شارون... وأن ذلك يعدّ أول الغيث الذي يبدأ بقطرة. فهذا التحالف اليهودي الأميركي الهندي هدفه القضاء على المسلمين**"[93] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

- 11 سبتمبر 2003: أعلنت الجماعة السلفيّة للدعوة والقتال - وهي الحركة الإسلاميّة المسلحة الرئيسيّة في الجزائر - عن ولائها "لقيادة الملا عمر وتنظيم القاعدة الذي يتبع للشيخ أسامة بن لادن"، كما أعلنت عن نيتها للقيام بضرب مصالح أميركيّة. كانت هذه الجماعة منذ زمن طويل متعصبة للشأن الجزائري لذا فإن القرار الذي اتخذته في الانضمام والعمل تحت راية القاعدة وقيادتها وإعطاء الأولويّة للقيام بهجمات ضد الولايات المتحدة يعدّ إنجازاً ضخماً لبن لادن.
- 11 - 13 سبتمبر 2003: قتل يهودي مُسن في الدار البيضاء وآخر في مكناس. ونسبت الشرطة الاعتداءين إلى الجماعة السلفيّة الجهاديّة التي نسبت إليها تفجيرات الدار البيضاء التي حدثت في 16 مايو 2003.
- 7 أكتوبر 2003: أعلن حلف الناتو أنه سيقوم بنشر عدد أكبر من القوات في أفغانستان، وأنه سينشر تلك القوات وللمرة الأولى خارج كابل. وقد بدا ذلك بالنسبة للشعب الأفغاني وكأنه يعني توسع الاحتلال الغربي لبلادهم وإطالة أمده.
- 26 - 27 أكتوبر 2003: في السادس والعشرين من أكتوبر تعرض فندق الرشيد في بغداد - حيث المقر الرئيسي لقيادة سلطة الاحتلال الأميركي -

لقصف صاروخي أدى إلى مقتل جندي أميركي واحد وجرح سبعة عشر شخصاً. وفي السابع والعشرين من أكتوبر تم تفجير مقر اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر، وأربعة مراكز للشرطة في بغداد بواسطة سيارات مفخخة، وقد تم ذلك بفترة زمنيّة لا تتجاوز خمسة وأربعين دقيقة. وتم إنقاذ مركز شرطة خامس عندما قتل سائق سيارة أخرى كانت على وشك ضربه. وقد نسبت تلك الاعتداءات التي أدت إلى مقتل خمسة وثلاثين شخصاً وإصابة مئتين وأربع وعشرين بجروح، إلى مجاهدين أجانب.

- 9 نوفمبر 2003: تم تفجير مجمّع سكني في الرياض ويدعى المحيا، وقد أسفر ذلك عن مقتل ثمانية عشر شخصاً، وإصابة أكثر من مئتين بجروح. وقد كان معظم الضحايا من المغتربين المسلمين. وقد أصدرت القاعدة إثر تلك الحادثة بياناً نفت فيه مسؤوليتها عن العمليّة.
- 12 نوفمبر 2003: تم الاعتداء على مقر الشرطة العسكريّة الإيطاليّة في الناصريّة العراق بواسطة شاحنة تحمل قنابل متفجرة. وقد نجم عن تلك العمليّة مقتل ثمانية عشر موظفاً عسكرياً إيطالياً، وأحد عشر عراقياً وإصابة أكثر من مئة شخص بجروح.
- 15 نوفمبر 2003: تم الاعتداء على كنيسين يهوديين في إسطنبول باستخدام سيارات مفخخة يقودها انتحاريون. وقد نجم عن ذلك الهجوم مقتل ثلاثة وعشرين شخصاً وإصابة ثلاثمئة وثلاثة.
- 20 نوفمبر 2003: تم تفجير مبنى القنصليّة البريطانيّة ومبنى بنك HSBC في إسطنبول باستخدام شاحنة مفخخة، وقد أسفر هذا الهجوم عن مقتل سبعة وعشرين شخصاً وإصابة أربعمئة وخمسين على الأقل. أما في العراق فقد دمرت قنبلة يتم التحكم بها لاسلكياً آليّة عسكريّة بولونيّة، لكن لم يؤدِ ذلك إلى وقوع ضحايا. لكن ضابطاً بولونياً لقي مصرعه في السادس من الشهر نفسه على يد إسلاميين مسلحين.
- 30 نوفمبر 2003: قتل إسلاميون مسلحون سبعة ضباط استخبارات إسبان بالقرب من بغداد وديبلوماسيين يابانيين في تكريت. كما قتل ضابط

استخبارات إسباني آخر في بغداد في التاسع من أكتوبر 2003. وفي مارس 2003 كان مساعد في تنظيم القاعدة قد حذّر إسبانيا من الدخول في الحرب والذهاب إلى العراق. "**إن جرح احتلال الأندلس لم يندمل بعد، وقرار حكومتكم الذي يمثّل الصليبيين القدماء، المؤيد للغزوة الصليبيّة البروتستانتيّة الجديدة هو خطر حقيقي يتهدد سلامة كل إسباني...**"[94] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) هذا ما كتبه أحمد رأفت.

- 5 ديسمبر 2003: فجّرت مسلّحة شيشانيّة نفسها في قطار رحلات يوميّة بين المدن الروسيّة في منطقة ستافروبول بالقرب من الشيشان. وقد أدت العمليّة إلى مصرع اثنان وأربعين شخصاً على الأقل وإصابة أكثر من مئة بجروح.
- 14 و15 ديسمبر 2003: نجا الرئيس الباكستاني مشرف من محاولتي اغتيال بالقرب من إسلام أباد. ففي الرابع عشر من ديسمبر تم تفجير منجم يقع على طريق سفره، وفي الخامس والعشرين من ديسمبر هوجم موكبه بسيارتين مفخختين.
- 27 ديسمبر 2003: قتل محاربون إسلاميون في كربلاء العراق، أربعة جنود بلغار واثنين تايلانديين.
- 27 و28 يناير 2004: أدت عمليّة انتحاريّة باستخدام سيارات مفخخة في كابل إلى مقتل جندي كندي وآخر بريطاني، وإصابة ثلاثة جنود كنديين وأربعة بريطانيين بجروح.
- 1 فبراير 2004: فجّر مقاتلون إسلاميون نفسهم في العراق في مقر الحزبين السياسيين الكرديين الرئيسيين في إربيل، مما أسفر عن مقتل مئة وعشرة أشخاص، وإصابة حوالى مئتين وخمسين آخرين.
- 6 فبراير 2004: فجّر انتحاري شيشاني نفسه في أحد أنفاق القطارات في موسكو مما أدى إلى مصرع تسعة وثلاثين شخصاً وإصابة مئة وأربعة وثلاثين.
- 11 مارس 2004: فجّرت القاعدة في مدريد وبشكل شبه متزامن أربع قنابل

في أربعة قطارات مزدحمة للرحلات اليوميّة. مما أسفر عن مقتل مئة وواحد وتسعين شخصاً وإصابة أكثر من ألف ومئتين آخرين. وفي إعلان القاعدة عن تبني تلك الاعتداءات، وصفت العمليّة على أنها "**جزء من تصفية حساباتها القديمة مع إسبانيا الصليبيّة حليفة الولايات المتحدة في حربها ضد الإسلام**". (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) وبعد مرور عدة أيام على تلك العمليّة سقطت الحكومة الإسبانيّة المحافظة وهزمت شرّ هزيمة في انتخابات عامة، وأعلن رئيس الوزراء الاشتراكي الجديد حال توليه المنصب أنه سيسحب القوات الإسبانيّة من العراق.

- 15 مارس 2004: قَتَلَ مجاهدون إسلاميون عراقيون أربعة من أفراد البعثة التبشيريّة المعمدانيّة الجنوبيّة بالقرب من الموصل شمالي العراق. وبذلك فقد ارتفع عدد القتلى من أفراد البعثات التبشيريّة المعمدانيّة الجنوبيّة في أنحاء العالم الذين لقوا مصرعهم على يد الإسلاميين إلى ثمانية منذ العام 2003.
- 22 مارس 2004: قامت إسرائيل باغتيال الشيخ المقعد أحمد ياسين زعيم حركة حماس إثر خروجه من المسجد بعد أداء الصلاة. كان اغتيال ياسين خسارة كبيرة لحماس والحركة الإسلاميّة بشكل عام، لكن استشهاده سيزيد من تجنيد أعداد أكبر من الجماعات الإسلاميّة في شتى أنحاء العالم. كما أن الولايات المتحدة عززت نقمة الاسلاميين بسبب استشهاد ياسين باستخدامها لحق الفيتو لمنع صدور قرار من الأمم المتحدة بشجب الاعتداء الإسرائيلي وتجريم اغتيال ياسين، وذلك بالتأكيد على "حق إسرائيل بالدفاع عن نفسها ضد الإرهاب الذي تتعرض له".
- 28 – 31 مارس 2004: تم تفجير عدة قنابل على يد مقاتلين إسلاميين في العاصمة الأزبكيّة طشقند على مدى ثلاثة أيام. وقد نجم عن التفجيرات وإطلاق النار الذي تلاها مقتل ثلاثة وثلاثين من الإسلاميين، من بينهم سبع نساء مقاتلات، وأربعة عشر من الأزبك – من ضمنهم عشرة من رجال الشرطة – كما أصيب خمسة وثلاثون بجروح. وقد اشتبهت الحكومة الأزبكيّة في أن تكون الحركة الإسلاميّة هي المسؤولة عن الاعتداءات.

وأخيراً، نزيف هادئ ومستمر لم يؤخذ بعين الاعتبار...

في خضم الشعارات الرنانة، والموت الذي خلفته الحرب، ثمة عامل هام جداً غاب عن الأذهان، قد يشكّل العنصر الرئيسي لقوة القاعدة والتفوق الذي امتازت به ألا وهو نزيف الاقتصاد الأميركي. ففي أواخر العام 2002، كتب أبو عبيد القرشي مقالاً في موقع الأنصار تحت عنوان "درس في الحرب" تمحور حول نية القاعدة باتباع مبدأ كلوزويتز الذي يقوم على ضرب "مركز ثقل الخصم"[95]. حيث قال إن القاعدة ستركّز بكل ما أوتيت من إمكانات على معرفة تلك النقطة وستوجّه كل طاقاتها ضد مركز الثقل في الهجوم الكبير"[96]. وقد كتب القرشي أن القاعدة درست بدقة الانتصار الذي حققته فييتنام الشماليّة على الولايات المتحدة، ووجدت أن هانوي "فهمت تماماً أن مركز الثقل الأساسي لأميركا يكمن في الشعب الأميركي"، وعندما قتل الفييتناميون شعبها الغالي على قلبها... انتهت الحرب بانتصار الطرف الفييتنامي"[97]. لقد حفظت القاعدة هذا الدرس عن ظهر قلب مع إيمانها الكامل بأن مركز الثقل بالنسبة لأميركا اليوم هو اقتصادها.

> هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإننا نرى أن الله قد منّ على المجاهدين بفهم العدو الأميركي قلباً وقالباً، بحيث تمكنوا من معرفة وتحديد مركز ثقله. وقد تشكلت قناعة كاملة لدى المجاهدين أن الرأي العام الأميركي ليس له وزن عند أميركا. فقد تمكن اللوبي الصهيوني بالتعاون مع الأجهزة الأمنيّة من كبح جماح كافة وسائل الإعلام التي تتحكم بصنع الرأي العام في أميركا. لكن هذه المرّة من الواضح أن الاقتصاد الأميركي هو مركز الثقل الأميركي. هذا ما قاله الشيخ أسامة بن لادن بكل وضوح. ومما يدعم هذه الرؤية الاستراتيجيّة أن الولايات المتحدة التي في حقيقتها ليست "متحدة" هي عبارة عن خليط من الجنسيات والمجموعات الإثنيّة والعرقيّة التي لا يوحدها إلا "الحلم الأميركي" أو بكلمات أصح عبادة الدولار الذي يسمونه علناً "الدولار العظيم". أستغفر الله العظيم عما يدعون! وعلاوة على ذلك، فإن الجهود الحربيّة التي تبذلها أميركا تعتمد بالكامل على ضخ ثروات هائلة في كل الأوقات، حيث إن المال كما قيل يوماً هو عصب الحرب[98].

وإذا تركنا اللغط حول الصهاينة والمؤامرات، فإن حديث القرشي حول نوايا القاعدة يبدو على شيء من الواقعية. حيث إن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر قد دمّرت بالفعل الاقتصاد الأميركي، فهو لم يبدأ بالتعافي من آثار تلك العمليّة إلا الآن في بداية العام 2004. حيث إن نفقات هائلة تلت الأثر المباشر لتلك الضربات - على كافة أصعدة الحكومة الأميركيّة - ستؤثر إلى الأبد في حجم ومصاريف الحكومة. فبالإضافة إلى تكلفة استخدام آلاف من الموظفين الفدراليين لأغراض الأمن الوطني والحصول على مبانٍ، وعدة، وتدريب خاص بهدف إعدادهم لهذه المهمة ليقوموا بالأداء الأمثل وما يتطلبه ذلك من ترقيات كبيرة على مستوى الحكومة والمجالس المحليّة والوطنيّة، لا بد وأن تكون هناك مبالغ طائلة مما يمكن أن تسمى بالمصاريف غير المتوقعة التي لم يحسب لها حساب لأوقات العمل الإضافيّة - في القطاعين الخاص والحكومي على حدٍّ سواء - في أي وقت تطلق فيه واشنطن تحذيراً بخطر قادم يتهدد الأمن، أو عندما يتم توفير مستويات عليا من الأمن في الأماكن العامة، أو الحفلات الرسميّة، والمناسبات التي لم تعتبر في السابق في دائرة الخطر. وكذلك الحال بالنسبة للقاعدة فهي اليوم تقوم بصرف أموال طائلة لأغراض دفاعيّة، والتكاليف هذه آخذة بالازدياد، حيث إن المسؤولين الأميركيين أدركوا أن جيشهم لا يتمتع بالتنظيم، والعدد، والعتاد، والتدريب اللازم لخوض هذا النوع من الحروب التي تدور رحاها في أفغانستان والعراق. وأخيراً لا بد وأن التخطيط الاقتصادي الذي تقوم به الحكومة والقطاع الخاص يواجه صعوبات جمة في تحديد المصاريف، نظراً للتهديدات بحدوث هجمات يتم فيها استخدام أسلحة دمار شامل في الولايات المتحدة، والتكاليف الضخمة من الناحية الماليّة والأدواتيّة والبشريّة اللازمة للدخول في عدة حروب تتجه من سيئ إلى أسوأ، إن حجم الخسائر التي تتعرض لها الأعمال بشكل عام بسبب الاستدعاء المستمر للجنود الاحتياطيين الذين يعملون أصلاً كموظفين - وخاصة في قطاعي النقل والسياحة - كبير جداً. فالهجوم الذي شنّته القاعدة دون اللجوء إلى استخدام القنابل المثيرة للضجة المزعجة قد استمر إلى ما بعد الحادي عشر من سبتمبر في ضرب مركز

ثقل الولايات المتحدة. كما أن القاعدة دون أن تكرّر أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد تسببت بنفقات هائلة وغير متوقعة، معظمها سيقوم بالتركيز على الميزانيات المخصصة لكافة المستويات الحكوميّة. "**إن وضع حدّ لنمو الاقتصاد الأميركي ليس بالحلم المستحيل**"[99] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). هذا ما كتبه القرشي في الأنصار، وقد يكون صحيحاً...

4

ما هي صورة بن لادن في عيون العالم: هل هو بنظرهم قائد وبطل مسلم ظهر على الساحة العالميّة؟

ظل صلاح الدين حتى يومنا هذا أهم بطل في العالم الإسلامي. حيث إنه وحّد العرب، وهزم الصليبيين في معارك بطوليّة، كما أنه استعاد القدس، وحرّرها، وطرد الغزاة الأوروبيين من الأراضي العربيّة شرّ طردة. وفي خضم صراع العرب اللانهائي في العصر الحديث للتأكيد على الهوية العربيّة الأصليّة لفلسطين، يعيش صلاح الدين حياً في قلوبهم وأذهانهم كرمز للأمل وكمادة أقرب ما تكون إلى الأسطورة. حيث إنه يمكن للمرء بكل سهولة أن يخوض في نقاشات طويلة حول صلاح الدين في دمشق، أو القاهرة، وفي عمان، أو القدس الشرقيّة لأن هذه الذكريات القديمة تمس مشاعر العرب وتمثل أيديولوجيتهم التحريريّة.

جيمس آر. ريستون الابن، 2001[1].

إذا كنت تريد أن تشنّ حرباً هجوميّة فيجب عليك أن تعرف كل شيء عن الرجال الذين يستخدمهم العدو. هل هم أذكياء أم أغبياء وهل هم بارعون أم خرقى؟ وعندما تعرف صفاتهم بالشكل المطلوب، عندئذ يمكنك الاستعداد لاتخاذ الإجراءات المناسبة.

سن تزو[2].

إذا نظرنا إلى بن لادن من أي زاوية، يمكننا أن نرى أنه إنسان عظيم، فقد تمكن من سحق السلام المتوقع الذي بدأ يظهر على الساحة العالميّة بعد انتهاء الحرب الباردة. وكما كتب آندرو باسيفيتش وسيباستيان مالبي في مجلة ويلسون

التي تصدر كل ثلاثة أشهر، "لقد كشفت اعتداءات نيويورك وواشنطن أن رحلة الوصول إلى السلام لا تزال طويلة وبعيدة"، إلا أنه حتى مع حدوث تلك الاعتداءات فإن القادة السياسيين الأميركيين لم يتأملوا للحظة أو يفكروا في السبب الحقيقي وراء تلك الهجمات"[3]. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر قدّم الدكتور بروس هوفمان تقييماً دقيقاً لتأثير بن لادن حيث كتب: "إن بن لادن هو أحد القلائل الذين يمكنهم أن يدّعوا أنهم غيّروا مجرى التاريخ".

> في زمنٍ تجرد من القيادات الإيديولوجيّة، نتيجة لانتشار فكرة أن القوتين المجردتين – وهما العولمة والحتميّة – قد محتا قدرة الفرد على التأثير بمسار التاريخ، ضرب بن لادن – بالرغم من كل الصعوبات التي اعترضته – بعرض الحائط كبرياء الولايات المتحدة، وضربها في الصميم حتى قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. فتركيبته الفعّالة التي تجمع بين الحماسة الدينيّة، والإخلاص للإسلام، وإحساس عميق بالظلم تصبّ في قوة أيديولوجيّة عظيمة، مع أنها بغيضة ومدمرة، إلا أنها كانت أساس تحقيقه لإنجازات ضخمة. وقد قام بن لادن بطريقته المتفردة الاستثنائيّة بقولبة صراعه على شكل "صدام حضارات" وهذا ما عملت أميركا وشركائها في التحالف جاهدين على نفيه وإنكاره[4].

والآن قبل أن تجتاح مشاعر الغضب كل القرّاء فإن كلمة عظيم هنا – على الأقل بنظري – لا تعني جيد، أو إيجابي، أو قيّم، أو أي صفة يمكنها أن تكتب في سياق مدح بن لادن أو أفعاله. إلا أن تلك هي رؤية رجل واحد، ومن الواضح أن هناك عشرات الملايين من المسلمين ينظرون إلى بن لادن على أنه رجل عظيم، وفي الوقت ذاته جدير بكل المعاني الإيجابيّة التي يمكن أن تحملها صفة "العظمة". وبعكس صدام حسين الذي يكرهه المسلمون بسبب وحشيته وسلوكه اللاإسلامي، لكنهم يحيون فيه بصقه في وجه أميركا، فإن بن لادن بالنسبة لملايين المسلمين بطل إسلامي وذلك لدفاعه المستميت عن الإسلام، وورعه، وبطولاته، واستقامته وكرمه، كل تلك الصفات تجعل منه قدوة ومثالاً للإيمان مما يجعله في الأذهان صلاح الدين العصر الحديث لجهة اصراره وتصميمه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين. كما أن من المنطقي أن نتوقع أن ثمة ملايين من غير المسلمين المعارضين لسياسة الولايات المتحدة الخارجيّة أو البيئيّة أو الماليّة، أو من معارضي العولمة،

يحيون بن لادن ببساطة لأنه يتحدى الولايات المتحدة بتصريحاته، ويطبق تهديداته في الاعتداء على مواطنيها ومصالحها.

وخلاصة القول، إن بن لادن هو أكثر الزعماء المعارضين لأميركا شعبيّة في العالم اليوم. واسمه يعتبر أسطورة من هيوستن إلى زنجبار وجاكرتا، ووجهه وأقواله يغطيان القمصان، والأسطوانات المدمجة، وأشرطة التسجيل، والفيديو، والملصقات الجداريّة، والصور، وولاعات السجائر، والقرطاسيّة في كل أنحاء الأرض. وقد كتب دانييل بيرغن مقالاً حول هذا الموضوع في مجلة *نيويورك تايمز* في يوليو 2003: "إن أطفال أفغانستان يمضغون حلوى بن لادن، وهي كرات بطعم السكر ذات غلاف عليه وجه الزعيم، وسبابته، ورأس صاروخ"[5]. وكذلك هي الحال بالنسبة لاسمه. "إن أحد أكثر الأسماء انتشاراً للذكور المولودين حديثاً هو أسامة، حتى في أوساط أولئك الذين يظهرون إدانتهم لأساليبه الإرهابيّة، فإطلاق الأسماء إنما يشير هنا إلى الصورة شبه الأسطوريّة التي وهبها العالم الإسلامي لأسامة بن لادن"[6] هذا ما كتبه جيمس كيتفلد في تقرير *للناشيونال جورنال* في عدد نوفمبر 2002. وبفضل الإنترنت أصبحت كلماته أيضاً متاحة لكل من في متناوله كومبيوتر أو لديه تلفزيون يلتقط بث أكثر القنوات العربيّة انتشاراً محطتي العربيّة والجزيرة. وبالنسبة لرجل يقال إنه في حالة هرب دائمة، ويعاني من عدة أمراض مميتة، ويعيش في الكهوف المظلمة، فإن بن لادن يتمتع بصحة وأمان يجعلانه قادراً على قيادة العمليات، التي تشعل غضب أميركا ومعظم الدول الغربيّة، على الأقل عندما يقوم تقنيو الفيديو الخاصين بالقاعدة بمنحه وصديقه الحميم الظواهري استراحة من تسلق جبال هندوكوش. سيلقي هذا الفصل الضوء على كيفيّة تطور نظرة العالمين الغربي والإسلامي إلى بن لادن منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 وحتى اليوم. إن أهمية هذا الموضوع واضحة للجميع. فكلما ازداد وضوح صورة بن لادن لدى الإعلام الغربي، ازداد فهم الولايات المتحدة وحلفائها للخطر الذي يتعرضون له مما يساعدهم في التخطيط للقضاء عليه وتنفيذ تلك الخطط. أما من الجانب الإسلامي، فإن الطريقة التي يتم تصوير بن لادن بها تلعب دوراً هاماً في حجم التأييد والدعم الذي يتلقاه، والأهم من ذلك هو معرفة مدى تأثير دعوته على إخوانه المسلمين للمشاركة في جهاد دفاعي ضد الولايات المتحدة.

ماذا يقال عن بن لادن؟ الرافضون العنيدون...

إن مقدار ما كتب حول أسامة بن لادن منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 مذهل حقاً. فقد جاد الصحفيون، والمحررون، والمؤرخون، والسياسيون، والمسؤولون الحكوميون في كل أنحاء العالم في الكتابة عن بن لادن، وصفاته، وقوته، وإمكانياته. غير أنه لا يزال هناك من يرى بن لادن - كما كان الأمر قبل الحادي عشر من سبتمبر 2002 - على أنه ليس إلا رجل عصابات أكثر خطورة من غيره وذلك للتخفيف من حدة الخطر الذي يمثله، أو لتقييمه على أنه بشكل أساسي سفاح متعطش للدماء، فاسد، وتافه وهو دور يسند عادة إلى أيمن الظواهري وهو الرجل الثاني في القاعدة. كما يوصف بن لادن أيضاً بأنه "معتوه مضطرب لا وطن له"، أو كرجل يمتلك طموحات جنونيّة، أو على أنه زعيم "لسلالة جديدة من الإرهابيين الانتحاريين المتوحشين... [الذين يتبعون] نسخة مشوهة متعصبة من الإسلام"، أو "أنه سفاح مجرم" يتشدق والقاعدة "بهراء لتبرير اعتداءاتهم المختلفة"، أو أنه زعيم "التعصب الديني المتجسد في تلك الجماعة"[7]. وقد كتبت الصحفيّة مونا تشارين في تقييم لبن لادن في فبراير 2003: "يا لها من حجة قذرة وحقيرة لرجل يبتهج لرؤية صور رجال يحترقون، ونساء يرمين أنفسهن من الطوابق العليا لناطحات السحاب، ويتامى يتفجعون لخسارة آبائهم. كما يبدو أنه يتمتع ببث الرعب في قلوب الناس بنفس القدر"[8]. لقد كان أولئك الكتّاب على خطأ قبل الحادي عشر من سبتمبر ولا يزالون على حالهم تلك اليوم أيضاً. غير أن مقاومتهم العنيدة لفهم واقع الأحداث بعد اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر مدهشة حقاً. فبن لادن ليس "رجلاً شيطانياً"، كما كتب دون دي شيبمان في *دراسات في الصراعات والإرهاب* "يجد الدعم والتأييد فقط في البؤر المعزولة للكراهيّة في العالم"[9]. وقد شاركه الرأي الباحث فريد زكريا الذي كتب في مجلة نيوزويك، "إن الإرهاب الإسلامي في الوقت الحاضر لا تحرضه سياسة معينة بل الغضب المدمر للعالم الحديث بأسره"[10]. وهذا يثبت أيضاً أن الباحثين المسلمين المتأثرين بالأفكار والثقافة الغربيّة هم من أكثر الباحثين الذين لا يمكنهم تقديم أي معلومات يمكن الاعتماد عليها في الحرب على القاعدة. وبالرغم من كون آرائهم

خاطئة تماماً، فإن أعمال هؤلاء الكتّاب تستحق الاطلاع عليها لأنها مفيدة بالنسبة للقادة وأولئك الذين يصرون على الادعاء بتحقيق النصر، أو على الأقل الذين يقللون من أهمية الخطر الحقيقي الذي يتهدد الأمن القومي والمتمثل ببن لادن، والقاعدة، والقوى التي يحركونها والموجودة تحت تصرفهم. كما أن هؤلاء الكتّاب يقدّمون مادة خصبة تسمح للقادة البارزين في الحكومة الأميركيّة بأن يقدموا إلى مواطنيهم جواهر نادرة كهذه لتغذي جهلهم كأن يقولوا أن بن لادن وستالين هما وجهين لعملة واحدة، وأن أولئك المسلمين الذين يتبعون بن لادن ما هم "إلا قلة قليلة من شرذمة متطرفة في العالم الإسلامي..."[11].

ثم هناك بعض الكتّاب الذين يبدو وكأنهم قد تخلوا عن محاولة فهم بن لادن والقاعدة على أنهما ظاهرة إنسانيّة. "على المرء أن يتعامل معها بنفس الطريقة التي يتعامل فيها مع داء قاتل، لذا فمن الممكن أن يكون الوقت قد حان لترك سيناريو الحرب جانباً وتبني أسلوب آخر أكثر ملاءمة للوضع وهو: القتال للقضاء على الداء"[12]. هذا ما كتبه لي هاريس في مقال استفزازي في البوليسي ريفيو. إن هذا الربط بين الداء، وبن لادن، والقاعدة من شأنه تجريد الأخيرين من الإنسانيّة مع التأكيد – على الرغم من رغبة السيد هاريس في التخلي عن سيناريو الحرب – على أن السياسات الأميركيّة ستبقى على حالها وأن الحرب ستبقى خيار أميركا الوحيد. باعتقادي تكمن الفكرة هنا بألا نشعر بأي تأنيب لضميرنا عندما نقتل المسلمين أكثر مما قد نشعر به عندما نقتل البكتيريا. وهذا صحيح فالداء لا يمكنه أن يتأثر أو يقتل بواسطة السياسة. وننتقل الآن من الداء إلى الهراء الذي جاء في آيفي ليغ Ivy League، حيث وجدت هناك وصفاً لبن لادن وقضاياه لا يمكن الاستفادة منه بأي شيء إلا إثارة الجدل في أوساط الأكاديميين لسنين طويلة في المستقبل حول مواضيع ليست ذات صلة. وفي ما يلي بعض ما جاء فيه: "إن مذهب إحياء الإسلام الأصولي القمعي قد أصبح أيديولوجيّة النظام العالمي الجديد الأسود الذي يطغى عليه الظلم"[13]. في الواقع لا توجد جملة أكثر إثارة من هذه الجملة في كل ما كتب عن بن لادن حتى الآن...

على الرغم من التخطيط الدقيق والتنفيذ البارع لعمليّة الحادي عشر من

سبتمبر، فإنه لا يزال هناك من يسفّه من شخصيّة بن لادن، وإمكانياته، وتاريخه. فقد كتب جيمس تروب على سبيل المثال في مجلة *نيويورك تايمز* أن بن لادن هو "أكبر وهم سبّب الرعب لأميركا" لأنه "الشرّ بذاته"[14]، بينما كتب جي. إف ساyب في صحيفة *وال ستريت* أن بن لادن يشبه "لورد فولدمورت أحد شخصيات مجموعة قصص هاري بوتر: فهو شرير يتمتع بقوى مثيرة للرعب لدرجة ألا أحد يجرؤ على ذكر اسمه مباشرة"[15]. كما أيد الباحث في قضايا القاعدة روهان غوناراتنا فكرة الشرّ الإجرامي الذي يفترض أنه من صفات بن لادن حيث كتب: "إن أسامة يتصف بشخصيّة ذات وجهين شديدي التناقض... فمن جهة تراه لطيفاً متعاطفاً يظهر الحب لكل المسلمين، بينما هو في السرّ قاسٍ ومتحجر القلب، يمتلك تصميماً وإرادة حديديتين وليس لديه أدنى شك في أن ما يريده سيصبح حقيقة واقعة لا محالة"[16]. وتتسع دائرة الجدل حول بن لادن بالاتفاق الغريب في الرأي بين معلّق سعودي، وكاتب بارز، ومؤرخ حربي أميركي. وقد تمخّض عن ذلك الاتفاق أن بن لادن ليس مجرماً فحسب، بل مشعوذ متعطش للظهور الإعلامي، ومصاب بجنون العظمة أيضاً، يقوم بإغراء المسلمين والتلاعب بهم. وفي أحد التعليقات التي كتبها السعودي منصور إبراهيم النقضيان والتي تناولت نقداً مباشراً لبن لادن تحدث فيها عن التأثير الخطير لزعيم القاعدة على المسلمين، جاء فيه: "إن الشباب المسلم، والطالبان، والشعب الأفغاني هم الغذاء الذي تقتات عليه حركاته البهلوانيّة الإعلاميّة والوقود الذي يغذي رغبته الجامحة في النجوميّة التي ترددت أصداؤها في شتى أصقاع العالم، وقراه، ووديانه لصنع أسطورة بن لادن"[17]. أما الباحث الأميركي البارز فيكتور ديفيس هانسن فقد قزّم بن لادن إلى شخص شرير يمارس التنويم المغناطيسي شبيه بعازف المزمار في الفولكلور الألماني إنما هنا بطلنا هو عازف مزمار الحجاز...

> بدلاً من أن ينظر العالم الإسلامي في مشاكله الداخليّة، فإنه كعادته أخذ في شجب الآخرين وإدانة أفعالهم. ونتيجة لذلك تم الترحيب بموسيقي كبن لادن في البلاد، موسيقي ليست لديه أي فكرة عن اللحن الحقيقي للخلاص، لكنه جاء كعازف شرير، أسر بألحان حقده المخدرة، قلب العالم الإسلامي، وقاده بكل أسف ليغني معه، ويجرّه دون أن يعي ما يفعل إلى حافة الهاوية[18].

وقد عزف العديد من المسؤولين والكتّاب نغمة قدرات بن لادن العقليّة والقياديّة المحدودة. وكانت محاولاتهم ببساطة تهدف إلى إثبات أن بن لادن غير قادر من الناحية العقليّة على إدارة تنظيم القاعدة والتخطيط لعملياتها. وهذه التصريحات اختلفت حدتها بين تصريحات مهينة، وأخرى تغلب عليها سمة التعالي، واتسم غيرها بعدم الاكتراث فحسب، وقد كان معظمها يقع في خانة تلك الأخيرة. فقد جاء على سبيل المثال في حديث للسفير السعودي في الولايات المتحدة الأمير بندر بن سلطان: "**عندما التقيت بن لادن لأول مرة في الثمانينات، أحسست بأنه لا يمكن لهذا الرجل أن يقود ثماني بطات لعبور الشارع**"[19] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كما جاء في حديث أجراه الأمير السعودي ممدوح بن عبد العزيز مع صحيفة *نيويورك تايمز* اتسم بلهجة ألطف من سابقه لكنه كان مسيئاً أيضاً:

> **أذكر تلك الليلة منذ عشرة أعوام عندما حضر بن لادن حفل عشاء وأخذ يتحدث فيه عن بطولاته في الحرب في أفغانستان... أذكر أن الشاب أسامة كان في غاية الإحراج عندما أخذ الضيوف يسألونه عن تفسير بعض النصوص الدينيّة. حتى إنني اضطررت أن أقوم بإشارة بيدي للضيوف كي يتوقفوا عن طرح الأسئلة. إنه فعلاً رجل بسيط...**[20] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وأكثر أساليبهم في تشويه سمعة بن لادن شيوعاً تتمثل بجعل أصدقائه يصفونه على أنه رجل لطيف، وودود، ولا يتمتع بذكاء عالٍ نسبياً. ويبدو هدف تلك المحاولات إقناع العالم أن بن لادن هو شخص غير قادر على تخطيط أو تنفيذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وفي الوقت ذاته يوفرون على الحكومة نتائج الحقد والغضب الذي قد يسببه الانتقاد اللاذع لبن لادن، والذي قد يؤذي عائلة بن لادن وهي من أهم العائلات النافذة سياسياً واقتصادياً، وكذلك الغالبيّة العظمى من أفراد الشعب التي أظهرت الاستطلاعات إعجابها واحترامها لبن لادن. وقد لجأوا مؤخراً إلى جعل صديقين من أعز أصدقاء بن لادن يتحدثان عنه في وسائل الإعلام المحليّة والعالميّة. والرجلان هما خالد باطرفي رئيس تحرير الصحيفة السعودية "*المدينة*" وصهره محمد جمال خليفة، وهو مقاتل إسلامي معروف يعيش في جدة. وقد رسم كل منهما نفس الصورة لبن لادن البسيط، واللطيف، والساذج، والخجول.

باطرفي: لقد تفاجأت بأنه رجل لطيف وحساس. وكان يبذل كل ما بوسعه لمساعدة الآخرين. لم يكن من النوع الذي قد يؤذي طيراً، كما نقول هنا. لقد كان متديناً منذ نشأته. لم يكن متطرفاً لكنه كان مهذباً جداً. وكان يشاهد التلفاز، لكنه كان يميل دوماً لأفلام رعاة البقر لأن النساء في تلك الأفلام كنّ بكامل ثيابهن فقد كان شديد الخجل. كما أنه كان يفعل كل ما في طاقته لتجنب المتاعب. فإذا كان صديقين له على خلاف كان هو السبّاق لدعوتهما إلى الصلح. وقد كان يتمتع بشخصيّة لطيفة... كان قائداً بحق لكن بطريقته المتواضعة الخجولة. فقد كانت لديه القدرة على جعل الآخرين يتبعونه دونما حاجة منه لرفع صوته عالياً. وإذا كان شخص آخر غيره في موقع المسؤوليّة، لنقل كابتن فريق كرة القدم مثلاً، فإنه سينفذ الأوامر دون اعتراض لأنه شخص متواضع فعلاً[21] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

خليفة: إن أسامة من أفضل الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي... كان أسامة شخصاً عادياً جداً، ومتواضعاً جداً، كما أنه كان شديد البساطة. وأسامة شخص مهذب جداً وهادئ. وهو من النوع الذي يجبرك على احترامه وذلك بسبب اللطف الذي يبادرك به. وهو ليس إنساناً عدائياً كما أنه ليس من نوعية الأشخاص الذين يفكرون حتى بكره الآخرين وإن كان ذلك بالكلام فقط لا بالفعل... وأنا مندهش تماماً لسماعي عما يفعله أسامة الآن، لأن القيادة ليست إحدى مميزات شخصيته بالمطلق. إنه لا يتمتع بالقدرة على تنظيم أي شيء، حتى رحلة قد تستغرق خمس عشرة دقيقة. فهو حتى في الصلاة كان يقول: "تولَ أنت الإمامة"[22] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

ويكمن الجانب الآخر للجهود المبذولة في العالمين الغربي والعربي للانتقاص من ذكاء بن لادن، والتحقير من مواهبه، وقدراته في المحاولات المدروسة لتصوير بن لادن على أنه الساذج المغفل الذي يسيره الإرهابي الشرير العبقري أيمن الظواهري، الزعيم السابق لحركة الجهاد الإسلامي المصريّة والذي يعتبر الآن الرجل الثاني في تنظيم القاعدة. **"إن معرفتي ببن لادن تجعلني غير قادر على استيعاب ما يحدث اليوم. فأسامة شخص لطيف، وعقلاني، ومسالم جداً... أعتقد أنه تغيّر كثيراً بعد لقاءاته بجماعة الجهاد والتكفير والهجرة المصريّة. فقد كان المصريون يريدون السيطرة عليه منذ البداية. وقد نصحه الشيخ عبد الله عزام بالابتعاد عنهم"**[23] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). هذا ما قاله الدكتور عبد الله المؤيد وهو مدير عام سابق في وزارة الماليّة السعودية كان قد عمل إلى جانب بن لادن أثناء الجهاد في أفغانستان. وقد أكد خالد باطرفي ما قاله المؤيد حيث وصف بن لادن بأنه كان تائهاً ووحيداً

لا حول له ولا قوة في أفغانستان بعد أن طرد من السودان عندما "أتى المصريون ليقولوا له إن الأميركيين هم وراء كل ذلك [أي أنهم السبب في مشاكله ومشاكل العالم الإسلامي كله]. لقد ملأوا رأسه بالكراهيّة وأصبح غاضباً ويائساً... لقد ملأوا رأسه بأفكار لا تمت للإسلام بصلة، وأقنعوه بأن هذا هو الإسلام"[24]. أما خليفة وهو أقرب أصدقاء بن لادن كما يقال، يتابع ذلك موضحاً أن قادة حركة الجهاد الإسلامي المصريّة "قاموا بمراقبة أسامة عن كثب وعرفوا أنهم إذا طلبوا منه أن يقود آلاف الشباب في حرب مقدسة باسم الله فلن يرفض أبداً. فقد كان متحمساً جداً لكل موضوع يتعلق بالدين"[25]. وفي الغرب أكد المسؤولان الهامان اللذان كانا معنيين في السابق بقضايا الارهاب في هيئة الأمن القومي، ستيفن سايمون ودانييل بنجامين أن الظواهري "كان دائماً أكثر ذكاء من بن لادن"[26]. كما استنتج روهان غوناراتنا أن الظواهري هو العقل المدبر لبن لادن وقال موضحاً: "حيث إن الأخير كان صغيراً عندما التقى بالمصري الذي يكبره سناً، وأدى ذلك إلى نضوج أسامة بإرشاد وتوجيه من الظواهري... فلا يمكن لأحد أن ينكر تأثير الظواهري الواضح على أسامة"[27].

إن المعلومات السابقة كانت بعض المقتطفات من تقييم لبن لادن قبل اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر. وكما قلت، فإنها كانت عندئذ لا تتمتع بالأهميّة التي تتمتع بها اليوم. لكن بما أن تلك التصريحات قليلة نسبياً فإنها لا تغيّر مسار الجدل حول الخطر الذي يمثله بن لادن. إلا أن الفكرة المثيرة للقلق والتي عادت لتظهر على الساحة بقوة إثر اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر، تشكل خطراً عظيماً على الأمن القومي، لأنها فكرة مغلوطة لكنها تبدو ظاهرياً كفكرة منطقيّة، ولأنها مطمئنة أيضاً بالنسبة للنخبة من الأميركيين الذين لا يزالون على موقفهم الرافض لحقيقة أن أفعال الحكومة الأميركيّة في العالم الإسلامي هي التي تجعل المسلمين يهاجمون الولايات المتحدة. وأساس تلك الفكرة هو أن بن لادن، وحلفاءه، وأهدافهم التي يسعون لتحقيقها هي حصاد "حضارة فاشلة" – حضارة معاديّة للديموقراطيّة والرأسماليّة والحداثة، إلا في ما يتعلق بأدوات الحرب – وأن ما يدفعهم ويسيّرهم هو رؤيتهم أن المجتمع الإسلامي يحتضر ورغبتهم الجنونيّة في

القضاء على الحضارات الأخرى التي أثبتت نجاحها وبقاءها، والتي تتسبب في زوال الإسلام من الأرض واندثاره. ولا نزال في الفكرة ذاتها، التي تفيد بأن هؤلاء الرجال يدركون فشلهم هذا، ويحمّلون الغرب مسؤوليته، ثم يندفعون دون أي تفكير، ويشنون هجمات عنيفة تحصد الأرواح ليشعلوا في النهاية فتيل حرب عظمى مع الحضارة الغربيّة. إن هذا الأسلوب في التحليل يقوم بتصغير خصم صبور، ومتقد الذكاء، ودقيق في حساباته، ويمسخه إلى صورة رجل مجنون، ومختل، ومتعطش للدماء.

إنني لا أتفق مع هذا الأسلوب في التحليل، وأشعر حياله ببعض القلق. أولاً: لأن تلك الأفكار يؤمن بها كتّاب أكن لهم احتراماً عميقاً، وأخص منهم برنارد لويس، ورالف بيترز[28]، وماليس روثفن[29]، وفيكتور ديفيس هانسن[30]. ثانياً: لأنني أعتقد أن هذا التحليل بمعظمه ينطوي على الكثير من الحقائق. فلا يستطيع أحد إنكار حقيقة أنه ثمة انهيار شامل لمعظم بلاد العالم الإسلامي، يتجسد بشكل خاص في الأميّة المتفشيّة، والتأخر التقني، وضعف الأنظمة التعليميّة، وشبه انعدام الخدمات العامة، وتخلّف الرعاية الصحيّة، والتمييز ضد المرأة، والطغيان الذي تمارسه الحكومات ضد الشعب، وغيرها من المشاكل. كما أن هناك فعلاً مسلمين يحمّلون الحضارات الأخرى مسؤوليّة كل تلك المشاكل - سواء أطلقوا عليها اسم الحضارات الغربيّة، أو الحديثة، أو المسيحيّة، أو العلمانيّة. "وفي الوقت الحاضر تستمر لعبة إلقاء اللوم على الأتراك، والمغول، والرأسماليين، واليهود والأميركيين دون أن تظهر أي إشارة لتدل على انتهائها"، هذا بعض ما جاء في كتاب برنارد لويس الذي حمل عنوان: *أين الخطأ؟ الأثر الغربي والردّ الشرق أوسطي*، الذي وضّح من خلاله فرضيّة الحضارة الفاشلة. وإليكم بعض ما جاء فيه:

> إذا تابعت شعوب الشرق الأوسط سيرها على هذه الطريق، فسيصبح الانتحاريون رمزاً للمنطقة بأسرها، وعندها لن يكون هناك أي مهرب من دوامة الكراهيّة، والحقد، والغضب، والإشفاق على الذات، والقمع، والفقر التي ستدفعهم إلى حافة الهاوية وعندها سيسقطون تحت سيطرة احتلال أجنبي آخر، قد يأتيهم

من أوروبا الجديدة التي تعود إلى أساليبها القديمة، أو من روسيا التي استعادت قوتها من جديد، أو من قوة جديدة عظمى تريد التوسع في الشرق الأوسط. لكنهم إذا قرروا التخلي عن الخلافات، وخلع ثوب الضحية، والتصالح في ما بينهم ليوحّدوا كفاءاتهم وطاقاتهم ومواردهم في عمل مشترك مبدع وخلاق، عندئذ يمكنهم أن يبنوا الشرق الأوسط من جديد، ليعود كما كان في العصور القديمة والوسطى مركزاً رئيسياً للحضارة في العالم. لذا فإن القرار بيدهم الآن[31].

لا يسعني هنا إلا طرح السؤال التالي هل كان ذلك فشلاً للحضارة الإسلاميّة فعلاً، أم أنه نتيجة الانتقال من حقبة الاستعمار الأوروبي - الذي زرع بذور التحديث في الشرق الأوسط - إلى شكل من الاستبداد والطغيان القاسي الذي تمارسه الدول والأنظمة التي خلفتها المستعمرات الأوروبيّة السابقة؟ صحيح أن العديد من المسلمين يعانون من ضيق في الحريات وأسباب الحياة الرغيدة - كمياه الشرب وما يكفيهم من الكهرباء والمدارس الجيدة... إلخ - أكثر مما كانت الحال عليه في عصر الإمبرياليّة الأوروبيّة. هل نَجَمَ الوضع الراهن عن رفض المسلمين للتحديث والعصرنة فعلاً، أم تراه نتيجة لدخولهم عصر ما بعد الاستعمار، وهم يرزحون تحت وطأة ملكيات استبداديّة مطلقة، ديكتاتوريّة تعد بمثابة خطوة إلى الوراء وهو مما يمكن أن يعتبره البعض، للأسف، عصراً استعمارياً أكثر انفتاحاً وعقلانيّة؟ إنني لا أقترح أبداً العودة إلى العصر الاستعماري، مع العلم أن القاعدة - كما ذكرت سابقاً - ترى أن غزو واحتلال العراق يمثل عودة إلى عصر الاستعمار المباشر. إنني أقول فقط إن ترتيبات الحكم في مرحلة ما بعد الاستعمار والتي استمات الغرب في الدفاع عنها نظراً لمصالحه الاقتصاديّة في المنطقة، أدت إلى استعباد المسلمين أكثر من أي وقت مضى بدلاً من تحريرهم من نير الاستعمار.

من المؤسف أن تحليل "الحضارة الفاشلة" سمح للنخبة الأميركيّة، وصنّاع السياسة هناك، والناخبين أيضاً بالهروب إلى الفكرة التي تقول إن العالم الإسلامي قد فقد صوابه تماماً، وأن الولايات المتحدة لم ترتكب أي خطأ في حق المسلمين يدعو القاعدة للاعتداء عليها، أو يحرّض مشاعر الكراهيّة ضد الأميركيين المنتشرة بشكل واسع في العالم الإسلامي ككل. كما أن هذا التحليل من شأنه دعم الاعتقاد الذي يقول إن اعتداءات كهذه هي الردّ المجنون الذي لا يتوافق مع المنطق

بأي شكل من الأشكال، لاحتضار الأمة الإسلاميّة وحضارتها المنتشرة في كل أصقاع الأرض والتي كانت يوماً من أهم الأمم في العالم، وأن الهدف الوحيد وراء العنف هو تدمير الآخرين المسؤولين عن اندثار الإسلام. لقد كتب الصحفي جيمس كلرفيلد في يوليو 2002 مقالاً يقدم خلاصة مفيدة عن الاستنتاجات الخاطئة التي تتأتى من فرضيّة الحضارة الفاشلة. ويتفق كلرفيلد في رأيه حول اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر مع برنارد لويس، ورالف بيترز، وغيرهما، وقد جاء في المقال:

> إن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر كانت من فعل طائفة دينيّة ناقمة على الحداثة وممثلتها الأولى، الولايات المتحدة. وأسامة بن لادن هو نتاج الفشل... فشل حضارة تخلفت عن باقي الحضارات في العالم. وقد ثار هو وجماعته ناقمين على العالم لأنهم لم يتمكنوا من التأقلم مع العالم الحديث... إن البن لادنيّة وغيرها من الأشكال الإسلاميّة الأصوليّة هي محاولات للتعامل مع عجز العالم العربي لاحتواء الحداثة... إن الأصوليّة طريق مسدود لا محالة"[32].

وبهذه المشكلة التي استنبطت في هذا السياق، بالإضافة إلى الأفكار الأخرى التي اشتمل عليها التحليل والتي تأتي جنباً إلى جنب مع هذه الفرضيّة – وهي أفكار تتناول الأهداف التي يسعى الإسلاميون لتحقيقها والأهداف الشخصيّة لبن لادن أيضاً – يتم حمل القارئ على تصديق الحجة التي تقول إن المسلمين وبن لادن ليس لديهم أي اعتراض على سياسات وأفعال أميركا وحلفائها الغربيين، وأنهم يقومون بتلك الاعتداءات لأنهم لا يحبوننا ويحقدون علينا بسبب ازدهار بلادنا وطريقة حياتنا الرغيدة. وقد كتب المؤرخ المعروف برنارد لويس في هذا السياق:

> "إن إعلان أسامة بن لادن الحرب على الولايات المتحدة، إنما يدل على عودة الصراع على حمل لواء السلطة الدينيّة في العالم الذي كان قد بدأ في القرن السابع الميلادي. فالوقت الراهن بالنسبة له ولمن يتبعه يعدّ الفرصة الذهبيّة، فأميركا اليوم تمثّل الحضارة، وتجسّد القيادة العسكرية في العالم، فحالها الآن يشبه إلى حدٍّ كبير حال روما وبيزنطة من حيث التفسخ والانحلال الأخلاقي، لذا فقد بلغت المرحلة التي يجب أن تسقط فيها. لكنها بالرغم من ضعفها الأخلاقي والقيمي فهي لا تزال خطيرة... ذلك لأن الإغراء والإسراف في الفجور

والانغماس في الملذات الذي يتمثل في طريقة الحياة الأميركيّة بالنسبة لأعضاء تنظيم القاعدة يعدّ أكبر خطر على نسخة الإسلام التي يريدون فرضها على إخوانهم المسلمين[33].

وفي هذه النقطة بالذات، تواجهنا مرة أخرى إمكانيّة الإجابة بشكل خاطئ على هذا السؤال: "لماذا يكرهنا المسلمون؟" هل يكرهوننا بسبب طريقة تفكيرنا وأسلوب حياتنا، أم يكرهوننا لما نفعله في العالم الإسلامي؟ إن الإجابة على هذا السؤال بحسب رأي الأستاذ لويس ستكون بالتأكيد ما أدلى به سابقاً، وبذلك يعود إلى نفس التعريف الخاطئ للخطر الذي تمثّله الولايات المتحدة والغرب بالنسبة للإسلام، هذا الخطر الذي حذّر منه آية الله الخميني وانتقده بشدة لأكثر من عشر سنوات. وقد أثارت خطابات الخميني حول الخطر الذي يتهدد الإسلام من جهة الأميركيين الفَجَرَة، الكفرة، المنحلين بعض أعمال العنف هنا وهناك إلا أنها لم تؤدِ بأي شكل من الأشكال إلى دعوة للجهاد. وفي الحقيقة كانت أكبر عمليّة مدمرة نفّذت ضد الولايات المتحدة في عصر الخميني - تفجير ثكنات تابعة للبحريّة الأميركيّة في بيروت عام 1983 - نفّذها حزب الله على أنها تنفيذ لخطابات الخميني لتغطي في الحقيقة هدفها البسيط وهو منع الجيش الأميركي من إقامة قواعد ثابتة للوجود الأميركي في لبنان. فقد قام حزب الله بهجماته ليس بسبب تصريحات الخميني، بل بسبب ما فعلته الولايات المتحدة - حيث إنها دخلت إلى لبنان وتدخلت في شؤونه - لا لطريقة الحياة والتفكير في الولايات المتحدة. وبالنظر إلى الشبه بين فرضيّة الحضارة الفاشلة واتهامات آية الله فقد قام المحلّل البارز رالف بيترز بإنتاج صورة لبن لادن على أنه خميني سنّي يقوم بشنّ هجمات عنيفة هنا وهناك، بهدف القضاء على حضارة منحلّة أخلاقياً وأسلوب حياتها الآثم. فقد كتب بيترز في هذا الصدد في أواخر عام 2000 ما يلي:

"تصور حالة ممثل ثانوي على مسرح العالم اشتهر فجأة وأصبح نجماً عالمياً، هذه هي، حال أسامة بن لادن فهو لا يشنّ حرباً على الحياة الغربيّة لأنه لا يعرفها. بل إنه يناضل ضد رؤيته الشخصيّة المنحرفة، المخرّبة، والمجنونة للغرب المتمثل بأميركا من خلال ما جمع من معلومات من هنا وهناك وما أضافته إليها مخاوفه التي تثير الرعب في نفسه... كما أن أتباع السيد بن لادن

> يعرفون القليل – أو لا شيء إذا صح الكلام – عن الحياة اليوميّة الغربيّة، لكن ما يحفزّهم بالفعل ويدفعهم إلى ارتكاب تلك الأعمال، هو فرصة كراهيّة الآخر التي تحقق لهم من الناحية النفسيّة الشعور بالرضا عن أنفسهم. فهم رجال لديهم رؤى دنيويّة ماديّة محدودة لذا، فهم يتخيلون لأنفسهم مهمة مقدسة مما يعدّ بالنسبة لهم قمة تقديرهم لذاتهم[34].

وهكذا فقد انتقلنا عند هذه النقطة من نتائج فرضيّة الحضارة الفاشلة، والغضب الناجم عنها، إلى كراهيّة من النوع الخميني لأميركا بسبب "أسلوب الحياة المنحل" الذي يغوي المسلمين، ومنها إلى مجموعة من الشباب الجاهلين الذين "لا يتمتعون برؤية ماديّة"، الذين يحافظون على توازنهم النفسي من خلال الكراهيّة وقتل من يكرهون. أما العامل الحاسم في هذه الصورة فهو بالطبع أسامة بن لادن الرجل المجنون. ومن جديد، يرسم رالف بيترز المشهد، لكن هذه المرّة من خلال كتابه المتميز *ما وراء الإرهاب: استراتيجيّة في عالم تطبعه المتغيرات*.

> إن أسامة بن لادن مستعد للموت، لكنه يريد تأثيراً يوازي هذا الحدث العظيم... فمن الناحية الدينيّة إنه يتصور نفسه عبد الله المتواضع، لكنه في الحقيقة مصاب بجنون العظمة لدرجة أنه يشعر أنه "إله يقود العالم على الأرض".
>
> إلا أنه لا يمكن التعامل مع بن لادن على أنه ممثل عقلاني، حيث إنه تحت المظهر الخادع هناك رجل مجنون إلى حدّ لا يتصوره عقل. فأساليبه تنم عن منطق صلب، أما أهدافه فهي تتجه إلى ما وراء إسقاط نظام معين أو الاعتراف بالدولة الفلسطينيّة. إنه في الحقيقة يسعى للقضاء على حضارة كان قد أطلق عليها صفة الشيطانيّة. إنه لا يريد أن ينتصر على الغرب، بل يريد القضاء علينا بشكل تام. ولو كان يمتلك التقنيّة اللازمة للقيام بذلك، لاستخدمها بكل تأكيد[35].

إن هذا الخط التحليلي – كما قد ذكرت سابقاً – قد صدر عن كتّاب مطلعين ومتميزين، لذا فإنني لا أريد أن أتحدى أو أنتقد أولئك الذين تعلمت منهم الكثير. إلا أنني أعتقد أن تلك التحليلات تفتقر إلى الدليل الذي يثبت صحتها، في ما يخص أسامة بن لادن. فمنذ حوالى عشر سنوات أظهر بن لادن صبراً وتخطيطاً ينم عن ذكاء متقد، وخبرات إداريّة، وبراعة استراتيجيّة وتكتيكيّة، وشخصيّة مثيرة للإعجاب، وبلاغة، وأهداف حربيّة محددة ومركزة. ولم يقم بأي سلوك أو يدل بأي تصريح، على حدّ علمي، يمكن بسببه أن يوصف على أنه "رجل مجنون إلى

حدٍّ لا يتصوره عقل". ويبدو لي أن تعبير "لا يتصوره عقل" يجب أن يطلق على الأميركيين الذين نسوا أو لم يتناهَ إلى مسامعهم أبداً ما قاله نيثن بيدفورد فوريست: "إن الحرب تعني القتال والقتال يعني القتل" والذين روّعوا من عدد الضحايا والخسائر التي تسبب بن لادن في حدوثها، والذي يعتبر متواضعاً إذا ما قورن بما سيأتي في المستقبل.

كما أنه لم ترد أي تقارير تؤيد ما ورد في التحليلات السابقة، ممن عرفوا بن لادن أو حاربوا إلى جانبه أو خدموا تحت إمرته، أو أجروا لقاء معه. بل على العكس، فإن بن لادن أكثر صراحة – في ما يخص انتصارات القاعدة وخسائرها بشكل خاص – وأقل ميلاً للمبالغة من العديد من القادة الغربيين الذين يمطرونه دوماً بوابل من الاتهامات، والتهديدات، والوعيد. وقد يكون الأستاذ لويس والسيد بيترز على حق في قولهم إن الإسلام المعاصر هو حضارة منقرضة وفاشلة فبرأي بيترز: "إن الوطن العربي وهو مهد الإسلام"، يجب أن يتم إسقاطه من حساب العالم لأنه "غير قادر على القيام بتغيير بنّاء"[36]. كما أن من الممكن أن يكون هناك ملايين من المسلمين الذين يحمّلون الغرب مسؤوليّة فشلهم ويتحمسون للجوء إلى استخدام العنف غير المبرّر بهدف الانتقام من الغرب. إلا أن بن لادن ليس واحداً من أولئك الأشخاص، فقد كتب بن لادن في فبراير 2003: "يسرني أن أزف إليكم الأنباء السارة بنفس الطريقة، وأقول لكم أن أمتنا قد وعدها الله بالنصر، لكن إذا جاء هذا النصر متأخراً، فسيكون ذلك بسبب ذنوبنا وتخاذلنا عن نصرة دين الله"[37].

كان بن لادن دوماً يلقي اللوم في ما آلت إليه الحضارة الإسلاميّة من وضع متردٍّ على المسلمين أنفسهم. صحيح أنه يدين الغرب لاعتدائه على الإسلام، ويتهمه بسرقة موارد وطاقات البلاد الإسلاميّة، وبمحاولاته المستمرة للقضاء على كل المسلمين، لكنه يعترف بأن نجاح المعتدين لم يكن ليتحقق لولا بُعد العديد من المسلمين عن الصراط المستقيم، وانحرافهم عن الخط الذي وضعه الله ورسوله لهم ليتبعوه، وعجزهم عن تلبيّة الدعوة إلى جهاد دفاعي لدحر اعتداءات الغرب، ومن ثم استعادة عظمة الإسلام. إن أعداء الإسلام – سواء كانوا أميركيين، أو

مسيحيين، أو يهوداً، أو مرتدين، أو مشركين - يسيطرون اليوم على العالم الإسلامي، بحسب رأي بن لادن، لأن عدد المسلمين الذين هبوا للدفاع عن دينهم لم يكن كافياً لردّ الاعتداءات. وبدلاً من أن يتبع بن لادن الطريقة السلبيّة في تحميل غير المسلمين مسؤوليّة المصاعب التي يواجهها الإسلام، انتقل مباشرة إلى الأسلوب الإيجابي، حيث أخبرهم أن العالم الإسلامي لا يمكن أن يهزم، لأن الله وعد بالنصر إذا أطاع المسلمون أوامره واتبعوا سنّة رسوله. نعم بن لادن يلقي باللوم على الآخرين - وبخاصة المعتدين الذين تقودهم الولايات المتحدة - لاعتدائهم على الإسلام والمسلمين وحرمة الأراضي الإسلاميّة، لكنه يزعم أنه إذا عاد المسلمون إلى الإسلام عندها يمكنهم أن يستعيدوا السيطرة على حياتهم، ولن يحتاجوا لمساعدة من أي أحد إلا الله للقضاء على المعتدين. وفي النهاية إن بن لادن هو محارب سعيد فهو صياد - قاتل ذكي يشنّ حرباً لتحقيق أهداف دقيقة للغاية ومُدمّرة، لكنها في الوقت ذاته محدودة وواقعيّة. وليس هناك ببساطة أي دليل يؤيد الفكرة التي تقول إنه يتبجح بمحاولاته التي تهدف إلى دفع العالم سواء المسيحي أو الإسلامي أو غيره للدخول في حرب مصيريّة للفصل بين قوى الخير والشر. ولهذا السبب بالذات فإنني - مع احترامي الشديد - أختلف تماماً مع أولئك الذين يطبّقون فرضيّة الحضارة الفاشلة على بن لادن والقاعدة. وعليّ أن أؤكد هنا أن الوحش المفترس المسلح والصبور والإيجابي هو دائماً أخطر من المجنون الذي يرمي القنابل كيفما اتفق وقد أعماه حقده ورغبته في الانتقام.

ما هي التعليقات الرائجة حول بن لادن في الوقت الحاضر؟

ثمة ازدياد في عدد الصحفيين والباحثين الغربيين الذين ينظرون إلى بن لادن على أنه أكثر من مجرد إرهابي، وأن القاعدة هي أكثر من مجرد مجموعة إرهابيّة. وهذا أمر جيد، لأنه يؤدي بالنتيجة إلى تقييم أكثر عمقاً للخطر الذي يتهدد الأمن القومي الأميركي. ومع ذلك ولأن الطريق لا تزال طويلة أمام الكتّاب الغربيين - وهذا يشملني أيضاً - كي يتمكنوا من الإحاطة تماماً بهذا الموضوع، فقد استطاع الكتّاب المهتمون حالياً بهذه القضية، بملاحظة وتسجيل قدرات بن

لادن، وقوة إرادته، وقوة وعمق ومرونة منظمته بالإضافة إلى اتساع دائرة الزعماء الإسلاميين الذين يفكرون بنفس طريقته والابتكارات التي أتى بها بن لادن والقاعدة لتضاف إلى مفهوم الحرب غير المتعادلة. ومع أن الاعتراف بهذه الحقائق يعدّ تقدماً فكرياً ملحوظاً في مرحلة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أن هؤلاء الكتّاب - وكي أكون على حق - هم الغالبيّة العظمى من العالم الغربي الذين لم يفهموا تماماً الدور الذي يلعبه الإسلام في تفكير بن لادن، وحلفائه، وخططهم، ومرونتهم، وصبرهم، وقدرتهم العاليّة على التحمل. وهذا الوضع هو نتيجة لكون البعض في الغرب يتجاهلون أو يسقطون من حساباتهم قوة الدين، أو لأنهم لا يعرفون إلا القليل عن الدين الإسلامي أو أنهم على علم بالدور الفعال الذي يلعبه الإسلام، لكنهم لا يريدون أن يثيروا هذه القضية وأن يطرحوها للحوار خوفاً من أن يتم تصنيفهم على أنهم عنصريون أو متعصبون لدين ما. والسبب الأخير هو العدو القاتل لأي حوار أميركي بنّاء يهدف إلى تشكيل استراتيجيّة للقضاء على الخطر الإسلامي الأصولي. ففي هذا الموضوع كتبت الباحثة المعروفة ونائب رئيس هيئة الاستخبارات القوميّة إيلين ليبسون في نقد عن كتاب *عصر الإرهاب المقدس* لمجلة الشؤون الخارجيّة، "أهم مساهمة قدّمها الكتاب هو دراسته للعلاقة التي تربط بين أفكار القاعدة الملوثة بالدم والاتجاه الإسلامي السائد"[38]. وتابعت فكرتها قائلة: حيث إن هذه منطقة حوار، وجدل، واستطلاع فكري استحوذ عليها جهاز التحقيقات التابع للحكومة الأميركيّة.

> فالمسؤولون الحكوميون الأميركيون يواجهون قيوداً عديدة رسميّة أو غير رسميّة في ما يخص الحديث عن الدين، على أنه خطر يتهدد الأمن. فمبادئ التسامح الديني، وتشجيع تعدد الحضارات والأعراق، تدعو إلى الابتعاد عن التشكيك أو التحقيق في الدين أو المعتقدات الحضاريّة... لكن المسألة اتخذت أبعاداً أخطر وأعمق، حيث إن العديد من المسؤولين في قطاع الخدمات المدنيّة يشعرون بالارتباك والتوتر حيال تقييم أشخاص ينتمون إلى حضارات وثقافات أجنبيّة على أساس معتقداتهم الدينيّة أو الحضاريّة، وذلك خوفاً من الوقوع في مشاكل سياسيّة[39].

أما في العالم الإسلامي، فقد أدرك الصحفيون، والمعلّقون، والباحثون منذ فترة طويلة أهمية الإسلام وأولويته في فكر وسلوك بن لادن، وكذلك الدور الذي يلعبه الإسلام في المبادئ التي تقوم عليها القاعدة وتلاحمها واستمراريتها. ومنذ وقوع اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر أخذوا يركزون على الموقع القيادي البارز الذي يتمتع به بن لادن في العالم الإسلامي. واتضح من خلال أعمال الكتّاب المسلمين أنهم قد بدؤوا يناقشون ويقيّمون بن لادن على أساس الشبه بينه وبين القادة والأبطال العظماء في التاريخ الإسلامي. حيث إنه في هذه الحضارة يحظى الأبطال التاريخيون والأحداث التي وقعت منذ أكثر من ألف عام، بقدر كبير من الاحترام، والإجلال، وحيز كبير من النقاش في المجالس العامة والخاصة، لذا فإن هذا النوع من الأحاديث التي تجمع بين كافة المسلمين حول مكانة بن لادن التاريخيّة لا بد وأن تزيد من شعبيته والتقدير الذي يتمتع به هو والقاعدة في آن معاً. كما أنها تجعل بن لادن القائد الذي يُعلّق عليه عدد كبير من المسلمين آمالهم وطموحاتهم المستقبليّة.

كما أن الكتّاب الغربيين قد قاموا بقفزات نوعيّة نحو فهم أفضل لبن لادن، إلا أن هذا ينطبق على البعض أكثر من غيرهم. فتوماس فريدمان على سبيل المثال خلص إلى أن بن لادن "ليس مجرد إرهابي" لكنه لا يزال ميالاً إلى النظر إلى بن لادن على أنه ممثل غير عقلاني، "فهو رجل غاضب يتمتع بقوة كبيرة، ومواهب، وأهداف جغرافيّة سياسيّة كما لو أنها تخص دولة لا شخصاً بمفرده"[40]. ويؤيد محللون آخرون استنتاج فريدمان الذي يقول إن بن لادن هو أكثر من مجرد إرهابي، لكنه ينطلق منه ليصف زعيم القاعدة على أنه شخص منظم يتمتع ببرودة أعصاب، ويحسب أموره بدقة، وهو رجل منطقي عقلاني، لا يمتلك أي حس بالمسؤوليّة الأخلاقيّة كما أنه إنسان موضوعي و"نموذج مثالي لما أنتجه عصر العولمة وتسعينات القرن الماضي"[41]. وقد ظهر اتجاهان أساسيان في التحليل عند أولئك الكتّاب أحدهما يصف بن لادن على أنه قائد عسكري خلاق، والآخر يصفه على أنه خليط بين شخصيّة المحارب وشخصيّة المدير التنفيذي الأمر الذي يسمح له باستخدام مواهب وإمكانيات الشخصيتين معاً لتصميم "خطة استمراريّة العمل"

لحماية "زعماء القاعدة ومصادرها الماليّة" من الحرب الأميركيّة[42]. وقد كتب كريستوفر بيلامي في *الإندبندنت The Independent* في العناوين الأولى "بسبب جرأة وحجم الاعتداءات التي شنّت على واشنطن ونيويورك... فإن بن لادن سينضم إلى صفوف أسوأ الرجال في التاريخ بوصفه زعيماً دينياً، وسياسياً، وعسكرياً شريراً غيّر العالم إلى الأبد".

> ... إن عبقريّة السيد بن لادن لم تتمكن من إبداع هجمات إرهابيّة بمقاييس غير مسبوقة فحسب، بل أدخلت أيضاً عنصراً جديداً ألا وهو التعاون... حيث إنه قد أظهر عبقريّة حربيّة فذة من حيث استغلال التأثير الرهيب الذي خلفته الهجمات على أهداف متعددة في وقت واحد، مما أدى إلى إرباك المدافعين، وشل أي محاولة للقيام بهجوم مضاد... وقد قام السيد بن لادن - بوصفه مبدع وممارس الحرب غير المتعادلة - باتباع خطى ماو زيدونغ. فقد استبدل زيدونغ عامل المكان بالزمن. كما أن بن لادن أخذ في حسبانه أيضاً عامل الإرادة الذي غالباً ما يتم إهماله في المواجهات التي تحصل مع الجيوش التقليدية[43].

وقد أيد الاستنتاج الذي توصل إليه بيلامي، المحللان في الشؤون الدفاعيّة لاري سيكويست وبروس هوفمان حيث نظرا إلى بن لادن على أنه محارب وإداري كبير في الوقت ذاته. فقد رأى الكاتبان دون العودة إلى شخصيات تاريخيّة معروفة مثل ماو أن بن لادن استطاع أن يجمع بين مهارات المحارب، وبين نموذج الإداري الكبير الناجح الذي ساد في التسعينات، والذي يوصف بأنه واثق من نفسه، وصارم، ومرن، ومقبل على المجازفة دون أي خوف أو قيد وخلاق ومبدع. ففي المقال الذي كتبه سيكويست في مجلة *Christian Science Monitor* نسب إلى بن لادن صفات شبيهة بصفات المدير التنفيذي كما أطلق عليه لقب "إرهابي إداري كبير" و"مبدع من الدرجة الأولى". وقد أظهر سيكويست أيضاً أن بن لادن كان يفكّر بطريقة منطقيّة، وسليمة، وبعيدة الأهداف عندما أخذ يجمع قضايا محليّة لتصب في حملة عالميّة، كما أنه كان يعرف زبائنه ومستهلكي بضاعته معرفة جيدة، لذا فقد صاغ بذكاء فكرته التي تدور حول معاداة الولايات المتحدة "لتتوافق مع المسلمين من كل الشرائح والثقافات... بمن فيهم الكثير من المثقفين والأغنياء" - كما أنه واصل التركيز على فكرته وذلك بإبقاء الهجمات الكبرى التي تقوم بها

القاعدة داخل نطاق الولايات المتحدة. واستنتج سيكويست أن القاعدة تحت إدارة بن لادن لديها القدرة على ما يسميه الإداريون الكبار السيطرة والتحكم بشكل استراتيجي، على أن تتأقلم وتكيّف قواها العاملة و"منتجاتها" بحسب متغيرات "السوق"[44].

أما الدكتور هوفمان فقد عبّر عن فرضيّة الشبه بين المحارب والإداري الكبير بشكل أقوى من سابقه، وذلك في مقال كتبه في مجلة *أتلانتيك* الشهريّة في أبريل عام 2002 تحت عنوان *الأسرار القياديّة لأسامة بن لادن*، لقد شرح هوفمان من خلاله كيف استخدم بن لادن مبادئ العمل التجاري بشكل مجدد وخلاق في تحويل القاعدة من منظمة محليّة إلى منظمة تخطت الحدود الإقليميّة، واستعدت بشكل كامل في فجر القرن الواحد والعشرين للدخول في حرب عالميّة مع الولايات المتحدة.

> لقد قام بن لادن في التسعينات بنفس ما قامت به الشركات العالميّة في معظم بلاد العالم الصناعي، حيث إنه صمّم ونفّذ خطة تنظيميّة جديدة ومرنة، واستراتيجيّة أدخل فيها مستويات متعددة مستغلاً مقاربات من القاعدة إلى القمة ومن القمة إلى القاعدة. أما في طريقته التي اعتمدت أسلوب من القمة إلى القاعدة، فقد قام فيها بتحديد أهداف معينة، وأصدر الأوامر، وتأكد من تنفيذها بدقة... إلا أنه عمل أيضاً كرأسمالي مغامر حيث استشار من هم أقل منه، واستفاد من آرائهم مشجعاً بذلك المقاربات الخلاقة ومول العروض التي رآها واعدة[45].

ما الذي يقال عن بن لادن؟ الحلقة المفقودة لأولئك الذين يتابعون الأحداث

إن الصور التي رسمت لبن لادن على أنه رجل حرب مبدع، وإداري كبير، ومحارب تقرّبنا أكثر إلى تقييم دقيق لبن لادن غاب عن الأذهان. فقد قدّمت تلك الصور وصفاً موضوعياً لبن لادن وبعيداً عن العاطفة، وميكانيكياً لدرجة كبيرة. إلا أنه لم يقم بتقدير الورع الديني والإيمان الذي يحرك بن لادن، وبإغفال هذا العامل يكون تقييم بن لادن قد أغفل العنصر الأساسي الذي يجعل منه أكثر بكثير من مجرد جندي ذكي وإداري ناجح. إن آخر قطعة في الأحجية – مع استثناءين مهمين –

قدّمها الكتّاب والمعلقون المسلمون الذين ألقوا الضوء على شخصيّة بن لادن الداخليّة وسلوكه، وكيف تؤثر هذه العوامل في رفع مترلة بن لادن شيئاً فشيئاً في نظر المسلمين في العالم، سواء كانوا من المؤيدين أو الرافضين لعمليات القاعدة العسكريّة. ويقول هؤلاء الكتّاب إن بن لادن أصبح أمام أعيننا شخصيّة بطوليّة ليس فقط في الوقت الحاضر، بل إنه رجل يتمتع بنفس الصفات التي اتسم بها الأبطال في التاريخ الإسلامي. إنه المزيج الذي يجمع بين شخصيّة بن لادن المتواضعة بشكل مثير للإعجاب - كما هي بنظر المسلمين - وارتباطه بالتاريخ الإسلامي الذي يمتد لأكثر من أربعة عشر قرناً من الحضارة والبطولة يضيف إليه بعداً بشرياً هائلاً ويضع اللمسات الأخيرة على صورة بن لادن كمحارب وإداري ناجح في آنٍ معاً.

لقد قدّم محققون أميركيون وإن كانوا قلة، إيضاحات مختصرة حول كيفيّة توافق معالم شخصيّة بن لادن مع الشخصيات البطوليّة في التاريخ الإسلامي، وكيف يتلاعب سلوك القاعدة وسلوكه بالأوتار السحريّة لذاكرة المسلمين على حدّ تعبير السيد لينكولن. وقد فسّر ذلك الأستاذ برنارد لويس في صحيفة *وال ستريت جورنال* قائلاً:

> في الشرق الأوسط كما في أوروبا، هنالك فولكلور يضرب جذوره بعمق في حضارة تلك المناطق، وهو عبارة عن قصص أبطال العصابات الذين يتحدون القانون ويفرون من العدالة... إلا أن دور روبن هود الشرق الأوسط، يختلف عن نظيره الغربي فهو لا يقوم على سرقة الغني لإعطاء الفقير ما يحتاج من مال، مع أن هذا الأمر قد يكون متوارياً وراء خلفيته الغامضة، بل يقوم على تحدي القوي لحماية ونصرة الضعيف. وبالنسبة لبن لادن ورجاله فإن عمدة نوتينغهام هو السلطة المحليّة مهما كان يعني ذلك، أما عدوهم اللدود فهو الملك جون، الذي يعيش في مكان بعيد كما هي حاله دوماً. في القسطنطينيّة، وفيينا، ولندن، وباريس والآن هو في واشنطن ونيويورك[46].

وقد تطرقت إلى نفس الموضوع الصحفيّة اللبنانيّة الأميركيّة جنيف عبدو صاحبة كتاب *لا إله إلا الله: مصر وانتصار الإسلام*[47]، وهو أفضل ما كتب حول قوة الإسلاميّة الأصوليّة التي تسللت بهدوء وفعاليّة في المجتمع، حيث وضّحت فيه الخطأ الرهيب الذي ارتكبه الأميركيون في ظنهم أن تأثير بن لادن يقتصر على

شرذمة من المجانين في العالم الإسلامي. وقد أكدت السيدة عبدو أن بن لادن والقاعدة معاً يشكلان خطراً قاتلاً، ليس لأنهما أعلنا الحرب على الولايات الأميركيّة وأثبتا قدرتهما من الناحية العسكريّة على شنّ حرب كهذه فحسب، بل لأنهما أصبحا جزءاً من استمراريّة التاريخ الإسلامي أيضاً. وقد حذرت السيدة عبدو في سبتمبر 2003 قائلة:

"لقد أخبرنا القادة الأميركيين أن بن لادن قد اعتدى علينا لتدمير أسلوب حياتنا، ولسحق مفاهيمنا عن الحريّة، وسعينا نحو السعادة.

لكن حصر بن لادن في هذه الألفاظ الضيقة والمحدودة، يعني تجاهل منزلته الرفيعة في قلوب 1.2 مليار مسلم في العالم، وإغفال مكانته التي احتلها بجدارة في التاريخ الإسلامي. فبينما يراه الغرب إرهابياً مسعوراً، ينظر إليه أنصاره المسلمون على أنه آخر قائد من سلسلة طويلة من المفكرين الإسلاميين الأصوليين، والزعماء الثوريين الذين أيدوا جميعاً ممارسة العنف في سبيل تحقيق رؤيتهم الخاصة لأمة إسلاميّة واحدة في العالم أو مجتمع من المؤمنين"[48].

وقد أشار الأستاذ لويس في سياق ذاكرة المسلمين التاريخيّة التي رحبت بقدوم بن لادن، إلى أن شخصيّة بن لادن وطباعه تتوافق تماماً مع شخصيات الأبطال المسلمين القدماء، كما أنه بسبب هذه الحقيقة "يبقى رمزاً يتمتع بشعبيّة كبيرة لا في أوساط المتطرفين والأصوليين فحسب... بل في أوساط أوسع من تلك بكثير ضمن العالم الإسلامي، وبشكل خاص في العالم العربي"[49]. كما يشير لويس أيضاً إلى أن بن لادن يتبع النموذج التاريخي الإسلامي للبطل المتواضع الذي يتكلم كلاماً موزوناً والذي يتمتع بشجاعة وجرأة لا مثيل لهما. وقد كتب لويس: "إن أهم وأقوى سبب لشعبيّة بن لادن هو الفصاحة التي يتكلم بها، وهي موهبة تثير التقدير والإعجاب في العالم العربي منذ قديم الزمان... كما أن العالم العربي اليوم يفتقر إلى مثل هذه الفصاحة. فيقوم بن لادن باستخدامه الصحيح للغة باستعادة الفضائل والقيم التقليديّة القديمة. وبفضل الأجهزة الحديثة وبشكل خاص المحطات الفضائيّة التي تسمح لفصاحته بالوصول إلى كافة أرجاء العالم العربي"[50]. وتظهر هذه النقطة بشكل واضح في العديد من النقاشات عن بن لادن، كما يبدو أن بن لادن نفسه يولي اختيار كلماته وجمله الكثير من الانتباه والعناية عند الاستعداد للإدلاء بتصريح

رسمي. كما جاء في الموقع الإلكتروني الإسلامي *الشعب*، "يجب بن لادن أن يكون دقيقاً عندما يستخدم اللغة العربيّة في حدث إعلامي أو في أي وقت يكتب فيه تصريحاً أو رسالة ما"[51]، وكان صهره محمد جمال خليفة قد قال "كان بن لادن طوال حياته يختار كلماته بعناية شديدة أثناء حديثه"[52]. وقد فسّر الأستاذ لويس هذا الأمر بشكل أكثر توسعاً حيث أفاد أن بن لادن يستخدم اللغة العربيّة بشكل يذكّر "بالقيم الفضيلة القديمة" كما أن أسلوبه يدعو مستمعيه إلى التركيز على شخصيته وطريقة حياته واللمسة الشعبيّة التي تطبعه.

> إن بن لادن ليس بحاكم، لذا فإنه لم يتلطخ بعار الفساد، والطغيان، والاستبداد... إن الأمر المذهل حقاً هو التناقض الواضح بين حياة بن لادن الشخصيّة والحياة التي يعيشها معظم حكام البلاد العربيّة اليوم... فبن لادن يقدم مشهداً مؤثراً لشخص هجر طوعاً واختياراً حياة الغنى والرفاهيّة، واستبدلها بحياة المصاعب والمخاطر[53].

إن صفات البطل الإسلامي التي تحدث عنها الباحثون الأميركيون - وهي الفصاحة، والشخصيّة القويّة والمتواضعة في الوقت ذاته، والشجاعة لتحدي القوي بالقول والفعل - وثّقها الكتّاب المسلمون بشكل واسع منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر. حتى في كلمات صديقي بن لادن باطرفي وخليفة التي قالاها تملقاً للنظام .... والتي طالت من سمعة بن لادن، فإنها وصفته على أنه رجل هادئ، وودود، وتقي. كما أن الأمير تركي الفيصل السفير السعودي في المملكة المتحدة والمدير السابق لهيئة الاستخبارات السعودية، والذي قيل إنه حاول قتل بن لادن أكثر من مرة، كان قد قال إنه "في المرات الأربع أو الخمس التي قابله فيها، وجدته رجلاً وسيماً، ومؤدباً، ولطيفاً، وعلى ثقافة عاليّة"[54]. ويبدو أن حتى ألدّ أعداء بن لادن وجدوا أن من الصعب عليهم كرهه والتشكيك في إيمانه العميق والتزامه الشديد بالدين.

أما المسلمون الحياديون حيال بن لادن وأولئك الذين يميلون إلى تأييده، فيبدو أنهم قد وجدوا الدليل الواضح على أنه سيصبح زعيماً أو بطلاً إسلامياً بارزاً في ذلك المفهوم الديني التقليدي. ويشير الأستاذ لويس إلى أهمية الفصاحة والبلاغة في

الكلام عند القائد المسلم، والتي جاء ذكرها بشكل متكرر في الإعلام الإسلامي. ففي الذكرى السنويّة الأولى لاعتداءات واشنطن ونيويورك علّق عبد الباري عطوان رئيس تحرير الصحيفة اليوميّة المعروفة *"القدس العربي"* التي تصدر من المملكة المتحدة، على فصاحة بن لادن التي تحمل عبق التاريخ في طيات كلماته التي قالها عن الشهداء التسعة عشر في لقاء أجرته معه قناة الجزيرة حيث قال: "**لقد تحدث عنهم كما لو كانوا قادة فرق الجهاد في فجّر الإسلام، في أيام الفتوحات الإسلاميّة، وقد قدّمهم بطريقة رائعة موجهاً خطابه إلى الجيل الجديد من الشباب المسلم وقال: هؤلاء هم المثل الأعلى الجديد للإسلام...**"[55] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) كما أشار المحامي الإسلامي المصري المعارض هاني السباعي الذي يعيش في لندن، إلى تأثير أسلوب بن لادن في الكلام على المسلمين، في حديث مع الجزيرة حول بثها لتصريح بن لادن بخصوص العراق في أواخر العام 2002. وقد أثار السباعي الانتباه إلى فصاحة بن لادن وصداها التاريخي قائلاً:

> **أعتقد أن كلام الشيخ أسامة ذكرني بجرير الذي قال مرة: "لا زلت أرتفع عالياً بعكس ما يتمناه أعدائي". لقد عودنا الشيخ أسامة على مثل هذا الكلام الجميل. والرسالة موجهة للعالم بأسره لا لشخص بعينه. وتثبت الرسالة بلا شك... أن الرجل على قيد الحياة. وهذا ليس توقعاً إنما حقيقة واقعة. فهذا صوته، إن رسالته هذه رسالة حكيمة، هادئة، ومنطقيّة يوضح فيها مظالمه. إنه يفسرها للعالم كله بشكل عادل جداً ويقول إنه ليس رجل عنف بل إنه من خلال هذه الطريقة يدافع عن الأمة الإسلاميّة**[56] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

ويكمن المثل الأعلى الذي يجسّده بن لادن وراء فصاحة كلماته، وذلك على مرّ سني حياته وسيرته المتمردة التي وصلت الآن إلى قرابة ربع قرن من العمل المسلح. وكل الصفات التي تميّز البطل الإسلامي والتي تحدث عنها السيد لويس وغيره من الباحثين ذكرها أشخاص قابلوا بن لادن أو عرفوه منذ زمن قريب أو بعيد. وأعتقد أن أفضل طريقة لتصوير القوة والتأثير لنموذج بن لادن الشخصي على المسلمين هو ترك عدة أشخاص ممن عرفوا بن لادن أو تعاملوا معه منذ الثمانينات ليتحدثوا بنفسهم. وقد ارتأيت أن أفعل هذا في هذه القضية بالذات، لأن مصداقيّة تخلي بن لادن عن الحياة الرغيدة، ونبذه للغنى والعيش الهانئ، واختياره العيش في أفغانستان، عيشة المقاتلين هي

إحدى أكثر الأمور المشكوك في صحتها عن بن لادن بالنسبة للغرب.

في الحقيقة لا يعلّق أسامة بن لادن أهمية كبرى على الموت ولا يأبه له... فإيمان أسامة بن لادن كبير. وهو يعترف أنه يشعر بالقلق في بعض الأحيان وأنه يخطئ، لكنه رجل شهم وطيب وشجاع، كما أنه رجل مثقف ومناضل[57].

لقد التقيت بن لادن، أو أبو القاعدة كما كان يطلق عليه في خطوط الحرب الأماميّة عندما يذكر العرب الأفغان اسمه في اتصالاتهم. وقد رأيت أنه شاب هادئ الطباع إلى حدٍّ كبير، كما أنه يتمتع بجاذبيّة وحضور متميزين في تعامله مع الآخرين. وقد أذهلتني بساطة الحياة التي يعيشها... لقد عشت معه أربعة أعوام بعض تلك السنوات قضيتها في كهوف تورابورا وأنفاقها بالقرب من جلال أباد. كانت الحياة اليومية صعبة للغاية وقد واجهت الموت مرات عديدة[58].

كان بن لادن رجلاً طويلاً، ونحيلاً، ولطيفاً. كان المهندس محمود [وهو قائد أفغاني من جماعة يونس خالص] قد طلب مني ومن زعماء القبائل الأخرى في منطقة تورابورا ملاقاة ضيفه الجديد عند مالاوي [بالقرب من جلال أباد]. سلم بن لادن علينا جميعاً باليد وقال بضع كلمات. كان هناك صبي صغير بصحبته وحوالى عشرة حراس شخصيين عرب[59].

إن أكثر شيء جعل السعوديين ينظرون إلى بن لادن بعين الإكبار والاحترام هو تخلّيه عن المتعة التي تجلبها الأشياء الدنيويّة. فعلى سبيل المثال، إن السعوديين يقارنوه بالنخبة في بلادهم ويجدون أن بن لادن قد هجر حياة الترف ورفاهيّة الفنادق ليعيش في الحفر، حفر الجهاد. لكنهم يرون الآخرين وهم يتنافسون لنيل متاع الدنيا، وترفها، وقصورها، وأراضيها... إلخ[60].

قالوا إن [بن لادن] كان شخصاً لطيفاً ومتواضعاً يحيا حياة بسيطة جداً [في الخرطوم]. كما قالوا إنه كان قليل الكلام وأنه اعتاد أن يزور جيرانه السودانيين في الأعياد والمناسبات الدينيّة[61].

كان أسامة لطيفاً جداً معنا، حتى إنه أنشأ الطريق التي تربط بين تورابورا وجلال أباد حتى نتمكن من الوصول إلى السوق بسهولة أكبر. وكان رجاله دائماً في غاية التهذيب والأدب معنا كما كانوا يعطوننا القمح والطحين[62].

كان [بن لادن] رجلاً عادياً جداً. ولم يكن لديه حراس شخصيين، كما كان يذهب إلى الأسواق العامة للتسوق، ويتجاذب أطراف الحديث بمرح مع الأصدقاء. وفي المجتمع الذي يتألف من عشرة آلاف عربي [في بيشاور - باكستان] كان شخصاً يعرفه الجميع، لكنه كان يتقصد أن يحيا حياة بسيطة كيلا يتميز عن العربي العادي هناك[63].

> كنت مرة مع [بن لادن] في أفغانستان أثناء الحرب ضد الاتحاد السوفييتي. إنه مناضل حقيقي، وباحث ديني ورع، يمتلك مشاعر رقيقة وحنونة، لقد كنا جميعاً نكن له الاحترام، ولم نشعر بأي قسوة أو ظلم من طرفه أبداً[64].

متحدث لبق، ولطيف، وحساس، وتقي، ومتواضع هذا هو بن لادن، لكنه قتل أيضاً أكثر من ثلاثة آلاف أميركي في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، وبهذا الفعل – أي بتحدي القوي في الفعل والقول أيضاً – يكون قد أكمل آخر جزء من صورة البطل الإسلامي الكلاسيكي. وكما أشار لاري سيكويست في مجلة *Christian Science Monitor* "إن أكبر مقياس للمحارب هو حجم خصمه"[65]، وبن لادن قرر أن يحارب الولايات المتحدة، التي يراها العديد من المسلمين على أنها أكبر خطر يتهدد الإسلام منذ عصر الصليبيين، أو ربما منذ الغزو المغولي. كما أن الصفعة التي وجّهها بن لادن إلى الولايات المتحدة في عقر دارها لم تمكّنه من الفرار والنجاة بفعلته تلك "كل ذلك أدى إلى تعزيز السمعة التي اكتسبها على أنه أهان الولايات المتحدة مما ساعد على جعله رمزاً قوياً يمثل 'المقاومة' الإسلاميّة"[66]. وذلك على حدّ تعبير مجلة "الايكونوميست" *Economist*. وعلاوة على ذلك، فبن لادن عاش بحسب تعريفه الخاص للمسلم التقي على أنه المسلم "الذي يفهم أن قيمة المعرفة الدينيّة تقاس بمقدار العمل الذي يقوم به اعتماداً على تلك المعرفة"[67]. وكان العمل الذي قام به، شنّ هجوم على الولايات المتحدة. **"وهكذا فإن نصرة الدين لا يمكنها أن تحصل بمجرد إلقاء المحاضرات دون التضحية بوقتنا ومالنا، فطلب الجنة من الله يكلّف غالياً. وعندما يصبح الجهاد أمراً ملزماً، يكون هناك فرق كبير بين الجلوس وإلقاء المحاضرات، والتضحية بالأنفس والأرواح في سبيل نصرة الدين"**[68] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). هذا بعض ما قاله بن لادن في فبراير عام 2003. أما بالنسبة لكل ما ورد من شجب وإدانة فكان على لسان حلفاء أميركا المسلمين – أولئك الفاسدين والعاجزين من الأمراء الطغاة والحكام المستبدين – ورجال الدين الذين يعملون تحت إمرتهم ورهن إشارتهم. أما ردّ فعل المسلم العادي فيمكن أن يتلخص بكلمات رجل دين ..... مقعد قالها في

أواخر عام 2001 متوجهاً في خطابه إلى بن لادن: "لقد قدّمتم لنا أسلحة، ومنحتمونا الأمل، ونحمد الله لأنه أرسلكم لنا... إن الناس يؤيدوننا اليوم أكثر من قبل، حتى أولئك الذين لم يؤيدونا في الماضي... والجميع يثنون على عملكم - العمل العظيم الذي قمتم به، الذي تم أولاً وأخيراً بنعمة من الله - إنه هداية من الله وثمرة الجهاد المقدس"[69].

إذن ما الذي يعنيه بن لادن اليوم من حيث إنه شخصيّة معروفة؟ هل هو مشعوذ شرير خرج من صفحات هاري بوتر؟ أم رجل عصابات يمتلك عبقريّة فريدة من نوعها؟ أم تراه رجل ساذج لا حول له ولا قوة تسيّره النسخة المصريّة لشخصيّة الدكتور موريارتي؟ إن أقرب إجابة صائبة برأيي هي مزيج من الصور التي رسمها الكتّاب الغربيون الذين سبق أن وصفتهم على أنهم "يتابعون الأحداث"، وكلمات وتحليلات المسلمين الذين عرفوا بن لادن واستمعوا لأحاديثه، وحاولوا وضعه في سياق امتداد التاريخ الإسلامي. وقد نسب أولئك الأشخاص إلى بن لادن عدة صفات منها أنه محارب، وإداري ناجح، وباحث تقي ورع، وجندي وأنه يحب أن يكون من عامة الناس، وحتى أنه ثمرة للعولمة. إن هناك شيئاً من كل صفة من تلك الصفات في شخصيّة بن لادن، لكنني أعتقد أن هناك عنصراً آخراً لا بد أن يعترف بوجوده، وهو عنصر يكمل الصورة وهو الحب. فهناك حب ليس موجهاً بشكل كبير نحو أسامة بن لادن كشخص، مع أن هناك الكثير من الحب الشخصي له، لكنني أتحدث عن الحب الموجه إلى دفاعه عن الدين والحياة التي يعيشها، والمثل الأعلى البطولي الذي يجسده، وشبه هذا المثل بالأبطال الآخرين في التاريخ الإسلامي. وهناك ثلاث فقرات مختارة أعتقد أن كاتبيها هم من المسلمين، تعبّر عن هذا الحب الذي يشعر به المسلمون تجاه الجهود التي يبذلها بن لادن وهو عامل يجعل من بن لادن خطراً على الولايات المتحدة في الوقت الراهن وحتى بعد موته بوقت طويل. الفقرة الأولى كتبها معلّق سياسي باكستاني يصف العلاقة العاطفيّة التي نشأت بين بن لادن والمسلمين، والثانية كتبت بقلم باحث باكستاني تحدث عن أصداء كلام بن لادن وتأثيره على الذاكرة التاريخيّة وعلى خيال المسلمين.

أسامة بن لادن هو مُخلّص المضطهدين. وهم لا يحترمونه فقط بل يحبونه أيضاً. وأكبر إنجاز بالنسبة لهم هو بذل حياتهم رخيصة في العمل لدى أسامة بن لادن. لقد أصبح أسامة بن لادن شخصيّة أكبر من الحياة نفسها. أيـن هـو الآن؟ وكيف يعتني بنفسه؟ لقد أصبحت هذه الأسئلة هي الأهم في العالم اليوم. إنه رمز للمحبة. إن أسامة بن لادن هو الشخص الذي يرى فيه العـالم أجمـع طموحاتـه وأمانيه. أسامة بن لادن هو رمز كراهيّة الشعوب للولايات المتحدة. وقد أصـبح اليوم بخطورة قنبلة نوويّة. لن تتمكن الولايات المتحدة أبداً من القبض على أسامة بن لادن لأنه يعيش في قلب كل مسلم[70].

إن التاريخ الإسلامي المجيد يعجّ بشخصيات علّمت المسلمين مـن خـلال أعمالهم الخالدة ألا يرضخوا، أو ينحنوا أمام الشيطان، وأن يحاربوا قوى الشـرّ. وبينما كان أولئك الأشخاص منارات أضاءت طريق المسلمين بفضل شـجاعتهم النادرة وصمودهم وإخلاصهم، فقد أصبحوا في الوقت ذاته رعباً متجسداً بالنسـبة لقوى الشر وأثبتوا قدرتهم على إثارة الخوف والوجل في نفوس قادة الشرّ. وفـي هذا العصر، جاء الشيخ أسامة بن لادن ليكون واحداً من ملايين الأبطـال الـذين ضحوا في سبيل الله القوي العزيز. وعندما ظهر على الساحة، ضربت صـاعقة برق قوى الشرّ والكفر. وعقد العالم بأسره العزم بكل جيوشه الجـرارة وأحـدث الأسلحة التي اخترعت حتى اليوم على قتل هذا الرجل. لكن هيهات فأولئك الذين يحاولون إطفاء نور الشمس سيموتون بوهجها، ولذا فقد منيت تلك القوى بالفشـل وحقق أسامة النجاح في مهمته المقدسة[71].

في حين أن ردود الأفعال العاطفيّة والتاريخيّة على أعمال بن لادن تتمتع بأهمية كبيرة من حيث تقدير أبعاد واستمراريّة التأييد الشعبي الذي يحظى به، إلا أن هناك فقرة ثالثة تشير بشكل أوضح إلى الإخلاص والولاء للدين والقضية الذي يستثيره في نفوس أولئك الرجال الذين ينوون حمل السلاح ضد الولايات المتحدة والغرب. وقد كتب هذه الفقرة أحد زملائه المحاربين وهو زعيم طالبان الملا محمد عمر وهو كعادته ليس لديه وقت للعواطف فهو يتحدث بجمل موجزة تصريحيّة. فهو يصف بن لادن كما لو أنه النسخة الإسلاميّة لأوليفر كرومويل أو تومـاس جاكسـون بإيمانه الحديدي، وصلابة وجهات نظره، وأهدافه التي لا يحيد عنها أبداً، وثباته في بذله الغالي والرخيص في سبيل تحقيق ما يؤمن أن الله قد أمره به. وبالنسبة لأولئك الرجال الذين يسعون للاعتداء على أميركا، فإن كلمات الملا عمر تكـاد تكـون

تقريراً لمهمة لهم ولبن لادن. وقد جاء في تصريح أدلى به الملا عمر للصحيفة اليوميّة "*باكستان*" في أبريل عام 2002 ما يلي:

"إن أسامة هو أخي، وهو لا يزال يعيش معنا في الخيام في أفغانستان، مع الشعب الأفغاني. إنه الابن البار للأمة الذي لم يبدد ثروته على الترف والبذخ. إنه رجل مبدأ، إنه يتمتع بشجاعة دينيّة لا مثيل لها، كما أنه حارس أمين للشرف الإسلامي، وهو مؤيد مخلص للجهاد، كما أنه ينشر رسالة الله جل جلاله في العالم أجمع. لقد أبدى شجاعة نادرة في ساحات المعارك التي لا يصمد فيها جنرالات الزجاج بل الرجال الحديديين فقط، لقد حارب كل القوى الشيطانيّة في العالم مخاطراً بحياته.

إنه لا يحب الحياة السهلة وعوضاً عن ذلك يفضل أن يعمل بجد لينال مراده، كما أنه يضرب العدو ضربات قاتلة، ولهذا تخافه وتخشاه الولايات المتحدة، ويشعر الكفرة بالقلق إزاء توحد الأمة تحت قيادته، إن القوى الإمبريالية تريد قتله، لكننا نؤمن بأن الموت هو إنقاذ الحياة. وكل امرئ لديه مقاييسه الخاصة بالنصر والهزيمة. وفي بعض الأحيان قد يكون الفائز في الظاهر خاسر في الحقيقة، وأحياناً أخرى يكون الطرف الذي يبدو مهزوماً منتصراً بإذن الله العلي القدير"[72].

يجب أن أقول إن أياً من هذه الشهادات لا تتحدث عن بن لادن كما يراه الغرب مجرماً وسفاحاً. وهكذا فإن حتى أولئك الذين لا يزالون مصممين على مقاومة المثال الذي قدّمه الدكتور هنتينغتون حول صراع الحضارات، أعتقد أنه يمكنهم أن يلمسوا الآن الصدام بين رؤية كل حضارة وتقييمها لبن لادن والاختلاف الكبير بين صورته في الغرب على أنه رجل مجنون، والصورة الأخرى التي تجعل منه بطل الإسلام. إن الاعتراف برؤية المسلمين لبن لادن – وهذا لا يعني الموافقة عليها – يسمح للغرب بإدراك حجم بن لادن وقوة تأثيره. كما أنه يساهم في تفسير الكراهيّة التي تغلي في صدور المسلمين من جراء مطاردة الغرب لبن لادن، وأسرهم لمئات المجاهدين، وتشويه سمعة الرجل سرّاً وعلناً، واستخفافهم بالمبادئ الدينيّة التي يحارب من أجلها. وهنا أعود ثانية لكتاب غرام المتميز حول غيتيسبرغ لأقوم بمقاربة بسيطة قد تثير حفيظة البعض لأنها تضع السيد لينكولن وبن لادن في نفس الخندق. يؤكد غرام في كتابه أن الكثير من أفكار لينكولن قد تبدو

غريبة على أميركا في الوقت الراهن ذلك لأن ثقافتها وقوانينها اليوم قد "أصبحت مغرقة في علمانيتها وابتعادها عن الدين ولأن ما لدينا الآن هو مجتمع يزداد بعداً عن المدنيّة وينتشر فيه انعدام الضمير..."[73] ويتابع غرام "إن لينكولن كان مؤمناً بوجود عالم أخلاقي يمكن للناس فيه أن يعرفوا الفرق بين الخطأ والصواب، وأن يكون سلوكهم في الحياة مبنياً على ذلك. أودّ أن أؤكد هنا أن بن لادن يؤمن بوجود هذا العالم أيضاً، وأن المسلمين يكنون له الحب والاحترام والتأييد، لأنه يتحدث عن هذه الحقيقة ويدافع عنها. وفي سياق محاولة فهم تأثير بن لادن على المسلمين، يمكن أن يكون وصف غرام لمنطق لينكولن الأخلاقي والسلوكي - الذي لا يزال الأميركيون يحترمونه، حتى وإن كانوا لا يطبقونه - مفيداً لمن يحاول فهم المكانة التي يتمتع بها بن لادن في العالم الإسلامي. وهذا بعض ما جاء في كتاب الأستاذ غرام عام 1994:

> "إن آراء لينكولن ليست حديثة ومعاصرة، فالكون بالنسبة له إذا لم يكن عشوائياً فلا بد أنه ليس محايداً أخلاقياً، وبرأيه لا بد أن يكون لهذا الكون إله، ولهذا يجب أن يكون البشر مسؤولين عن سلوكهم في هذا الكون المتناغم، ليس فقط من الناحية الفيزيائيّة الماديّة، بل من الناحية الأخلاقيّة أيضاً. كما أنه يمكن معرفة الفرق بين الخير والشر. أما الواجب والمسؤوليّة تجاه الآخرين فهي أشياء حقيقيّة وموجودة في هذا العالم، فنحن في نهاية الأمر لا يمكننا إصدار أحكام مطلقة لأننا لسنا مؤهلين للقيام بذلك، وكما جاء في العهد القديم فإن الأمم مسؤولة أمام الرب، وتحاسب محاسبة الأفراد"[74].

5

وجهات نظر بن لادن حول العالم: بعضها قديم والبعض الآخر جديد وتطور جديد؟

تدور الحرب حول كلمات وأفكار... إن لمن الصعب بمكان وخاصة بالنسبة للأميركيين أن يفهموا هذه العلاقة، لأنه يبدو أن هذه البلاد لا تؤمن ولا تدرك أن الكلمات والأفكار هي شيء هام. لكن الطريقة التي سيقرأ فيها أصوليو العالم كتبهم السماويّة خلال الأعوام المئة القادمة، ستكون بمثابة حياة أو موت بالنسبة للملايين من الناس.

كنت غرام، 1999[1].

إن صورة بن لادن التي باتت معروفة اليوم هي أغنى وأكثر تعقيداً ودقة من تلك الصورة الكاريكاتوريّة التي صورته على أنه متعصب مجنون، مفعم بالكراهيّة. "كل الرجال يحلمون، لكن أحلامهم تختلف، فهناك من يحلمون في الليل في أعماق ذكريات عقلهم الباطن لكنهم يصحون في النهار ليجدوا أن أحلامهم ضاعت هباء، لكن أولئك الذين يحلمون في النهار هم رجال خطرون لأنهم قد يعيشون أحلامهم وعيونهم مفتوحة كي يجعلوها حقيقة ممكنة". هذا ما كتبه تي أي لورنس أو الرجل الأسطوري لورنس العرب. وأعتقد أن بن لادن هو أحد هؤلاء الرجال الخطرين الذين تحدث عنهم لورنس.

بروس هوفمان، 2001[2].

تسري موجة من التوتر والإثارة في الجهاز الإداري الأميركي، كلما انتشرت إشاعة تفيد بظهور شريط فيديو أو شريط إذاعي لأسامة بن لادن تم إرساله إلى قناة

الجزيرة أو العربيّة، أو إحدى المحطات الإخباريّة الأخرى. كما لو أن مجرد الكلمات التي ينطق بها هذا الرجل تعد خطراً يتهدد الوطن، وهي لفظة لم نعتد استخدامها للتعبير عن أميركا، إلا أنها تعيد إلى الأذهان ذكرى الجمل التي كان يستخدمها هتلر وستالين أيام الحرب العالميّة الثانية. وعلى أية حال، بعد انتشار الإشاعة يتم بث الشريط، وقبل أن ينتهي تصريح بن لادن تنطلق موجة من الإهانات الأميركيّة الرسميّة، وتتوالى هجمات الخبراء الجنائيين والشرعيين على آخر إنتاج إعلامي للقاعدة. وتدين وزارة الخارجيّة هذه المحطة الفضائيّة العربيّة أو تلك لقيامها ببث رسالة من إرهابي إلى العالم دون أي "إحساس بالمسؤوليّة من قبلها". وسرعان ما تتبع هذه التصريحات المُدينة أخرى مثلها يطلقها مسؤولون وخبراء أميركيون غيرهم لتأييد تلك التصريحات. وفيما تستمر نوبات الغضب والنقمة الشعبيّة على تصريحات بن لادن، يطلق العنان على إثرها للخبراء الحكوميين والإعلاميين لينقضوا على الشريط وقد أوكلت إليهم مهمة الإجابة على أسئلة تهدف – على ما أعتقد – إلى جعل الولايات الأميركيّة أكثر أمناً. وبعض هذه الأسئلة: هل تبدو لحيته أطول قليلاً؟ هل اكتست بالشيب أكثر مما كانت عليه من قبل؟ أنظر إليه! إنه لم يحرك كتفه الأيسر، هل تعرض لإصابة ما؟ هل هذا هو فعلاً صوته؟ ألا يبدو وكأن صوته فيه بحة أكثر من العادة؟ هل يشرب ماء أكثر من المرة الماضيّة؟ هل يعني هذا أنه يعاني من قصور كلوي؟ أنظر! إنه يستخدم عصاً ليتعكز عليها وهو يصعد الجبال! هل يعاني من أوجاع في ظهره؟ ماذا عن هذه الصخور؟ هل هي صخور بركانيّة أم تراها رسوبيّة؟ اتصلوا بعلماء الجيولوجيا! هل يمكننا تحديد موقع هذه الصخور في أفغانستان؟ وهل هذه زهور بريّة أم أنها أشنيات قطبيّة؟ لحظة! ماذا عن شجرة التنوب هذه، تلك التي تظهر على الجبل الثالث على اليسار؟ هل يمكننا أن نركز على هذه الصورة؟ هل يبدو شاحباً أكثر من عادته؟ هل يرتدي ثياباً عربيّة أم أفغانيّة؟ هل تزقزق هذه العصافير التي تظهر في خلفيّة الصورة؟ أرسلوا في طلب أحد علماء الطيور! أنظر إلى هذه القبعة! هل سبق له أن ارتدى مثل هذا النوع من القبعات؟ هل هذا الشيء الذي يبدو مثبتاً على حزامه خنجر؟ لماذا لم يثبت خنجراً على حزامه؟ انظر إنه يرمش بعينه! هل من الممكن أن تكون هذه إشارة تتعلق

بإصدار أمر بالهجوم؟ أرسلوا في طلب المحلل الذي يفك رموز رمش العيون! ماذا عن...

وفي خضم هذه العاصفة الرهيبة من اللغط والحماقات التافهة، نلاحظ أن كلمات بن لادن هي أكثر شيء يتم تجاهله في هذا الشريط، ولا أحد يحللها أو يبحث في معانيها. (يمكن للمهتمين أن يلقوا نظرة إلى المراجع المذكورة في آخر الكتاب للحصول على عناوين المواقع الإلكترونيّة التي يستخدمها بن لادن بشكل متكرر). في الحقيقة، لم تقم وسائل الإعلام الأميركيّة أو الغربيّة الكبرى بأي مجهود يذكر لنشر تصريحات بن لادن، وبالتالي فإنها لم تنجح في إعطاء جمهور مستمعيها أو مشاهديها الكلمات التي تضع أفكاره وأعماله في السياق الثقافي والتاريخي، الأمر الذي من شأنه زيادة الوعي لدى الغرب بالخطر المميت الذي يمثله بن لادن. وبكلامه الهادئ والدقيق يبني بن لادن تصريحاته بتؤدة وأناة مكرراً ومركّزاً على مواضيع معروفة مسبقاً، ويأخذ بحسبانه الأحداث العالميّة الراهنة والعمليات التي تقوم بها الولايات المتحدة. فبعد مرور قرابة سنتين على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، لوحظ أن بن لادن لم يعدّ يتكلم بنفس الوتيرة التي كانت تتبعها تصريحاته، وهذا يعود إلى ضرورات الحرب من جهة، ومن جهة أخرى لأنه يعترف بقوة الصمت العظيمة، وهي معلومة صغيرة نسيت في الغرب منذ مدة طويلة، وخاصة في واشنطن. وعندما تحدث بن لادن كانت بعض مواضيعه قديمة وبعضها الآخر جديد. فقد ذكر بوضوح أن هناك استمراريّة في الاعتداءات ضد الإسلام تقتضي تحقيق الوحدة الإسلاميّة، والجهاد الدفاعي، كما تحدث عن الدور الأساسي الذي يلعبه هو والقاعدة في الحث على الجهاد وعن أوامر الله التي تلزم كل مسلم بالجهاد كل بحسب استطاعته، وأن الشباب هم الذين عليهم قيادة طريق الجهاد، وعن الأهميّة الكبيرة لإبقاء الولايات المتحدة على رأس قائمة أهداف الجهاد العسكري، وأنه على العالم الإسلامي أن يأخذ بيد الملا عمر وطالبان لاستعادة السيطرة على أفغانستان. أما خطاب بن لادن الجديد فيتضمن تحذيرات لحلفاء أميركا ليتوقفوا عن تأييدها ودعم العمليات الأميركيّة في العالم الإسلامي. بالإضافة إلى تأييده للعمليات المحدودة التي يقوم بها إسلاميون ضد الأنظمة الحكوميّة "المرتدة" في البلاد

الإسلاميّة، وانتقاده رجال الدين والعلماء المسلمين لمساندهم للحكومات الإسلاميّة التي تساعد أميركا، كما توجه بخطابه إلى المواطنين الأميركيين مباشرة. وأخيراً فإن خطابات بن لادن التي تلت اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر تظهر من جديد أنه يعرفنا، يعرف كيف ستكون ردود أفعالنا أكثر بكثير مما نعرف نحن.

المضي قدماً والمتابعة بنفس الأفكار الرئيسيّة

إن الاعتداءات السافرة التي يقوم بها الصليبيون على الإسلام هي لُبّ القضية بالنسبة لبن لادن. لذا فإن المصداقيّة الدينيّة لدعوته لجهاد دفاعي تعتمد على اقتناع الشعوب الإسلاميّة بأن الإسلام يتعرض لهجوم تشنّه قوى غير إسلاميّة، وهي التي يعرّفها بن لادن على أنها الحملة الصليبيّة التي تقودها الولايات المتحدة والتي تجمع اليهود والمسيحيين ضد المسلمين. ولسوء حظ أميركا، فإن سياساتها وعملياتها في العالم الإسلامي تمنح عيون المسلمين دليلاً واضحاً وضوح الشمس يثبت صحة ما يصفه بن لادن على أنه "**بحر من القمع، والظلم، والمذابح، والسلب، والنهب تمارسونه ضد أمتنا الإسلاميّة. ولهذا فإن ديننا يأمرنا بالردّ على هذه الجرائم باعتداءات مماثلة. فحن ندافع عن أنفسنا ضد الولايات المتحدة. وما نقوم به هو جهاد دفاعي لأننا نريد أن نحمي أرضنا وشعبنا**" (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). إذاً ما هي الأشياء التي يعتبرها بن لادن على أنها "بحر" من الكوارث قامت به القوات الصليبيّة تحت قيادة الولايات المتحدة ضد المسلمين؟ حسناً، يؤسفني أن أعترف أنه على حق، على الأقل بنظر إخوانه المسلمين ورؤيتهم وتقييمهم للعمليات التي تقوم بها الولايات المتحدة في العالم الإسلامي. وقد قال بن لادن في ردّه على الانتقادات التي قالت إن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر أعطت الحكومة الأميركيّة حجة لتبرر حربها على الإرهاب:

> **"نحن نقول إن العدو المتوحش لا يحتاج إلى وثائق أو أعذار ليستمر في الحرب التي بدأها ضد الإسلام والمسلمين منذ عقود طويلة مضت، حباً بالله ما هي تلك الوثائق التي تدين الفلسطينيين وتبيح المجازر التي ترتكب ضدهم، والتي لا تزال ترتكب بحقهم منذ خمسة عقود على يد الصليبيين واليهود. وما هو الدليل ضد شعب العراق الذي أبيح فرض حصار عليه وإعمال القتل فيه بطريقة لم يشهدها التاريخ. وأي وثائق تجرّم**

> مسلمي البوسنة – والهرسك لتعطي الحق للصليبيين الغربيين، وعلى رأسهم الولايات المتحدة بإطلاق العنان لحلفائهم الصرب لإبادة وتشريد الشعب المسلم في المنطقة تحت غطاء الأمم المتحدة. وما هي جريمة الشعب الكشميري وما هي حجة عبدة البقر التي منحتهم الحق في استباحة دم الكشميريين لأكثر من خمسين عاماً؟ وماذا فعل المسلمون في الشيشان، وأفغانستان، وجمهوريات آسيا الوسطى لكي يستحقوا أن تعتدي عليهم وتحتلهم آلة الحرب السوفييتيّة المتوحشة؟ وبعدها عمليات القتل والإبادة والتشريد التي تعرض لها عشرات الملايين منهم على يد الشيوعيين. وما الدليل الذي كان بحوزة الولايات المتحدة يوم دمّرت أفغانستان وقتلت وشرّدت المسلمين هناك؟ حتى إنها فرضت قبل ذلك حصاراً جائراً على الشعب الأفغاني دون أي مبرّر، وتم ذلك تحت غطاء الأمم المتحدة. وتحت نفس الغطاء تم تمزيق أراضي إندونيسيا، وأجبر الشعب المسلم على الرحيل عن تيمور... وتحت نفس المظلة أيضاً، تدخلت القوات الغربيّة في الصومال وأعملت في الشعب تقتيلاً ودنست أرض الإسلام هناك. كما أنها كانت أول من حث الحاكم الفليبيني الصليبي على إبادة إخواننا المسلمين هناك. وثمة الكثير من الأحداث الأخرى التي لا تعد ولا تحصى. ونحن نقول إن كل المسلمين الذين يتعرضون للإبادة على يد الآلة الصهيونيّة الصليبيّة العالميّة لم يرتكبوا أي جرم إلا قولهم ربنا الله.[3]
> (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

إن اتهامات بن لادن فيها جانب كبير من الحقيقة، بالرغم من أنها مشوبة باقتناعه التام بسوء نوايا الغرب تجاه المسلمين. وكل الصراعات التي ذكرها حدثت فعلاً أو لا تزال مستمرة والأهم من ذلك هو أن تصويره لتلك الأحداث على أنها اعتداءات على الإسلام والمسلمين هو أمر منطقي تماماً، ويسهل تصديقه من قِبل المسلمين في كافة أنحاء العالم. ولدى التعرض لما وصفه بن لادن "بالهجوم الضاري" فإنه كان على حق تماماً من الناحية الدينيّة عندما ادعى أن الردّ المناسب على تلك الاعتداءات والمستمد من القرآن يتمثل بالجهاد الدفاعي. "إن المسلمين لم يؤمروا أن يديروا وجههم إلى الناحية الأخرى، كما أنهم لا يتوقعون أن يستخدموا رماحهم وسيوفهم للعناية بالأرض والزراعة فقط بل للحرب أيضاً"[4]. هذا ما كتبه برنارد لويس في تذكرة للغرب في كتابه الرائع *أزمة الإسلام*. كما كان قد كتب الباحث الأميركي في الطريقة الإسلاميّة في الحرب جيمس تيرنر جونسون أنه بالرغم من أن هناك طرقاً عديدة للجهاد "فإن علماء الدين والشرع أقروا بضرورة جهاد السيف، أولاً لأن دار الحرب [وهي هنا الغرب الذي تقوده الولايات المتحدة] قد فرضت نفسها على دار

الإسلام..."[5] وهذا ما تحدث عنه بن لادن في الرسالة التي وجهها إلى الشعب الأميركي في العام 2002 حيث طرح السؤال البلاغي التالي: "لماذا نقوم بشنّ حرب جهاديّة دفاعيّة ضدكم؟" ثم أجاب: "**إن الإجابة على هذا السؤال بسيطة للغاية. لأنكم اعتديتم علينا ولا زلتم مستمرين في الاعتداء**"[6] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

حث المؤمنين

بعد تحديد بن لادن للخطر الذي يتهدد الإسلام على أنه 'الاعتداءات الصليبيّة بقيادة الولايات المتحدة' ووصف الجهاد الدفاعي على أنه الدواء الناجع الوحيد للقضاء على هذا الداء، يرى بن لادن أن على القاعدة أن تلعب دوراً هاماً، على أنها "طليعة الأمة الإسلاميّة" على حدّ وصف الظواهري "**التي اتخذت قراراً بمحاربتكم حتى الرمق الأخير وعدم الاستسلام لجرائمكم ورذائلكم**"[7]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) وتكمن الأهميّة الكبرى للقاعدة بالنسبة لبن لادن لا في المشاركة الشخصيّة فيها ولا في قدرات المجموعة العسكريّة، حيث إنه يؤكد باستمرار أنه هو والقاعدة بمفردهم لا يمكنهم تحقيق النصر للمسلمين. فهو يرى أن المسؤوليّة الأولى للقاعدة هي حث المسلمين على الانضمام إلى صفوف المجاهدين وتقديم المساعدة لتدريب وتوجيه وقيادة أولئك الذين انضموا، كما قال بن لادن أنه اتخذ على عاتقه مهمة الحث على الجهاد وذلك أسوة بالقادة المسلمين الكبار في أيام الفتوحات الإسلاميّة الأولى، مشيراً إلى أن الله أمر "**النبي (ص)، أحسن البشر بالقيام بهذا العمل**"[8] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) واتباعاً منه لهذا المثل الأعلى، أكد بن لادن على ضرورة "تقديم الإلهام الذي تحتاجه أمتنا" لصدّ الصليبيين.[9] وقد وضّح هذا إثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر قائلاً:

> "عليّ أن أقول إن واجبي هو إيقاظ المسلمين من غفوتهم فقط، وأن أوجههم نحو ما فيه خيرهم وأبعدهم عما يضرّهم... لقد تأسست القاعدة للجهاد ضد الكفر وللتصدي بشكل خاص للدول الكافرة التي تعتدي على البلاد الإسلاميّة. إن الجهاد هو الركن السادس غير المعلن من أركان الإسلام. وكل عنصر معاد للإسلام يخشاه، والقاعدة تريد الحفاظ على حياة وفعاليّة هذا الركن وجعله جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليوميّة للمسلمين. أريد أن أعيد إليه صفة العبادة[10]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

ويؤكد بن لادن على الدوام أن كل مسلم يجب أن يلعب دوراً في الجهاد الدفاعي، ذلك لأنه فرض عين وليس فرض كفاية[11]. "إن أمتنا غنيّة بالموارد والقدرات وأهم هذه الموارد على الإطلاق هو الإنسان المسلم حيث إنه وقود المعركة ومحرّك الصراع"[12] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ويؤكد بن لادن أن هذه المسؤوليّة الكبيرة تقع على عاتق قادة الجهاد الحقيقيين وهم "علماء الدين، والدعاة، والإصلاحيين الصادقين"[13] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ويدّعي بن لادن دوماً أن السبب الوحيد لتوليه الزعامة في قتال الولايات المتحدة هو أن أهم رجال الدين الإسلامي محتجزون في سجون .... وغيرها من بلدان الشرق الأوسط والولايات المتحدة. ويقول إنه في الأحوال العاديّة "يتوجب على علماء المسلمين، والفقهاء، ورجال الدين أن يكونوا في مقدمة صفوف الجهاد ليقودوا العمليات ويوجهوا الخطا"[14] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وهو يعتقد أنه لو تمتع هؤلاء العلماء بحريّة الكلام لكان حث المسلمين على المشاركة في النواحي الأخرى غير العسكريّة من الجهاد أكثر سهولة. وبسبب عدم تمكن بن لادن من تحرير أولئك العلماء بالإضافة إلى غضبه الشديد الذي أثارته كلمات رجال الدين الذين يعملون لحساب ....، ......، وأمثالهم فإنه قد عاد ليذكّر رجال الدين بواجباتهم وقد كتب في هذا الشأن:

"وهكذا فإن الجهاد اليوم هو فرض عين على الأمة بأسرها، وستظل أمتنا خاطئة مذنبة حتى تقدم أبناءها، وثرواتها، وكل ما لديها من قوة إلى الحدّ الذي يجعلها مستعدة للجهاد ضد شرور الكفرة، دفاعاً عن جميع المسلمين في فلسطين وفي شتى أنحاء العالم.

إن واجبكم الأول هو إطلاع أمتكم على الحقيقة، وإشهارها في وجه قوى الظلام دون أي مواربة أو خوف. هذا ما يقتضيه ما عاهدتم الله عليه. "وتذكروا أن الله أخذ من أهل الكتاب عهداً أن يهدوا البشر إليه، وأن يفسروه لهم، وألا يخفوا منه شيئاً".

إن أهمية المهمة الملقاة على عاتقكم تنبع من الخداع الخطير والتضليل الذي يمارسه العلماء الذين يعملون لحساب السلطات الفاسدة، ورجال الدين التابعين للحكام الذين يتاجرون بالدين، والمسؤولين عن الدين أمام الأمة الذين باعوا إيمانهم ودينهم للحصول على مكاسب لن تدوم طويلاً"[15] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

ثم توجه إلى الغالبيّة العظمى من المسلمين الذين لا ينتمون إلى فئة رجال الدين أو الجنود، فحذّر أولئك الذين لا يمكنهم القتال أو حمل لواء الدعوة والإرشاد قائلاً: **"ليس هناك أي عذر لأولئك الذين يدّعون بأنه لا يمكن أن يذهب جميع المسلمين إلى القتال والجهاد"**[16] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). فكل مسلم لديه دور حددته "الأوامر الإلهيّة"، **"وهذا يعني أن كل فرد في الأمة الإسلاميّة يمكنه أن يشارك في الجهاد... بحسب موقعه، وضمن حدود طاقته ومقدرته مستخدماً كل الوسائل المتاحة له** (من **القيام بتفجيرات، أو مقاطعة البضائع الأجنبيّة، أو الدعوة، أو الأسر، أو التمويل، أو التوعيّة، أو الصلاة والدعاء، أو الاغتيالات...)"**[17] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) هذا ما كتبه أبو أيمن الهلالي في موقع الأنصار في مارس 2002. كما ذكّر بن لادن الإعلام الغربي على سبيل المثال وما يشنّه من "حملات شعواء" ضد الإسلام. لذا فقد ناشد الناشرين وأصحاب المحطات التليفزيونيّة والإذاعيّة الإسلاميّة **"باتخاذ موقف جاد ولعب دور فعال في التصدي للأجهزة الإعلاميّة الغربيّة المرئيّة، والمسموعة، والمكتوبة"**[18] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كما دعا الأغنياء للانضمام إلى صفوف المجاهدين لأن **"بذل الأموال في سبيل الله هو فرض ديني"** (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) وهو بنفس أهمية الذهاب للقتال في ساحات المعارك. وقد فسّر بن لادن ذلك قائلاً: **"هناك مجموعة من التجار وأصحاب رؤوس الأموال الذين يلعبون دوراً هاماً كغيرهم في دفع هذه المعركة لتحقيق أهدافها المرجوة. فالمال الذي تبذله وإن كان قليلاً يمكنه أن يوقف السيل الجارف الذي يريد القضاء علينا جميعاً... إن الجهاد بالمال والثروة هو فرض إجباري اليوم على أغنياء المسلمين أكثر من غيرهم ممن لا يتمتعون بنفس الغنى"**[19] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كما أن بن لادن التزاماً منه بالدعوة والحث إلى الجهاد، نجده يناشد النساء المسلمات **"اللواتي لا يقل دورهم أهمية عن دور الرجال"** (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وبعد مقارنته للنساء المسلمات في العصر الحاضر بالبطلات من عصر فجّر الإسلام، يوجه بن لادن تحية إجلال لما فعلته تلك النساء في المعارك ويقول إنه يتوقع المزيد منهن.

أيتها الأخت التي تسير على خطى النساء الفاضلات بإرسالها إخوتها إلى ساحات البطولة بثبات وتصميم.

أنتن اللواتي حثثن وشجعن على البطولة والشهادة وأنشأن قبل ذلك كل الرجال المجاهدين في فلسطين، ولبنان، وأفغانستان، والشيشان، أنتن اللواتي قدّمن زمرة الأبطال الذين أخضعوا واشنطن ونيويورك.

وإذا كنا قد نسينا بعض الأمور، فلا يمكننا أن ننسى بطولة المرأة الفلسطينيّة المسلمة في الأراضي المقدسة، ومواقفها العظيمة التي لا يستطيع مجاراتها فيها العديد من الرجال. فهي لم تضن بالزوج ولا الابن في دعمها للأقصى المبارك. حتى أنها ضحّت بروحها رخيصة لتنضم إلى قافلة الشهداء وذلك لتجد السند والعون عند ربها متجاهلة بعملها هذا كل إغراءات العالم وفتنه.

أيتها المسلمات نحن نتوقع الكثير منكن اليوم. فبين أيديكن كل الوسائل التي يمكنكن بواسطتها تقديم العون لدينكن، وأمتكن، وسنة رسولكن عندما تكنّ صادقات ومخلصات لله[20] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وكعادته يتابع بن لادن الحوار الذي بدأه قبل عشر سنوات فيتوجه إلى الشباب المسلم، ويؤكد أنه على الرغم من كون الجهاد الدفاعي فرض عين على عامة المسلمين فإنه "**أكثر إلزاميّة بالنسبة للشباب في مقتبل العمر عما هو بالنسبة لكبار السن**"[21] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ومن الواضح أن لهجة خطاب بن لادن التي كان يتوجه بها إلى المسلمين الشباب قبل الحادي عشر من سبتمبر 2001، قد تغيّرت بعد هذا التاريخ. حيث إنها كانت تتميز بالتوبيخ، والانتقاد، وإلحاق العار بهم لدفعهم على التحرك. أما الآن فقد أصبحت تعبّر عن تأييد وإطراء. وربما يكون السبب في هذا التغيير هو التدفق الكبير للشباب وتجمّعهم في عشرات التنظيمات الإسلاميّة المسلّحة التي تأسست اليوم والتي يحاربها العالم أجمع. ومن المؤكد أن عدد الرجال لا يشكّل أي مشكلة بالنسبة للقاعدة. فكما أشرت أعلاه، لقد أعادت المنظمة عدداً من المقاتلين من أفغانستان إلى أوطانهم وذلك في أواخر عام 2001 لأنه لم تكن هناك حاجة لوجودهم هناك في تلك المرحلة من الحرب، ولم يبدؤوا بالعودة إلى أفغانستان إلا في أواسط العام 2003. وأخيراً، فإن تمسك واشنطن بسياساتها الراهنة إزاء العالم الإسلامي واستمرار إعطائها الضوء الأخضر لإسرائيل، وإطلاق يدها للقيام بعمليات عسكريّة ضد

الفلسطينيين سيؤدي بالنتيجة إلى تطوع المزيد من الشباب للجهاد، حتى وإن لم يكن هناك وجود لبن لادن على الإطلاق، وحتى لو لم يتم غزو العراق. وبالنسبة لبن لادن، إن أكثر وسيلة فعالة يمكن تصوّرها في تجنيد الشباب تتجسّد في استمرار الولايات المتحدة بما تفعله في العالم الإسلامي منذ ثلاثين سنة خلت وحتى اليوم. أما احتلالها للعراق وما تلاه من نشوء حركات إسلاميّة معارضة هناك فليس إلا الشعرة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة للقاعدة.

كما أن قرار بن لادن في تغيير لهجة خطابه الموجه إلى المسلمين الشباب من النقد إلى الرعاية والتأييد، يبدو وكأنه محاولة تعمّد فيها توطيد وترسيخ أسس تقليد ذهاب الشباب المسلم للقتال من أجل الجهاد في سبيل الله، ولجعله جزءاً أساسيّاً من عمليّة النضوج أي الانتقال إلى مرحلة المسؤوليّة، كما هي الحال عندما يبلغ الشاب الثامنة عشر من عمره عند الأميركيين الذين ينتمون إلى جيل ما بعد عام 1945. وفي سياق المساعي التي يقوم بها بن لادن لكتابة التاريخ وصنعه أيضاً، فإنه يقول إن الشباب المسلم يمكنهم أن يعدّوا اليوم مدافعين شجعان يمكن الاعتماد عليهم في الذود عن الأمة – كما كان الشباب في فجر التاريخ الإسلامي – وأن الأجيال التاليّة ستمشي على خطاهم. وفيما يلي بعض ما جاء في الخطاب الذي وجّهه بن لادن إلى الشباب المسلم بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر:

> **"لقد كنا نناضل منذ كنا في ريعان الشباب، وقد ضحّينا ببيوتنا، وعائلاتنا، وكل ملذات الحياة الدنيا في سبيل الله. لقد حاربنا السوفييت في شبابنا وانتصرنا عليهم (بعون من الله)، وقد كانوا يشكّلون قوة عظمى في ذلك الوقت، والآن إننا نحارب الولايات المتحدة. ولم نخذل الأمة الإسلاميّة مرّة في حياتنا...**
>
> **وقد قدّمنا نحن، الرجال ذوي الخبرة النقاط الرئيسيّة التي ستدل شباب الأمة على طريق الصواب طريق الجهاد وقد رسمنا لهم الخط الذي عليهم اتّباعه. أيها الشباب، ليس عليكم إلا أن تمشوا على هذا الطريق، وأن تنقلوا هذه التجارب والخبرات إلى الأجيال التي ستأتي بعدكم. لقد نقلناها إليكم من أولئك الذين كانوا قبلنا، لذا عليكم أن تسلموها إلى الأجيال القادمة[22]...** (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

لم يستخدم بن لادن فكرة إنه يشكّل جزءاً من التاريخ الإسلامي لتشجيع الشباب على الانضمام إلى القتال فحسب، بل إنه يتحدث عن هجمات الحادي

عشر من سبتمبر على أنها المثل الأعلى في الجهاد الذي يجب أن يحتذيه الشباب. إنني أعتقد أن الغرب لا ينظر أبداً بعين الاعتبار لدرجة الإعجاب والاحترام، وحتى الحب الذي يكنه بشكل خاص الشباب المسلم لمنفّذي هجمات الحادي عشر من سبتمبر. لقد شاهدنا ولسنوات طويلة عمليات الانتحاريين الفلسطينيين واستنتجنا أنّ أولئك الشباب والشابات اللواتي انضممن إليهم مؤخراً هم شخصيات مأساويّة، وضحايا الفقر، والتعليم الرديء، والبطالة، واليأس، ونتيجة عمليات غسيل الدماغ التي يتعرضون لها على يد السياسيين السوداويين والزعماء الدينيين. والمعادلة هنا في غاية البساطة: فالفكرة السائدة في الغرب هي أن الانتحار هو نتيجة لليأس، والخوف، والأمراض العقليّة، ولهذا فنحن نفترض جدلاً أن هذه هي الحالة السائدة بين المسلمين الذين يقدمون على مثل هذا العمل. إننا نحكم على الانتحاريين، وندين عملهم على أنهم ظاهرة سلبيّة، وذلك بناء على تجاربنا وخبرتنا، حيث إنه لا يمكننا أن نراهم بأي منظار آخر. وحتى اليوم، لم نتمكن من رؤية قضيتهم إلا بعيون غربيّة، لذا فقد فاتتنا حقيقة هامة وهي أن الانتحاريين الفلسطينيين الشباب بنظر أعداد كبيرة من المسلمين هم أبطال لديهم الإرادة القويّة والشجاعة التي تدفعهم إلى التضحية بحياتهم – أي الشهادة لا بهدف القيام بهجمات انتحاريّة – في سبيل قضية أكبر من حياتهم، قضية أباحها الله. وما يراه الغرب وحشيّة رهيبة يمارسها أشخاص يائسون من الحياة ومختلون عقلياً، يراه المسلمون في العالم عملاً بطولياً يدل على تضحية بالنفس، ووطنيّة، وعبادة وهم ينظرون إليه على أنه عمل يستحق الثناء لا الإدانة والاشمئزاز، عمل جدير بالامتنان والاحترام ويستحث الهمم على اتباع طريقه. وعلاوة على ذلك فإن هذا العمل برأي المسلمين ردّ عسكري عادل على احتلال إسرائيل لفلسطين منذ أكثر من خمسين عاماً وإبعادها لثلاثة أجيال من الفلسطينيين، وتشريدهم في مخيمات اللجوء.

لقد هدفت اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر إلى الارتقاء بالهجمات الانتحاريّة إلى مستوى أعلى من الذي وصلت إليه، مستوى يلفت نظر العالم أجمع إلى المعركة الرهيبة بين الصليبيين المسيحيين، وحلفائهم الصهاينة، والمجاهدين المدافعين عن دين الله. وقد قال بن لادن في هذا الخصوص: "إن أولئك الشباب

صاغوا بأعمالهم في نيويورك وواشنطن خطابات عتّمت على كل الخطابات التي ألقيت في العالم أجمع. وقد فهم فحوى تلك الخطابات العرب وغيرهم، حتى الصينيين تمكنوا من فهمها"[23]. ونتيجة لرسوخ مفهوم الانتحار عند الغرب، فقد سبّوا وشتموا المهاجمين، ونظروا إليهم على أنهم قتلة أشرار كان هدفهم الوحيد قتل الأبرياء. كما أدان معظم الغربيين تلك العمليّة ونظروا إليها مرة ثانية على أنها نتاج اليأس وغسيل الأدمغة. فمثلاً عندما تم عرض شريط فيديو عن بن لادن لم يكن قد أعد للبث التليفزيوني، اتفق المسؤولون، والمحللون السياسيون، والصحفيون الغربيون بإجماع شبه كامل أن وصفه لمنفذي هجمات الحادي عشر من سبتمبر كان يتسم بالغرور والسخريّة التشاؤميّة لدرجة أنهم كانوا يضحكون من سذاجتهم التي جعلتهم يصعدون إلى الطائرة دون أن يعرفوا أنهم كانوا في طريقهم إلى الموت في ذلك اليوم. إن التحليل الغربي لذلك الشريط جعل الرجال التسعة عشر يبدون وكأنهم دمى منحوسة في لعبة وحشيّة بيد بن لادن، وقد توافقت هذه الفرضيّة بشكل تام مع آرائنا المسبقة حول الأسباب والظروف التي سبّبت ظهور الانتحاريين.

إلا أنه لو تم النظر والتمعن للحظات في أحداث الحادي عشر من سبتمبر بعيون وآذان مسلم يؤمن أن الدفاع عن العالم الإسلامي، وعن دينه يتطلب أحياناً التضحية بحياته من أجل إخوانه في الدين ونصرة دين الله، عندئذ لا بد وأن يتخذ تحليل شريط بن لادن منحى آخر مختلف تماماً عن سابقه. وقال بن لادن للأشخاص المتجمعين حوله كما يظهرون في الشريط: "**إن كل ما كان يعرفه الإخوان الذين قاموا بالعمليّة أنهم كانوا سيقومون بعمليّة استشهاديّة، وقد طلبنا من كل واحد منهم الذهاب إلى أميركا، لكنهم لم يعلموا بأي حرف من تفاصيل العمليّة على الإطلاق. إلا أنهم كانوا مدرّبين بشكل جيد، ولم نكشف لهم تفاصيل العمليّة، إلا بعد وصولهم إلى هناك [الولايات المتحدة] وقبل أن يصعدوا إلى متن الطائرة مباشرة**"[24] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وما سمعه الغرب على أنه سخريّة سوداء وتلاعب وحشي، كان المسلمون قد سمعوه على حقيقته كما هو تماماً، رثاء قاله بكل هدوء وفخر رجل امتلأ قلبه بالتقدير والإعجاب للشباب

الذين سلّموه أنفسهم طواعيّة بكل ثقة وضحّوا بحياتهم دفاعاً عن الإسلام. وقد تحدّث بن لادن في تصريحات أخرى عن المهاجمين التسعة عشر بطريقة تُعبّر عما قد يشعر به معظم المسلمين في العالم.

> لقد أدرك هؤلاء الرجال أن الجهاد في سبيل الله هو الطريق لإحقاق الحق وإزهاق الباطل. كما عرفوا أن الجهاد في سبيل الله هو السبيل للقضاء على طغيان الكفرة... لقد عمل هؤلاء الرجال بكل جهد لتحضير الجواب يوم الحساب. إن الإيمان بالله، واليوم الآخر، واتباع سنّة محمد صلى الله عليه وسلم هو ما دفعهم لترك بيوتهم[25]... (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

وهكذا فإن انتحاريي أميركا الشريرين، قد ينظر إليهم أيضاً على أنهم أبطال الشهادة الإسلاميّة، وهم رجال ونساء يتّبعون خطى الأبطال المسلمين، وسنّة رسولهم اعتماداً على كلام ربهم. وتؤكد وجهات النظر هذه حول المهاجمين استطلاعات الرأي التي أجرتها قناة الجزيرة لمشاهديها، والتعليقات الإعلاميّة التي أثارتها، وذلك عندما عرضت الكلمات الأخيرة والتصريحات التي سجلها الانتحاريون. إن الغرب يتجاهل بسرعة كبيرة حقيقة أن الانتحاريين المسلمين في فلسطين، وانتحاريي الحادي عشر من سبتمبر قد أصبحوا مثلاً أعلى يتطلّع إليه العديد من الشباب المسلم. وعلى الرغم من أن معظم الهجمات الانتحاريّة التي حدثت بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 لا تزال ترتكب على يد عرب في وسط الأراضي العربيّة، فإن العيون المسلمة لا تزال ترى في تلك العمليات نفس التضحية بالنفس والبطولة التي تنظر فيها إلى العمليات التي تنفذ في أماكن بعيدة كغروزني، وتونس، وجاكرتا، وموسكو، وكشمير، والهند، وبالي. يمتلك بن لادن كل الحق بأن يشعر بالإعجاب الشديد إزاء أدائهم والحماس نحو أعدادهم المتزايدة. لقد عاد بن لادن من جديد إلى التاريخ عندما قارن في أكتوبر 2002 الشباب المسلم المقاتل ذكوراً وإناثاً في العصر الحاضر مع الأبطال الشباب في التاريخ الإسلامي، مستبشراً بأن الشباب الذي كان دائماً "القوة الدافعة للتغيير على مرّ تاريخ الأمة الإسلاميّة" لا يزال كذلك حتى يومنا هذا. وقد كتب في هذا الخصوص: **"يا شباب الإسلام، أنتم الذين ستعبر هذه الأمة فوق جسور تضحياتكم**

إلى برّ النصر، وميدان الكرامة والعزة، وستجلب النقلة الكبيرة من السعادة إلى البشر والرحمة للإنسانيّة. فأنتم فرسان المعارك وأبطال الوغى"[26] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

ووسط كافة تصريحات بن لادن، هناك إشارة وحيدة تظهر بعض الإحباط - وربما الغضب ومسحة من اليأس - تكمن في الجهود التي يبذلها في حث المسلمين على تطبيق أكبر لمظاهر الجهاد الأخرى غير العسكريّة. ويستمر بن لادن الذي يشعر بالخيبة بتذكير المسلمين أن القاعدة لا يمكنها أن تهزم الكفرة لوحدها. "**إذا كانت الجماعات الخاصة [كالقاعدة] تقوم بدور لا يساهم فيه الآخرون، فستكون الجماعات العامة الوقود الحقيقي للمعركة وموادها المتفجرة"**[27] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). هذا ما قاله بن لادن في أكتوبر 2002 متوجهاً إلى المسلمين المقتدرين والمتقاعسين عن تأدية واجبهم في الجهاد بوسائل غير عسكريّة. كما قال إن دور القاعدة لا يمكن أن يكون أكثر من دور "**المفجّر أو الفتيل الذي يؤدي إلى التفجير بشكل محدود ذلك لأن مقاومة الأعداء هي عمل لا تقوم به إلا فئة ضئيلة جداً من الأمة"**[28] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وكما ذكرت فإن تجنيد المسلمين من كافة الطبقات الاجتماعيّة، وضمّهم إلى الجماعات الإسلاميّة المسلحة لا يبدو أنه يعاني من نقص، بل على العكس فإنه سيظل في تزايد مستمر طالما أن بن لادن وغيره من الإسلاميين يستفيدون من ظلم السياسات الأميركيّة، والعمليات الإسرائيليّة لمصلحة قضيتهم. إن إحباط بن لادن وخيبة أمله موجهة إلى المسلمين الأكبر سناً من الطبقات المتوسطة والغنيّة التي تشمل العلماء، والباحثين المسلمين، والأغنياء، وأساتذة الجامعات، ووسائل الإعلام... إلخ الذين يعتقد أن عليهم تقديم دعم أكبر مما قدّموه حتى اليوم. وقد قال بن لادن في نوفمبر 2001: "**إن عامة الشعب قد أدركوا هذه القضية [الحاجة إلى الجهاد]، لكن المشكلة تكمن عند أولئك الذين يتملقون، هؤلاء [حكومات البلاد الإسلاميّة] الذين تآمروا مع الكفرة لتخدير [المسلمين الذين لا فائدة ترجى منهم] لمنعهم من أداء فرض الجهاد كي تعلو كلمة الله فوق كل كلام الجميع"**[29] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وقال بن لادن عندما لم يلقَ أي استجابة من تلك الطبقات الاجتماعيّة التي استمرت بدعمها

للحكومات المرتدة: "**يجب أن نعترف أن سيطرة العدو علينا هي إلى حدٍّ ما نتيجة لما اقترفته أيدينا**"[30] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

إن الوحدة الإعلاميّة التابعة للقاعدة تخاطب المسلمين بشكل أساسي من خلال الأشرطة السمعيّة، وأشرطة الفيديو، ومقالات الإنترنت، والتصريحات التي يدلي بها قادة التنظيم. وكل هذه المنتجات لا تهدف إلى تقديم المعلومات فحسب، بل لإثارة الحماس والحث على المشاركة في أوساط "عامة الشعب" أيضاً، كما أنها تهدف لإخجال وإحراج الأغنياء لأنهم لم يفعلوا ما أمرهم الله به لدعم المجاهدين والدفاع عن دينهم. وهذا الهدف يعدّ تكتيكاً ممتازاً لأن القوة الدافعة إلى استثارة الخجل والإحراج في الحضارة والتقاليد الإسلاميّة لا تزال قويّة ومسيطرة أكثر حتى مما كانت عليه الحال في المجتمع الغربي منذ عدة عقود، خلت ففي يونيو 2002 على سبيل المثال، كتب بن لادن قصيدة ونشرها عبّر فيها عن إحباطه وخيبة أمله كمحاولة لجعل المسلمين المتقاعسين والمتخاذلين يشعرون بالخزي والعار. وقد كتبت القصيدة ردّاً على قصيدة كتبها ابنه حمزة.

ابني يكفى إني شبعا بالآهات والحسر

عقد اللسان فمقلتي نبع ووجداني سقر

والبطر ماذا أقول ونحن في دنيا التكاسل

ماذا أقول لعالم أعمى البصيرة والبصر

السنابك بالغرر أمم تباع وتشترى بيع

عفوا بني فلا أرى بالدرب غير شديد منحدر

سنواته بين التشرد والسفر عقد مرت

عما تسائلني؟ عن قوم أصابهم الخدر

هانحن في مأساتنا ذهب الأمان وبقي الخطر

يذبح فيها كالبقر دنيا الجرائم بني الطفل

صهيون تقتل أخوتي والعرب تعقد مؤتمر

أميركا غدوا عميا ليس لهم نظر أذناب

حبر على ورق فلا صدقوا ولا ظهر الأثر

لم لم يسوقوا قوة تحمي الصغير من الضرر

لها الخبر هذه وربك وصمة كبرى يساق

غدرا بحزم أمره أيذود عنا من غدر

وخانوا الرعية في سحر خانوا الرسول وربنا

إلى متى نقص الرجال والخوالف في غرر

التحرك كيفما أتى لدفع الضرر يجب

وأقسمت بالله العظيم بأن أقاتل من كفر

وتظهر القصيدة إضافة إلى الإحباط الذي يشعر به بن لادن، الخيال الواسع والعبقريّة التي يتمتع بها، وذلك من خلال استخدامه لطرق متنوعة في إيصال فكرته إلى عقول وقلوب جميع المسلمين. تلقى القصيدة اليوم إعجاباً وتقديراً كبيراً كما أنها تستخدم بشكل واسع في الخطاب الموجه إلى الشعب بشكل عام في العالم الإسلامي – وفي المجتمع العربي بشكل خاص – بخلاف ما هو عليه الحال في الغرب. ويوضح عيسى بلاطة أستاذ الأدب العربي في جامعة ماكغيل في مونتريال أن بن لادن يتبع تقليداً قديماً باستخدامه الشعر الذي استخدمه القادة المسلمون منذ بداية العصور الإسلاميّة إلى جانب التلميحات والإشارات إلى حضارات وآداب أو وقائع تاريخيّة أخرى وذلك في خطاباتهم الموجهة إلى عامة الشعب. كما أن بن لادن يظهر معرفة عميقة بالأدب العربي وهذا ما يتوقعه الإنسان المثقف من قائده. ويقول الأستاذ بلاطة موضحاً: "**إن وظيفة الشعر في العالم العربي تمتد إلى مجالات أوسع بكثير مما هي عليه في الثقافة الغربيّة. إن بن لادن يريد أن يظهر أنه قائد، وأنه متعمق في الثقافة العربيّة، وهو يستخدم الأسلوب المقبول في المجتمع التقليدي. فحتى أولئك الأميين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة عندما تقرأ اللغة العربيّة الفصحى على أسماعهم يمكنهم فهمها لأنهم يسمّعون القرآن الكريم كل يوم**"[32] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

استهداف أميركا

يعدّ عمل بن لادن على توجيه غضب المسلمين نحو الولايات المتحدة أحد أهم الصراعات التي يكافح من أجلها اليوم، وهو صراع لم تحسم نتيجته بعد. فآخر البقايا التي خلّفتها الحقبة الاستعماريّة الأوروبيّة في القرن التاسع عشر التي بسطت سيطرتها على العالم الإسلامي، تتمثل بأن حركات المقاومة الإسلاميّة تميل إلى التركيز على أنظمة الحكم القطريّة الخاصة بها. كما أن هذه المخلّفات تدعمها وصايا النبي محمد (ص) التي تقضي بإعلان الجهاد ضد العدو القريب أولاً قبل الالتفات إلى العدو البعيد. ونتيجة لذلك فالمصريون يناضلون ضد حكومة القاهرة، والجزائريون ضد حكومة الجزائر، واليمنيون ضد حكومة اليمن وهكذا. وعلى الرغم من أن الجهاد في أفغانستان ضد السوفييت قد قرّب المسلمين وأتى بهم من شتى أنحاء العالم لقتال الجيش الأحمر، إلا أن معظمهم عادوا إلى بلادهم بعد انتهاء الحرب ليقاتلوا حكوماتهم المحليّة. ولم يكن معظم حكام البلاد الإسلاميّة يعطون أهمية لحركات المقاومة الإسلاميّة في بلادهم، إلى أن ظهر بن لادن على الساحة العالميّة في أواخر الحرب الأفغانيّة. وقد عمل بن لادن بجهد لنقل تركيز الهجمات من الأقطار الإسلاميّة إلى الولايات المتحدة، وحاول أن يبرهن أن السبب في بقاء الحكومات القطريّة الفاسدة هو حماية ودعم الولايات المتحدة لها. ومن الناحية العمليّة، كما أشار مؤلفو كتاب عصر *الإرهاب المقدس* فإن "الأجهزة الأمنيّة القطريّة تمكنت من إلحاق الهزيمة بالمجاهدين"[33]. وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها بن لادن في هذا المجال – مع ملاحظة أن مصر شهدت أعظم نجاحاته – لا تزال هناك حركات كثيرة تركّز على الحكومات المحليّة كما لو أن الاحتلال الأوروبي لا يزال يسيطر على بلادها.

أما الناحية العسكريّة فهي تعدّ مشروع بن لادن الذي لم يكتمل بعد، وهو أحد المظاهر التي يرجح أن تتراجع في تنظيم القاعدة في حال إلقاء القبض على بن لادن أو قتله. فهذه المنظمة المتعددة الجنسيات والأعراق هي إنجاز مذهل – بالفعل إنها ظاهرة غير مسبوقة في العالم الإسلامي الحديث – ويعود هذا الانجاز إلى حدٍّ كبير إلى قيادة بن لادن الناجحة وقدرته على إبقاء كراهيّة أعضاء القاعدة موجهة

نحو الولايات المتحدة. وبينما لا تزال إمكانيّة استمرار الجماعة بهذا الشكل والمضمون الحاليين دون بن لادن، أمراً غير معروف، فإن الدكتور عبد الله النفيسي مدير مركز ابن رشيد للدراسات والأبحاث في لندن، كان قد أكد أن تركيز بن لادن على أميركا هو الأساس الذي يوحّد صفوف القاعدة. وقد قال الدكتور النفيسي لمحاوره في لقاء مع قناة الجزيرة في فبراير 2002: "إن بساطة قضيتهم [تركيز العمليات العسكريّة على الولايات المتحدة] قد تكون مصدر قوتهم، حيث إنه ليست لديهم قضايا مثيرة للجدل داخل التنظيم [القاعدة] بينما يمكن للمرء أن يجد دائماً قضايا ومسائل متنازع عليها داخل أي منظمة إسلاميّة"[34].

إلا أنه يبدو أن بن لادن اليوم يتابع بعزم وتصميم في مهمته التي تهدف إلى تركيز حقد العالم الإسلامي وتوجيهه نحو الولايات المتحدة. وأبرز مثال على نجاح بن لادن يتجلى في القرار الذي اتخذته أهم جماعة إسلاميّة في الجزائر، والمتمثل بإعلانها الولاء لبن لادن والعمل تحت قيادته، حيث صرّح زعماء الجماعة السلفيّة للدعوة والقتال في الحادي عشر من سبتمبر عام 2003 أنهم سيتبعوا قيادة بن لادن وسيركزون هجماتهم من الآن فصاعداً على الأهداف والمصالح الأميركيّة. وفي حقل يصعب فيه الحصول على معلومات علميّة وموضوعيّة، يبرز عمل غالوب *Gallup*، وبيو ترست *The Pew Trust*، والمحطة البريطانيّة بي بي سي *BBC* المتميز في تقديم نظرة شاملة تفسّر كيف تضافرت تصريحات الولايات المتحدة وأفعالها مع ما يقوله وينفذه بن لادن لتنتهي إلى نتيجة تخدم بشكل كبير مصلحة القاعدة وأهدافها في توجيه غضب المسلمين نحو أميركا. فقد أجرت غالوب – على سبيل المثال – استطلاعاً للرأي في فبراير عام 2002، كانت نتيجته أن 53% من المسلمين في العالم لديهم رؤية "سلبيّة" عن الأميركيين ومن بين الكلمات التي تكررت في وصفهم: "أنهم قساة، وعدائيون، ومغرورون، ومتعجرفون، وسريعو الغضب، ومتحيزون"[35]. ثم أجرت استطلاعاً آخر في مارس 2002 وكانت النتيجة أن 80% من الباكستانيين يعتقدون أن العمليات العسكريّة التي قامت بها الولايات المتحدة ضد القاعدة وطالبان "كانت في معظمها أو جميعها غير مبرّرة على الإطلاق". كما أفادت الغالوب أن الرؤية الباكستانيّة تعكس رأي 86% من المغربيين و89% من

الإندونيسيين و60% من الكويتيين[36]. كما أظهرت نتائج 'مشروع المواقف العالميّة' الذي قامت به *The Pew* أن الغالبيّة العظمى في سبعة من ثمانيّة بلدان إسلاميّة تخشى التعرض لغزو الولايات المتحدة، كما أن مشاعر الكراهيّة إزاء الولايات المتحدة "قد ازدادت بشكل كبير" في نيجيريا وإندونيسيا، وقد أظهرت النتيجة بشكل عام أن "الجميع قد انقلب على أميركا في معظم أنحاء العالم الإسلامي"[37]. ونظراً إلى هذه اللقطة السريعة للحقيقة والواقع، لا يسعنا إلا أن نستنتج - في الوقت الحالي - أن التوصيات التاليّة التي قدّمها بن لادن في خريف العام 2002، قد تم اتباعها بحذافيرها. وهذا بعض ما جاء فيها:

"إن الأولويّة في هذا الصراع وفي هذه المرحلة الحاسمة يجب أن تعطى لقادة الكفار، فالأميركيون واليهود لن ينتهوا عن اعتداءاتهم ويوقفوا سيطرتهم علينا إلا بالجهاد... احذروا من أن يتم دفعكم إلى تبديد طاقاتكم، وتبديد مواردكم في معارك هامشيّة مع الأتباع والأحزاب بل ركّزوا ضرباتكم على رأس الكفر حتى ينهار. وعندما يقع الرأس ستقع معه كل الأطراف الأخرى وستختفي وتنهزم[38] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

أهمية أفغانستان

على الرغم من أن أفغانستان قد أُسقطت منذ فترة طويلة من حساب الجهاز الإداري والإعلامي الأميركي - في ما عدا مجلة *Christian Science Monitor* - فإنها لا تزال تشغل الحيز الأكبر من هموم وأولويات بن لادن. وقد غفل الغرب عن العاطفة التي تربط بن لادن بأفغانستان، والامتنان الشخصي، وواجبه الديني الذي يشعر به إزاء الملا عمر وطالبان لاستضافتهم القاعدة، ورفضهم للمطالب الأميركيّة المتكررة بتسليمه. ففي النهاية لا يوجد باعتقادي أي منظمة أو رجل في العالم اليوم على استعداد للتضحية بحكم بلد كامل من أجل رجل واحد ومبدأ ديني باستثناء ما فعله الملا عمر وطالبان. وقد نظر الغرب باستهزاء إلى قرار بن لادن الذي صرّح به في التسعينات والذي أعلن فيه رسمياً ولاءه للملا عمر باعتباره "أميراً للمؤمنين"، حيث اعتبروا أن قراره هذا لم يوفِ زعيم طالبان حقه مقابل الحماية التي قدّمها له. غير أن بن لادن حتى هذا اليوم لم يقم بأي سلوك يثبت عكس رأيه الصريح في أنه

يرى الملا عمر الزعيم الأول للعالم الإسلامي. وقد قال بن لادن في أواخر العام 2001: "**إن علاقتي بالملا عمر هي علاقة محبة في الله. وهو أكثر المسلمين شجاعة وقناعة في هذا العصر. كما أنه لا يخشى أحداً إلا الله**"[39] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وبالإضافة إلى الامتنان الشخصي الذي يكنّه بن لادن لطالبان فإنه يرى أفغانستان هو وزعماء إسلاميون غيره على أنها "البلد الإسلامي الوحيد" في العالم، وأن المعركة التي تجري هناك ضد الولايات المتحدة ستحدد مصير العالم الإسلامي ومستقبله، ولهذا فإنها "إحدى معارك المسلمين الخالدة"[40]. وقد جاء في كتاب *عصر الإرهاب المقدس* لستيفن سايمون ودانييل بنجامين تفسير مذهل ينطبق على معظم الجماعات الإسلاميّة الأصوليّة: "إن أحد الأسس الاستراتيجيّة الرئيسيّة لتنظيم القاعدة، هو أنه يجب أن يضع الإسلاميون الأصوليون أيديهم على دولة ما، لأن ذلك يعدّ مقدمة لإسقاط كافة الأنظمة العلمانيّة في الدول الإسلاميّة الواحد تلو الآخر... فالرغبة الشديدة التي تتملك القاعدة في السيطرة على أراضٍ جديدة هو السبب الأساسي الذي يدعوها للقيام بعمليات إرهابيّة، ودعم عدد كبير من حركات المعارضة والمقاومة المحليّة"[41]. والنقطة الهامة التي يجب أن أشير إليها هنا هي أن الحركات الإسلاميّة المسلحة التي تقوم القاعدة بدعمها ومساندتها تقاتل - دون استثناء - بهدف استعادة السيطرة على أراضٍ وبلاد كانت تخضع للحكم الإسلامي، وبذلك فإن الجهاد الدفاعي ينطبق عليها. ومن خلال بحثي لم أجد حتى الآن أن القاعدة تقدم الدعم لأي جماعة إسلاميّة تسعى للاستيلاء على مناطق جديدة، فيما عدا ذلك الادعاء الذي يردده الكثيرون في الغرب بالرغم من عدم وجود أي دليل يثبت صحته، والذي اجتذب الإعلام بشكل كبير، والذي يقول إن بن لادن "قد أعلن بكل صراحة... أن هدفه النهائي هو القضاء على الحضارة الغربيّة بشكل كامل..."[42] ومن المؤسف أن القادة السياسيين الأوروبيين قد رددوا أيضاً هذه الادعاءات المغلوطة. فقد وصف وزير الخارجيّة البريطانيّة جاك سترو تفجير القاعدة لمنشأتين بريطانيتين في إسطنبول في نوفمبر عام 2002 "بأنه اعتداء سافر على حضارتنا بأكملها"[43].

لكن قد يتساءل المرء لماذا يتمتع بلد من أفقر البلاد في العالم، وملاّ لم يتلقَ تعليماً جيداً بهذه الأهميّة الكبيرة بنظر الإسلاميين؟ وتكمن الإجابة مرة ثانية في الحوليات التاريخيّة الإسلاميّة. فمنذ أن دمّر البريطانيون الخلافة العثمانيّة بشكل كامل عام 1924، لم تحل أي دولة محل تركيا في زعامة العالم الإسلامي. مما يعني أن الإسلام وقتئذ كان بحاجة لموقع تنطلق منه خلافة جديدة، وهذه الدولة بالطبع يجب أن يكون الحكم فيها مبنياً على الشريعة الإسلاميّة. وقد كتب العلاّمة السني سيد قطب، وهو عالم دين مصري أعدمه جمال عبد الناصر، وهو بنظر بن لادن ومعظم الإسلاميين بطل ومعلم في آن واحد: "إن روعة النظام الإسلامي الجديد لا يمكن أن تقدّر إلا عندما تصبح أمراً حقيقياً تم تنفيذه على أرض الواقع. ولتحقيق ذلك لا بد أولاً من إحداث نهضة دينيّة في بلد إسلامي واحد، بشكل يجعله قادراً على تولي الزعامة". وقد أشار الأستاذ صموئيل بي هنتينغتون في العام 1997 كما فعل قطب، إلى أن الإسلام قد فقد ما يمكن أن يسمى "بدولة مركزيّة" منذ سقوط الحكم العثماني. وقد أكد هنتينغتون أن "الدولة المركزيّة يمكنها أن تؤدي دورها في الحكم لأن الدول المنضوية تحت جناحها تعتبرها من ذوي القربى من الناحية الثقافيّة أو الحضاريّة. فالحضارة هي امتداد للعائلة والأسرة وكما يفعل الأعضاء الأكبر سناً في العائلة، تقدم الدول المركزيّة لأسرتها الدعم والنظام في الوقت ذاته[44]. وعلى الرغم من أن دولاً عديدة حاولت لعب هذا الدور - كالسعودية، وإيران، وباكستان، وتركيا - إلا أن أياً منها لم تصبح "المركز المسيطر، أي لم تكن أي دولة من تلك الدول في موقع قوي يؤهلها للعب دور الوساطة في حل النزاعات بين المسلمين، كما لم تتمكن أي من تلك الدول من لعب أي دور بالنيابة عن كافة المسلمين والتحدث باسم الإسلام في حل الخلافات بين جماعات المسلمين وغير المسلمين"[45]. وفجأة عندما استولت طالبان على كابل عام 1996، أصبحت أفغانستان دولة إسلاميّة بشكل رسمي - أو إمارة - تحكمها قوانين الشريعة الإسلاميّة وهكذا رأى الإسلاميون أنهم قد توصلوا إلى القواعد الأساسيّة التي طالما عملوا للحصول عليها وهي: دولة يحكمها علماء مسلمون، يمكن أن تنطلق منها الخلافة الجديدة. وقد كُتبَ الكثير حول هذه النقطة بالذات، فقد ركّز الجميع على

المرجعيّة الأكاديميّة الضعيفة للملا عمر وأن ذلك يحول دون قبوله كزعيم دولي للإسلام. ولا يخفى على أحد أن الملا عمر هو أقل علماً من العديد من العلماء ورجال الدين في باكستان، والسعودية، ومصر، وغيرها من الدول الإسلاميّة، لكن الحقيقة هي أن أفغانستان دولة إسلاميّة، تحكمها قوانين الشريعة الإسلاميّة، ورئيسها رجل دين مسلم قاتل بكل شجاعة وبسالة في جهاد تكلل بالنصر. ونظراً لكل هذه العوامل، فإن الملا عمر قد لا يكون أكثر رجال الدين الإسلامي علماً ومعرفة، لكن بما أن – الكمال هو لله وحده – فهو لا يمكن أن يكون كاملاً بل هو أقرب إلى ذلك من الكثيرين. وقد تم تأكيد هذه الحقيقة من خلال الرسالة التي أرسلت إلى طالبان من مجموعة من الباحثين الدينيين السعوديين البارزين الذين هنأوا عمر بالنجاح الذي حققته طالبان في تقسيم العالم إلى خندقين. وقد أرسلت هذه الرسالة عن طريق الإنترنت موجهة إلى "أمير المؤمنين...محمد عمر والمجاهدون الذين يقفون إلى صفه،

> **نحن، مجموعة العلماء، يشرفنا أن ينتمي أمثالك إلى أمتنا، لأنكم أكدتم، حقيقة، تفوق وامتياز المؤمنين.**
>
> **كما أننا سنشهد دوماً أنكم وحدكم رفعتم رؤوسكم وتحديتم أميركا، بلد الكفر والصليب، في الوقت الذي لم يتشرف فيه المسلمون بأي رجل يجرؤ على قول "كلا!" وأن يكرر كلمة "كلا!" رافضاً ما تطلبه منه أميركا، في هذا الوقت، أنت الوحيد الذي فعل ذلك. لذا هنيئاً للمسلمين أنك منهم**[46] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وأخيراً، إن أفغانستان تتمتع بأهمية كبيرة بالنسبة لبن لادن والإسلاميين في كل أنحاء العالم، لأنها ببساطة المكان الذي شهد النصر الوحيد على الغرب منذ أكثر من ثمانية قرون. فإلحاق هزيمة منكرة بالجيش الأحمر كان ولا يزال يمتلك قوة هائلة من الناحية الرمزيّة والعاطفيّة في العالم الإسلامي، كما أنه لا يزال يشكّل حافزاً قوياً لتجنيد مقاتلين وضمهم إلى القاعدة وغيرها من الجماعات الإسلاميّة المسلحة. إن التغطية الإعلاميّة الغربيّة للجهاد الأفغاني ضد السوفييت كانت متقطعة في أحسن حالاتها، كما أن تغطيتها لفترة ما بعد عام 1989 – السنة التي انسحاب فيها الجيش السوفييتي – ركّزت بشكل أساسي على قضية المخدرات والحرب

الأهليّة التي نشبت بين المجموعات العرقيّة المختلفة وفشل زعماء طالبان في إثبات أنهم أصوليون متحيزون لقضايا المرأة. ونتيجة لذلك فقد فات الغرب أهمية الحرب كأقوى عامل محفز حرّض على ما يسمى اليوم "باليقظة الإسلاميّة" فقد كانت الصدمة التي أثارها انتصار الجهاد الأفغاني أهم حدث على الإطلاق، حيث إنه أعاد إيمان المسلمين السنّة بأن أي شيء يمكن تحقيقه بمشيئة الله وإرادته.

ومن البديهي ألا تغيب هذه الفكرة عن بن لادن. فقد رحّب بغزو الولايات المتحدة لأفغانستان، لا لأنه شكّل فرصة ذهبيّة لاستهداف الجنود الأميركيين فحسب، بل لأنه أتى بالكفار إلى أرض البلد الوحيد الذي نجح المسلمون في الدفاع عنه في الذاكرة الحديثة، مما يعيد إلى الذاكرة الانتصارات التي حققها جيش النبي (ص) في أسلوب الهجوم من الخلف في فجر الإسلام، كما في معركة بدر وغزوة الخندق. وهنا يعود التاريخ إلى الساحة من جديد لأن انتصارات النبي (ص) - التي تعود إلى ألف وأربعمئة عام مضى - لا تزال تشكل مواضيع يكاد لا ينقطع الرجوع إليها والتعليق عليها في الحوار الشعبي المعاصر في العالم الإسلامي. "إن الحقبة الأولى للأمة لا تزال حيّة بالنسبة لكل المسلمين لأنها تمثل دراما مقدسة، ولهذا فإن التاريخ الإسلامي لم يفرغ يوماً من محتواها ودلالاتها الدينيّة. حيث إن المسلمين يشعرون أنهم يشتركون جماعات وأفراداً في نتائج الأحداث الماضيّة بشكل غائب إلى حدٍّ كبير في المسيحيّة لكنه أكثر حضوراً في اليهوديّة"[47]. هذا ما جاء في كتاب الصحفي ستيفن شوارتز *وجها الإسلام*: إن الترحيب بقدوم القوات الأميركيّة إنما يدل على إشارة بن لادن بكل هدوء إلى ثقته بأن التاريخ سيكرر نفسه، إن شاء الله. فقد قال: "**إن الذي مدنا بمساعدة من عنده، وثبّتنا لنهزم الإمبراطوريّة السوفييتيّة، قادر على مدّنا ثانية بالقوة لنهزم أميركا على تراب نفس الأرض، وبنفس الأقوال، هذه هي نعمة منّ الله بها علينا**"[48] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وقد صوّر بن لادن هذه الحرب كما لو أنها مرحلة جديدة من عصر ريتشارد قلب الأسد قائد المسيحيين - لكن الراية هذه المرة باللون الأحمر والأبيض والأزرق - وهو يحاول سحق صلاح الدين قائد المسلمين، حيث أنه أكّد أن أفغانستان وشعبها يقفون وحدهم في هذه الحرب: "إن الغرب بأكمله -

باستثناء بعض البلاد – يؤيد هذه الحملة الجائرة البربريّة"[49]. وقد ناشد بن لادن الأفغان معتمداً على إيمانهم القوي، وشرفهم القبلي، وكراهيتهم للأجانب أن يصمدوا، وفي الوقت نفسه حاول أن يثير الحماسة في نفوس المسلمين الذين لم يقفوا إلى جانب الأفغان، وقد وصف بن لادن الأفغان بأنهم حماة الإسلام والدرع الذي يصد عنه اعتداءات الولايات المتحدة تماماً كما كانوا ضد الاتحاد السوفييتي.

> **أيها الشعب الأفغاني، لقد أنعم الله عليكم بشرف الجهاد في سبيله وبالتضحية بكل عزيز لإعلاء كلمته العظيمة...**
>
> **أيها الشعب الأفغاني، إنني أقول هذا وكلي ثقة بأنكم ستفهمون هذا الكلام أكثر من أي أحد آخر، لأن أفغانستان هي الأرض التي لم يستقر فيها الغزاة أبداً على مرّ التاريخ، ولأن شعبها يتمتع بالقوة والتصميم والكبرياء، والصبر في القتال. كما أنها لم تفتح أبوابها يوماً لأي شيء إلا الإسلام. ذلك لأن المسلمين لم يأتوا إليها كمستعمرين كما أنهم لم يكونوا لاهثين وراء طموحات دنيويّة، بل جاؤوا إليها لنشر الإسلام والدعوة لعبادة الله وحده[50]** (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

إن المنزلة العظيمة التي تحتلها أفغانستان في وجدان بن لادن، وفي الخطط الاستراتيجيّة للقاعدة، وغيرها من التنظيمات الإسلاميّة، تؤكد أن الصراع الذي تخوضه الولايات المتحدة بهدف السيطرة على هذا البلد لا يزال أمامه وقت طويل ليبدأ بشكل جدي.

تفصيل وتركيز الأفكار الرئيسيّة

منذ حوالى عشر سنوات أخذ بن لادن يتوخى الدقة الشديدة في تركيز خطابه على بضع أفكار رئيسيّة واضحة، ويتجنب الإضافات الكبيرة التي قد تشوش على الفكرة الأساسيّة التي يريد إيصالها إلى الناس أو التي تؤدي إلى الحدّ من انتشار قواته العسكريّة. وقد حافظ بن لادن على تبنّيه هذا الأسلوب بشكل خاص منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، لكنه اضطر نظراً لظروف قاهرة أن يفصّل ويركّز عدداً من أفكاره الرئيسيّة. وقد أجريت هذه التعديلات بشكل يحافظ على جوهر ووضوح أفكاره، ورسالته إلى جانب تشكيلها بأسلوب يتوافق ومتطلبات الحرب. كما أعلنت القاعدة للمسلمين أنهم قد يرون بعض العمليات العسكريّة التي

لا تتفق والأولويات المعروفة للجماعة، ويفترض أن يعني هذا أن الاعتداءات لن تركّز بشكل مباشر أو خاص على الولايات المتحدة. وقد كتب أبو أيمن الهلالي في موقع الأنصار في مارس 2002 في هذا الخصوص ما يلي:

> "إن الضرورات العسكريّة والسياسيّة تفرض على المجاهدين القيام ببعض العمليات التي قد تبدو سلبيّة، وذلك بهدف امتصاص قوة العدو، وإرهاقه بشكل أكبر، وزجه في حرب إنهاك، وذلك بهدف حماية المواقع والمجاهدين. إن هذا السلوك يعتبر جزءاً من مهمات مؤقتة تهدف إلى ردع العدوان، وذلك كجزء من الحفاظ على توازن استراتيجي وعملي"[51] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

التخفيف من حدة تركيز العمليات العسكريّة

لقد شهدت السنتين التاليتين لاعتداءات سبتمبر 2001 تراخياً بسيطاً في قاعدة بن لادن التي تعتمد على شنّ هجمات على الولايات المتحدة بشكل حصري. وقد هدف ذلك إلى إفساح المجال لبعض مقاتلي القاعدة ليظلوا نشيطين عسكرياً، بينما يقوم بن لادن وقادته العسكريين بالتحضير للضربة الكبرى في الولايات المتحدة. كما أن تلك الهجمات التي لم تستهدف الولايات المتحدة كانت بمثابة تحذير أطلقه بن لادن لحلفاء الولايات المتحدة – وبخاصة الأوروبيين منهم – ليقول لهم إنه غير راضٍ عن تدخلهم وتورطهم في الحرب على أفغانستان والعراق، وأن القاعدة لديها القدرة على إلحاق الأذى بهم إذا ما أصروا على مواقفهم. إلا أن آخر شيء يريده بن لادن هو التسبب بإنتاج وضع عسكري تنضم فيه عدة قوات أوروبيّة بشكل كامل إلى الحرب الأميركيّة على القاعدة. وهذا هو السبب الأساسي الذي دعا القاعدة إلى القيام بهجوم ضخم واحد فقط في أوروبا الغربيّة، وهو تفجير سكة الحديد في مدريد في مارس 2004. ولم يهدف ذلك الاعتداء إلى إلحاق الضرر بإسبانيا بسبب مشاركتها في الحرب على العراق فحسب، بل كان أيضاً إنذاراً لكافة حكومات الدول الأوروبيّة بأن القاعدة قادرة على إثارة فوضى عارمة في سياساتها الانتخابيّة، وستفعل ذلك إذا ما اقتضى الأمر. ويجب أن ينظر إلى هجمات مدريد على أنها محاولة قام بها بن لادن ليثني الأوروبيين الغربيين عن تأييد

الولايات المتحدة. وعموماً فإن الامتحان الحقيقي الذي ستواجهه عبقريّة بن لادن هو قدرته على إبقاء أوروبا قدر الإمكان على هامش أحداث هذه الحرب. وهكذا فبن لادن كبح جماح عملياته بعد الحادي عشر من سبتمبر. وعندما رأى تأييداً حماسياً أوروبياً لغزو الولايات المتحدة لأفغانستان بغيّة إسقاط طالبان والقضاء على القاعدة، تقدّم بتصريحات غاضبة علناً لكنه كبح جماح عملياته العسكريّة حتى وجد أن الوضع في أفغانستان قد تفاقم إلى حدٍّ كبير - وكان ذلك في أواخر مارس عام 2002 - عندها أمر بالقيام بسلسلة من الهجمات كانت بمثابة تحذيرات أطلقها بن لادن لحلفاء الولايات المتحدة، ليحدّوا من مشاركتهم بشكل أكبر في هذه الحرب.

وقد خاطب بن لادن حلفاء الولايات المتحدة في أواخر سبتمبر 2001 قائلاً:

> **"إن أي دولة تنضم إلى صفوف اليهود، لن تلوم إلا نفسها، كما أعلن [الناطق الرسمي باسم القاعدة] الشيخ سليمان أبو غيث في العديد من تصريحاته السابقة، بخصوص أميركا وبريطانيا، لكنه منح عدة دول أخرى فرصة لمراجعة حساباتها. فما دخل اليابان؟ ما الذي دعا اليابان للانضمام إلى هذه الحرب القاسيّة الوحشيّة؟ إنها اعتداءات سافرة بحق أطفالنا في فلسطين ولم نكن نتوقع انضمام اليابان إلى هذه الحرب ضدنا، لذا عليها تحديد مواقفها. وما شأن أستراليا في أقصى الجنوب بقضية هؤلاء الأفغان الضعفاء؟ وأولئك المقهورين في فلسطين، وما الذي زجّ بألمانيا في هذه الحرب؟ إن هذه الحرب، إلى جانب كونها مبنيّة على الكفر والوحشيّة، هي حرب تعيد زمن الحملات الصليبيّة، وتكرّر الحروب السابقة في عصر ريتشارد قلب الأسد، وبرباروسا من ألمانيا، ولويس من فرنسا... وهذا ما يحدث تماماً اليوم، عندما هبوا جميعاً يوم رفع بوش الصليب عالياً. تقدمت الدول الصليبيّة إلى الأمام"[52]** (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

لم تحظَ تحذيرات بن لادن بأي اهتمام، وهذا ما توقعه على الأرجح. وقد أرجأ القيام بعمليات عسكريّة إلى أن تستقر الأوضاع بالنسبة لقوات القاعدة وطالبان في أفغانستان، ومن ثم قام بتوجيه ضربات استهدفت مصالح البلاد المؤيدة للولايات المتحدة. وكما ذكرت في الفصل الثالث، فقد تم استهداف مواطنين فرنسيين ومصالح لويس العصر الحديث وذلك في كراتشي - باكستان في مايو 2002، وفي ميناء عدن - اليمن في أكتوبر 2002. كما تم ضرب مصالح برباروسا

ألمانيا في جربا – تونس وذلك في أبريل 2002 – ويعد هذا الاعتداء هزيمة أخرى ألحقتها القاعدة بإسرائيل أيضاً حيث إن السواح الذين قتلوا كانوا من الألمان اليهود – وفي مانشيرا – الباكستان في يوليو 2002 وفي كابل – أفغانستان في يونيو 2003 قتل جنود النسخة المعاصرة الضعيفة من ريتشارد قلب الأسد في ساحات المعركة في أفغانستان وفجروا في إسطنبول في نوفمبر 2003. كما قتل قرابة مئتي مواطن أسترالي وبعض البريطانيين في بالي – إندونيسيا في أكتوبر 2002 وقد كان الهدف من تلك الهجمات على حدّ تعبير القاعدة في أكتوبر 2002 هو نقل "رسالة سياسيّة حادة اللهجة لتحذر حلفاء واشنطن في حربها واعتداءاتها على الأمة الإسلاميّة، أنهم لن يظلوا إلى الأبد بمأمن من انتقام الله ومن بعده المجاهدين. وإذا أصروا على الاستمرار في هذا التحالف، فيجب عليهم عندها أن يستعدوا لدفع ثمن باهظ من دمائهم ومصالحهم"[53]. وقد اختتم التصريح بمخاطبة المصالح الشخصيّة لحلفاء الولايات المتحدة بقول القاعدة: "لا تزال هناك فرصة لمنْ يريد مراجعة مواقفه قبل فوات الأوان"[54]. كما أن بن لادن والقاعدة قد وجّها للدول التي تقوم بمساعدة الولايات المتحدة إنذارين بعد هذا الخطاب. ففي فبراير 2003 أشارا ثانية إلى الدول المذكورة، وبعد بدء الحرب على العراق أصدرا قائمة خاصة بذاك الصراع. وقد نفذت القاعدة معظم ما جاء في كلا القائمتين. وستجدون نقاشاً موسّعاً حول صدقية بن لادن في تنفيذ تهديداته لاحقاً في الفصل السادس. أما في الوقت الراهن فمن المستبعد أن يقوم بن لادن بشنّ هجمات من العيار الثقيل على شاكلة هجمات الحادي عشر من سبتمبر، فهو على الأرجح سيكتفي بالضربات التحذيريّة لحلفاء الولايات المتحدة من الدول غير الإسلاميّة، ذلك لأن مسار الأحداث العالميّة قد تغيّر منذ عام 2001 بشكل أدى إلى اتساع الهوة بين أوروبا وأميركا. فقد أدت النقاشات التي احتدمت في الأمم المتحدة قبيل غزو أميركا للعراق، وغضب أوروبا الشديد من المعاملة السيئة التي يلقاها سجناء الحرب الأفغانيّة في خليج غوانتانامو، والجدل الساخن بين واشنطن والأوروبيين حول الأحداث التي جرت في العراق، إلى إنتاج هوة كبيرة بين أوروبا وأميركا تخدم مصلحة بن لادن. كما أنه ومن المؤكد أن الأوروبيين قد لاحظوا أن الولايات

المتحدة لا أوروبا، هي الهدف الأساسي لاعتداءات القاعدة – وذلك من خلال الرسالة التي نقلها لهم بن لادن عن طريق تفجيرات مدريد التي قامت بها القاعدة في مارس عام 2004، وعرضه للهدنة معهم إثر تلك التفجيرات. أما في الوقت الراهن، وكما كتب مايكل إيغناتيف، فقد ساهمت هذه النقطة الأخيرة بشكل خاص في اتساع الهوة إلى حدٍّ كبير بين الولايات المتحدة وأوروبا.

> فقد ذرف حلفاؤها الدموع إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأدركوا عقب تلك الاعتداءات أن أميركا فقط تتعرض للخطر. ولم تكن الفكرة التي تقول إن الحضارة الغربيّة برمتها مستهدفة، فكرة مقنعة. فعلى الرغم من أن أميركا وحلفائها وقفوا جنباً إلى جنب عندما واجهوا العدو السوفييتي الذي كان يهددهم جميعاً، إلا أن الإرهاب الإسلامي وضع أميركا وحدها تحت أنظاره. وقد تساءل حلفاء أميركا، لماذا يتملقون أميركا وهي الهدف الأساسي الذي وضعه الإسلاميون نصب أعينهم إذا كان هذا لن يؤدي بهم إلا إلى استعداء من لم يعاديهم أصلاً؟[55]

ووفقاً لهذه الحقيقة لن يقوم بن لادن بتنفيذ عمليات كبيرة على المدى القريب في أوروبا، وذلك لتجنب وضع تلعب فيه القاعدة دوراً سخيفاً تشجّع فيه المصالحة عبر الأطلسي. وكما ذكرت سابقاً، لقد وجّهت القاعدة ضربات إلى بريطانيا وإيطاليا وإسبانيا – في تركيا والناصريّة في العراق ومدريد على التوالي – ومن المحتمل أن تستمر هذه الهجمات التحذيريّة على الدول التي ساعدت القوات الأميركيّة في العراق، وتحديداً أستراليا، واليابان، وبولونيا. كما أنه من الممكن أن تستمر الاعتداءات على مواطني ومصالح تلك الدول – مثل العمليات الانتقاميّة التي نفذت ردّاً على غزو أفغانستان – بشكل أساسي في دول الشرق الأوسط والمحيط الهادئ وليس في أوروبا الغربيّة. وفضلاً عن ذلك وبالرغم من أن القاعدة لن تقوم بعمليات تؤدي إلى قتل المسلمين عشوائياً في دول الخليج التي قدّمت قواعدها، ومطاراتها، وموانئها لتسهيل الحرب الأميركيّة على العراق كالكويت، والإمارات، والسعودية فمن غير المستبعد أن تقوم الجماعة باغتيال مسؤولين عسكريين، أو أمنيين، أو حكوميين بارزين في شبه الجزيرة العربيّة.

وقبل الانتقال إلى النقطة التاليّة، من الأهميّة بمكان الإشارة إلى أن بن لادن غفل عن شيء واحد قد يعترض طريقه نحو تحقيق هدفه في إبقاء قوى عظمى

أخرى خارج اللعبة، وتأتي نقطة ضعفه المحتملة هذه من انحرافه في محاولات حث المسلمين على الاعتداء على الأميركيين الصليبيين واليهود أينما كانوا. فقد كتب بن لادن في فبراير 2003: **"لذا عليكم أن تعلموا أن استهداف اليهود والأميركيين، وذلك بقتلهم في أي مكان في العالم هو أعظم مسؤوليّة تلقى على عاتقكم، وأفضل طريقة للتقرب من الله. كما أنني أنصح الشباب بأن يستخدموا ذكائهم في قتلهم بسرّية تامة"**[56] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). والآن، على الرغم من أن هذه الاعتداءات التي ينفّذها أفراد مستقلين أو جماعات غير منظمة، لا يمكن توقّعها أو الحدّ منها بأي حال من الأحوال، فهي تشكّل خطراً كامناً يتهدد هدف بن لادن في إبقاء القوى الأوروبيّة الغربيّة على الرفّ. فإذا تمكنت إحدى تلك الجماعات الخرقاء العشوائيّة التي تم اعتقال العديد منها في أوروبا - كأولئك الجزائريين الهواة المبتدئين مثلاً الذين ضبطوا وبحوزتهم سمّ الريسين في المملكة المتحدة في أوائل العام 2003؛ من تنفيذ عمليّة كبيرة أدت إلى وقوع خسائر فادحة في أوروبا، فمن المؤكد أن القاعدة ستكون أول من ستوجه أصابع الاتهام إليه. عندئذ سيجد بن لادن نفسه في مواجهة تعاون أميركي أوروبي ضد القاعدة بشكل مماثل، أو أقوى من ذلك الذي شهده العالم إثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وثمة دليل يثبت أن هذا الوضع يثير قلق بن لادن. فقد جاء في مقالة في الأنصار كتبها المسؤول عن كتابة المقالات في القاعدة سيف الأنصار مقدّماً النصح إلى المسلمين: **"إن الشعور بالمسؤوليّة الفرديّة فيما يتعلق بقضية الجهاد يجب ألا يتم تصعيده إلى شكل من السلوك التلقائي الذي من شأنه تحويل الجهاد إلى نشاط عفوي يجعل من القضية تياراً فوضوياً يتصرف فيه كل امرئ على هواه"**[57] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). إلا أن بن لادن قطع أشواطاً طويلة في هذه الطريق التحريضيّة ولن يتمكن من التراجع الآن، وستظل هذه إحدى المشاكل الكامنة التي تنتظر الوقت المناسب لتلوح في الأفق.

مهاجمة الأنظمة المرتّدة بشكل مباشر أكثر من السابق

كما ذكرت سابقاً، لقد ناضل بن لادن منذ وقت طويل، لنقل توجهات جماعات المقاومة الإسلاميّة الأصوليّة من الأقطار الإسلاميّة إلى الولايات المتحدة.

وكما أشرت أيضاً، فإنه لم ينجح بشكل كامل في تلك المحاولات. وفي الحقيقة لن أبالغ إذا قلت أنه قد حقق 60% من المهمة التي وضعها لنفسه، مع أن القرار الذي أعلنته الجماعة الجزائريّة للدعوة والقتال المعروفة بالتزامها الشديد بالعمليات داخل الجزائر وذلك في سبتمبر 2003 بتحالفها مع القاعدة يعدّ إنجازاً ضخماً بالنسبة لبن لادن. ولهذا السبب فمن الغرابة بمكان ازدياد التركيز على الأنظمة المرتدة لبلاد الشرق الأوسط في خطابات بن لادن منذ عام 2001. غير أن هذا الازدياد لا يعدّ إشارة لظهور جماعات إسلاميّة أصوليّة محليّة في المنطقة، بل على العكس هو دليل على مرونة القاعدة وبن لادن في استغلال الفرص التي تتيحها المتغيرات الدوليّة. وفي هذه الحالة، فإن غياب ردّ حكومات الدول الإسلاميّة على الاعتداءات العسكريّة الإسرائيليّة، والجرائم التي ترتكب في فلسطين، والدعم الكبير الذي قدمته في الخفاء إلى الولايات المتحدة في غزوها للعراق، أفسح المجال أمام القاعدة لتنتقد الأنظمة المرتدة، وتدعوها بأتباع واشنطن وإسرائيل، وتهاجمها على هذا الأساس، دون التضحية في خضم كل هذا بتركيز القاعدة الأساسي من الناحية العسكريّة على الولايات المتحدة.

والجائزة التي سيفوز بها بن لادن في لعبة الهجوم على أنظمة الدول الإسلاميّة هي زعامة العالم الإسلامي. يرفض بن لادن تماماً هذه الفكرة على أنها ما هو بصدد الوصول إليه – فهو يؤمن حقيقة بأنه ليس إلا جندياً واحداً يجاهد في سبيل الله – لكن هذا لا يغيّر شيئاً من الحقيقة. وما يوافق بن لادن عليه هو أن معركته مع الأنظمة تدور حول جعل كلمة الله ورسوله – بدلاً من كلمة قادة البلاد الإسلاميّة – هي المصدر الأساسي الصحيح للقيادة والزعامة في العالم الإسلامي. إلا أن الصورة هي نفسها حتى مع هذا التعريف: حيث إن بن لادن يتنازع مع الحكام العرب على زعامة العالم الإسلامي وعلى القرار الذي سيقضي في ما إذا كان سيتم حكم العالم الإسلامي بحسب شريعة الله أو القوانين التي سنّها الإنسان. ويمكننا القول إنه منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 أخذت كلمة الله ثم كلمة بن لادن تحقّق فوزاً منقطع النظير بين المسلمين وذلك لأن بن لادن يطيع أوامر الله بشكل واضح والتي تقضي بمحاربة الشرّ، وحماية المسلمين، والدفاع عن الإسلام قولاً

وفعلاً. وفي كل حوار يدور في العالم الإسلامي اليوم، يظهر بن لادن على أنه القائد الكبير الوحيد الذي يقف في صف الملائكة. لماذا؟ لأن كلامه دقيق ومُفصّل، ولأنه يقرن الأقوال بالأفعال.

وقد جاء في تعليق لبن لادن في أواخر سبتمبر عام 2001: "**ألقوا نظرة من حولكم وسترون أن عبيد الولايات المتحدة هم إما حكام المسلمين أو أعداءهم**"[58] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ويؤكد بن لادن أن هؤلاء الحكام هم أشخاص كاذبون علّمت كلماتهم الفارغة المسلمين المخلصين أنهم لن يكونوا أبداً قادة حقيقيين: "**لقد تعلّموا أن سيل الكلام الذي يتشدق به المدافعون العرب لن ينفعهم في شيء**"[59] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). إذن لمن سيلجأ المسلمون بحثاً عن قيادة حقيقيّة؟ يقول بن لادن إن المسلمين يجب أن يقصدوا أولئك الذين يعرفون كيف يضرب المرتدون والكفرة، "**إنهم أبناء الإسلام الغيارى الذين ينفّذون العمليات للدفاع عن دينهم، ولإطاعة أمر ربهم، وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم**"[60] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). إن القيادة، على حدّ تعبير بن لادن تأتي من أولئك الذين يتحدثون ويتصرفون بناء على كلام الله.

> **إن هذه الأحداث العظيمة [الانتفاضة الفلسطينيّة، وهجمات الحادي عشر من سبتمبر] هي تجسيد للجهاد المقدس الذي استمر في الطريق نحو الهدف الأخير والنهائي الذي وعدنا به الله. وقد جاء هذا الجهاد لفضح التصريحات الضعيفة التي لا أساس لها من الصحة التي أدلى بها الحكام، مثل "ماذا يمكننا أن نفعل؟ إن الأمر ليس بيدنا! وهذا الموضوع خارج عن نطاق سلطتنا!" إن هذا النوع من التصريحات لم يعدّ له مكان في قلب أو عقل أي أحد في ضوء الاعتداءات السافرة التي ترتكب بحق أمتنا[61]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)**

لقد شهد العامين التاليين للحادي عشر من سبتمبر في نظر المسلمين عرضاً غير مسبوق لعجز وضعف قادة أنظمة البلاد الإسلاميّة، أو كما يصفهم بن لادن، "**هؤلاء الخونة الذين يريدون أن يحلّوا مشاكل المسلمين...**"[62] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) فالإسرائيليون قد فعلوا ما يريدونه في جنين، وبيت لحم، ورفح وقد بنوا مستوطنات جديدة، وبدأوا بإقامة جدار فصل يقتطع مزيداً من الأراضي الفلسطينيّة. والولايات المتحدة لا تزال في أفغانستان كقوة محتلّة كما أنها

غزت واحتلّت العراق، ووصفت رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون على أنه رجل سلام، كما أعلنت باستمرار عن "تفهمها ودعمها" لحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. ورداً على ذلك فقد عقد قادة الدول الإسلاميّة مؤتمرات قمة على مستوى جامعة الدول العربيّة، كما عبّروا عن إدانتهم الغاضبة لهذه العمليّة أو تلك التي نفذتها الولايات المتحدة أو إسرائيل وذلك في اتصالات هاتفيّة حظيت بتغطية إعلاميّة واسعة. وفي النهاية، قدّموا القواعد، والمطارات، والموانئ التي سهّلت الغزو والاحتلال الذي تم بقيادة الولايات المتحدة لأفغانستان والعراق. من الصعب جداً إيجاد أي لمسة قياديّة في مثل هذه الأفعال – على الأقل من وجهة نظر الإسلاميين – إلا أن من السهل تقدير الوتر الحساس الذي يضرب عليه بن لادن في أرجاء العالم الإسلامي عندما يتحدث عن "**الذلّ الرهيب والعار اللذين لحقا بالمسلمين منذ أن ابتعدنا عن اتباع سنّة سيدنا محمد وصحابته، وأصبحنا نخضع لحكم القادة البغيضين**"[63] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

> **إن هؤلاء الحكام شوّهوا [شهادة لا إله إلا الله] وتجاهلوها بتحالفهم مع الكفار وبنوا حكمهم على القوانين التي سنّها الإنسان ودعموا ووافقوا على ما تفعله منظمة الأمم المتحدة الملحدة. ولهذا فإنه حرام بحسب الشريعة أن نعلن الولاء لهم ونتبعهم...** (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

كما أن المواقف المخزيّة التي يتبناها القادة في دول الشرق الأوسط ساهمت إلى حدٍّ كبير في إفساح المجال أمام بن لادن لتكثيف هجماته وتوسيع نطاقها، لتشمل علماء الدين والشريعة الذين يطلق عليهم لقب "علماء السلطة" أولئك الذين يعملون في خدمة ....، ....، وغيرهم من الحكام المسلمين والذين تتّفق الفتاوى التي يصدرونها بشكل غريب دوماً مع قرارات الحكام ورغباتهم. ويستهل بن لادن انتقاداته لأولئك العلماء بزعمه أن "**العلماء الصادقين والدعاة والمصلحين" هم أهم قادة الجهاد وهم الذين "يجب أن يكونوا على رأس صفوف المجاهدين، ليقودوا المعارك، ويوجّهوا الحملات. هذه هي واجبات ورثة الأنبياء**"[65] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ويؤكد بن لادن أن واجب هؤلاء الرجال هو "قول الحقيقة للأمة والتصريح بها في وجه الظلام دون مواربة أو خوف"[66]. غير

أن معظم هؤلاء الرجال محتجزون في السجون وأهم قادة الإسلام مثل الشيخ المصري عمر عبد الرحمن، هم في "السجون الأميركيّة" أو في سجون "شبه الجزيرة العربيّة أو بلدان أخرى"[67].

كما يقول بن لادن أنه نظراً لغياب القادة الحقيقيين، فالأمر يعود إلى أشخاص مثله للعب دور قيادي وتحديد العلماء الفاسدين الذين يتمتعون بالحرّية لأنهم يعظون الناس بحسب رغبات الحكام لا بناء على كلام الله، وإقناع هؤلاء العلماء أو إكراههم على العودة إلى طريق الحق. كما يشير بن لادن أنه على خلاف ما كانت الحال عليه في القسم الأكبر من التاريخ الإسلامي، حيث كان علماء الدين والشريعة يتولون القيادة في الدعوة والجهاد ضد المرتدين والمشركين والكفار الذين يهددون الإسلام، "يقوم العديد من العلماء اليوم بالإدلاء بشهادات كاذبة صباحاً ومساء ويحرّفون الأمة عن الصراط المستقيم"[68]. وهذه، على حدّ قول بن لادن ظاهرة حديثة في الإسلام. فالمسلمون يتوقّعون سلوكاً كهذا من الموظفين المدنيين لا من رجال الدين، "إن الناس يعرفون أنهم يكذبون عليهم ويخدعونهم"[69] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

> **إن الشرّ الكبير ينتشر في أنحاء العالم الإسلامي: فالأئمة الذين يدعون الناس إلى النار هم أولئك الذين يظهرون أكثر من غيرهم إلى جانب حكام المنطقة، حكام العالم العربي والإسلامي... فهم يدعون الناس إلى أبواب جهنم صباحاً ومساءً.**
>
> **أما [رجال الدين] جميعاً، باستثناء أولئك الذين رحمهم الله، فهم مشغولون بتوجيه المديح وكلمات التمجيد، والتعظيم [للحكام] الذين كفروا بالله ورسوله.**
>
> **لم يسبق أن ابتليت الأمة بكارثة كالتي ابتليت بها اليوم. ومع أن الماضي كان يحمل بعض العيوب لكن ذلك كان جزئياً. أما اليوم فالعيوب قد أصبحت جزءاً من حياة العامة، وذلك بسبب ثورة الاتصالات ولأن الإعلام أصبح اليوم يدخل كل بيت.**
>
> **إن رجال الدين هم أسرى ورهائن لدى الطغاة المستبدين... والأنظمة الحاكمة تخصص ميزانيات ضخمة لهذه الهيئات [أي علماء السلطة] الذين يتركز دورهم على المصادقة على شرعيّة النظام[70] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).**

وعلى الرغم من أن بن لادن كان ينتقد رجال الدين هؤلاء منذ فترة طويلة، فإن أحداث الحرب الصليبيّة ضد الإسلام منذ الحادي عشر من سبتمبر منحت بن لادن فرصة أكبر بكثير من السابق للهجوم على العلماء الذين كانت فتاويهم مؤيدة لفشل مستخدميهم في حماية المسلمين.

استهداف أميركا: تبرير قتل الأميركيين بالجملة

على الرغم من أن أميركا لا تزال على رأس قائمة بن لادن منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001، إلا أنه ركّز في الوقت ذاته على إعداد العالم الإسلامي بشكل جيد ليتقبّل هجوماً سيوقع الكثير من الضحايا في صفوف الأميركيين. وقد تكون الجهود التي بذلها بغية تحقيق هذا الهدف هي السبب الذي دعاه إلى عدم القيام بأي عملية ضخمة في الولايات المتحدة منذ عام 2001. وفي سياق تحضير المسلمين نفسياً، حذّر بن لادن باستمرار الولايات المتحدة من أنه يعدّ العدة لتنفيذ عملية في الولايات المتحدة ستكون نتائجها أسوأ من سابقتها التي حدثت في الحادي عشر من سبتمبر. كما أنه منح القادة الأميركيين والشعب الأميركي الفرصة لاعتناق الإسلام، متطوّعاً بأن يكون هو شخصياً معلّمهم ودليلهم للوصول إلى حقيقة الله. وعلاوة على ذلك، يبدو أن القاعدة قد أوعزت إلى عالم إسلامي ..... معروف ليكتب وينشر رسالة، تبرر بتعابير دينية، السبب الذي دعا القاعدة لاستخدام أسلحة دمار شامل في الولايات المتحدة. وأخيراً، توجه بن لادن بشكل مباشر إلى الشعب الأميركي طالباً منه أن يستخدم نظام دولته الديموقراطي لإجبار قادة الولايات المتحدة على تغيير سياساتهم التي تسبب الأذى في العالم الإسلامي، وقال بما معناه أن المواطنين الأميركيين بيدهم القرار الذي من شأنه إنهاء الحرب بين أميركا والإسلام وإذا لم يفعلوا فإنهم يستحقون أي كارثة ستحل بهم. وفي حقيقة الأمر، إن أفعال بن لادن هذه موجّهة بشكل أساسي لمخاطبة وإرضاء المسلمين الذين انتقدوا اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر، أكثر من توقّعه بأي شكل من الأشكال أن أميركا ستغيّر من سياساتها وتنهي هذه الحرب.

وقد تحدث بن لادن نيابة عن العالم الإسلامي في نوفمبر عام 2001 قائلاً: **"إننا ندافع عن أنفسنا ضد الولايات المتحدة. ولهذا اعتدت أن أقول إنه إذا لم يتمتع المسلمون بالأمن فلن يحصل عليه الأميركيون أيضاً. إنها معادلة بسيطة للغاية... إنها معادلة عش ودع الآخرين يعيشون"**[71] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كما أدلى بن لادن بتصريحات في بداية الحرب الأفغانية الأميركيّة وجّه من خلالها تحذيرات متكررة إلى الولايات المتحدة لم تنقطع منذ ذلك الحين. فبعد مضي سنة على ذلك التصريح الأخير، على سبيل المثال، ذكّر بن لادن الأميركيين أن "طريق السلامة والأمن يبدأ برفع الظلم"[72]، وأن حكومتهم والمتحالفين معها لم يعيروا نصيحته هذه أي اهتمام حتى الآن، "إن هذا تقسيم جائر. وقد آن الأوان كي نكون متعادلين"، قال بن لادن محذّراً. "فكما تقتلون ستُقتلون وكما تقصفون ستُقصَفون. فتمتّعوا بالأذى المتجه نحوكم"[73]. حتى أن بن لادن بدا في بعض الأحيان مترعجاً جداً لتجاهل رسالته.

> **إذن القضية سهلة وبسيطة، فأميركا لن تخرج من هذا المأزق إلا إذا خرجت من شبه الجزيرة العربية، وتوقّفت عن تدخّلها في فلسطين، وفي كافة بلاد العالم الإسلامي. وإذا أعطينا هذه المعادلة لأي طفل في مدرسة أميركيّة فسوف يحلّها في ثانية لا أكثر. لكن نظراً إلى أفعال [الرئيس] بوش فإن المعادلة لن تحلّ حتى تقطع السيوف رؤوسهم جميعاً، بإذن الله...**
>
> **إننا نجدّد عهدنا إلى الله، ووعدنا للأمة وتهديدنا للأميركيين واليهود بأنهم لن ينعموا بالراحة والطمأنينة وأنهم لن يحلموا بالأمان حتى ينصرفوا عن شؤون أمتنا ويوقفوا اعتداءاتهم علينا، ودعمهم لأعدائنا. وقريباً سيعرفون إلى ماذا ستنقلب أعمالهم**[74] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وكان بن لادن قد أرفق تحذيراته بدعوات خاصة للرئيس والشعب الأميركي لاعتناق الإسلام وهو في كل مرة يعرض عليهم أن يكون دليلهم ومعلمهم. وقد قام بدعوتهم في أكتوبر ونوفمبر عام 2002، وبذلك يكون قد توجه أيضاً إلى المنتقدين المسلمين لاعتداءات الحادي عشر من سبتمبر الذين أخذوا على القاعدة عدم منحها الأميركيين فرصة لاعتناق الإسلام قبل تنفيذ الهجمات وبذلك خرقت القاعدة الشرعية التي تقول: "نحن لا نعاقب أبداً حتى نبعث رسولاً"[75]. وبعمله هذا

يكون بن لادن قد أخلى طرفه بالمعنى الإسلامي، فقد حذّر وبلّغ ودعا قبل الهجوم. وقد كتب الباحث في الأديان جيمس تيرنر جونسون: "إن كل الأعداء، برفضهم للدعوة إلى اعتناق الإسلام ومقاومتهم للرسالة الإسلاميّة، هم في حالة عصيان لله ورسول الله وبذلك فهم معرّضون للقتل..."[76] وقد تحدّث باحث أميركي آخر عن الخطوات التي تسبق الحرب في الإسلام؛ وهي نفس الخطوات التي أتمها بن لادن. فقد جاء في مقال كتبه الدكتور جون كيلسي في مجلة الأخلاق الدينية *Journal of Religious Ethics* "يروي [العالم الإسلامي التقليدي] الشيباني حديثاً نبويّاً شريفاً يشير إلى أن القوات العسكرية يمكنها أن تشنّ حرباً على غير المسلمين بعد إعلان عن نية القتال ودعوة للاعتراف بالإسلام. كما يتابع الشيباني في هذا السياق ويذكر أنه يفضّل أن يتم الإعلان أو التصريح مرة أخرى قبل الدخول في حرب إلا أنه يشير إلى أن هذا ليس إجبارياً"[77].

وهكذا فإن بن لادن قد حقّق متطلبات الشيباني الخاصة بالتصريح عن نية القتال، وقد جاء في رسالة وجهها إلى الأميركيين في أكتوبر 2002،

"بسم الله الرحمن الرحيم"،

رسالة إلى الشعب الأميركي: السلام على من اتبع الهدى. إنني ناصح مخلص لكم. إنني أدعوكم للسعي في طلب بهجة الحياة الدنيا والآخرة، وأن تخلّصوا أنفسكم من أسلوب حياتكم البائسة الجافة المادية التي لا روح فيها. إنني أدعوكم لاعتناق دين الإسلام لأن الإسلام يدعو إلى عقيدة "لا إله إلا الله"، وإلى العدالة ويحرّم الظلم والإجرام. وأناشدكم أن تفهموا درس هجمات نيويورك وواشنطن التي جاءت ردّاً على بعض جرائمكم السابقة، فالمعتدي يستحق العقاب.

إننا ندعوكم للإسلام – آخر دين حل محل كل الأديان السابقة – دين الأخلاق الطيبة، والإخلاص، والرحمة، وخشية الله، والإحسان إلى الآخرين، والعدالة بين الناس، وإعطاء كل ذي حق حقه، وحماية الناس من الطغاة والمظالم. إننا ندعوكم إلى الدين الذي يدعو متّبعيه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان والقلب. إنه دين الجهاد في سبيل الله حتى تعلو كلمة الله ودينه فوق الجميع. إنه الدين الذي فرضه الله وأمر أتباعه بإحقاق العدل والمساواة بين الناس، دون تمييز بين لغاتهم أو جنسهم أو لونهم[78]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

إن تحذير الأميركيين بأنه سوف تكون هناك اعتداءات أخرى أكبر مما سبقها ودعوتهم لاعتناق الإسلام، هي أفعال يمكن لبن لادن أن يقوم بها بنفسه، لكن هناك خطوة أخرى وهي تحضير العالم الإسلامي لتقبّل هجوم على الولايات المتحدة باستخدام أسلحة دمار شامل، وهذا التحضير يقع خارج نطاق اختصاصه ويستدعي مساعدة أحد علماء الدين المشهود لهم بالخبرة والعلم ممن يحظون باحترام المسلمين عامة. وحتى شهر مايو 2003، لم يكن لدى القاعدة أساس ديني كاف يمكنها الاعتماد عليه لتبرير قيامها بهجوم تستخدم فيه أسلحة دمار شامل. غير أنه في ذلك الشهر تحديداً، قام رجل دين شاب بنشر "بحث في شرعية استخدام أسلحة دمار شامل ضد الكفار"[79]. وهذا البحث كان بالضبط ما تحتاجه القاعدة، حتى إنه من الممكن أن تكون هي من طلبت منه القيام بهذا العمل. والدراسة هي عبارة عن تبرير وترخيص لاستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد الكفار – وفي هذه الحالة ضد الولايات المتحدة – مكتوبة بأسلوب منطقي وشامل ومدعم بالوثائق. وقد تكون أكبر خدمة قدّمها الشيخ إلى بن لادن هي نقل النقاش حول استخدام أسلحة الدمار الشامل من ميدان المسلمين من سياسين ومعلقين وأكاديميين وجنرالات ومفكرين إلى ما يعتقد هو وبن لادن وغيره من الإسلاميين أنه المكان الصحيح، وهو أوامر الله ونواهيه. فقد كتب الشيخ: "**إن الأمر الذي لا يحتاج إلى المناقشة هو أن تحريم [أسلحة الدمار الشامل] يعود إلى الله سبحانه وتعالى، لا لأي أحد غيره مثل بني البشر**"[80] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

ويبدأ الشيخ بوصف مصطلح أسلحة دمار شامل على أنه "غير دقيق" ويزعم أن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية أو النووية التي تؤدي إلى قتل ألف شخص يسميها الغرب أسلحة محرمة دولياً بينما استخدام قنابل تزن الواحدة منها سبعة أطنان وتقتل ثلاثة آلاف شخص أو أكثر فيسميها أسلحة مسموحة دولياً[81]. وعلى هذا الأساس، فهو يتجاهل معاهدات الغرب الخاصة بأسلحة الدمار الشامل والقوانين التي تقضي بالحدّ من انتشار أسلحة الدمار الشامل ويعتبرها مجرد محاولات لإخافة الآخرين وحماية الغرب. "**ولهذا فمن البديهي أن**

[الدول الغربية] لا تريد حماية البشرية من هذا المنطلق كما يؤكدون، بل هم بخلاف ذلك يريدون حماية أنفسهم واحتكار تلك الأسلحة بحجة تحريمها دولياً"[82] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وبعد الإشارة إلى هذا النفاق يرفض الشيخ تلك المصطلحات، "إن كل هذه المصطلحات لا تتمتع بأي شرعية في القانون الإسلامي، لأن الله سبحانه وتعالى قد احتفظ بالحكم والتشريع لنفسه... وهذه مسألة معروفة تماماً عند المسلمين لدرجة أنها لا تحتاج لأي دليل يثبت صحتها... وفي الحكم على هذه الأسلحة لا يحتاج المرء إلا للرجوع إلى القرآن والسنة وآراء علماء المسلمين"[83]. ويتابع الشيخ هذا النقاش في خمسة وعشرين صفحة موثّقة بإثباتات منطقية وأدلّة من القرآن الكريم. والاستنتاجات التي توصل إليها والتي ستوضح بشكل موجز لاحقاً، تبرّر بشكل مرض تماماً نوايا بن لادن في شنّ هجوم يستخدم فيه أسلحة دمار شامل على أرض الولايات المتحدة.

- يستشهد الشيخ بداية بثلاثة أدلة من القرآن الكريم يقول الله تعالى فيها – بما معناه – أن المسلمين يمكنهم الردّ بمثل الهجمات التي يتعرضون لها. وكتب في هذا الخصوص: "إن إحصاء أي شخص لاعتداءات أميركا على المسلمين وأراضيهم خلال العقود الماضية، سيجعله يستنتج أن ضربها مباح لمجرد تطبيق قاعدة المعاملة بالمثل. وقد حسب بعض الإخوان العدد الإجمالي للمسلمين الذين قتلوا بشكل مباشر أو غير مباشر بواسطة أسلحتهم فتوصل إلى رقم يقارب عشرة ملايين"[84].

- وينتقل الشيخ بعد ذلك إلى تأكيد أن العدد الكبير للضحايا من المدنيين مقبول إذا كان نتيجة هجوم هدفه إلحاق الهزيمة بالعدو، لكنه غير مقبول في حال كان يهدف إلى قتل الأبرياء. "إن محمد رسول الله أمر بالهجوم على العدو، في الكثير من الأحاديث ولم يكن هناك أي أمر إلهي يمنعه من ذلك على حدّ علمنا، أي أنه كان يعرف أن النساء والأطفال قد لا يكونون بمأمن وقد يتعرضون للأذى. فقد أباح الحرب لأن الهدف من ورائها لم يكن إلحاق الأذى بهم... وهكذا فإن الوضع في هذه الحالة هو أن المجاهدين قدّروا أن شرّ الكفار

لا يمكن مقاومته إلا بشنّ هجمات في الليل وهم في غفلة من أمرهم باستخدام أسلحة دمار شامل، عندئذ يمكنهم استخدام تلك الأسلحة حتى لو كان ذلك يعني إبادة جميع الكفار"[85].

- ويختم الشيخ الدراسة بطرح مسألة إمكانية قتل المسلمين لمسلمين آخرين أثناء الجهاد في سبيل الله. حيث يقول إن حياة المسلمين تعتبر مقدسة وأنه لا توجد أي رخصة من الله تبيح قتل أي مسلم عن عمد. غير أنه يؤكد أنه "إذا عممنا هذه القاعدة دون أي استثناء فسوف نترك الجهاد برمته لأنه ليس ثمة دولة من دول الكفار تخلو من المسلمين تماماً. وطالما أننا أمرنا بالجهاد... وحيث إنه لا توجد أي طريقة أخرى للقيام به [أي بالتسبب بقتل المسلمين في هجمات يشنّها مسلمون] فهو مباح". ويوضح الشيخ: "إن الله قد سمح بذلك كيلا يتمكن العدو بإجبارنا على ترك الجهاد بحبس مسلم بين صفوفه"[86].

وبعد إتمام بن لادن لمتطلبات الجهاد من تحذير وعرض لاعتناق الإسلام والتبرير الإسلامي للهجمات، تكبّد عناء بذل المزيد من الجهود الموجّهة لإقناع المسلمين بضرورة شنّ هجوم على الولايات المتحدة باستخدام أسلحة الدمار الشامل، وذلك باستخدام الديموقراطية كسلاح لتحريض المواطنين ضد الحكومة. فقد قال بن لادن: "هناك العديد من الناس اللطفاء والجيدين في الغرب"[87]، **"لقد سبق أن قلت أننا لسنا ضد الولايات المتحدة، بل نحن ضد النظام [أي السياسة الخارجية الأميركيّة] الذي يجعل من الأمم عبيداً للولايات المتحدة أو يجبرهم على رهن حريتهم السياسية والاقتصادية"**[88] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وقد استخدم نفس الصيغة الحربية السخيفة التي ابتدعها الغرب والمفضّلة لدى سياسييه ضد الولايات المتحدة – كهذا القول مثلاً: "نحن في حرب ضد بن لادن لا ضد المسلمين" أو "نحن في حرب ضد صدام لا ضد العراقيين". – فيؤكد بن لادن للأميركيين أن الإسلام يحارب حكومتهم وأنه ليس لديه أي شيء ضدهم، كما يوضح أنه نظراً لعلمه أن أميركا هي ديموقراطية، فهو يعرف أن الأميركيين يمتلكون القوة الانتخابية لتغيير القادة

الذين يطبّقون سياسة خارجية معادية للإسلام. كما يؤكد أن المواطنين الأميركيين بيدهم إيقاف العمل بهذه السياسات وإنهاء سبب الحرب الأميركيّة على الإسلام، وإلغاء خطر التعرض لهجوم تستخدم فيه أسلحة دمار شامل قد تؤدي إلى وقوع أعداد هائلة من الضحايا الأميركيين. ويؤكد أيضاً أنه بما أن هذه القوة هي بأيدي الأميركيين، لذا لا يمكنهم القول أن القاعدة تشنّ هجمات عليهم وتقتل المدنيّين.

> إذن هذه الحجة تناقض ادعاءكم أن أميركا هي أرض الحرية والديموقراطية، والتي يتمتع فيها كل أميركي بغض النظر عن جنسه ولونه وعمره أو قدراته الفكرية بالقدرة على التصويت. وهذا مبدأ أساسي في أي ديموقراطية وهو أن يختار الشعب قادته، وبهذا فإن الشعب يوافق على أفعال وسياسات قادته ويعتبر شريكاً فيها. لذا فإن كل أميركي هو "حرّ" في أرض "الحرّية" في اختيار قائده بموجب الحق الذي يخوله القيام بذلك، وهكذا فهو يعلن قبوله للسياسات التي تتبناها حكومته المنتخبة. وهذا يشمل الدعم الذي تقدّمه الحكومة لإسرائيل والذي يتجلى في مظاهر عديدة، بما فيها تقديم مساعدات عسكرية لإسرائيل بما يقدر بمليارات الدولارات. وبانتخاب الأميركيين لهذه الحكومة، فإنهم قد وافقوا على سجن وأسر الشعب الفلسطيني، وتهديم البيوت الفلسطينية، وذبح أطفال العراق. إن الشعب الأميركي لديه القدرة والخيار لرفض سياسات حكومته، لكن الوقت واستطلاعات الرأي العام أظهرت من جديد أن الشعب الأميركي يؤيد سياسات حكومته المنتخبة... لذا فإن الشعب الأميركي ليس بريئاً. بل هو شريك فاعل في كل هذه الجرائم[89]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

وبسبب معرفة بن لادن لهذه الحقيقة فإنه يناشد الشعب الأميركي أن يستغل نظامه الديموقراطي لإبطال السياسات التي تسببت في الكراهية الشديدة للولايات المتحدة وجهاد المسلمين ضدها. وقد أوضح بن لادن ذلك للصحافي الباكستاني حامد مير في نوفمبر عام 2001 قائلاً: "**سأطلب من الشعب الأميركي مراجعة السياسات المعادية للإسلام التي تطبقها حكومته، فقد سبق لهذا الشعب أن أدان سياسة حكومته ضد فيتنام ووصفها بالخاطئة. يجب أن يقوم الشعب الأميركي اليوم بلعب نفس الدور الذي لعبه خلال الحرب على فيتنام، وعليه أن**

يحول دون قتل المسلمين على يد حكومته"[90] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وعلى الرغم من أن بن لادن يرحّب بإلغاء هذه السياسات وبأي معارضة قد تنشأ ضد الحكومة الأميركيّة من جراء خطاباته، إلا أنه لا يتوقع نتائج من هذا القبيل على الأرجح. وعوضاً عن ذلك فقد استخدم تلك الحجة كطريقة أخرى ليثبت للمسلمين أنه لم يترك باباً إلا وطرقه في محاولة منه لتجنب الحاجة لاستخدام أسلحة دمار شامل ضد الأميركيين. فقد حذّرهم وفتح الباب أمامهم لاعتناق الإسلام، واستشار علماء الدين، وحاول في مساعيه الأخيرة إقناع الأميركيين بحماية أنفسهم من خلال أفضل تقليد أميركي، وهو العودة إلى صندوق الاقتراع السري. لكن تلك المحاولات لم تفلح بنظر بن لادن، فلا تزال الاعتداءات على المسلمين والجرائم التي ترتكب بحقهم مستمرة، ولهذا فقد كتب الشيخ السالف الذكر: "إذا شارك رجال السلطة في الجهاد وقرروا أن شرّ الكفار لن يندحر إلا باستخدام وسائلهم [أي باستخدام أسلحة دمار شامل]، عندئذ يمكن استخدامها".

> لقد اتفق علماء المسلمين على إباحة قصف العدو باستخدام قاذفة طائرات أو صواريخ أو نحو ذلك من الأسلحة.
>
> وكما هو معروف لدى الجميع فإن هذه القاذفات لا تفرّق بين النساء والأطفال وغيرهم.
>
> وهذا يثبت أن مبدأ الهجوم على أراضي الكفار وقتلهم إذا ما اقتضى الجهاد ذلك وفي حال قرر المسؤولون عن قيادة الجهاد شرعية هذا الأمر، فإن للمسلمين قذف هذه البلاد بالقنابل حتى يتم فتحها. ولم يذكر أي أحد [أي الرسول أو صحابته أو علماء المسلمين أو المؤرخين] أنهم قد توقفوا عن الجهاد يوماً خوفاً من القضاء على كافة الكفار أو خشية تدمير أراضيهم. والله أعلم[91]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

من الواضح أن بن لادن هو أحد "المسؤولين عن قيادة الجهاد "حيث إنه كان قد قرر أن "الجهاد يقتضي" استخدام أسلحة دمار شامل ضد الولايات المتحدة، بحسب رأيه الذي يفيد أن استخدام تلك الأسلحة ينضوي تحت راية "الشرعية الدينية". لهذا يجب ألا يستغرب أحد إذا قام بن لادن والقاعدة بتفجير أحد أسلحة الدمار الشامل في الولايات المتحدة.

تطور جديد: بن لادن يتوقع ردّ فعل أميركا

وآخر نقطة يجب الانتباه إليها في خطابات بن لادن التي تلت الحادي عشر من سبتمبر هو توقعه للقلق والرعب الذي انتشر بين الأميركيين، والذي ظهر عقب الاعتداءات على نيويورك وواشنطن. وهذا لا يعني أن بن لادن يتمتع بقدرة على قراءة المستقبل، بل يقدّم فكرة تناقض ما جاء به المسؤولون والمحلّلون الغربيون الذين قيّموا بن لادن على أن ما يحفّزه ويدفعه في قضيته هو الجهل والكراهية ليس إلا. وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه الولايات المتحدة والغرب والمجتمعات الحديثة. فقد كتب بول بريمر الذي شغل منصب الحاكم الإداري الأميركي في العراق: "لا طائل من البحث في ما يدعى بالجذور المسببة لإرهاب بن لادن، فنحن الجذور المسببة لإرهابه. فهو ببساطة لا يحب أميركا، ولا يحب مجتمعنا، ولا يحب مبادءنا، ولا يحب قيمنا"[92]. قد يكون بن لادن فعلاً لا يحب كل الأشياء التي ذكرها بريمر، لكن كراهيته هذه والحرب التي يشنّها علينا، لا علاقة لها على الإطلاق بمجتمعنا وقيمنا وأفكارنا. إن بن لادن يكرهنا - واعذروني لتكراري هذا - بسبب سياساتنا وأفعالنا في العالم الإسلامي، وإن كراهيته ليست عمياء ولم تأتِ عن جهل. كما أنه أقام وزناً لأميركا أكثر بكثير مما فعلت هي، فقد استخفت به ولم تأخذه بحسبانها بينما فعل هو العكس، لدرجة جعلته قادراً فعلاً على الإدلاء بتصريحات من شأنها تهدئة روع المسلمين وتأييد آرائهم ومعتقداتهم، وفي الوقت ذاته زرع الرعب والخوف في نفوس الأميركيين حول ما ستؤول إليه الحرب على القاعدة وتأثيرها المباشر على بلادهم.

إن الشاهدين التاليين قد أخذا من تصريحات أدلى بها بن لادن ضمن فترة امتدت قرابة ستة أسابيع بُعيد اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر، وقبل وضع اللمسات الأخيرة على الردّ الأميركي الوطني على الأحداث التي جرت. ويعج هذين الشاهدين بالشعارات الرنانة والمبالغات التي اعتاد طرفا الحرب الأميركيّة - الإسلاميّة على استخدامها، لكن وراء ذاك الحشو وتلك اللغة المنمقة تكمن حجة قوية وذكية تعزز إيمان المسلمين، وتثير الشك في نفوس وعقول الأميركيين في آنٍ معاً. فالأول يؤكد للمسلمين أنه على الرغم من أن الحرب ستحدّ من

ظهور بن لادن في وسائل الإعلام، فإنه سيكون في أمان، وتلمح للأميركيين في الوقت ذاته أنه سيخطط للقضاء عليهم حتى وإن امتنع عن الظهور بشكل دوري، وأنه سيتلقى مساعدة من وسائلهم الإعلامية تحديداً. أما في الشاهد الثاني فيذكّر بن لادن المسلمين بالنفاق الأميركي والخداع الصهيوني، ويغذي مخاوف الأميركيين في ما يخص النمو المتزايد لقوات وصلاحيات الشرطة الفدرالية الحكومية. على الرغم من أن الحكم الأخير متروك للقارئ، فإنه يبدو أن هذين الشاهدين يظهران معرفة عميقة بطريقة التفكير في زمن الحرب في أميركا المعاصرة.

عدم قدرة أميركا على تحمّل نتائج حرب ضد الإسلام، 28 سبتمبر 2001

إن صمتنا هو الدعاية الحقيقية لنا. فالرفض والتوقع وتصليح المعلومات وتكذيبها [من طرف القاعدة] لا يؤدي إلا إلى هدر وقتكم، ومن خلال القيام بتلك الأشياء يريدكم العدو أن تنشغلوا بأمور لا فائدة منها. إن هذه الأمور تبعدكم عن قضيتكم. لقد شنّ الإعلام الغربي هذه الحملة الإعلامية الشعواء التي لا أساس لها من الصحة والتي تصيبنا بالدهشة لكنها تعكس ما يكنونه في صدورهم حتى أنهم أصبحوا شيئاً فشيئاً أسرى هذه الدعاية الكاذبة. لقد أصبحوا يخافونها وبدأوا يتسببون في أذية أنفسهم. فالإرهاب هو أكثر سلاح مروع في العصر الحديث والإعلام الغربي يستخدمه بلا رحمة ضد شعوبه ذاتها. فهو قد يضاعف من الخوف والعجز في نفوس شعوب أوروبا والولايات المتحدة. وهو بذلك يحقق ما لا يستطيع أن يفعله أعداء الولايات المتحدة، فالإعلام يقوم بتلك المهمة. ويمكنكم أن تتوقعوا كيف سيكون أداء تلك الأمة في الحرب، الأمة التي تعاني من الخوف والعجز[93].
(نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

نفاق الولايات المتحدة في ما يخص الحقوق والحريات، 21 أكتوبر 2001

لكنني أشير إلى أن هناك أحداثاً أخرى قد جرت أعظم وأخطر من انهيار البرجين. وهي أن هذه الحضارة الغربية التي تتقدمها أميركا قد فقدت قيمها وجاذبيتها. فقد دمرّ البرجين الماديين الهائلين اللذين يرمزان إلى الحرية وحقوق الإنسان والمساواة. لقد أصبح الأمر برمته مهزلة تجلت بشكل واضح عندما تدخلت الحكومة الأميركيّة ومنعت وسائل الإعلام من بث تصريحاتنا التي لم يكن بثها يتجاوز دقائق معدودة، وذلك لأنهم

شعروا أن الحقيقة بدأت تتضح أمام الشعب الأميركي، وأننا لسنا في الحقيقة إرهابيين بحسب التعريف الذي أرادوا أن يصفوننا به. فالسبب وراء ما نفعله هو اعتداؤهم علينا واغتصابنا في فلسطين، والعراق، ولبنان، والسودان، والصومال، وكشمير، والفليبين وفي كل مكان... ولهذا فقد صرّحوا بما صرّحوا، وأمروا بما أمروا، ونسوا كل ما قالوه عن حرية التعبير وعدم التحيز في إطلاق الأحكام وكل تلك الأمور. لذا فأنا أقول إن الحريات والحقوق في أميركا وحقوق الإنسان قد أرسلت إلى المقصلة إلى غير رجعة إلا إذا أعيدت بسرعة إلى وضعها السابق. إن حكومة الولايات المتحدة ستلقي الشعب الأميركي والغرب عامة في غياهب جحيم لا يطاق وذلك لأن تلك الحكومات مرتبطة باللوبي الصهيوني بعرى لا تنفصم وهي عرى الأموال التي تتدفق إليها بشكل منتظم. هذا اللوبي الذي يخدم مصالح إسرائيل التي تقتل أبنائنا وأولادنا دون وجه حق كي تتمكن من إحكام سيطرتها بشكل كامل[94]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

ولا تزال الكلمات لا تلقى آذاناً صاغية...

وكخلاصة لما سبق: **سألتزم الصمت في معظم الأوقات. سأهاجم من يقدم المساعدة لكم. سأشنّ عليكم الحرب في العراق، وأفغانستان، وفي كل مكان. سأقوم بحث المسلمين على قتالكم. وسأوجه لكم ضربة أخرى في الولايات المتحدة، وسأستخدم في هذه الضربة إذا كان بإمكاني أسلحة دمار شامل. سأحاول أن أدمر اقتصادكم. وعلى الرغم من أنكم أشرار، فأنا لست مهتماً بكم ولا تعنيني معتقداتكم أو أفكاركم في شيء، لكنني سأجبركم على التخلي عن العديد من سياساتكم تجاه المسلمين. ولن أكل أو أمل أو أستسلم. ولن أقبل بأي تسوية. وستهزمون بإذن الله.**

تلك كانت تهديدات جدّيّة صرّح بها بن لادن، وهي تشبه تماماً تلك التي أدلى بها قبل الحادي عشر من سبتمبر ومن ثم نفذّها. إلا أن الأميركيين - ولا سيما النخبة منهم - يرفضون أن يدركوا فحواها، الذي يعني بكل بساطة أن بلادهم متورطة في حرب حتى الموت مع عدو أنذرنا بكل أهدافه وخطواته. إن كلمات بن لادن لا تفسح مجالاً لأي عذر من طرفنا. فمهما سيحدث في المستقبل، ومهما كانت الكوارث التي ستحل بنا، وبأولادنا، وببلدنا فالذنب سيكون ذنبنا لأننا قد أنذرنا واخترنا ألا نقاتل بكل جهدنا. ولأكثر من عامين - في الواقع لأكثر من

عشرة أعوام – تجاهلنا تحذير ميكيافيللي الذي قال إنه: "يجب ألا تسمح لمخططاتك أن تلغى لتتجنب الحرب، فالحرب ليست أمراً يمكن تجنبه وإنما قد تؤجل وعندها لن يكون الأمر لصالحك". ونحن للأسف سمحنا "لمخططاتنا أن تلغى" وذلك سواء في مجال الدفاع أو الإنفاق أو السفر أو السياسة الخارجية أو المسؤولية المالية أو الأمن الداخلي أو سلامة وأمن المواطن. لنتجنب القيام بالتضحيات التي يقتضيها القتال في الحرب التي ابتدأها بن لادن.

إنه سيوجه إلينا ضربة قاسية مرة أخرى، وهذه ستكون أقوى من سابقتها وعندها سنضطر إلى الانخراط والقتال في الحرب التي لطالما تجاهلناها و"أجّلناها". وعندما سنحاول الوقوف من جديد يجب أن نصلي وندعو أن يكون تحذير ميكيافيللي التالي خاطئاً والذي أشار به على أميره قائلاً: "ولهذا السبب فإن كل الرسل المسلّحين خرجوا من الحرب منتصرين وكل من لم يتسلح منهم واجه هزيمة منكرة"[95].

6

مظاهر العجرفة التي تعمي الأبصار: كيف ألحقنا الهزيمة بأنفسنا - اللاحرب، وتسريب المعلومات، وديموقراطيّة تبشيريّة

إن هذا الزمن فعلاً زمن صعب للغاية... لكن في آخر المطاف سيخلص المرء دوماً إلى أن الطريقة الوحيدة لهزيمة جيش ما، هي أن يُشمّر عن ساعديه ويهب لإيقافه عند حده.

الجنرال الأميركي غرانت، سي 1865[1].

كانت الصحافة في الشمال حرة إلى الحدّ الذي كانت ترتكب من خلال حريتها خيانة علنيّة.

الجنرال الأميركي غرانت، 1885[2].

يبدو أن بوش لا يدرك أنه ليس رئيس الولايات المتحدة فحسب، بل رئيس العالم الحرّ بأسره أيضاً... لذا فلا يمكنه التخلي عن هذا الدور دون التسبب بفوضى عارمة.

آندرو غريلي، 2003[3].

يتم إغراق الغرب يومياً بفيض من معلومات المراسلين، وأهم الأحداث الجاريّة، والخطابات، والعمليات العسكريّة. حتى فهم القارئ العادي - للصحف والمجلات والإنترنت، والمستمع لتصريحات المسؤولين الحكوميين، والخبراء

الإعلاميين، والباحثين، والمشاهد للتليفزيون منذ الحادي عشر من سبتمبر - أن الغرب يفوز في الحرب التي بلغت قمتها في ذلك اليوم. وفي ما يلي مثال عن العناوين لموجز إخباري غير حقيقي لكنه منطقي في الوقت نفسه:

> انتصار ساحق في أفغانستان، قضي على طالبان قضاء مبرماً. بن لادن والظواهري يرتعدان خوفاً ويختبئان في كهوف أفغانستان. سيقبض على فلول القاعدة عما قريب. يمسك النظام الديموقراطي المؤيد للغرب بزمام الحكم في كابل. لقد ضعف التعصب للإسلام الأصولي والجهاد بحيث أصبح على حدّ تعبير مدير الاستخبارات المركزيّة، مقتصراً على جزء بسيط من شراذم المسلمين المجنونة. أما رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون فهو رجل السلام. الحرب على القاعدة ليست حرباً على الإسلام. الحرب على الإرهاب لا علاقة لها بالدين على الإطلاق. بن لادن يكره الولايات المتحدة بسبب حريتها لا بسبب سياساتها. الإسلاميون يكرهون الولايات المتحدة بسبب أفكارها لا أفعالها. باكستان والسعودية تدعمان حرب الولايات المتحدة على القاعدة. الغرب يقطع التمويل عن بن لادن. خارطة الطريق تؤتي ثمارها في إسرائيل وفلسطين. نصر في العراق، ليست هناك أي حركات إسلاميّة معارضة. يقترب العراق من تشكيل حكومة علمانيّة ديموقراطيّة ذات سيادة.

وعلى الرغم من أن القارئ والمستمع والمشاهد الغربي يشعر بالارتياح لدى معرفته بالنتيجة المزعومة، التي تفيد بأن انتصار الولايات المتحدة على بن لادن وقضيته هو أمر وشيك تماماً، كإرساء دعائم الديموقراطيّة في كافة أنحاء العالم، فإنه لا يزال يجد بين الحين والآخر بعض الثغرات في الأخبار التي يعرفها أو يظن أنه يعرفها عن الحرب التي تتزعمها الولايات المتحدة ضد الإرهاب. ففي بداية العام 2004 مثلاً، وفي خضمّ الاحتفالات الصاخبة بالنصر المبين، لا نزال نسمع مدير الاستخبارات المركزيّة ومدير مكتب التحقيقات الفدراليّة يطلقان التحذيرات التي غالباً ما تكون مشتركة بينهما في تقارير يقدماها للكونغرس والتي تفيد بأن القاعدة لا تزال بنفس الخطورة التي كانت عليها عام 2001. وعلاوة على ذلك، فإنك إذا قرأت الصحف بشكل أعمق فستجد روايات تزعم أن أولئك السادة مخطئين في ادعاءاتهم وأن القاعدة في الحقيقة أخطر بكثير مما كانت عليه قبل ما يسميها بن لادن الهجمات المباركة في الحادي عشر من سبتمبر. وبينما يتوالى تعارض الأخبار

وتناقضها، تردنا أنباء عاجلة تفيد بأن إدارة الأمن الوطني الأميركي DHS قد رفعت مؤشر إنذار الخطر من الأصفر إلى الأحمر - أم هو حقيقة من الأحمر إلى الأصفر؟ - في ذلك الجهاز الرخيص الأشبه بإشارة المرور. إن تعديل إشارة الموت الضوئيّة تلك يهدف إلى تجسيد رأي إدارة الأمن الوطني بتزايد الخطر الذي يتهدد المصالح الأميركيّة من شخص ما في مكان ما في العالم بشكل كبير. وبينما تتأرجح مستويات الخطر بين لا تقلق وستموت قريباً، فإننا نسمع أيضاً تحذيرات الخبراء التي يوجهونها عبر قناة السي أن أن (CNN) وسي سبان C-SPAN وبرنامج أوبرا بأن الاعتداءات التاليّة التي ستنفذها القاعدة في بلادنا ستتضمن استخدام أسلحة دمار شامل. ومن ثم تتمم تلك التحذيرات نصائح غريبة أخرى تطلقها إدارة الأمن الوطني تحث فيها المواطنين بأن يهرعوا لابتياع "مجموعة مزودة بأدوات خاصة في حالة حدوث الكوارث" تتضمن شريطاً لاصقاً وغطاء بلاستيكياً لوقاية بيوتهم وعزلها عن الهواء وجعلها "قلعة منيعة في وجه أسلحة الدمار الشامل". لكن على الرغم من أن تلك الأدوات لا تؤمن حماية كبيرة، فإن مبيعات الأشرطة اللاصقة وأجزاء أخرى من تلك المجموعة شهدت ارتفاعاً ملحوظاً، مما يثبت من جديد أن واشنطن "تفعل نفس الشيء دائماً" عندما تواجه تهديدات غير واضحة إنها "تثير الرعب في قلوب الناس جميعاً..."[4].

وأقل ما يمكن قوله في هذا الشأن، هو أن الأميركيين يتلقون رسائل غامضة ومحيرة من قادتهم. فهل نحن متجهون نحو مسيرة احتفال بالنصر أم نحو ملاجئ الاحتماء من القنابل التي تعود إلى عهد الحرب الباردة؟ أم بكل بساطة مباشرة إلى القبر؟ وهل تشكّل التحذيرات المتكررة بكارثة مدمرة تدبّرها لنا القاعدة خطراً حقيقياً؟ أم أن الموظفين الفدراليين تعلّموا أن عليهم الحفاظ على ماء وجههم حتى لا يتعرضوا ثانية لاتهامات بالتقصير وعدم تأدية واجبهم في تحذير المواطنين بوقوع كارثة محتملة كما حدث في الحادي عشر من سبتمبر فحسب؟ فهل هناك تعريف آخر للموظف البيروقراطي عديم القيمة والنفع الذي لا يمكنه أن يتدبر أمر الدفاع عن النفس؟ وهل كثر الحديث عن الأخطار المرتبطة ببن لادن للتغطية على الاقتصاد الذي يتأرجح بين الأوضاع المترديّة أحياناً والمزدهرة أحياناً أخرى،

ووجهات نظر الحزبين السياسيين الرئاسيين في الولايات المتحدة حول هذا الشأن؟ وهل هناك استراتيجيّة واضحة المعالم وضعها الأمن القومي لمواجهة بن لادن، أم أن قادتنا سيرتجلونها عندما تقع المصيبة؟ وباختصار، هل علينا إحضار زجاجة شمبانيا للاحتفال أم مسبحة لنتحسر على موتانا؟

إن الهدف من هذا الفصل ليس الهزل ولا التعنيف، بالرغم من كل ما ذكر آنفاً. كما أنه لا يهدف إلى تقديم إجابات نهائيّة على الأسئلة المطروحة، ومع ذلك فلا بد أن القارئ قد فهم من كلامي أنني أعتقد أن كمّ ونوع الأخبار السيئة يفوق إلى حدّ كبير الأخبار الجيدة. إلا أن الهدف الأساسي هنا هو البحث في قضايا محددة تظهر – برأيي – أن الأسلوب الذي نتّبعه في أميركا الشماليّة في رؤيتنا وفهمنا للأشخاص والأحداث التي تجري خارج أميركا يطغى عليه التكبّر والتفكير بالذات فقط بشكل أناني، الأمر الذي تفاقم ليتحول إلى ما أسميته في كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا* "بالعجرفة الإمبرياليّة"[5]. وهذا ليس خللاً وراثياً عند الأميركيين بشكل عام وُجِدَ منذ أن حط المهاجرون رحالهم عند صخرة بلايموث، بل هو طريقة تفكير النخبة الأميركيّة التي اكتسبت منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية. إنها عمليّة تفسير لما يحدث في العالم كي نفهمه نحن، إنها عمليّة إنتاج عالم تكون فيه الأشياء المختلفة قليلة لأننا نؤمرك محتوياته. وقد كتب لي هاريس في هذا الشأن في عدد أغسطس/سبتمبر 2002 لمجلة *بوليسي ريفيو* *Policy Review* "عندما يواجهنا عدو تختلف ثقافته عن ثقافتنا فإن أول ما تمليه علينا غريزتنا هو محاولة فهم سلوكه هذا بمنطقنا وطريقتنا وهو منطق نفهمه بناء على الكم من التجارب التي اختبرناها. ونفترض أنه إذا كان عدونا يفعل شيئاً ما فلا بد أن يكون ذلك لأسباب مفهومة في منطق عالمنا"[6]. وهكذا فبن لادن مثلاً بالنسبة لنا مجرم يدفعه السعي وراء المال – وليس مسلماً ملتزماً يدفعه دينه للقيام بتلك الأفعال – لأن الأميركيين يعرفون تماماً كيف يتغلبون على رجال العصابات الأغنياء. كما أننا نفترض أيضاً أن بن لادن والإسلاميين يكرهوننا بسبب حرياتنا، وديموقراطيتنا، وحقوقنا التي نتمتع بها، لا لأنهم وملايين غيرهم من المسلمين يرون أن سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة تعدّ اعتداءً سافراً على الإسلام، أو لأن الجيش الأميركي اليوم لديه سجل

يمتد لعشرة أعوام من سحق الناس والأشياء في العالم الإسلامي. حتى المؤرخ المعروف فيكتور ديفيس هانسون كان على خطأ عندما كتب في سبتمبر 2001: "إن هؤلاء الإرهابيين يكرهوننا بسبب أفكارنا وحياتنا لا لما فعلناه"[7].

ويؤكد قادتنا السياسيون أن التقديرات المنخفضة جداً لتأييد أميركا التي أظهرتها استطلاعات الرأي العام في البلاد الإسلاميّة الكبرى، لا تعكس أبداً دعمنا المطلق لإسرائيل ومؤامراتها الدنيئة القاتلة التي تحيكها تحت لواء "الاغتيالات المستهدفة". أما المعلّق اليقظ الحساس ستيفن سايمون فيقترح على الولايات المتحدة أن تتبنى أسلوب إسرائيل في الاغتيالات المستهدفة، ظناً منه أن هذا لا يتعارض مع نصيحته التي تقول إن على واشنطن "التحرك بجدّيّة أكبر لإقامة علاقات... [مع] المعتدلين" في مصر والسعودية[8]. كما أن تلك التقديرات، على حدّ قولهم، ليست نتيجة لدعمنا وتأييدنا الدائم لأنظمة الحكم المستبدة والفاسدة في البلاد الإسلاميّة التي تبدد بحماقة مصادر الطاقة في العالم الإسلامي في سبيل المتعة والمنفعة لعائلات الحكام بينما تسجن، وتعذب، وتعدم المعارضين للنظام. وكذلك فإننا على ثقة تامة بأن التقديرات السيئة التي حصلنا عليها لا علاقة لها على الإطلاق برفضنا لتطبيق الحدّ من انتشار الأسلحة النوويّة بشكل عادل ومنصف، وهو وضع يجعل امتلاك إسرائيل والهند لأسلحة نوويّة أمراً مقبولاً - وهما دولتان تتمتعان بنظام حكم ديموقراطي - بينما يكون امتلاك باكستان لأسلحة نوويّة أمراً مرفوضاً تماماً (ربما لأن باكستان دولة إسلاميّة؟)، وأخيراً يقول رجال النخبة إن الحركة التي يمثّلها بن لادن لا علاقة لها أبداً بالدين الإسلامي، لأن كل الأديان هنا في أميركا متعايشة بشكل ودي مع بعضها البعض، ولهذا فمن الممكن أن يقوم باقي العالم بالشيء نفسه. ولتطبيق ذلك فإننا نرسل إلى تلك المنطقة ديبلوماسيين، وسياسيين، ومسؤولين، ورجال دين أميركيين لإقناع المسلمين قسراً بأن يغيّروا القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة وبشكل خاص الأجزاء من الشريعة الإسلاميّة التي تتعامل مع التعليم، والزكاة، والصدقات، وعدم الفصل بين المؤسسة الدينيّة والدولة، وتلك الفكرة البغيضة الخاصة بالجهاد، لتتماشى مع العصر وتصبح أكثر حداثة وغربيّة. ومن المؤكد أننا استنتجنا أننا إذا دعونا وتمكنا من الوصول إلى

إصلاح إسلامي يجعل من المسلمين علمانيين مثلنا، فإن كل ذلك الجدل العقيم والسخيف حول التطرّف الديني سينتهي حتماً، وسيتوق المسلمون إلى إبعاد الدين عن السياسة.

وهكذا فإن أميركا مستعدة بل وراغبة في تصديق أن العالم الإسلامي يعجز عن إدراك وفهم النوايا الطيبة لسياسة الولايات المتحدة الخارجيّة وتطبيقاتها، وذلك يعود إلى رسوخ العجرفة الاستعماريّة المسيطرة على عقول نخبتنا السياسيّة، والعلميّة، والاجتماعيّة، والإعلاميّة، والعسكريّة.

وعلاوة على ذلك، كما أشير في الحكمة التي استهليت بها هذا الفصل التي كتبها القس الروائي آندرو غريلي، فإن رجال النخبة في مجتمعنا قد رأوا أن الدستور الأميركي يجيز انتخاب "رئيس العالم" بدلاً من الحاكم الأعلى للجمهوريّة الأميركيّة. إن هذين السطرين البسيطين يعبّران عن فكر أميركا الذي يقول إن أميركا ليست بحاجة لتغيير سياساتها الخارجيّة، أو حتى إعادة النظر فيها، بل عليها فقط توضيح منطقيّة وجهات نظرها، وطيب مقاصدها، ونواياها إلى العالم الإسلامي العاجز عن فهمها. ففي الحقيقة ليس هناك ما يبدو أكثر أميركياً في القرن الحادي والعشرين من إنتاج ذريعة جديدة للحرب تتجسد في مشكلة التفاهم بين العالمين، يليها التوجه إلى ماديسون آفنيو (مركز العلاقات العامة والدعاية الأميركيّة) طلباً لإطلاق حملة ضخمة بعنوان "الديموقراطيّة، والعلمانيّة، والرأسماليّة... أيديولوجيات يمكن تطبيقها في العالم الإسلامي" لتعليبها وبيعها إلى العالم الإسلامي الذي لا يزال مُصِرّاً على رفضها بكل قوته حتى يومنا هذا.

إنني لم أقصد بما أشرت إليه سابقاً أن أسخر من القدرات العقليّة للمواطنين الأميركيين أو أن أؤيد بن لادن وتفسيره وفهمه للإسلام. بل إنني أودّ فقط أن أقول إن معظم بلدان العالم التي تقع خارج إطار قارة أميركا الشماليّة، لم ولن تكون أبداً مثلنا، بل إنها على الأرجح لا تريد أن تكون مثلنا. حتى إنه من الممكن أن تكون هناك شعوب من غير المسلمين مستعدة لحمل السلاح والمقاومة حتى الرمق الأخير إذا ما أجبرت على أن تكون مثلنا. دعوني أفسّر هذا بشكل أوضح، إنني لا أتحدث هنا عن الحريات السياسيّة والشخصيّة أو احترام التعليم وحقوق الإنسان في

أميركا، فاستطلاعات الرأي نفسها التي أشارت إلى أن المسلمين يكرهون الأميركيين بسبب أفعالهم، أظهرت في الوقت ذاته تأييداً واسعاً للأفكار والمعتقدات التي تشكل منظومتنا الفكريّة. حيث أظهرت الاستطلاعات التي سجلت عام 2003 - على سبيل المثال - أنه على الرغم من أن المسلمين يؤمنون أن "الإيمان بالله هو شرط ضروري لتمتع الفرد بالأخلاق"، فإنهم يؤيدون ما أطلق عليه في الاستطلاع "القيم الديموقراطيّة". وبشكل عام، فإن الاستطلاع قد أشار إلى أن "الشعور العدائي موجّه ضد السياسات الأميركيّة لا القيم الأميركيّة"[9]. وعندما يقوم الأميركيون - نقاداً وشعباً - بمعالجة المعلومات الواردة لجعلها مفهومة بالنسبة للمنطق الأميركي، فإن العديد منهم لا يعجز عن فهم مجريات الأحداث خارج أميركا فحسب، بل والأخطر من ذلك أنهم يعجزون عن إدراك الخطورة التي تمثلها هذه الأحداث، والمنظمات، والمواقف، والشخصيات الخارجيّة بالنسبة للأمن القومي الأميركي وسلامة وأمن مجتمعنا وأسلوب حياتنا. إن الحاجة الماسة للتخلص من هذا العجز والتقصير في الإدراك الحسي تنبع من ضرورة إعداد أميركا بشكل جيد للدفاع عن نفسها، كما أن ذلك لا يعني أبداً تبنّي الأميركيين لمشاكل ومظالم الشعوب الأخرى، أو شعورهم بالذنب والمسؤوليّة بشكل أكبر تجاه الأحداث الجاريّة خارج أميركا. فإذا نظرنا فقط إلى موقفنا من إسرائيل على سبيل المثال سيتبيّن لنا بكل وضوح أن الأميركيين يشعرون بذنب كبير تجاهها دونما سبب يدعوهم لذلك، ويدفعون ثمن هذا الشعور باهظاً كل يوم. إن القرارات التي تخص مستقبل الأمن في أميركا يجب أن تبقى - كما كانت دائماً - بيد الأميركيين وحدهم.

إن هذا الفصل باختصار، يؤكد أنه من أجل أن نتمكن (الأميركيون) من اتخاذ القرارات وتحديد الوسائل اللازمة لضمان أمن الولايات المتحدة، يجب أن نفهم العالم كما هو، لا كما نريده أن يكون - أو حتى كما نتمناه أن يكون. وأعتقد أن هذا الرأي الذي أحاول إثباته ينطبق على كافة العلاقات الأميركيّة مع العالم، ومع أنني لا أمتلك الذكاء والتكبر كي أزعم أنه بإمكاني تقديم خطة شاملة لتغيير سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة. إلا أنني أمتلك خبرة طويلة في تحليل وضرب بن لادن والإسلاميين. إنني أرى أن خطر بن لادن وجماعته على أميركا

يتزايد ويتعاظم – وليس هناك أي خطر أشد منهم علينا – وأننا منينا بالهزيمة لا بسبب غياب الدليل الواضح على وجود هذا الخطر، بل لأننا نرفض تقبله على حقيقته ودون أمركة المعلومات التي تردنا بسهولة وبكمّ كبير. يجب أن يتغير هذا وإلا ستتغير طريقة حياتنا بشكل جذري.

بن لادن: العدو كما تصورناه لا العدو الذي نواجهه فعلاً

لم يسبق أن قمنا بمجهود أكبر – في سياق مواجهات أميركا مع المحاربين الإسلاميين – من الذي نبذله اليوم لفهم شخصيّة أسامة بن لادن من منظورنا ورؤيتنا الخاصة. وكما أشرت في الفصل الرابع، ليس هناك أي سبب، بناء على المعلومات التي بحوزتنا، يدعو للاعتقاد أن أسامة بن لادن في حقيقته يخالف ما يبدو عليه في الظاهر: أي أنه مسلم تقي، ودود، لطيف، كريم، موهوب، شجاع ويتمتع بحكم استراتيجي وتكتيكي سليم. أضف إلى ذلك أنه يعمل مع بن لادن وتحت قيادته قادة أكفاء يتمتعون بعزم، وتصميم، وعناد لا مثيل لهم وصبر عظيم. إن لدينا تقارير حول بن لادن جمعت لأكثر من سبعة أعوام، بعضها نُقِلَ عن كلامه أو مما ورد عن أشخاص كتبوا عن أشخاص كتبوا عنه، لقد كتب معظم هذه التقارير صحافيون غربيون أو مسلمون ممن أجروا مقابلات معه أو التقوا به، أو عن طريق المسلمين الذين حاربوا إلى جانبه أو عملوا معه. إن دعم ما جاء في هذه التقارير، أو بمعنى أدق، المصادقة عليه – كما تم توثيق ذلك في الفصل الرابع وفي كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا* – هو ببساطة العلاقة الوثيقة بين أقوال بن لادن وأفعاله لأكثر من عشر سنوات.

إن معظم التقارير – 90 بالمئة كتقدير تقريبي – تدعم الرأي الذي أُشير إليه آنفاً حول شخصيّة بن لادن وقدراته. أما العشرة بالمئة المتبقيّة فمعظمها كتبه صحافيون وباحثون غير مسلمين، ومسؤولون عاملون أو متقاعدون في الحكومات الغربيّة وحكومة الولايات المتحدة، أو بيد من يعمل لمصلحة أنظمة البلاد الإسلاميّة التي وصفها بن لادن بالمرتدة وأقسم على القضاء عليها. إن هدف أولئك الكتبة الذين ينتمون إلى العشرة بالمئة، هو إما إظهار جهل رهيب مقصود – وفي هذه

الحالة فإن تقاريرهم هي أداء بارع دون شك - أو تصوير بن لادن على أنه رجل عصابات متحجر القلب لا يتمتع بتفكير سليم ويمتلك شخصيّة انصياعيّة مذعنة تتصرف بناء على أوامر الغير. والغير الذي يقودها هنا هو بالطبع الدكتور أيمن الظواهري الذي تمثل شخصيته - بناء على هذه التوصيفات الخاطئة - النسخة العربيّة للدكتور موريارتي بطل قصة *نابوليون أوف كرايم Napoleon of Crime* للروائي كونان دويل. وفي كلتا الحالتين لا يتم التعرض في الحديث عن الدين على أنه السبب الذي يجعل من بن لادن شخصيّة تتمتع بشعبيّة كبيرة، بل على العكس من ذلك، يكتفى بالقول إن سبب اتباع الناس لبن لادن هو الأموال الطائلة التي يُبذّرها هنا وهناك والتي بدونها يكون مجرد مجرم بغيض. إن أولئك الذين تشكل تقاريرهم نسبة العشرة بالمئة يقدمون لنا بن لادن الذي نفضل مواجهته، ومن المؤسف أن العديد ممن يمثلون النخبة الغربيّة ينتمون بآرائهم إلى هذه الفئة الأخيرة.

إن إحدى الطرق التي من شأنها دحض آراء تلك الفئة التي تمثل عشرة بالمئة والخطر الذي تشكله على فهمنا لظاهرة بن لادن، هي التنويه إلى صدق بن لادن في تهديداته والقدرة التي تمتلكها القاعدة وحلفاؤها على تنفيذ تلك التهديدات. فمنذ الحادي عشر من سبتمبر 2001، لم يصرّح بن لادن عن نيته في شنّ هجمات جديدة على الولايات المتحدة فحسب، بل أصدر أيضاً ثلاث قوائم تتضمن الدول التي سيشنّ هجمات عليها، إما بسبب مساعدتها واشنطن في أفغانستان أو العراق، أو لمساعدتها استخبارات الولايات المتحدة على اعتقال وسجن مجاهدي القاعدة. وفي كافة الأحوال فإن بن لادن أشار إلى أن هذه الاعتداءات تستهدف إجبار الدول على إعادة النظر في مسألة دعمها للولايات المتحدة. وقد صدر التصريح الأول في 28 سبتمبر 2001[10]، وتلاه آخر في 11 فبراير 2003[11]، وثالث في 18 أكتوبر 2003[12]. كما أن الظواهري ذكر من بين الدول المستهدفة أيضاً تلك التي "تسلّم السجناء المسلمين إلى أعدائهم الصليبيين"[13] ثم أضاف تركيا والنرويج إلى القائمة في 11 فبراير 2003، وكان يقصد بتلك الأولى: "الأنظمة التي [تعلن] بكل صفاقة أنها تحارب الإسلام والمسلمين" أما الأخيرة فستتعرض لاعتداءات من قبل القاعدة بسبب مشاركتها في الحرب على أفغانستان[14]. ويجدر بالذكر أن ثماني

عشرة دولة من بين العشرين الموجودة في القائمة، تعرّضت فعلاً لاعتداءات، مما يعود بنا إلى نسبة 90 بالمئة. يمكنكم الرجوع إلى وصف مختصر لتلك الاعتداءات في الفصل الثالث 3.

على الرغم من أنه لا يمكن الجزم بأن كافة الاعتداءات كانت من تخطيط وتنفيذ القاعدة، إلا أنها جميعاً يمكن أن تنسب إلى القاعدة أو إلى جماعات أو أفراد كان بن لادن قد استهدفها من خلال خطاباته المحرّضة. إلا أن بعض الباحثين والصحافيين قالوا إن هذه الاعتداءات تدل على أن القاعدة قد تضررت بشكل كبير لدرجة أنه لم يعدّ بإمكانها إلا توجيه الضربات إلى "أهداف سهلة" - حتى إن أحدهم أكد في مقال كتب في صحيفة *لندن تايمز* أن الاعتداءات "هي إحدى أعراض الضعف... [وهي مرحلة] يائسة أخيرة قبل مجيء القوات الأميركيّة للقضاء عليها". غير أن السببين الذين قدّمهما القسم الإعلامي للمجموعة لهذا النوع من الهجمات كان لهما وقع منطقي ومعقول أكثر من سابقهما، حيث كتب أبو أيمن الهلالي في الأنصار أن "**هذه الاعتداءات - من خلال اتباع خطة مدروسة ومحكمة - تهدف إلى ضرب المصالح الأميركيّة، والصهيونيّة، وكل الأعداء الذين يتسببون بالدمار والحرب في كل أنحاء العالم**" (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كما وضّح سليم المكي في النداء أن الهجمات تهدف إلى إنهاك أميركا - وبمعنى أدق "إجبار أجهزة الأمن والإعلام الأميركيّة... على الاستعداد للقيام بسباق طويل مع المجاهدين. فقد كانت تلك الأجهزة تلهث محاولة التقاط أنفاسها من جراء ركضها من المقلع في اليمن، إلى فيلكة في الكويت، ثم بالي في إندونيسيا بحثاً عن المجاهدين الخفيين..." وبالإضافة إلى ذلك، فإن تلك الاعتداءات تسببت بضرر غير مباشر للولايات المتحدة وذلك من خلال ضرب حلفائها، فإن كثيراً منها قد ضرب دولة أو أكثر من الدول المسجّلة على القائمة. ففي الاعتداء الذي نفّذته القاعدة في أبريل 2003 على سواح ألمان وإسرائيليين في تونس - على سبيل المثال - استهدفت المصالح الألمانيّة والإسرائيليّة. كما أن من الواضح أن أحد أهداف الاعتداءات هو إلحاق الضرر بالقطاع السياحي في الاقتصاد العالمي - الذي تشغل المصالح الأميركيّة فيه حيزاً كبيراً - كتلك الاعتداءات التي وقعت في كينيا، وتركيا،

والكويت، وتونس، والأردن، وإندونيسيا. وقد صرّحت القاعدة عن هدفها في هذا الشأن في أواخر العام 2002، حيث ذكرت: "إن صنّاعة العدو السياحيّة... تتضمن أهدافاً سهلة ذات أهمية اقتصاديّة وسياسيّة كبيرة، وذلك لأن الضرر الذي قد يلحق بمنشأة سياحيّة لا يمكن تأمين حماية كاملة لها من أي اعتداءات يماثل وأحياناً يفوق الأذى الذي يمكن إلحاقه بسفينة حربيّة تابعة للعدو"[15]. وخلاصة الأمر، من الواضح أن بن لادن رجل ينفّذ وعوده، وأنه يجب أن يأخذ القادة ورجال النخبة في أميركا هذه الحقيقة الواضحة في حسبانهم. وبما أن بن لادن لم يقم بأي اعتداء على أرض الولايات المتحدة منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 فهذا لا يعني أبداً أن القاعدة قد هزمت أو أنها قد غيرت أهدافها.

تقارير عن الحرب أو اللاحرب؟

يصعب علينا فهم السبب الذي يجعل بعض الأميركيين يعتقدون أن بلادهم لم تخض أي حرب منذ العام 1990. فمن المؤكد أننا منذ ذلك الحين قد أثرنا بعض الحروب، وقد استدعى جيشنا أعداداً كبيرة من جنود الاحتياط وأفراد الحرس الوطني، كما أننا قمنا بعمليات قصف جوي لبلاد أجنبيّة - إسلاميّة على وجه الخصوص - وذلك بإطلاق صواريخ جويّة من قواعد أرضيّة، وحاملات طائرات، كما أننا قمنا بنشر أعداد كبيرة من الجنود الذين حاربوا خارج الولايات المتحدة بشجاعة ومهارة فائقة. وقد قمنا بشنّ ما سمي بحرب لتحرير الكويت، وإنقاذ الشعب الصومالي الذي ضربته المجاعات، وهزمنا الطغاة في هاييتي، ووضعنا حدّاً للحروب في البلقان، وأنقذنا كوسوفو من الصرب، وخلصنا أفغانستان من طالبان والقاعدة، وحرّرنا العراق من صدام وقتلنا ولديه. وبعد تنفيذ كل مناورة أو عمليّة عسكريّة من تلك العمليات كان قادة الولايات المتحدة يعلنون انتصارهم - حتى الأشهر الأخيرة - ويعيدون معظم الجنود والعتاد بسرعة إلى الوطن. يا له من سجل! هذا ما نقوله في أنفسنا في معظم الأحيان.

وعلى الرغم من ذلك، فإننا على مرّ ثلاثة عشر عاماً من العمليات العسكريّة المتكررة، لم نقم ولا حتى مرة واحدة بهزيمة خصومنا بشكل حاسم ونهائي، سواء

كانوا قطّاع طرق هايتيين، أو قادة عسكريين صوماليين أو فدائيي صدام أو مـلا أفغاني وصديقه السعودي الهزيل الجسد. فنحن لم نرَ أعداداً كبيرة من الجثث، ولا أكواماً من الأسلحة، ولا استسلاماً رسمياً للأعداء، ولا أعداداً كبيرة من أسرى الحرب، ولا أي دليل ملموس يثبت الانتصارات التي حققناها، إلا اللهم تلك الادعاءات التي تشدّق بها قادتنا وزعموا فيها أنهم انتصروا، والاستقبالات الميلودراميّة للجنود العائدين إلى الوطن والتي أُدّيت ببراعة ولاقت ضجة كبيرة كانت تليق بجيش الولايات المتحدة التقليدي الإلزامي لا بزمرة القتلة المأجورين القساة أتباع الإدارة الأميركيّة. لم يعدّ المسؤولون والقادة السياسيون الأميركيون ينظرون إلى النصر بمقاييس كميّة ونوعيّة دقيقة محددة، بل إن النصر بالنسبة لهم هو كل ما يمكن أن يحققه الجيش الأميركي في مدة زمنيّة قصيرة حددها مسؤولون عن وضع الاستراتيجيات السياسيّة الذين يقدّرون إلى متى يمكن أن تطول الحرب، وما هي التكاليف التي يمكن أن يتحملها الناخبون الأميركيون. لذا فعندما تنتهي دقات ساعة المخططين يعلن القادة فوز أميركا بالحرب، ويعيدون الشباب إلى الوطن.

وبشكل عام، إن هذه العمليّة نظيفة ومرتبة للغاية، لكن هل يمكنها فعلاً إلحاق الهزيمة بالعدو؟ أم أنها مجرد ضمان بأن تتسنى الفرصة لرجال ونساء الجيش الأميركي ليقوموا بالعمليات نفسها مرة بعد مرة؟ وهل كان يولايسيس س. غرانت مخطئاً عندما أصدر أمراً لجيش دبليو تي شيرمان عام 1864 "بالتحرك ضد جيش الثوار الذي يتزعمه جوزيف جونستون وتمزيق وحدته، وتقسيمه، ومن ثم التوغل داخل أراضي العدو قدر الإمكان..."؟ أو عندما قال للينكولن إن جيش بوتوماك سيحارب في فيرجينيا في صيف عام 1864 حتى يهزم، أو يصبح جيش مارس روبرت في طريقه نحو نهايته المحتومة؟ هل كان غرانت مخطئاً عندما وضع خطة أمر بموجبها ضباطه بأن "يستهدفوا جيوش الأعداء لا مدنهم"؟ إنني أعتقد أن غرانت كان على حق. فقد حقق هو وشريمان انتصارات دامية لكنها كانت كاملة – فلم تكن انتصاراتهم عبارة عن مدن محتلة تطوقها حرب مستمرة بشكل يومي، كما هي الحال في أفغانستان والعراق – فقد كانت انتصاراتهم واضحة ومحددة لا غبار عليها ويمكن قياس نتائجها من الناحية الكميّة وأهم ما يميّزها هو أنه تم الاعتراف

بها في كافة أنحاء الاتحاد (الكونفدراليّة). "إلى درجة أنه يمكن للمرء أن يقول إن الحرب الأهليّة حسمت بشكل قاطع مسألة وجود احتمال بأن تنسحب بعض الولايات من الاتحاد"، هذا ما جاء في مقال كتبه تود لينبرغ في مجلة *ويكلي ستاندرد Weekly Standard* كما قال تأكيداً على أهمية البعد النفسي إضافة إلى البعد المادي الملموس للنصر: "ولا يشير المرء هنا إلى الصراع الدامي مع نتيجة معينة فحسب، بل إلى عمليّة ناجحة أدت إلى إيصال فكرتك بطريقة صحيحة. بمعنى أنه يمكن أن يقول المرء إن الحرب هي آخر أسلوب يمكن أن يلجأ إليه المرء لإثبات وجهة نظره"[17]. وفي هذا السياق قد نتساءل ما هي النتيجة التي توصل إليها الجيش الأميركي منذ العام 1990؟ لقد حقق انتصارات مزعومة، ووهميّة، ومشكوك بصحتها ولم يعترف بها العدو – لم تصل حتى إلى ما قد يحققه جيش من الدرجة الثانية – حيث إنها بالنسبة له ليست أكثر من خسارة في الجولة الأولى في حرب متعددة الجولات. لقد نسينا أو تجاهلنا عن عمد الهدف الأساسي للحرب – وهو سؤال تختلف الإجابة عليه إذا كان سبب الفشل هو السياسيون أو الجنرالات أو الاثنين معاً – وهو ما عبّر عنه فيليب هنري شيريدان بكلام حاد قائلاً: "**إن هدف الحرب هو أن تكيل بكل ما أوتيت من قوة ضربات قاتلة إلى جنود الأعداء ثم تسبّب معاناة وعذاباً رهيباً لسكان البلد، حتى يتوقوا للسلام ويضغطوا على حكومتهم لتحقيقه... يجب ألا يبقى أي شيء للناس إلا عيوناً تبكي الحرب**"[18].

إن عنادنا وإصرارنا على التمسك بتكبّرنا في ما يخص أفغانستان مثلاً، كان ولا يزال أمراً غريباً حقاً. فعلى الرغم من أن الأمم المتحدة وقوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة قد خطت خطوات كبيرة نحو تحسين ظروف الحياة اليوميّة لنسبة كبيرة من الشعب الأفغاني – من حيث تحسين الخدمات الصحيّة، وتأمين مياه الشرب، والمدارس، وتوفير المعدات فإن هذه المكاسب الهامة جداً والتي لا يمكن أن ينكرها أحد، لم تتمكن من تغيير الوضع الراهن في البلاد. فقد ظلت الخلافات العرقيّة مسيطرة في مجتمع أفغانستان القبلي، ولا يزال التدخّل الأجنبي في البلاد كثيفاً إلى حدٍّ كبير، ولا تزال أفغانستان في حالة حرب فضلاً عن أن حالة الحرب هذه تزداد حدة دون أي مؤشر يدل على هدوء مرتقب. وعلى الرغم من

المساعدات الإنسانيّة والاقتصاديّة التي تقدمها الولايات المتحدة والتي تعد البلاد بأمس الحاجة إليها، فإن حقيقة الوضع السياسي والعسكري الذي تواجهه الولايات المتحدة في أفغانستان، تنذر بأضرار كبيرة في المصالح الأميركيّة. ويرى الإعلاميون الغربيون، والأميركيون، والمراسلون، والمعلقون السياسيون الذين ينقلون الأخبار من هناك من موقع الحدث، بوضوح الكارثة التي تتهدد أميركا. وقد ذكر سكوت بالدوف على سبيل المثال في مجلة *The Christian Science Monitor*، أن "هناك أعداداً كبيرة من الأفغان – وبشكل خاص من الأغلبيّة البشتونيّة المحافظة – بدأت ترى أن القواسم المشتركة بين أفكارها والأفكار الإسلاميّة الأصوليّة التي تعتنقها القاعدة وطالبان، هي أكثر من تلك التي تربطهم بالتصريحات المؤيدة للغرب التي يدلي بها الرئيس الأفغاني الجديد حامد كرزاي"[19]. وقد حذّر الصحافي الباكستاني اللامع رحيم الله يوسفساي – الذي يتمتع بعلاقات متينة مع النخبة السياسيّة والعسكريّة والمحاربين الإسلاميين في باكستان – في بداية عام 2003 "من تزايد أعداد الأشخاص الذين يتطوعون في صفوف جماعة طالبان للانضمام إلى حركة المقاومة الآخذة في النمو والازدهار، في المناطق التي تقع تحت سيطرة الوجود البشتوني في البلد التي مزقتها الحرب"[20]. وقد حذّر صحافي باكستاني آخر وهو مظفر إقبال في مقال كتبه في الصحيفة اليوميّة المعروفة *الأخبار* من الأخطار التي تتهدد الولايات المتحدة في المستقبل، وذلك بالرجوع في التاريخ قليلاً إلى الوراء وبمنطق بسيط، حيث كتب: "إنني أظن أن الأمل ضعيف جداً في تحقيق ما لم يستطع الاتحاد السوفييتي تحقيقه بجهود مئة وأربعين ألفاً من الجنود، دون أن تنفجر في وجهنا كوارث ومصائب ذات مقاييس مروعة في هذا البلد الذي لم يتمكن أحد من كبح جماحه، نظراً لما يتمتع به الأفغان من عناد وإصرار"[21]. غير أن أكبر نذير بالشؤم كان المقال العبقري الذي كتبه عميد المؤرخين الحربيين الغربيين السير جون كيغان في صحيفة *ديلي تليغراف* بعد مرور عشرة أيام على اعتداءات واشنطن ونيويورك، تحت عنوان "إذا ما قررت أميركا الانتقام من الأفغان، فما هي الطريقة التي يجب أن تتبعها" لقد قدّم كيغان في ذلك المقال توضيحاً بسيطاً للقادة الأميركيين عما قد يعدّه التاريخ لأميركا، في حال قررت تجاهل الدروس التي تمثل

خلاصة قرابة قرنين من التجربة العسكريّة الغربيّة في أفغانستان.

> لقد كانت الجهود التي تبذل في سبيل احتلال أفغانستان والسيطرة عليها تنتهي عادة بكارثة. غير أن الحملات التأديبيّة المباشرة ذات الأهداف المحدودة أو التي تسعى إلى إحداث تغيير في سياسة الحكومة الأفغانيّة، كانت تحقق النجاح وقد حدث ذلك في أكثر من مناسبة... فالنجاح الذي حققته الجيوش الهنديّة والبريطانيّة في أواخر أيام الحكم البريطاني اعتمدت على تجنّب الحرب بشكل عام التي تهدف إلى تغيير المجتمع أو الحكومة في أفغانستان. لقد تقبل الحكم البريطاني حقيقة أن أفغانستان كانت بلداً عنيداً، وغير مستقر، ولا يمكن السيطرة عليه على الإطلاق. وفكّر فقط في كبح جماح حب محاربيها الجبليين الذي لا حدود له للغزو والقتال... وقد ارتكبت روسيا عام 1979 نفس الخطأ الذي وقعت فيه شركة الهند الشرقيّة عام 1839. فقد حاولت فرض حكومة في كابل. وكان تسليم زمام الحكم لرجل يخضع لأوامرها أمراً سهلاً. لكن تثبيت حكمه كان أمراً صعباً جداً... فالحملات المحدودة التي كانت تهدف لاختراق الصفوف وفرض العقوبات كتب لها النجاح، طالما أن القوات التأديبيّة مستمرة في التحرك وإحكام السيطرة على الجبال وطالما أنها تتمتع بالقدرة على القيام بانسحاب تكتيكي عند الضرورة[22].

من المؤسف أنه تم تجاهل التجربة الأولى، والنصيحة القيمة التي أشير إليها آنفاً. وعلى الرغم من هذه الحقيقة، فإن السياسيين، والمسؤولين الحكوميين البارزين، والجنرالات، والإعلاميين، والخبراء الأميركيين كانوا يتحدثون كما لو أن مساعيهم قد أثمرت عن نشوء نموذج مصغر عن أميركا في أفغانستان. فقد أخبر بول أونيل وزير الماليّة الأميركي في زيارة له إلى كابل – حيث كان هناك جسداً فقط أما عقله فكان في واشنطن وكأنه لم يغادرها قط – الصحافيين عن الحوار الذي أجراه مع كرزاي وحكومته حول الفرص الاقتصاديّة التي ظهرت في أفغانستان، قائلاً: "لقد تحدثنا أيضاً عن العناصر الهامة والضروريّة لتحقيق نمو اقتصادي – كتطوير القوانين، وتطبيقها بشكل فعال، والالتزام بالعقود، والرقابة على تطبيق بنودها، ومحاربة الفساد". وكما في أميركا، افترض أونيل، أنه إذا تم اتخاذ هذه الإجراءات "فإن الأموال التي تعود في الحقيقة إلى الأفغان ستظهر من تحت البلاط، وستأتي من البلاد الأخرى التي أخفيت فيها، وستساهم في رفد تطوير القطاع الخاص". وقبل مغادرته المدينة على عجل أسرّ أونيل للصحافة أيضاً أنه

أخبر الأفغانيين أن عليهم بناء "فندق رفيع المستوى في كابل حيث إنه قد يكون إضافة مفيدة للاقتصاد". - على افتراض أن هناك طوابير من السواح الأوروبيين الذين يريدون أن يكونوا أهدافاً سهلة للصواريخ من عيار 122 ملم[23].

وبعد دعوة أونيل للرأسماليّة في البلاد، استفاض حاكم إداري أميركي في جنوب آسيا في حديثه عن المجد الذي ينتظر الديموقراطيّة الأفغانيّة الناشئة. كما رحب روبرت أوكلي الذي كان سفير الولايات المتحدة في الباكستان في أواخر الحرب السوفييتيّة الأفغانيّة، بالسنة الجديدة 2003 مؤكداً أن "هناك بوادر أمل جديد يلوح في الأفق... فالإنجازات التي تم تحقيقها في السنة الأولى تبشّر بمستقبل مشرق في أفغانستان". وقد خلص أوكلي - الذي بحكم كونه موظفاً في الحكومة الأميركيّة، فهو يرى دائماً أنه يجب تبني ديموقراطيّة مماثلة للنظام الأميركي في العالم - إلى أن "كرزاي قد حقق إنجازات أثبتت كفاءة حكومته في تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقها"[24]. وأخيراً سمع صوت الجنرال الأميركي تومي فرانكس المسؤول عن قيادة العمليات في أفغانستان عندما سأل الصحافيين في بداية عام 2003: "هل فكرتم بالأعمال التي تم إنجازها منذ اليوم الذي أسقط فيه حكم طالبان، وكم كانت تلك الإنجازات مثيرة للإعجاب؟ لقد شهدنا بداية عمليّة التحول إلى الديموقراطيّة"[25]. ومع إقامة سوق حرة، ونظام ديموقراطي بيد أميركا، كان لا بد من إنهاء الحرب وهكذا على حين غرة حل السلام بأعجوبة في مايو 2003 على يد وزير الدفاع رامسفيلد، الذي صرّح خلال زيارة له إلى كابل: "نحن الآن في مرحلة انتقلنا فيها بشكل واضح من العمليات العسكريّة إلى فترة من الاستقرار، وتوطيد الأمن، وعمليات إعادة الإعمار"[26].

> إن القسم الأكبر من هذا البلد اليوم يتمتع بالأمن والحريّة. وهذا يتضح بشكل جلي من خلال رؤية الناس يعودون من كل أنحاء العالم بأعداد كبيرة وهم يهتفون بأعلى صوتهم ويقولون إن الأوضاع هنا تدعوهم للعودة ليشاركوا ويلعبوا دوراً فعالاً فيها وأن هذا أمر جيد... فالمرء يشعر بالتقدم، والتطور، والحماس في الشوارع وفي الأكشاك المبعثرة هنا وهناك، وفي الناس الذين يمشون بنشاط وبالسيارات وهي تدور في الشوارع، والأطفال ينطلقون في الشوارع من جديد. إنه دليل على التقدم والنجاح الذي تحقق هنا[27].

وبعيد إعلان رامسفيلد عن السلام على مسمع ومرأى أميركا، أعلن مرؤوسوه عن تشكيل "'فرق محليّة مشتركة'... وهي عبارة عن ثمان إلى عشر قواعد محليّة صغيرة نسبياً تنتشر في كافة أنحاء أفغانستان... ستتألف كل منها من حوالى ستين جندياً أميركياً، بالإضافة إلى جنود من القوات الخاصة مختصين بالشؤون المدنيّة ومسؤولين أميركيين من هيئة التطوير الدولي AID، وموظفين ديبلوماسيين". وعلى الرغم من اعتراف مسؤولين رفيعي المستوى من وزارة الدفاع بانعدام الأمن والاستقرار في بعض مناطق البلد، فإنهم قالوا إن تشكيل هذه الفرق يعدّ مؤشراً "على الانتقال من عنف المعارك إلى عمليات 'توطيد الأمن'"[28] وقد تم وضع هذه الفرق المحليّة المشتركة التي ترتكز أفكار مخططيها ومنفذيها على التجربة الأميركيّة بدلاً من الأفغانيّة، لنشر طريقة الحياة الأميركيّة التقليديّة في أوساط الهندوكوش. وقد كتب كريستيان لوي في موقع *Weekly Standard.com* في هذا السياق: "على الرغم من أن هذه الفرق ستكون مسلّحة بالبنادق، فإن أقوى أسلحتها ستكون الآلات الحاسبة، وأدوات قياس المساحة، وكومبيوترات محمولة ستقوم بدور الوساطة لتسهيل مشاريع تعهدات البناء والمقاولة في القرى المحليّة"[29]. أيعتقدون أن هذا سيتحقق فعلاً بالتمني فقط؟!

من المتوقع أن يكون كلام المسؤولين الأميركيين - السابقين والحاليين - متوافقاً مع ما تصرّح به الإدارة الأميركيّة وأتباعها، غير أن التحليلات التي أدلى بها المعلّقون من القطاع الخاص تظهر الوضع الخطير الذي وصلت إليه العجرفة الإمبرياليّة الأميركيّة، حيث كتب المؤرخ فيكتور ديفيس هانسون الذي تظهر كتاباته عادة ذكاء فريداً، في صحيفة *وال ستريت جورنال*: "لقد شهدت السنة الأولى من الحرب الراهنة نجاحاً منقطع النظير ليس له مثيل في التاريخ العسكري، حيث إنه بدّد كل مخاوفنا المتعلقة بضعف حكومة كرزاي، واستمرار الإرهاب في كابل، كما أن المرحلة العسكريّة في مسرح الحرب الأفغانيّة قاربت على النهاية. وقد أحيلت مهمة إحلال السلام بشكل أكبر إلى قوات الأمن وضباط التطوير الدولي". كما خلص ديفيس بتفاؤل إلى أن القصف الجوّي وقوات الكوماندوس الأميركيّة ستنهيان المرحلة الأفغانيّة من الحرب على الإرهاب لصالح أميركا..."[30]

إلا أن المؤرخ برنارد لويس المفكّر المُتعمّق والذي يمتلك البصيرة النافذة لم يوافقه في رؤيته للوضع في أفغانستان. حيث إنه أكد أنه على واشنطن أن تُسرّع في عمليّة تسليم زمام الحكم والسلطة إلى العراقيين، مشيراً إلى النجاح الذي حققه المسؤولون الأميركيون في هذه العمليّة في أفغانستان، فقد كتب في 29 أغسطس في صحيفة *وال ستريت جورنال* مقالاً في هذا السياق جاء فيه: "لقد تمكنت الحكومة المركزيّة في كابل اليوم، وبحدٍّ أدنى من المساعدة من الولايات المتحدة، من توسيع رقعة سلطتها السياسيّة والماليّة تدريجياً لتشمل باقي المناطق في البلاد، وتمكنت بشكل أكثر فاعليّة من حفظ النظام"[31].

كما أن هناك ثلاثة مقالات وأبحاث فاقت تصريحات هانسون ولويس في عدم دقتها - الأول كتب بقلم مايكل إي. أوهانلون في اليوميّة الممتازة '*باراميترز Parameters*' التي تصدر عن أكاديميّة القوات المسلحة، والثاني كتبه أنتوني ديفيس في مجلة *جين إنتليجينس Jane's Intelligence Review*، والذي أذهل القارئ بقراءته المغلوطة للأحداث التي جرت في أفغانستان. لقد قدّم أوهانلون وديفيس ما يمكن أن يسمى بوجهة نظر فريدة من نوعها حول الحرب الأفغانيّة.

> أوهانلون: يا لهذا القرن الجديد والتغيرات الكبيرة التي أتى بها. فقد كانت عمليّة الحريّة الباقيّة [في أفغانستان] في معظم خطواتها رائعة، لقد أثبتت إبداع ودهاء الجيش الأميركي... وقد كانت بمجملها... غاية في الإتقان والدقة من حيث التخطيط والتنفيذ... وأهم ما في ذلك، هو أن الجهود الأميركيّة ساهمت بشكل أساسي وسريع في تحريض القوات البشتونيّة، ودفعها لتنظم نفسها والقتال بقوة ضد طالبان في الجنوب، الأمر الذي اعتبره كثيرون من المحللين السياسيين عرضاً متهوراً فيه الكثير من المجازفة الخطرة لعمليّة لا يمكن التكهن بنتائجها... وقد تطلب إقناع البشتون بتغيير ولائهم والانقلاب ضد طالبان، مزيجاً متميزاً من الدبلوماسيّة والزخم العسكري والدهاء، إضافة إلى مساعدة في ساحة القتال من فرق وكالة الاستخبارات المركزيّة والعمليات الخاصة[32].

> هوكينز: يمكن لقوات الولايات المتحدة أن تشنّ هجوماً على أفغانستان دون أي خوف من النتائج التي قد تترتب على ذلك. إلا أن التحدي الحقيقي فعلاً كان جغرافيّة هذا البلد المنعزلة، وعدم وجود اتفاقيات مع البلدان المجاورة بخصوص

إنشاء القواعد الضروريّة للقيام بالمهمة. وقد بدا تحقيق النصر والفوز على جماعة طالبان، أمراً سهلاً لأنه كان كذلك فعلاً.

... لقد كانت الحملة في أفغانستان خلافاً [للحملة الأميركيّة في الصرب] عبارة عن عمليات عسكريّة حربيّة حاسمة... وقد تم تعريف الفوز الحاسم على أنه قدرة السير في عاصمة العدو مع توطيد العزم على إسقاط حكومته[33].

ديفيس: ومع ذلك ففي غضون أسبوع واحد فقط من شهر نوفمبر [2001]، تمكّن التحالف الأميركي من كسب الحرب لمصلحته... أما الهزيمة الشاملة التي مني بها نظام طالبان، فقد قطعت الطريق على مجرد احتمال عودتهم إلى السلطة من جديد أو تنظيم مقاومة تقوم على حرب العصابات في المناطق الجنوبيّة التي أتوا منها... مما لا شك فيه أن المخططين العسكريين الأميركيين كانوا على علم تام بالدروس والعبر التي نجمت عن التجربة السوفيتية والمأزق الذي واجهته روسيا في أفغانستان لذا فقد بذلوا ما بوسعهم لتجنب اشتباكات ومعارك طويلة الأمد[34].

يظهر هذا النوع من المقالات والمواضيع عادة فيما يسمى "بصحف المؤسسات" وهي الصحف التي تتم الكتابة فيها بتوجيه من النخبة السياسيّة والعسكريّة الغربيّة والأميركيّة، وهي بدورها تقرأ هذه الصحف وتتأثر بما يأتي فيها من معلومات. وهي التي تشكل أساس المعلومات الهامة التي يعتمد عليها وضع السياسات الأميركيّة، كما أن هذه الصحف هي التي تدافع عن تلك السياسات والنتائج الناجمة عن تطبيقها. إن المعلومات التي تتضمنها هذه الصحف تتكون مما تريد السياسة الأميركيّة أن تحققه في أفغانستان، ومن افتراضاتنا حول ما يجب أن يحدث هناك. لذا فإن هذه الصحف إلى حدّ ما ليس لها علاقة بالحقيقة التي تجري على أرض الواقع. وما تسميه تلك المقالات نصراً وفوزاً هو في الحقيقة هزيمة واضحة وضوح الشمس، وهي نتيجة حتميّة لعجرفة القادة الأميركيين الذين يعتقدون أن اقتلاع الجذور الأفغانيّة، واستبدالها بنمط الحياة الأميركيّة، والاقتصاد الرأسمالي، والنظام الديموقراطي، والالتزام بحقوق الإنسان، والسياسات العامة، والتفاؤل الخيالي البعيد كل البعد عن الواقع، كلها أشياء ليست ممكنة فحسب بل تمثل أيضاً أقصى رغبات وطموحات الأفغانيين - والعراقيين اليوم. إن هذه العجرفة تُكلّف الولايات المتحدة اليوم خسائر تتزايد بشكل تدريجي في الأموال والأرواح،

وسيستمر هذا الأمر في المستقبل لأنه وضع أميركا في موقف ستخرج منه خاسرة في كل الأحوال. فهي إذا رحلت عن أفغانستان فستستعيد طالبان والقاعدة - بدعم من باكستان - السيطرة على القسم الأكبر من البلاد، وبذلك ستشتعل من جديد الحرب الأهليّة التي توقفت في أكتوبر 2001 ضد نفس الخصوم ما عدا مسعود وهم إيران، والهند، وحلف الشمال الذي تدعمه روسيا. وسيقوم الطرفان بالطبع تأكيداً لهذا الصراع بقتل الأفغان الذين ساعدوا الاحتلال الذي قادته الولايات المتحدة. أما إذا بقيت أميركا فستزداد العمليات التي تقوم بها الجماعات الإسلاميّة المسلحة الأمر حدة الذي ستدفع ثمنه أميركا أكثر فأكثر، وفي نهاية الأمر ستنتصر تلك الجماعات في كافة الأحوال، سواء قامت أميركا بتكثيف الوجود العسكري لقواتها أو خففت منه، وستكون نهاية هذا الصراع كالنهاية التي واجهها الروس. كما أن بقاء أميركا لن يؤدي إلا إلى انفجار الأوضاع في باكستان واندلاع حرب أهليّة هناك.

لم يكن كل هذا ليحصل لولا جهل نخبتنا السياسيّة والعسكريّة بتاريخها وتاريخ العالم، وفشلها في تقدير قوة الدين، وازدرائها، وترفّعها عن التحليلات، والأبحاث المتميزة، والخاصة التي قدّمها أميركيون وأجانب (من غير الغربيين). "إن أفغانستان هي المأزق الحرج الذي علقنا فيه، ومن المؤسف أن المسؤولين عن التخطيط والسياسات الذين جازفوا بأرواح جنودنا لم يُكلّفوا أنفسهم عناء إلقاء نظرة على تاريخ التجربة البريطانيّة والسوفييتيّة والتاريخ الأفغاني قبل وضعهم لتلك السياسات"[35]. هذا ما خلص إليه الكولونيل ديفيد إتش هاكوورث بحكمته المعروفة. وكان بإمكان هاكوورث أيضاً، الإشارة إلى النظر في التاريخ الأميركي ليذكّر نفس المخططين والنخبة السياسيّة والعسكريّة الأميركيّة بالطبيعة الخاصة جداً والفريدة للجزء الأكبر من التجربة الأميركيّة. "لقد جعلنا من الديموقراطيّة شعاراً ننادي به في الخارج وتخيلنا أنها الأسلوب العملي في الحكم، بينما هي في الحقيقة النهاية المجيدة لطريق طويلة وصعبة، إن الديموقراطيّة يجب أن تكتسب اكتساباً، ويجب أن تستحقها الشعوب بعد كفاح طويل، ولا يمكن أن يفرضها أحد من الخارج. وفي مفارقة مثيرة للسخريّة، يبدو أن إصرارنا على تطبيق الديموقراطيّة

بشكل عاجل في الدول الممزقة... هو أكبر مساهمة لنا في انعدام الاستقرار في العالم"[36]. هذا ما جاء في كتاب رالف بيترز الثمين *ما وراء الإرهاب: استراتيجيّة في عالم متغير*. وقد وصف السيد بيترز الساخر دعاة الديموقراطيات الآنيّة في الخارج بأنهم "مؤخرة حمار الإمبرياليّة"[37].

جنرالات، وعملاء مكتب التحقيقات الفدراليّة، ومحامون: مهندسو اللاحرب

الجنرالات

يزعم الخبراء أن الولايات المتحدة لم تمتلك أبداً جيشاً يتمتع بهذا المستوى من التعليم، والتدريب، والتجهيز، وهذه النوعيّة من الجنود. فأفراد جيشنا رجالاً ونساء من العريف إلى المقدم – حيث يبدو أن قول الحقيقة يدفع إلى الإكراه على التقاعد – يظهرون كجماعة أنهم أهل لثقة رؤسائهم. وبالفعل، عندما يشاهد المرء التغطية الإعلاميّة للحرب في العراق، والمقاومة العراقيّة اليوم، قد يتساءل إذا كانت أي دولة أخرى في العالم غير الولايات المتحدة قادرة على صنع جيش يضم جنوداً بهذه البراعة العسكريّة، فها هم رجالاً ونساءً ينتقلون حسب الأوامر العليا من كونهم محاربين إلى رجال شرطة ثم مصلحين اجتماعيين. إلا أن الأمور تصبح غامضة بعض الشيء بعد رتبة مقدم، وعندما نصل إلى رتبة عميد، وما فوق نجد كوارث يديرها ضباط من ذوي الرتب العاليّة، ومعظمهم من الرجال، يسلكون طرقاً ملتويّة مهما كانت في سبيل حماية مراكزهم وجماعتهم المطّلعة في المؤسسة التي يطلق عليها الكولونيل المتقاعد ديفيد إتش هاكوورث "جماعة الكذابين"[38]. لقد قلت في كتابي السابق *النظر من خلال عيون أعدائنا* أن كره جيلي الشديد للمجازفة يهدد استمراريّة الجمهوريّة، وأن معظم ضباط الاستخبارات الأميركيّة أسود يقودها المدراء – وهم عادة من الرجال – الذين أفضل ما يمكن أن يوصفوا به هو أنهم حمير[39]. ومن المؤسف أنه يبدو أن الجيش الأميركي بأكمله – باستثناء القوات البحريّة – قد ابتلي بهذا الانقسام المريع بين الرئيس والمرؤوس.

وكما أشرت في الفصل الثاني، فإن قيادة الحرب الأفغانيّة قد اقتربت من

الكمال - بمعنى عدم الكفاءة الكامل. لكن تلك الحرب ليست إلا مثالاً واحداً للقيادة الفاشلة للجيش والجبن من الناحية الأخلاقيّة، ولدى كتابتي لهذا العمل وجدت أن قادة جيش الولايات المتحدة في العراق قد وصلوا إلى مستويات أعلى من الفشل. وكيف ذلك؟ حسناً، لقد أعلنا أننا قد حققنا نصراً مبيناً في أفغانستان والعراق، وقد عاد بعض الجنود إلى الوطن، والجنرالات ينظمون المسيرات الاحتفاليّة، ويوصّون ببعضهم بخصوص أحقيّة الفوز بالميداليات والأوسمة. ما الخطأ إذن في الطريقة التي يرى فيها الجنرالات الأميركيون الحرب وكيفيّة شنّها؟

الجواب هو أن الخطأ لا يكمن في الطريقة التي يتبعها الجنرالات الأميركيون في شنّ الحروب التي ألقي على عاتقهم أن يحاربوا فيها. فهم لا يتبعون إلا أوامر قادتهم المدنيين المنتخبين والذين عيّنهم الشعب. والتي كانت تدور حتى العشرين سنة الماضيّة حول ثلاث تعليمات أساسيّة وهي: قاتل وحقّق الفوز بسرعة. لا تقتل أعداداً كبيرة من جنود الأعداء، ولا تدمّر الكثير من ممتلكاته، ولا تقتل عدداً كبيراً من المدنيين. وفوق كل شيء حاول أن تخسر أقل عدد ممكن من جنود الولايات المتحدة لأن الشعب الأميركي الرقيق الحساس لا يحتمل خسائر كبيرة في الأرواح. إن المشكلة في هذه المعادلة ليست في جيش الولايات المتحدة الذي ينفذها، فهذا واجبه وهذه مسؤوليته الدستوريّة القانونيّة التي ألقيت على عاتقه. بل المشكلة هي في قبول الجنرالات لأوامر قادتهم المدنيين دون أن يقولوا لهم إنها وصفة سيؤدي اتباعها إلى كوارث رهيبة، وأنها تتجاهل التاريخ الطويل الدامي للحروب، وأنها ستترك وراءها دائماً حروباً نصف منتهية أو بكلمات أدق: حروباً نصف مبتدئة لا بد أن تخاض لاحقاً. وقد شهدت السنوات التي تلت عام 1990 مجموعة من الحروب الأميركيّة التي لا طائل منها، حروباً نصف مبتدئة وهي حرب العراق 1991 والصومال، وهاييتي، وصربيا، وكوسوفو، وأفغانستان، والعراق ثانية. إن بقايا هذه الحروب تكسو المشهد العالمي كألغام مبعثرة على وشك أن تنفجر تحت أي ضغط مفاجئ. وقد أشبعت كل هذه الحروب رغبات أسياد الجيش السياسيين - وهي نفسها تمثل نقداً لاذعاً للسياسيين الأميركيين وقدراتهم العقليّة - كما أنها كانت في معظمها عرضاً مبهراً لإمكانيات الجنود الأميركيين المحترفين، وأسلحتهم

ذات التقنيّة المتطورة. وفي الوقت ذاته، كانت أمثلة ساطعة عن التكالب للوصول إلى أعلى المراكز، والجبن الذي يبدو متأصلاً في أوساط ضباطنا الكبار.

على الرغم من أن الضباط الكبار قد استقالوا منذ عام 1990 لأسباب شخصيّة أو نتيجة لسوء السلوك - في معظم الحالات - ولحصولهم على وظائف مربحة في معامل السلاح، فإنني لا أذكر أن أي جنرال استقال بسبب فشل متعمد، أو لخسارته لعدد كبير من الجنود، أو لمحاولته شنّ حرب دون أي خسائر في الأرواح. واليوم تفخر الأكاديميّة العسكريّة الأميركيّة بجودة التعليم المتعلق بالتاريخ العسكري الذي تقدمه لطلابها، كما أن كل فرع من فروعها يتضمن مقرراً دراسياً إجبارياً يفرض على كافة الضباط، وهو مادة قراءة إجباريّة لقائمة طويلة من الكتب تغطي كافة فترات التاريخ العسكري، كما تشمل التاريخ الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي وقد أضيفت إليها أعمال جديدة لمؤرخين عسكريين بارزين. وعلاوة على ذلك فإننا نعيش في العصر الذهبي للتاريخ العسكري وذلك بوجود باحثين وأساتذة أمثال جون كيغان، وفيكتور إتش ديفيس، وستيفن دبليو سيرز، ودونالد كيغن، وويليامسون موري، وغوردون ري، وجيمس إم مكفيرسون، ونيال فيرغسون، وغيرهم من الباحثين الذين ألّفوا الكثير من الكتب حول التاريخ العسكري والمتاحة للجنود والباحثين والموظفين المدنيين والسياسيين وجمهور القراء. ولو أن جنرالات الولايات المتحدة قرأوا مقررات طلابهم، ومجموعة الكتب التي تدخل ضمن منهاج الأكاديميّة العسكريّة واطلعوا على الكتب الموجودة على رفوف مكاتبهم، ما كانوا ليجدوا دراسات جدّيّة تثبت أن الحروب السريعة التي لا تكاد تسفك فيها الدماء يمكن أن يعتمد عليها في تحقيق انتصارات حاسمة. وهناك فعلاً بعض الحروب التي تتم بهذه الطريقة، لكن الحمقى فقط هم الذين يعتمدون على تحقيق نصر مُبين بهذه الطريقة. إن قادتنا العسكريين يعرفون هذا، لكن الإعلام لا يتحدث عن أي جنرال أميركي اضطر إلى الاستقالة لأنه حذر أميركا علناً أنها كانت متورطة لعشر سنوات في عمليات عسكريّة لا داعي لها، ولم تحقق أي نتيجة. عشر سنوات خلّفت وراءها نيراناً ملتهبة من الحروب التي لا مفر منها والتي ستدفع ثمنها أميركا مزيداً من الأموال والأرواح. وإذا لم يكن هذا دليلاً على الجبن المنتشر بشكل واسع، فإنني لا أستطيع أن أتخيل ماذا يمكنه أن يكون غير ذلك.

لنأخذ على سبيل المثال مظهراً واحداً من الحروب التي لا تزال مشتعلة في أفغانستان والعراق وهو المتعلق بمسألة السرعة. فقد كانت السرعة في الحقيقة تتمتع دوماً بالأولويّة في الطريقة التي تتبعها أميركا في الحرب. إن مفهوم السرعة في مبادئ القتال الحربي الأميركي كان يتضمن منذ زمن طويل عمليات المناورة لضرب قوات العدو، في نقاط تُمكن القوات الأميركيّة من كسب مواقع القوة والتفوق على العدو، أو الالتفاف حول جيش العدو وتفريق صفوفه، والهجوم عليه من الخلف، أو دفعه للتحرك من المواقع التي يتمركز فيها لينكشف مما يؤدي بالنتيجة إلى الانتصار عليه، أو قطع التموين عنه وإكراهه على الاستسلام. لقد استخدم ناثانيل غرين التكتيك السريع الذي يعتمد على توجيه ضربة واحدة عنيفة للعدو ثم مغادرة الموقع بسرعة وذلك في عهد ثورتنا - كما اختار وينفيلد سكوت بحذر نقاط هجومه في الحرب المكسيكيّة - كما لجأ كل من جاكسون وشيرمان ولي وبدفورد فوريست وغرانت إلى السرعة والمناورات في حربنا الأهليّة، وكذلك استخدم جورج باتون - الذي يعدّ أستاذ أميركا الأول في ما يخص السرعة في العمليات الحربيّة - مبدأي السرعة والمناورة إلى أقصى حدّ في اعتداءاته المُدمّرة في شمال أفريقيا، وصقليّة، وغربي أوروبا. إلا أن الهدف من السرعة والمناورة في كل هذه الحالات لم يكن إنهاء الحرب بسرعة فحسب، بل كانا معاً وسيلتين لإنهاك قوى العدو، وإيقاع الفوضى بين صفوفه، والقضاء على جيشه، سواء كان ذلك الجيش بريطانياً أو مكسيكياً أو يانكياً أميركياً أو ألمانياً أو من أي مكان في الفدراليّة.

وقد كان كل من هؤلاء الجنود الأميركيين يعرف - من خلال التدريب أو الحدس أو كلاهما - أن الحرب هي الملاذ الأخير وأنها بمجرد أن ابتدأت فمن غير اللائق أخلاقياً وليس من الضروري من الناحية الماديّة ألا يتم القضاء على العدو وإنهاء الحرب بأسرع وقت ممكن. كما يجب إلحاق الضرر بالعدو إلى الحدّ اللازم لضمان أن العدو لن يعود ليشكّل خطراً عسكرياً - وهذا يعرف من خلال قياس الدمار الذي لحق به بالرجوع إلى تنظيم القوات العسكريّة الخاصة بالمعارك - وأنه لم تعد لديه النيّة، أو الموارد، أو البنى التحتيّة للمقاومة. وكان بإمكان غرانت

وشيرمان، مثلاً، أن يدركا عدم جدوى احتلال المدن الأفغانيّة دون القضاء على طالبان والقاعدة، تماماً كما عرفا أنهما لن يحققا النصر إذا ما احتلت قوات الاتحاد ريتشموند، وتشارلستون، وأتلانتا دون القضاء على جيوش الثوار الذين أتوا من فيرجينيا الشماليّة وتينيسي.

على الرغم من فظاظة ومنافاة الكلمات التاليّة وتعارضها مع آذان نخبتنا المهذبة والمؤدبة، فإن هذه الكلمات التي قالها الأدميرال ويليام هالسي، USN، قد تكون الطريقة المثلى للفوز في حرب اشتعلت نيرانها منذ قدم التاريخ، وستظل مستعرة حتى يوم البشر الأخير على هذه الأرض. فقد تحدث هالسي الذي كان قيادياً بارزاً في الحرب الأميركيّة ضد إمبراطوريّة اليابان بين عامي 1941 - 1945، عن الطريق التي ستؤدي إلى النصر قائلاً إنه يتلخص بكلمات بسيطة وهي التصميم على "**قتل اليابانيين، وقتل اليابانيين وقتل المزيد من اليابانيين والاستمرار في قتلهم حتى لا يتبقى منهم أحد يتكلم اليابانيّة إلا في جهنم**"[40]. وكان قيصر، والإسكندر، وويلينغتون، ولي وغرانت، ورومل، وأيزنهاور، وباتون، ومعظم قادة الغرب العظماء ليقولوا نفس ما قاله هالسي لكن بطريقة أكثر لباقة وتهذيباً إلا أن ملاحظاتهم كانت ستحمل في طياتها نفس المعنى.

كانت السرعة بهدف تحقيق نصر حاسم لا غبار عليه هي الطريقة التي طالما اتبعتها أميركا، وليست السرعة التي تهدف إلى نصر سريع لا يتم فيه القضاء على العدو ويتضمن أقل عدد من الخسائر من الطرفين. إن هذا لدرس أساسي في التاريخ العسكري منذ عهد الإسكندر فضلاً عن أنه يدرّس في أكاديمياتنا العسكريّة، ومعاهد الحرب، وفي الدورات التدريبيّة التي تعطى لأركان الحرب التي تحلل الطريقة المذهلة في السرعة والمناورة التي اتبعتها الفرق العسكريّة بقيادة جاكسون في وادي شيناندوا، وفي تشانسلرزفيل. وهو درس مطبوع في أذهان الضباط الأميركيين لكثرة ما تردد على مسامعهم، لدرجة أنه أصبح الإجابة الوحيدة التي تخطر على بالهم عندما يسألون عن تعريف النصر. ولهذا السبب، فمن الغرابة بمكان، أن لا يتحلى أي ضابط أميركي كبير بالشجاعة الأخلاقيّة ليستقيل من الخدمة ويتحدث علناً عن الأخطار التي تتفاقم من جراء نمط الحروب التي تخوضها

أميركا منذ الحرب العراقيّة عام 1991. كما أن حربينا الحاليتين وبمعنى أصح الحربين النصف منتهيتين في العراق وأفغانستان، هما مثالان معبران عما يحدث عندما يتقبل الجنرالات بصمت الشروط والمقتضيات 'السياسيّة' للقتال الحربي التي يمليها عليهم قادتهم المدنيين.

أفغانستان

لم تقم القوات الأميركيّة بتكليف نفسها عناء إغلاق أي من الحدود الأفغانيّة مع الدول المجاورة - إيران، وطاجكستان، وتركمانستان، وباكستان، وأوزبكستان - التي تعتبر ملاجئ آمنة بالنسبة لأفغانستان، وذلك قبل بدء التحالف الذي تتزعمه الولايات المتحدة بشنّ هجوم على أفغانستان من شمالها إلى جنوبها. ونتيجة لذلك لم يكن لمطرقة التحالف سندان لتضرب عليه. فعندما تقدمنا باتجاه الجنوب لجأ جنود العدو إما إلى العودة إلى قراهم أو عبروا أحد الحدود المفتوحة إلى برّ الأمان. ولم تقم القوات الأميركيّة إلا في منتصف عام 2003 أي بعد مرور عشرين شهراً على بداية الغزو ببذل جهود متواضعة لإغلاق قسم من حدود أفغانستان مع باكستان. ومع ذلك لم تهزم القاعدة وطالبان بشكل حاسم، ولم تستسلما أيضاً. وما حدث هو أنهما قامتا بعمليّة انتشار مؤقتة، تليها إعادة تجميع وتنظيم من جديد.

ما هو حجم الخطر الناجم عن هذا الفشل؟ حسناً، بحسب الأنباء التي وردتنا فإن طالبان كانت تمتلك خمسين ألف بندقيّة استعداداً للمعارك وذلك في الأول من أكتوبر عام 2001. وإذا فرضنا جدلاً وبالغنا في القول إلى أقصى حدّ فإنه يمكننا أن نؤكد أن القوات التي تقودها الولايات المتحدة قتلت ما يقارب 20% من ذلك العدد الإجمالي. وبناء على هذه النسبة فإن أربعين ألف من المقاتلين المسلحين الأشداء من طالبان، تركوا ليحاربوا في يوم آخر. ونظراً لاستحواذ فكرة الحرب السريعة من البداية إلى النهاية على عقولنا، وبسبب عدم رغبتنا في القتل أو المجازفة بأن يقتل جنودنا، لم نقم بإغلاق الحدود - وهي مهمة معروفة بصعوبتها وبضرورة إراقة الدماء في سبيل تحقيقها - وبذلك تمكن معظم مقاتلي طالبان من الفرار. ومما زاد الأمر سوءاً قيامنا بنشر عدد كبير من القوات في كابل قد يكون قادراً على

السيطرة على المدينة فقط لا دولة بحجم ولاية تكساس. كما أننا لم نستطع تقدير عدد مقاتلي القاعدة في مرحلة ما بعد الحرب، لأن أجهزة الاستخبارات الأميركيّة لم تحتفظ بالمعلومات الخاصة بتفاصيل استعدادات المجموعة للحرب - وهذا فشل آخر سببه الخلط اللفظي بين "مجموعة إرهابيّة" و"منظمة مسلحة" - وهكذا فإننا لا نمتلك أي شيء لنقيس به تقدمنا وتفوقنا عليهم. وقد زعمت دراسة بريطانيّة أنه كان لدى القاعدة في بداية الحرب قرابة عشرة آلاف مقاتل في أفغانستان. وهذا يعني أن أفغانستان لا تزال تأوي ثمانية آلاف مقاتل إذا ما قمنا بتطبيق تلك النسبة المئويّة المبالغ فيها التي استخدمت في ما يخص مقاتلي طالبان[42]. لكن من المؤكد أنه لا توجد هناك أي طريقة تمكننا من معرفة عدد المتطوعين الذين انضموا إلى القاعدة وطالبان منذ العام 2001. والغريب أن تصريحات قادة الولايات المتحدة التي تتحدث عن النجاحات المنقطعة النظير التي يتم تحقيقها ضد الجماعات المسلحة، والتي تفيد بقتل عدد كبير من مقاتلي طالبان، وأسر زعماء القاعدة - تظهر أنه تم إغفال حقيقة أن غزو واحتلال أفغانستان والعراق قد أدى إلى تدفق أعداد كبيرة من المتطوعين إلى البلدين من المحاربين المتمرسين والمجندين الأغرار، للانضمام إلى الجماعات المقاتلة هناك. وقد قام الوزير رامسفيلد بزيارة إلى كابل في مايو 2003 ليعلن انتصار الولايات المتحدة متجاهلاً حقيقة الأوضاع الراهنة، حيث إن طالبان والقاعدة بألف خير، وسلطة كرزاي تضعف شيئاً فشيئاً، ونار حرب العصابات مستعرة. يؤسفني أن أقول إن السيد رامسفيلد، وسأحاول أن أكون رفيقاً في حكمي عليه، يجهل حقيقة الأمر، فالحرب الأفغانيّة الأميركيّة لا تزال في بداياتها.

العراق

لقد تحركت القوات الأميركيّة من الكويت إلى بغداد في أقل من شهر واحد، وبسرعة صاروخيّة، وتغطية إعلاميّة شاملة، وأقل قتل ممكن. وبعد ذلك بقليل وفي التاسع من أبريل 2003 صرّح الرئيس أن مهمة الولايات المتحدة لتحرير العراق قد تمت بنجاح. لكن كما هي الحال في أفغانستان فللقصة تتمة، وستظهر الأحداث من جديد أن جنرالات الولايات المتحدة، مصممون على الانصياع لمطالب قادتهم السياسيين بصمت لخوض حرب سريعة لا إراقة للدماء فيها.

وقد كان هناك إجماع إعلامي من المحللين والباحثين على أن النظام العراقي كان لديه نصف مليون مقاتل مسلح في بداية الحرب[43]. وكما هي الحال في ما يخص أفغانستان، لنبالغ ونفترض أن قوات التحالف الذي تتزعمه الولايات المتحدة قتلت عشرين بالمئة من العدد الإجمالي للمقاتلين. والنتيجة الممكنة لهذا الافتراض هو أنه لا يزال هناك أربعة مئة ألف مقاتل عراقي ممن تلقوا تدريباً كاملاً أو جزئياً عادوا إلى بيوتهم مع أسلحتهم لكن بلا عمل، وهم الآن ينتظرون إلى ماذا ستؤول إليه الأحداث، وربما يستعدون للقتال ثانية لنصرة قضية دينيّة أو عرقيّة. وها هي العراق تقدم مثالاً آخر لما يبدو كأنه تحدٍّ لا يمكن التغلب عليه يقف في وجه القادة العسكريين الأميركيين، وهو مسألة الحدود. فهذه المرة أيضاً فشلوا في إغلاق الحدود العراقيّة مع إيران، وسوريا، والأردن، وتركيا، والكويت، والسعودية. إلا أن المشكلة هنا لم تكن في منع العبور من العراق إلى الخارج بل على عكس ذلك، كانت في إيقاف تدفق المجاهدين القادمين من كافة أنحاء العالم الإسلامي، والمصممين على قتل جنود، وضباط التحالف، وأولئك العراقيين المتعاونين معهم. وعلى الرغم من الادعاء الزائف بالاستغراب والمفاجأة الذي أظهره قادة الولايات المتحدة السياسيين، والعسكريين، والجماعة التافهة من الخبراء المختصين بشؤون العراق التي يتزعمها مدير سابق للاستخبارات المركزيّة وبعض الصحافيين، فإن تدفق المقاتلين الإسلاميين إلى داخل العراق كان أمراً متوقعاً. فمن المعروف أن العراقيين من السنة والشيعة كانوا متدينين إلى أقصى الحدود – حيث إن الدين كان ملاذهم من بطش صدام – كما أننا كنا على علم بالفتاوى التي صدرت ودعت إلى جهاد دفاعي ضد المعتدين على العراق بزعامة الولايات المتحدة وقد فاقت تلك الدعوات في حدتها وقوتها تلك التي استقبلت الغزو السوفييتي لأفغانستان عام 1979. وبالمختصر المفيد، إن المغفل فقط هو الذي يكون مستعداً لأن يلوذ بالصمت ليحافظ على مستقبله المهني، وهو الذي يمكنه أن يتجاهل حقيقة أن احتلال قوات التحالف برئاسة الولايات المتحدة للعراق من شأنه التسبب بوضع يكون بمثابة "مغناطيس للمجاهدين" أقوى وأعنف من الوضع الذي تسببت به موسكو عندما شنّت حربها على أفغانستان.

وبعد المرور بهذه التجربة الداميّة والمخجلة التي يشاهد العالم وقائعها اليوم على السي أن أن، والجزيرة، والبي بي سي، قد يتبادر إلى ذهن أي شخص أن الوقت قد حان ليقوم جنرال أميركي واحد على الأقل ويتنحى عن الخدمة، ويفصح عما في صدره أمام العالم أجمع، ويقول إن طريقة الحرب الأميركيّة بعد العام 1991 هي خدعة رخيصة تسببت بزعزعة الأمن والاستقرار في العالم، عدا عن أنها تكلف الأميركيين حياتهم أكثر من قيامها بإنقاذها. إلا أنني حتى لحظة كتابتي لهذا الفصل لم يفعل أي جنرال منهم ذلك، بل على العكس فقد تقبّلوا قرار قادتهم المدنيين بنشر جيش منغولي في العراق، وتأييد حملتهم التي تهدف إلى الضغط على الهند للمساهمة في إرسال وحدات عسكريّة لمساعدتها على احتلال العراق. إن هذا التفكير لا يمكن أن يُقْبَل أبداً من أي إنسان عاقل يمتلك معلومات بسيطة جداً عن الإسلام وتاريخ العالم العسكري، كما أنه غير معقول حتى من وجهة نظر أي إنسان غربي. فلماذا نطلب مساعدة قوات مغوليّة في احتلال العراق؟ ففي التاريخ الإسلامي، يعتبر القائد المغولي هولاكو - حفيد جنكيز خان - من أكثر الشخصيات المكروهة على الإطلاق حيث إنه قام في العام 1258 بالهجوم على بغداد وسلبها، ونهبها، وقتل ثمانمئة ألف مسلم، وقضى على منزلتها ووضعها كأكبر مركز حضاري في العالم العربي. وقد وصف بن لادن الولايات المتحدة في مناسبات عدة على أنها هولاكو العصر، وهو تلميح مألوف بالنسبة لكل مستمعيه المسلمين[44]. والسؤال التالي هو لماذا خطر في بالنا أن إرسال جنود هنود مشركين إلى العراق البلد الإسلامي سيحسّن من الأوضاع الأمنيّة هناك، علماً أن الشرك في الدين الإسلامي يعتبر إهانة موجهة إلى الله أكثر من المسيحيّة أو اليهوديّة؟ ألا يوجد أي أحد من الموظفين في الولايات المتحدة على علم بسجل الجيش الهندي الطويل لعشرات السنين من الوحشيّة التي يمارسها بحق المسلمين في كشمير، أو لم يسمع أحد منهم بقوات الأمن الهنديّة التي تجاهلت عن عمد الأحداث التي أودت بحياة قرابة ألفي مسلم قتلوا على يد أصوليين هندوس في إقليم غوجارات؟ هل نقوم بطلب المساعدة من الهنود لأنهم ذوي خبرة واسعة في قتل المسلمين بدم بارد؟ إن هذا السؤال ليس جدياً بالطبع، لكن هكذا سيفسر المسلمون الوجود الهندي -

وقادتنا يعرفون تماماً أن هذا سيحدث. إن بن لادن لم يكن ليتوقع حتى في أقصى أحلامه وأمنياته وصلواته أن يقوم عدوه بإنتاج وضع كهذا. لا بد وأنه متحمس جداً لحصوله على فرصة ذهبيّة كهذه لإثبات ادعاءاته بأن قوى المسيحيّة والهندوسيّة قد اجتمعت في العراق لقمع الإسلام والقضاء عليه وقتل المسلمين "وإقامة دولة إسرائيل العظمى التي ستشمل فلسطين بالكامل، وأجزاء من العراق، ومصر، ولبنان، وسوريا، والأردن، ومنطقة كبيرة من بلاد الحرمين الشريفين"[45]. إن الحرب في أفغانستان كما هي في العراق لا تزال في بداياتها.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل نلوم جنرالات الولايات المتحدة لأنهم نفذوا أوامر قادتهم السياسيين؟ والإجابة بالطبع هي كلا فهم مجبرون بموجب القانون على الانصياع لتلك الأوامر، إلا أنهم يمكن أن يعاقبوا بل يجب أن يعاقبوا لأنهم تمسكوا بمناصبهم، وأيدوا تلك السياسات، ونفّذوا الأوامر التي يعرفون أنها نظراً لآلاف السنين من التاريخ العسكري، ستتسبب بتعريض بلادهم لخطر أكبر ولن تحميها من الأخطار التي تتهددها. وإن قول "لقد كنت أنفذ الأوامر فحسب" ليس عذراً جيداً أو دفاعاً مشرفاً. كما أن التلميح الدائم إلى أن الأشخاص الذين خدموا في الجيش هم وحدهم الذين يمتلكون الحق في انتقاد السياسات والعمليات العسكريّة، والذي يبدو أنه في هذه الأيام الإجابة الوحيدة التي يكررها العديد في وزارة الدفاع ردّاً على أي انتقاد يوجه إليهم، هذا التلميح لم يعدّ يرضي أحداً، ولن يسكت أحد عنه بعد اليوم. وحتى أولئك الذين لا يكتفون بالتلميح بل يدلون بتلك الآراء بشكل مباشر كالمقدم المتقاعد رالف بيترز الذي أظهر استخفافاً واضحاً بمن يوجه الانتقادات إلى الجيش الذين "لم يربطوا في حياتهم شريط حذاء عسكري" ويتصرفون كما لو أنهم "أسود المعارك"[46]. من الواضح أن كل هذه التلميحات ترمي إلى هدف يملك شقين أولهما الإساءة بشكل غير مباشر إلى السائل وذلك بالتشكيك في شجاعته أو وطنيته، وثانيهما بالافتراض بشكل صريح أنه إذا لم يكن السائل قد خدم في الجيش فهذا حتماً يعني أنه لا يتمتع بالخبرة الكافيّة التي تخوله أن يطرح أسئلة بهذا الخصوص. إنه فعلاً أمر مريع أن ترى كيف ينجح هذا التكتيك في جعل السائل يتخذ موقفاً دفاعياً. إن أولئك العسكريين الذين يتبنون هذا الأسلوب يظهرون جهلاً

رهيباً في التاريخ الأميركي، وهذا بالطبع ينطبق أيضاً على نواحٍ أخرى من حربنا ضد بن لادن. أما بالنسبة للأميركيين الذين خدموا في الجيش فهم لا يشكلون إلا فئة ضئيلة نسبياً من إجمالي الأميركيين، وذلك لأن الجيش الأميركي الدائم بحدّ ذاته كان جيشاً صغيراً حتى بعد الحرب العالميّة الثانية، ولأن آباءنا المؤسسين نقلوا إلينا اعتقادهم بأن الجيوش الدائمة تشكل عبئاً كبيراً على ميزانيّة الدولة لا مبرّر له، كما أنها خطر مميت يتهدد الحكومة الجمهوريّة. وهذا ما يقوله رالف بيترز لمواطنيه: "لقد كان التقليد الأميركي دائماً يتعلق بازدراء الجيش وعدم منحه الثقة. حيث أن آباءنا المؤسسين كانوا قد ناقشوا مراراً وتكراراً الحكمة من إبقاء جيش دائم، حتى وإن كان لا يضم إلا عدة كتائب... وكانت الفكرة العامة عن الجنود أنهم مجموعة من الأغبياء الذين لا يفعلون أي شيء مفيد لأمتهم"[47]. وكان التجنيد الإلزامي الذي تلى الحرب هو الذي جعل مسألة "الخبرة العسكريّة" أمراً مألوفاً بالنسبة للأميركيين، وبعض ساسة الولايات المتحدة الحاليين.

وبما أن التجنيد الإلزامي ألغي عام 1973، فنحن اليوم نقترب من نهاية آخر جيل من الأميركيين وبخاصة السياسيين منهم ممن خدموا في الجيش. ومع تناقص عدد أولئك الرجال والنساء، فسيصبح لجوء أولئك المحاربين القدماء الذين لا يزالون في معترك الحياة السياسيّة لاستخدام تلك المراوغة السطحيّة التي أشرت إليها آنفاً أسهل من أي وقت مضى. لا شك أن المعرفة الكافية لمساءلة القادة العسكريين والسياسيين المتمرسين عسكرياً تتطلب فعلاً بعض القراءة والدراسة والبحث، إلا أنها ليست معرفة تفوق قدرات المواطن العادي في الحصول على الكتب، واستيعاب المعلومات التي بين دفتيها، وفهم البرامج التي تعرضها المحطات التلفزيونيّة التاريخيّة، والمقررات الجامعيّة، والجولات في متنزهاتنا الوطنيّة العسكريّة الرائعة. كما يجدر بالذكر أنه في معظم فترات تاريخنا كانت استمراريّة أميركا تتوقف على قدرة المواطن الإلزاميّة على تعلم الشؤون العسكريّة بسرعة وإتقانها للتغلب على الأعداء. وأكبر مثال على ذلك القائد أبراهام لينكولن الذي عرف دوماً بأنه لا يميل إلى اللجوء إلى الحلول العسكريّة، يقول للجبان المعروف من وست بوينت جورج بي ماكليلان أن الطريق إلى النصر تكمن في القضاء على جيش فرجينيا الشماليّة، وليس في الاستيلاء على ريتشموند.

إن الأسئلة التي يجب أن تطرح على جنرالات الولايات المتحدة لا تتعلق بمهاراتهم العسكريّة أو معرفتهم، بل بأمانتهم وشجاعتهم الأخلاقيّة. فالضباط الأميركيون البارزون من أصحاب المناصب الهامة اليوم يتمتعون بأفضل تدريب وتعليم يمكن أن يحظى به أي ضابط في العالم، فضلاً عن معرفتهم واطلاعهم على التاريخ العسكري. ولهذا فهم يعرفون أيضاً أن الحروب التي خاضتها أميركا منذ عام 1990 لم تحسم لمصلحتها حيث كانت في أحسن الأحوال تقدم حلاً مؤقتاً للمشاكل التي ستظهر من جديد مكلفة أميركا مزيداً من الأرواح والأموال. وقد يحرّض بن لادن – نظراً إلى حجم منظمته، واتساع الرقعة الجغرافيّة لانتشارها، وخطورتها، وحلفائها – عما قريب جنرالاً أميركياً واحداً على الأقل ليستقيل من الخدمة، وينبئ المواطنين بأن حربنا ضد الإسلام لم تكن حتى الآن إلا لعبة خطّط لها أولئك الذين يظنون أن أميركا ستسحق قدرات الإسلاميين العسكريّة باعتقال زعماء القاعدة والتمسك بأمل أن تكون اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر حدثاً لن يتكرر، وإذا حدثت هذه الاستقالة، فإنني أراهن أن الشخص المستقيل سيكون امرأة ذات منصب مهم في البحريّة الأميركيّة، وسيكون هذا الحدث الخطوة الرئيسيّة الأولى نحو تحقيق النصر.

عملاء مكتب التحقيقات الفدراليّة ومحامون

لقد بدأت أميركا منذ العام 1945، تنظر إلى الشؤون المحليّة والخارجيّة من منظار التعلق الحرفي بالنصوص القانونيّة. وبما أن المجتمع الأميركي قد أصبح أكثر ميلاً لحل النزاعات بالمقاضاة، فقد حاولنا في ربع القرن الأخير أن نفرض هذا الشكل القاتل من المواقف المتصلبة بشكل تدريجي على الكوكب بأسره – يبدو أننا لم نستطع أن نتحمل هذا الوضع المقيت لوحدنا. وهذا هو فعلاً ما يحدث اليوم حيث إن تطبيقنا المستمر لسياسة خارجيّة تهدف إلى فرض مقاييس الولايات المتحدة القضائيّة في الخارج – فمكتب التحقيقات الفدراليّة مثلاً لديه أكثر من أربعين مكتباً ومعهداً تدريبياً في الخارج – قد أصبح نسخة أكثر استبداداً وقمعاً للسكان المحليين لما أطلق عيه كيبلينغ أنه حمل "أعباء الرجل الأبيض". وخلاصة الأمر هي أن أميركا قد شكّلت في القرن الواحد والعشرين أسطولاً إمبراطورياً مبنياً

على القرارات القضائيّة التي تظهر "توسّعاً غير مسبوق للأحكام الفدراليّة التي تصدر بحق الجرائم التي يفترض أنها ترتكب على أراض أجنبيّة". وهذا الأسطول مُجهّز بطاقم كامل من القضاة، والمدعين العامين، وضباط من مكتب التحقيقات الفدراليّة الذين يطالبون بالحصول على معلومات قانونيّة ومصدّقة قبل اتخاذ أي إجراء. وعندما يقومون بعملهم في الخارج يبدون وكأنهم مدراء مدارس بيض، يستبدون ولا يظهرون أدنى درجات الاحترام للقوانين المحليّة، ويصممون على تعليم العالم المتخلف كيف يعيش وفقاً للقانون الأميركي.

وعوضاً عن "تلوين الخريطة باللون الأحمر" كما فعلت النخبة الإمبراطوريّة في بريطانيا، قامت النخبة الأميركيّة باستخدام القانون الأميركي - كما جاء في قول وودرو ويلسون - "لتعليم العالم كيف تسنّ القوانين الجيدة" وقد تحدثت أستاذة معروفة في جامعة هارفرد لهؤلاء الذين يتلهفون لشنّ حرب تقوم على القانون والقضاء، مؤكدة أن "السلاح الأمضى لمحاربة الإرهابيين هو التزامنا بحكم القانون. فعلينا استخدام المحاكم لتوضيح أن الإرهاب هو نشاط إجرامي، وأنه ليس جهاداً، ولا بطولة، ولا حرباً مقدسة. وعلينا بعد ذلك ألا نجعل من المجرمين شهداء"[49]. إن الأستاذة لم تقل من الذين ستقنعهم المحاكم أن الجهاد هو جريمة - ربما قصدت الأميركيين، لكن المسلمين لن يقتنعوا أبداً بهذا الكلام - كما أنها لم تذكر كيف ستتمكن المحاكم من إيقاف الاعتداءات. إلا أن أحد زملائها قال في هذا الخصوص: إذا كان الإرهابيون المفترضون بصدد التخطيط لاعتداءات مستقبليّة، فإنه سيتم الكشف عنها ومنعها بينما يقوم رجال الشرطة بجمع الأدلة الكافيّة لإدانتها[50].

كما أن المنظار القضائي القانوني الذي تستخدمه أميركا في التعامل مع القضايا الدوليّة يسبب الحيرة في ما يتعلق بما نحن بصدد فعله، وما يجب أن نفعله ضد بن لادن: فهل نحن نخوض حرباً ضده أم أننا لا نزال نتقصى أثره؟

وكما قلت سابقاً فإن لدينا تاريخاً يعود إلى قرنين ونيف من اللجوء إلى حلول للمشاكل اعتماداً على قوى الشرطة. وإن هذا الاتجاه، في حالة بن لادن، يدعمه إصرار قادتنا على أن بن لادن يسعى إلى القضاء على حرياتنا، وحقوقنا،

وديموقراطيتنا. وإذا كان ذلك بالفعل هدف بن لادن، فمن الطبيعي أن نلجأ إلى مكتب التحقيقات الفدراليّة ووزارة العدل طلباً للحماية. وهذا دليل آخر على عجز نخبتنا السياسيّة والعسكريّة، أو رفضهم لفهم أهداف بن لادن والردّ عليها بطرق عمليّة وناجعة، بدلاً من الطرق التي يجدونها مريحة وسهلة. "فخمس سنوات من التحقيقات والمحاكمات والاستئنافات، كما حدث بعد الاعتداء الأول على مركز التجارة العالميّة عام 1993، لم تردع أحداً"، هذا ما كتبه ويليام سافاير في الثاني عشر من سبتمبر عام 2001[51]، ومع ذلك فإن تقنيّة المطاردة والاعتقال لا تزال هي الطريقة المتبعة حتى اليوم، لكن الشرطي الذي ينفذها الآن هو أقوى جيش على الإطلاق.

إن الدور الخارجي لوزارة العدل ومكتب التحقيقات الفدراليّة في الحرب على بن لادن - كشريكين يعملان جنباً إلى جنب مع الجيش والاستخبارات الأميركيّة - أبطأ من تقدم الجهود المبذولة للحدّ من نشاطات القاعدة بعدة طرق. أولها يخص مشاركة وسيطرة مكتب التحقيقات الفدراليّة الذي يجعل مظهر الحملة على بن لادن، يبدو كما لو أنها تلعب دور قوات شرطة حفظ الأمن إلى حدٍّ كبير. وهذا أمر طبيعي تماماً ويناسب العقليّة الأميركيّة وطريقة شرطة تكساس الجوّالة التي تطبق مبدأ "مطاردة العدو، والإمساك به، ومن ثم محاولة إدانته، وبعدها شنقه". ولهذا فإن الدور الهام الذي يلعبه مكتب التحقيقات الفدراليّة يؤكد الاتجاه الذي يعتمد على تطبيق السياسات بحسب حرفيّة القوانين الذي يتبناه قادة الولايات المتحدة السياسيون، وموظفوها المدنيون ومواطنوها، كم أنه يحجب حقيقة أنه لا يمكن القضاء على الإسلاميين بمجرد اعتقال مجاهد واحد في كل مرة. إن من الصعب على الأميركيين أن يفكروا بأن زجّ العدو في السجن من شأنه حماية الأمن القومي، لكن هذا ما يحدث عندما نساوي بين السجن وتحقيق النصر. إن وضع الأشرار في السجن هو أمر جيد دائماً، هذه حقيقة لا تحتمل الجدل، إلا أن الخطر يكمن في الاعتقاد بأن الاحتجاز في السجن يشكّل ضربات قاتلة بالنسبة للقاعدة كما هو الحال بالنسبة للمجموعات الإجراميّة والعصابات. وعلاوة على ذلك فإن تركيز المخططين السياسيين الأميركيين على تبني اتجاه قوات شرطة حفظ الأمن في

وضعهم للسياسات قد أدى إلى منع قتل أعداء أميركا، وخصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وقد كتب الأستاذ آر. كي. بيتس R.K. Betts في بداية العام 2002 بحثاً رائعاً في مجلة *العلوم السياسيّة* *The Political Science Quarterly* تحدّث فيه عن الخطر الذي يتهدد الأمن القومي والمتمثل بالقيود التي تفرضها السياسة الخارجيّة عندما تكون قائمة على التقيد الحرفي بالقوانين بشكل مبالغ فيه، حيث قال محذّراً: "إن مسيرة التقيد المفرط بالقانون في العقود الأخيرة حرّمت أساليب وخطط حربيّة وطرقاً عنيفة كانت مقبولة في يوم من الأيام، لكن هذا التحريم السياسي لم يطل إلا قضايا الأمن الجوهريّة وسيطرة القوى الغربيّة، وهذا لا ينطبق على الأوضاع التي يشعرون فيها أنهم يتعرضون لخطر عظيم. ففي أوضاع كهذه من الحماقة الافتراض أن الاستراتيجيّة الأميركيّة لن تعود أبداً إلى الأساليب التي استخدمتها ضد المدنيين الألمان واليابانيين"[52]. إلا أنه على الرغم من الحجة المنطقيّة التي تحدث عنها الأستاذ بيتس، فالحقيقة هي أن أولئك الذين يراهنون على ما وصفه بالافتراض "الأحمق" لا بد وأنهم سيكسبون رهانهم بناء على استراتيجيّة الولايات المتحدة التي تتبعها ضد القاعدة حتى الآن.

كما أن نشاطات الولايات المتحدة الشرطيّة هذه في الخارج أثرت سلباً على العمليات الاستخباراتيّة الأميركيّة ضد القاعدة، وبخاصة عمليات هيئة الاستخبارات المركزيّة CIA، وهذا يعود أولاً إلى غياب التنسيق بين مهام كل من المؤسستين. إن مكتب التحقيقات الفدراليّة يهدف بشكل أساسي إلى تطبيق قوانين الولايات المتحدة ومعظم الأعمال والنشاطات التي يقوم بها ترتكز على هذه الحقيقة، ومن ضمن هذه النشاطات حل ألغاز الجرائم، والقبض على المجرمين، وتسليمهم إلى العدالة. أما هيئة الاستخبارات المركزيّة فهي مخوّلة بخرق القوانين الأجنبيّة بغية جمع المعلومات التي تساعد في الدفاع عن الولايات المتحدة. إن المؤسستين تقومان بجمع المعلومات لكن مكتب التحقيقات الفدراليّة يقوم بذلك وفقاً لقوانين صارمة تسمح باستخدام تلك المعلومات في المحاكم. أما معلومات هيئة الاستخبارات المركزيّة، فيفضل أن تكون قد جمعت بطريقة سرّية أي بواسطة سرقتها إلكترونياً أو شخصياً، أو من خلال إقناع أشخاص أجانب بخيانة بلادهم وتتحقق فائدتها

العظمى عندما لا تعرف البلد أو المجموعة التي جمعت منها المعلومات بذلك. إن هذه الاختلافات هي اختلافات خطيرة من حيث القانون، والمهمة، والسلطة الممنوحة لكل منهما وهي تفسر السبب الذي جعل مكتب التحقيقات الفدراليّة مؤسسة محليّة وهيئة الاستخبارات المركزيّة مؤسسة تركّز على النشاط الخارجي وينحصر عملها في الولايات المتحدة في نطاق ضيق ودقيق جداً. هذا ما يفترض أن تكون عليه الحال.

وثمة مجالات يمكن أن تتعاون فيها المؤسستان ضد القاعدة، لكن هذا التعاون هامشي ومحدود في الحقيقة. حتى أن هيئة الاستخبارات في معظم الأحيان تقوم بتقديم معلومات تحصل عليها من الخارج حول أشخاص سيدخلون إلى أراضي الولايات المتحدة أو يخططون لنشاط ما فيها وهذا يدخل في صميم عمل مكتب التحقيقات الفدراليّة. إنني لا أوجّه هنا نقداً لمكتب التحقيقات الفدراليّة، لكن هذه ببساطة هي حقيقة ما يحدث. ففي أميركا يعمل مكتب التحقيقات الفدراليّة طبقاً لقوانين الولايات المتحدة وفي الخارج يراعي قوانين البلاد المضيفة، أما هيئة الاستخبارات المركزيّة فهي تعمل بحسب القوانين الأميركيّة لكنها مخولة بجمع المعلومات السرّية في الخارج بطريقة أو بأخرى. وبينما نريد عالماً تعيش فيه الخراف مع الذئاب بسلام، إلا أن الحقيقة هي أنه لا يوجد عالم كهذا في الوقت الراهن، فإن طريقة عمل مكتب التحقيقات الفدراليّة في الخارج يبدو من عدة نواح كما لو أنه حمل يطلب بأدب بعض المعلومات من الذئاب. وتزداد هذه المشكلة تعقيداً باعتقاد مكتب التحققات الفدراليّة الساذج بأن كل ضباط الشرطة في العالم ينتمون إلى نفس الفئة وهي فئة تتجاوز حدود الثقافات، والحضارات، والأنظمة القضائيّة، واللغات. وقد أكد هذا ضابط بارز في مكتب التحقيقات الفدراليّة أثناء عمله على إحدى اعتداءات القاعدة في الخارج قائلاً: "عندما تجلس إلى جانب زميل يعمل في قوات الشرطة قد يقف حاجز اللغة بينكما، لكن ما يجمعكما هو هدف واحد مشترك. وتصبح هذه تجربة متبادلة إيجابيّة إلى أقصى حدّ حيث تكون هناك ثقة متبادلة بين الطرفين"[53]. إن هذا ليس صحيحاً، فأميركا بصراحة لا تتمتع بصداقات كثيرة في حربها على بن لادن، ولا أحد على استعداد لإطلاعها على كل ما يعرفوه

عن القاعدة. وهذه حقيقة أخرى من حقائق الحياة، فعلى الرغم من أن المسؤولين الأميركيين يمكنهم أن يستخدموا المعلومات التي يحصل عليها مكتب التحقيقات الفدراليّة من الخارج، فإن المعلومات السرّية الأساسيّة التي يحتاجها الدفاع القومي لن تقدم لنا من خلال علاقاتنا المباشرة مع الاستخبارات الأجنبيّة أو أجهزة الشرطة والأمن. فتلك المعلومات يجب أن تكون إما مسروقة أو تم الحصول عليها من أحد الخونة الذين جندتهم هيئة الاستخبارات المركزيّة.

وبالإضافة لما تقدم يمكنني أن أضيف أن التعاون بين وزارة العدل، ومكتب التحقيقات الفدراليّة، وهيئة الاستخبارات المركزيّة - عندما يعمل كل منها ضمن دائرة مسؤولياته واختصاصاته - يمكن أن يساهم بشكل إيجابي في الحرب على بن لادن، والقاعدة، والإسلام المسلح. ففي العام 1990 مثلاً، أثمر التعاون بين أضلاع هذا المثلث عن نتائج إيجابيّة جداً وأدى إلى الزج بعددٍ من الضباط البارزين، والمخبرين، ومؤيدي بن لادن في السجن مدى الحياة. ومن بين تلك الشخصيات علي محمد، وممدوح محمود سليم، ورمزي أحمد يوسف، ووالي خان أمين شاه، ووديع الحاج. إن هذه قائمة مثيرة للإعجاب، كما أنه من الضروري أن نحتجز أكبر عدد ممكن من الأشخاص المرتبطين بالقاعدة. ويعود معظم الفضل في زجّ كل أولئك الرجال في السجن، إلى المعلومات التي حصلت عليها هيئة الاستخبارات المركزيّة التي قُدِّمت بدورها إلى مكتب التحقيقات الفدراليّة، ووزارة العدل اللذان استخدماها في بناء قضايا كانت أحكامها لمصلحة الادعاء. إن عمليّة الاعتقال والإدانة هي طريقة تكتيكيّة ممتازة ضد القاعدة، لكنها ليست طريقة يعتمد عليها في حرب رابحة. وهذه هي النقطة التي انحرفت فيها السياسة الأميركيّة عن طريق الصواب.

لقد تحدث بعض المسؤولين والسياسيين الأميركيين في مناسبات عديدة - وكان من بينهم أشخاص صادقين - عن القاعدة، كما لو أنه من الممكن أن تهزم بنشاطات شرطيّة. وعندما قال النائب العام الأميركي عن المنطقة الجنوبيّة في نيويورك في أواخر عام 1998 عن اتهام بن لادن وإدانته: "أن هذا يعدّ خطوة هامة إلى الأمام في حربنا ضد الإرهاب. إن ذلك ينقل رسالة إلى العالم بأنه لن يتمكن

أي إرهابي من الاستهانة بقوانيننا وينجو بقتل المدنيين الأبرياء"، وعندما أضاف النائب العام للولايات المتحدة أن "أولئك المسؤولين عن هذه الأعمال الوحشيّة الجبانة... سيحاسبون وستطالهم يد العدالة"، أظهر كل منهما القوة والصرامة التي تميّز تعامل مكتب التحقيقات الفدراليّة، ووزارة العدل مع المجرمين المحليين. كما أظهر كلاهما هذه الثقة بسبب الانتصارات القضائيّة التي سجّلها المدعون العامون الأميركيون الأبطال في محاكم المنطقة الجنوبيّة في نيويورك. وعندما تنفس أحد المسؤولين البارزين في وزارة الخارجيّة الصعداء، بعد أن تمت إدانة وحظر القاعدة وفقاً لقوانين الولايات المتحدة "لأن لدينا الآن قاعدة قانونيّة تمكننا من التحرك ضدهم"، لقد قدّم بذلك أقوى مثال على شعار سياسة أميركا الراهنة بخصوص الأمن القومي "استعدوا... فنحن جاهزون لإدانتكم"[54]. وهذا ما فعله النائب العام جون أشكروفت عندما وصف عمليّة القبض على اثنين من مقاتلي القاعدة على أنه دليل يثبت "أننا ننتصر في حربنا على الإرهاب"[55].

يقوم قادة الولايات المتحدة من خلال تضخيم النجاحات التي تحققها الاعتقالات الفرديّة، بحجب حقيقة أن نجاحات كهذه لا تغيّر التوازن الاستراتيجي في حرب الولايات المتحدة على القاعدة، وأنها لا يمكن أن تكون محرك الانتصار عليها. وكما كتب ستيفن إيمرسون ودانييل بايبس، فإن المحاكمات "تكاد لا تفعل أي شيء لتعزيز سلامة وأمن الأميركيين" لكنها تعميهم عن الخطر الذي يتهددهم وتمنحهم "وهماً من الحصانة... وشعوراً بعزلة آمنة"[56]. كما أن التهليل فرحاً بالانتصارات التي يتم تحقيقها في المحاكم، يفسد الجدال في السياسة الأميركيّة حول كيفيّة التعامل مع القاعدة، وكما قال تشارلز كروثامر فإن "إدماننا على المحاكمات يفسد ويشوّه سياستنا الخارجيّة"[57]. ويعود هذا أحياناً إلى النوايا الحسنة وأحياناً أخرى لأسباب وضيعة. فالبعض ممن يضعون السياسات مثلاً يؤمنون فعلاً أن الطريق القضائي القانوني هو الأسلوب المناسب للتصدي لبن لادن، ولهذا فهم يخصّصون ميزانيات ضخمة لذلك. أما بالنسبة لمن هم أقل إخلاصاً فإن الطريق القانونيّة تؤجل دون شك اتخاذ القرارات الصعبة بخصوص العمليات التي يجب أن تنفّذ في سياق الحرب ضد القاعدة، مما يضع جنود الولايات المتحدة وهيبتها في خطر. إن الهدف من تجريم الإرهاب "ووضع وزارة العدل

ومكتب التحقيقات الفدراليّة في طليعة الهيئات التي تقوم بمحاربة الإرهاب، هو ضمان لوجود مساحة أكبر لتذبذب السياسة الخارجيّة: حيث إنه يمكننا أن نتخذ إجراء معيناً في وجه خطر خارجي يتهددنا ثم ندعي أننا لم نفعل"[58]. هذا ما كتبه آر. إم. غيريشت في مجلة ويكلي ستاندرد *Weekly Standard* وللأسف هناك موظفون بارزون يرجحون دوماً كفة الطريقة القضائيّة القانونيّة، لأنها تؤمن لهم خمس عشرة دقيقة من الظهور على قناة CNN التليفزيونيّة.

كما أن هاجس واشنطن بعمليات الشرطة ضد القاعدة خارج الولايات المتحدة الذي أدى إلى تضليل الأميركيين، وحجب الحقيقة عنهم، وإفساد السياسة الخارجيّة الأميركيّة، تسبب أيضاً في إضعاف نظرة أعدائنا إلى جدّيّة الولايات المتحدة، والخطر الذي تمثله بالنسبة لهم. والنتيجة التي يمكن أن يخلص إليها الأميركيون هي - أنه لن تتم هزيمة الجهاد الذي يدعو إليه بن لادن، أو القضاء عليه، أو حتى إثارة القلق والرعب بين صفوف المجاهدين - بالاستماع إلى واشنطن تحذر المجاهدين أن نهاية طريق الجهاد هي المحاكمة والسجن. وعلى الرغم من تأكيد أحد المسؤولين الأميركيين الذي خدع به نفسه أولاً على أن زعماء القاعدة "يرتعدون رعباً... وأن المبعوث الصغير الذي يركب البغل سيأتي من فوق الهضبة ليخبرهم في أية لحظة أن فصلاً آخر من فصول القاعدة قد ولى إلى غير رجعة". إن التهديد بالسجن لم يكن له أي وقع في نفوس الإسلاميين[59]. وبالفعل فإن وثائق وتصريحات القاعدة تقول بوضوح لمقاتليها إن أمامهم أحد طريقين، إما الشهادة أو سجن أميركي، وكلاهما يرضي الله. **"أي أن شباب القاعدة يدركون تماماً أن 'جهادهم' سيتوج إما 'بالشهادة' وإما بالأسر"**[60] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). هذا ما أوضحه المتحدث باسم القاعدة عبد الرحمن آل رشيد في العام 2002. إن الدين هو الدافع الأساسي لبن لادن ورجاله، كما أن سجن مقاتلي القاعدة بموجب قوانين الولايات المتحدة سيكون له نفس الأثر على الإسلام الأصولي تماماً كما كان أثر التطبيق الصارم للقوانين الرومانيّة إبان ظهور المسيحيّة - وهو التحريض على تدفق أعداد كبيرة من المسلحين المهتدين الجدد، والتبرعات، والصلوات والدعوات لنصرة ورفع راية القاعدة عالياً.

يجب أن يتذكر خصوم بن لادن دوماً أنه مؤمن بأنه يتبع ويطيع أوامر الله التي فسّرها ووضّحها نبيه الكريم. بالنسبة للمسلمين، قال بن لادن عام 1999، "**إن المتهم الوحيد هو الذي عصي أوامر الله، والذي ترك سنّة رسوله، وابتعد عن أركان دينه... إن القانون ليس من صنع البشر. القانون هو الشريعة التي فرضها الله علينا**"[61] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ويؤكد بن لادن أن في هذه الفترة من التاريخ الإسلامي يجب أن يقاتل كل مسلم الغزاة الصليبيين الذين يعتدون على دينه، وإخوانه، وبلاده. حيث يقول بن لادن: "**في ديننا، نؤمن بأن الله خلقنا لنعبده. إن الله هو الذي خلقنا وأنعم علينا بدينه، وأمرنا بأن نؤدي فريضة الجهاد لإعلاء كلمة الله فوق كلام الكافرين**"[62] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

إذن بن لادن، يطبّق شريعة الله ويلتزم بتحذير النبي بأن "**من يرى المنكر ولا يغيّره سيبوء بغضب من الله**" (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ولهذا فمن المستحيل أن يفكر بن لادن، أو الظواهري، أو أحد زملائهما وهم جالسون يحتسون الشاي ويأكلون اللحم المشوي في ليالي الشتاء الباردة، فيما إذا كان عليهم إنهاء العمليات الجهاديّة فقط لأن بعض المقاتلين الكبار قد قتلوا أو زجّوا في السجن، أو لأنهم هم أنفسهم قد أدينوا في محاكم نيويورك، وإذا ألقي القبض عليهم، فلن ينالوا إلا دفاعاً هزيلاً من محامين تعينهم المحكمة لهم. إن إمكانيّة زجّهم في سجن لن يخرجوا منه أحياء سواء في مركز مانهاتن الإصلاحي أو لويسبرغ أو حتى حجرة كانت يوماً مقراً لصواريخ عابرة للقارات، ليس لها مكان في عيون لا ترى أمامها هدفاً إلا الفوز بالجنة الأبديّة. وقد قال بن لادن في هذا السياق: "أما بالنسبة لوضع اسمي في لائحة أخطر عشرة مجرمين مطلوبين للعدالة، فلا يسعني أن أقول إلا إنه يجب ألا نخاف من الوقوع في قبضة الولايات المتحدة بل يجب أن نخاف من الله فحسب. **فالولايات المتحدة فانيّة، والله حي لا يموت. وإذا أدركنا الفرق بين ما هو فان وما هو حي لا يموت، عندئذ لن يكون من الصعب علينا أن ننجح في الآخرة**[63] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). إن كلمات بن لادن هذه تدعو الأميركيين إلى إيلاء نصيحة الأستاذة روث ودجوود اهتماماً بالغاً: "لن

نتمكن من التصدي لبن لادن حقاً إذا ما استمرينا بقصر عملياتنا على قوات الشرطة ووسائلها. إن الأميركيين لديهم إيمان عميق بقوة القانون. لكن الإعصار القادم نحونا يجبرنا على التخلي عن رومانسيتنا القضائيّة القانونيّة وتبني وسائل أخرى"[64].

ومما يدعو إلى التساؤل هنا هو: طالما أن مهمات شرطة الولايات المتحدة واستخباراتها ليست منسجمة مع بعضها في الحرب على القاعدة إلا بشكل هامشي وضعيف، لماذا إذن لا نزال نصرّ على التعاون الكامل بين الجهتين؟ والإجابة على هذا السؤال من جديد هي الجبن. ومع حلول العام 1990 أصبحت الفكرة التي تتضمنها عبارة "تعاون الأجهزة الاستخباراتيّة" مقدسة لا هدفاً بعيد التحقيق. إن "تعاون الأجهزة الاستخباراتيّة" هي أيديولوجيّة كما هو التنوع الثقافي والتعدديّة الحضاريّة، كما أنها الشعار الغامض المبهم للكونغرس، والفرع التنفيذي، والهيئات المدنيّة. أما التطبيق الإجباري لهذا المفهوم فقد أسفر عن ازدياد حدة التوتر داخل الجهازين - وخاصة في حقل محاربة الإرهاب - كما أدى إلى تعاون أقل بينهما. ومع ذلك لم يقم أي من هذين الجهازين بالإشارة إلى رفض الآخر للتعاون، كما اتفقا على عدم إيصال أي أنباء أو شكوى من هذا القبيل إلى أسماع الكونغرس. وقد كان المستقبل المهني لموظفي أجهزة الاستخبارات يتوقف على عدم وصول أي أنباء سيئة إلى الكونغرس، حيث إن ذلك من شأنه تعريض تلك الوظائف للخطر في حال عرف الكونغرس بالأخطار التي تتهدد الأمن القومي الناجمة عن الادعاءات الكاذبة بالتعاون المثمر.

ولهذا فعندما اشتدت الحرب على القاعدة في التسعينات، أخذ المسؤولون في الاستخبارات الأميركيّة يخفون الحقائق باستمرار عن هيئات الكونغرس وعن موظفيه، ويضللون غيرهم من المسؤولين الأميركيين عندما يتحدثون عن "التعاون الشامل" - وهي أيضاً عبارة مضللة رائجة - بين مكتب التحقيقات الفدراليّة وهيئة الاستخبارات المركزيّة. وإذا تركنا جانباً مسألة النوايا السيئة الآن، فإن التصريحات الدائمة التي تتحدث عن التعاون الشامل بين مكتب التحقيقات الفدراليّة وهيئة الاستخبارات المركزيّة هو كذب واضح، وذلك يعود إلى حقيقة

بسيطة وهي أن مكتب التحقيقات الفدراليّة وبعد مرور ثلاثة عقود على عصر الكمبيوتر، لم تكن لديه - وليست لديه حتى الآن - كومبيوترات تؤمّن اتصالات سريعة، ومضمونة، وآمنة داخل الدائرة نفسها، فكيف سيتم ذلك بين هيئة الاستخبارات المركزيّة، ومكتب التحقيقات الفدراليّة، وأجهزة أخرى؟ ومن خلال السنوات الطويلة التي عملت فيها في هذا الحقل، كانت هناك مرات عديدة تقوم فيها الهيئة التي عملت فيها بإرسال وثائق عن طريق البريد الإلكتروني إلى مكتب التحقيقات الفدراليّة، ومن ثم تتبعها فوراً بمكالمة هاتفيّة تعلمهم فيها بالرسالة. وكنا نتلقى باستمرار مكالمة منهم ردّاً على مكالمتنا، ليعلموننا بأنهم لم يتمكنوا من العثور على رسالتنا، ويطلبون منا أن نرسل لهم نسخة عن الرسالة عن طريق الفاكس. وفي أواخر التسعينات كانت الرسائل والوثائق تسلّم إليهم باليد، لأن نظام تسليم الرسائل لديهم كان غير موثوق أبداً ولا يعتمد عليه. والأسوأ من ذلك هو أن المعلومات السرّية التي كانت ترسل إلى مكتب التحقيقات الفدراليّة عن طريق الفاكس أو البريد لم تعرف طريقها أبداً إلى داخل قاعدة بيانات إلكترونيّة بشكل يمكن الرجوع إليها في ما بعد، وهي حقيقة تدل على مكمن الخطأ في ما يخص مسألة تقارير مراقبة مقاتلي القاعدة قبل الحادي عشر من سبتمبر، كما أن افتقار مكتب التحقيقات الفدراليّة لنظام استرجاع المعلومات بهدف استخدامه الخاص لها، أو لمشاركتها مع هيئات أخرى، يدل أيضاً على إحدى النتائج المثمرة الأخرى للتحقيقات التي تلت الحادي عشر من سبتمبر.

وللأسف، فإن مسألة سوء التخطيط يجب أن تطرح، لا من أجل التحري عن سبب افتقار مكتب التحقيقات الفدراليّة لنظام كومبيوتر متطور وموثوق فحسب، بل الأهم من ذلك وبناء على تجربتي، فإنه يمكنني القول إن ثمة سوء في التخطيط، بالإضافة إلى الإهمال والتقصير، يلام عليه ضباط بارزين في مكتب التحقيقات الفدراليّة منذ أن دخلت العمليات العسكريّة الكبيرة ضد بن لادن حيز التنفيذ منذ العام 1996.

كما أن الجهود التي بذلها مكتب التحقيقات الفدراليّة ضد بن لادن والتي رأيتها يومياً منذ العام 1996 وحتى العام 1999، ركّزت على العمليات التي تنفذ

في الخارج وليس في أراضي الولايات المتحدة. وضباط مكتب التحقيقات الفدراليّة الذين عملت معهم - وكنت مديراً لبعضهم في بعض الحالات - تلقوا أوامر من رؤسائهم تقضي بالعمل جنباً إلى جنب مع هيئتي في عملها في الخارج. ويتوافق هذا مع ولع مدير مكتب التحقيقات الفدراليّة فري لتأسيس مكاتب ومعاهد في الخارج. إلا أن واحداً فقط من ضباط مكتب التحقيقات الفدراليّة - وهو إيرلندي محترم جداً وشجاع - فعل كل ما بوسعه للرجوع إلى الأدلة عن خلايا القاعدة في الولايات المتحدة والتي حصلت عليها عن طريق الهيئة التي أعمل فيها. في حين أن الآخرين كانوا مهتمين بشكل أكبر في السفر مع ضباطي، وبخاصة في الرحلات المتجهة إلى أوروبا الغربيّة. وفي إحدى المناسبات تم استدعاء محلّلة ممتازة من مكتب التحقيقات الفدراليّة - وذلك بعد عام كامل من التحضير للقيام بعمليّة خارجيّة - إلى مقر الإدارة العامة لمكتب التحقيقات الفدراليّة قبل أيام قليلة من بلوغ تلك العمليّة نقطة الذروة كي تحتكر خبرات تلك المحلّلة هناك دون أن يستفيد أحد آخر منها.

والأهم من ذلك، هو أن طلبات الهيئة التي كنت أعمل فيها قلما كانت تلقى استجابة من مكتب التحقيقات الفدراليّة - وهي حقيقة موثقة ومعروفة - كما وصلتنا معلومات تفيد بأن بعض الأدلة المحليّة التي تم تسليمها إلى مكتب التحقيقات الفدراليّة في فرع نيويورك، قد أرسلت من هناك إلى فروع أخرى ليتم التحقق منها ومن ثم استغلالها. كومبيوترات لا تعمل، وتركيز بشكل مفرط على العمليات الخارجيّة، وتعظيم للنفس وللمؤسسة، وتجاهل للأدلة المتعلقة بالقاعدة في الولايات المتحدة - كل هذه الإخفاقات تعود إلى القرارات المتعمّدة التي اتخذها ضباط كبار في مكتب التحقيقات الفدراليّة الأحياء منهم، والمتقاعدون، والأموات. إلا أن أكثر حالات الإهمال تتجلى في الجبن الذي أظهره رؤساء هيئتي، وهم رجال كانت تردهم بشكل متكرر تقارير عن المشاكل، لكنهم لم يبذلوا أي جهد لمحاولة حلها وإصلاحها. وقد ضاعفوا من إهمالهم وتقصيرهم، بطمأنتهم الكاذبة لجماعة الكونغرس وواضعي السياسات الخارجيّة بأن التعاون قائم على **قدم وساق**. كل هذه الأمور كانت السبب وراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001.

وبعد معاقبة المقصّرين، يجب أن نحدّد المشاكل ومن ثم نقوم بحلها كما يجب أن نصلح الأكاذيب التي تقضي باستخدام المنطق في تحديد ما ستعنيه عبارة "التعاون بين أجهزة الاستخبارات"، وفي تبنّي توقعات معقولة ومقبولة عما يمكن أن يحققه هذا التعاون. وكما قلت سابقاً، فإن هناك مجالاً للتعاون بين مكتب التحقيقات الفدراليّة، ووزارة العدل، والاستخبارات الأميركيّة وهذا التعاون ضروري وأساسي ويقتضيه أمن الولايات المتحدة. لكنني أودّ أن أؤكد هنا أن الهدف يجب أن يكون استغلال أقصى طاقات مكتب التحقيقات الفدراليّة في القضاء على وجود القاعدة وحلفائها بشكل كامل في الولايات المتحدة. فنحن قد تأخرنا في هذا المجال سنوات طويلة، وآن الأوان لنبدأ بالتحرك. لقد رأيت تفوق ضباط مكتب التحقيقات الفدراليّة عندما يعملون على القضايا المحليّة ويستغلون التعاون القديم المتأصل بين الحكومة، وقوات الشرطة، والأمن المحليّة. كان يقال "دع ريغان يكون ريغان" عندما كان هذا الرجل العظيم رئيساً، والفكرة هنا هي أن على مكتب التحقيقات الفدراليّة وحلفائه من الشرطة المنتشرين في كافة أنحاء أميركا أن يقوموا بالأشياء التي يتفوقون ويبرزون فيها وألا يصروا على القيام بأشياء – وبشكل خاص تلك العمليات الخارجيّة – التي لا تناسب من حيث المهمة، والبنيّة، والتدريب، والموقف. إن مكتب التحقيقات الفدراليّة بإمكانه أن يجعل أميركا أكثر أماناً من خلال إعادة قواته الخارجيّة إلى الوطن وأن يوقف إرسال أعداد كبيرة من العملاء إلى التفجيرات التي تحدث في البلاد الأجنبيّة. فحتى لو قتل الأميركيون في الخارج، وحتى لو تمكن مكتب التحقيقات الفدراليّة من حل القضية، فإن أمن الولايات المتحدة الداخلي لم يصبح في حال أحسن. ومن أجل أن تصبح أميركا آمنة بقدر الإمكان فعلى مكتب التحقيقات الفدراليّة أن يتحرر من تراث القاضي فري وطموحاته العظيمة في بسط السيطرة على العالم.

تسريب المعلومات: عجرفة أم خيانة؟

إن تسريب المعلومات الاستخباراتيّة السرّية إلى الصحافيين، حتى أكثرها خطورة وسرّية، بات أمراً مألوفاً جداً بين المسؤولين البارزين في الولايات المتحدة

من موظفي الحكومة والسياسيين، والموظفين المدنيين، وكبار الضباط في الجيش. ومن خلال خبرتي العمليّة والمعلومات التي توصلت إليها ككاتب، اكتشفت أنه كانت هناك زيادة ملحوظة في تسريب المعلومات في السنوات العشر الأخيرة، وأن صحيفة *واشنطن تايمز* تحتل الصدارة من حيث تلقي هذه المعلومات السرّية وذلك يعود بالطبع إلى اتصالاتها مع مسؤولي الحكومة الفدراليّة البارزين، وأنها في الطليعة دوماً سواء كانت الإدارة من الجمهوريين أو الديموقراطيين. كما أن هذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على أنها تتمتع بعلاقات قويّة مع الموظفين المدنيين وضباط الجيش الذين لا يتعرّضون لتقلبات أهواء الناخبين، ولديهم على ما يبدو مناعة من وخزات الضمير. وبالإضافة إلى التزايد الكبير في تسريب المعلومات، هناك ازدياد حادّ في تسريب المعلومات التي ليس لها أي هدف واضح من حيث التأثير على السياسات الخارجيّة أو الداخليّة للولايات المتحدة، بحيث إنها على ما يبدو طريقة جديدة للتبجح أمام العالم والعدو حول ما نعرفه من معلومات والطريقة التي حصلنا بها عليها.

وبشكل عام ثمة اتجاه يزداد انتشاراً، يتعلق بتسريب المعلومات السرّية بهدف تسريبها لا أكثر، ودوافعه مختلفة فمنها ما هو بسيط ينمّ عن عدم نضج وتصرفات صبيانيّة (كحال بعض المسؤولين الذين لديهم مصالح مع الصحافيين والمراسلين) ومنها ما ينمّ عن جهل (كالمعلومات التي أدلى بها العاملون في الهيئات الفدراليّة والحكوميّة والمحليّة عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والذين لم يكونوا معتادين على كيفيّة التعامل مع المعلومات السرّية)، وأخرى تنمّ عن حقد (كأولئك الذين هزموا في الانتخابات سواء كانوا من المرشحين لمناصب عليا في الحكومة أو في مجلس الأمن القومي الذين قرروا بأن ينفذوا برنامجهم الخاص غير آبهين بتعريض مصادر المعلومات، والنظام للشبهات مما يكلف أميركا ضياع المعلومات الأساسيّة في الدفاع، والمخاطرة بأرواح الأشخاص الذين أخذت منهم المعلومات). هناك قلة ممن يقومون بتسريب المعلومات يعرفون أن بقيامهم بهذا العمل يعرضون حياة الأشخاص الذين زوّدونا بهذه المعلومات. صحيح أن بعضهم خونة يقومون بذلك سعياً وراء المال، إلا أن غيرهم يقوم بذلك لاقتناعهم بأن أميركا وحسب وصف

السيد لينكولن هي آخر أمل للإنسان بحكم نفسه بنفسه. ومهما كانت دوافع من يقوم بتسريب المعلومات فإن ما يزيد من عزمه ويبدد مخاوفه معرفته بأن المسؤولين الكبار في الولايات المتحدة لم يحاسبوا أو يطردوا من عملهم مرة لارتكابهم جرم تسريب المعلومات السرّية. وخلال أكثر من عشرين عاماً عملت فيها في أجهزة الاستخبارات لم أشهد إعفاء أي مسؤول حكومي، أو مدني، أو ضابط في الجيش من الخدمة لقيامه بتسريب معلومات سرّية. فالموظفون الصغار الذين لا يتمتعون بنفوذ سياسي هم الذين يصرفون من أعمالهم وحتى هذا فهو نادر الحدوث. علماً أنه ليس من الصعب أبداً معرفة أولئك المسؤولين الكبار الذين يقومون عادة بتسريب المعلومات. حيث إن التوزيع المحدود جداً للمعلومات الاستخباراتيّة الحساسة يجعل من دائرة من يحتمل أنه يقوم بتسريب المعلومات ضيقة نسبياً.

إن تسريب المعلومات هو عامل مُهمّ يحدّ من فعاليّة الجهود التي تبذلها الولايات المتحدة للتصدي لأسامة بن لادن والقاعدة. وقد حدث أول تسريب خطير للمعلومات المتعلقة بالقاعدة في صحيفة *واشنطن تايمز* بعد إطلاق الولايات المتحدة لصاروخ كروز لضرب معسكرات للقاعدة بالقرب من خوست في أفغانستان وذلك يوم 20 أغسطس 1998. وقد جاء هذا الاعتداء ردّاً على التفجيرات التي استهدفت سفارتينا في كينيا وتنزانيا قبل ثلاثة عشر يوماً. وقد جاء في المقال الذي نشرته الصحيفة في الرابع والعشرين من أغسطس أن مسؤولين في وزارة العدل قد باحوا بأن الاستهداف الدقيق الذي قامت به الولايات المتحدة للمعسكرات كان اعتماداً على التنصت الإلكتروني على مكالمات بن لادن الهاتفيّة. وقد كتب إيرنست بلازار في عموده في الصحيفة الذي يحمل عنوان *داخل دائرة الحدث*: "في الأسبوعين التاليين لاعتداءات السابع من أغسطس على سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا، قطفت الولايات المتحدة ثمار جهود الاستخبارات من خلال التنصت على الاتصالات السلكيّة واللاسلكيّة للإرهابيين". وقد قال المسؤولون في المناصب العليا لبلازار إنهم لم يخبروه بهذه المعلومات في وقت سابق لأنهم "كانوا يأملون أن يستخدم الإرهابيون ثانية شبكاتهم المراقبة لتحضير ردّ على صواريخ توماهوك التي ضربت معسكراتهم". حيث قال المسؤول: "نريد أن

نعرف من الذي لا يزال يستخدم نفس الأرقام الموجودة على الهاتف الجوّال"[65].

يبدو أن هؤلاء المسؤولين العباقرة قرروا أن الوقت قد حان كيلا يعود الإرهابيون أبداً لاستخدام هواتفهم. حسناً، وكما يأتي الليل بعد النهار، خسرت أجهزة الاستخبارات هذا الامتياز الذي لا يقدر بثمن عندما توقف بن لادن ورجاله عن استخدام هواتفهم. وهذا الدليل الذي تم تسريب معلومات عنه، أدى بشكل مباشر إلى خسارة وسيلة للوصول إلى المحادثات الهاتفيّة لبن لادن تلك التي كان يتم فيها التخطيط للاعتداءات المفاجئة التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر 2001. وعلاوة على ذلك، فإن تسريب تلك المعلومات كان بداية مجموعة من التسريبات عن القاعدة التي تستمر بنفس التدفق المتواصل حتى يومنا هذا.

وبسبب تسريب المعلومات الجبان هذا، فإن الولايات المتحدة لا تستطيع الاستفادة بشكل كامل من عمليات الاعتقال العديدة التي تنفذها أجهزتها الاستخباراتيّة لمقاتلين بارزين في القاعدة، بدءاً من القبض على أبو زبيدة في مارس 2002، إلى الإمساك بخالد بن عطاش في مارس 2003، فقد تم تسريب معلومات تتعلق بتلك الاعتقالات من قبل مسؤولين أميركيين بارزين بعد مضي أيام قليلة عليها، وغالباً ما يحدث ذلك بعد مرور ساعات فقط على حدوثها. إن تسريب المعلومات هذا إنما يدلّ إلى حدٍّ ما على التنافس المحتدم بين الأطراف الرئيسيّة لأجهزة الاستخبارات الأميركيّة، حيث يحاول كل منها أن يفوز بدور البطولة في الحرب على القاعدة، ومعه أكبر قدر ممكن من المبالغ الطائلة من الميزانيّة الآخذة في النمو السريع والمخصصة للحرب على الإرهاب. ومن خلال خبرتي في العمل ضدّ بن لادن لأكثر من عشر سنوات، يمكنني القول بكل ثقة إن أكثر عمليات تسريب المعلومات خطراً على أمن الولايات المتحدة، كانت تأتي من مكتب التحقيقات الفدراليّة، ووزارة العدل، والبيت الأبيض. كما أودّ أن أؤكد للقارئ أن الهيئات الفدراليّة التي بذلت أقل جهد ممكن لحماية أميركا من القاعدة هي بالذات التي تسرب أكبر قدر من المعلومات للإعلام، وذلك لتنسب لنفسها فضل الأعمال التي يقوم بها الآخرون، ولتعمي عيون الناس عن سنوات طويلة من الفشل. وبالفعل عندما سيكتب في التاريخ عن حرب الولايات المتحدة ضد بن لادن، سيعرف

الأميركيون أن هيئة الاستخبارات السرّية لم تقم فقط بتحقيق كل الانتصارات الكبيرة ضد القاعدة، بل أنها حققت ذلك أيضاً في جوٍّ لم تتلقَ فيه أي دعم من هيئات الاستخبارات الأخرى التي كانت تتعمد إعاقة عمل الأولى أيضاً. إن تسريب هذه الهيئات الاستخباراتيّة للمعلومات، يهدف إلى إنكار فضل الهيئة السرّية التي لا تدافع عن نفسها ولا تسجّل نجاحاتها بشكل علني.

إلا إن الأخطر من الحرب البيروقراطيّة الداخليّة هو بلادة نخبتنا. في هذا الصدد أودّ أن أؤكد أن الدافع الوحيد وراء تدفق المعلومات المسربة هو عدم قدرة قادة الولايات المتحدة؛ السياسيين، والعسكريين، والاستخباراتيين، والديبلوماسيين؛ ومعظم رجال النخبة الأكاديميّة والإعلاميّة في أميركا على منح الخطر الذي يمثله بن لادن اهتماماً جدياً. نعم، هناك ازدياد كبير في المبالغ المخصصة لميزانيّة محاربة الإرهاب. نعم، ثمة نمو ملحوظ في مجال التعاون التقني والبشري ضد القاعدة وحلفائها. نعم، إن عدد الأشخاص العاملين في حقل محاربة الإرهاب قد شهد تزايداً كبيراً، مع أن هؤلاء الأشخاص الجدد لا يمتلكون أي خبرة في هذا المجال، ولن تتم الاستفادة منهم لسنوات طويلة حتى يتعلموا ويستفيدوا من تجارب الرعيل القديم من المتمرّسين ذوي الخبرة، الذين لا يشكّلون إلا نسبة ضئيلة. نعم، إن قادة أميركا يتكلمون بصوت عالٍ وتحدٍّ عن خوض "الحرب ضد الإرهاب" وإلحاق الهزيمة بالخطر "المدمر" الذي تمثله القاعدة على "الوطن". نعم، إن وزارة العدل تتخذ إجراءات أمنيّة داخليّة صارمة تهدف إلى حماية المواطنين، وهي للأسف تبدو وكأنها تحدّ من بعض الحريات المدنيّة باسم الأمن القومي.

إن الإمكانيات التي تقدّمها المصادر، والناس، والقوانين الجديدة، والخطابات المؤيدة لأجهزة الاستخبارات تضيع كلها للأسف أدراج الرياح، لأنها تخوض معركة خاسرة مع عصابة مسربي المعلومات السرّية في واشنطن. وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي تبذلها هيئة الاستخبارات والاستخبارات السرّية، والأداء الممتاز الذي تقوم به، فإن الساحة الإعلاميّة تعج بالمعلومات السرّية التي فضح أمرها المسؤولون من كافة الجهات. فقد أخبر مسؤولون أميركيون بارزون، على سبيل المثال، صحيفة *يو أس أي توداي U.S.A Today* أن "عمليات التنصت التي قامت

بها هيئة الأمن القومي" ساعدت على القبض على خالد شيخ محمد، وهو مخطط اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر[66]، كما أنهم أبلغوا صحيفة *واشنطن بوست* *Washington Post* أن رمزي بن الشبه وهو أحد مقاتلي القاعدة المعتقلين من قبل السلطات الأميركيّة وهو طيار انتحاري أيضاً، "يقدم لهم معلومات مفيدة" ستساعدهم في القبض على آخرين[67]، وكشفوا أيضاً لصحيفة *نيويورك تايمز* *New York Times* أن مراقبة المكالمات الهاتفيّة ساعدت في إفشال الخطط التي كانت تهدف لتنفيذ عمليات تخريب لمنشآت أرامكو في السعودية[68]، كما تحدثوا عن "محتويات مذكرة تبليغ سرّية للغاية" لصحيفة *النيويوركر* *The New Yorker*[69] كما قالوا لصحيفة *شيكاغو تريبيون* *Chicago Tribune* عن دور التنصت على اتصالات القاعدة في نجاح الهجوم الذي نفذته طائرة هيئة الاستخبارات المركزيّة من طراز UAV التي تسمى المفترسة Predator التي تعمل دون ملاح، والذي أدى إلى مقتل ستة أعضاء بارزين في القاعدة في اليمن[70]. تلك كانت بعض الأمثلة فقط، ولم تكن أخطرها. وإذا أردت أن أذكرها كلها فيجب عندئذ أن أخصّص لها فصلاً كاملاً. وفي كل مرة يتم فيها تسريب المعلومات إلى الإعلام، تضيع جهودنا المبذولة بعد الحادي عشر من سبتمبر لمحاربة القاعدة، ويتعاظم تهديد أكبر خطر في العصر الحديث على الأمن القومي للولايات المتحدة.

وها هو أيضاً كتاب بوب وودورد *بوش في الحرب* الذي يضعف من ثقة وإيمان ضباط الاستخبارات في نزاهة قادتهم ومؤسساتهم. بوب وودورد هو ضابط استخبارات دخل حديثاً في الخدمة وتسكنه أفكار بعيدة كل البعد عن محيطه. كما أنه اشتهر بين أقرانه على أنه يعرّف الإعلام على أنه العدو، والإعلاميين على أنهم أوغاد لئام يتصيدون الأخبار وينشرون الأسرار التي تُعرّض مصادر المعلومات للشبهات وتخاطر بحياة من يأتي بها. وقد كتب الجنرال ويليام تي شيرمان عام 1875: "إن الصحافيين هم أكبر الثرثارين في العالم، فهم يتسللون بخفة إلى مكتب جنرال وهم يجدون أنه من الأسهل الحصول على الشهرة، وهم يرتاحون في بيوتهم على أن يكسبوا السمعة الطيبة في الأقسام أو الهيئات التي يعملون فيها مع الجماعة ككل واحد. كما يروق لهم التوقّع بأحداث ستجري في المستقبل والحديث

بالتفصيل عن الحقائق التي تكشف للعدو عن أشياء تمكّنه من الاستعداد لمواجهتها"[71]. إن رؤية شيرمان تدخل في صلب الدرس الذي يتعلمه ضباط الاستخبارات الجدد، كما أنها وصفت الحالة التي تطرقت لذكرها هنا أيضاً. لكن هذه الرؤية قد بدأت تتآكل برأيي مع تسريب معلومات تشير إلى قدرة الولايات المتحدة في التنصت على اتصالات بن لادن الإلكترونيّة. ومع التزايد الكبير لتسريب معلومات من هذا القبيل في السنوات الأخيرة، بدأت أتساءل من هو المجرم الحقيقي هنا، هل هو من ينشر المعلومات السرّية أم من يسرّبها له؟ ومع أنني لا أزال أعتقد بأن على المحررين الذين يعملون في المنشورات الهامة في الولايات المتحدة أن يقوموا برقابة ذاتيّة أكبر في ما يتعلق بنشر المعلومات السرّية، إلا أن حيرتي قد زالت بخصوص هوية العدو الحقيقي. فكتاب وودورد يشهد بأن المسؤول الذي يسرّب المعلومات لا الصحافي الذي ينشرها هو العدو الحقيقي لأمن الولايات المتحدة. لاحظ مثلاً، حديثه الطبيعي جداً عن المصدر الذي استقى منه معلوماته الأساسيّة لهذا الكتاب، حيث قدّم إفادة مباشرة لدرجة أن المرء يكاد ينسى أن أولئك الذين قدّموا له تلك المعلومات خرقوا القانون الفدرالي عمداً، وإذا استخدمنا مصطلحات قديمة، لقد خانوا الثقة، ولطّخوا شرفهم بتعريض المصادر التقنيّة والبشريّة للخطر، ومعها ضباط الاستخبارات الذين يتعاملون مع مصادر المعلومات، بالإضافة لتعريضهم الأمن الأميركي بشكل عام للخطر في الوقت ذاته. وقد كتب وودورد مفسراً: "إن هذه رواية عن الرئيس جورج دبليو بوش في الحرب وذلك في المئة يوم الأولى التي تلت الاعتداءات الإرهابيّة في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001.

> إن المعلومات التي حصلت عليها من أجل هذا الكتاب تتضمن مذكرات وملاحظات دوّنت في أكثر من خمسين جلسة لهيئة الأمن القومي وفي اجتماعات أخرى، تمت فيها مناقشة وصنع أهم القرارات. كما كانت بعض الملاحظات الشخصية الأخرى والمذكرات والمفكرات واليوميات الداخلية المكتوبة أساساً للاقتباسات المباشرة وأجزاء أخرى من هذه القصة.
>
> ... وبالإضافة إلى ذلك، فقد أجريت مقابلات مع أكثر من مئة شخص من المعنيين بصنع القرارات المتعلقة بالحرب والإشراف على تنفيذها[72]...

لقد تبيّن لي، بعد قراءة كتاب السيد وودورد *بوش في الحرب*، أن المسؤولين

الأميركيين ممن وافقوا أو شاركوا في تقديم هذه المعلومات - سواء بشكل ملفات ووثائق أو من خلال المقابلات - التي تشكل جوهر كتاب السيد وودورد، قد قدّموا بذلك مساعدة للعدو لا تقدّر بثمن. كما أن صفحات *كتاب بوش في الحرب* تعجّ بمواضيع تبدو، وكأنها إما معلومات استخباراتية سرّية أو أن الوسيلة التي استخدمت في جمعها كانت سرّية، ومن ضمنها كبداية هذه المقاطع الستة التالية:

> لقد شعر [جورج] تينيت مؤخراً بالقلق من حدوث هجمات أثناء احتفالات الرابع من يوليوم 2001. وعلى الرغم من أنه لم يفصح عن مخاوفه [للسناتور الأميركي السابق ديفيد] بورين، فقد كان هناك تنصت على أربعة وثلاثين اتصالاً محدداً بين عدة مساعدين لبن لادن جاءت فيها تصريحات عما سيحدث في الصيف مثل "إن ساعة الصفر ستكون غداً" أو "هناك شيء مهول على وشك الحدوث"[73].
>
> وقد كان أحد أهم الأسرار المحفوظة في هيئة الاستخبارات المركزيّة هو وجود ثلاثين عميلاً أفغانياً يعملون تحت كلمة السر GE/SENIORS وقد قبضوا أجرهم لملاحقة بن لادن في كافة أنحاء أفغانستان وذلك في السنوات الثلاثة الأخيرة... وكانت هناك اتصالات سرّية يوميّة بين هيئة الاستخبارات المركزيّة وجماعة 'SENIORS'"[74]...
>
> وقد سمع المسؤولون عن مراقبة اتصالات بن لادن في الاستخبارات عدداً من أتباع بن لادن يتبادلون التهاني عقب الاعتداءات[75].
>
> وفي اجتماع مغلق للرئيس بوش مع أمير قطر، أظهر بوش متابعته الدائمة للإشارات التي ترده من الاستخبارات وخاصة في ما يتعلق ببن لادن. فقد قال بوش للأمير: "لقد عرفنا أن بن لادن اتصل بوالدته، سيرتكب خطأً ما في يوم من الأيام، وسيقع في أيدينا"[76].
>
> إن كلمة السرّ الخاصة بإشارات الخطر السرّية للغاية صباح الإثنين التاسع والعشرين من أكتوبر كانت تشير إلى عشرات التهديدات، الكثير منها كان جديداً وغير مستبعد ويتحدث عن هجوم سينفذ في الأسبوع التالي. وكل الإشارات الاستخباراتية SIGINT أظهرت أن العديد من قادة القاعدة أو مخبريها المعروفين كانوا يقولون إن عملية كبيرة ستنفذ قريباً[77].
>
> لقد أشارت معلومات استخباراتية دقيقة أن زعيم الثورة الإيرانية وهو العنصر الأصولي الذي يمسك بزمام السلطة الحقيقية في إيران، كان ينقل أسلحة إلى طالبان، وأنها كانت تصل بدورها إلى القاعدة[78].

أعتقد أن العجرفة والغرور هي بعض الأسباب التي دعت إلى تسريب هذه المعلومات وغيرها عن بن لادن والقاعدة. غير أن واحداً على الأقل من المسؤولين الذين سرّبوا المعلومات السرّية لكتاب بوش في الحرب، قايض هذه المعلومات السرّية ليجعل في المقابل السيد وودورد دون قصد منه يعيد كتابة الحقائق حول الإجراءات والنشاطات التي كانت تقوم بها الحكومة الأميركيّة بخصوص بن لادن قبل الحادي عشر من سبتمبر. وعجرفة لأنه يبدو أن المسؤولين الأميركيين يعتقدون أن الولايات المتحدة متفوقة جداً على خصومها لدرجة أن قيامهم بتسريب معلومات سرّية وفضح المصادر وطرق الحصول على المعلومات، إما سيفوت العدو وسيغفل عنه - وهذا مستحيل - أو أننا سنجد ببساطة طريقة جديدة للحصول على المعلومات بعد أن تسبب تسريب المعلومات بقطع تدفقها من المصادر الرئيسية. وبما أن رجال النخبة الأميركيّة مغرورون لدرجة أنهم يظنون أن أميركا منيعة ولا يمكن أن تتعرض لأي سوء، ولا يمكنهم أن يتصوروا أن بقية العالم لا يريدون أن يكونوا مثلنا - ويؤمنون أن وجود إمبراطورية أميركيّة في القرن الواحد والعشرين ليس قدرنا فحسب، بل هو واجبنا تجاه الجنس البشري وخاصة إزاء الشعوب الإسلاميّة المتخلفة، والقذرة، والأمية، وغير الديموقراطية، وغير البيضاء، والمعادية لتحرر المرأة. وهو تكبر وغرور (أم أنه في الحقيقة عنصريّة؟) لأن النخبة في بلادنا لا يمكنهم أن يصدّقوا أن مجموعة من العرب الذين يلبسون أثواباً ولحاهم الطويلة متدلية على أعناقهم النحيلة ويتحلّقون حول نيران المعسكرات في الصحارى والجبال الأفغانية يمكنهم أن يشكلوا خطراً على الولايات المتحدة. فالنخبة وأميركيون آخرون، على حدّ تعبير الإيكونوميست *The Economist* "لا يزالون يتعاملون مع هجمات [الحادي عشر من سبتمبر] كما لو كانت حدثاً مروّعاً ومنفرداً، ككارثة طبيعية أو جريمة عشوائية ارتكبت بحق أميركا..."[79] وفي حين أنهم يضربون عرض الحائط بتحذيرات تطلقها القاعدة تنذر فيها بقرب تنفيذ هجمات على أميركا أسوأ من تلك التي نفذتها في الحادي عشر من سبتمبر، إن عدم تصديقهم لهذه التهديدات يتضّح باستعدادهم لاتخاذ تدابير عسكرية أقصاها هو إلقاء الخطابات المندّدة ورفضهم لشنّ حرب مُدمّرة على القاعدة تبيدها عن

بكرة أبيها، وادعاءاتهم السخيفة بأن العمل على تحسين الأداء الديبلوماسي الشعبي للولايات المتحدة سوف يثني المسلمين عن كرههم للولايات المتحدة وشنّ هجمات عليها.

ومما يضاعف من التأثير السلبي للغرور والعجرفة هو بساطة المشكلة التي تشكّل عائقاً كبيراً يقف في طريق هزيمة الأعداء وحماية أميركا من شرورهم؛ حيث إن حكومة الولايات المتحدة تفترض – خطأ من وجهة نظري – أنها تعرف الخطر الذي تواجهه في القاعدة وحلفائها، فهم باعتقادها مجرد إرهابيين ينتمون إلى حدٍّ ما إلى نفس ذلك النوع من الإرهابيين الذين تدعمهم الدول التي كنا قد واجهناه منذ عام 1970، إلا أنهم يفوقونهم عدداً وهذا هو الفارق الوحيد بينهم. وهذا ليس الافتراض الذي يجب أن نعمل على أساسه. ففي حين وصف القاعدة بأنها دولة هو خطأ واضح – وذلك لأنها ليس لها عنوان ثابت – فالخطأ الأعظم والأخطر هو وصفهم بأنهم إرهابيون. وكنت قد أثرت هذه النقطة سابقاً في كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا* وفي بداية هذا البحث أيضاً، لذا لن أقدم دلائل أخرى تثبت صحة الرأي الذي أشرت إليه. لكنني سأكتفي بالقول إننا سنظل نمنى بالهزائم إذا ما استمرينا في رؤية القاعدة بهذه الطريقة، ووضعنا استراتيجياتنا لمحاربتها بناء على نموذج الإرهابي. إن تبني هذا النموذج يؤدي إلى مقاربة تحتاج إلى وقت طويل وتعتمد على قوات الأمن والشرطة، بشكل تركّز فيه على تفكيك المجموعة بالقبض على إرهابي تلو الآخر، كما لو كنا نتعامل مع عصابة من عصابات المافيا. وهذا الأسلوب بدوره يقود المسؤولين في الولايات المتحدة إلى أن يقولوا للأميركيين إن عملية 'اعتقال واحد في كل مرة' تحرز تقدماً ملحوظاً، وهذا يُعبّر بشكل واضح عن استخفاف أميركا رسمياً بقدرات القاعدة الهائلة وشعبيتها وعدد مقاتليها واستمراريتها وخطرها. والالتزام المستمر بصيغة الإرهابي سيؤدي في النهاية إلى هزيمتنا بشكل كامل على يد بن لادن، وليس هناك دليل أوضح على التحليل الخاطئ لأجهزة الاستخبارات لبن لادن والجماعات الإسلاميّة المسلّحة من استمرار المخطّطين السياسيين في الولايات المتحدة وإصرارهم على استخدام هذه الصيغة. علينا أن نتخلى عن هذه الصيغة التي تعود إلى عشرات السنين ونتقبل – نعم، هذه

إحدى المعطيات المتوافرة بين يدينا و لم نولها أدنى اهتمام - حقيقة أن بن لادن والقاعدة يقودان حركة مقاومة مسلحة إسلاميّة تتمتع بشعبية، وانتشار عالمي وقوة تنمو بشكل متزايد. وهي حركة يجب أن تحارب بطريقة مختلفة يتم فيها اتباع مقاييس أكبر مما يتّبع في قمع الإرهاب، وحروب ضد حركة ذات قيادة حكيمة - وقد أثبت بن لادن أنه يتمتع بأكثر من الحكمة - وهذه الحروب ستدوم لفترات أطول وستكلّف المزيد من الأموال والأرواح، وستصبح أعنف وأكثر وحشية من مجرّد مواجهات عرضية مع بعض الإرهابيين. وقد أشار ريتشارد كي. بيتس في بحث نشره عام 2002 أظهر إدراكاً وفهماً عميقاً للأحداث. ولقد أشار بيتس،

> إلى أنه باستثناء ضحايا حرب العصابات، قليلون هم المستمرون بتعريف الحرب غير التقليدية التي لا تعتمد على جيش رسمي بأنها إرهاب (لأن الأخير غير شرعي)، لكن الاثنين يتداخلان ويتقاطعان إلى حدٍّ كبير في ما يتعلق بسماتهما العملياتية... فالمنطق التكتيكي لعمليات حرب جماعات المقاومة المسلحة يشبه المنطق الذي تقوم عليه الهجمات الإرهابية فالثوار الأضعف يلجأون إلى التسلل واستخدام المجتمع المدني كغطاء لتركيز قوتهم الضاربة على أحد المصالح العديدة للعدو الأقوى[80]...

وهكذا فإننا إذا خرجنا قليلاً عن دور الضحية وقبلنا الحاجة لهذا التغيير الاصطلاحي وقمنا به، قد نحصل على اعتراف بأن أميركا تخوض حرباً ضد قوة يحركها الدين والإيمان الذي ينفي ويدحض، بصدق عقلاني، ما يطلق عليه إرهاباً. إن التأثير الواقعي لهذا الإدراك قد يبدأ بالتخفيف من وتيرة تسريب المعلومات السرّية، والأذى الذي تلحقه هذه العملية بالأمن القومي. وكلما تم الإسراع في تحقيق هذه العملية التعليميّة الأساسيّة، ستكون هناك إمكانية كبيرة للتخلي عن بعض الغرور والعجرفة، والمنافسات المؤسساتيّة من أجل وضع استراتيجية جديدة (وليس تعديل الاستراتيجيّة الحالية لأنها تحتضر) تمكّن الولايات المتحدة من استعادة سيطرتها على الأوضاع. ولدي ثقة كبيرة في هذه المحاولة التعليميّة التي تهدف إلى إصلاح المسؤولين الذين يقومون بتسريب المعلومات السرّية، لأنه لا يمكن أن يكون هناك إلا تعريفين لمسرّبي المعلومات. فهم إما مواطنين أميركيين مخلصين لا يدركون الخطر الذي تواجهه البلاد - لذلك فقد منحوا لنفسهم حرّية تسريب المعلومات

لأسباب قد تكون شخصيّة أو مؤسساتيّة تافهة – أو أنهم خونة ملعونين يقدمون للعدو عن قصد المساعدة والعون الذي يحتاجه. فالنوع الأول بحاجة إلى الإصلاح أما الثاني فيجب أن ينال أقصى عقوبة يسمح بها القانون. وكما ترون فإن تعريف الخيانة هو أيضاً من المعطيات التي كانت بين يدينا ولم نتكبد عناء العودة إليها.

الديموقراطية: أقل البضائع المصدرة من أميركا رواجاً في العالم

في بدايات العام 1821، في الوقت الذي لم يكن يتمتع فيه المؤسسون بالخبرة الواسعة في ما يتعلق بالأفكار والمخاوف والمبادئ، طلبت لجنة باسم مواطني العاصمة District of Columbia citizens' من وزير الخارجية الأميركي بأن يلقي كلمة في ذكرى يوم الاستقلال. وفي الرابع من يوليو وقف وزير الخارجية جون كوينسي آدامز أمام مبنى مجلس النواب – الذي كان يستخدم في ذلك الوقت لبعض المناسبات الوطنية – وألقى خطاباً عبّر فيه عن وجهات نظره الشخصيّة، ولم يتكلم عن وجهات نظر وآراء حكومة مونرو. وبما يتناسب مع رجل مسؤول عن إدارة شؤون بلاده الخارجيّة، استغل آدامز كلمته للإشارة إلى أفكاره حول الدور الصحيح الذي يجب أن تلعبه أميركا في العالم، حيث قال بمناسبة الذكرى الثامنة والأربعين للاستقلال:

> إن أميركا لا تنطلق إلى الخارج بحثاً عن وحوش لتدمّرها. إنها تتمنى الخير لكل من يسعى للحرّية والاستقلال. وهي المدافعة عن حرّية شعبها واستقلال أراضيها فقط. وهي ستشجع القضية العادلة لكل الشعوب، وتضم صوتها لها، وتظهر تعاطفها معها نظراً لمرورها بمثل ظروفها. لكنها تعرف تماماً أنها إذا تطوعت وقدّمت جنودها ليحاربوا تحت لواء غير لواء بلدهم ولو لمرّة واحدة حتى ولو كان هذا لنصرة بلد ما يسعى لنيل استقلاله، فإنها تكون بذلك قد ورّطت نفسها في وضع لن تخرج منه إلا بصعوبة بالغة في كل حروب المصالح والخداع، وحروب الجشع والحسد والطموح التي تحدث باسم الحرّية ومبادئها.
>
> إن المبادئ الأساسية لسياساتها ستتحول في تلك الحالة إلى غير رجعة من الحرّية إلى القوة... وقد تصبح بذلك ديكتاتور العالم. ولن تعود بعدها حاكمة الروح التي تعيش داخلها[81].

وفي الوقت الذي تركّز فيه أميركا على قضايا إعادة بناء الدولة في العراق وأفغانستان، وتغيير النظام في ليبيريا وبورما وهاييتي وزمبابوي، واستبدال أكثر المعتقدات رسوخاً في عقول وقلوب 1.3 مليار مسلم بأنظمة علمانيّة وغربيّة – وذلك يشمل أفكارهم عن الحرب، والصدقة، والزكاة، ومناهجهم التعليمية – فإن كلمات الوزير آدامز وتحذيراته تبدو فعلاً وكأنها مناسبة وضرورية في العام 2003 أكثر مما كانت تقتضيه الحاجة في العام 1821. كما أن علاقتها الوثيقة بما يجري اليوم غريبة جداً وخاصة في خضم الدعوات الصاخبة التي يطلقها السياسيون، والوعاظ، والمسؤولون في الحكومة، والخبراء الإعلاميون، والمفكرون السياسيون لإقامة – أو كما يقول البعض، تشكيل – إمبراطورية أميركيّة والتي يجب أن تتضمن، على حدّ تعبير كاتب في *الواشنطن بوست*، "وزارة تغيير ديموقراطي للأنظمة" لمساعدة الإدارة الإمبراطورية[82]. إن أهمية كلمات آدامز تكمن في أنه كان – كوزير للخارجية ثم كرئيس – أحد أعظم بناة الإمبراطورية بحيث أرسى الدعائم التي تقوم عليها الولايات المتحدة اليوم. على الرغم من أن آدامز كان يركز اهتمامه على أميركا، فإنه لم يكن يؤمن بالسياسة الانعزاليّة، بل كان ببساطة مواطناً من نيو إنغلاند تقليدياً ومنفتحاً في الوقت ذاته. وكان يؤمن بأن الازدهار الاقتصادي وكافة أشكال المعرفة والعلم تكتسب بالانفتاح على العالم وذلك بإقامة علاقات – تشمل النواحي التجارية والثقافية والديبلوماسية والمصرفية، إلخ – مع الهيئات الأجنبية الحكومية والخاصة. كان آدامز يشعر وكأنه في موطنه في العالم – وقد يكون أفضل ديبلوماسي أميركي على الإطلاق – كما كان واثقاً أن بإمكان أميركا بل ويتوجب عليها أن تتعامل مع الدول الأخرى باحترام. إلا أن آدامز لم يكن معارضاً للحرب كحل أخير للنزاعات. فقد كان يؤمن بأن الحرب هي حقيقة في الحياة يجب أن يتقبلها الإنسان إذا لم يكن هناك بديل عنها، وأن كل دولة يجب تدافع عن نفسها عسكرياً حتى تضمن بقاءها عندما تفشل كل الطرق الأخرى. كما أنه لم يكن يتفق أبداً مع فكرة الحرب الهجوميّة، وفي العام 1864 عندما كان عضواً ممثلاً لولاية ماساتشوستس في الكونغرس، عارض بقوة الحرب الهجوميّة التي بدأتها إدارة جيمس كي بولك ضد المكسيك والتي تعتبر حتى يومنا هذا من أكثر

الحروب التي شنّتها أميركا دون أي مبرّر أخلاقي.

وهنا قد يتساءل القارئ عن الصلة التي تربط أفكار السيد آدامز حول السياسة الخارجية للولايات المتحدة بمواجهات أميركا مع بن لادن والمقاومة الإسلاميّة المسلحة. حسناً، أعتقد أن السيد آدامز قد أشار إلى جانبين من جوانب سياسة الولايات المتحدة إزاء بن لادن لم يتم التفكير بهما بشكل متعمق، وذلك يرجع إلى العوامل التي تصب ثانية في سياق التكبّر والعجرفة.

أولاً، تحذير آدامز، بأن تشجيع وتأييد قضية الديموقراطية لدى الشعوب التي لا تفهم أميركا حضاراتها وسياساتها ومجتمعاتها من شأنه إيقاع الولايات المتحدة في مأزق "لن تتمكن من الخروج منه إلا بصعوبة بالغة"، يجب أن يجعل الأميركيين يقفون للحظة ويفكرون في أحداث هذه السنة 2004. وليس هناك مثال أوضح يُعبّر عما قاله السيد آدامز في حديثه عن عودة الدجاجات إلى موطنها، من الوضع الراهن في أفغانستان، ومع ذلك فسيكون العراق التحدي الأكبر. وكما وضّحت في الفصل الثالث، فإن أفغانستان لا تشكل بيئة منافية تماماً للبيئة والوسط الأميركي فحسب، بل إن أميركا منذ احتلالها لأفغانستان وحتى اليوم لم تنجح في أمركتها أو حتى دفعها في هذا الاتجاه حتى اليوم. كما أنه لا يوجد أي دليل - بناء على كلمات وأفعال قادتنا أو نتائج الحرب - يظهر أن المسؤولين المنتخبين في بلادنا من مدنيين، واستخباراتيين، وديبلوماسيين، وعسكريين قد خصصوا أي دقيقة من وقتهم الثمين لقراءة وفهم ما يمكن وصفه دون أي مبالغة بالكم الهائل من المعلومات التي تشكل الإشارات والمعطيات حول أفغانستان، والتي تعج بها سجلاتنا الرسمية قبل أن يعبروا نهر أوكسوس في آسيا الوسطى.

في أواخر العام 2001، انطلقنا لقتل ما أسماهم آدامز "الوحوش" في الخارج وقد ساقنا حكّامنا إلى هذه المهمة دون أي علم منا بالتاريخ والحضارة والمجتمع الأفغاني، بل كنا على ثقة أنه بعد أن نعمل في الأفغان قتلاً وذبحاً يمكننا أن نعيد بناء الاقتصاد والبنى التحتية الأفغانية، ونقيم ديموقراطية بأسلوب غربي ونظام سياسي علماني ليحل محل التقاليد الأفغانيّة القبليّة التي كانت هناك منذ أكثر من ألفي عام. كما أن قادة الولايات المتحدة ظنوا أنهم سيتمكنون من إبعاد الدين الإسلامي

المحافظ الثابت في قلوب وعقول الأفغان منذ أكثر من ستة قرون والذي أصبح أكثر قوة ومقاومة وشبهاً بتعاليم إسلام الشرق الأوسط خلال ما يربو عن الثلاثين عاماً من حروب الأفغان المستمرة ضد الشيوعيين والملحدين، والمحتلين الأجانب، وضد بعضهم البعض. وفي أواخر عام 2003، بينما كانت سلطة الرئيس كرزاي لا تتجاوز حدود قصره، وبينما كانت طالبان والقاعدة توسّعان تحالفهما ضد الولايات المتحدة ليشمل أقوى المنظمات العسكرية للمحاربين القدماء - حكمتيار، وخالص، وحقاني... إلخ - وبينما كانت الهجمات على القوات التي تتزعمها الولايات المتحدة تزداد حدة وكثافة، فكان من الطبيعي أن يعود إلى أذهاننا قول آدامز بأن أميركا "إذا تطوعت وقدّمت جنودها ليحاربوا تحت لواء غير لواء بلدهم ولو لمرّة واحدة حتى ولو كان هذا لنصرة بلد ما يسعى لنيل استقلاله، فإنها تكون بذلك قد ورّطت نفسها في وضع لن تخرج منه إلا بصعوبة بالغة في كل حروب المصالح والخداع وحروب الجشع والحسد والطموح التي تحدّث باسم الحرّية ومبادئها" هل هناك أي مسؤول في الإدارة يمكنه أن يُفسّر للأميركيين ما الذي يجري في أفغانستان؟ بل هل من أحد منهم يفهم حقيقة ما يجري هناك؟ من أولئك الذين يدلون بتصريحات مضلّلة بشكل واضح تفيد بأن الحرب الأفغانية قد انتهت، وأن البلاد بمعظمها تنعم بالاستقرار. أليس من الواضح أن ما أسماه آدامز "بحروب المصالح والخداع" هو ما يحدث اليوم في أفغانستان، وأنه لا يتجاوز فهم وسيطرة قادتنا فحسب، بل أنه "يفوق قدرتنا على الخروج من هذا المأزق الحرج؟" وهل الحقيقة الوحيدة التي تلوح في الأفق هي أنه بينما تشكّل أفغانستان كارثة فعلية بالنسبة لأميركا، فإن العراق قد يفوقها في ذلك لأنه كان هناك كمّ أكبر من "المعلومات المتاحة لنا والتي كان بإمكاننا الاطلاع عليها" حول العراق أكثر مما كان بين أيدينا عن أفغانستان، لكننا أغفلناها وتجاوزناها عن عمد.

إن أقل ما يمكن أن يقال عن سياسة الولايات المتحدة تجاه أفغانستان أنها مجبولة بالعجرفة والتكبّر.

فدون أن نعرف أي شيء عن المأزق الذي ورّطنا أنفسنا فيه، قمنا بقصف جوّي مخيف أتبعناه بحرب بريّة ضعيفة أدت إلى الحدّ من وقوع ضحايا أميركيين،

لكنها سمحت لمعظم جنود العدو بالعودة إلى ديارهم مع أسلحتهم. ثم قمنا بتنصيب حكومة في كابل دون أن نشرك فيها أعضاء من أكبر المجموعات العرقيّة الأفغانيّة – التي يعود إليها تاريخياً الحكام الأفغان – وأوكلنا إليها مهمة تطبيق برنامج سياسي غربي لا يتوافق نهائياً مع التقاليد القبيلة الأفغانيّة، فضلاً عن أنه مناف للإسلام. (وهذا سيبدو مألوفاً بالنسبة لأولئك المطلعين على التطورات في العراق). وبشكل عام، فإن سياساتنا وعملياتنا في أفغانستان خفّفت بشكل هامشي من حرّية الحركة لطالبان والقاعدة هناك، كما أنها أدت إلى إشعال نار كراهية متوقعة للأجانب والاحتلال الأجنبي، امتدت على نطاق شعبي واسع حتى طالت رجال الراحل مسعود وجيش كرزاي الذين لن يستبدلوا الأسياد الروس بالأميركيين، وكانت النتيجة أن الولايات المتحدة يجب أن تقرر سريعاً في ما إذا كانت ستزيد من وجودها العسكري بشكل كبير، وتشنّ حرباً مُدمّرة تمتد لتشمل كافة المناطق في البلاد أو ستعض على ذنبها وتضع رأسها بين قدميها وتعود إلى بيتها كما حدث في فيتنام والصومال. وفي هذه الأثناء، فإن بن لادن والملا عمر والمتبرعين الكرماء الخليجيين ليسوا بحاجة إلا للقليل من الصبر والتكاليف المتواضعة التي تتطلبها المقاومة لجعل أميركا تدفع ثمناً باهظاً جداً، والذي بكل أسف يعدّ ضريبة مستحقة وثمناً للغرور والجهل المتعمّد.

إن الغرور ليس أسوأ ما في الأمر بالنسبة لأميركا وهي تعبئ قواها للتقدم في سبيل قضية الديموقراطية الفورية. فهذا الشرف تحمله العجرفة التي يكملها الجهل. فمنذ الحرب العالمية الثانية أنتجنا على ما يبدو نخبة سياسيّة وإعلاميّة وعسكريّة وأكاديمية واجتماعيّة قادت البلاد بطريقة تظهر معرفة سطحيّة أو قليلاً من الاحترام للتاريخ الأميركي. إن هؤلاء القادة الجهلة ومعظمهم من الذكور حوّلوا أميركا إلى ما وصفه المؤرخ نايال فيرغسون "بالعملاق الذي يعاني من تخلف عقلي"[83] وعندما يتكلم قادة الولايات المتحدة بحماقة وبشكل مقزز عن بناء ديموقراطية في أفغانستان أو العراق أو بورما أو ليبيريا أو روسيا أو السعودية بشكل مشابه لديموقراطيتنا، قائلين إن ذلك يمكن أن يتم بسرعة ودون أن يُكلّف غالياً، فإن ذلك ينمّ عن جهل بالبلاد الأجنبية، وجغرافيتها، وحضاراتها، وتاريخها بالإضافة إلى جهلهم بعقائد

شعوبها الدينيّة وطموحاتهم الدنيويّة. ويضاف إلى هذا جهلهم الرهيب بالصراعات الدامية وإنجازات التاريخ الأميركي التي كلّفت غالياً. وكما قلت أعلاه، فإن هذا الجهل المضاعف سيضعنا على الأرجح في طريق ستؤدي بنا إلى كارثة من صنع يدينا. في أغسطس 2003، حذّر المؤرخ جوشوا ميتشل مواطنيه بشدة من مغبّة تصديق توكيدات قادهم الزائفة بأن الديموقراطية يمكن أن تبنى بكل سهولة في الخارج. وعلى الرغم من قلة من استمع إليه، فإن مناشدته الذكيّة وتقديراته لما سيحدث لاحقاً تستحق الإعادة، خاصة وأن إخفاقاتنا كبناة للديموقراطية قد أصبحت أكثر وضوحاً مع أفول شمس كل يوم ينقضي.

بعد مرور حوالى مئتي وخمسين عاماً على الاستقلال، تقوم السياسة الخارجيّة الأميركيّة في أفغانستان والعراق على فكرة محفورة في العقل الأميركي لدرجة أنها تصعدت لتصبح مرضاً مزمناً، وهي خلع الحكام المستبدين ومن ثم سيجتمع المواطنون والحكام للسعي وراء تحقيق الحرّية التي حرمهم منها الحاكم الطاغية. لقد حدث ذلك في أميركا، ولا بد أن يحدث هذا أيضاً في أماكن أخرى من العالم. وهكذا بدأت حربنا لتحرير العراق من رئيسها الملك جورج الثالث...

لقد فزنا في الحرب في أفغانستان والعراق، لكننا مهددون بأن نخسر ما كسبناه لأن سياستنا الخارجيّة تعاني من متلازمة الملك جورج. فالحرّية ليست طموحاً عالمياً أو تلقائياً. فهناك أحلام أخرى تأسر عقول الشعوب الأخرى في البلاد الأجنبية مثل النظام، والشرف، والولاء القبلي وهو أكثرها شيوعاً ووضوحاً. وبما أن هذه الطموحات الأخرى تحرك هؤلاء الناس بشكل لا يقل قوة عما تعنيه الحرّية بالنسبة لنا، فإننا سنكون عرضة لمفاجأة قاسية عندما يتحول الناس الذين قمنا بتحريرهم لطغاة جدد يمكنهم فرض النظام، ولإرهابيين يموتون في سبيل شرف بلادهم ودفاعاً عن الإسلام، أو لأسياد الحرب القبليّين ذوي العقلية التي لا تفهم إلا فكرة أن الرابح يفوز بكل شيء التي تتناقض تماماً مع مبدأ التعدديّة وسياسة التسامح الديني جوهر الديموقراطية الحديثة...

إن حروبنا التحريريّة ستولد طموحات وآمال لا تحريريّة، وبدلاً من أن نقف والدهشة تعقد ألسنتنا غير مصدقين ما يحدث، كان علينا أن نفكّر ملياً، بحقيقة أن الطغاة الذين نريد خلعهم سيكونون أفضل من حالة الفوضى التي سيعاني منها مبدئياً الشعب المحرّر. وأن الشرف لا يزال في الشرق الأوسط أهم بكثير من الأسواق الحرة والخدمات المتطورة، وأن قرابة الدم تتمتع بأولوية أكبر بكثير من سيادة واستقلالية المواطن[84].

إن المأساة التي قد تنجم عن هذا التكبّر تزداد إمكانية حدوثها، لأنها مغلّفة بالعجرفة الأميركيّة التي نسيت أو - نظراً للتعليم الذي تلقاه الناخبون الشباب في بلدنا - لم تعرف أبداً طبيعة وطول الحروب القاسية والدامية التي خاضها الأميركيون ليصلوا إلى المرحلة الراهنة من حكم نفسهم بنفسهم. إن الديموقراطية الأميركيّة لم تبدأ في جيمستاون عام 1608، ولا في اتحاد المستعمرات الأميركيّة عام 1776 بل بدأت - على وجه التقريب - عام 1215 عندما قام النبلاء الإنجليز بالحدّ من سلطة الملك جون الاستبداديّة في رنيميد. من ذلك الوادي الإنجليزي القروسطي إلى النظام السياسي الأميركي في العام 2003 هناك رحلة امتدت حوالى ثمانية قرون وعبرها تم تحقيق تقدم تدريجي في مجال الحريات الشخصيّة، وضمان الحقوق المدنية، وحكم الشعب نفسه بنفسه واستقلال القضاء، والفصل بين الكنيسة والدولة. إن هذه الإنجازات غير مسبوقة ومذهلة، لكن الطريق الطويلة التي قطعت للوصول إليها لم تكن مفروشة بالزهور والرياحين، بل كانت موصومة بالأحداث، والشخصيّة الدامية والوحشيّة، فضلاً عن الحرب الأهليّة، والنزاعات القضائيّة الطويلة، وأحداث الشغب، والعصيان المدني، والتضحيات بالأرواح الغالية، والغش في الانتخابات، والإعدامات بدون محاكمة، وأحداث عنف عرقيّة، وصدامات بين العمال وأصحاب العمل، وكل أشكال الكراهية والتحيز والتعصب الأعمى. وقد كانت العناية الإلهية أو الحظ السعيد مهما أردتم تسميته، سبباً ساهم في تغلب الأميركيين على هذه العوائق وذلك من خلال العيش في قارة ذات أراضٍ خصبة، ومناخ معتدل، وموارد طبيعية غنية محفوظة بعيداً عن الأحداث المُدمّرة التي تجري في كافة أنحاء العالم، كلها عوامل ساعدتنا على الوصول إلى ما نحن عليه اليوم. كم نحن محظوظون لأننا مثلاً تمكّنا من الاستفادة من حركة الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر دون أن نشارك فيها، وكذلك الأمر بالنسبة لحركة كاثوليك روما التي أتت ردّاً على الحركة السابقة لتحدّ من النفوذ البروتستانتي ومئات من السنين من الحروب الدينية الخطيرة، ولذلك فقد استطعنا أن نكون أمة لم يقتل رجالها بعضهم بعضاً بسبب خلافات حول القضايا الدينيّة.

إن النظام الديموقراطي في أميركا لم يظهر بلمسة من عصا سحريّة، ولم يأت بالتمني. فآباؤنا المؤسسون زرعوا بذوره في إنجلترا أولاً ثم في أميركا الشمالية، وهؤلاء الأبطال هم الذين عبروا بالولايات المتحدة إلى شاطئ الأمان بعد القرون الثمانية التي تحدثت عنها آنفاً، ولم يكن هذا قصراً على "الجيل العظيم" جيل الحرب العالمية الثانية الذي كثر الكلام عنه في الخطاب الشعبي المعاصر لدرجة بلغت حدّ المبالغة. ففي حين ينسب الفضل كله لذلك الجيل الذي يستأثر بالشكر والعرفان، فإن الجهود التي بذلها تضمحل إذا ما قورنت بالتضحيات والجهود التي بذلها أولئك الذين أسسوا الدعائم المتينة التي نستند عليها اليوم بتحديهم ملوك أوروبا المستبدين والكاثوليكيين المؤيدين لسلطة بابا روما وسياساته، وبإلحاق الهزيمة بالإمبراطورية البريطانية التي لم يكن أحد قادراً على الوقوف بوجهها إلا الرب وحده، وذلك على حدّ تعبير الدكتور فرانكلين. قد يكون أكثر من ندين لهم بالعرفان هم أولئك الذين وقفوا في وجه بعضهم واقتتلوا في أكثر من خمسمئة معركة بين عامي 1861 و1865 كي يؤمنوا للأجيال التي ستأتي بعدهم بلداً حراً وموحّداً ليدافعوا عنه، ويحموه، ويتمتعوا بالحياة فيه بأمان واستقرار.

إن الشعب الأميركي يتمتع بإرث حضاري يجب أن يفتخر به، إرث يستحق أن يبذل من أجله أرواح أولاده رخيصة. إلا أنه لا يمكن أن يلخص ويحفظ في أسطوانة مدمجة بكل ما فيه من تجارب، وخبرات، وأبطال، وحروب، وفضائح، وتضحيات، وانتصارات، وأخطاء، وأوغاد ومن ثم يعطى لغير الأميركيين مع توقّع أنهم سيصبحون مثلنا بسرعة ودون دفع أي ثمن يذكر. إن هذا ليس إلا وهماً اختلقه الخيال عن صورة للطريقة التي يجب أن يعيش ويعمل بموجبها جميع شعوب العالم. والأسوأ من ذلك، أن هذا الوهم يدل على جهل مدقع بأميركا، جهل يسخر ويسفه أولئك الذين قاتلوا وماتوا وهم يقاومون السلطات، والكنائس الاستبدادية، والانفصال، والحكم الأجنبي، والعبودية، والتمييز العنصري، والتعصب، واتحاد الكنيسة والدولة، وألف قضية غيرها أريقت من أجلها الدماء لدفع عملية الإصلاحات السياسية التدريجيّة وتحسين الديموقراطية الأميركيّة لتصل إلى الشكل المثالي الذي لم يكتمل حتى الآن.

ولهذا، فعلى الأميركيين الذين يتصدون اليوم لبن لادن والمقاومة الإسلاميّة المسلحة، أن يدركوا أن حل هذا الصراع لا يكمن أبداً في عملية سهلة تحوّل العالم الإسلامي إلى نظام ديموقراطي ضمن سياق التجربة الغربيّة. وهذا لا يعني مطلقاً أن المسلمين أو غيرهم من الشعوب غير قادرين على تشكيل حكومة ديموقراطية، على الرغم من أن هناك عدم توافق واضح بين الديموقراطية الأميركيّة اليوم والمجتمع الإسلامي المعاصر، بين عالم ينفصل فيه قيصر عن الرب وعالم فيه الرب وقيصر هما الشيء ذاته. وكما حدّد هذه المشكلة باتريك جي. رايان بكلمات موجزة بسيطة في مجلة *أميركا* "إن مملكة المسيح لا وجود لها في هذا العالم"، بينما "خلق دولة مثاليّة على أرض الواقع هو جوهر الإسلام... فالإسلام يجب أن ينجح [على الأرض] من النواحي الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وإلا فإن أصوله المقدّسة ستكون عرضة للشك"[85]. وقد تمت المصادقة على تحليل رايان في الموضوع الذي كتبه سيف الأنصاري في صحيفة القاعدة الإلكترونية *الأنصار*. حيث جاء فيه: "إن الجهاد هو مسألة محتومة في المجتمع الإسلامي عندما يتقدم بشكل جدّي لإقامة هذه الدولة [الإسلاميّة]. وهذه الدولة، إذا لم يكن أساسها دين الإسلام فلا يمكنها أن تقوم، هي تحقيق للخلافة التي وعدها الله لأحبائه المؤمنين"[86] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وسواء كانت هناك إمكانية لتحقيق ديموقراطية إسلاميّة أم لا، فإن علينا أن ندرك أن تجربتنا التاريخيّة والمجتمع الذي تمخّضت عنه يخصاننا نحن فقط. وبينما يمكن لأميركا بل ويجب عليها أن "تتمنى الخير لكل من يسعى للحرّية والاستقلال". كما قال الوزير آدامز عام 1821، فإنها يجب أن تفعل هذا فقط في حدود "تشجيع قضية [الحرّية] العادلة لكل الشعوب وتضم صوتها لهم وتظهر تعاطفها معهم نظراً لمرورها بمثل ظروفهم". إن تجاوز هذه الحدود يعني محاولة تحقيق المستحيل وغير المطلوب، كما يعني تجاهل الطريق القاسيّة التي قطعتها أميركا والتي أريقت على جوانبها الدماء، واستخدام القوة لفرض نظام حكومي واجتماعي على شعوب أشارت كل الدلائل أنها لا تريده وأنها ستحاربه وتقاومه. وعلى الرغم من عظمة وقوة أميركا العسكرية، فإننا لا نمتلك السلطة لنفعل ما أشار به مرة الدموي وودرو

ويلسون صاحب الخيال الواسع، وهو أن نجعل الأجانب ينتخبون من تقرر أميركا أهم رجال مناسبون وجيدون. وبدلاً من تأسيس إمبراطورية تقوم على سياسة القوة الاستبداديّة والوحشيّة التي استخدمتها الإمبراطورية الرومانيّة - النموذج المفضّل لدى نخبتنا مما يثبت بالدليل القاطع جهلهم بالطريقة والسبب اللذين أوصلا أميركا إلى ما هي عليه اليوم - فعلى الأميركيين أن يقوموا بخطوات متأنيّة بصبر وهدوء وتواضع نظراً لما ورثناه من غنى وحرّية. ويجب أن نكتفي ونتشرف بالقيام بدور "التشجيع والتأييد والدعوة" للحرّية التي نتمتع بها - لإلحاق الهزيمة بن لادن والمقاومة الإسلاميّة المسلحة التي يقودها، علينا أولا ألا نطمح لإصلاح وتعديل سياسات العالم باسم الديموقراطية وفي هيئة ناظرة المدرسة الويلسونية - نسبة إلى ويلسون - ذات البشرة البيضاء التي تهدّد الأولاد بالعصا وتروّعهم وتنذرهم بالضرب إذا لم يطيعوا أوامرها. وقد يكون أهم ما يتوجب علينا فعله، هو التوقف عن حماية الحكام الأجانب المستبدين الطغاة والحكومات الملكيّة المطلقة - وخاصة في بلدان العالم الإسلامي. إن سجلّ واشنطن في الخمسين سنة الماضية حافل بتقديم الحماية والدعم للأنظمة الاستبدادية مما يكذّب أي ادعاء بالنسبة للمسلمين عن نيتنا ومحاولاتنا الهادفة لبناء الأنظمة الديموقراطية. إن الخلاف حول مصداقيتنا الناجم عن تفضيل أميركا الواضح لأي طاغية مسلم يحافظ على الأمن والاستقرار الداخلي، والسلام مع إسرائيل وأسعار النفط المنخفضة يقضي على أي إمكانية قد نمتلكها لبناء الديموقراطية. وعندما حذر الوزير آدامز من عواقب مغامرات بناء الديموقراطية في الدول الأجنبية، لم يكن ليتخيل أبداً أن الولايات المتحدة ستكون عام 2004 متورطة في الدفاع عن عدة قيادات استبداديّة أجنبيّة ضد مواطنيهم. "إن أميركا تؤيد القمع والظلم دون أي تفكير في العواقب لأننا نرى خطوط الخريطة مألوفة ومناسبة لنا"، هذا بعض ما كتبه الصادق دوماً بشكل مؤلم رالف بيترز. "لا بد أن أرواح القياصرة والملوك والأباطرة ترقص طرباً في جهنم... إننا لم نحظ بالاحترام كما أننا مكروهون بسبب نفاقنا وفشلنا. ونحن ندنّس تاريخنا وتراثنا ونسيء إليه كل يوم"[87]. وعندما يكفّ قادة الولايات المتحدة عن الاعتقاد والتصريح بأن بن لادن وحلفاءه يهاجموننا بسبب طريقة حياتنا وأسلوب تفكيرنا،

ويقولون بوضوح أنهم يهاجموننا بسبب ما نفعله، عندئذ فقط يمكننا أن نتخلى عن حملتنا الخياليّة المتهورة الهادفة إلى الديموقراطية – وهي الكلمة التي نكرّرها دائماً. عندئذ يمكن أن يبدأ الأميركيون بمناقشة الطريقة المثلى بشكل عقلاني لإلحاق الهزيمة بهذا الخطر الجسيم الذي يتهدد أمننا القومي، أو بشكل أصح، بمناقشة ما إذا كانت السياسات الخارجيّة الراهنة للولايات المتحدة إزاء العالم الإسلامي تأتي بفائدة كافية لأميركا، بشكل يعوّضها عن المستويات المتزايدة من الخسائر البشريّة والاقتصاديّة التي ستكون ثمناً لعدم تغيير السياسات.

وأعتقد أن النصر يكمن في مزيج لم تحدد طبيعته بعد بين عمليات عسكريّة أقوى وتغيير جذري في السياسة الخارجيّة، وسوية يمكنهما إحراز هذا النصر. وأخشى أن الهزيمة التي قد تمنى بها أميركا تكمن في الاستمرار في السياسات العسكريّة والخارجيّة الراهنة، والاعتقاد الخاطئ بأن أعداءنا المسلمين سيقتنعون بكلامنا ويكفّون عن كراهيتنا ومعاداتنا إذا تمكنا فقط من تعليمهم أصول سير العمليات الانتخابيّة، والتعدديّة السياسيّة، والحزبيّة، وتحرير المرأة، وفصل الدين عن الدولة. وقد أشار رالف بيترز بحكمته المعهودة على صنّاع السياسات الأميركيّة: "لا تهدروا الجهود الجبارة في محاولة كسب عقول وقلوب لا يمكن كسبها إلى جانبكم، بل أقنعوا الشعوب المعادية بتحقيق الفوز عليهم"[88]. وأنا أشير أيضاً أن ذلك يمكن أن يتم بإعادة النظر في تلك السياسات التي تعرّض اليوم أمننا القومي للخطر ولا تترك أمامنا إلا الخيار العسكري.



7

عندما يكون مسرح المعارك من إعداد العدو: كيف يساعد غباء أميركا العنيد خصومها

إن الاستهانة بقوة، ومشاعر، ودهاء العدو هي أخطاء قاتلة في الحرب.

الجنرال دبليو. تي. شيرمان، 1861[1].

إن أفضل طريقة للحكم على خصومنا هي النظر من وجهة نظرهم، لا من وجهة نظرنا.

روبرت إي. لي. سي. 1865[2].

إن أي محاولة تهدف إلى جعل الحرب سهلة وآمنة ستنتهي بذل وكارثة.

الجنرال دبليو. تي. شيرمان، 1875[3].

في بعض الأحيان، عندما تكون معظم أوراق اللعب التي أعطيت لك أوراقاً رابحة، تجتمع الأقدار التي لا يمكنك التحكم بها - أو حتى التأثير فيها - لتدفعك إلى الأمام قدماً. هذه الأوقات لا تدوم طويلاً في أغلب الأحيان، إلا أن أسامة بن لادن والقاعدة قد تمتّعا بأوقات كهذه منذ نصرهم الساحق والذي لا تزال أصداؤه تتردد منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 وحتى اليوم. إن هذه السرنديبيّة (موهبة اكتشاف الأشياء النفيسة بالصدفة) تبدو صحيحة، حيث إن قدر بن لادن وقضيته ليس في النهاية بيده وحده. فكما كرّر منذ العام 1996، أن استمرار الإسلام والعالم الإسلامي هو إن شاء الله بيد كل مسلم وهو مسؤولية كل مسلم، فالإسلام

كما يدّعي بن لادن يتعرض للهجوم من قبل الصليبيين المسيحيين واليهود الذين تقودهم الولايات المتحدة، ولهذا فعلى كل مسلم بموجب ما أمره به دينه أن يشارك في جهاد دفاعي. وقد قال بن لادن منذ زمن أن دوره الأساسي في هذا الجهاد يتمحور حول الدعوة والحث على الجهاد - من خلال خطاباته، وخطابات قياديه، وعمليات القاعدة - التي تدفع المسلمين إلى القيام بواجبهم الذي فرضه الله عليهم في القرآن الكريم، وسنّة رسوله (ص) من أقوال وأفعال.

ومع ذلك، فبن لادن أعدّ القاعدة بشكل يمكّنها من استغلال أي فرصة مؤاتية للقيام بعملياتها. فقد ركّز في خطاباته بذكاء على كل الأمور التي تهمّ المسلمين وتعنيهم بشكل مباشر، والتي تصبّ في الوقت ذاته في خدمة هدفه الأساسي وهو إبعاد الولايات المتحدة عن الشرق الأوسط والعالم الإسلامي كله. إن أهداف بن لادن الخارجيّة، إن صحّ التعبير، هي ستة يمكن تلخيصها ببساطة بما يلي: أولاً، وقف كافة المساعدات التي تقدّمها الولايات المتحدة لإسرائيل والقضاء على الدولة اليهودية بالكامل، وفي مقابل ذلك إقامة دولة فلسطينية إسلاميّة مكانها. ثانياً، انسحاب كافة القوات العسكرية الغربيّة والأميركيّة من شبه الجزيرة العربية - حيث إن نقل معظم الوحدات العسكرية من السعودية إلى قطر هو خدعة لم تنطلِ على أي مسلم ولن تفي بالغرض - ومن كافة البلاد الإسلاميّة. ثالثاً، إنهاء أي شكل من أشكال التدخل الأميركي في شؤون العراق وأفغانستان. رابعاً، وقف التأييد الأميركي لقمع المسلمين الذي تمارسه كل من حكومات الصين، وروسيا، والهند، وغيرها. خامساً، إعادة سيطرة المسلمين بشكل كامل على مصادر الطاقة في العالم الإسلامي والعودة إلى أسعار السوق، والكف عن إفقار المسلمين وسلبهم ثرواتهم والامتناع عن التدخل في تحديد أسعار النفط التي تحددها الأنظمة العربية بغية استرضاء الغرب. سادساً، استبدال الأنظمة الإسلاميّة التي تحميها الولايات المتحدة والتي لا تحكم البلاد طبقاً لقوانين الشريعة الإسلاميّة بأخرى تفعل ذلك. وبالنسبة لبن لادن فإن أفغانستان تحت قيادة الملا عمر هي البلد الوحيد الذي كان مطابقاً للمواصفات التي حدّدها بن لادن، أما الأنظمة الإسلاميّة الأخرى فعليها أن تنتظر دورها ليتم القضاء عليها بشكلٍ كامل.

وبقيام بن لادن بتحديد هذه الأولويات المتعلقة بالسياسات الخارجية، فقد أعطى أتباعه وكل المسلمين أهدافاً ملموسة يمكنهم قياس التقدم الذي يحرزونه من خلالها بالإضافة إلى مسرح يتمتع بنفس الأهمّية للسياسات الأميركيّة الخارجية إزاء العالم الإسلامي. إنه لا يقوم بالتأكيد على تفوق الإسلام وإدانة أميركا والغرب لحالة الانحطاط، والفسق، والعلمانية التي وصلوا إليها كما فعل آية الله الخميني. كما أنه لم يتبنَّ الطموح الغبي الذي يهدف إلى الاستبدال – أي أمركة هذا أو أسلمة ذاك – الذي تتّبعه الإدارة الأميركيّة الحالية. فهو لم يطالب الأميركيين بإعادة النظر في مناهجهم المدرسيّة ومقرراتهم التعليمية مثلاً وتعديلها لتتماشى مع المعايير القرآنيّة وأن تذهب كل التبرعات الخيرية التي يقدمها الأميركيين إلى الجماعات التي توافق عليها القاعدة فقط أو أن يعاد توحيد الكنيسة والدولة في الغرب. بالمختصر لا يطالب بن لادن وجماعته أميركا بأن تصبح دولة إسلاميّة.

وعوضاً عن ذلك، فبن لادن ذكّر المسلمين بأن الله قد أظهر أن مكانة الإسلام تعلو فوق كافة الأديان، كما وجّه أنظارهم إلى ستة مظاهر محدّدة لاعتداءات الصليبيين على دينهم وعليهم في الوقت ذاته. وعلى الرغم من أن العديد من المسلمين أيدوا آية الله الخميني، ولا يزالون حتى اليوم يتفقون مع أقواله حول الانحطاط الديني والأخلاقي في الغرب، فالقليل منهم انضموا إلى دعوته للجهاد، وضّحوا بحياتهم كي يوقفوا الأميركيين عن تخمير الجعة، وصناعة الأفلام الخلاعية، وشراء كتب سلمان رشدي. لقد كانت خطابات الخميني مليئة بالكراهية، والحقد، والسخط إلا أنها لم تحرض إلا إلى حدوث معارك محدودة جداً ضد الشيطان الأكبر. وقد كتبت الصحافيّة والكاتبة جنيف عبدو في هذا السياق: "لقد نجح بن لادن في تحقيق ما فشل فيه الخميني، فقد تمكن من تصدير أفكاره الثوريّة إلى كافة أنحاء العالم الإسلامي. ومع أن هذا كان حلم الخميني، فإن قراءته الأصولية للدين لم تتجاوز أبداً جنوب لبنان، وبعض المناطق القليلة التي يسيطر عليها أقرانه من الشيعة"[4]. إنني أعتقد أن برنارد لويس كان مخطئاً في مساواته بين بن لادن والخميني من حيث الدوافع والشعبية – التي يبدو أنه طرحها في مقال جيد بعنوان 'مستهدفون من تاريخ طويل من الكراهية'[5] – لقد قدّم لويس وصفاً دقيقاً للفرق

الذي رآه بين القائدين الإسلاميين، وهو فرق يتعلق في معظمه بالنجاح الذي حقّقه بن لادن والفشل الذي مني به الخميني. وقد جاء في هذا المقال الذي نشر في صحيفة وال ستريت *Wall Street Journal*:

"إن السؤال الأهم، الذي لم يطرح كثيراً هو ما السبب وراء الاحتقار الذي يكنه لنا الإسلاميون؟ إن السبب الأساسي لهذا الاحتقار هو الانحلال الأخلاقي وحالة الفجور التي تطبع طريقة الحياة الأميركيّة - وهو سبب تافه لكنه خطير بسبب تأثيره على المجتمعات الإسلاميّة. فما الذي كان آية الله الخميني يعنيه عندما كان يطلق على أميركا في كافة المناسبات اسم "الشيطان الأكبر"؟ الإجابة واضحة. إن الشيطان ليس محتلاً غازياً، ولا إمبريالياً، ولا مستغلاً. إنه الغاوي والمضلّل والذي بحسب ما جاء في القرآن "يوسوس في صدور الناس"[6].

بما أن بن لادن يؤمن بأن الولايات المتحدة هي "عدو محتل، وإمبريالي، ومستغل" وبما أنه نجح في تصويرها على هذا الشكل، فإن خطابه أحدث أثراً كبيراً في تحريك المشاعر المعادية للأميركيين عند الناس تجاوز إلى حدٍّ كبير الأثر الذي أحدثته خطابات آية الله الخميني. فضلاً عن أن بن لادن ينتمي إلى الأغلبية العظمى السنية في العالم الإسلامي - كما أنه من السلفيين، الجماعة السنية الأسرع نمواً والأكثر محافظة وميلاً إلى الطرق العسكرية والحربية - وليس من الأقلية الشيعية مثل الخميني. كما أنه رفض بشدة اللجوء إلى أسلوب آية الله الخميني في إدانة المجتمع الغربي وركّز على ست قضايا محددة تمس المسلمين، وتتمتع بإجماع كامل على صحتها في كافة أوساط المسلمين على اختلاف انتماءاتهم السياسية والعقائدية من الليبراليين إلى جماعات المقاومة المسلحة. فمعظم المسلمين يحبذون أن يروا أرض النبي (ص) وقد خلت من غير المسلمين، الكفرة الذين ووفقاً لما ينسب للنبي محمد (ص)، وهو على فراش الموت، ليس لهم مكان في أرض شبه الجزيرة العربية. وكذلك بالإضافة إلى أن الغالبية العظمى منهم تتمنى القضاء على إسرائيل لتقوم مكانها دولة إسلاميّة فلسطينيّة. كما أن الغالبية العظمى منهم تؤيد الحصول على أرباح أكبر من عائدات النفط والغاز الطبيعي الذي تنتجه البلاد الإسلاميّة لاستخدامها في تحسين مستوى معيشة المسلمين. وعلاوة على ذلك فإن قلة من المسلمين قد تعارض إسقاط مجموعة من الحكومات المرتدّة التي تعدّ من أكثر

الحكومات في العالم قمعاً، وفساداً، ونفاقاً، وتلك التي يتوارث الحكم فيها عائلات تستأثر بعائدات النفط لملذاتها، وفسقها، وفجورها، وتشتري بها ولاء مديري البنوك، ورجال الأعمال، والعلماء في بلادها. وأخيراً فإن القمع الذي يتعرض له أتباع الاسلام خارج حدود البلاد العربية - في كشمير، والشيشان، والهند، وكزينجيانغ - أصبح قضية تدخل في صلب حياة المسلمين وذلك بفضل خطابات بن لادن، حتى إنها أصبحت الآن من القضايا التي تتمتع بحضور كبير في محطات التلفزة الفضائيّة التي يمتلكها المسلمون. لقد أصبحت الأهداف الستة للسياسة الخارجية التي وضعها بن لادن أهدافاً يسعى لتحقيقها معظم المسلمين في العالم خاصة وأن بن لادن قد ربطها بالفكرة الإيجابيّة بأن الله وعد المسلمين بالنصر، إذا ما سلكوا طريق الجهاد الذي أمرَ به والذي وضّحه رسوله (ص) ودعا إليه.

يبحث هذا الفصل في كيفية ارتداد قرارات الولايات المتحدة، وتقديراتها، وأفعالها لمصلحة بن لادن بسبب البيئة التي أنتجها في العالم الإسلامي. وسيرى القارئ أنه بينما تركّز واشنطن بشكل محدود على القضاء على بن لادن والقاعدة من خلال "الحرب العالمية على الإرهاب"، فإن سياسات الولايات المتحدة التي خصّها بن لادن في أهداف سياسته الخارجية، تقوم في الحقيقة بمعظم العمل نيابة عنه. فكما ذكرت آنفاً، يطمح بن لادن لأن يكون الملهم الأول في العالم الإسلامي الذي يدعو المسلمين إلى الجهاد. وهي مهمة صعبة، حتى بالنسبة لرجل مثله، لكن السياسات الأميركيّة الراهنة إزاء القضايا الست التي تحدّث عنها بن لادن، تقدّم له مساعدة مستمرة ولا تقدّر بثمن في محاولاته للتحريض على جهاد دفاعي يشارك فيه جميع مسلمي العالم ضد الولايات المتحدة.

العراق: الهدية التي تمنّاها بن لادن لكنه لم يتوقّعها أبداً

والآن، حان الوقت لسؤالٍ في فئة اختبار القدرة على التحليل الحضاري: لماذا يعتبر عراق اليوم هدية الميلاد التي لطالما تمنيتها دون أن تتوقع أبداً أن تتلقاها؟ هل أُعييت حيلة؟ حسناً، ليس ثمة شيء تمنّاه بن لادن أكثر من الغزو الأميركي على العراق واحتلاله. إن غزو الولايات المتحدة للعراق هو هدية أميركا لأسامة بن

لادن، هدية لطالما تمنى الحصول عليها، لكنه في قرارة نفسه لم يتوقعها على الإطلاق. فكّر بهذا الأمر للحظة: إن العراق هو ثاني أقدس أرض في الإسلام - إنها المكان الذي تعرّض فيه المسلمون للقمع والظلم على يد صدام - إنها المكان الذي تحكمت فيه الأقلية السنيّة لزمن طويل بالأكثرية الشيعيّة وألحقت بها الأذى، حيث كان يتم فرض الأمن بقوة ووحشيّة البعثيين، القوة التي أرجأت وقوع حرب أهلية كانت ستحدث منذ وقت طويل، والمكان الذي ستتدخل فيه القوى الكبرى في المنطقة السعوديّة وإيران على الأقل بشكل سرّي إبان سقوط صدام ونظامه، وذلك لمنع تشكيل حكومة شيعيّة أو سنيّة بالترتيب تخلف النظام القديم. بالمختصر إن العراق بدون صدام يصبح دون شك ما يطلق عليه الخبراء السياسيون اسم "دولة فاشلة" أي مرتع للمشاكل المستمرة بالنسبة للدول المجاورة - وكما هي الحال في أفغانستان - بلد قد تنمو وتزدهر فيه منظمات مثل القاعدة ومثيلاتها. لذا فبن لادن فكّر أن الولايات المتحدة لا يمكن أن تتسبب بوضع كهذا. لأنه إذا حصل ذلك، فسيكون الأمر كما لو أن المرء يطلق النار على رجله عن عمد.

وبينما كان بن لادن يأمل ويتمنى وهو يعرف أن أمانيه لا يمكنها التحقق، فكّر ملياً بأن الولايات المتحدة لا بد وأن تكون على علم بأن ملايين المسلمين يضمرون لها الحقد والكراهية، لأنها أنزلت بالعراق عقوبات اقتصاديّة تسببت بموت أكثر من مليون عراقي جوعاً بحسب ما جاء في التقارير الدولية. وفي هذا السياق فإن قيامها بغزو العراق من شأنه تعميق مشاعر الكراهيّة لكل ما هو أميركي في العالم الإسلامي، وهذه الكراهيّة ستتضاعف لتصبح أسوأ من أي وقت مضى، بينما يشاهد المسلمون البث التليفزيوني لقوات الولايات المتحدة وهي تلحق الهزيمة بجيش صدام المتداعي وقواته المسلحة وهي تقف عاجزة أمام آلة الحرب الأميركيّة. ومن ثم، استمر بن لادن في شطحات خياله، ستسوء الأمور بالنسبة للأميركيين حيث إنهم سيمكثون لفترة طويلة في العراق وسيصرّون على فرض ديموقراطية ستخضع السُنة الذين كانوا يمسكون بزمام الحكم منذ زمن طويل، وسيحدّون لأقصى الدرجات من دور الإسلام في الحكومة، وسيتصرفون بطريقة ستلقي الضوء على تكالبهم على الاحتياطي الهائل من نفط العراق، وسيرى المسلمون يومياً على

شاشات التليفزيون أن الولايات المتحدة تحتل بلداً إسلامياً، وتصرّ على فرض القوانين التي وضعها المشرّعون، بدلاً من قوانين الشريعة الإسلاميّة، وتسرق نفط العراق، وتمهّد الطريق لإقامة "إسرائيل الكبرى". وعندئذ، سيقوم العلماء ورجال الدين بالدعوة إلى جهاد دفاعي ضد الولايات المتحدة، وسيهرع المسلمون الشباب من كافة أنحاء العالم الإسلامي لمحاربة القوات الأميركيّة وهناك - في ثاني أقدس بلد إسلامي - ستتفجر الأوضاع ويتحول العراق إلى أفغانستان ثانية، وستندلع حرب مقدسة بوجود القاعدة أو عدمه. ثم استفاق بن لادن من نومه وعرف أن ذلك لم يكن إلا حلماً جميلاً. حيث إن ذلك حتى بالنسبة لرجل كرّس حياته لله أملاً بعيد المنال.

لكن في مارس عام 2003 تلقى بن لادن بدهشة شديدة هديته التي لطالما حلم بها، مذيّلة بتوقيع من أميركا مع الحب... وذلك عندما غزت الولايات المتحدة العراق. أما الفتاوى التي كانت في استقبال الغزو، فقد أثبتت بشكل أساسي كل ما قاله بن لادن في تأكيده على ضرورة الجهاد الدفاعي ضد الولايات المتحدة. حتى إذا تغاضينا عن الفتاوى التي صدرت عن رجال دين يؤيدون بن لادن، فإن وضوح الفتاوى الأخرى يظهر في ما نشره علماء بارزون كالشيخ سيد طنطاوي، والشيخ يوسف قرضاوي، والشيخ سلمان العودة وهم جميعاً "أصوات تلقى آذاناً صاغية في العالم الإسلامي حيث إنهم جوهر المؤسسة الإسلاميّة السنيّة" على حدّ تعبير الأستاذ دانييل بايمان[7].

وقد أعلن الشيخ طنطاوي رئيس جامعة الأزهر في مارس عام 2003: **"عندما يحتل عدو ما أرضاً للمسلمين، فإن الجهاد يصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة. لأن أمتنا العربيّة والإسلاميّة ستكون عندها في مواجهة حملة صليبيّة جديدة تستهدف أرضنا وشرفنا وديننا ووطننا، وقد أفتى العلماء بأن الجهاد ضد قوات الولايات المتحدة قد أصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة"**[8]. (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) وفي النهاية، جاء غزو العراق ببهجة وفرح حل على بن لادن كهدية من السماء إلا أن هذه الهدية التي قدّمتها له واشنطن على طبق من فضة، ستطارد الأميركيين، وتؤذيهم، وتعذّبهم لسنوات طويلة قادمة.

انتحار اصطلاحي: محاربة الإرهابيين هي في الحقيقة التصدي لجماعات المقاومة المسلحة!

بُعَيد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، كان من المستحيل أن يتصوّر أي كان أن شنّ حرب على القاعدة يمكنه أن ينتهي بكارثة على الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن حلفاءنا الأوروبيين وأصدقاءنا المسلمين المعروفين - "الذين تمامس بعضهم أن أميركا هي التي جنت على نفسها وكانت السبب وراء تلك الاعتداءات"[9] - على حدّ تعبير مايكل إغناتيف، على الرغم من أنهم لم يكونوا يحبّذون أن تلجأ الولايات المتحدة لاستخدام قوتها العسكريّة الجبارة، فهم لم يجرؤوا على الاعتراض على ذلك في الوقت الذي كانت فيه قناة السي. أن. أن CNN لا تزال تعرض الأميركيين وهم يقفزون من نوافذ مركز التجارة العالمية ليواجهوا موتهم المحتم. وهكذا حشدت أميركا قواتها وتحركت لتشنّ حرباً عقيمة في أفغانستان (راجع الفصل الثاني) وبدأت فعلاً بتوسيع حربها على الإرهاب لتشمل بلاداً أخرى كاليمن وجورجيا والصومال والعراق والفليبين، بينما انشغل المسؤولون البارزون في وزارة الدفاع في تحيّن الفرصة المؤاتية لتضييق الخناق على صدام. وبعد أكثر من سنتين، نشطت الحرب على الإرهاب وأخذت أبعاداً أكبر بكثير من الهدف الأساسي الذي قامت من أجله وهو القضاء على القاعدة بسبب الهجمات التي شنّتها على أميركا في الحادي عشر من سبتمبر - وهو هدف لم يتحقق بالطبع حتى الآن. ولا تزال لدينا قوة بسيطة في أفغانستان تحارب اليوم بشكل دفاعي لا هجومي، والمشاكل التي نطلق عليها اسم الإرهاب في البلاد الآنفة الذكر آخذة بالتفاقم، لقد شنّت أميركا حرباً عقيمة ثانية على العراق أدت إلى ظهور حركة مقاومة إسلاميّة مسلّحة تزداد قوة وحدة يوماً بعد يوم. وما بدأ كحرب لم تلقَ أي معارضة تقريباً تحوّل اليوم إلى حملة عسكريّة غير محددة، ونهايتها غير معروفة، ولم تحقّق أي نجاح للولايات المتحدة. أضف إلى ذلك أن عديدين يرون اليوم أنها تقوم على فكرة أن أي نشاط أو تصريح ينضوي على معارضة للولايات المتحدة يعتبر إرهاباً، كما أنها أصبحت حرباً لم تعد تلقى أي تأييد يذكر خارج نطاق الدول الناطقة بالإنجليزية. وقد وصف ريتشارد دوكيتر

هذا الوضع بدقة في مقال كتبه في صحيفة *الغارديان* *The Guardian* في أوائل عام 2003 جاء فيه: "لم يكن لأسامة بن لادن أن يتوقع ما حدث حتى في أقصى أحلامه، فبعد مرور ثمانية عشر شهراً فقط على تسبّبه بمنح الولايات المتحدة أكبر تعاطف عالمي شهدته منذ حادثة بيرل هاربر، تراجع التأييد والدعم الذي حصلت عليه من كل أقطار الأرض وتدنت مستوياته لتصل إلى الحضيض"[10]. وحتى تاريخ كتابة هذا البحث فشلت الحرب على الإرهاب في إلحاق الهزيمة بالعدو الأساسي، وابتعدت عن المصالح القوميّة في خضمّ مساعيها الراميّة إلى دمقرطة وعلمنة الإسلام، كما أنها ولّدت أعداء وخصوماً بشكل أسرع ممّا لو أننا قمنا بقتلهم أو قمعهم.

ولأسباب تتوافق بشكل تام مع اتجاهات السياسة الخارجيّة للولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين، تأخرنا في التحرك ضد القاعدة بزعامة أسامة بن لادن وطالبان بزعامة الملا عمر حتى كبرت كلا المنظمتين - الأولى من حيث انتشارها الواسع ووجودها في كل أنحاء العالم، والثانية من حيث إنها أصبحت نظام حكم متماسك وله قاعدة شعبية واسعة - لدرجة أن عملية عسكرية واحدة مكثّفة يقوم بها الجيش الأميركي لم تعد كافية للقضاء عليهما. لقد أخفقنا وهدرنا وقتاً ثميناً لأن قادتنا، ومحلّليهم، ومحقّقيهم أخطأوا في تقييم طبيعة هذا الخطر، ورفضوا أن يتفهّموا انتقال مشكلة الإرهاب من حالة العصابات التي تدعمها الدول والهيئات إلى حركات المقاومة الإسلاميّة المسلحة. وأودّ أن أؤكد حقيقة أننا لم نفكر في هذه النقلة النوعية ملياً - من الأذى المدمّر إلى الخطر الذي يتهدد أمننا القومي - لأننا ارتعنا من هول الاعتداءات التي ظهرت على التلفاز، تلك الاعتداءات التي سبّبت خسائر ماديّة وبشريّة قليلة نسبياً، لكنها سبّبت الإرباك لحكومات كثيرة وقدّمت قصصاً عن خسائر فردية أثارت المشاعر عندما عرضتها وسائل الإعلام وأسفرت عن موجات قصيرة المدى من الغضب العام. لقد كانت أنظارنا معلّقة بوميض الكاميرات التي كانت تلتقط ما خلّفته تلك الكارثة، والجلبة التي أسفرت عنها الاعتداءات، إن صح التعبير. ولم ننتظر بعض الوقت لنبحث قليلاً في أي نشرة صدرت أو دراسة كانت لتوضح ما انتهى إليه اليوم المدرّبون العسكريون

الأميركيون وهو أن النظام في ما يدعى بمعسكرات تدريب الإرهابيين كان توجّهه الرئيسي نحو إعداد العدة لخوض معارك حربيّة.

وبين عامي 1975 و2001، كانت معظم الإدارات الأميركيّة – باستثناء إدارة الرئيس ريغان ومدير الاستخبارات المركزيّة CIA في عهده ويليام جي. كيسي، رحمهما الله – تتوعّد وتتبجّح بصخب أنها ستحارب الإرهاب بكل ما أوتيت من قوة عندما تحدث اعتداءات على الولايات المتحدة، لكنها تقع في صمت طويل، وحالة من الكسل، عندما يزول الألم المؤقت وتمرّ عاصفة الإعلام المدويّة. حتى إنه مع اقتراب نهاية هذه الفترة قام الرئيس بتعيين مسؤول خاص بقضايا الإرهاب – أي "مسؤول عن التبجح والوعيد" – لإبعاد الإعلام عن الرئيس وإعطاء انطباع خاصة بعد التعرّض للاعتداءات بأن واشنطن لديها خطة فعّالة لمكافحة الإرهاب. ولم ينجم عن طريقة العمل هذه، التي تعتمد على تأجيل ردّ الفعل إلى حين وقوع الكارثة، تدفّق مستمر للمعلومات السرّية أو تطبيقات عملية للأفكار المطروحة. وعلاوة على ذلك فقد كانت الاعتداءات الإرهابيّة عشوائيّة، ولهذا فإننا لم نكن أبداً مستعدين – على ما يبدو – للردّ بأية طريقة إلا اللهم بوعد وليد اللحظة من الإدارة بأن مكتب التحقيقات الفدرالية FBI سيقبض على المجرمين الذين ارتكبوا تلك الأفعال الشنيعة، وسيتم تقديمهم للعدالة، كما لو أن الاعتداءات كانت تحدياً لنظامنا القضائي الداخلي.

كما أن ما يكبل الإجراءات والتدابير المتخذة لمكافحة الإرهاب (وأنا أقول هذا اعتماداً على معلومات استقيتها مباشرة من المصادر الأساسيّة) هو حقيقة مؤسفة مؤداها أن أرواح المواطنين الأميركيين ليس لها أي قيمة، مقارنة باهتمام المسؤولين في الولايات المتحدة بآراء وردود فعل الحكومات الأجنبية – والأوروبية منها بشكل خاص – والمؤسسات الدوليّة، أو ما يطلق عليه مدراء أجهزة الاستخبارات اسم "اختبار الضحك للواشنطن بوست" – وهو مقياس الخوف الرهيب الذي يعتري المسؤولين البارزين في الولايات المتحدة عندما تلوح في الأفق بوادر إخفاق قرار سياسي هام، ويصبح مثار انتقادات صحيفة مثل *الواشنطن* بوست أو غيرها من عمالقة الإعلام، ويؤدي إلى تأخير جديد في صعود سلم

الأميركيون وهو أن النظام في ما يدعى بمعسكرات تدريب الإرهابيين كان توجّهه الرئيسي نحو إعداد العدة لخوض معارك حربيّة.

وبين عامي 1975 و2001، كانت معظم الإدارات الأميركيّة - باستثناء إدارة الرئيس ريغان ومدير الاستخبارات المركزيّة CIA في عهده ويليام جي. كيسي، رحمهما الله - تتوعّد وتتبجّح بصخب أنها ستحارب الإرهاب بكل ما أوتيت من قوة عندما تحدث اعتداءات على الولايات المتحدة، لكنها تقع في صمت طويل، وحالة من الكسل، عندما يزول الألم المؤقت وتمرّ عاصفة الإعلام المدويّة. حتى إنه مع اقتراب نهاية هذه الفترة قام الرئيس بتعيين مسؤول خاص بقضايا الإرهاب - أي "مسؤول عن التبجح والوعيد" - لإبعاد الإعلام عن الرئيس وإعطاء انطباع خاصة بعد التعرّض للاعتداءات بأن واشنطن لديها خطة فعّالة لمكافحة الإرهاب. ولم ينجم عن طريقة العمل هذه، التي تعتمد على تأجيل ردّ الفعل إلى حين وقوع الكارثة، تدفّق مستمر للمعلومات السرّية أو تطبيقات عملية للأفكار المطروحة. وعلاوة على ذلك فقد كانت الاعتداءات الإرهابيّة عشوائيّة، ولهذا فإننا لم نكن أبداً مستعدين - على ما يبدو - للردّ بأية طريقة إلا اللهم بوعد وليد اللحظة من الإدارة بأن مكتب التحقيقات الفدرالية FBI سيقبض على المجرمين الذين ارتكبوا تلك الأفعال الشنيعة، وسيتم تقديمهم للعدالة، كما لو أن الاعتداءات كانت تحدياً لنظامنا القضائي الداخلي.

كما أن ما يكبل الإجراءات والتدابير المتخذة لمكافحة الإرهاب (وأنا أقول هذا اعتماداً على معلومات استقيتها مباشرة من المصادر الأساسيّة) هو حقيقة مؤسفة مؤداها أن أرواح المواطنين الأميركيين ليس لها أي قيمة، مقارنة باهتمام المسؤولين في الولايات المتحدة بآراء وردود فعل الحكومات الأجنبية - والأوروبية منها بشكل خاص - والمؤسسات الدوليّة، أو ما يطلق عليه مدراء أجهزة الاستخبارات اسم "اختبار الضحك للواشنطن بوست" - وهو مقياس الخوف الرهيب الذي يعتري المسؤولين البارزين في الولايات المتحدة عندما تلوح في الأفق بوادر إخفاق قرار سياسي هام، ويصبح مثار انتقادات صحيفة مثل *الواشنطن بوست* أو غيرها من عمالقة الإعلام، ويؤدي إلى تأخير جديد في صعود سلم

الترقيات الوظيفية. فعلى سبيل المثال وخلال سبعة عشر عاماً من عملي على قضايا الإرهاب الإسلامي الأصولي والمقاومة الإسلاميّة المسلحة، وبعد حضور اجتماعات لا حصر لها مع مسؤولين بارزين في الحكومة الأميركيّة، لم أسمع مرة واحـــدة أي مسؤول كبير يسأل عن أفضل الإجراءات الذي يمكن اتخاذها من بين مجموعة مـــن الخيارات، والتي تؤدي إلى حماية الأميركيين، أو عن النتائج السلبية التي قد تلحـــق الأذى بالأميركيين في حال عدم قيامنا بالتحرك. حتى إنني قـــد شـــهدت تـــأخير عمليات ضد تهديدات تتعلق باستخدام أسلحة دمـــار شـــامل تســـتهدف حيـــاة الأميركيين وذلك فقط للحفاظ على علاقات ودّيّة مع الأوروبيين. وكان الســـؤال الذي يطرح دوماً في تلك الاجتماعات هو: ما الذي قد يقولـــه الكـــونغرس، أو البوست، أو CBS، أو أوبرا، أو النيويورك تايمز، أو تيد كوبل، أو جي لينـــو، أو غيرهم، وغيرهم من عمالقة الإعلام؛ إذا ما أخفقت الإجراءات الـــتي اتخـــذناها أو أدت إلى مقتل أحدهم؟ وهكذا فإن فشل الولايات المتحدة في مواجهة بن لادن لا يعزى فقط لرفضها الاعتراف، وتقبّل فكرة أن الإرهاب الإسلامي الأصـــولي قـــد أصبح حركة مقاومة إسلاميّة مسلحة ولرفضها أيضاً فهم النقلة النوعيّة مـــن الأذى المُدمّر إلى الخطر الذي يتهدد أمننا القومي، بل يعزى للجبن الذي تأصّل في جيلـــي الذي شغل معظم الوظائف العليا في هذه الفترة.

وعلى الرغم من وجود أمثلة عديدة لحوادث، واتجاهات، وشخصيات نبّهت المسؤولين في الولايات المتحدة لكشف النقلة التي حدثت من الإرهاب إلى حركـــة المقاومة المسلحة والبدء بالتخطيط لردّ مناسب، فإن أكثرها وضوحاً، على الأقل في نظري، هو قضية معسكرات تدريب الإرهابيين. فمنذ أواسط التسعينات، صرّحت الولايات المتحدة والدول الغربية أن معسكرات تدريب الإرهابيين في أفغانستان هي دليل يثبت أن القاعدة هي تنظيم إرهابي، كما أنها دليل يظهر تآمر نظام طالبان – فالحكومة أي طالبان قدّمت الأرض التي أقيمت عليها تلك المعسكرات، ولم تقـــم بأي خطوة لوقف عمليات القاعدة. إن حدوث التدريبات في أفغانستان هو أمر لا خلاف عليه. إلا أن السؤال هو هل كان تقييم واشنطن الفعلـــي صـــحيحاً أم لا؟ وهل نظام التدريبات يهدف إلى صنع هذا النوع من الإرهابيين الـــذين يُعـــرّفهم

الغرب على أنهم الخطر الأعظم - من الانتحاريين والمختطفين والقتلة؟ إن الإجابة على هذا السؤال بالطبع هي كلا. فالمعسكر لا يقام بالضرورة للتدريب على المهارات الضروريّة للقيام بتلك العمليات. فذلك النوع من التدريبات يمكن أن يتم داخل البيوت، وفي الأقبية، والجوامع، والغابات، والمنتزهات، والحدائق العامة، وفي مرآب السيارات، وفي مدرسة نظامية لتعليم الفنون القتاليّة، وفي أي مكان تقريباً. كما أن هذا النوع من التدريبات هو الذي يقوم زعماء الجماعات الإرهابيّة الكبار بإخفائه - كما قال روبرت إي لي: "لأنهم يفترضون أن العدو سيقوم بما يجب أن يقوم به" - عن الأفراد الموجودين في المعسكرات أو السلطات المحلية أو أقمار المراقبة التابعة للعم سام.

إن الكلام السابق لا يعني أن معسكرات القاعدة في أفغانستان لم تصنع هذه الأنماط من الإرهابيين، فالوثائق التي تم الحصول عليها، واعترافات الأسرى، وتاريخ الهجمات التي شنّتها الجماعة تظهر أنها فعلت ذلك. لكن النقطة التي أودّ الإشارة إليها هنا هي أن المعسكرات الأفغانيّة لم تقم أساساً لتدريب الإرهابيين، وكذلك الحال بالنسبة لمعسكرات القاعدة في السودان، أو اليمن، أو الفليبين، أو الشيشان، أو ....، أو أي من المعسكرات التي لا بد وأنها قد أقيمت في مناطق أخرى من العالم بعد أن أصبحت أفغانستان تثير الشكوك حول نمط التدريبات التي تجري في معسكراتها. أما الوظيفة الرئيسية للمعسكرات فقد كانت ولا تزال تقديم أفضل التدريبات الدينية ذات الطبيعة العسكرية المنتظمة الموحّدة للشباب المسلم. وقد قال المسؤولون عن التدريب في الجيش الأميركي بعد عمليات التفتيش ومراجعة النظام الأساسي للتدريب العسكري الذي جرى في المواقع الأفغانية، أن المعسكرات كانت تقدّم "تدريباً على مهارات صعبة وحساسة يتم تطبيقها على مجال ضيق"، أي أنها تخرّج "فرقة مشاة كاملة" - أما في حالة القاعدة، فهي تخرج أفراد المقاومة المسلحة[11]. ومنذ منتصف الثمانينات، خرّجت المعسكرات أعداداً كبيرة من المقاتلين المدربين - الذين عادوا إلى ديارهم للقتال ولتدريب الآخرين - الذين لم يكونوا مجموعات من العصابات الإرهابيّة. أما الإرهابيين الذين تلقوا تدريباتهم في المعسكرات فهم يعدّون الجناح العسكري للقاعدة وهم أفراد القوات الخاصة الذين

ينفّذون العمليات التي تتم في المدن. وقد كانت قدرات التدريب الثنائيّة التي كانت تقوم بها المعسكرات واضحة منذ حوالى ثلاثين عاماً لكنها لم تحظَ باهتمام الغــرب الذي كان يصبّ كل تركيزه على الأعداد القليلة من الإرهابيين الــذين صــنعتهم المعسكرات. ولم يكن تخريج تلك المعسكرات لأعداد ضخمة من المقاتلين المدرّبين الذين يشكلون أساس حركة المقاومة المسلحة موضع أي تحقيق أو بحث حتى هــذا اليوم. وطوال الفترة المذكورة آنفاً تعلّم المتدربون، بحسب الوثائق التي وجــدت في أفغانستان، كيفية استخدام البنادق من طراز AK-47، وصواريخ ستينغر Stinger، وأنظمة تحديد المواقع على سطح الأرض، وأنظمة الملاحة البريّة المتقدمة، والقاذفات من طراز RPG، وقراءة الخرائط، وتقنيات التفجير، والملاحة الفلكيّــة، وتقنيــات الاشتباك الفردي، وحفر الخنادق، وعمليات نشر الأسلحة، وتقنيــات المراوغــة والمناورة والفرار والإسعافات الأولية، وعلم اســتخدام المــدافع، والاتصــالات السرّية... إلخ.

وبينما انشغلنا بقضية تخريج المعسكرات للقتلة والانتحاريين - ولم نفعل شيئاً إزاء ذلك - كانت معسكرات القاعدة في أفغانستان تدرّب بانتظام جيشــاً مــن المسلمين غير الأفغان وعدة مئات من المدرّبين الأكفاء على العمليات العســكريّة. ويبدو أن المعسكرات ضمّت خبراء في أسلحة الدمار الشامل كانوا يقومون بصنع أسلحة، ويدرّبون آخرين على كيفية صنعها، أو استخدامها. كما أظهرت الوثائق والتقارير التي تم الحصول عليها خلال الحرب الأفغانية الأميركيّة أن القاعدة وغيرها من الجماعات الإسلاميّة الأصوليّة كانت تعمل بجدّ لإصلاح المشاكل التي خلّفهــا التدريب البدائي خلال حرب الجهاد ضد السوفييت. وقد تذكّر أحد المســؤولين الأميركيين تلك المعارك الجهاديّة قائلاً: "عندما كانت المعركة تــدور في إحــدى الوديان كانوا يتبعون أسلوباً في القتال يختلف عن أسلوب المعركة التي قد تدور في وادٍ آخر"[12]. وعندما تشكّلت القاعدة في أواخر الثمانينات بدأ قادتها العسكريون "بتطوير الأساليب القتاليّة" كما أنهم جمعوا كمّاً هائلاً من المعلومات ذات الصــلة بطرقهم المريبة السرّية"، ومعظم تلك المعلومات أتى من مصادر أميركيّة وغربيّة[13]. وفي إحدى أهم المقالات التي كتبت على الإطلاق حــول القــدرات العســكريّة

للقاعدة - وهي بكل أسف أكثر مقالة تم تجاهلها - وضّح فيها سي. جي. شيفرز وديفيد رود أن:

> "الخطط الحربيّة والتدريبات العسكريّة الأميركيّة قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مدارس القاعدة، حيث إن تعليماتها أصبحت موحّدة لدرجة أن الدورات التي كانت تعطى بلغات عدة وفي مناطق تبعد عن بعضها مئات الأميال.... كانت متطابقة، وكانت المناهج تتمتع بالمرونة حيث إن تعلم الدرس الثاني مثلاً وإتمامه بنجاح لا يقتضي إنهاء الدرس الأول"[14]. وقد افترض شيفرز ورود أن جهود القاعدة أثمرت عن معسكرات كانت تقدّم برنامج تدريب موحّد يستوعب المتطوعين على اختلاف ثقافتهم ومهاراتهم.... "فقد كانت تدرّس في جميع الدورات نفس نصوص التعليمات التي أعدّت مسبقاً، ولهذا فإنك ترى أن نفس المناهج قد دُرسّت في سنوات مختلفة، ومناطق مختلفة، ولغات مختلفة"، هذا ما جاء على لسان أستاذ أميركي يدرّس مادة التكتيك الحربي..... كما أضاف آخر: هذا هو السبب الذي يمكّنك من أخذ عدة مجموعات عرقية مختلفة.... ويجعلك قادراً على التوحيد فيما بينها وتمكينها من القتال إلى جانب بعضها البعض. فكل هذه الجماعات تمتلك نفس المهارات الأساسية.... فمدربو القاعدة قد تخلّوا عن البيروقراطية وفعلوا بعض الأشياء الأساسية بشكل جيد جداً، كما قال أحد الأساتذة الأميركيين: "إنه لقول معروف: كن متمكّناً من الأساسيات. إذا قمت بالتركيز على الأساسيات، فسيكون أداؤك أحسن من مقبول عندما يحين وقت المعركة"[15].

وهذا ينطبق أيضاً على معسكرات تدريب الأفغان التابعة لطالبان، وحلف الشمال، وأهم جماعات المقاومة الأفغانيّة التي حاربت السوفييت في السابق. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه المعسكرات التي يديرها الأفغان درّبت مسلمين من غير الأفغان. فالزعيم الإسلامي حقاني مثلاً، كان يرحّب بالكشميريين، والعرب، والآسيويين في معسكراته، وكان يتلقى تمويلاً من المتبرعين الخليجيين لتغطية نفقات تلك المعسكرات. كما أن أحمد شاه مسعود، وعبد الرسول سيّاف كانا يدرّبان المسلمين القادمين من آسيا الوسطى، والصين الغربية، والخليج العربي، وغيرها من البلاد الإسلاميّة.

ولتكتمل الصورة فقد عرفنا من خلال الغزو الأميركي لأفغانستان أن المعسكرات كانت أيضاً مكرّسة لتدريب الطاجكيين، والأوزبكيين، والشيشانيين،

والويغوريين. وهكذا فقد احتضنت أفغانستان معسكرات لتدريب الإسلاميين الذين ينتمون لحركات المقاومة المسلحة تتجاوز في عددها إلى حدٍّ كبير تلك التي تتبع للقاعدة وطالبان، وقد شكلوا جميعاً منبعاً للمشكل والمتاعب بالنسبة للولايات المتحدة والغرب، وذلك من خلال إعداد رجال للقتال سواء في حركات المقاومة المسلحة الراهنة أو تلك التي لم تظهر بعد. إلا أن العديد من المراقبين يجدون صعوبة في استيعاب حقيقة أن ثمة كادراً ضخماً من الإسلاميين المسلحين الموجودين في شتى أنحاء العالم الذين يشكلون قوة لا يستهان بها، حيث إنهم على استعداد للانتشار في أي وقت، وفي أي مكان يتطلب وجودهم. ففي مارس عام 2003 مثلاً ادعى كاتب في صحيفة *وال ستريت جورنال* أن المقاتلين الإسلاميين الذين يدخلون إلى العراق لا يشكّلون خطراً كبيراً، حيث خلص ياروسلاف تروفيموف متجاهلاً تماماً نتاج المعسكرات الأفغانيّة إلى أن "هذه المجموعات لا تكاد تمثّل أي تهديد مباشر بالنسبة للمجهود الحربي الذي تقوده الولايات المتحدة، وذلك يعود لضعف التدريبات التي تلقّوها، وقلة عددهم، وعدم معرفتهم بجغرافية وتاريخ المكان"[16].

دعونا الآن ننظر ملياً إلى خارج أفغانستان، إلى عالم أوسع من معسكرات تدريب الإسلاميين ومنشآتهم التي ليست مرتبطة بالقاعدة بشكل مباشر. فمنذ الثمانينات، كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها قد عرفوا، وبحثوا، واحتجوا على حقيقة أن هناك مجموعات إسلاميّة سنيّة متعددة تدير معسكرات تدريب في اليمن، وباكستان، وكشمير، والسودان، والفليبين. ولاحقاً أي في التسعينات انضمت إلى القائمة الصومال، وأوزبكستان، والجبل الأسود (مونتينيغرو)، وإريتريا، والصين الغربيّة، والشيشان، والجزائر، وطاجكستان، ولبنان، والبوسنة، وشمالي العراق، وأخيراً ألبانيا. وفي الوقت الحالي نقوم بتدريب فرقة مقاومة إسلاميّة مسلحة كاملة في خليج غوانتانامو ستكون من ضمن أكثر الفرق إخلاصاً وولاء من الناحية النفسية للإسلام السني، كما سيتمتع هؤلاء المقاتلين بوضع خاص جداً عندما يعودون إلى ساحات المعارك، ومما يثير السخريّة أنه يحتمل أن يكونوا أكثر الجماعات تمتّعاً بصحة جيدة وذلك بفضل النظام الغذائي المتوازن والعناية الطبية التي تلقوها من أطباء

الجيش الأميركي على حساب الضرائب التي يدفعها المواطن الأميركي.

ولتتويج هذه القائمة التي تحدثنا عنها طويلاً، فكما أشرت في الفصل الثالث، إن الشبكة العنكبوتيّة العالميّة تقدم تسهيلات على مدار الأربع وعشرين ساعة في اليوم وفي كافة أيام الأسبوع لمجاهدي المستقبل ممن يستطيعون استخدام الكومبيوتر أو الهاتف الخليوي، أو هاتف يعمل عبر الاتصال بقمر صناعي للوصول إلى الإنترنت والحصول على التعليمات الخاصة بالتدريبات على العمليات العسكرية. ومرة ثانية وثّق شيفرز وورود كيف تقوم "القاعدة بالانقضاض على المعلومات المتوافرة للعامة من الصحافة العسكرية الأميركيّة الرسمية وغير الرسمية"[17]. وهذه الحقيقة تثلج صدر المجاهدين الطموحين الذين يعانون من فقر مدقع حيث إنها تريحهم من ضرورة وعناء السفر المكلف والخطر إلى معسكرات التدريب الأجنبيّة. وخلاصة القول هي أنه بينما كان الغرب يركّز على الانتحاريين، والقتلة، والمختطفين. صنع الإسلاميون الأصوليون السنة مقاتلين مدربين ومتمرسين يتحدون اليوم حكومة الولايات المتحدة وغيرها من الحكومات الشرعية - ومعظمها حكومات حلفاء الولايات المتحدة - في الشرق الأوسط، وبلاد المحيط الهادي، وجنوب شرق آسيا، والخليج العربي، ودول شمال وشرق أفريقيا، ودول الاتحاد السوفييتي سابقاً. لا يمكن للإرهابيين بمفردهم تهديد الأمن القومي، لكن الذين يشكّلون منهم فرعاً متمّماً لحركة دولية للمقاومة الإسلاميّة السنيّة المسلّحة هم الخطر الأعظم الذي يتهدد أمننا القومي.

وعندما تجاهلنا الهدف الأساسي من معسكرات التدريب السنيّة فإننا أغفلنا أيضاً وعن عمد الوظيفة الرئيسية للمعسكرات التي أقامها حزب الله وهو منظمة شيعيّة للمقاومة المسلحة في لبنان. فقد أقام حزب الله منذ نشأته عام 1982 معسكرات تدريب في لبنان ومن ضمنها المنشآت المعروفة في وادي البقاع. وقد خرّجت تلك المعسكرات على مرّ أكثر من عشرين عاماً - كغيرها من التنظيمات السنّية المسلحة في بلاد أخرى - أعداداً كبيرة من الانتحاريين، بالإضافة إلى آلاف من المقاتلين المتمرّسين المتخصّصين في المعارك والحروب غير النظامية. وعلى الرغم من أن معسكرات وادي البقاع كانت في البداية تدرب مقاتلي حزب الله فقط، إلا

أنها توسّعت لتضم متدربين شيعة من الخارج، وشيئاً فشيئاً انضمت إليها أعداد متزايدة من المتدربين السنّة من سوريا، والسودان، ومصر، والأردن، وفلسطين. ولم تقتصر التدريبات على العمليات العسكريّة غير النظامية في البقاع على الأساتذة والمدربين من كوادر المحاربين القدماء في حزب الله، بل ضمّت مدربين من فيلق حرس الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة الذين أقاموا معسكرات أيضاً في إيران لتدريب مقاتلين من الشيعة والسنة كما أنهم كانوا يرسلون المدرّبين إلى أفغانستان، والسودان، والبوسنة، وآسيا الوسطى. وأغلب الظن - باعتقادي - أن المقاتلين السنّة الذين تلقوا تدريباتهم في البقاع، قد اكتسبوا بعض الخبرة العملية من خلال مشاركتهم في العمليات العسكريّة التي شنّها حزب الله (عمليات المقاومة) خلال الفترة التي احتلت فيها إسرائيل جنوب لبنان.

وبينما كان تركيز الغرب على عمليات الخطف التي قام بها حزب الله للأجانب الغربيين، والحوادث العشوائية لاختطاف بعض الطائرات، وبعض الاعتداءات الضخمة التي نفّذها انتحاريون والتي لا ترقى إلى مستوى العمليات العسكرية - وهي ثلاثة في بيروت استهدفت مصالح أميركيّة وفرنسية عام 1983، واعتداءين ضد مصالح إسرائيلية في بوينوس آيريس عام 1992 و1994، فإن معسكرات وادي البقاع التابعة لحزب الله خرّجت أعداداً متزايدة من المحاربين الأكفّاء الذين يعملون تحت لواء حزب الله وغيره من المنظمات الإسلاميّة في أماكن أخرى من العالم. وكما هي الحال في المعسكرات السنيّة التي سبق الحديث عنها، فقد عاد الأجانب الذين تدربوا في وادي البقاع إلى بلادهم لا ليقوموا بالقتال ضد حكوماتهم فحسب، بل لتدريب زملائهم أيضاً. وهكذا أصبحوا يشكّلون قوة مضاعفة. وخلاصة القول هي إن مخاوف الغرب الرئيسية من حزب الله - كما هي الحال بالنسبة للقاعدة وغيرها من التنظيمات السنيّة - لم تكن في محلها حيث إنها كانت تدور حول الإرهابيين، وبشكل أدق حول القوات الخاصة التابعة للجناح العسكري للتنظيم. أما الأمر الأكثر خطورة في ما يتعلق بحزب الله فقد كان ولا يزال يتمثل بالكفاءة العسكرية التي يتمتع بها. فشجاعة مقاتليه، وتصميمهم، وعزمهم أسفر أخيراً عن طرد القوات الإسرائيليّة خارج لبنان وهو إنجاز لم تكن

لتحقّقه أبداً الاعتداءات على المصالح الإسرائيليّة خارج إسرائيل. وستدرك أميركا عما قريب أن مقاتلي حزب الله الذين أرسلوا إلى العراق ليحاربوا ويدربوا الآخرين على القتال ضد القوات الأميركيّة - سواء كانوا لوحدهم أم بصحبة وحدات حرس الثورة الإسلاميّة الإيرانية - هم أكثر خطراً من انتحاريي حزب الله الذين قتلوا أكثر من ثلاثمئة أميركي في بيروت صيف عام 1983.

وهكذا فقد وقعنا في المتاعب ثانية، كما أشرت في فصل آخر من هذه الدراسة، وذلك بسبب اعتقاد بعض الأشخاص الذين يتمتعون بذكاء وسلطة تفوق ما لدي من الفطنة والنفوذ أن لا يوجد فرق بين لفظيّ "إرهابي" و"مقاتل في حركة مقاومة مسلّحة". ومن جديد يجب أن يطرح السؤال التالي: هل من الأهميّة بمكان أن نتحدث عن المعسكرات بوصفها "معسكرات إرهابيّة" أو "معسكرات مقاتلين في حركة مقاومة مسلحة"؟ والإجابة برأيي هي نعم، إن هذا أمر هام جداً وخاصة عندما تقوم بوضع استراتيجية للتعامل مع التهديد الذي تخرّجه تلك المعسكرات. إن استخدام المصطلح الصحيح هو أمر بالغ الأهميّة لاتخاذ قرار صائب يتعلق بكيفية التصدي لبن لادن والقاعدة وغيرها من التنظيمات السنيّة والشيعيّة. فإذا ظلت المعسكرات بالنسبة لصنّاع السياسة في الولايات المتحدة "معسكرات تدريب للإرهابيين" فإننا سنبقى على ارتباط وتعلق بالمقاربة التي تميل بشدة إلى اللجوء إلى أجهزة الأمن، والشرطة، والقوات العسكرية الخاصة، وأجهزة الاستخبارات السرّية وذلك في محاولة لدمج هذه المنظمات لتشكيل جهاز دولي يشبه الشرطة الكندية للخيالة الملكيّة. وأتصور أن شعارها سيكون: "نحن دائماً ننجح في القبض على الإسلاميين". هذه هي المقاربة التي تمسّكنا بها لمدة ست سنوات سبقت الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، وقد منيت بفشل ذريع. كما أنها الخطة التي اتّبعناها منذ ذلك اليوم الحزين - وقد أضفنا إليها قصفاً جوياً أسفر عن تدمير أكوام خردة عسكريّة قديمة ترجع إلى الحقبة السوفييتية، وتحطيم بعض الصخور لكنها لم تحقق أي شيء آخر يستحق الذكر - وهي السبب في الخسارة التي نتكبدها كل يوم في أفغانستان. فالوجود الأميركي المحدود هناك واعتماده على أجهزة الأمن الأفغانيّة قد يكون منطقياً فيما لو كانت تلك المعسكرات تخرّج عدداً محدوداً من

الإرهابيين، أو كنا نحن على علم بذلك العدد. وهو أمر غير منطقي على الإطلاق إذا كانت المعسكرات تدرّب أعداداً غير معروفة وقد تكون هائلة من المحاربين - وهذا هو واقع الأمر.

إن رئيس الولايات المتحدة، ونائب الرئيس، ووزراء الخارجيّة، والدفاع، والأمن الوطني، والمدعي العام، ومدير مكتب التحقيقات الفدرالية، ومدير الاستخبارات المركزيّة، وأعداداً لا تحصى من الخبراء والصحافيين والنقاد يستمرون في إخبار الأميركيين والعالم، أن الولايات المتحدة تقوم بضرب بن لادن وبتفكيك القاعدة من خلال الإمساك بقادتها الواحد تلو الآخر، وقد قال الرئيس في هذا الصدد: "إن الإرهابيين يتعلّمون الواحد تلو الآخر معنى العدالة الأميركيّة"[18]. وبالفعل، فإننا لشدة تأصّل فكرة محاربة الإرهاب في العقل الأميركي - حتى وصلت لحدّ القيام بعمل الشرطة خارج أميركا - قد أصبحنا نبدو وكأننا عالقين في ثقب زمني لا نستطيع الخروج منه. فحتى في الحرب على العراق التي توجّهنا إليها لمواجهة نصف مليون مقاتل - عاد معظمهم إلى ديارهم مسلّحين بعد أن كتبت لهم النجاة - لم نقم إلا بما هو عبارة عن "أوراق اللعب" التي أصبحت مشهورة اليوم والتي تتألف من خمسة وخمسين ورقة لعب تحمل كل منها صورة "لأهم المطلوبين للعدالة" وهم أعضاء في حكومة صدام، وقد أوحينا بذلك للأميركيين أن المشاكل في العراق ستحلّ عندما يتم القبض على الهاربين الخمسة والخمسين. وقد وضعت إشارة إكس X على الوجه المرسوم على كل ورقة منها. وكما كانت الحال في أفغانستان فإن مقاتلي القاعدة سيساعدون الكثيرين على إثبات خطأ هذا النموذج مرة ثانية في العراق.

أما ما يتوجب فعله الآن، فهو برأيي الأصعب على الإطلاق. فهو يتمثّل بضرورة تخلّينا عما قريب عن مجموعة الآراء والأفكار العالقة في أذهاننا منذ زمن طويل حول هذا الموضوع والتي تريحنا، ونفهمها، ونعتقد أنها منطقية عندما نطبّقها على العالم الفوضوي والذي غالباً ما نراه من منظورنا على أنه غامض ومبهم. إلا أن ما يجب فعله يتمثل بضرورة وضع أنفسنا في نفس الظروف: عندما نتعرض لاعتداء ما، ويقتل مواطنونا كل يوم بسبب ذلك الاعتداء، فإن هذا يعدّ محيطاً لا

يمكن أن تنجم عنه ردود فعل هادئة. إن معسكرات التدريب التي طالما أخافتنا كانت طوال الوقت معسكرات تدرّب مقاومين، يقاومون الاعتداءات، ومع أنها خرّجت بضعة آلاف من الإرهابيين، فهي بالمقابل قد درّبت مقاتلين في حركات المقاومة تقدّر أعدادهم بمئة ألف أو أكثر. وقد درّب الخريجون بدورهم عشرات الآلاف بعد عودتهم إلى ديارهم. وبحسابات منطقيّة بسيطة سنرى أن عددهم سيكون هائلاً لدرجة أننا سنكون بحاجة لأكثر من مئة معتقل كغوانتانامو لوضعهم بها، في حال تمكّنا من القبض عليهم جميعاً - وهذا بالطبع أمر مستحيل. إن الحقيقة القاسية التي تواجهنا، وذلك يعود لتجاهلنا للوقائع والحقائق لربع قرن من الزمان، هي أن علينا أن نقتل ألوفاً عديدة من هؤلاء المحاربين في حرب بدأت لتوها، الأمر الذي سيكلّف الطرفين غالياً. إن هذا الرأي - باعتقادي - قاسٍ لكنه صائب. وستظل الحال على ما هي عليه طالما أن سياسات الولايات المتحدة الثابتة تدفع بالمسلمين وتحرّضهم على أن يصبحوا مقاتلين مسلحين في حركات المقاومة. وستزداد فاتورة القتل إذا ما استمرينا في مقاومة الحقيقة.

عندما يقودنا التحالف إلى الطغيان

إن سعي أميركا للقضاء على طالبان والقاعدة بالطرق العسكريّة بعد الاعتداءات التي تعرضت لها في الحادي عشر من سبتمبر هو أمر بديهي. فقد سنحت لنا فرصة سريعة للقيام بذلك، لكننا - كما ذكرت في الفصل الثاني - فشلنا فشلاً ذريعاً، ولقد عادت المنظمتان للنشاط والعمل والتسلح من جديد. ويعود جزء من هذا الفشل إلى ردّ فعلنا الآني على الاعتداءات: تشكيل تحالف دولي لدعم، ومساعدة، والموافقة على الوجود العسكري الأميركي في أفغانستان. وباستثناء الدعم المطلق لإسرائيل، لم تكن هناك أي معارضة تجاه سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة في العقود الأخيرة أكبر من تلك المتعلقة بالإيمان العميق بالحاجة الماسة لتشكيل تحالف دولي قبل معالجة "الأزمة" التي ظهرت فجأة. لقد أصبح رؤساء الولايات المتحدة في ربع القرن الأخير أشبه بالمراهقات اللواتي لا يمكنهن أبداً الذهاب إلى الحمام في مكان عام دون مرافقة صديقاتهن المقربات. إلا أنه في

بعض الحالات، يكون تحالف من هذا النوع هو أفضل طريقة لمعالجة الأزمات. وهذا ينطبق بشكل خاص على حالات الكوارث الطبيعيّة كالزلازل، والبراكين، والفيضانات، والجفاف وكذلك في بعض الأزمات الإنسانيّة كالمجاعات وانتشار الأوبئة. كما أن التحالفات قد تكون مفيدة وفعّالة في الأوضاع التي تقتضي تدخّلاً عسكرياً يهدف إلى وقف إمكانيّة حدوث مذابح في البلاد التي لا تكون لدينا أي مصالح شخصية فيها، وهذا التدخل يجب أن يحظى بإجماع دولي كما حدث في ليبيريا عام 2003، وهاييتي في أوائل عام 2004. أما في الحالات التي تكون فيها مصالحنا القوميّة عرضة للخطر، أو عندما نعتقد أنها تتعرض لأي تهديدات، فإن تشكيل تحالف من شأنه ربط سياستنا وأهدافنا بأهداف وسياسات الطغاة، كما أنه يحدّ من خياراتنا، كل ذلك يؤدي بالنتيجة إلى عدم توفير حماية كاملة لأمننا القومي. وبغض النظر عن ذلك الرأي الغريب الذي أدلى به هنري كيسنجر والذي يردده دائماً صنّاع السياسة الأميركيّة والذي يحث فيه على ضرورة تشكيل التحالفات كحل لكل الأزمات، فإن السرعة والحفاظ على أوسع نطاق من الخيارات المتاحة هما أحياناً أفضل طريقتين تضمن بهما الولايات المتحدة تحقيق أهدافها.

وقد أدى تشكيل التحالف في أفغانستان - وتكاتف الحلفاء من صالح وطالح مع بعضهم البعض - إلى الحدّ من الخيارات التي كانت متاحة أمام الولايات المتحدة. فاعتداءات الحادي عشر من سبتمبر لم تكن هجوماً ضارياً على الحضارة الغربية بأكملها، بل كانت اعتداءات محددة على دولة بذاتها وهدفت إلى إلحاق أضرار بشريّة واقتصاديّة جسيمة بالولايات المتحدة. كما أنها هدفت إلى إلحاق أذى نفسي بالأميركيين. وقد كانت عمليات حربيّة ذات أهداف محددة تم تحقيقها بنجاح، إن الأمانة الفكريّة تمنعنا من وصف تلك الاعتداءات بأنها كانت محاولات تهدف إلى تدمير أشياء غير ماديّة كحريتنا أو نمط حياتنا. في الحقيقة لقد سعى بن لادن عندما صمّم تلك الاعتداءات إلى عزل الولايات المتحدة. وقد هدف من وراء تلك الضربات إلى وضع الولايات المتحدة تحت الضوء ليركّز عليها كل المقاتلين الإسلاميين، وفي الوقت نفسه ليوحي للأوروبيين - من خلال خصوصية

الاعتداءات - أنه لا يريد معاداتهم في الوقت الراهن إلا إذا شاركوا في الحرب التي تشنّها الولايات المتحدة على القاعدة. وكما هو واضح، فإن الدعم الأوروبي للولايات المتحدة بعد اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر كان محدوداً بشكله المادي حيث إن قوته اقتصرت على الخطابات فحسب، كما أنه أخذ يضعف تدريجياً مع مرور الوقت، بعدما نفّذت القاعدة تهديداتها باعتداءات استهدفت المصالح الأوروبيّة، وقيام الولايات المتحدة بغزو العراق.

إن العمليات العسكرية - غير الإرهابيّة - التي نفّذتها القاعدة ضد الولايات المتحدة أدت إلى قيام الولايات المتحدة بردٍّ عسكري عنيف ضد المنظمة ونظام طالبان الذي يأويها. وبما أن لدينا أصلاً قواعد عسكريّة في الخليج العربي، فما كان علينا إلا أن نحصل على تعاون بسيط من باكستان وأن نستخدم قواعد عسكريّة ومطارات في أوزباكستان، وطاجكستان، وكرجيزستان. وقد كتب المؤرخ جون كيغان في صحيفة *الديلي تيليغراف* *Daily Telegraph* في العشرين من سبتمبر عام 2001: "إن مساعدة باكستان تستحق الشكر وهي ضرورية بالطبع، إلا أن المنطقة التي تعتبر أفضل لتشكّل قاعدة يمكننا الانطلاق منها هي منطقة آسيا الوسطى التي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي سابقاً، والتي لا يزال قسم كبير منها يخضع لسلطة موسكو. فشعوب تلك المنطقة قليلة العدد وحكامها يعادون الإسلام. وتمتلك عدة دول منها قواعد عسكريّة واسعة أنشأها الاتحاد السوفييتي القديم وذلك من أجل حربه على أفغانستان. وبما أنه من المحتمل أن تتمحور خطة أميركا - بل ويجب أن تكون كذلك - حول القيام بعمليات تأديبيّة، فإن آسيا الوسطى تعد أفضل منطقة متاحة لإقامة القواعد العسكريّة الأميركيّة"[19]. إن هذه المقاربة التي تدعو لسياسة تعتمد على أقل تدخل عسكري ممكن، قد تكون صحيحة من حيث المدة الزمنيّة القصيرة التي يجب أن تتم فيها العمليات، إلا أن الناحية السلبيّة فيها هي أن معظم حلفائنا سيكونون عندئذ من طغاة ديكتاتوريين مع أن معظمهم على عداوة مع الإسلام. لقد قامت واشنطن بسرعة بإجراء ترتيبات الخطة التي اقترحها كيغان، إلا أنها فجأة أبت أن تذهب وحيدة وعادت ثانية إلى مقاربة الخيمة الكبيرة لتتبعها كأساس لخطتها الحربيّة مما أدى إلى هدر في الوقت، والطاقات، والأموال وذلك

لتجمع حولها أكبر عدد ممكن من الحلفاء، سواء تعهدوا بتقديم مساعدة فعليّة لنا أو لم يفعلوا. ولشدة لهفتنا لجمع شركاء يتحالفون معنا فقد دعونا وقبلنا أولئك الذين كانت مساهمتهم أحد أسباب خسائرنا - مثل روسيا والهند.

وكخلاصة، إن الوقت الذي أضعناه في إقامة التحالف لم يكن له أي تأثير إيجابي يذكر على النتيجة في أفغانستان، فكما أشرت في الفصل الثاني، فإننا لم نكن نستعد بالشكل المناسب، لذا فقد خضنا حرباً متأخرة ولا طائل منها، فضلاً عن أننا لم نتسلح بالمعلومات اللازمة لخوض حرب كهذه لدرجة أن تحالفنا لم يحرز أي نجاح يذكر. أما الثمن الذي دفعته أميركا مقابل هذا التحالف منذ نهاية العمليات العسكريّة الأميركيّة المكثفة في أفغانستان - لنقل منذ الأول من أبريل عام 2002 - فقد كان باهظاً جداً من حيث المساعدة التي قدّمتها لبن لادن والجماعات الإسلاميّة المسلحة. وقد تجلت هذه المساعدة بشكل خاص في: القيود التي فرضتها مخاوف الحلفاء الغربيين، ورعب الجهاز الإداري للولايات المتحدة من النقد الإعلامي الذي قد يتلقاه حول قدرة الولايات المتحدة على استخدام قوتها العسكريّة بالطريقة التي تراها مناسبة، وإفساد أفعال أميركا وأهدافها كنتيجة لتحالفها الحميم مع الدول التي يراها المسلمون على أنها دول طاغية ومجرمة مثل روسيا وإسرائيل.

وبسبب فشل جيش الولايات المتحدة في إعداد ردٍّ مُدمّر على الهجوم الذي شنّته القاعدة في أرض الولايات المتحدة، والذي يقول عنه المسؤولون الأميركيون اليوم أنه كان ضرورياً جداً، فقد فوّتت أميركا كما أشرت في الفصل الثاني فرصة لن تعوّض لتوجيه ضربة للقاعدة وطالبان كفيلة بإبادتهم عن بكرة أبيهم. إلا أن الانتشار السريع لطالبان والقاعدة في آن واحد بُعيد الحادي عشر من سبتمبر، جعل المساعي الأميركيّة لاستهدافهم تنتقل من الصعوبة إلى الاستحالة المطلقة، مما قضى على فرصة أميركا في توجيه ضربة قاضية في مكان واحد حيث يتمركزون. والأسوأ من ذلك هو أنه عندما قامت الولايات المتحدة بالهجوم على أفغانستان في السابع من أكتوبر عام 2001، كانت أخبار هذا الهجوم قد سبقته وتناقلته بسرعة البرق وسائل الإعلام الأميركيّة، وقوات وإعلام دول حلف الناتو، وأستراليا، ونيوزيلندا، والمراسلين، وطاقم التصوير، وعدسات الكاميرات التابعة للمحطات

التليفزيونيّة الفضائيّة العربيّة التي كانت هناك لتسبق الحدث. في غضون ذلك، وضع قادة الولايات المتحدة الحرب في إطار الصراع بين الأبيض والأسود، بين "قوى الخير وقوى الشر" أو بين "الحضارة الغربيّة وقوى الفوضى المسلحة"، وقد كان الثمن الذي دفعته الولايات المتحدة بسبب التحالف الذي شكّلته هو أن حلفائها وإعلامهم كان عليهم أن يتأكدوا من أن القوات الأميركيّة كانت تخوض حرباً متحضرة، أي أنه كان عليها أن تمتنع عن القيام بعمليات قد تسفر عن وقوع أعداد كبيرة من الضحايا في صفوف المدنيين - وذلك في حرب لا يرتدي العدو فيها زياً عسكرياً موحداً، ويعيش بين المدنيين، ولم يسمع قط عن ميثاق جنيف. كما أن التغطية الحقيقية لأحداث الحرب التي قامت بها محطات التلفزة الفضائيّة العربيّة أجبرت التحالف الذي تتزعمه الولايات المتحدة - والذي يخشى الإعلام - على أن يكون حتى أكثر حذراً في استخدامه للقوة العسكريّة. وخلاصة القول إن الإعلام العربي، والغربي، والأميركي، والقادة السياسيين لقوات التحالف من غير الأميركيين كلهم كانوا يتشاركون في الهدف نفسه وهو التأكد من أن تطبيق القوة العسكريّة الأميركيّة كان حضارياً. وفي هذه الحالة، قيّد أعضاء تحالف قوى الخير، الوحشية التي كان بإمكان الجيش الأميركي أن يستخدمها للقضاء على أعداد كبيرة من مقاتلي القاعدة وطالبان.

إن التأييد الذي منحنا إياه أكثر الدول بُغضاً لنا ومشاركتهم في الغزو الذي شنّته الولايات المتحدة على أفغانستان، ارتبط بتوقع حصولهم على تأييد واشنطن الرسمي لحروبهم الخاصة على الإرهاب. فأكبر قادة الحكومة الأميركيين على سبيل المثال صادقوا على حرب الرئيس الروسي بوتن على الانفصاليين الإسلاميين في الشيشان، على الرغم من الممارسات الوحشيّة لقوات الأمن والجيش الروسي المستمرة ضد المدنيين. كما فازت بكين أيضاً بالتأييد الرسمي للولايات المتحدة لحملتها التي بدأت منذ ذعقود طويلة، لا بهدف القضاء على الانفصاليين الويغوريين في الصين الغربيّة فحسب، بل بهدف إبادة المجموعة العرقيّة الويغوريّة بأكملها. فالحكومة الصينيّة تشنّ نفس حرب الإبادة الجماعيّة المتعمدة وذلك بإغراق مقاطعة كزينجيانغ - من خلال توطين الصينيين (الهان) فيها لتغيير ديموغرافيتها إلى الأبد، بجعل الويغوريين أقليّة في

أرض كانوا العنصر المسيطر فيها – حتى أنها قامت بطردهم إلى التيبيت وذلك على مدى عشرات السنين، وهو عمل كنا وحلفاؤنا قد اعترضنا عليه بشدة في السابق. أما في جنوب آسيا، فقد اتخذت واشنطن إجراءات تهدف إلى تعزيز علاقتها مع الهند وإكراه باكستان في الوقت ذاته على وقف مساعدتها للمعارضين المسلمين في كشمير، وبذلك منحت بركتها للهند وموافقتها على سجلها الحافل بالإساءة لمواطنيها الكشميريين المسلمين، كما أقرت أيضاً على رفض إسرائيل تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي صدرت منذ زمن طويل بخصوص الفلسطينيين. وكذلك قدّمت واشنطن الدعم والأسلحة لمساعدة الجيش الإندونيسي في محاولاته الراميّة لسحق الانفصاليين الإسلاميين في إقليم آتشه. كما شاركت في الهجمات التي شنّتها مانيلا على جماعات مورو الإسلاميّة في منداناو، وساندت الحكومة اليمنيّة في كبح جماح الإسلاميين المحليين. والفكرة هنا لا تتعلق بالاعتراض على حق تلك الحكومات المذكورة بمعالجة الإرهاب الداخلي بالطريقة التي تراها مناسبة – لأن ذلك من حقها – بل تتعلق بمساءلة الولايات المتحدة عن الحكمة من وراء التحالف مع أنظمة كانت وحشيتها سبباً في كره المسلمين لها منذ وقت طويل. ولكل ما تقدم أهمية بالغة نظراً إلى القرار الذي اتخذته الإدارة الأميركيّة بخصوص تحديد دوافع أميركا لمحاربة القاعدة بوصفها نفس الدوافع التي جعلت روسيا تحارب الشيشان، والصين تحارب الويغوريين، والهند تحارب الكشميريين. هل سيؤدي هذا الموقف إلى دفع حرب الولايات المتحدة على بن لادن إلى الأمام؟ أعتقد أن القرار الذي اتخذته الولايات المتحدة لضم هذا الثلاثي الكريه – بالإضافة إلى إسرائيل – لحربها ضد القاعدة، هو قرار خاطئ جداً. فأميركا هي الهدف الذي وضعه بن لادن نصب عينيه، وهي التي يحاربها في الوقت الحالي، وليست روسيا، والصين، والهند. وقرارنا تقديم التأييد والدعم للحروب التي تشنّها تلك الدول على خصومها المسلمين يضفي على أفعالها شرعيّة ليست في مكانها – من القتل الجماعي الذي يرتكب ضد الشيشان، والمذابح المرعبة التي تنفّذ باسم الدولة والقانون في كشمير، إلى الإبادة الجماعية والتطهير العرقي الصامت في كزينجيانغ. لم تكسب أميركا إلا تأييداً خطابياً في بعض المناسبات من قبل السفاحين في موسكو، وبكين، والأصوليين الهندوس في الهند، ولم يقدم أي منهم للولايات المتحدة أي فوائد حقيقية.

إننا في صراع حتى الموت مع القاعدة سواء برضى تلك الدول أو عدمه، وتأييدنا لها يُصعّد من حدة الصراع لأنه يثبت صحة ادعاءات بن لادن، التي تقول إن الولايات المتحدة تهاجم الإسلام وتدعم أي دولة تنوي قتل المسلمين أو اضطهادهم.

وكخلاصة، إن لهفة واشنطن البافلوفيّة لتشكيل تحالف لمحاربة بن لادن لم تكن ضرورة عسكريّة، ومن المؤكد أنها لم تكن حكيمة، لأن ليس من مصلحة الولايات المتحدة إشعال كراهية المسلمين.

إن تحالفاً يضم روسيا، والصين، والهند، والفليبين، وإندونيسيا، واليمن، وعمالقة الاستعمار في القرن التاسع عشر في الشرق الأوسط، بريطانيا، وفرنسا، ودولة إسرائيل يجعل بن لادن يبدو في عيون أتباعه والمتعاطفين معه وكأنه نبي، وذلك لأنهم يرون صدق حجته بأن أميركا تتخذ حلفاءها فقط من بين الدول التي تسعى لقمع المسلمين والقضاء على الإسلام.

عبء العالة الأبديّة

لا توجد قضية مثيرة للجدل، وأصعب، أو أخطر من إسرائيل في سياق سياسة الولايات المتحدة الخارجيّة في مرحلة ما بعد الحرب. فالمشهد السياسي والاجتماعي الأميركي يعجّ بالشخصيات المُعَرَّضَة للهجوم باستمرار - وآخرها رئيس الولايات المتحدة - لتجرؤها على انتقاد إسرائيل، أو لتطاولها وتشكيكها بأهمية التحالف وحيد الاتجاه مع إسرائيل بالنسبة للأمن القومي للولايات المتحدة. وكل متحدث يدلي بهذا الرأي يتهم على الفور بمعاداة الساميّة وينفى إلى مزبلة السياسة الأميركيّة، وكأنه من البديهي أن تكون المخاوف المتعلقة بالأمن القومي الأميركي لا أساس لها إذا كانت تتضمن أي معارضة للعلاقة الراهنة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. من المؤكد أنه لم ولن توجد في التاريخ دولة بعيدة يحكمها الدين في كل شيء إلا بالاسم، وتعداد سكانها لا يتجاوز ستة ملايين نسمة، تمكنت من التحكم بشكل مطلق بالخطاب السياسي والجدل حول أمور تتعلق بالأمن القومي لدولة يتجاوز عدد سكانها مئتين وسبعين مليوناً وتفتخر بالتسامح الديني، وبفصل الدين عن الدولة، وحرية القول والفعل.

إن هذه الدولة التي رفضت منذ زمن طويل إقامة حكمها بناء على تدخّل الكنيسة لأن ذلك لا يتلاءم مع النظام الديموقراطي، تقوم بدفع أكثر من ثلاثة مليارات دولار من أموال الضرائب التي يدفعها المواطن الأميركي سنوياً لدولة تُصرّح علناً وبكل تحدٍّ أنها دولة يهودية ديموقراطية، إلا أن ديموقراطيتها تلك لا تتوافق أبداً مع الطريقة التي تتعامل فيها مع المسلمين في إسرائيل، والقيود التي تفرضها على الخيار السياسي لأولئك الذين يعيشون في الأراضي المحتلة، والمنفى الأبدي الذي فرضته على أولئك اللاجئين في المخيمات المنتشرة في أرجاء المشرق العربي. أما في الأمم المتحدة وفي المحافل الدوليّة، فتقف حكومة الولايات المتحدة بصراحة، وغالباً لوحدها، في صف إسرائيل لتحرّرها من الامتثال لقرارات الأمم المتحدة ومعاهدات الحدّ من التسلح. وبفضل دعم الولايات المتحدة لإسرائيل فقد تمكنت الأخيرة من تطوير ونشر أسلحة دمار شامل على هواها. وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فإن القاعدة على ما يبدو لم تبالغ في وصفها العلاقة الإسرائيليّة الأميركيّة بأنها تلحق الأذى بالولايات المتحدة.

> إن العلاقة القوية بين أميركا والكيان الصهيوني بحدّ ذاتها لعنة على أميركا. فبالإضافة إلى المبالغ الطائلة التي تدفعها الخزينة الأميركيّة نتيجة لهذا التحالف، فإن الثمن الاستراتيجي الذي تدفعه باهظ أيضاً لأن هذه العلاقة القوية حولت الهجوم على أميركا إلى هجوم على الكيان الصهيوني والعكس بالعكس. وهذا يسهم في لم شمل الأمة الإسلاميّة ويدفعها بقوة لتحشد قواتها وتتجه إلى الجهاد.

ولا يسع المرء أن يرد على هذه الحقيقة المذهلة إلا بالانحناء احتراماً للديبلوماسيين، والسياسيين، وأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، والمواطنين الأميركيين الذين يعملون جواسيساً لحسابها، وكذلك المسؤولين الأميركيين البارزين المتقاعدين، والمنظمات اليهوديّة الأميركيّة الثريّة التي تشكل تكتلاً تمكّن من إدارة دفة الكونغرس الأميركي لصالح المصالح الإسرائيليّة على الدوام. لقد نجح الإسرائيليون بطريقة مذهلة ولا مثيل لها في التاريخ في شدّ وثاق العملاق الأميركي بإحكام وجرّه باتجاه الدولة اليهوديّة الصغيرة وسياساتها. وكما كتب أناتول ليفن، لقد حقّق الإسرائيليون نجاحاً باهراً حتى أصبحت القوميّة الإسرائيليّة "بالنسبة لمعظم الأميركيين منصهرة تماماً في قوميتهم الأميركيّة"[21].

لقد كانت هناك أوقات ربما في السبعينات والثمانينات كان بإمكان أميركا أن تتحمل عواقب علاقتها مع إسرائيل، العلاقة التي تستهلك مواردها، وتتسبب بكراهية المسلمين لها، ولا تقدم أي فائدة تذكر للأمن القومي. وذلك لأن سنوات تلك الفترة شهدت بمعظمها ما كان يعرف "بعملية السلام العربيّة الإسرائيليّة" التي كانت قضية حامية في ذلك الوقت، وكانت تتمتع بقدر كبير من الأهمّيّة بالنسبة لفئة محدودة من الخبراء الذين كانوا يحاولون زرع بذورها بكل ما أوتوا من قوة مع أنها كانت فكرة بعيدة المنال على الرغم من الحديث عنها في كافة المناسبات والأحاديث الرسميّة. وبينما كانت تلك الفئة تعيش فقط لتدفع "عملية السلام" إلى الأمام، فإن باقي دول العالم لم تكن تبالي بما يحدث إلا إذا كانت هناك أخبار عن ضربات قام بها فلسطينيون، أو حزب الله، أو إذا ما وصلت حدة النزاع إلى أوجها بين الطرفين ولاح في الأفق شبح حرب تقليديّة. وهذا ما كانت عليه الحال بالنسبة لمباحثات الحدّ من التسلح بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، فقد كانت معظم دول العالم - الإسلامي والغربي - راضية طالما أن الطرفين يواصلان المباحثات عن طريق مختصين في عملية السلام، وكان تحقيق تقدم ملحوظ في تلك المباحثات، مبعثاً للراحة إلا أنه لم يكن ضرورياً طالما أن "العملية" متواصلة والحديث لا يزال جارياً على قدم وساق.

أما اليوم فقد اختلفت الظروف. "فالولايات المتحدة تتعامل مع الصراع الإسرائيلي الفلسطيني كما لو أنه نزاع محلي ممكن الاحتواء، لكنه آخذ في الانتشار والتوسع لدرجة أنه أدى إلى تصعيد المواقف لتصبح أكثر أصوليّة في بلاد مثل إندونيسيا وماليزيا". هذا ما كتبه كلايد بريستويتز في صحيفة *واشنطن بوست*. إن "التوسّع" الذي تحدث عنه بريستويتز يصعب تحديد تاريخه بدقة، لكن من المؤكد أنه قد بدأ في الاندفاع إلى الأمام في أواخر عام 1987 مع تأسيس مجموعة المقاومة الإسلاميّة الفلسطينيّة حماس ونشاطات جناحها العسكري إلى جانب جماعة الجهاد الإسلامي الفلسطيني التي سبقتها. لقد أضافت حماس والجهاد الإسلامي إلى الحرب الفلسطينيّة الإسرائيليّة بعداً جديداً وأكثر خطورة من قبل بمجاهرتهما باعتماد الإسلام أساساً لسياساتهما مما أكسبهما اهتماماً وتعاطفاً من شعوب العالم

الإسلامي أكبر من أي وقت مضى، مما أظهر الجماعات الفلسطينيّة الأخرى أقل التزاماً بقضية الدين مثل منظمة صبري البنا (أبو نضال)، ومنظمة التحرير الفلسطينيّة بقيادة ياسر عرفات والجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين - القيادة العامة بزعامة أحمد جبريل. إن بذور حماس والجهاد الإسلامي الفلسطيني زرعت على يد قائد الثورة الإسلاميّة الشيعيّة في إيران آية الله الخميني، تلك الثورة التي أشعلت "يقظة إسلاميّة" دوليّة مما أضاف إحساساً من الضراوة، والثقة بالإسلام المعاصر أذهل الغرب كما أنه لم يكن متوقعاً بالنسبة للعديد من المسلمين. وقد تزامنت هذه الأحداث مع بدء الجهاد السني في أفغانستان بكسب الحرب ضد الجيش الأحمر والشيوعيين الأفغان، فقدموا بذلك للعالم مثالاً حياً عن الأهداف المجيدة التي يمكن أن تحققها حركات المقاومة الإسلاميّة المسلحة من خلال الحرب التي يتم شنّها باسم الله وبعون منه.

إن ترابط الأحداث وتطوّر التغطية الإعلاميّة التي تقدمها المحطات الفضائية، أعطت إحساساً بالتقدم المستمر. ففي بعض الأحيان كانت المعارك الدامية التي تدور بين الإسرائيليين والمقاومة الفلسطينيّة (حماس والجهاد) تنقل في بث حي ومباشر مما أتاح لجمهور المسلمين في شتى أصقاع المعمورة فرصة المشاركة ولو المعنوية في الجهاد. أضف إلى ذلك أن اليقظة الإسلاميّة التي دعا إليها الإمام الخميني كانت تحثّ كل المؤمنين على الاهتمام بكل مسلمي العالم وتقديم الدعم والتأييد لهم. وعليه ومع اندلاع الانتفاضة الفلسطينيّة الثانية عام 1999 ذات الطابع الأصولي، والصحوة الإسلاميّة العالميّة، وتكلل جهاد الأفغان بالنصر وترافق ما سبق بتغطية إعلاميّة فضائيّة ساهم في عولمة الصراع الذي كان لوقت ليس بقصير مسألة حيوية لبعض المطلعين، لكنه أصبح الآن قضية حياة أو موت للعالم بأسره.

وعندما ظهر بن لادن، أعلن كل من له علاقة بالقضية الفلسطينيّة من ياسر عرفات إلى عشرات المسؤولين والمعلقين الغربيين والمسلمين، أن بن لادن قد جاء متأخراً وأنه يستغلّ القضية الفلسطينيّة ويستخدمها حجة للاستمرار في جهاده. وكما أشرت في كتاب *النظر من خلال عيون أعدائنا*، فبن لادن كان مهتماً بشكل خاص في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني منذ نهاية الجهاد في أفغانستان أو حتى قبل ذلك[23]، حيث صرّح هو وغيره من زعماء وقادة القاعدة عن نيتهم ورغبتهم بشنّ هجمات

داخل إسرائيل مع الإشارة إلى أن هجمات كهذه كانت مستحيلة بالنسبة للقاعدة بسبب رفض كل من الأردن، وسوريا، ولبنان، ومصر تأمين مأوى وملاذ للجماعة وذلك طمعاً في كسب رضى واشنطن و......... "إذا كان الحكّام العرب جادين في ما يتعلق بإيجاد حل لهذه القضية [فلسطين]، فعليهم فتح حدودهم..."[24] هذا ما قاله المتحدث باسم القاعدة سليمان أبو غيث في يوليو عام 2002. وهذا هو نفس العامل الذي يقول بن لادن إنه أحبط خطط القاعدة التي كانت تهدف إلى تشكيل حركة مقاومة مسلحة كبيرة في البوسنة أثناء حروب البلقان التي جرت في التسعينات. وبالرغم من ذلك فإن هجمات أكتوبر عام 2002 على فندق إسرائيلي وطائرة ركاب إسرائيلية في مومباسا في كينيا، وهجمات نوفمبر عام 2003 على كنيسين يهوديين في تركيا وضعت القاعدة في صلب الحرب مع إسرائيل. وقد جاء في تصريح للقاعدة على الإنترنت عقب الهجمات أعلنت فيه تبنيها لهجمات عام 2002: "في هذا الشهر المبارك [رمضان] تعمدنا تأجيل التهاني بحلول شهر رمضان لما بعد عمليتي مومباسا في كينيا التي استهدفت مصالح إسرائيليّة حتى يكون لها معنى إيجابي في الظروف التي تواجهها الأمة على يد أعدائها الصليبيين واليهود"[25].

أما انتشار القاعدة الواضح في لبنان، والذي أشرت له في الفصل الثالث، فهو يوحي بشدة أن بن لادن يكرّس الاهتمام، والجهود، والمال، والكوادر العسكريّة ليقيم مركزاً ثابتاً للقاعدة هناك بغية تنفيذ هجمات داخل إسرائيل. ونظراً لإيمان بن لادن بمبدأ العين بالعين، فإن اغتيال إسرائيل لعبد الستار المصري قائد القاعدة في لبنان، سيؤدي إلى تكثيف الجهود الراميّة إلى إقامة ساحة للمعارك بين الطرفين هناك.

وعلى الرغم من أن بن لادن والقاعدة ليسا طرفين عسكريين أساسيين في الحرب الإسرائيليّة الفلسطينيّة إلا أنهما يهتمان كثيراً بهذه الحرب ويظهر هذا الاهتمام بشكل خاص في موقعيها على الإنترنت النداء والأنصار[26]. إلا أن المكانة البارزة التي يحتلها بن لادن دولياً كانت من أهم العوامل التي ساهمت في تركيز اهتمام المسلمين بالقضية الفلسطينية. وسواء ركّز بن لادن في خطاباته، وفي عمليات القاعدة، وحملاتها الإعلاميّة على إسرائيل أم لا، فإنه قد أبدع بيئة جعلت وسائل الإعلام الغربيّة والإسلاميّة تولي اهتمامها الرئيسي لتغطية مركّزة لكل الأخبار التي تتحدث عن أي

مكان في العالم يشهد معارك يخوضها المقاتلون المسلمون. أما من حيث الحديث عن القادة المسلمين، فكما أشرت سابقاً، يقف بن لادن وحيداً، ولا أحد غيره في الساحة. ونظراً لوضع بن لادن كشخصيّة هامة جداً وتحت الأضواء، حيث يصوّر دائماً على أنه مسؤول عن نشاطات كافة الجماعات الإسلاميّة، فإن الصحافيين الذين يغطون أخبار الهجمات التي يشنّها السُنة في أي مكان في العالم يشيرون دوماً إلى القاعدة أو بن لادن على أنه مدير المعتدي، أو حليفه، أو مموّله، أو ملهمه. ولهذا السبب فإن معظم الجماعات السنيّة المسلحة اكتسبت أهمية أكبر وتركيزاً إعلامياً لم تكن لتحظى به لولا المكانة البارزة التي يحتلها بن لادن على الساحة الدوليّة. كما أن الفائدة التي أخذت تقطف ثمارها مؤخراً حركة حماس والجهاد الإسلامي وفتح، من الدعاية المتزايدة على الصعيد الإعلامي لا ترجع إلى الهجمات التي يقومون بتنفيذها فحسب، بل إلى التركيز الإعلامي الهائل على الانتشار الواسع لحركات المقاومة السنيّة المسلحة، والذي يعود إلى المثال الحي الذي يمثله بن لادن وخطاباته المحرّضة وهجمات القاعدة. وقد كتب أبو عبيد القرشي في الأنصار في أوائل العام 2002 في هذا الشأن: "**إن الرموز لم تفقد قيمتها، وها هو الشيخ أسامة أصبح رمزاً للمظلومين والمضطهدين في الشرق والغرب، حتى بالنسبة لغير المسلمين**" (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). ويمكننا أن نضيف في هذا المعرض أن جدار الفصل العنصري الذي تبنيه إسرائيل لتفصل المسلمين عن اليهود وإصرارنا على اعتبار الجدار وسيلة للدفاع عن الإسرائيليين بعكس ما يراه المسلمون كجدار يزيد من الاضطهاد والقمع بالإضافة إلى اغتصاب إسرائيل لمزيد من الأراضي كلها عوامل تزيد من شهرة بن لادن[27].

حتى عندما تكون على حق، الثمن الذي تدفعه هو الكراهية والسخريّة

بما أن أميركا هي الدولة الأقوى والأعظم في العالم، وبما أنها موطن أقوى وأهم وسائل الإعلام فهي دائماً تحت المجهر الذي ينظر إليها العالم بأسره من خلاله. ينظر البعض إليها بحقد، أو يفسّرون الأعمال الشرعيّة التي تقوم بها بطريقة خبيثة. ولن نستفيد أو نتوصل إلى أي نتيجة إن شككنا بهذه القضية، فهي إحدى

حقائق الحياة، كما علينا أن نأخذها دوماً بعين الاعتبار عندما نهمّ بتخطيط وتنفيذ السياسات الخارجيّة. فعلى سبيل المثال قامت الولايات المتحدة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر باتخاذ بعض التدابير والإجراءات لتعزيز الأمن الوطني أدت إلى تعميق كراهية المسلمين لأميركا، سواء كانوا من مؤيدي القاعدة أو لا. لا يعني هذا أنه كان على واشنطن أن تمتنع عن القيام بتلك الإجراءات. إلا أن هذا يعني أننا من خلال تقدير وفهم عقليّة وأهداف خصومنا الإسلاميين، يمكننا أن ننتبه قدر الإمكان إلى الأمور التي من شأنها إشعال فتيل كراهيتهم وتنشيط عملياتهم العسكريّة. ولهذا ستجدون في ما يلي دراسة تهدف لزيادة الوعي في أميركا لا لمراعاة مشاعر المسلمين الجريحة. وفيما يلي سنناقش بعض الإجراءات التي أسهمت في مساعدة أعدائنا على تحقيق أهدافهم بدفع المسلمين على محاربتنا.

ولتوضيح الفكرة يجب أن نتذكر أولاً وصف القاعدة للغرب الذي تتزعمه أميركا على أنه عدو المسلمين الأبدي، الذي يوقف جهوده في سبيل إذلال وإفقار، وفي النهاية تدمير أي مسلم يرفض أن يتخلى عن دينه ويخنع للغرب المسيحي وحلفائه اليهود. كما يجب ألا ننسى أن الظواهري قال في أكتوبر عام 2002 إن "**المسلمين قد عانوا من أسوأ وأخطر الكوارث لأكثر من مئة عام. فقد احتلت أراضيهم سواء من القوات الأجنبية أو من خلال السيطرة السياسية المطلقة، ونهبت ثرواتهم بسلطة القانون على رؤوس الأشهاد، وسلبت منهم إرادتهم الحرّة، كما أهدرت وسرقت حقوقهم ودنّست حرمات مقدساتهم**"[28] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وفي سياق كلام القاعدة حول هذا الموضوع - الذي يسمعه الغربيون غالباً دون أن يستوعبوه - فمن الواضح أن الهجمات العسكرية التي شنّتها الولايات المتحدة على البلاد الإسلاميّة والحظر الاقتصادي الذي فرضته عليها، والمطاردة السرّية للمجاهدين، واعتقالهم وسجنهم، وغزو واحتلال أراضي المسلمين، كلها أحداث تؤكد بل وتزيد من بشاعة الصورة الكريهة لأميركا التي رسمها بن لادن والإسلاميون. كما أن الحقيقة الواضحة هي أن هناك نشاطات تقوم بها حكومة الولايات المتحدة يراها الأميركيون والعديد من الغربيين على أنها طبيعيّة أو منطقيّة أو تعليميّة بينما ينظر إليها المسلمون على أنها أدلة دامغة تثبت ادعاء بن لادن أن أميركا لا تكنّ للإسلام إلا الحقد والبغض.

قوانين أكثر صرامة تخص الهجرة أم أننا "لا نريد أن يتقدم المسلمون بطلبات للهجرة؟"

إن الحاجة لتعديل قوانين الهجرة إلى الولايات المتحدة ووضع القوانين السارية قيد التطبيق هو أمر منطقي جداً سواء قبل أو بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر. أما ردّ الفعل داخل المجتمع الأميركي على التشدد الذي أبداه الكونغرس في ما يخص سياسة الهجرة فكان إيجابياً، مع التحفظ إزاء ما يخص بعض الحريات المدنيّة. فقد اتفق معظم الأميركيين بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر على أن الوقت قد حان لمعرفة عدد الأجانب المقيمين في الولايات المتحدة بصورة غير شرعية، والحقيقة أن عدم إنهاء واشنطن لعملها المتعلق بالعثور على كل المخالفين، ومنحهم إقامة شرعيّة، أو إعادتهم إلى بلادهم كان أمراً خطيراً ويدعو للاستياء. أما بالنسبة للكثير من المسلمين وحكوماتهم، فإن القوانين الجديدة كانت تعصباً واضحاً هدفه إهانة المسلمين، والإساءة إليهم بجعلهم يبدون أشراراً أمام الأميركيين. فقد ناشد مثلاً وزير خارجية باكستان K.M. Kasuri واشنطن أن تخفف من صرامة هذه القوانين لأنها تقوّي المشاعر المعادية للولايات المتحدة في باكستان. بينما أشار المعلّق في جريدة الشعب المصرية محمد صالح "**أن على مصر أن تطلب من الأميركيين الموجودين داخل أراضيها التوجه إلى السلطات المصريّة ليتم أخذ بصماتهم، والتحقق من شخصياتهم، وليتم تسجيل أسمائهم واستجوابهم حول علاقاتهم مع إسرائيل وهيئة الاستخبارات الأميركيّة**"[29] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي).

وعلى الرغم من أن خطابات بن لادن لم تكن السبب في ردود أفعال كهذه، إلا أن إصراره على تكرار نفس الموضوع ليلفت نظر المسلمين إلى السياسة التي يتبعها الغرب منذ أن انتهت الحرب العالميّة الأولى والتي تتمثل في إذلال الإسلام وإهانة المسلمين، أدى إلى رؤية كل ما تقوم به الولايات المتحدة بأسوأ صورة ممكنة. وعندما يتم تأخير المسلمين في المطارات من قبل شرطة المطارات لأسباب أمنيّة وعندما يتوجب على المواطنين القادمين من الدول الإسلاميّة فقط أن يحضروا بشكل دوري إلى دوائر الهجرة في الولايات المتحدة خلال زياراتهم إلى أميركا – وهو قانون كان قد فرض فقط على القادمين من كوريا الشماليّة – فإنهم لا يرون في ذلك إجراءات أمنيّة مشددة

لحماية الأمن الداخلي، بل إنها بنظرهم قوانين تهدف إلى توجيه الإساءة والإهانة إلى المسلمين وتظهر التعصب الأعمى ضدهم. وقد كتب عبد الباري عطوان في صحيفة *The Observer*: "إن الولايات المتحدة التي تعتبر نفسها "جمهورية المهاجرين"، انقلبت على مبادئها وقيمها باحتجازها الآلاف من مواطنيها المسلمين وذوي الأصول العربيّة"[30]. كما أن تفسير المسلمين في كل أنحاء العالم لتلك القوانين بطريقة سلبية ظهر بشكل واضح في الإدانة الشعبيّة لها في مايو ويونيو عام 2002 من قبل الإعلام والحكومات في كل من اليمن، ومصر، وباكستان، وقطر، والأردن، والسعودية. "من المؤكد أن الإجراءات الأخيرة... ستؤدي إلى تفاقم حالة جنون الارتياب العامة الموجودة أصلاً في أميركا ضد العالم الإسلامي". هذا ما جاء في مقال كتب في صحيفة سعودي *غازيت* في يونيو عام 2002[31]، بينما شجبت صحيفة *الوطن* القطريّة "الإجراءات الأميركيّة العنصريّة وغير المسبوقة التي جعلت من المسلمين هدفاً للانتقام، وأشارت إليهم بأصابع الاتهام وأدت إلى عزلهم بالكامل... وأضافت كنا نود أن تتذكر الحكومة الأميركيّة بعضاً من سياسات أبراهام لينكولن"[32] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). أما في باكستان فقد أدانت الصحيفة اليومية المعروفة *Nawa-i-waqt* القوانين الجديدة بوصفها استهزاء "بالتعاليم الحضاريّة والثقافيّة التي تصدّرها الولايات المتحدة للعالم"، كما حذّرت أن هذا "الهجوم على دين عالمي كالإسلام وعلى الأمة الإسلاميّة المحبة للسلام لن يكون مثمراً بالنسبة للولايات المتحدة. فالحكومة، والأمة، والكونغرس الأميركي يجب أن يفكروا في هذا الأمر ملياً"[33].

صحيح أن قوانين الهجرة الجديدة تجعل أميركا أكثر أمناً، وصحيح أنه من الواجب الإبقاء على هذه القوانين كما هي، إلا أن من الواضح أنها تؤكد للمسلمين ادعاء بن لادن أن سياسات الولايات المتحدة معادية للإسلام وأن أنظمة الدول الإسلاميّة – كتلك التي تدين هذه الإجراءات دون أن تفعل أي شيء حيالها – لا تمتلك القوة التي تمكنها من حماية مواطنيها من بطش الولايات المتحدة، ولهذا فهي تترك هذه المهمة للقاعدة وأمثالها. وكما قال محرر صحيفة *Nawa-i-waqt* "إن المجتمع الإسلامي لا يتمتع بالشجاعة والإرادة والقدرات" لتحدي الولايات المتحدة وقوانينها الخاصة بالهجرة[34].

إجراءات حربيّة أم تمييز عنصري؟

لقد كان بن لادن صريحاً دائماً في تأكيده أن واشنطن منافقة في ادعائها أن كل الناس يتمتعون بالحق في الحريات المدنيّة والشخصيّة التي يقدّسها القانون الأميركي، وقال إن حكومة الولايات المتحدة ستضمن دوماً منح هذه الحقوق للمسيحيين والبيض فقط. كما يقول إن هذه الحقوق لا تعطى للمسلمين إلا إذا تخلوا عن دينهم وانصاعوا لأميركا. وفي هذا السياق يرجح أن يرى جمهور بن لادن بعض الإجراءات الحربيّة الشرعيّة التي ستقوم بها الولايات المتحدة، كدليل يثبت صحة ادعاءاته المتعلقة بالعنصريّة والنفاق الأميركي، فالجهود الأميركيّة الرامية إلى تعطيل الاتصالات الإلكترونية للقاعدة مثلاً - وذلك من خلال الهجوم على موقعي الإنترنت النداء والأنصار والضغط على قناة الجزيرة كيلا تبث أشرطة الفيديو التي ترسلها لها القاعدة - هي إجراءات أمنيّة أساسيّة. إن فسح المجال أمام العدو لإجراء اتصالات دون أي قيود في وقت الحرب، يعدّ جريمة تضاهي عدم الاستعداد للقيام بردّ عسكري على اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر. إلا أن هذه الأفعال التي تقوم بها الولايات المتحدة تبدو وكأنها تثبت صحة ادعاءات بن لادن حول النفاق والعنصريّة، من خلال إظهار أن حرّية التعبير والكلام غير مسموحة للمسلمين. وكما قال الظواهري، إن أفعال الولايات المتحدة تظهر نفاق الادعاءات الأميركيّة عن "حرّية التفكير وحرّية التعبير وحقوق الإنسان والعدالة والمساواة..."[35].

كما أن فكرة بن لادن قد أثبتت من خلال إجراءين اتخذتهما الولايات المتحدة. أولهما كان في التناقض بين ضغط الولايات المتحدة على قناة الجزيرة كي تقوم بتشفير أو رفض بث الأشرطة التي يرسلها إليها بن لادن أو أحد زعماء القاعدة، واندفاع وزير الخارجيّة في فبراير عام 2003 لإذاعة شريط بصوت بن لادن لم يكن قد بثّ بعد وذلك كي يثبت لمجلس الأمن في الأمم المتحدة حقيقة التعاون بين العراق والقاعدة. "لقد انقضت الإدارة الأميركيّة على الشريط [شريط بن لادن]، تلك الإدارة التي ناشدت شبكات التلفزة في الماضي - عن طريق كونداليسا رايس [مستشارة الأمن القومي الأميركي] - ألا تبث الأشرطة في الحال خوفاً من أن يؤدي إلى تنشيط خلايا نائمة للقاعدة بواسطة شيفرات معينة تكون

متضمنة في الشريط. لكن هذه المرّة سارعت الإدارة إلى إطلاق الشريط على الفور... فهل لم تعد جماعة بوش تبالي إذا ما كان أسامة يبعث برسالة مشفّرة إلى جماعته طالما أنه لا يزال على اتصال بهم [في ما يتعلق بالتعاون بين العراق والقاعدة] وذلك من أجل حفظ ماء وجه البيت الأبيض؟"[36] هذا ما كتبته مورين دود في صحيفة *نيويورك تايمز*. أما الإجراء الثاني الذي قامت به الولايات المتحدة لإثبات ادعاءات بن لادن فقد كان قرار واشنطن بزج السجناء الإسلاميين في معسكرات خليج غوانتانامو وعدم منحهم تمثيلاً قانونياً، وهو عمل لا تؤيده عادة المحاكم العليا في الولايات المتحدة. وقد تمت رؤية هذا العمل في كافة أنحاء العالم الإسلامي على أنه إثبات لكل ما قاله بن لادن. فوجود معسكر دلتا بالنسبة لبن لادن يظهر أن الحريات المدنيّة الأميركيّة ليست للمسلمين، وأن الذلّ والمهانة - كالبذات البرتقالية - والأغلال، وعصابات الأعين، والأقفاص المسوّرة بالأسلاك الشائكة - ستكون من نصيبهم إذا تمسّكوا بدينهم. واللمسة الأخيرة التي تثبت بالدليل القاطع ودون أي جدل صحة مزاعم بن لادن كانت أعمال موظفي الجيش الأميركي في السجون الأميركيّة التي لا توجد كلمات يمكن أن تصف فظاعتها.

تقارير الجيش الأميركي: حرب متعادلة أم قتل المسلمين بمواسير البنادق؟

منذ اندلاع حرب الخليج عام 1991، أخذ ضباط الجيش الأميركي يرسلون تقارير يوميّة مصوّرة عن العمليات الأميركيّة في ساحات الحرب التي غالباً ما تكون إسلاميّة. وإلى يومنا هذا، لا يزال الأميركيون ينتظرون هذه التقارير، ويتمتعون بها، كما يبدو أنهم يصدقون أن أولئك الضباط هم أفضل المواطنين في أميركا، وقد أصبحت هذه التقارير جزءاً من الحكومة المنفتحة الشفافة التي يفتخر بها الأميركيون. عادة ما يبدأ التقرير بمقدمة يقولها الضابط الكبير/نجم مسرحيّة اليوم، يليها تصوير للقصف الجوّي الأميركي على المواقع العسكريّة التابعة للعدو، ومنشآته الصناعيّة، بالإضافة إلى البنى التحتيّة. وكل لقطة تشابه تقريباً اللقطات الأخرى حيث يرى فيها المشاهد هدفاً من خلال الخطوط الدقيقة لعدسة كاميرا الطيار وتبقى مركزة على تلك النقطة الهدف حتى يحدث الانفجار الهائل الذي

يكون دائماً صامتاً. وتنتهي الرسالة المصوّرة دون تغطية لمشاهد الخسائر التي تخلّفها تلك الانفجارات أو عدد القتلى، وربما يثبت هذا رأي كريس هيدج في كتابه *الحرب هي تلك القوة التي تعطي معنى لحياتنا*: "إن الجنرالات الذين لا يعنيهم الولاء والإخلاص أكثر مما كان يعنيهم في فيتنام، تمكّنوا على الأقل من تمثيل هذا الدور ببراعة متناهية"[37]. لطالما اعتقدت أن أشرطة الفيديو هذه تهدف إلى عرض مهارات طيارينا، وتطوّر معداتهم، وإثارة الرعب في وحدات العدو التي لم يتم الهجوم عليها بعد، وتقديم دليل للأميركيين يثبت أن ضرائبهم التي دفعوها لم تضع سدى، ولطمأنة العالم أن أميركا تخوض حرباً بحذر ودقة للحدّ من الخسائر التي قد تتسبب بها.

إن هذه الأهداف تعد معقولة ومنطقيّة تماماً بالنسبة للمشاهدين الغربيين الذين ازدادت قناعتهم بما وصفه روبرت كابلان بأنه "الأسطورة الحمقاء" التي تقول بأن شنّ حرب ذات خسائر محدودة من الطرفين هو أمر حقيقي وممكن في الواقع[38]. إلا أن مشاهد الفيديو تلك تثير مشاعراً سلبيّة من الحقد، والكراهية، والألم لدى المسلمين لأنها تصوّر العنف الذي يمارس بحق المسلمين، حيث إنها تظهر أنه مهما كان مستوى الدقة التي تستخدم في رمي القنابل أو إطلاق النار الذي تقوم به الطائرات الأميركيّة فهي في نهاية الأمر تؤدي إلى قتل المسلمين. إن المحتلّين يقتلون المسلمين في هذه المشاهد المصوّرة ومما يزيد من سوء هذه الحقيقة الادعاءات التي يطلقها مسؤولونا في وسائل الإعلام، بأن معظم الشباب الأفغاني والعراقي الذي خدم في قوات الملا عمر وصدام هم عبارة عن مجندين التزاميين أجبروا على الاختيار بين الجنديّة أو المخاطرة بحياتهم وحياة أفراد عائلاتهم بوضعها تحت رحمة الدولة. كما أن الإسلاميين وغيرهم من مسلمي العالم الإسلامي - حيث يسيطر العنف الذي لا يفرق بين أحد وآخر على لغة الحوار - يرون الهجمات الدقيقة والتي تهدف بشكل متعمد إلى الحدّ من وقوع عدد كبير من الضحايا، على أنها ضعف ونقص في العزيمة والتصميم مع أن هذا هو الأسلوب الذي عرّف يوليسس إس غرانت وروبرت إي لي العالم به للمرة الأولى في حرب Overland Campaign التي جرت عام 1864. إن الهجمات العسكريّة الضعيفة التي تنفّذها الولايات المتحدة توحي لأصدقائنا وخصومنا المسلمين بأن أميركا لا

تمتلك الوحشيّة العسكريّة الكافيّة لحماية حلفائها أو القضاء على أعدائها، "سيفسر المحاربون هذه الكراهية التي نكنّها للعنف وابتعادنا عنه على أنه ضعف من طرفنا، مما سيمنحهم الشجاعة والجرأة للمتابعة في سبيل نصرة قضيتهم، حيث إن أولئك الخصوم يرون أن قيمنا الأخلاقيّة متمّثلة في خوفنا من التسبب بخسائر إضافيّة تمثّل نقاط ضعفنا التي ستوقعنا في أيديهم"[39]. هذا ما أكده روبرت دي كابلان في كتابه *سياسات محارب*. إن هذين الانعكاسين يؤديان إلى صياغة أفكاره على الشكل التالي: إن الأميركيين على استعداد كامل لقتل المسلمين الأبرياء - وهم في هذه الحالة المجنّدين - لكنهم ليسوا على استعداد للمجازفة بحياة جنودهم وإغضاب الرأي العام العالمي الذي قد تتسبب به إبادتهم لعدوهم بشكل كامل.

لنغيّر سياساتنا

في الوقت الذي نتخبط فيه بالأوضاع السيئة التي صنعناها بأيدينا في العالم الإسلامي، يبدو أننا قد علقنا في دوامة تشدّنا نحو الأسفل، سببها النص السياسي الذي نقرأ منه أدوارنا في هذه المسرحيّة. والنتيجة هي أن الخطوات التي نتّخذها لحماية أنفسنا وإنقاذ حياة الآخرين - كإجراءات الهجرة والتفجيرات التي تنفّذ بدقة وعناية - يراها خصومنا المسلمون دليلاً يثبت عنصريتنا، ونفاقنا، وتردّدنا، وجبننا. أما التدابير التي نتّخذها للدفاع عن أنفسنا والآخرين فهي تمدّ أعداءنا بقوة تجعلهم يكرهوننا أكثر، ويهاجموننا بعنف أكبر دون أي خوف من العواقب. إن عنجهية وعناد أميركا يعميانها عن رؤية عواقب سياساتها الفاشلة إزاء العالم الإسلامي. إن كل ما سبق يشكّل مصدر قوة لبن لادن وأولئك الذين يقودهم ويلهمهم، وهذا ما لا يدركه قادة الولايات المتحدة ونخبتها السياسية.

8

المستقبل: بعض الاقتراحات المطروحة للنقاش

الآن وبعد أن انتهى كل شيء – وبالرغم من غبائي – تمكنت من رؤية الأخطاء التي ارتكبتها ولاحظت أنه لم يقم أحد بتنبيهي إلى تلك الأخطاء إلا بعد فوات الأوان.

روبرت. إي. لي، 1863[1].

إن الفرق بين النظريات التي توضع في زمن الحرب والنتيجة الافتراضيّة التي توصل إليها السيد لينكولن يتمثل بأنه لم يتم وصف العدو وحده بالشرير.

كنث غرام، 1994[2].

إن قواتنا المسلحة لا تنقصها الشجاعة والبسالة، إلا أن الجبن البيروقراطي يسيطر على أجهزتنا الاستخباراتيّة (إضافة إلى سيطرته على كافة المسؤولين من أعلى المستويات في قيادات الجيش).

رالف بيترز، 1999[3].

في اليوم الأول الذي يباشر فيه ضباط الاستخبارات عملهم يتم تنبيههم بألا يقترحوا أي سياسة مهما كانت. فالتخطيط ووضع السياسات ليس من اختصاصهم ولا يعنيهم بأي شكل من الأشكال. إن ما سبق لا يعني أنه ليس لضباط الاستخبارات آراؤهم السياسية الخاصة بل العكس هو الصحيح. إلا أن التعليمات تهدف إلى حثهم على إدراك أن عملهم هو تقديم أفضل المعلومات الاستخباراتيّة بأسلوب واضح، ومقتضب، ومحايد. وهذا ما يحدث إلى أن يصل هؤلاء الضباط إلى المستوى المتوسط في السلم الإداري – في هذه الفترة وهي حقاً

حرجة يجبر الضباط على إثبات كفاءة في العمل الاجتماعي - وعندما يصلون إلى الرتب العليا يبدأ الدرس الذي تعلموه في أول يوم عمل لهم بالتلاشي، فهم لا يزالون قادرين على جمع المعلومات وتقديمها بأفضل أسلوب إلا أن استعدادهم لتقديم تلك المعلومات "يظهر القليل من الأمانة والكثير من الولاء..." على حدّ تعبير رالف بيترز. إن التعبير الصريح عما سبق يتلخص بأن الإخلاص للمؤسسة يكون على حساب الأمانة الشخصيّة والمهنيّة، وباعتقادي هذا هو سبب النتائج المدمّرة التي يتم الوصول إليها. وكما أشار لي في غيتيسبرغ فكل خطة سيصيبها مقدار كبير من النجاح، فيما لو اعتمدت على معلومات كاملة وملاحظات صحيحة من الخبراء الذين يعرفون كل الأمور ذات الصلة بالقضية المطروحة[4].

في حالة الابتعاد عن المجازفة السائدة في الطوابق التي تضم مكاتب المدراء في أبنية أجهزة الاستخبارات - والطابق السابع بشكل خاص يعاني من أسوأ هذه الحالات - لا يزال ضباط الاستخبارات الكبار يقدّمون معلومات واضحة، وموجزة، وغير متحيزة، لكنهم أصبحوا أكثر انتقائيّة عند اتخاذ قرار حول ما عليهم نقله من معلومات لصنّاع السياسات بما فيهم الرئيس. وهذه الانتقائيّة تشمل قضايا بالغة الأهميّة مثل القضايا المتعلقة بالقاعدة، وكوريا الشماليّة، والصين، وغيرها من الدول. بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بوضع التعاون بين أجهزة الاستخبارات المختلفة ومسائل تعني صنّاع القرار السياسي بشكل خاص. إن الانتقائيّة الحقيقية قد تستثني مواضيع لا تهم صنّاع القرار السياسي أو معلومات قد تؤدي إلى إثارة غضبهم واستيائهم. كما أن هذه العملية قد تسفر عن إهمال المعلومات التي من شأنها تحريض صنّاع السياسة على اللجوء إلى اتخاذ إجراءات قد تؤدي - في حال تطبيقها - إلى إخفاق أجهزة الاستخبارات وتعرّضها للانتقادات الحادة من قبل الكونغرس، أو صنّاع القرار السياسي، أو الإعلام كما أنها قد تفضح الأخطاء المنهجيّة في أجهزة الاستخبارات والتي لم تفتح ملفاتها بعد. ففي ما يخص الخطر الذي يشكّله بن لادن على سبيل المثال لا الحصر، كان فرانسيس فوكوياما مخطئاً جداً عندما أكد أن الاستخبارات الأميركيّة في التسعينات "لم تكن موضوعيّة حيث إنها بالغت في تقييمها لتلك التهديدات"[5]. أما حقيقة الأمر، ومن خلال خبرتي

العمليّة حيث إنني كنت عندئذ أعمل على هذه القضايا بالذات، كانت العكس تماماً، فقد استهانت أجهزة الاستخبارات في التسعينات بخطر القاعدة وتهديداتها واستخفت بعواقبها. وفي كتاب *عصر الإرهاب المقدس* كتب ستيفن سايمون ودانييل بنجامين، وقد شهدا الأحداث بشكل يومي، حقيقة ما كان يجري حيث إن "المسؤولين في هيئة الاستخبارات المركزيّة عن قضية محاربة الإرهاب... أخذوا على عاتقهم مهمة تهدئة مخاوف البيت الأبيض وكأنما كانت تدخل في صلب عملهم..." وكان هدفهم من وراء إخفاء الخطر الكبير للتهديدات هو خوفهم من أن يقوم البيت الأبيض بإصدار أوامر تقتضي باتخاذ إجراءات وتدابير وقائية متسرعة - قد تقضي على مستقبلهم الوظيفي في حال لم تنجح - إذا كان الخطر قد تم تقييمه بصدق[6].

الجزء الأول: نصائح وأفكار للدراسة والبحث

والآن حان دوري كي لا أكون الموظف الذي نظر إليه مارس روبرت بازدراء واحتقار. فبعد أكثر من عشرين عاماً مرّت دون أن يسمح لي بالتدخل في وضع السياسات، لن أحاول أن أقترح سياسة ما بل سأقدّم بعض الاقتراحات والأفكار التي يمكن أن تفكّر أميركا في الاستفادة منها في مساعيها الراميّة للتغلب على بن لادن والقضاء على الحركات الإسلاميّة النضاليّة. وفي النهاية إن هذه الاقتراحات ليست إلا أفكاراً قدّمها رجل واحد يعلم أن ثمة رجال ونساء كثر أذكى منه، ويعرفون أكثر منه في هذا المجال. ومع ذلك فلا ضير من الاطلاع على هذه الاقتراحات التي لا يمكن أن تكون أسوأ بالنسبة لأميركا من تلك التي اتبعها قادتنا حتى اليوم.

لا تخافوا إنها حرب لا أكثر وهي فريدة من نوعها ككل الحروب التي سبقتها

لقد خاضت أميركا حروباً كثيرة منها ما تكلل بالنصر ومنها وما انتهى بهزيمتها، حروب كبيرة وصغيرة، محليّة وخارجيّة، بدءاً من حكم السيد وينثروب على مستعمرة خليج ماساتشوستس. إلا أننا منذ اعتداءات الحادي عشر من

سبتمبر تصرّفنا جميعاً كما لو أن هذه الحرب هي أول حرب نخوضها. فقد أمضينا السنوات القليلة الماضية في تحويل إدارات الحكومة الفدراليّة إلى إدارات عملاقة لا يمكن قيادتها والتحكم بها، وفي إحراج أنفسنا بتحذيرات من تهديدات متوقعة ألوانها مختلفة باختلاف ألوان إشارات المرور في الشوارع العامة غير مصحوبة بنصائح حول الخطوات الدفاعيّة التي يجب اتباعها، وتصريحات يوميّة لا حصر لها على مستوى الرئاسة تتبجح بالتقدم المنقطع النظير الذي تم إحرازه ضد القاعدة وتحذّر المواطنين من أن التهديد الذي تمثّله القاعدة قد أصبح أخطر مما كان عليه في الحادي عشر من سبتمبر.

لقد كان أداء الأطراف المعنية في الحرب على الإرهاب سيئاً، ومثيراً للارتباك، ومشوشاً للأذهان كما أظهر أحياناً نقصاً في النضج، والثقافة، والحكمة. إن قيادة الحرب يجب أن تكون منظّمة، وهادئة، وغير متسرّعة. إن كسب الحروب لا يتم بكثرة التصريحات والأصوات العالية التي تردد أخبار انتصارات ضئيلة، وتستهين بخطر لم يتم فهم أبعاده وأسبابه حتى اليوم. أما المواطنون الأميركيون العاديون الذين لطالما تمتعوا بصلابة وعزم يفوق مجتمعهم النخبوي، فهم ليسوا بحاجة لطمأنة مستمرة وتقارير يوميّة من قادتهم. بل هم بحاجة لأداء هادئ وواثق يؤدي إلى تقدم نوعي واضح بحيث يقوم القادة بنقل أخبار هذا التقدم بتقارير بعيدة عن الدراما والمبالغة. فالعمليات المسعورة، والثرثرة التي لا تنقطع، والأصوات العالية تدل عادة على الارتباك الذي يعتبر السمة المميزة للإدارة في واشنطن. لنتابع حربنا، ونتقدم، ونتذكر قوة الصمت. فلننظر إلى بن لادن الذي أخافنا حتى الموت مع أننا لم نسمع منه إلا القليل منذ عام 2001.

لنتوقف عن استعادة ذكرى الموت والهزيمة

لقد غرق العديد من الأميركيين منذ وقوع اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر في استعادة يوميّة للأحزان، والذكرى الأليمة للهزيمة الرهيبة التي تعرضت لها أميركا في ذلك اليوم. إن إحياء ذكرى الأموات وهذا السيل الذي لا ينتهي من العواطف الجياشة التي تُعبّر عن الحزن العميق والأسى والتي تمثلت في التماثيل، والرسوم، والمسابقات الدوليّة لأفضل تصميم يحيي تلك الفاجعة،

إلى النُصب التذكاريّة، والخطابات التي لا تنتهي لتخليد الحادثة كلها لا تفيد في أي شيء إلا أنها تذكرنا بهزيمتنا المنكرة وتغرقنا في بحر من الخوف ومن الألم الذي قد يحمله المستقبل لنا. وفي المؤسسة التي عملت فيها تحديداً، قمنا عام 2003 بالاحتفال "بيوم العائلة" بدعوة العائلات الزائرة لحضور مراسم إحياء ذكرى هزيمتنا. وقد أُقيم في الممر الرئيسي نصب تذكاري وقف بشموخ ليخلّد ذكرى كارثة الحادي عشر من سبتمبر. بالإضافة إلى صور ذات أُطر معدنيّة سميكة للبرجين وهما يحترقان وينهاران، ومخططات معماريّة مؤطرة لأعمال ستنفذ لذكرى الأموات، وصور لأكوام من الزهور التي وضعت أمام سفارات الولايات المتحدة في الخارج، أما التحفة المروعة التي احتلت المركز فهي صندوق عرض زجاجي يحتوي على كسر إسمنتية وشظايا معدنية من مركز التجارة العالمية. إن كل ما سبق يظهر جبناً وانعداماً للرجولة، إذا استخدمنا هذه المصطلحات القديمة. فالأميركيون مجبولون بصلابة وصَرامة أكثر من ذلك، أو على الأقل يستحسن أن يكونوا كذلك، فبحسب ما كتب روبرت دي كابلان حول خصومنا الحاليين في المجلة الشهرية *Atlantic Monthly*، "إن الرجولة في عالم من القبائل وقطاع الطرق هي أهم عنصر يجب الانتباه إليه"[7].

وقد سجلت الأجيال التي تعود إلى أجدادنا الأوائل هزائم أميركا وخسائرها في ذكرى هادئة وجافة لا زينة فيها، وهي ذكرى تحدث مرة في السنة - فقد كانت الاحتفالات تدخر للانتصارات التي تظهر في القضاء الكامل على أعدائنا ونهاية الحرب. هل سيدفعنا هذا للتعلّم من جديد كيف نتفجع على موتانا بكرامة وصمت، وأن نحتفل فقط عندما نقضي تماماً على السبب الذي جعلنا نحزن؟ إن ردّنا على الاعتداءات يجب أن يكون في دفن موتانا مع تعهّدنا بأن ندمّر قتلتهم.

لنتقبّل حقيقة أنهم يكرهوننا لا أنهم يسيئون فهمنا

إن الولايات المتحدة مكروهة في كافة أنحاء العالم الإسلامي بسبب سياسات وأفعال معينة قامت بها الحكومة الأميركيّة. وهذه الكراهيّة تقوم على أسس محددة لا أشياء تجريديّة وحربيّة لا فكريّة، كما أنها لا تزال تنمو وستستمر على هذه

الحال في المستقبل القريب. على الرغم من أن هناك شخصيات مهمة في الولايات المتحدة تزعم أن المسلمين أساؤوا فهم مقاصد السياسة الأميركيّة، وأن محطات التلفزة الفضائيّة العربيّة تشوّه تلك السياسات وتحرّفها وأن دواء هذه العلة هو ديبلوماسية شعبية أفضل، إلا أنهم للأسف على خطأ. فالمسلمون يكرهون أميركا ويهاجمونها لأنهم يعتقدون أنهم يعرفون بالضبط ما تفعله الولايات المتحدة في العالم الإسلامي. ويعود جزء من معرفتهم تلك إلى كلمات بن لادن، أما الجزء الآخر فيعود إلى محطات التلفزة الفضائيّة، لكن السبب الأهم يعود إلى الحقيقة الملموسة للسياسة الأميركيّة. نحن في حرب ضد حركة مقاومة إسلاميّة دوليّة تقودها القاعدة بسبب تلك السياسات ودفاعاً عنها وليس كما قال الرئيس بوش الذي كان مخطئاً في رأيه: "للدفاع عن الحرّية وكل ما هو جيد وعادل في هذا العالم"[8].

ومن أجل التوصل إلى إدراك صحة هذه الفكرة، عليكم أن تتذكروا دوماً كيف كان من السهل على المسلمين أن يروا، ويسمعوا، ويشعروا، ويكرهوا السياسات الأميركيّة الست التي يشير إليها بن لادن على الدوام بوصفها معادية للإسلام والمسلمين:

- دعم الولايات المتحدة وتأييدها لإسرائيل مما يجعل رقاب الفلسطينيين دوماً بأيدي الإسرائيليين.
- القوات الأميركيّة وغيرها من القوات الغربيّة المتواجدة على أراضي شبه الجزيرة العربية.
- احتلال الولايات المتحدة للعراق وأفغانستان.
- دعم الولايات المتحدة لروسيا، والهند، والصين وتحريضها ضد المعارضين المسلمين في تلك البلاد.
- الضغط الذي تمارسه الولايات المتحدة على الدول العربيّة المنتجة للنفط كي تبقي على أسعار النفط متدنية.
- دعم الولايات المتحدة للحكومات المرتدة، والفاسدة، والمستبدة في الدول الإسلاميّة.

اعتدْ على القتل وتمرّس به

إن الفكرة التي سأطرحها هنا تتعلق بسابقتها لأن سياسات الولايات المتحدة تجاه العالم الإسلامي لم تترك لأميركا إلا الخيار العسكري للدفاع عن نفسها. ومن المؤكد أن هذا الخيار لا يقوم على تطبيق القوة بلطف كما كنا نفعل منذ عام 1991. "إن الجنود الأميركيين غير مستعدين للوحشية الرهيبة التي يظهرها محاربو اليوم، كما أن رؤساءهم المدنيين قد ساهموا بالإضافة إلى العادات التي تربّوا عليها في منعهم من اتخاذ إجراءات قد تكون ناجعة ضد أعضاء الطبقة المحاربة"[9]. هذا ما قاله رالف بيترز في *القتال من أجل المستقبل: هل ستنتصر أميركا؟*. لذا فعلينا أن نستخدم القوة العسكريّة، لتأمين أكبر قدر ممكن من الحماية لأسلوب معيشتنا، كما استخدمها الأميركيون في فيرجينيا، وجورجيا، وفي فرنسا، وجزر المحيط الهادئ، ومن الأعلى في سماء طوكيو، ودريزدن. وسيتم قياس التقدم العسكري والتفوق من خلال السرعة في قتل الأعداء وتعداد القتلى. وهذه المرّة يجب أن تتم عملية تعداد الجثث بشكل دقيق لا كما حدث في فيتنام. كما يجب أن تتضمن الأعداد الكبيرة من القتلى أكبر عدد ممكن من المدنيين والمحاربين في آن معاً لأن أعداءنا لا يرتدون زياً عسكرياً.

إن قتل أكبر عدد من أعدائنا المسلمين ليس كافياً لإلحاق الهزيمة بهم. بل يجب أن يترافق القتل مع تدمير كامل للبنى التحتيّة على طريقة شيرمان كالطرق، وأنظمة الري، والجسور، ومحطات توليد الكهرباء، والمحاصيل في الحقول، ومصانع الأسمدة، وطواحين الحبوب، يجب أن يتم القضاء على كل هذه البنى بل وأكثر من ذلك، حتى نقطع الطريق تماماً عليهم بحيث نحرمهم من أساسيات الحياة. وبالإضافة إلى ما تقدم، يجب أن نعيد استخدام الألغام، ونزرعها بكثافة لإغلاق الحدود البرّيّة والممرات الجبليّة العاليّة التي لا يمكن أن يسيطر عليها جنودنا. وكما أشرت سابقاً، فإن هذه العمليات ستسفر عن وقوع عدد كبير من الضحايا المدنيين، وتهجير قرى بأكملها، وتدفّق كبير للاجئين. وأوّد أن أكرر هنا أن هذا الشكل من الهمجيّة والوحشيّة ليس أمراً محبّذاً على الإطلاق، لكنه سيبقى دوماً خيار أميركا الوحيد طالما بقيت متمسكة بسياساتها الفاشلة إزاء العالم الإسلامي.

إن تمسكنا بعبارة "لا أستطيع" سيؤدي إلى قتلنا

"إن مبادئنا تمنعنا من محاربة بن لادن كما يحاربنا". "يجب أن نصلح منابع تأييد القاعدة - الفقر، والأمية، واليأس". "إن بن لادن يشنّ هجمات على العالم المتحضر، لذا يجب أن نعمل مع الآخرين للردّ على هذه الاعتداءات بما يتماشى والقانون الدولي". "لا علاقة للإسلام بهذه الحرب نهائياً، فبعض المسلمين المجانين هم الذين يؤيدون القاعدة". لا يمكننا ولا نستطيع... هذه الكلمات الغريبة والتي لا تمت إلى تاريخنا بأي صلة هي لغة الجبناء والمهزومين. وقد أشار رالف بيترز إلى مواطنيه قائلاً: "لا تنصتوا أبداً لأولئك الذين يحذرونكم ويقولون لكم إن الوحشية في القتال من طرفنا ستؤدي إلى تدنينا إلى مستوى الإرهابيين... فقد أثبتنا على مرّ التاريخ مرّة بعد مرّة أننا قادرون على القيام بأعمال قاسيّة وإجراميّة من أجل مصلحة بلدنا دون أن يكون لها أي تأثير على النسيج الأخلاقي لأمتنا"[10].

إن أميركا تخوض صراعاً من أجل البقاء. إنني لا أتحدث عن البقاء الذي يعني حماية أراضينا، بل عن قدرتنا على العيش كما يحلو لنا وليس كما يتوجّب علينا. وقد تم فعلاً فرض قيود على حرياتنا المدنيّة وانفتاحنا الاجتماعي، قد يكون هذا الوضع مؤقتاً إلا أن نهايته غير واضحة المعالم. وفيما يعتدي علينا بن لادن وأمثاله، ما الذي نفعله؟ إننا نرفض هذه الاعتداءات، وندينها، ونتحدث بأسلوب مغرور ومتعالٍ، ونرّد بطريقة دفاعيّة محدودة تؤدي إلى تغيير مجتمعنا من سهولة وحرّية التنقل والسفر والطريقة التي ينظر فيها رجال الأمن إلى المواطنين وصعوبة استخدام المباني العامة والمتاحف إلى الأسلوب الذي نتبعه في التعامل مع الزوار الأجانب والأميركيين من أصول أجنبية وشكل البيت الأبيض المثير للشفقة وهو يبدو وكأنه يخضع لحصار عسكري. أمامنا خيارين لا ثالث لهما، إما أن نتابع استخدام عبارة "لا نستطيع" الآنفة الذكر ونؤمن بها، أو أن نفعل شيئاً يُمكّننا من الحفاظ على أسلوب حياتنا - الذي قال عنه لينكولن يوماً أنه آخر أمل جميل للإنسان ليحكم نفسه بنفسه - وذلك من خلال تبنّي ما يقتضيه تحقيق ذلك من سلوك حربي عنيف ووحشي. إننا ندين بذلك

لأنفسنا ولتراثنا وللأجيال القادمة. إن خوفنا وتلطِّينا تحت عبارات "لا نستطيع" و"لا يمكننا" و"ليس بمقدورنا" التي تراعي المجتمع الدولي، والأعراف الدولية، والمعايير الأخلاقية العالية لا نقوم بحماية أي مما سبق ذكرهم. إن كلمات كهذه لا تصلح إلا لكتابة رسالة انتحار للأمة.

الجنود النظاميون يقبضون رواتبهم ليموتوا!

بما أن الأميركيين لم يعتادوا على أن يكون هناك جنود محترفون نظاميون يخوضون حروبهم، فهم في غاية القلق من وقوع عددٍ كبير من الضحايا - مع أن قلقهم هذا أقل بكثير مما تعتقده نخبتهم. إنني لا أقول إنه يجب التفريط بحياة أي جندي مهما كان، إنما يجب ألا يحدث أي تقصير في الدفاع عن أميركا خوفاً على حياة الجنود. فقد ولّت تلك الأيام التي كان يهب فيها المتطوعون الشجعان لتلبية نداء الخطر للدفاع عن بلادهم. إن الجنود الأميركيين من رجال ونساء يقومون بهذا العمل كمهنة لهم، فقد اختاروا هذا العمل بمحض إرادتهم، إنه العمل الذي قرروا أن يمتهنوه. ومهما كان السبب الذي دفعهم إلى القيام بذلك - سواء كان حبهم للبلد، أو حاجتهم للمال من أجل مصاريف الجامعة، أو تجنباً للسجن، أو ميلهم للعنف، أو رغبة منهم في السفر، أو نظرتهم للجنديّة على أنها ملجأ يأويهم من تقلّبات الاقتصاد أو لمئة سبب غير ذلك - فإن العقد هو ذاته مثلما كان منذ الأزل، فمقابل حصولك على ما سعيت لأجله من وراء انضمامك للجيش، فبإمكان الأمة أن ترسلك إلى أي مكان تراه مناسباً، ويتطلب وجودك، وقد تموت هناك. إن قوات البحريّة الأميركيّة هم الوحيدون الذين يفهمون هذه البديهية ويذهبون بهدوء ويتولّون عمليات القتل بكل فاعلية.

إن هذه حقيقة قاسيّة، لكن من قال إن الحرب لا تتطلب كل القسوة والوحشيّة؟ وكلما أسرع قادتنا في الحديث عن الحقيقة المرّة عن الجنديّة كمهنة ككل المهن، سيتوقف الأميركيون عن الاحتجاج المستمر على إرسال الجنود بعيداً ليحاربوا قبل أن يقوموا حتى بالانتشار في ساحات المعارك متذكّرين الهزيمة التي منينا بها على يد الإسلاميين الإيرانيين.

إن المنطق والتكاليف الباهظة للقوات العسكريّة النظاميّة يقتضيا قيام قادة الولايات المتحدة بالتصرف واستخدام الأعداد الكبيرة من الجنود المدربين الذين تراكمت أعدادهم في الفترات الانتقاليّة ما بين الحروب بحسب الحاجة. فالقوات العسكريّة الأميركيّة اليوم تعد آلة قتل محترفة أكثر من أي وقت مضى في تاريخنا. ويجب ألا يتخذ القرار الذي يحدد متى وكيف ستستخدم هذه القوات بالاستناد للعواطف والأحاسيس التي تم التعامل وفقها مع الجنود الذين تم إرسالهم للخارج أيام الحرب العالمية الثانية، بل بالاعتراف بكل وضوح أن كل جندي أميركي يتم إرساله إلى بؤر الأخطار، لا يذهب إلى هناك بسبب حبه لبلاده فقط، وإنما مقابل ما دفع له من مال وتعويضات ليقوم بذلك.

لن يقوم الآخرون بتلويث أيديهم نيابة عنا

الكثير منا يتعلم هذا الدرس في بداية حياته. وأميركا أيضاً عرفت ذلك في وقت مبكر، إنما يبدو أنها قد نسيت ذلك. فقرارات الأمم المتحدة المؤيدة لنا، وتشكيل التحالفات، والقوات المتعددة الجنسيات ليست إلا مفاهيم معاصرة تهدف إلى الحدّ من خسائر الولايات المتحدة من أموال وأرواح. وعندما تبذل هذه الجهود من أجل قضايا لا تعني المصالح القوميّة أو الوطنيّة للولايات المتحدة، كما حدث في التدخل العسكري الأميركي في ليبيريا عام 2003، فهي مقبولة. أما عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن مصالح قوميّة أميركيّة محضة، عندئذ تؤدي تلك الأمور إلى تأخير العمليات العسكريّة وفرض قيود على القوات العسكريّة الأميركيّة وذلك بسبب الحلفاء الذين يعانون من حساسية مفرطة ضد العنف، فضلاً عما ينتج من مشاكل نصف محلولة وحروب نصف منتهية لن يلوث الآخرون أيديهم بأعمالنا القذرة فحسب، وإنما سيمنعوننا أيضاً من القيام بذلك بأنفسنا بكل ما أوتوا من قوة. هذا هو الدرس الذي يجب تعلّمه.

لقد انشغلنا بمحاولة العثور على آخرين ليقوموا بالمهمات الصعبة وعمليات القتل نيابة عنا، لدرجة أننا أسأنا قراءة الحقيقة وجلبنا حلفاء ليس بمقدورهم ولا بنيتهم القيام بهذا العمل. والحرب الأفغانية تعدّ أفضل دليل يثبت صحة ذلك.

ففي أواخر العام 2001، سمح حلفاؤنا من الأقلية الأفغانية لبن لادن والملا عمر ومعظم جنودهما، بالهرب لأننا أخطأنا ووثقنا بهم كي نتمكن من تجنب نشر جنودنا هناك، إننا لم نكن نريد المجازفة بأرواح جنودنا للحصول على النصر. إن العادات القبليّة، والمعتقدات الإسلاميّة، وكره الأجانب المتأصل عند الأفغان كان بمثابة المكابح التي منعت حلفاءها من مساعدتنا، لقد كنا نعلم أن هذا سيحدث - أو على الأقل كان يجب علينا أن نعرف هذا - عندما دخلنا في هذه الحرب لكننا تجاهلنا هذه الحقيقة وألقينا على عاتقهم مسؤوليات، ومهمات، ودفعنا لهم ليقوموا بشيء لن يفعلوه أبداً، وبعد ذلك طالبنا باكستان وجيشها بالقيام بما كان من المفترض أن نقوم به نحن في المنطقة الحدوديّة الباكستانيّة الأفغانيّة التي تمكن أعداؤنا من الفرار عن طريقها. إن إصرارنا في هذه الحالة على تجنب وقوع خسائر في الأرواح ألقى بنا في هاوية الأوهام. صحيح أن نفوذ حكومة إسلام أباد يمتد إلى الحدود التي تسيطر عليها القبائل البشتونيّة، غير أن القيام بعمليات عسكريّة باكستانيّة هناك من شأنه إثارة غضب القبائل القويّة المسلحة. وخلاصة القول هنا هي أنه في حالة حدوث تدخّل عسكري باكستاني فعال، فإن ذلك سيسفر عن نشوب حرب أهليّة في البلاد مما يضعف استقرار باكستان وقدرتها على الوقوف في وجه الهند والتصدي لها. وهكذا فإننا خدعنا أنفسنا و لم نفعل أي شيء لهزيمة أعدائنا. وباكستان ستقول ما نريده منها، وستتلقى بكل سرور أسلحتنا والأموال التي ندفعها لها، كما أنها ستقوم بعمليات عسكريّة بسيطة تتكبد فيها بعض الخسائر لتتجنب غضب الولايات المتحدة عليها، لكنها لن تتخلى في يوم وليلة عن الأسلوب الذي اتبعته لخمسين عاماً في التعايش مع تلك القبائل. فضلاً عن أن التدخل العسكري الفعال قد يعرّض المصالح الوطنيّة الباكستانيّة للخطر مهدداً الوجود الباكستاني برمته للاندثار كأمة من خلال إثارة حرب أهليّة، كما قد تستغل الهند هذه الفرصة لتوجّه ضربة قاضية لباكستان أو كليهما معاً. لقد تعرّض أمننا القومي للأذى بسبب بحثنا عن آخرين يقومون بتلويث أيديهم نيابة عنا في أفغانستان. وقد يكون هذا درساً ينطبق على كل دول العالم.

راجعوا المعلومات المتوافرة بين أيديكم، وتحققوا منها، وطالبوا بالخبرات الضروريّة

على الرغم من أن الجيش، وأجهزة الاستخبارات، والخدمات المدنيّة الأميركيّة تتمتع اليوم بأكبر قدر من التطور، والتسلّح، والتدريب، والعلم، والمعرفة إلا أننا أخفقنا في حربنا ضد أفغانستان والعراق. ذلك لأننا لم نستغل العلم الذي بين أيدينا. فقد قدنا في أفغانستان حملة لم تظهر أي دليل يثبت أننا استفدنا من أي درس قدّمته التجربة السوفيتية هناك بين عامي 1979 - 1992. ونتيجة لذلك فقد تجاهلنا القادة الشباب إلى حدٍّ ما الذين حملوا راية الجهاد ضد السوفييت آنذاك، والذين لم يكن ولاؤهم السياسي محصوراً بجهة ما دون غيرها بحسب التعبير الأميركي. وهم الآن يتحالفون مع طالبان والقاعدة ضد الحكومة الأفغانيّة الانتقاليّة. كما عيّنا رئيساً لهذه الحكومة يتمتع بذكاء، واستقامة، وحكمة إلا أنه رجل دون أنصار أو أتباع، والسبب الوحيد في بقائه على قيد الحياة هو "أنه الأفغاني الذي يتماشى مع الذوق الغربي" ولأنه يجذب المساعدات الأجنبيّة. لم نقم بإغلاق الحدود الأفغانية - وبهذا فقد سمحنا للعدو بأن يخرج ويدخل من جديد على هواه - وادّعينا لسبب غير معروف أن جيران أفغانستان يشاركوننا في السعي إلى إقامة حكومة علمانية مستقرة ومؤيدة للغرب. أما في العراق فقد فاتتنا حقيقة أن هذا البلد يعدّ بعد شبه الجزيرة العربيّة ثاني أقدس الأراضي الإسلاميّة، وأن غزو واحتلال الولايات المتحدة للعراق يعدّ استجابة لأقصى أحلام بن لادن حيث إنه يجتذب أعداداً كبيرة من المحاربين المعادين للولايات المتحدة من كافة أرجاء العالم الإسلامي، وهم ينفّذون ما أشارت به عليهم العديد من الفتاوى وهو فرض الجهاد الذي عليهم تلبيته. كما فاتتنا حقيقة ألا أحد من جيران العراق يشاركنا الرأي بضرورة قيام حكومة عراقيّة علمانية ديموقراطيّة، وأن الإطاحة بصدام ونظامه ستؤدي إلى إشعال فتيل الفتن المذهبيّة بين شيعة العراق وإيران من جهة ضد سنة العراق ودول المنطقة السنيّة من جهة أخرى وكلهم يعملون ضدنا، كما أننا أخفقنا في إغلاق حدود العراق.

لقد أهملنا الحقائق لأن الهيئات الحكوميّة المسؤولة عن السياسات الخارجيّة لا

تنظر إلى الخبرات والتجارب بشكل عام بعين الاحترام أو التقدير حتى إنها تزدريها. فخارج إطار القضايا التقنية كالصواريخ البالستيّة، وتصميم الأسلحة، وصور الأقمار الصناعيّة، يقابل الخبراء الذين يتعمقون في قضايا أحادية كالإسلام مثلاً في منطقة واحدة كجنوب آسيا، أو مشكلة واحدة كحركات المقاومة المسلحة بالازدراء ويصنّفون على أنهم ضباط لا يصلحون للمناصب العليا على مستوى الإدارة. فامتلاك الخبرة الواسعة في هذه القضايا يعدّ قتلاً للمستقبل المهني الواعد وخاصة في حقل أجهزة الاستخبارات. أما من ينظر إليهم بعين الرضا والاحترام فهم الضباط الذين يمتلكون المعرفة الواسعة، والذين لا يتمتعون بأي خبرة في حقل معيّن، وهم الضباط الذين يغيّرون عملهم مرة كل سنتين ويتنقلون بين أوروبا وشرق آسيا، ومن قسم مراقبة الأسلحة إلى مكافحة المخدرات. وهم من يعرفون القليل عن كل القضايا، ولا يمتلكون أي خبرة في أي مجال، ويكونون عادة ضباطاً من الرجال الذين تتم ترقيتهم بسرعة ليصلوا إلى المناصب المرموقة البارزة. وفي القيادة، يقيم أولئك الأشبه "بالنسخ المكرّرة" من عديمي الخبرة السطحيين سدّاً منيعاً بين الضباط الذين ينظر إليهم أصحاب النظرة التعميمية على أنهم يضيّعون مستقبلهم سدى في تطوير خبراتهم وبين المسؤولين المنتخبين الذين يخصصون سنوياً مبالغاً طائلة لتطوير الخبرات التي تحتاجها أميركا. ومقابل الأموال التي يتم إنفاقها يحصل القادة المنتخبون على هواة في السياسة أنيقي الملبس ومتحدثين لبقين، إلا أنهم لا يسمعون شيئاً من الخبراء الواقعيين الذين يعرفون حقائق الأمور. ولهذا السبب تحل علينا المصائب في العراق وأفغانستان. وإذا كان لديكم أي شك في صحة ما سبق، فما عليكم إلا أن ترجعوا إلى كتاب بوب وودورد *بوش في الحرب* الذي ورد فيه تصوير للجلسات السخيفة التي لا حصر لها والتي كانت تعقد على مستوى الرئاسة لاتخاذ القرارات السياسيّة الهامة قبل الحرب على أفغانستان. كما أن الكتاب المذكور لا يأتي على ذكر أي نقاش أو جدال تم حول تأثير الإسلام على دوافع الحرب وأيديولوجيتها وأهدافها، أو استراتيجيّة بن لادن وطالبان. فضلاً عن أن فهرس محتويات الكتاب لا يحتوي إلا على مواد تحت قيد "إسلام أباد" و"المسلمين الأصوليين" و"الحركة الإسلاميّة في أوزبكستان".

إلا أنه أورد حوالى خمسة عشر شاهداً على تأخير الهجوم - مما أدى إلى السماح لقوات القاعدة بالانتشار - حتى تم الانتهاء من توضّع كافة الطائرات المسؤولة عن عمليات البحث والإنقاذ في مكانها. ويظهر وودورد دون قصد منه على ما أعتقد، أن أولئك الذين فتحوا الحنفية التي تدفّق منها سيل المعلومات السرّية المسرّبة التي كانت الأساس الذي بني عليه كتابه، لم يخدموا الرئيس أبداً.

لا تتعاملوا مع بن لادن على أنه إرهابي

إن هذه النصيحة ستصدم معظم الأميركيين، كما سيعترض بعضهم عليها أو يرفضها من أصلها، لكنها يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. إن هجمات القاعدة مروعة حقاً، لكن هذه هي حال الحرب. وبن لادن يقود ويحرّض على قيام حركة مقاومة مسلحة ضد أميركا في العالم أجمع، فهو يشنّ الحرب علينا بينما نحاربه من منطلق سياسات محاربة الإرهاب التي تسيطر عليها أساليب وعمليات رجال الأمن والشرطة التي لم تأتِ بنتيجة حتى الآن، ولن تكون ناجعة في المستقبل أيضاً. لقد حاربت أميركا الإرهاب منذ العام 1975 وحتى العام 1995 بواسطة أجهزتها الاستخباراتيّة فقط. وقد اتبعنا نفس الأسلوب مع القاعدة، حيث ألحقت بها هيئتنا السرّية خسائر لم تحققها لدى تعاملها مع أي "شبكة إرهابيّة" أخرى على الإطلاق. إلا أنه لا يزال بمقدور القاعدة أن تستخدم أسلحة دمار شامل في الولايات المتحدة. إن المعركة مع القاعدة هي ببساطة تتبع للمفهوم القديم للحرب، وليست عبارة عن حملة لمكافحة الإرهاب تقودها الأجهزة الاستخباراتيّة. ولن نتمكن من التغلب على بن لادن، والقاعدة، وحلفائهما ما لم نستغل كافة الإمكانات الحربيّة الأميركيّة - العسكريّة والاستخباراتيّة، والسياسيّة والديبلوماسيّة والاقتصاديّة - بشكل مكثّف وعملي ونتخلى عن أسلوب القتال بالخطابات والتصريحات الذي تبنيناه منذ العام 1995. إننا نواجه خصماً أكثر خطورة من دولة بذاتها، لأن أهدافه ومصادره هي كما لو أنه دولة برمتها، إلا أنه يجتذب محاربين ومقاتلين من مجموع بشري يبلغ تعداد سكانه 1.3 مليار نسمة، كما أنه لا يسكن في مكان محدد له عنوان يمكن الهجوم عليه، وهو يقاتل في سبيل قضية يعدّ موته فيها وهو يقاتل عدوه فوزاً يدخله الجنة.

إن الإصرار على التعريف الخاطئ لبن لادن والقاعدة على أنهم إرهابيون هو مسؤولية يتحملها الجهاز الأميركي الصلب لمكافحة الإرهاب الذي يتلقى تمويلاً ضخماً وحماية كبيرة. وقد تم تأسيس هذا الجهاز لمحاربة الدول الداعمة للإرهاب، والجماعات الارهابيّة المتفرعة عنها. لقد تكللت جهود هذا الجهاز بالفشل الذريع الذي كلّف كثيراً، لكنه مع ذلك لا يزال يمتص المبالغ الطائلة التي يتم دفعها لتمويله، والعدد الكبير من العاملين فيه بهدف القضاء على الجماعات الإرهابيّة الصغيرة، لا الأخطار التي تتهدد الأمن القومي. لقد أسس السياسيون وموظفو الحكومة جهاز مكافحة الإرهاب لتجنّب شنّ حملات عسكريّة على دول نفذت عمليات كإسقاط طائرة ركاب (ليبيا) أو دمرت سفارة الولايات المتحدة (إيران وحزب الله). فبدلاً من أن يقوم الجيش الأميركي بسحق الأوغاد والانتهاء من أمرهم - وهو أمر سهل بما أننا نعرف مكان كل منهم - لجأت واشنطن إلى إشهار مسدسها الملقّم برصاصات جهاز مكافحة الإرهاب الفارغة، وأطلقت مساعيها الديبلوماسيّة التي لا تنتهي، وتهديداتها برفع القضايا إلى المحاكم والسجن، وجمع المعلومات السرّية بطرق خطيرة وإلغاء شبه كامل لأي عمليّة خاصة بمكافحة الإرهاب قد تنطوي على أقل مجازفة ممكنة. إن مكافحة الإرهاب في أميركا تقوم على السعي للتوصل إلى حلول سلميّة مع الدول المعاديّة مما يسمح للعدو بالهجوم والنجاة بأفعاله دون أن يحاسب عليها، ويرضي الحلفاء بكف أيدي القوات العسكرية الأميركيّة عن البطش ويتجاهل الدول الإرهابيّة الحقيقيّة في الخليج لأنها تمتلك أكبر مخزون نفطي في العالم. أما أعضاء جهاز مكافحة الإرهاب المغرورين الذين يكرهون المجازفة ويرعبهم المحامون فقد أدت سياساتهم إلى استمرار وبقاء الأنظمة الإرهابيّة الدوليّة والجماعات الإرهابيّة التابعة لها، واليوم يقوم هذا الجهاز بعرقلة استراتيجيات مكافحة حركات المقاومة المسلحة الضروريّة للتغلب على القاعدة.

اسعوا وراء الاكتفاء الذاتي

بعد تأخير مدته ثلاثين عاماً، آن الأوان كي نقوم وحلفاؤنا بالانتقال إلى مرحلة من الاكتفاء الذاتي في مجال الطاقة، وذلك من خلال استغلال حقول النفط المحليّة والتحرك بسرعة أكبر في تطوير واستخدام مصادر الطاقة البديلة. حيث إن

الاهتمامات بالحياة الحيوانيّة، والنباتيّة، والبيئيّة، والاقتصاديّة يجب أن تؤجل قليلاً. ويجب أن نتصرف بسرعة لأن هذه ضرورة من ضرورات الأمن القومي. لا دعوة نظرية لإحلال الفوضى. فبتحقيق الاكتفاء الذاتي من الطاقة تستمكن الولايات المتحدة من التحرر من التزاماتها مع أنظمة دول الخليج العربي، التي تعتبر أكثر الأنظمة فساداً وديكتاتورية وقمعيّة في العالم. فهذه الأنظمة تحكم شعوباً تتلهف إلى التحرر من نيرها وتعتقد هذه الشعوب أن بقاء هذه الأنظمة يعود للحماية التي تقدّمها لها الولايات المتحدة. في الحقيقة، ليس ثمة ما يربطنا بتلك الأنظمة إلا اللهم هاجس الغرب بشكل عام للحصول على نفط رخيص. وإذا حللنا هذه العقدة سنصبح أحرار من الارتباطات التي لم تسبب لنا إلا كراهية وعنفاً في العالم الإسلامي. وستخف أحقاد بن لادن وأمثاله علينا، ومع الوقت سيتمكن من الإطاحة بالأنظمة المستبدة التي أبقتها الحماية الأميركيّة والغربيّة في السلطة.

....

....

....

....

11

....

....

....

....

....

12

....

....

....

....

....

......

....
....
....
....
....

ضعوا حداً للطابور الخامس من المتقاعدين ممن كانوا مسؤولين بارزين في الجيش والاستخبارات

يبدو أن الضباط الكبار في الجيش والاستخبارات - كما ذكرت سابقاً - لا يريدون أن يخالفوا قادتهم السياسيين في الرأي أو يدينوا خططهم حتى عندما يكونوا على علم بأن هذه الخطط قد تؤدي لأذية بلادهم. كما أن قبولهم ونشرهم للفكرة التي تقول بأن الحروب التي تكاد لا توقع أي ضحايا على الإطلاق بإمكانها أن تكون حروباً حاسمة هو أوضح دليل على احتمال كونهم أغبياء. وعليّ أن أؤكد من جديد أنني لا أريد أن أقول هنا أنه يتوجب على هؤلاء الضباط أن ينتقدوا القرارات السياسية علناً وهم على رأس عملهم، فلا الدستور ولا أعرافنا السياسيّة تبيح حدوث أمر كهذا. ومع ذلك، فإنني بعد أن عملت مع جنرالات وضباط بارزين في الاستخبارات، وجدت أن قليلاً منهم يعارض بشدة السياسات التي يعرفون أنها ستخفق لا محالة أثناء المداولات التي تدور حول تلك السياسات. كما أنني رأيت أنه لم يقم أي منهم بتقديم استقالته احتجاجاً على ما أصبح اليوم معياراً محدداً لمجموعة السياسات التي تضعف أميركا في الخارج، وتتسبب في نشوب خلافات في الداخل، وتكلّفنا بالنتيجة مزيداً من الخسائر التي نحن بغنى عنها في الأرواح والأموال.

أعتقد أن المصالح الشخصيّة هي التي تدعو الضباط الكبار للموافقة على السياسات الفاشلة. لقد لاحظت أثناء عملي في الاستخبارات أن العبارات التي كنت تسمعها من الضباط قبيل تقاعدهم قد تحولت من "الآن أصبح بإمكاني أن أسترخي وأفعل ما يحلو لي" إلى "يمكنني الآن أن أذهب وأقوم بجمع بعض المال الحقيقي". إن عمر التقاعد المبكر نسبياً للجنرالات وضباط الاستخبارات الكبار

يؤدي إلى توجههم إلى الالتحاق بقطاع العمل الخاص في اليوم الذي يلي تقاعدهم، والذي يؤمن لهم وظائف ذات مرتبات عالية جداً، وساعات عمل أقل وأناقة لا يتمتع بها موظفو الحكومة، حيث إن كيس الذهب الذي يحصلون عليه في نهاية عملهم الحكومي قد أصبح معروفاً في وقت مبكر من حياتهم المهنيّة، وأعتقد أنه هو الذي يقنع الجنرالات، وموظفي الاستخبارات البارزين بعدم تحدي السياسات خشية أن تدوم ذكرى تحديهم فتحول دون حصولهم بعد التقاعد على وظائف في شركات تعتمد على العقود الحكوميّة. وهكذا فإن الضباط البارزين يتقاعدون ليتجهوا مباشرة إلى مكاتب صناعة الأسلحة، ومن هناك يتعاملون مع أصدقائهم القدامى الذين لا يزالون على رأس عملهم ويبيعونهم كل شيء من البنادق إلى الزي العسكري والطائرات من طراز F-16، أو يلتحقون بشركات تعمل لمصلحة أصحاب صناعات الأسلحة أو إسرائيل، أو يتلقّون عقود عمل مربحة كاستشاريين للبنتاغون. وقد وصفهم الكولونيل هاكوورث بأنهم "أنانيون متملقون يسعون إلى تحقيق مصالحهم الخاصة، من فئة أولئك الحاصلين على شهادات ماجستير إدارة الأعمال الذين يتطلعون إلى الانتقال من البنتاغون إلى الأعمال المربحة لدى أكبر الشركات في أميركا... لقد خسرنا الحرب في فيتنام لأن أصحاب المناصب العليا في الإدارة تجاوز عددهم في النهاية عدد المحاربين هناك، ومنذ ذلك الحين لم تزدد الأمور إلا سوءاً وذلك بفضل النظام المؤذي الذي يرقي باستمرار الموظفين الطموحين الذين يتمتعون بوسامة ممثلي هوليود – الذين يختارون بدورهم نسخاً مطابقة لهم ليصبحوا الجيل التالي من جنرالات المستقبل"[13]. كما أن الضباط الكبار في الاستخبارات يتنعمون بالأموال التي تتدفق عليهم من الشركات التي تؤجر عقود مساعدة لأجهزة الاستخبارات التي تعاني من نقص كبير في الأموال. إلا أن أكثر ما يثير الاشمئزاز هم أولئك الضباط الذين كانوا يعملون في أجهزة الاستخبارات والذين انتقلوا للعمل في لجان المراقبة التابعة للكونغرس – فهم يقبضون رواتب مرتفعة ومع ذلك فهم يبذلون كل جهدهم لإبقاء أي مشاكل تنشأ أثناء مراقبتهم طي الكتمان – وأولئك الذين يظهرون على الساحة على أنهم مستشارون برواتب مرتفعة، إلا أنهم يعملون لصالح الأنظمة الأجنبيّة.

إن الطريق الممهدة التي ينتقل فيها الضباط والجنرالات من العمل في الحكومة إلى الوظائف في القطاع الخاص والتي تدر عليهم "أموالاً حقيقية" تدل على استمرار سيادة السياسات غير المدروسة والتي سيكون مصيرها مزيداً من الإخفاق والفشل. ربما آن الأوان لمنح الضباط الكبار في الجيش والاستخبارات فرصة ليعبّروا فيها عن آرائهم، بينما هم في الحكومة وبعد تقاعدهم وذلك بمنعهم من العمل بعد التقاعد، مقابل دخل سنوي تقدمه لهم الحكومة مدى الحياة بعد أن يقضوا ثلاثين عامـاً في الخدمة. وعلى الرغم من أن هذه العملية مكلفة، فإن ما ينجم عـن ذلـك مـن استعداد هؤلاء الضباط للوقوف في وجه السياسات المتهورة سواء أثناء عملـهم في الحكومة أو بعد انتهائهم منه سيعوّض الأميركيين عن النفقات المتزايدة. وإذا لم يتم تطبيق هذه الخطة فستبقى أميركا خالية تماماً ممن يصفهم الكولونيـل هـاكوورث بأنهم "الصادقون الذين لا ينطقون إلا بالحقيقة" من الرجال والنساء - ويتحـدث هاكوورث هنا عن الجيش إلا أن كلماته تتمتع بنفس الأهميّة بالنسـبة للـهيئات الاستخباراتيّة وتنطبق عليها أيضاً -

> إنهم أولئك الذين يقفون بشجاعة ويشهرون أسلحتهم دفاعاً عن كل المدنيين من كافة الطبقات بدءاً من الرئيس وانتهاء بالمواطن العـادي، والـذين يقولـون الحقيقة حول ما الذي يمكن أن تفعله قواتنا والنتائج التي قد تنجم عن زجّها فـي أماكن مثل العراق وأفغانستان، وكيف أن التعهد بالقيام بالتزامات من هذا القبيـل يضعف من قدرة جنودهم على الدفاع عن أميركا ضد الإرهاب الدولي[14].

إن الإسلام في حرب ضد أميركا

على الرغم من أن قادة الولايات المتحدة لن يقولوا أن أميركا في حالة حرب ضد الإسلام، إلا أن قسماً من الإسلام يشنّ حرباً على الولايات المتحدة، وهـذا القسم في ازدياد مضطرد. "**إن الحرب بشكل أساسي هي حرب دينيّة، ويجـب ألا ننسى تحت أي ظرف من الظروف هذه العداوة بيننا وبين الكفار، لأن هذه العداوة مبنية على العقيدة**"[15] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). هذا ما صرّح به بن لادن في أواخر عام 2001.

لقد شنّت هذه الحرب علينا لأسباب محددة - تمت الإشارة إليهـا في هـذه

الدراسة - لا كما يدّعي قادتنا بأن السبب هو بعض المتعصبين المسلمين الذين يكرهون ديموقراطيتنا وحريتنا. إن هذا الادعاء يقلل من خطورة المسلمين الذين يعارضوننا، ويستخف بهم حيث يصوّرهم على أنهم ليسوا إلا مجانين يرمون الحرّية بالقنابل وهكذا تضعف قدرة أميركا على المقاومة بسبب الاستخفاف بالعقول، والصبر، والأساس الديني لمصدر قوة خصومنا.

إن الإنجاز الوحيد الذي تم تحقيقه من خلال رفضنا الاعتراف بخوضنا حرباً ضد عدو يتمتع بقدرة هائلة على التحمل، وأعداد كبيرة من المحاربين الأشداء، وطاقات جبارة هو تأخيرنا لوضع استراتيجيّة تحقق لنا النصر. إن التجرؤ على ذكر حقيقة بسيطة تقول بأن قسماً كبيراً من الإسلام يخوض حرباً ضدنا وأن هناك المزيد منه يميل إلى هذا التوجه، لا يصنّف بأنه تمييز عنصري أو تعصّب إلا في أميركا العصر الحديث، وهو تصنيف يقتل الفكر والحوار وفي النهاية يقتل الأميركيين. لكن هذه هي الحال هنا وهكذا فإن قادة الولايات المتحدة يستعدون لقتال العدو الذين يريدون هم أن يروه لا العدو الحقيقي الذي يتربص بهم في ساحات المعارك.

وماذا يعني أن نكون في حالة حرب مع الإسلام؟ إن هذا يعني أن القضية التي نتعامل معها هي قضية حياة أو موت، قضية على قدر كبير من الأهميّة ويجب أن تؤخذ بجدية أكثر من أي وقت مضى. لقد أُعلنت الحرب علينا بسبب ما نفعله كأمة في العالم الإسلامي. وفي التصريح الذي أدلى به بن لادن عام 1996 عندما أعلن الحرب علينا، ذكر بكل وضوح ودقة أفعال الولايات المتحدة التي دفعته لإعلان الحرب. وكان تصريحه محايداً يتضمن بياناً واقعياً يشبه في بعض أجزائه إعلان توماس جيفرسون للاستقلال. إن الولايات المتحدة حرّة في اتخاذ القرارات وتطبيق سياساتها في العالم الإسلامي باعتبارها دولة ذات سيادة. فقد وضع هذه الخطط والسياسات قادة انتخبهم الشعب لخدمة المصالح الوطنيّة، كما وافق عليها وموّلها ممثلون عن السلطة انتخبهم الشعب أيضاً، وقد تمت المصادقة عليها بشكل متكرر في الانتخابات الرئاسيّة والنيابيّة. لذا فمن البديهي القول إن أميركا مسؤولة عن السياسات التي دفعت الإسلام إلى شنّ حرب ضدها، وكذلك الأمر بالنسبة

لقولنا إن هذه السياسيات قد زجّت بنا في حرب دينية. إذن، ماذا يعني أن نكون في حالة حرب مع الإسلام؟ أولاً، إن هذا يعني أن علينا أن نقبل هذه الحقيقة ونتصرف على أساس ذلك. ثانياً، إنه يعني أن استمرار تبنّ أميركا للسياسات الراهنة في العالم الإسلامي سيؤدي حتماً إلى تصعيد تدريجي للحرب في المستقبل القريب، وهي حرب سندفع ثمنها أغلى مما قد نتخيّل. ثالثاً، هذا يعني أن علينا أن نتعامل بشكل علني مع القضايا التي تم تجاهلها منذ وقت طويل - كدعمنا لإسرائيل، والاكتفاء الذاتي من الطاقة، وإمكانية تطبيق ديموقراطيتنا في العالم - والتي كان لا بد لها من أن تصحو من سباتها لتثير جدلاً قاسياً وعنيفاً سيحسم مسألة ما إذا كان أسلوب المعيشة الأميركي سيستمر أو سينكمش ويتقوقع، ليتحوّل إلى شكل مخيف بالكاد يمكن التعرف عليه.

حان الوقت لتدخل دولي من نوع آخر

إن تحذيرات جورج واشنطن حول الأخطار التي قد تنجم عن "الوقوع في شرك التحالفات"، وتحذير جون كوينسي آدامز للأميركيين كيلا لا يتجهوا إلى الخارج ليقتلوا الوحوش التي لا يعرفون شيئاً عنها باسم نشر الديموقراطية يتم التعامل معها على أنها إحدى أكثر الأيديولوجيات الأميركيّة التي تستحق الازدراء والاستخفاف، وكإحدى وسائل الانعزال، وهكذا فقد أسيء فهمها.

والحقيقة هي أن واشنطن وآدامز كانا شخصين يتميزان بالرقي وعمق التفكير، وقد رأى كلاهما أن النمو الاقتصادي لأميركا لا يعتمد على الزراعة والصناعة المحلية فحسب، بل على التجارة مع العالم أيضاً. كما أنهما لم يسعيا نحو قطع علاقات أميركا مع دول العالم - حيث إن هذا الكلام الفارغ كان من اختراع جيفرسون - لكن كلاهما حذّر من مغبة الالتزامات والأفعال التي ليست هناك حاجة لها. كما أنهما شجّعا الفعاليات الأميركيّة في الخارج في ما يخص الأعمال، والديبلوماسيّة، والتجارة، والتعليم، والعلوم، والتمويل، والشؤون المالية، وغيرها من المجالات. لكن الأمر الذي حاول واشنطن وآدامز تأكيده هو أن التدخل الأميركي في الخارج يجب أن يكون بهدف تحقيق فائدة قصوى للولايات المتحدة وبما أن آدامز وواشنطن كانا رجلين معروفين بالتعنت، والعملية، والتشاؤم

فقد عرفا الفائدة من منظور مادي وسياسي بحت، و لم ينظرا إلى الفائدة على أنها إشباع الغرور الذي يتأتى من كون أميركا المحرّر الذي سيخلّص المظلومين من الاستبداد، ويفرض الديموقراطية كنظام حكم في العالم أجمع. لقد كانت الحياة في نظر مؤسسي أميركا تعتمد على مبدأ الكل أو اللاشيء - حتى بالنسبة لجيفرسون الذي كان في معظم الأوقات إنساناً سيئاً إلى أقصى حدّ. كما أن موقف واشنطن وآدامز كان مبنياً ببساطة على أن أميركا يجب ألا تدخل في اتفاقات لن تحقق من خلالها أي مكاسب أو مواقف لا تعرف عنها شيئاً أو لا تفهمها، والأهم من كل هذا وذاك أن عليها ألا تتدخل في حروب الآخرين. كان همهما الأكبر هو أميركا أولاً، لا أميركا فقط، لذا فقد سعيا إلى نشر الديموقراطية التي كانت مصدر فخرهما لأنها تقدّم للعالم مثالاً يمكن أن يتعلم منه، و لم يحاولا فرضها بالقوة على البلاد الأجنبية.

لقد اتبع الأميركيون دروس واشنطن وآدامز حتى مرحلة ما بعد الحرب، وعندها بدأت نخبتنا تعتقد بل وتُعلّم الناس أن أميركا مدينة للآخرين بأكثر ما تدين به لنفسها. بل والأسوأ من ذلك أنها أصبحت تعظ الناس بأن من المخجل والمخزي أن يكون المواطن مهتماً لأمر أميركا أولاً، وأنه من نبل الأخلاق أن يفرض المرء الديموقراطية على الأجانب بدلاً من إنفاق الوقت والثروات على التحسين من ديموقراطيتنا وجعلها أفضل مما هي عليه.

قد يكون كتاب رالف بيترز *القتال من أجل المستقبل: هل ستنتصر أميركا؟* هو أفضل كتاب قرأته أثناء كتابتي لهذه الدراسة. فقد قدّم بيترز من خلاله اقتراحاً لا يزال يشعرني بالذهول، ويسكن أفكاري، ويشجعني حتى الآن. فقد جاء في كتابه: "يجب أن نتجنب نحن الأميركيون الخطط الخياليّة التي تهدف إلى إنقاذ أولئك الذين لسنا مسؤولين عنهم بأي شكل من الأشكال، فعندما نتعامل مع الاشتراكيّة والأصوليّة يجب أن نستعد لترك ألسنة النار تلتهم نفسها حتى النهاية وتخمد لوحدها طالما أننا في مأمن من خطر الاحتراق بلهيبها. وإذا كنا نريد أن نجنب مواطنينا الموت ونبعدهم عنه، فعلينا أن نتعلم كيف نراقب الآخرين برباطة جأش وهم يموتون"[16]. إن بيترز على حق في تحديثه بشكل عنيف لإرشادات واشنطن وآدامز وجعلها ملائمة لهذا العصر. فهل يستطيع أي أميركي سواء كان مسؤولاً أو باحثاً

أو سياسياً أو علاّمة أن يدعي بحق أنه يعرف ماذا يجري في سياسات العراق القبليّة والمذهبيّة، أو نزاعات أفغانستان القبليّة والعرقيّة أو سياسات البلقان القبليّة والدينيّة والعرقيّة، أو الصراعات في رواندا أو ليبيريا أو الكونغو؟ وهل يمكن لأي أحد أن يُصدّق أن الادعاء الذي يفيد بأن واشنطن ستقوم بدور الوسيط لإحلال "سلام عادل" بين إسرائيل وفلسطين هو في الحقيقة ليس إلا عبارة تم تكرارها بشكل لا ينقطع ولثلاثين عاماً؟ وهل بمقدور أي أحد أن يصف العناصر الأساسية للدين الإسلامي وتأثيرها على قضايا العالم؟ لنعد إلى النقطة الأساسيّة هنا، هل يمكن إثبات الفارق الكبير بالنسبة للأمن في الولايات المتحدة والذي يمكن أن يحدث إذا قتل كل واحد من الهوتو واحداً من التوتسي؛ أو العكس، وإذا قتل كل واحد من الفلسطينيين واحداً من الإسرائيليين أو العكس؛ أو إذا أباد الصرب والكروات وأهل البوسنة بعضهم البعض حتى لا يتبقَّ منهم أحد؟ إن الإجابات القاسية والصحيحة في الوقت ذاته على هذه الأسئلة هي كالتالي: إننا لا نفهم هذه الصراعات ولا يشكّل أي منها خطراً على مصالح الولايات المتحدة بغض النظر عمن ينتصر فيها. وكلها تثير التعاطف وتحرّك المشاعر، لكن في نهاية الأمر، تبقى الحقيقة الأبديّة أن هذا العالم هو عالم قاسٍ، وأن واجب كل أمة أن تهتم بشؤونها وتدافع عن نفسها.

ولنحافظ على مصلحتنا الخاصة وبقائنا، يتوجب علينا أن "نراقب برباطة جأش الآخرين وهم يموتون" وأن نمدّ يد المساعدة بعد أن تكون "ألسنة النار قد التهمت نفسها حتى النهاية وخمدت" وذلك من خلال التركيز في علاقاتنا الخارجيّة على التجارة، ومشاركة المعرفة، والتبرع بالغذاء والدواء. كما يجب ألا تقوم أميركا بالتورط في الخارج إلا إذا كانت مصالحها الوطنيّة هناك تتعرض لخطر حقيقي، كما يجب أن تشارك في الحروب التي تتعلق ببقائها فقط ومن ثم تتحرك للقضاء على العدو قضاء مبرماً. ويجب أن تتركز جهودنا على تحسين أداء حكومتنا التي تمثل حكم شعبنا لنفسه ويجب أن نحقق المساواة في وطننا كي نكون مثالاً يحتذيه العالم ليتبنى الديموقراطية. كما علينا عدم التردد في ترك الوحوش الأجنبيّة تفترس بعضها البعض دون التضحية بأرواح الأميركيين وثرواتهم واحترامهم لذاتهم بهدف القيام بمهمات غبية لا نهاية لها.

القسم الثاني: حاجتنا لمناقشة المقترحات والإرشادات الآن

يجب أن تناقش المقترحات والإرشادات الآن، لأن أميركا تواجه اليوم من عدة نواحٍ وضعاً لا يختلف كثيراً عما كان عليه يوم العاشر من سبتمبر عام 2001. وإذا كان ما تقوله وسائل الإعلام صحيحاً، فإن رؤساء أجهزة الاستخبارات كانوا قد حذّروا الكونغرس والبيت الأبيض من أن القاعدة كانت تخطط لشنّ اعتداء كبير على الولايات المتحدة. وعندما حدث ذلك، لم نفعل أي شيء لمنعه - وهي مهمة مستحيلة تحتاج لتركيز مكثّف - ولم نستعد أبداً للردّ عليه، وهي أيضاً فضيحة لم تثر اهتمام أحد أبداً. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الفضيحة تعد إدانة رهيبة لنخبتنا من رجالات الحكومة، والإعلاميين، والسياسيين، والمسؤولين عن السياسة الخارجيّة والباحثين الذين لم يأخذوا تهديد بن لادن على محمل الجدّ إطلاقاً، على الرغم من كل خطاباتهم التي تحدثت عن القاعدة بعد تفجيرات شرق أفريقيا والاعتداء على المُدمّرة كول.

أما في الفترة التي تلت الحادي عشر من سبتمبر، فقد وجهت الولايات المتحدة ضربات قوية لقيادات القاعدة كما أنها اعتقلت أكثر من ثلاثة آلاف جندي من مشاة القاعدة هذا إذا صحّت ادعاءات المسؤولين. لقد قمنا بشنّ نصف حربين فاشلين وبذلك تركنا أفغانستان والعراق تغليان بالحقد على أميركا وهي تربة خصبة لتوسع القاعدة ومثيلاتها. وقد أرسلنا جنودنا إلى اليمن، وشرق أفريقيا، والفليبين، والقوقاز وقد كانت تلك القوات قليلة العدد لدرجة أنها لا يمكن أن تشكل أي تأثير على حركات المقاومة المسلحة الإسلاميّة هناك، لكنها تثير ضجة كبيرة لدرجة أنها تقنع المزيد من الناس في العالم الإسلامي بأن واشنطن ستلجأ إلى استخدام قوتها العسكريّة أينما كان المسلمون يحاربون ما يرونه استبداداً وطغياناً. والأسوأ من هذا أننا أبدينا تأييدنا ودعمنا بشكل رسمي لروسيا، والصين، والهند في حروبها على الإرهاب!! في الشيشان، وكزينجيانغ، وكشمير. وفي كل تلك الحالات، وقفت أميركا إلى جانب الحكومات المصممة على إبادة المقاتلين الإسلاميين الذين لا يناضلون لنيل استقلالهم فحسب، بل يناضلون ضد البربريّة

المؤسساتيّة أيضاً. إن أميركا تواجه هذه المآزق لأن مجتمعنا النخبوي يصرّ دائماً أن أعمال العنف التي يتسبب المسلمين بوقوعها هي أعمال إرهابيّة وأنه لا يعقبل أن يكون أي من أولئك المسلمين مقاتلاً من أجل الحرّية. إننا باختصار في ورطة كبيرة.

وبالرغم من كل ما سبق، وفي وسط هذه الكارثة التي صنعناها بأيدينا لنقع فيها، هناك فرصة ذهبيّة تلوح في الأفق، فرصة يستبعد أن تتكرر في حياة هذا الجيل. فللمرّة الأولى منذ انتهاء الحرب الباردة - أو حتى منذ عام 1945 - سنحت للأميركيين فرصة القيام بخيار حاسم بخصوص علاقات الولايات المتحدة مع العالم الإسلامي. وإذا كان بن لادن قد قدّم لنا معروفاً، غير التأكيد على قوة الكلمات والأفكار، فهو دون شك دفعنا للوصول إلى هذا الوضع الحساس. كما أنه قدّم مثالاً رائعاً عن الذكاء الاستراتيجي عندما وضع أميركا في موقف لا يمكنها فيه إلا أن تختار الحرب من خلال استمرارها في اتباع سياساتها الراهنة. والآن الأمر بيدنا، فإما أن نُصرّ على سياساتنا الحاليّة وبذلك نكون قد أنكرنا دور هذه السياسات في إثارة مشاعر الكراهية التي يجسدها بن لادن، أو يمكننا أن نبحث ونناقش الحقيقة التي نواجهها والتهديد الذي يجب أن نتصدى له، ونقضي عليه، ومن ثم نقوم - إذا ما اقتضت الحاجة - بوضع السياسات التي تخدم المصالح الأميركيّة بالشكل الأمثل.

وأوّد أن أؤكد هنا أننا لسنا في صدد الاختيار بين الحرب والسلام. فأميركا تواجه حرباً لا يمكنها أن تتجنبها وهي حرب - على الأقل في الوقت الحاضر - ستأخذ مساراً أكثر وحشيّة وعنفاً بغض النظر عما نفعله حيالها. أما الخيار المتاح أمامنا فهو إما الإبقاء على السياسات الراهنة والتي ستؤدي إلى تزايد الخسائر في الأموال والأرواح الأميركيّة، أو وضع سياسات جديدة والتي يمكنها مع الوقت الحدّ من الخسائر المذكورة. فلم يعدّ بإمكاننا الخروج من هذه الفوضى العارمة بالكلام والمفاوضات؛ فقد استمع العدو لكلامنا لثلاثين سنة خلت لذا فقد أصبح على قناعة تامة بأن وعود الأميركيين بإنصاف المسلمين كانت كذباً في كذب. إن الأمر ببساطة كالتالي: إن العدو يريد الحرب وهو لا ينصت لما نقوله - فليس لديه أي سبب يدعوه لذلك، لأنه ينتصر، وليس أمامنا نحن أي خيار سوى أن نحاربه -

لكن القرار الذي سنتخذه بخصوص السياسة هو الذي سيحدد المدة التي ستستغرقها الحرب وكلفتها.

لقد ناقشت في هذا الكتاب حتى الآن المواضيع التي لدي بعض المعلومات عنها، والتي اكتسبت من خلال سني عملي خبرة بخصوصها وهي بن لادن، والإسلام، وحركات المقاومة الإسلاميّة المسلحة، وأفغانستان. إلا أنني في هذا الفصل سأقوم وبعد استئذان من القارئ العزيز بمتابعة ما بدأته مع إضافة بعض التعليقات حول السياسات والأعمال الأميركيّة التي أذهلتني - بصفتي ضابطاً في الاستخبارات وباحثاً في التاريخ - لما جسدته من خروج واضح عن التجربة الأميركيّة ولتنافيها مع مصالح الولايات المتحدة التقليدية. وقد وجدت الشجاعة في نفسي - أو ربما الحماقة في حالتي هذه - لأخرج من إطار منطقة الراحة والأمان التي توفرها لي الخبرة المهنيّة والتعليميّة بعد قراءتي لعدد من الكتب والمقالات التي وجدتها مثيرة من حيث قدرتها على الإلهام لتكوين رأي ما حول دور أميركا في العالم ومسؤولياتها المزعومة إزاء ما يدعى بالمجتمع الدولي، والأهم من ذلك، مسؤولياتها تجاه نفسها. ومن بين الكتب التي سأذكرها ههنا وأنصح القراء بالاطلاع عليها: كتاب روبرت د. كابلان: *سياسات المحارب: لماذا تتطلب القيادة إيمان المراطقة* (2002)، وكتاب كنت غرام: غيتيسبرغ: *تأملات في الحرب والقيم*، وكتاب رالف بيترز: *القتال من أجل المستقبل: هل ستنتصر أميركا؟* (1999)، وكتاب *ما بعد الإرهاب: استراتيجية في عالم متغير* (2002) لبيترز أيضاً، وكتاب برنارد لويس: *أزمة الإسلام: حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس* (2003)، وتعليق إعلامي للكولونيل الأميركي المتقاعد ديفيد هـ. هاكوورث، والبحث الممتاز الذي كتبه ريتشارد بيت في ربيع عام 2002 في مجلة العلوم السياسية، *نقطة ضعف التفوق الأميركي: ميزات تكتيكية للإرهاب*، بالإضافة إلى كتب ومقالات جنيف عبدو، ومقالة ستيفن بيدل التي قالت الحقيقة للسلطة (أم هي الغطرسة المفرطة؟)، أفغانستان ومستقبل الحروب: النتائج بالنسبة لسياسة الجيش والدفاع (2002). إنني لا أتفق بالضرورة مع كل ما كتبه هؤلاء الأشخاص، كما أنهم قد لا يوافقونني الرأي في كل ما أكتبه هنا. إلا أن تحليلاتهم استثنائيّة وقدرتهم على الربط بين

المفكرين الذين يعودون إلى قرون خلت وربط ذلك التراث بتجاربهم الخاصة وصراحتهم اللاذعة تقدم نتاجاً نادراً وقيّماً ألا وهو: حافز فكري يأسر القارئ ويسرقه من عالمه ويجبره على التفكير والتأمّل ليصنع رأياً مستقلاً عن آراء وأفكار الآخرين، ويجازف بتعريض نفسه لانتقادات الآخرين. وما يأتي بعد ذلك هو مجرد محاولة بسيطة طموحة لأحد أعضاء ذلك الفريق لتتبع الأمثلة التي وضعها اللاعبون الكبار المذكورين.

بالمختصر المفيد: باطن بن لادن هو ظاهره بالضبط

كفى بنا حديثاً عن بن لادن على أنه رجل عصابات، وقاتل بالجملة، ومنحرف، ومختل، ودمية يحركها الآخرون، أو ارهابي هاوٍ يستمتع بتبديد أمواله. لنفتح أعيننا وأذنينا للمعلومات التي يمكن تصديقها عندما نسمع ما يشير إلى واحدة أو أكثر من تلك الصفات، ولكن إلى أن تظهر معلومات موثّقة عن هذا الموضوع، لنتفق بأن أميركا تواجه عدواً ذكياً، وموهوباً، وثابتاً لا يعرف الاستسلام، ويمتلك شخصيّة تتمتع بشعبية كبيرة وتصميم لا يلين، بإجماعنا على هذا الرأي، يمكننا أن نتصرّف ونتناقش كأشخاص بالغين ومسؤولين، نُقدّر بدقة حجم التهديد الذي نواجهه، ونضع حدّاً للاعتقاد بأن هجمات الحادي عشر من سبتمبر كانت حدثاً لن يتكرر. عندئذ فقط، سيكون بإمكاننا أخيراً اتخاذ قرار عقلاني بخصوص التعايش مع التهديد الذي يمثّله بن لادن أو القضاء عليه. وإلى أن نتوصل إلى نتيجة صحيحة عن طبيعة خصمنا، ونشعر بقدرتنا على الإدلاء بهذا الرأي ومناقشته علناً، ومن ثم اتخاذ إجراءات مبنية عليه سنستمر في الخسارة أمام الإسلاميين كما هي حالنا منذ الحادي عشر من سبتمبر. "لا يمكنك أن تقود أمة بأكملها إلى حرب ما لم تكن لديك الجرأة على الاعتراف بعدوك، فالعالم الإسلامي الذي اعتاد على الحروب في سبيل الدين قد دفع إلى تجديد طاقاته لتبدأ بالتوسع وأفسح المجال الداخلي لأولئك الذين بدأوا يضرمون النار في الصراع القديم مع الغرب"[17]. هذا ما أكده مارك هيلبرن في مقال كتبه في صحيفة *وال ستريت جورنال*. على الرغم من أن السيد هيلبرن على خطأ في ما يتعلق بالتوسعية الإسلاميّة بقيادة بن لادن، فإن زعيم

القاعدة دون أدنى شك هو واحد من "أولئك الذين ظهروا من الداخل" الذين يقودون حرباً دفاعيّة ضدنا. دعونا نقبل اليوم - حتى يظهر ما يثبت العكس - أن بن لادن هو في الحقيقة ما يبدو عليه ظاهرياً - خصم خطير يمتلك مكانة بارزة - ونوافق على ما قاله السيد هولمز لواطسون، أنه بعد استبعاد كل الخيارات الأخرى، "مهما كانت النتيجة المتبقية حتى وإن كانت غير معقولة على الإطلاق فإنها لا بد وأن تكون الحقيقة".

دعوكم من الشرطة: ليس هناك أمر تُمنع مناقشته نظراً لخطورته

إن مشكلة أميركا في مواجهة القاعدة ليست محدودة لدرجة أنها يمكن أن توصف بحق على أنها "مشكلة بن لادن". إن مقتضيات الصراحة تفترض بنا الحديث عنها بوصفها مشكلة إسلاميّة أو مشكلة المسلمين.

إن الجرأة على قول هذا يعني ببساطة تقبّلنا للحقيقة. وإن هذا الطرح لا يتضمن أي معانٍ أخرى - سواء كانت ظاهرة أم مبطّنة - تهدف إلى الإساءة إلى أحد أعظم الأديان في العالم. في الحقيقة، في وقت من الأوقات في التاريخ المسيحي كان المسيحيون مستعدين لأن يحاربوا ويموتوا وحتى يحرقوا على الخازوق إلا أنهم لم يكونوا على استعداد للتخلي أو الارتداد عن دينهم. وقد ذكّر كينيث مينوغ قراء الناشونال إنترست بأن "التاريخ المسيحي هو أكبر شاهد على العنف الذي قد يرد به محبو الإسلام على أي تصرف يرونه تحدٍّ لدينهم"[18]. وفي تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة التي أنتمي إليها شخصياً، بعض أولئك الذين يعدون اليوم قديسين استحقوا صفتهم هذه لأنهم قاتلوا وجاهدوا ضد الإمبراطورية الرومانيّة أو شاركوا في سلسلة الحملات الصليبيّة التي دعا إليها البابا أوربانوس الثاني. وفي المهمة العسكريّة الكاثوليكيّة لفرسان الهيكل، على سبيل المثال، حيث كتب جيمس ريستون جونيور أن الحملة "استمدت الإلهام في مهمتها من القديس برنارد دو كليرفو الذي أعلن أن القتل في سبيل المسيح كان عملاً حميداً لا جريمة نكراء وأن قتل الوثنيين يُكسب المجد، لأنه يمنح النصر والمجد للمسيح"[19]. إن الحقيقة بكل

بساطة هي أن المسلمين لديهم معتقداتهم الخاصة، واليوم يعتقد عشرات الملايين منهم - غير بن لادن، والقاعدة، وطالبان، وأمثالهم من الإسلاميين - أن دينهم يتعرض لاعتداءات من قبل صليبيي الغرب بقيادة الولايات المتحدة، وأن الإسلام سيتغيّر إلى الأبد ولن يعود كما كان على الإطلاق، هذا إذا لم يتم القضاء عليه بشكل كامل، في حال لم يتحرك كل مسلم، ويهب للدفاع عنه، ويقدّم حياته رخيصة في سبيله كما أمر الله ورسوله.

وإن شك أحدكم بما سبق، فليقرأ الفتاوى التي صدرت عن العديد من كبار رجال الدين وعلماء المسلمين من ليبراليين، ومحافظين، ومتشددين منذ بداية الحرب التي شنّتها الولايات المتحدة للمرّة الثانية على العراق. وقد أجمعت الفتاوى على الدعوة لجهاد دفاعي ضد الولايات المتحدة لاعتدائها على العراق أرضاً وشعباً. ودون أي ذكر لبن لادن نجد أن هذه الفتاوى تعكس الحجج الدينيّة التي تستدعي جهاداً دفاعياً ضد الولايات المتحدة التي طرحها بن لادن مراراً وتكراراً منذ العام 1996، وهي تثبت من نواحٍ عدة الدقة الشرعيّة لفتاوى بن لادن. كما أن الفتاوى المتعلقة بحرب العراق تطلق صفة المرتد على كل مسلم سواء كان فرداً، أو جماعة، أو حكومة تقدّم العون للولايات المتحدة سواء بالقول أو الفعل في الاعتداء على الشعب العراقي واحتلال أرضه. وفي هذا السياق، حذر الشيخ السعودي البارز سلمان العودة كافة المسلمين قائلاً: "**يحرم على كل المسلمين أن يُقدّموا أي مساعدة بالقول أو الفعل، أو الإشارة، أو الإمدادات لأي اعتداء يهدف إلى تدمير العراق وقتل شعبه**"[20] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). وتعكس كلمات كهذه من جديد آراء بن لادن بشكل دقيق.

إن تركنا لاهتمامنا الشديد باللباقة السياسيّة، سيمكّننا من إدراك الكراهية العميقة والمتزايدة، التي يكنها 1.3 مليار مسلم في العالم لأميركا - وسيمكّننا من مناقشة هذه الكراهية بشكل واضح وصريح. وبما أن القادة المسلمين - وفي مقدمتهم بن لادن - قد قالوا لنا مرات عديدة أنهم يكرهوننا بسبب ما نفعله وليس بسبب أسلوب تفكيرنا أو مظهرنا أو حديثنا، لذا فلا يمكن أن نُتهم بالعرقيّة أو بالتعصب ضد الإسلام في طرحنا هذه القضية للحوار. "**يؤسفني أن أقول لكم أنكم أسوأ**

حضارة عرفها تاريخ البشريّة، فأنتم تنهبون أراضينا وتسرقون ثرواتنا ونفطنا... وتحتل قواتكم بلادنا... لقد جوّعتم شعب العراق المسلم... ما الذي بقي من قائمة الأفعال الشائنة والشريرة والظالمة لم تفعلوه بعد؟"[21] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

هذا ما وضّحه بن لادن في رسالته التي وجهها للأميركيين في أكتوبر عام 2002.

إن الحقيقة بالنسبة لأميركا تتعلق ببساطة بالاعتراف بأن هناك أعداد كبيرة ومتزايدة من المسلمين الذين يكرهون سياساتنا وأفعالنا في العالم الإسلامي، وكنتيجة لذلك يستعد العديد منهم لقتالنا أو سبق لهم أن فعلوا ذلك. إن تقبّلنا لهذه الحقيقة سيجعلنا على استعداد لمناقشة هذه القضية واتخاذ قرار بخصوص ما سنفعله نحن الشعب الأميركي لهزيمة الخطر الذي يتهدد أمن بلدنا وأسلوب حياتنا. وسيبدو هذا الحوار تقدّماً نحو شيء افتقدته أميركا منذ نهاية الحرب الباردة وهو التعريف الواضح لمصطلح المصالح القوميّة. "ليست هناك أي مصالح قوميّة واضحة، كما أنه ليس ثمة حوار حول المصالح القوميّة، أما السياسة فقد بدت وكأنها سجينة اللوبيات الدوليّة التي تستخدم سخط آلة الإعلام الحديث... إن الولايات المتحدة تخوض اليوم حربين دون أن يكون لدى الأميركيين أي فكرة واضحة عما أقحمت فيه دولتهم نفسها"[22].

وبما أننا قد وصلنا إلى هذه النقطة، فإن بداية حوار صريح ستكون أصعب من أي وقت مضى، لأنه كي يكون هناك حوار منتج فإن هذا يستدعي منا القيام بتحليل دقيق للسياسات التي لم يعتد الأميركيون على مراجعة الحكومة بخصوصها، خوفاً من التصادم مع أعراف اللباقة السياسيّة التي كان رالف بيترز محقاً عندما وصفها بأنها "العدو اللدود" للديموقراطيّة حيث إنها ممارسة "لاستبداد الأقليات التي لا يفهمها العامة"[23]. والمضحك المبكي هنا هو أنه إذا اكتسبنا الشجاعة لنناقش هذه القضايا، فإننا سنجد أن المسائل المطروحة للنقاش والحوار تدخل في صلب السياسة الخارجية لبن لادن. أما القضايا التي تحتاج للحوار فهي تتضمن الآتي:

- هل الدعم المستمر لإسرائيل من النواحي العسكريّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة يخدم مصالح الولايات المتحدة بشكل أساسي، أي هل له تأثير كبير على بقاء أميركا؟ وهل نُقدّم لإسرائيل تأييداً غير مشروط لأن ذلك أمر رئيسي بالنسبة

لأمننا، أم أننا نفعل ذلك بحكم العادة، أم بسبب البراعة الفائقة التي يتمتع بها الجواسيس وجماعات الضغط من الأميركيين الذين يعملون لصالح إسرائيل، أو ربما بسبب التكرار المستمر للادعاء بأن إسرائيل هي دولة ديموقراطية أو خوفاً منا من فقدان السيطرة على دولة سمحنا لها بامتلاك أسلحة دمار شامل أو قد يكون السبب هو التحالف الغريب المؤيد لإسرائيل بين الديموقراطيين الليبراليين والمتشددين المسيحيين فضلاً عن الشعور الخاطئ بالذنب بسبب محرقة اليهود؟ إن إسرائيل لها الحق في الوجود كأميركا أو غيرها من الدول إذا كانت قادرة على الدفاع عن نفسها أو العيش بسلام مع جيرانها، وهذا ليس النقطة الرئيسية هنا. إلا أن السؤال الذي يجب أن نسأله هو هل تتطلب مصالح الولايات المتحدة أن يكون الأميركيون حماة لإسرائيل، وهل عليهم أن يتحملوا الخسائر التي لا نهاية لها في الأموال والأرواح التي يتكبدونها للقيام بهذا الدور؟ إن السياسة الأميركيّة الراهنة إزاء إسرائيل ستؤدي دون شك إلى حرب لا تنتهي مع الإسلام.

- إن قضية إسرائيل تقودنا إلى سؤال أكثر أهمية للأميركيين وهو بكلمات مايكل إغناتيف: "إن الأسئلة الصعبة... ومنها هل حريتهم تفرض عليهم واجب الدفاع عن حرّية الآخرين خارج حدود بلادهم؟"[24] إن أعظم واجب يمكن أن يؤديه الأميركيون اليوم لأمتهم وازدهارها هو التخلي عن الإرث القذر الذي خلفته أيديولوجيّة وودرو ويلسون المتعلقة بالالتزام بالتعاون الدولي الذي أغرق القرن العشرين بالدماء والحروب أكثر من أي أيديولوجيّة أخرى - وأن نتذكر ونطبّق نصيحة جون كوينسي آدامز بأنه يجب أن تكون الولايات المتحدة الأمة "التي تدعو إلى حرّية واستقلال الجميع... [لكنها] المقاتلة والمدافعة عن حرّيتها هي فقط"[25].

- بمعزل عن الأسعار الرخيصة للنفط، ما الذي نكسبه من دعم قادة الدول الإسلاميّة الذين يديرون أنظمة قمعية فاسدة - سواء كانوا .... - أولئك الذين يستغلون تحكمهم بأسعار النفط لانتزاع الحماية الأميركيّة؟

- هل نتحلى بالشجاعة الأدبيّة الكافية لتحدي تحالف شركات النفط، والمتشددين من حماة البيئة، والمؤيدين السياسيين لكل من الفئتين ونضع سياسة خاصة بالطاقة تهدف إلى تحقيق اكتفاء ذاتي من الطاقة؟ إن حروب اليوم تظهر العلاقة المباشرة بين اعتماد الغرب على نفط الخليج العربي والخسارة في أرواح الأميركيين: فكلما زاد الاعتماد على نفط الخليج، كلما زاد عدد القتلى من الأميركيين. ففي منطقة ليس لدينا فيها أي مصلحة قوميّة باستثناء النفط، يظهر السؤال التالي: كم من الأرواح نحن على استعداد للتضحية بها مقابل ألف برميل من النفط؟
- هل نحن بحاجة لقواعد عسكريّة بحريّة وبرّيّة في الخليج العربي؟ وهل نحن بحاجة للاستمرار في احتلال أراضي المسلمين؟ هل هناك خطر يتهدد أمن أميركا يبرر هذه الأمور، في الوقت الذي يعزز كل منها دعوة بن لادن بين المسلمين؟ وفي حال كان هناك خطر من هذا القبيل، هل سنستطيع كما سأل رالف بيترز: "القتال والمحافظة على نفس المستوى من العنف الذي يقتضيه القضاء على هذا النوع من التهديدات؟"[26] والغريب هو أننا في هذا الوقت الذي ندّعي فيه المساواة بين كافة الحضارات، هل يمكننا حتى الاعتراف بأن هذا المستوى من العنف ضد حضارة أخرى قد يكون ضرورياً لضمان بقائنا؟
- هل يتطلب أمن الولايات المتحدة - وهل نمتلك الحق - أن نحاول فرض أنظمة ديموقراطيّة علمانيّة بالقوة على بلاد لم تقدم لنا أي تلميح ولو بسيط على رغبتها بذلك؟ وهل ثمة احتمال بأن تندثر أمتنا إن لم تكن باقي دول العالم مثلنا تماماً؟ أو إذا كانت حملتنا التي تهدف إلى صنع الديموقراطية تثير الاضطرابات في معظم بقاع العالم؟

وكما قد يتبادر إلى ذهن القارئ، فإن أسئلة كهذه، إذا ما تمت دراستها بدقة، من شأنها إثارة جدل حامي الوطيس فضلاً عن الطعن، والتشهير، وإطلاق الاتهامات بالتمييز العنصري ومعاداة الساميّة، والرهاب من الإسلام، والانعزاليّة بالإضافة إلى اتهام الكاتب بالغباء.

إن أجيال عدة من نخبة أميركا - الذين تقبّلوا منذ زمن طويل أن هناك بعض الأمور تعتبر من المسلّمات كدعمنا لإسرائيل، والعلاقات القوية التي تربطنا بالطغاة

.....، وقدسيّة عدم التعرض لمواطن الرنة والأرنب القطبي، وواجبنا لجعل كل الأمم ديموقراطية وعلمانية – سيقفون لمجابهة هذه الأسئلة بسخط ونقمة. وسيفعل البعض منهم ذلك لإيمانهم الحقيقي بهذه المسلمات. كما سيعترض المزيد منهم بسبب الموارد الماليّة التي تتدفق عليهم من شركات الطاقة والأسلحة الأميركيّة، والعجز الذي تسببت به السياسات الانتخابيّة الأميركيّة وجماعات الضغط على الحكومة والكونغرس عن إدراك أن مصطلح "المصالح القومية الأميركيّة" لا يعني أبداً "المصالح القومية الإسرائيلية".

إن هؤلاء الرجال والنساء سيؤكدون أن السياسات المذكورة آنفاً هي من المسلّمات التي لا تحتاج إلى حوار، أو نقاش، وأنها مقدّسة ومقبولة من الأميركيين في كافة أنحاء العالم، وأنها لا تتطلب أي مراجعة، أو إعادة نظر، أو تحليل، أو نقاش. إلا أنني أعتقد أن وراء ادعاءات النخبة المتعلقة بهذه المسائل هناك خوف كامن بأن إجماعهم في الرأي على قبول تلك السياسات قد لا يكون في نهاية الأمر حقيقياً أو مبنياً على أسس متينة. وقد يتبادر في أوساط النخبة شك بأن معظم الأميركيين من الطبقة العاملة لا يرون أن هناك أي مكاسب يمكن أن تتحقق من خلال معاداة أكثر من مليار مسلم، وأن كلام واشنطن عن نشر الديموقراطية وهي تقوم في الوقت ذاته بحماية الحكومات المستبدة هو نفاق مخجل، وأن زمان سياسة الطاقة التي تهتم بالتندرة، وغزال الرنة والأشنيات وتعتبر أن حمايتها أهم من الحفاظ على حياة الجنود والمدنيين الأميركيين، قد انقضى وولى، وأن تحسين الأوضاع في أميركا في مجالات الاقتصاد، والديموقراطية، والتعليم هي أمور أهم بكثير من الإنفاق على حملات عسكريّة دونكيشوتيّة وهميّة تتسبب في كراهية العالم لأميركا، بهدف دمقرطة البلاد والشعوب التي لا تريد أصلاً أن تكون مثلنا، فضلاً عن أنها لا تؤثر بأي شكل من الأشكال على بقاء أمتنا.

أما المفرقعات، والمشادات الكلاميّة، والأحقاد في أوساط العامة التي ستنجم عن مناظرة من هذا القبيل فستشكل دافعاً قوياً لدى الأميركيين، وخاصة ممن هم خارج الأوساط الأكاديميّة والممر الذي يصل بين واشنطن وبوسطن وهوليود، لإعادة النظر في السياسات الراهنة وبحثها بشكل متعمق. وقد يرى الأميركيون بعد

هذا السبات الطويل الهم يمتلكون القدرة على التفكير بشكل مستقل وتحديد الأمور التي تصب في صالحهم وصالح بلدهم، والحكم على العبارات المتكررة التي أفرزتها السياسة الخارجيّة للنخبة بأنها لا تحتاج إلى إعادة نظر فحسب، بل يجب إهمالها بشكل كامل أيضاً. لكن مع كل هذا، لا يستطيع أي منا أن يخمن ما سيسفر عن مناظرة من هذا القبيل. ربما يكون بن لادن على حق وأن الوضع الراهن للسياسة الأميركيّة إزاء العالم الإسلامي سيستمر ولن يتغير. ومع ذلك أتمنى ألا تكون هذه نتيجة المناظرة، وإذا كان الأمر كذلك فإن الحكم يجب أن يكون كالعادة حكم الأغلبية. ومهما كان القرار - كما قلت سابقاً - فإن المواجهة العسكريّة بين أميركا والإسلام ستستمر. إلا أن حدوث مناظرة نزيهة سيسمح للأميركيين بمعرفة ما سيترتب على قرارهم: فالاستمرار في اتباع السياسة الراهنة سيعمّق من حدة الصراع مع تزايد في الخسائر على صعيدي المال والأرواح، أما وضع سياسة جديدة فقد ينطوي على إمكانية إقامة علاقة أقل حدة ودمويّة مع الإسلام. ومهما كان الخيار فلا بد أن يقوم باتخاذه الأميركيون جميعاً بعد أن يتم طرح ومناقشة كافة الخيارات المتاحة، وبقولي الأميركيين جميعاً أقصد ليس فقط مجتمع النخبة، ومن يؤثر عليه، ويتدخل فيه، ويصرف عليه، ويحركه من شركات النفط، وصنّاع الأسلحة، والوعاظ البروتستانت، وإسرائيل ومن يعمل لصالحها.

الخاتمة:
ليس هناك ما يدعو إلى التفاؤل

لا يمكنني أن أقول لكم أي كلمة مشجعة!... [فالشعب] لم يدرك بعد أننا نخوض حرباً ضد الجنوب. ولم يحسم الناس أمرهم، ولم يعزموا على خوض هذه الحرب إلى النهاية، ذلك لأن هناك فكرة ثابتة في عقولهم بأننا سنخرج من هذه الورطة بطريقة أو بأخرى اعتماداً على براعتنا في وضع الاستراتيجيات!... كما أن الجنرال مكليلان يعتقد بأنه سيسحق الثوار باستراتيجيّة ما، أضف إلى ذلك إيمان الجيش بنفس هذه الفكرة... إنني أقول لكم إن الناس لم يدركوا حتى الآن أننا في حالة حرب! فهم يظنون أن هناك طريقاً ملكياً سيؤدي إلى السلام، وأن الجنرال مكليلان لا بد وأن يعثر عليه. إن الجيش لم يتوصل إلى قناعة تامة بأننا نخوض حرباً رهيبة، وأننا يجب أن نقاتل حتى النهاية، حتى الضباط لم يدركوا ذلك بعد.

أبراهام لينكولن، 1862[1].

إن السخط الشديد الذي أبداه السيد لينكولن إزاء فشل مكليلان في القضاء على جيش فيرجينيا الشماليّة الذي كان بقيادة لي في موقعة أنتيتام، هو نفس الشعور الذي لا بد وأن الأميركيين يشعرون به اليوم بسبب سوء تقدير قادتهم وإخفاقاتهم العملياتيّة في التغلب على بن لادن والقضية التي يمثلها. وقد سبق أن أثرت هذه النقطة لذا لن أعود لمناقشتها من جديد. لكنني أعتقد أنه يكفي أن أقول إن السيد لينكولن في القول أعلاه كان يثير نقطة مهمة وهي أنه حتى بعد مرور سبعة عشر شهراً على بداية الحرب، لم يدرك معظم الأميركيين من قادة وشعب حقيقة حربنا الأهليّة. ونفس المشكلة كانت ظاهرة بشكل واضح عندما بدأت

بكتابة هذا العمل في يناير عام 2003 ولا تزال موجودة حتى وأنا أنهي فصله الأخير في مايو عام 2004، وذلك بعد مرور أكثر من ثلاثين شهراً على غزونا لأفغانستان. فنحن لا نزال نرى الحرب بعيون مكليلان، لا لينكولن، ولا نزال نرفض الاعتراف بحجم وطبيعة تهديد بن لادن، كما أننا لم نبدأ بعد بخوض الحرب بالطريقة التي تمكننا من هزيمة القوى التي يقودها ويلهمها بن لادن.

وقد يكون السبب في ذلك هو أن هذه الحرب تختلف عن كل الحروب التي خاضتها أميركا. ففي صراعنا ضد بن لادن واجهنا حقيقة غير اعتيادية خالفت كل توقعاتنا ولم نتقبّلها بعد. فنحن قد دُرِّبنا على البحث عما وصفه كلوزويتز مرة بأنه "مركز ثقل" العدو وعند إيجاده يمكن استهدافه بهجمات تؤدي إلى تدمير العدو بشكل كامل، وقد قام القادة الأميركيون بالفعل بالاعتداء على الملاجئ الآمنة لبن لادن، وإمداداته الماليّة، وكادره القيادي، والجماعات المتحالفة معه، وحتى التبرعات الخيريّة، والمناهج التعليميّة التي كان يُعتقد بأنها تمده بالدعم والتأييد. وقد تم تنفيذ هذه الاعتداءات على مدى ثلاث سنوات حتى الآن، تم فيها إحراز نجاحات كبيرة ذكرت في الفصل الثالث، لكن على الرغم من ذلك فقد جاء في تقرير خاص بالتهديد العالمي قُدّم في أواخر شهر فبراير عام 2004 وأعده مدير الاستخبارات المركزيّة الذي أخبر فيه اللجنة المختارة المنبثقة عن مجلس الشيوخ أن التهديد الذي يشكله بن لادن كان يتزايد يوماً بعد يوم، جاء فيه:

> لقد قمنا حتى اليوم بتحقيق قفزات كبيرة [ضد القاعدة]. لكن لا تسيئوا تفسير كلامي. فإنني لا أقول إن القاعدة قد هزمت فهي لم تهزم. إننا لا نزال في حالة حرب. إن القاعدة منظّمة لا يستهان بها، وهي لا تزال ذات أهداف ثابتة تتمحور حول الهجوم والاعتداء على الولايات المتحدة، وأصدقائها، وحلفائها...
>
> وحتى الآن لم أتكلم إلا عن القاعدة. لكن التهديد الإرهابي في العالم لا يقتصر على القاعدة فحسب. فقد أفسدت القاعدة الآخرين بأيديولوجيتها المُعديّة التي تصورّ الولايات المتحدة على أنها أخطر عدو للإسلام. سيدي الرئيس، إن ما سأقوله لكم الآن قد يكون أهم أمر قلته لكم اليوم.

> إن النمو المطّرد لمشاعر بن لادن المعادية للولايات المتحدة، والشائعة في أوساط الحركة السنيّة الأصوليّة ذات القاعدة الشعبيّة الواسعة والانتشار الكبير، يؤكد أن التهديد الخطير الذي نواجهه لا يزال حاضراً وبقوة، وسيستمر في المستقبل القريب سواء ظلت القاعدة في الصورة أم لا[2].

إن كلمات المدير تنطوي على كثير من الشجاعة، وهي تخالف إلى حدٍّ كبير كل ما أدلى به غيره من المسؤولين الأميركيين، في ما يخص الحرب على القاعدة، وقد سمع الحضور والإعلام تلك الكلمات لكنهم لم يفهموها. وقد كان جوهر ذلك الخطاب هو أنه على الرغم من أن أميركا قد حققت انتصارات تكتيكيّة كبيرة ضد القاعدة، فإنها لا تزال تمنى بالخسارة في حربها الاستراتيجيّة بسبب الانتشار الواسع لمشاعر بن لادن المعادية للولايات المتحدة في أوساط الحركة السنيّة المتطرفة والتي تمتد جذورها إلى كافة أنحاء العالم. هذه هي الحقيقة بالضبط. لكن لماذا؟ إن مدير الاستخبارات المركزيّة لم يكن صريحاً تماماً هنا، حيث إنه تبنّى في كلامه فكرة الفيروس التي يحب أن يستخدمها أولئك الذين لا يعرفون الحقيقة أو الذين لا يريدون أن يتقبّلوها. فقد قال مدير الاستخبارات أن بن لادن قد "نقل عدوى" أيديولوجية القاعدة إلى الآخرين[3].

إن تصريح المدير بأن بن لادن هو الذي ينتصر هو أوضح شهادة تلقيناها من قادتنا. إلا أن بن لادن قد بث الحماسة في المسلمين السنّة وحرّضهم و لم يعدهم. إن الإسلاميين في تنظيم القاعدة وفي غيره من الجماعات المماثلة، والمسلمين العاديين في كافة أرجاء العالم أصيبوا بعدوى الكراهيّة لسياسات الولايات المتحدة إزاء العالم الإسلامي. فتأييد أميركا لإسرائيل، وروسيا، والصين، والهند، والجزائر، وأوزبكستان، وغيرها من الدول ضد الإسلاميين – وحمايتها للعديد من الأنظمة الاستبداديّة والقمعيّة في البلاد الإسلاميّة – ومساعيها التي تهدف إلى التحكم بسياسات النفط، وأسعاره، ونشاطاتها العسكريّة في أفغانستان، والعراق، وشبه الجزيرة العربيّة، وغيرها من البلاد. هذه هي أسباب عدوى الكراهية المتفشيّة في العالم الإسلامي. لقد استغل بن لادن بدهائه المعهود هذا المرض الذي تسببت به أميركا وأخذ يذكّر المسلمين بتاريخهم، وواجباتهم الدينيّة ويهاجم أميركا، وبهذا

ظهر في الساحة على أنه قائد لما وصفه مدير الاستخبارات المركزيّة بدقة "للتهديد الخطير الذي سيبقى حاضراً في المستقبل القريب"[4].

إن بن لادن في النهاية قد قلب معايير كلوزويتز رأساً على عقب. فبن لادن ليس له مركز ثقل على الإطلاق بالمعنى التقليدي للمصطلح فهو لا يمتلك اقتصاداً، ولا مدناً، ولا وطناً، أو أرضاً، ولا شبكات كهرباء، وجيشاً نظامياً... إلخ. غير أن مركز ثقل بن لادن يكمن في مجموعة السياسات الأميركيّة الراهنة إزاء العالم الإسلامي، لأن هذا الوضع الحالي يثير غضب وسخط المسلمين في كافة أنحاء العالم بغض النظر عن رأيهم بالعمليات العسكريّة التي تقوم بها القاعدة، كما أنها تمنح الجهود التي يبذلها بن لادن للحث على جهاد دفاعي عالمي ضد الولايات المتحدة بالفعل أرضاً خصبة لتنمو وتزدهر. **وطالما أن هذه الحقيقة لا تلاقي آذاناً صاغيّة بين الأميركين، سيظل بن لادن هو المنتصر في الحرب الاستراتيجيّة على الرغم من الخسائر التي يتعرض لها في الحرب التكتيكيّة.** وإلى أن تتغير هذه السياسات، فلن يكون أمام الولايات المتحدة إلا خيار تصعيد عنف ووحشيّة الردّ العسكري ضد القوات التي يتزعمها بن لادن، وهو خيار سيطيل من عمر أميركا وبقائها، لكنه سيكلّف ثمناً باهظاً لا يمكن تصوّره من الخسائر في الأموال والأرواح والحريات المدنيّة. "إن كل الحروب مبنية على الخداع" هذا ما قاله الفيلسوف الصيني سن تسو منذ زمن بعيد.

وحتى هذا اليوم، لم تخدع حرب أميركا ضد بن لادن والقاعدة إلا الشعب الأميركي.

خاتمة جديدة:
قراءة شخصيّة وموضوعيّة

منذ أن نَشر هذا الكتاب للمرّة الأولى في يوليو عام 2004 طرأت تطورات هامة في ما يخص حرب أميركا ضد بن لادن والقاعدة، كما تعرضت حياتي لكثير من التغييرات. وقد كانت الأحداث الخاصة بالحرب بطبيعة الحال أهم بكثير من التغيرات التي طرأت على حياتي بشكل خاص، لكن قبل أن أتعرض لتلك الأحداث أودّ أن أعرف عن نفسي لقراء هذا الكتاب وكتابي السابق *النظر من خلال عيون أعدائنا* وذلك في محاولة مني للقضاء على الفكرة التي روّج لها بعض السياسيين المتهوّرين بأن وكالة الاستخبارات المركزيّة حاولت أن تؤثر في مجرى الانتخابات الرئاسية عام 2004.

خاص: من مجهول إلى مايك

بالمناسبة، إن إحدى المشاكل التي تعاني منها أجهزتنا الاستخباراتيّة هي أن إداراتها بيد شرذمة من المخادعين الحمقى.

رالف بيترز، 2002. 1

إن اسمي هو مايكل شوير. ولدت في العام 1952 في بوفالو، نيويورك، أحمل شهادة بكالوريوس في الآداب، وشهادتي ماجستير ودكتوراه وكلاهما في مجال التاريخ. لقد عملت لدى شركة يونيون كارابايد ووكالة الاستخبارات المركزيّة. وقد استمر عملي في الاستخبارات منذ العام 1982 وحتى نوفمبر عام 2004 وذلك عندما استقلت، وتركت عملي وأنا على علاقة طيبة مع كل زملائي ورؤسائي. ومنذ العام 2002 قمت بإصدار كتابين تحت اسم "مجهول" كان موضوعهما الرئيسي أسامة بن لادن، وهما *النظر من خلال عيون أعدائنا: أسامة بن لادن، الإسلام الأصولي ومستقبل أميركا* و*الفوقيّة الامبرياليّة الأميركيّة: لماذا يخسر الغرب حربه ضد الإرهاب*. لقد كتبت الكتابين لأنني كنت ولا أزال على قناعة تامة بأن قادة الولايات المتحدة لم يكونوا صادقين مع الشعب الأميركي بشأن دوافع أعدائنا

أو في ما يتعلق بالأبعاد المُدمّرة للحرب التي نخوضها. كما أنني أردت أن أؤكد للأميركيين أنه على الرغم من أن هذه الحرب مُعقّدة فإنه بإمكانهم أن يفهموها بالرجوع إلى الوثائق المتاحة للجميع.

ومن خلال الكتابين فقد راهنت بأنه إذا لم يكن قادة الولايات المتحدة صادقين وصريحين مع المواطنين، فبمقدور المواطنين الرجوع إلى الكتب والمكتبات العامة، ومواقع الإنترنت التي تؤمن لهم مصادر المعلومات التي استخدمتها في كتابيّ. وقد كانت نتيجة الرهان لصالحي حتى الآن. ذلك لأن المعلومات والتوقعات المذكورة في الكتابين أثبتت أنها مبنية على أسس صحيحة ومتينة، كما أظهرت أن الأميركيين ليسوا بحاجة إلا إلى القليل من المعلومات السرّية ليدركوا الورطة التي وقعت فيها بلادهم.

إن ظهور هذا الكتاب أثار الكثير من التساؤلات حول السبب الذي دعا وكالة الاستخبارات المركزيّة للسماح بنشر عمل من هذا القبيل. أما التخمينات التي جاءت لتفسر هذا السبب فقد تراوحت من كون ذلك محاولة من وكالة الاستخبارات للتأثير على الانتخابات الرئاسيّة عام 2004 بشكل أو بآخر، إلى حاجة الوكالة لإطلاق عنان هذا "الشوير المتشدق بتحذيراته الفارغة" لينفس عن الغضب المتأجج من خلال إصدار "عمل رآه الأشخاص [المسؤولون البارزون في إدارة وكالة الاستخبارات المركزيّة] على أنه سخيف بعض الشيء"[2] وربما يكون كل ما قيل في السطور القليلة السابقة خطأً، وأقول "ربما" لأنني لا أعرف أبداً لماذا سمحت وكالة الاستخبارات المركزيّة بنشر هذا الكتاب.

وقد تم نفي فكرة "الشوير المتشدق بتحذيراته الفارغة" في نوفمبر عام 2004 من خلال تقرير اللجنة العلميّة للدفاع، والذي أثبت صحة الخط التحليلي الأساسي الذي اتبعته في الكتابين؛ وهو أن السبب الذي يدفع الإسلاميين بقيادة بن لادن للاعتداء على أميركا هو ما نفعله بموجب السياسة الخارجيّة التي نتبعها لا ما نقوله أو نؤمن به. والسياسات قيد الطرح هي قيام أميركا بالمحافظة على أسعار النفط المنخفضة والمقبولة في الغرب، والدعم غير المشروط لإسرائيل، ووجودها العسكري في شبه الجزيرة العربيّة وحمايتها للأنظمة الاستبداديّة والقمعيّة في البلاد الإسلاميّة

وتأييدها لروسيا، والصين، والهند في اضطهادهم للشعوب المسلمة ووجودها العسكري في العراق، وأفغانستان، واليمن وغيرها من البلاد الإسلاميّة. (وهذا ليس بغريب على الإدارات التي اعتادت التغطية على التقارير السلبيّة حيث إنها نشرت التقرير في وقت متأخر ليلة الأربعاء قبيل عيد الشكر). وقد جاء في التقرير الذي كان موجّهاً بشكل أساسي إلى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد:

"إن المسلمين لا يكرهون حريتنا لكنهم يكرهون سياساتنا، والغالبيّة العظمى [من المسلمين] يعبّرون عن استيائهم ورفضهم لما يرونه على أنه تأييد منحاز لإسرائيل ضد حقوق الشعب الفلسطيني والدعم الذي نُقدّمه منذ زمن طويل وحتى الآن للأنظمة التي ينظر إليها المسلمون على أنها أنظمة قمعيّة استبداديّة. ولهذا فإن الدبلوماسيّة الأميركيّة عندما تتحدث عن تطبيق الديمقراطية في المجتمعات الإسلاميّة، ينظر إليها المسلمون على أنها ليست إلا ادعاءات منافقة هدفها خدمة المصالح الأميركيّة.... لذا لن تتمكن أي من الحملات التي تسعى إلى تحسين العلاقات العامة مع المسلمين من إنقاذ أميركا من عواقب سياساتها الفاشلة.

إن سلسلة الأحداث الخطيرة التي وقعت منذ الحادي عشر من سبتمبر ساهمت بشكل كبير في إثبات صحة قضية الإسلاميين الأصوليين وادعاءاتهم [المتعلقة بسياسات الولايات المتحدة]. فأفعال أميركا، والتطور السريع للأحداث أديا إلى تعاظم نفوذ جماعات المقاومة المسلحة الجهاديّة وأعاد إليها الصفة الشرعيّة في أوساط المسلمين. [3]

كما أن الفكرة السخيفة بأن الوكالة كمؤسسة- بمعزل عن مدير الاستخبارات المركزيّة جورج تينيت والضباط العاملين تحت إمرته - قد استغلت كتابي للتأثير على مسار ونتائج انتخابات عام 2004. فالتغطية الإعلاميّة الأوليّة لكتابي قد صوّرته وكأنه عمل موجّه لنقد غزو الولايات المتحدة للعراق، هذا على الرغم من أن الكتاب لم يخصص إلا صفحتين فقط لهذا الموضوع. كما أن الكتاب لم يكن هجوماً على الرئيس بوش، لكنني لو أغفلت ذكر الفوائد العظيمة التي جناها أسامة بن لادن، والقاعدة، والجماعات السنيّة المقاتلة المنتشرة في كافة أنحاء العالم من جراء الغزو الأميركي للعراق، لكنت قد

اعتبرت غير صادق من الناحية الفكريّة ومقصّراً من الناحية المهنيّة. ولو أن النقّاد الذين ادعوا أن الكتاب كان يتمحور حول انتقاد الرئيس بوش قرأوا كتابي بتمعن لوجدوا أنني انتقدت في كتابي القيادات البارزة لأجهزة الاستخبارات في الولايات المتحدة لأنهم لم يقدّموا الدعم الكافي للرئيسين بوش وكلينتون في حربهما ضد القاعدة. ويجدر بالذكر أنه في الوقت الذي كانت فيه وسائل الإعلام تركّز على هذا الموضوع بالذات، قام مدير العلاقات العامة لتينيت مدير الاستخبارات المركزيّة بمنعي من إجراء أي حوار إعلامي، ربما لأن السيد تينيت قد رأى أن انتقادي للرئيس بوش هو أمر مقبول أكثر من توجيهي لأي انتقاد يمس القيادة العليا لقيادة أجهزة الاستخبارات.[4]

إلا أنني أعتقد أن تينيت وضباطه سمحوا لي بنشر كتاب الفوقيّة الامبرياليّة الأميركيّة لأنهم كانوا قد عمدوا إلى تجميد حياتي المهنيّة بعد أن قمت في العام 1999 بتسجيل عدد من المشاكل القابلة للحل في الأجهزة الاستخباراتيّة، وقد خافوا الآن من أن تتم محاسبتهم على إخفاقهم في معالجة تلك المشاكل. وقد هاجمت الطريقة التي تعاملوا فيها معي داخل الوكالة، حتى أنني كدت أقيم عليهم دعوى قضائيّة، لكنني لم أكن أنوي إثارة هذا الموضوع بشكل علني خارج الوكالة إلى أن قام السيناتور ماك كين وغيره باتهام وكالة الاستخبارات المركزيّة باستغلال كتابي لمحاولة تقديم المساعدة للسناتور كيري كي يتم انتخابه كرئيس للولايات المتحدة.

وسأقدّم لكم ههنا فكرة عما جرى معي من أحداث. بين عامي 1997 و1999، تعرضت لضغط شديد في عملي وصل إلى درجة المضايقة وذلك من خلال الاتهامات التي وجّهها لي مدراء كبار في وكالة الاستخبارات المركزيّة، تجلّت في الادعاء بأنني أخترع وجود مشاكل وظيفيّة لا أساس لها من الصحة وأصدر أوامر بمعالجتها، وقد كانت تلك محاولات قاموا بها لحملي على ترك المنصب الذي أشغله كرئيس لوحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزيّة. وقد أبلغت السيد تينيت والسيد أ. ب. كرونغارد المدير التنفيذي لوكالة الاستخبارات المركزيّة بهذه الحوادث بشكل شفهي مرتين، وقد طلبا مني أن أبقى في منصبي لكنهما لم يتخذا

أي إجراء للحدّ من المضايقات. وفي مايو عام 1999، قام جاك داونينغ نائب مدير العمليات بطردي من منصبي كرئيس لوحدة بن لادن قائلاً إنه فعل ذلك لأنه رأى أني قد "أرهقت ذهنياً" ولأن النقد الذي كتبته مؤخراً، بحق مكتب التحقيقات الفدراليّة قد أثار غضب القيادات العليا في المكتب المذكور، كما أضاف أنني كنت محقاً في ما كتبته إلا أنه لم يكن من المفترض أن "تسحل تلك المعلومات على الورق وتنشر ليطلع عليها الجميع". بعد ذلك صافحني وطلب مني أن أخبر الضباط العاملين تحت إدارتي بأن قرار الاستقالة كان قراراً اتخذته بمحض إرادتي كيلا يتركوا هم أيضاً عملهم في تلك الوحدة، كما قال لي إن عليّ ألا أقلق بشأن سمعتي لأنهم سيكافئونني بمنحي ميدالية شرف ومكافأة مالية؛ إلا أنني رفضت أن أكذب على ضباطي واقترحت عليه المكان الذي يجب أن يحتفظ فيه بميداليته كما وقّعت على مذكرة تشهد بأنني لن أقبل أي مكافأة ماليّة. بعد ذلك بفترة بسيطة أرسلت إلى الضباط العشرة الكبار في قيادة وكالة الاستخبارات المركزيّة تقريراً أكدت من خلاله من جديد على المشاكل التي تعاني منها أجهزة الاستخبارات والتي إذا لم تتم معالجتها ستؤدي إلى عرقلة عمل تلك الأجهزة ومنعها من استخدام كافة طاقاتها في الدفاع عن أميركا ضد القاعدة. إن التقرير الأصلي قد حفظ للسرّية التي يجب المحافظة عليها، لكن تم نشر نسخة غير سرّية منه في عدد ديسمبر عام 2004 من مجلة الأتلنتيك؛[5] ثم أمضيت معظم وقتي في ما تبقى من عام 1999 في القراءة في مكتبة وكالة الاستخبارات السرّية.

ومن العام 2000 وحتى نوفمبر 2004 حُرمت من العمل الذي يتناسب مع رتبتي وخبرتي وإنجازاتي، فقد تم إرسالي إلى وحدة بن لادن في الثاني عشر من سبتمبر عام 2001 حيث عملت هناك إلى أن استقلت من منصبي الذي منحني مركزاً بارزاً دون أن أكلّف بأي مهمة رسميّة. وكانت خدماتي مطلوبة في معظم الأحيان لكن قيل لي أن جيمس بافيت خليفة داونينغ كان يرفض كل طلب تقدّمت به للقيام بأي مهمة؛ فقد رفض في إحدى المرات أن أقوم بالمساعدة في استجواب بعض الزعماء البارزين في القاعدة الذين تم أسرهم. كانت وكالة الاستخبارات السرّية على علم بأن الإسلاميين كانوا يحترمون كتاب *النظر* من

خلال *عيون أعدائنا* وبصفتي الكاتب يمكنني أن أقوم بعمل جيد في التحقيق معهم. إلا أن السيد بافيت المحترم رأى أن تجميد مستقبلي المهني أهم بكثير من انتزاع معلومات بالغة الأهميّة تفيد في الدفاع عن الولايات المتحدة.

لذا فإن النقاد الذين يعتقدون أن وكالة الاستخبارات المركزيّة هي التي كانت وراء تشجيعي على نشر الكتاب لأسباب سياسيّة يجب أن يعيدوا النظر في اتهاماتهم. أعتقد أن "الفوقيّة الامبرياليّة الأميركيّة" قد نشر لأن تينيت وغيره من القيادات العليا كانوا يخشون أنهم إذا لم يسمحوا بنشر الكتاب فإنني سأفضح سلسلة الأفعال التي قاموا بها بهدف تجميد مسؤولياتي ومهامي، فضلاً عما قاموا به سابقاً حيث إنهم تعمدوا تأجيل نشر كتابي السابق *النظر من خلال عيون أعدائنا* خمسة عشر شهراً (من مارس 2000 إلى أكتوبر 2001) وهو الكتاب الذي كان الهدف منه أصلاً تحذير أميركا قبل وقوع اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر من الاحتمال الكبير لشنّ القاعدة لاعتداءات مُدمّرة تستهدف أراضي الولايات المتحدة والذي استخدمته وكالة الاستخبارات المركزيّة ككتاب إرشادات لتدريب كوادرها، فيما كانت تؤجّل منح الإذن بنشره؛ بالإضافة إلى إهمالهم وتقصيرهم في معالجة المشاكل التي تعاني منها أجهزة الاستخبارات. إنه سجّل حافل بالفعل، وأنا أتحدث عنه بالتفصيل هنا لأنفي الفكرة التي تقول إن وكالة الاستخبارات المركزيّة استخدمت كتابي كوسيلة للتلاعب بالانتخابات الرئاسيّة. إن الكتاب قد نشر برأيي لأن تينيت والضباط الذين تحت امرته كانوا يحاولون أن يحفظوا ماء وجههم؛ عدا عن أن تينيت بالذات كان يحاول حماية تطلعاته السياسيّة بعد أن قاموا كفريق واحد بخرق قوانينهم المتعلقة بممارسة التمييز والمضايقة للضباط والعاملين أثناء تأديهم الخدمة؛ كما أنهم فعلوا ذلك تجنّباً منهم لاتخاذ إجراءات وتدابير صعبة بيروقراطياً كان بإمكانها تأمين حماية أفضل لأميركا. إن الثمن الذي ندفعه بسبب النفاق هو ثمن باهظ دوماً، وبالذات عندما يسمح بعض الأشخاص التافهين بجعل وكالة الاستخبارات المركزيّة التي تعد من أهم المؤسسات في ما يخص دفاع الولايات المتحدة عرضة لهجمات مُدمّرة بدلاً من توضيح أفعالهم أمام الجميع أو رؤيتهم لميدالية الحرّية تشع ضياء يغمر حياتنا.[6]

قراءة موضوعية: حرب عالمية تتجه من سيّء إلى أسوأ

وهكذا فإن [بداية الحرب العالمية الأولى] لم تكن أبداً تظاهرة للغباء فقد كانت تظاهرة للأغبياء؛ بمعنى أنها لم تكن كارثة من الأخطاء والنزاعات قادت المشاركين المجهولين إلى نهاية لم تكن لتخطر على بالهم مطلقاً، بل هي نتيجة قرار اتخذه عن عمد أشخاص اعتقدوا أنهم كانوا يعرفون تماماً ما هم مقبلون عليه.

آدم جوبنيك، 2004. 7

إن قادة الولايات المتحدة من سياسيين، وعسكريين، وحكوميين يختارون اليوم بملء إرادتهم خسارة "الحرب العالميّة على الإرهاب" وأحد الأسباب التي تقودهم لفعل ذلك هو أنهم يستخفون بالقاعدة، ولا يرون أنها تمثل خطراً حقيقياً يعادل ذلك الذي تمثله بعض الدول كالصين وروسيا. إن زعم الرئيس بوش والذي سبقه إليه الرئيس كلينتون أننا سنهزم القاعدة من خلال القبض على قادتها أو قتلهم واحداً تلو الآخر يعكس هذه الحقيقة؛ ولم يسبق أن طمأن أي من الرئيسين المذكورين الشعب الأميركي بأن الخطر الروسي، أو الكوري الشمالي، أو الإيراني، أو الصيني يمكن أن يهزم بالطريقة ذاتها. كما أن الفكرة الأخرى التي تعد بحق هراء لا أساس له من الصحة والتي ظهرت على يد المحافظين الجدد تقول إن أميركا قامت بغزو العراق "لنقل ساحة المعركة ضد الإرهابيين إلى أرضهم كيلا نضطر إلى محاربتهم في الولايات المتحدة". لقد ساقوا أميركا إلى العراق ليهزموا بلداً اعتقدوا أنه أكثر خطورة من القاعدة. لكن الحقيقة هي أنه لم يكن هناك أي تهديد إرهابي بالنسبة للولايات المتحدة في العراق؛ بل إن غزو العراق هو الذي أنتج هذا التهديد وساهم بشكل كبير في تزايد التأييد لبن لادن بين المسلمين. وعلى الرغم من الخطاب العنيف والكلام الذي تطغى عليه صيغة الحرب الذي أخذت تطلقه إدارة بوش، فإنها اتبعت التقليد الكلينتوني في تطبيق القوة العسكريّة الأميركيّة بشكل ناقص وغير فعال أو مثمر. إن فريق بوش، بكل اختصار، يطلق تصريحات صلبة وعنيفة ويفكر بأفضل أسلوب دفاعي وفي نهاية الأمر يضع في قمة أولوياته إرضاء الرأي العام الدولي. وفي هذا الصدد يمكننا ملاحظة رفض الإدارة أن تقتل أبو مصعب الزرقاوي عندما كانت الفرصة متاحة لها، وذلك في سنة 2002 وأوائل سنة 2003 في الوقت الذي كانت فيه واشنطن تطلب مساعدة القوات الفرنسيّة

والألمانيّة في العراق؛ وحقيقة أن القوات الأميركيّة قد نفذّت عملياتها بناء على أوامر سياسية أدت إلى فرار معظم أفراد الجيش العراقي وطالبان والقاعدة والنجاة بأسلحتهم وأرواحهم؛ وكذلك حدود العراق وأفغانستان والولايات المتحدة التي لا تزال مفتوحة حتى اليوم. يمكننا أيضاً أن نلاحظ نفس هذه الظاهرة في شؤون لا تتعلق بالأمن القومي وذلك عندما أبدى أحد المسؤولين في الأمم المتحدة انتقاداً بسيطاً حول ضآلة المساعدة الأميركيّة لضحايا كارثة تسونامي التي ضربت المحيط الهندي؛ هذه الملاحظة أدت إلى ردّ سريع من الرئيس بوش الذي رفع مبلغ المساعدة في الحال من خمسة عشر مليون إلى ثلاثمئة وخمسين مليون دولار. هكذا أصبحت حال واشنطن ما بعد فييتنام، فرأي الأجانب بكل ما تقوم به الولايات المتحدة هو أهم بكثير بالنسبة لصنّاع السياسة الأميركيّة من المحافظة على حياة المواطنين الأميركيين من مدنيين وعسكريين. ففي أفغانستان مثلاً، توقفت القوات الأميركيّة البريّة عن القتال تماماً بعد المكاسب الهزيلة التي حققتها "عملية أناكوندا" في أبريل عام 2002، ثم نقل الجنرالات أفراد الجيش النظامي إثر تلك العمليّة إلى العراق تاركين وراءهم القوات الخاصة وضباط وكالة الاستخبارات المركزيّة السرّية ليقوموا بإنهاء حرب أكبر بكثير من قدراتهم. وقد تم اتباع نفس الأسلوب غير العدائي مرة أخرى في العراق حيث كانت معظم الخسائر التي كان يتعرض لها الجيش الأميركي في ساحات المعارك تحدث في الوقت الذي تكون فيه القوات الخاصة تدافع عن المواقع الساكنة أو تمدها بالمؤن لا عندما تكون في مطاردة للعدو. لذا يمكننا القول إن أرواح جنودنا في كلا الحربين قد ضاعت سدى ولا تزال تضيع حتى اليوم. أما المعارك الحقيقية في كلا الحربين فهي لم تبدأ بعد وإذا قرر قادتنا أنهم يريدون الفوز فسيموت المزيد من الأميركيين عندما نبدأ بتنفيذ الهجمات، وسنتذكر أسماء جنرالاتنا الكبار في يوم من الأيام بوصفهم المسؤولين الرئيسيين عن هدر أرواح جنودهم بصمت في معارك مزيفة في كل من أفغانستان والعراق.[8]

إن قادتنا يتعرضون للخسارة أيضاً لأنهم لم يفهموا بعد طبيعة الصراع الذي تسبّب به بن لادن وهم بذلك يتّبعون شكلاً من أشكال التكبّر الفكري الذي يدعى "بتيار المحافظين الجدد" وهو تيار ليس بجديد في الساحة السياسيّة وهو أقرب

إلى الأيديولوجيّة الولسونيّة التي تدور حول فلسفة هي والتيار السابق بعيدة كل البعد عن أي اتصال بالحقيقة والواقع وكلاهما مجرد فرضية لا أكثر وأشبه بألعاب فكريّة ذات ألفاظ معقدة، لقد أسفرت السياسات التي يتبعها كل منهما عن نتائج كارثيّة بالنسبة للولايات المتحدة. أما الفارق الوحيد بينهما هو أن ويلسون اتبع مقاربة تخلى بموجبها عن مسؤولياته، مما أدى إلى نشوب الحرب العالميّة الثانية بينما يستغل المحافظون الجدد اليوم نظاماً يتدخلون فيه بشكل شخصي لدرجة أنهم يقودوننا إلى حرب عالميّة ثالثة. سأستعير هنا وصفاً استخدمه المؤرخ البريطاني كريستوفر هيل في سياق مختلف لأقول إن ما يجده قادتنا في التيار المحافظ الجديد هو "ملاذ راق يؤويهم من مخاطر وضوح الفكر". وقد قيدت تلك النظريات القادة الأميركيين في الوقت الراهن، وحدت من سعة أفقهم لدرجة أنها أصابتهم بجهل تام بالعالم الإسلامي. إن سياساتهم إزاء العالم الإسلامي المبنية على هذا الجهل قد أسفرت عن ارتفاع عدد القتلى في صفوف الأميركيين قد يصل إلى حدٍّ سيجبر القادة من الطرفين على البدء برؤية العالم على حقيقته لا كما يتصورونه أو يريدونه أن يكون. وعندما ستتذكر الأجيال القادمة هؤلاء القتلى، قد ينطبق عندها على المحافظين الجدد قول كيبلنغ: "إذا سئلنا لماذا قتلنا، قولوا لهم، لأن آباءنا كذبوا علينا."[10]

وكما هو مذكور أعلاه، فإن أميركا تتعرض لاعتداءات مُدمّرة لأن سياساتها الخارجيّة تعتبر هجوماً على الإسلام والمسلمين، لا بسبب مجتمعها الديمقراطي العلماني. أما في الحرب ضد بن لادن، فالمثير للسخريّة فعلاً هو أن أميركا تمسك بمفاتيح قدرها بيدها وهو وضع رائع إذا ما تسنت لنا رؤيته، إلا أن القادة الأميركيين عندما تجاهلوه تأخروا في القبض على زمام المبادرة، والبدء بالحرب الحقيقية اللازمة لضمان بقاء واستمراريّة أميركا. إن بن لادن ليس من الأشخاص الذين يحبون الظهور في الإعلام والإدلاء بتصريحات وآراء للرأي العام، لكن سخطه ونقمته على فشل واشنطن في إدراك حقيقة أن كراهية المسلمين لسياسات الولايات المتحدة تقوّي حركات المقاومة الإسلاميّة المسلحة كان واضحاً تماماً في خطابه الذي صرّح به في أكتوبر 2004، حيث قال: **"قبل أن أبدأ، أريد أن أقول**

لكم [أي للشعب الأميركي] أن الأمن هو أساس لا غنى عنه في حياة الإنسان وأن الأحرار لا يتنازلون عن أمنهم، بخلاف ادعاء بوش بأننا نكره الحرّية. وإذا كان ما قاله صحيحاً، فليوضح لنا لماذا لم نضرب نحن السويد مثلاً؟ فنحن نعلم أن من يكره الحرّية لا يمتلك روح التحدي كأولئك التسعة عشر [الذين نفذوا عملية الحادي عشر من سبتمبر]- تغمدهم الله برحمته- كلا، إنا نقاتل لأننا رجال أحرار لا ننام على الضيم. إن كل ما نريده هو استعادة حرية أمتنا.[11] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

من الغريب ألا يفهم الإنجيليون البروتستانت أصحاب الحضور القوي في إدارة بوش دوافع الناس الذين يعتقدون أن دينهم وربهم يتعرضان للاعتداء. ففي الانتخابات الرئاسيّة لعام 2004 حرص الإنجيليون على الإدلاء بأصواتهم - ربما لضمان تحقيق الجمهوريين لفوز ساحق- وكان السبب الأساسي الذي دعا الكثير منهم للمشاركة في التصويت، هو اعتقادهم أن دينهم وربهم كانا مهددين من قبل السياسة، سواء كانت السياسة المتعلقة بحقوق الشاذين جنسياً، أو حق الإجهاض، أو حق زواج المثليين. إن الإسلام يواجه إلى حدٍّ ما نفس الوضع: فمئات الملايين من المسلمين، سواء كانوا من مؤيدي بن لادن أو من معارضيه، يؤمنون تماماً بأن السياسة الخارجيّة الأميركيّة هي حرب ضد الإسلام. والفرق بين الوضعين السابقين، هو أن المؤمنين في الغرب - مع أن هذا الأسلوب لم يتبع إلا منذ حروب الإصلاح- يلجأون إلى النشاط السياسي لحماية دينهم بينما يلجأ المؤمنون في العالم الإسلامي إلى حمل السلاح. لذا فإن الإنجيليين في الإدارة الأميركيّة هم أقدر الناس على فهم هذا التشابه في الظروف والأوضاع؛ إلا أنهم غير قادرين أو لا يريدون على ما يبدو أن يفعلوا ذلك مما جعلهم عاجزين عن إدراك الطريقة الرئيسيّة التي تمكّن أميركا من فهم الإسلاميين وبالتالي التغلب عليهم وإلحاق الهزيمة بهم. ودون إدراك هذه الحقيقة، سيظل قادة الولايات المتحدة عاجزين عن رؤية أن بن لادن لم يتمكن من النجاة والعودة إلى نشاطاته فحسب، بل أن شعبيته ونفوذه في نمو مطرد مما سيؤدي بالنتيجة لوصوله إلى المكانة القياديّة التي يطمح إليها وهي زعيم الدعاة لجهاد دفاعي ضد الولايات المتحدة.

على الرغم من أن هذا العمل "الفوقيّة الامبرياليّة الأميركيّة" قد تلقى الكثير من المديح والنقد، إلا أنه تعرض للكثير من سوء الفهم أيضاً. فبعض النقاد وصفوني بالمختل عقلياً وبأنني من أولئك الليبراليين الذين يلقون باللائمة في كل شيء على أميركا، وقال آخرون إنني وحش متعصّب من حزب اليمين متعطش لإراقة دماء المسلمين في حروب عنيفة. إن سوء الفهم الذي تعرّض له الكتاب يعود إما لنقص في وضوح أسلوب كتابتي وطريقة المناقشة المنطقيّة التي اعتمدتها أو لأن دوافع النقاد مشكوك فيها وتحتاج لإعادة نظر. وما حاولت أن أطرحه في هذا الكتاب وأؤكد عليه- في حال تم فهمه بالشكل الصحيح- أنه لا يتوجب علينا أن نتبّع سياسة ما ونتخلى عن أخرى، بل ينبغي على الأميركيين أن يعيدوا النظر في كافة السياسات المتعلقة بن لادن ويناقشوها كي يحددوا ما إذا كانت هذه السياسات بوضعها الراهن تخدم المصالح القوميّة للولايات المتحدة أم لا. وعندما قدّمت هذا الاقتراح بدا لي في حينها أنه فكرة لا تحتمل الجدل؛ فهو يدور حول حماية ديمقراطيتنا أثناء الحرب، ووضع استراتيجية تصنع لنا النصر في الحرب، ومن ثم مناقشة السياسات التي تدفع عدونا لمحاربتنا. وكما ذكرت سابقاً في هذا الكتاب، فإنه لا يمكن التوقع بما ستسفر عنه مناقشة من هذا القبيل، ففي نهاية الأمر يمكن أن تبقى السياسات الراهنة على حالها، فمهما كانت النتيجة ستكون مقبولة لأنها ستكون عندئذ قد نجمت عن مناقشة وحوار بين أفراد مجتمعنا الديمقراطي، ولأنها ستكون قد أعطت الشعب الأميركي فكرة أوضح عن الحرب الدمويّة الطويلة التي تواجهه. ويجب أن أكرر أن أي تغيير في السياسة لن يكون موجهاً نحو إحلال السلام والمصالحة مع الطرف الآخر. فالإسلاميون هم أشخاص لا يمكن ارضاءهم وتهدئتهم؛ فالخيار الذي تواجهه أميركا هو إما الحرب أو الحرب الأبديّة. فالتغييرات في السياسة يجب أن تنحصر في نطاق أضيق، وهو تحديد ما ينسجم مع المصالح القوميّة الأميركيّة، وتهيئة أميركا لاستغلال الديبلوماسيّة والدعاية بالشكل الأمثل، بالإضافة إلى أسلحة الاستخبارات والجيش، والبدء بالحدّ من النمو الكبير لبن لادن الذي وصل اليوم إلى مراحل خطيرة في العالم الإسلامي.

حتى هذا اليوم لم أقم بإثارة أي جدل كبير حول السياسات الأميركيّة التي تخدم مصالح بن لادن. غير أن حملة الانتخابات الرئاسيّة لعام 2004 أظهرت الرئيس بوش والسناتور كيري يضللان عمداً الشعب الأميركي وذلك من خلال تأكيدهما أن بن لادن يهاجم أميركا لأنه "يكره الحريّات والحقوق التي نتمتع بها". كما تجنب كلاهما أي شيء من شأنه إثارة نقاش يتعلق بالسياسات الأميركيّة في العالم الإسلامي. إن كل ما تقدم ستترتب عليه فاتورة مرتفعة ستدفعها أميركا من دماء وأرواح مواطنيها وجنودها وأموالها بالإضافة إلى تزايد خطر عدوها الإسلامي يوماً بعد يوم.

أما نحن فلا نزال مستمرين في دعمنا للأنظمة القمعيّة في العالم الإسلامي مما يقضي بشكل كامل على تراث أميركا بوصفها منارة الحرّية في العالم.[12] إن انحياز قادة الولايات المتحدة أدى إلى إثبات صحة ادعاء بن لادن من جديد بأن الديمقراطية وحرّية الكلام ليسا للمسلمين.[13]

أما نحن فلا نزال مستمرين في تقديم الدعم المطلق لإسرائيل، وهي سياسة تدفع الإسلاميين لقتل الأميركيين في كافة أنحاء العالم. ومع أنني لم أدعُ إلى التخلي عن إسرائيل- فالسجل الأميركي في التخلي عن حلفائها لا يبشر بالخير أصلاً- فلم تظهر أي إشارة حتى اليوم توحي بتوجه الولايات المتحدة نحو إعادة هيكلة العلاقات كيلا تبدو أميركا بقوتها العظمى اليوم على أنها إسرائيل؛ غير أنني على ثقة من أنه سيتم تبني هذا التوجه قريباً وسيستعاض عنه بحاجة ماسة للتغيير بسبب التزايد الكبير في عدد القتلى الأميركيين الذين يلقون حتفهم نتيجة الصراع مع الإسلاميين. إن من مصلحة الولايات المتحدة وإسرائيل معاً أن يعيدا هيكلة العلاقة التي تربط بينهما قبل أن يجبرهما على ذلك الغضب الأميركي الذي فجّره تدفّق القتلى الأميركيين، هذا الغضب الذي سيولد من جديد مشاعر الانعزاليّة والرغبة في الابتعاد عن الأمم الأخرى. إن أكثر مرة أوشكت فيها على الاقتراب من إثارة النقاش حول قضية إسرائيل كانت عندما دفعت المذيع الطليق اللسان مايكل ميدفيد ليخبرني أن الموضوع قد طرح للحوار في انتخابات عام 2004 لأن السناتور كيري أبدى معارضته لبناء إسرائيل للجدار الفاصل.

كما أن أحد ردود الأفعال التي توقعت أن يثيرها هذا العمل كان المقال الذي كتبه جوناثان توبن ونشر في موقع jewsweek.com فبعد أن وصفني السيد توبن "بالوضيع النائح من حزب اليمين المتشدد"، عبّر عن قلقه وخوفه على أميركا قائلاً: "إذا كان شخص وضيع وأحمق كشوير مؤتمن على استخبارات الولايات المتحدة، فإن عملية تنظيف داخليّة لهذا الجهاز الوضيع، [وكالة الاستخبارات المركزيّة] على حدّ تعبير السيناتور جون ماكين ليست أمراً ضرورياً فحسب، بل هو أهم الأولويات القوميّة... فقد آن الآوان كي يطرد هؤلاء الأوغاد شرّ طردة". إن أسلوب توبن الذي يظهر بوضوح الرقي والنضج والإحساس العالي بالطبع الذي يتمتع به توبن أثبتت لي صحة آرائي: يجب ألا يكون في أميركا أي موضوع على درجة عاليّة من الخطورة إلى الحدّ الذي يمنع من طرحه للحوار أو النقاش، وأولئك الذين يبذلون كل ما بوسعهم لمنع الحوار يفعلون ذلك بدافع من الخوف مما قد ينجم عنه".[14]

وهكذا نستمر في احتلالنا للعراق ونجعل منه "مغناطيساً لجذب المجاهدين" بشكل يفوق رمز المقاومة الفعّالة الذي شكلته أفغانستان بالنسبة للمسلمين إبان الغزو السوفييتي عام 1979. فعندما ضرب الجيش الأحمر أفغانستان كانت في ذلك الوقت بلداً إسلامياً مجهولاً وبعيداً كل البعد عن الصحوة الإسلاميّة الأصوليّة التي كانت رائجة في المنطقة. غير أن العراق – ثاني أقدس البلاد الإسلاميّة – يتصدر مع فلسطين رأس قائمة أهم القضايا التي تحظى بالقسم الأكبر من اهتمام المسلمين. وبعد مرور عشر سنوات على الغزو السوفييتي لأفغانستان وصف ميخائيل غورباتشيف الحرب الأفغانيّة على أنها "جرح مفتوح" يستنزف الاقتصاد السوفييتي وموارده البشريّة. لقد اقحمت أميركا نفسها في العراق اليوم بورطة شبيهة بتلك التي واجهها السوفييت في أفغانستان مع مقتل أكثر من ألف وأربعمئة جندي وإصابة عشرة آلاف بجروح، وعجز خرج عن حدود السيطرة في الميزانيّة الفدراليّة. بالإضافة إلى ذلك، فإن عالم الدين السني البارز الشيخ يوسف القرضاوي قال للمسلمين بأن واجبهم هو تضييق الخناق على القوات الأميركيّة، فقد كتب في نوفمبر عام 2004: **"إن الجهاد إلى جانب الشعب العراقي في مقاومته للاحتلال**

الأجنبي هو واجب شرعي فرضه الله على كل من ينتمي إلى الأمة الإسلاميّة داخل أو خارج العراق [في كافة أنحاء العالم] وقادر على القيام بفرض الجهاد". (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) وقد صادق على كلام القرضاوي علماء دين ممن يحاولون دفع المسلمين الأجانب للدخول إلى العراق للقتال في ما يدعوه القرضاوي- وكذلك بن لادن - جهاداً دفاعياً ضد "الجيوش الأجنبيّة التي تحتل العراق". "إن أحد الدروس التي تعلمناها من الأسر هو أننا كنا غارقين في كوكب بن لادن خاصة عندما كنا محتجزين في زنزانة تابعة للجيش الإسلامي في الشمال [شمال العراق]، لأننا أدركنا تماماً أن دوافع هؤلاء الخاطفين لم تكن تدور حول العمل من أجل العراق فحسب، بل كانت جزءاً من مخطط حرب إسلاميّة مقدسة".[15] هذا ما قاله جورج مالبرونو وهو رهينة فرنسي حرر في العراق في أواخر عام 2004.

كل هذا، ونحن لا نزال غير مهتمين بمتابعة الأبحاث المتعلقة بإيجاد مصادر بديلة للطاقة، أو بإعادة النظر في تأييدنا المطلق للحكومات المعروفة باضطهادها للمسلمين في بلدان كروسيا، والصين، والهند، وإسرائيل، وأوزبكستان، ومعظم الأنظمة في البلاد الإسلاميّة. أما قواعدنا العسكريّة فلا تزال موجودة في عدة بلاد إسلاميّة وهي آخذة في التوسع في مناطق جديدة في شرق إفريقيا وغربها.[16] وبالنسبة لمسألة الطاقة، فقد لاحظ بعض المعلّقين في أجهزة الإعلام أن الارتفاع الذي طرأ على أسعار النفط من 30 دولاراً دولار أميركي للبرميل الواحد إلى 45-50 دولاراً قد وضع الولايات المتحدة وحلفائها في موقف مُحرِج، فهم يقومون عملياً بتمويل حركات المقاومة الإسلاميّة التي تتسبب في قتل مواطنيهم من مدنيين وجنود في العراق. فقد خصّص الكثير من الأغنياء العرب منذ زمن قسماً من أرباحهم النفطيّة لقضايا التبرعات الخيريّة والجهاديّة، وفي الوقت الحالي يعدّ المجاهدون الذين يحاربون العدو المحتل في العراق أحق جهة إسلاميّة بتلقي تبرعاتهم، بناء على أقوال الشيخ القرضاوي المذكورة آنفاً. إن العلماء والفقهاء المسلمين على اختلاف أيديولوجياتهم السياسيّة سواء كانوا من أنصار بن لادن أو من مؤيدي الأنظمة الحاكمة قد أفتوا بشرعية الجهاد الدفاعي ضد الولايات المتحدة في العراق،

وكما اتضح مؤخراً، فإن تمويل هذا الجهاد لم يكلّف المحسنين العرب الكثير. فقد قاموا ببساطة باقتطاع نسبة ضئيلة من الأرباح الناتجة عن ارتفاع أسعار البترين والمحروقات التي يدفعها آباء الجنود الأميركيين لتحويلها إلى المقاتلين الذين يخططون لقتل أولادهم.

إن السياسة الأميركيّة ثابتة في مكانها لا تتقدم بخلاف مكانة بن لادن، وشعبيته، وقوته التي تتقدم إلى الأمام يوماً بعد يوم. وأكبر دليل على ذلك القرار الذي اتخذه الزعيم الإسلامي الأصولي المتمركز في العراق الزرقاوي في أواخر عام 2004 بإعلان ولاء منظمته للقاعدة، والذي يبدو أنه قد تم بناء على شروط بن لادن. أما التأخير في إبرام الاتفاق فأغلب الظن أنه كان عائداً لكراهية الزرقاوي للمسلمين الشيعة ورغبته في قتل أكبر عدد ممكن منهم. إلا أن الزرقاوي ومنذ أن أعلن انضمامه للقاعدة قد امتنع بشكل نهائي عن قتل الشيعة إلا من كان يعمل منهم لمصلحة القوات الأميركيّة أو النظام العراقي. وهذا ما حدث فعلاً بدليل أنه سارع إلى إعلان عدم مسؤوليته عن عملية السيارات المفخخة التي انفجرت بتاريخ الثاني والعشرين من شهر ديسمبر عام 2004 مما أدى إلى مقتل ستة وستين من الشيعة وإصابة مئتين منهم في النجف وكربلاء. فقد كتب الزرقاوي: "**نحن، منظمة القاعدة للحرب المقدسة في العراق، نعلن عدم مسؤوليتنا عن التفجيرات التي حدثت في كربلاء والنجف**"[17] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي). كان بن لادن قد طلب منذ وقت طويل أن يتم دفن الأحقاد والخلافات القديمة بين السنّة والشيعة حتى يتم التغلب على أميركا، ولم يعلن بن لادن بشكل رسمي عن تعيين الزرقاوي زعيماً للقاعدة في العراق إلا بعد البيان الذي أصدره الأخير على الإنترنت والذي تضمن إنكار المسؤولية عن العمليّة. إن تخلي الزرقاوي المؤقت عن القتل العشوائي للشيعة يظهر أن الفوائد التي قد يجنيها من التحالف مع منظمة بن لادن الدوليّة والتي تتمتع بمكانة مرموقة وقاعدة شعبيّة عريضة تفوق تلك التي قد تنجم عن قتل الشيعة. كما أن بن لادن يستمر في تعزيز مكانته بوصفه أصدق قائد في العالم الإسلامي وبطله الحقيقي الوحيد. فبعد مضي أكثر من ثلاثة أعوام على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لا يزال حرّاً طليقاً ولم تتمكن الولايات المتحدة بجلالة

قدرها وعظمتها من تحديد مكانه حتى اليوم، كما أنه يظهر على محطات التلفزيون الفضائيّة في الوقت الذي يحدده هو لا غيره. ففي أواخر العام 2004 مثلاً، ظهر فجأة في الأيام الأخيرة من الحملة الانتخابيّة الرئاسيّة الأميركيّة وهو يرتدي ثوبه الأبيض الرسمي الذي كان يرتديه قبل الحادي عشر من سبتمبر، وقال للأميركيين أن عليهم تعديل سياساتهم المعادية وإلا ..وجعل الجهود الأميركيّة المبذولة للقبض عليه تبدو عقيمة لا طائل منها من خلال مظهره الذي أكد للمسلمين أنه في أمان، وأنه متحكم بزمام الأمور، وألا شيء يمكن أن يثير خوفه. ثم ظهر مرة أخرى في اليوم الذي كان من المقرر أن تحدث فيه مظاهرة في المملكة نظمها معارضون سعوديون، حيث ذكّر المسلمين ببدايته كإصلاحي مسالم، ثم أظهر تعاطفه معهم وذلك بسبب المأساة التي يعيشونها بسبب واقعهم الأليم حيث أن معظم بلادهم ترزح تحت حكم الولايات المتحدة والأنظمة القمعيّة التي يدعمها الغرب. ويجدر بالذكر بأن الرؤساء بوش، وشيراك، وبوتن يظهرون على شاشات التلفزيون ويتحدثون دوماً دون أن يلقي أحد بالاً إليهم، لكن عندما يتحدث بن لادن، تتسابق وسائل الإعلام لتغطية أحاديثه وأخباره وترتفع أسعار النفط ويحبس الغرب أنفاسه بانتظار حدوث اعتداء جديد.

إن بن لادن بالنسبة للغالبية العظمى من المسلمين هو رجل - بحسب ما جاء في إحدى حلقات المسلسل التلفزيوني القديم روبن هود - "محبوب من الأخيار ويخشاه الأشرار"، إنه بحق قائد وبطل بنظر معظم المسلمين في العالم. كما أن بن لادن يكسب مزيداً من الاحترام كل يوم لأن ادعاءات واشنطن المتكررة بأن قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة تنتصر في حربها في أفغانستان والعراق، قد أثبتت زيفها وكذبها. فما جرى في أفغانستان من اختيار البشتوني حامد كرزاي رئيساً للبلاد هو قضية تثبت النقطة الآنفة الذكر. فقد تم اختيار كرزاي لأنه بشتوني لا لأنه قائد حقيقي أو ديمقراطي. كما كان هذا الاختيار مجرد محاولة لتفادي نشوب حرب أهلية أفغانيّة: فالقبائل البشتونيّة المسيطرة على الحكم منذ زمن طويل تدعمها باكستان ودول الخليج ضد الأفغان، والأوزبك، والطاجك، والشيعة الذين تدعمهم إيران وروسيا والهند وأوزبكستان. وكذلك لم يكن من قبيل المصادفة أنه

بعيد اختيار كرزاي - وهو نصر وصفه تشارلز كروثامر من وجهة نظر غربيّة بحتة بأنه "أول خريجي مذهب بوش في نشر الديمقراطية في بلاد معادية".[18] - صرّح مسؤولون أميركيون أن قوات الولايات المتحدة وقوات التحالف ستظل في أفغانستان في المستقبل القريب. وكما كانت حال كرزاي قبل الانتخابات، فهو في طبيعة الحال لا يتعدى كونه عمدة لكابل، فهو لا يزال غير قادر على التنقل في المدينة أو في البلاد دون الحماية التي يؤمنها له درع الجنود الأجانب فضلاً عن أنه يواجه اليوم حركة مقاومة مسلحة تزداد قوة يوماً بعد يوم بزعامة القاعدة وطالبان. أما العامل الوحيد الذي قد يمنع نشوب حرب أهليّة أفغانيّة يكمن في الاحتمال القوي بأن الإسلاميين الأفغان من المحاربين القدماء الذين جاهدوا ضد السوفييت - من البشتون، والأوزبك، والطاجك، وغيرهم- سيقررون أنهم لم يهزموا رئيساً سوفييتياً ملحداً ليستبدلوه بآخر أميركي مسيحي. لذا فمن المتوقع أن نرى نشوب حرب تحريريّة في أفغانستان قبل أن نرى حرباً أهليّة.

أما العراق فلا حاجة بنا لنقول الكثير عنه، فوحده القروي الأحمق أو أحد المحافظين الجدد يعجز عن رؤية الحقيقة ... حقيقة أننا فشلنا فشلاً ذريعاً في تقدير الأثر الكبير الذي سيحدثه احتلال الولايات المتحدة للعراق على العالم الإسلامي. لقد هُزمت أميركا في العراق وعليها الآن أن تجد المخرج من هذا المأزق الذي سيحفظ ماء وجهها، والذي سيكون على الأرجح الحل الأكثر دمويّة وعنفاً. لن يكون هناك أي أمل في إقامة نظام ديمقراطي بأسلوب غربي في العراق، أو في أي دولة من دول الشرق الأوسط، طالما أنه ليس هناك فصل بين الدين والدولة في الإسلام، وطالما أن واشنطن مستمرة في تقديم الحماية لحلفائها من حكام المنطقة الذين يعارضهم المسلمون لأنهم ينشدون الحرّية لا لأنهم يكرهونها. والأهم من كل ذلك أن هزائم أميركا وإخفاقاتها ستستمر ما دامت النخبة الأميركيّة تصُرّ على رفضها أن تتعلم القليل عن التاريخ الأميركي، على الأقل ما يكفي ليجعلها تدرك أن ديمقراطيتنا قد بنيت بالتدريج لا دفعة واحدة، وأنها قد كلفتنا الغالي والرخيص على مرّ ثمانية قرون منذ أن انتصر النبلاء الإنجليز على الملك جون في موقعة رنيميد. إن القادة الذين ينتمون إلى تيار المحافظين الجدد في إدارة بوش وهم السادة

رامسفيلد، وولفويتز، وفيث، وكامبون، ومساعديهم في الإعلام يظهـرون يومياً جهلهم الرهيب بالطريق الصعبة والدمويّة التي أوصلتنا إلى الديمقراطية. وكلما أكد هؤلاء الرجال أن العراق وأفغانستان هما على قاب قوسين أو أدنى من تحقيق الديمقراطية وأنهم متفائلون في تقبل كافة دول الشرق الأوسط لها عما قريب، كلما كذبوا أكثر على الشعب الأميركي، ووعدوه بتحقيق المستحيل، وأفرغوا خزائن الدولة، ووقّعوا على شهادات وفاة الجنود الأميركيين. أثناء حربنا الأهليّة، استنكر رئيس وكالة الأركان في إدارة لينكولن هنري هاليك الدور الذي لعبه المخططون السياسيون والجنرالات، حيث ذكر أخطاءهم الرهيبة وما نجم عنها من خسائر في الأموال والأرواح. أما الحل الذي كان هاليك يأمل أن يتم اللجوء إليه فهو حل لا يمكن للأميركيين إلا أن يتمنوا أن يقبل به المحافظون الجدد – من القادة ومساعديهم والجنرالات السلبيين الذين يتملقون الاثنين. "لو أنهم فقط يتبعون خطى أسلافهم، فيهجمون فجأة بقطيع من الخنازير ويقتحمون بنكاً مهماً ثم يرمون بأنفسهم في البحر، عندئذ، يمكن أن يكون هناك بصيص أمل لإنقاذ البلد".[19] هذا ما كتبه هاليك عام 1862.

علاوة على استغلال بن لادن لهذه الإخفاقات والاستفادة منها لمصلحته، فقد نجح في الحث على نشوء حركات سنيّة مسلحة في كافة أنحاء العالم، فها هو العنف الإسلامي الأصولي يستهدف المسيحيين في إندونيسيا ومصر والفلبين والعراق؛ بالإضافة إلى نشوء حركة إسلاميّة مقاتلة غير مسبوقة في جنوب تايلاندا- وهي منطقة بدأ بن لادن بالتركيز عليها منذ العام 1996[20]؛ والعنف المتزايد في بنغلاديش أيضاً وتحويل الإسلام في شمال نيجيريا إلى إسلام أصولي، والخوف الذي ظهر في أوروبا من مواطنيها المسلمين وخاصة بعد تفجيرات مدريد في مارس عام 2004 ومقتل المخرج الهولندي ثيو فان غوغ في خريف عام 2004.[21] إن بن لادن لا يتبع أسلوب الأمر والتنفيذ في هذه الحالات، وهو لا يريد أصلاً تبنّي هذه الطريقة، إلا أنه يحترم تلك الأساليب لأنها تتجه إلى معاداة الغرب والولايات المتحدة وهو ما يدعو إليها ويشجعه، كما أنها تهدد حلفاء الولايات المتحدة وتؤدي إلى نشر قوات الأمن التي تعرف القاعدة تماماً كيفية التعامل معها، وتفتح عيون

المسلمين على حقيقة أن هناك هجوماً حقيقياً وحرباً تقودها الولايات المتحدة على الحضارة الإسلاميّة. وعندما يدخل الأميركيون أعتاب العام 2005، سيرون بوضوح ثلاثة عوامل سلبية تلوح في أفق بلدهم. أولاً، أننا نخضع لحكم جمهوريين وديمقراطيين لا يعرفون أو لا يريدون أن يعترفوا بخطورة الحرب التي تخوضها أميركا. ثانياً، نحن نثق بجنرالات يستسلمون بصمت لاعتقادات أسيادهم السياسيين الوهميّة والخياليّة بأنه يمكن أن يتحقق النصر في الحروب دون تعرّض أعداد كبيرة من الجنود للقتل من الطرفين. ثالثاً، نحن مستعدون لهجوم تشنّه علينا القاعدة قد يكون أكثر تدميراً وقوة مما تعرّضنا له في الحادي عشر من سبتمبر. وقد صرّح أيمن الظواهري في نوفمبر عام 2004 في هذا الشأن: "ليس ثمة حل [للمسلمين] مع أميركا إلا بإكراهها على الإذعان لما هو صحيح وعادل من خلال استخدام القوة".[22] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي) ومن الغرابة بمكان، إن العامل الثالث قد يحمل في طياته بصيص أمل لإصلاح الأثر الكارثي للاثنين السابقين. كما قال بن لادن للأميركيين في أواخر عام 2004:

> "إن اللص الأحمق فقط هو الذي يتعدى على أمن الآخرين ثم يقنع نفسه أنه سينعم بالأمن. بينما يقوم العقلاء لدى تعرضهم لكارثة ما بالبحث عن الأسباب التي جعلتهم عرضة للكارثة ويضعون هذا الهدف على رأس قائمة أولوياتهم كي يتجنبوا حدوث ذلك ثانية.
>
> لكنني أتعجب لحالكم، فعلى الرغم من أننا في السنة الرابعة التي مرّت على أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فإن بوش لا يزال متمسكاً بالكذب، وتشويه الحقائق، وإخفاء الأسباب الحقيقية عنكم. ولهذا فإن الأسباب التي دعت إلى وقوع تلك الهجمات لا تزال نفسها وستؤدي إلى تكرار ما حدث.[23] (نص مترجم عن الانكليزية غير حرفي)

عندما سيضرب هجوم آخر أميركا في عقر دارها، هناك على الأقل احتمال بألا يصحو المواطنون الأميركيون العاديون فحسب - الذين يشك معظمهم أن بلدهم تخوض حرب بقاء - بل حتى النخبة الحاكمة ستصحو أيضاً وستفهم أخيراً أننا نخوض حرباً حتى الموت وأننا نخسر. لقد تسببت الهزائم الكبيرة التي تعرضت لها الولايات المتحدة على مرّ التاريخ - كاستيلاء الجنرال البريطاني ويليام هاو على

نيويورك عام 1776، والضربة الموجعة التي تلقاها جيش الاتحاد على يد روبرت. إي. لي عام 1863 في تشانسلورفيل، والهجوم الذي تعرض له أسطول البحريّة الأميركي من قبل الأدميرال الياباني ياماموتو في بيرل هاربر عام 1941 في إيقاظ العملاق الأميركي من سباته ليعود بهمة ونشاط إلى العمليات العسكريّة القاسيّة العنيفة. كما أن تلك الهزائم صنعت جيلاً جديداً من القادة السياسيين والعسكريين ذوي ذكاء متقد وقدرات خلاقة. لا شك أن الهجوم التالي للقاعدة سيكون له نفس التأثير.

ومع ذلك فإن هذه الصحوة قد لا تحدث أبداً، على الأقل بناء على خبرة وحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزيّة. ففي العام 1996، عندما قدّمنا تقريراً عن خبرات القاعدة وقدرتها على الحصول على أسلحة دمار شامل، اعتقدنا أن الحكومة ستأخذ تهديد بن لادن على محمل الجدّ وتتخذ تدابير لتمنع حدوثه، لكنها لم تقم بأي إجراء عملي لتحقيق ذلك. وبعد أن دمّرت القاعدة سفارتينا في إفريقيا في السابع من أغسطس عام 1998، تفاءلنا وقلنا أن الحكومة الآن ستقضي على القاعدة بشكل نهائي، لكنها لم تفعل. وفي أكتوبر عام 2000، عندما كانت المُدمّرة كول تغرق في مياه عدن في اليمن إثر الهجوم الذي تعرضت له، كنا متأكدين أن الحكومة ستثبت لبن لادن قوتها الحقيقية، لكنها لم تفعل. لكن عندما دفنت أكثر من ثلاثة آلاف جثة بعد الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، عرفنا أن آلة الحرب الأميركيّة العنيفة ستسحق القاعدة تماماً هذه المرّة. أخبرنا قادتنا أن الردّ العسكري سيكون حاسماً. لكننا للأسف سنرى قريباً أن هذا ليس صحيحاً. ربما سيحدث ذلك بعد أن ندفن الدفعة التالية من الآلاف المؤلفة من جثث القتلى؟ ربما... لا أحد يعرف فالعلم عند الله!

Potomac Books, Inc.
Formerly Brassey's, Inc.

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

«البحث المثير للجدل في قضايا مكافحة الإرهاب الذي قلب مجرى الحوار الدائر في العالم رأساً على عقب. لا يمكن لأي مراقب للحرب على الإرهاب أن يتجاهل هذا النقد اللاذع للسياسات التي انتهجتها إدارة بوش».

– بيتر بيرغن، مؤلف كتاب الحرب المقدسة

«تعد هذه الدراسة دليلاً دامغاً على خطورة التهديد الإرهابي وفشل الجهود التي بذلتها إدارة بوش في التصدي له».

– ريتشارد. أ. كلارك (المنسق القومي السابق للأمن ومكافحة الإرهاب)، عالم الكتاب في صحيفة واشنطن بوست.

«إن هذا البحث إدانة صارخة لسياسة الولايات المتحدة الرامية لمكافحة الإرهاب».

– جوليان بورجر، صحيفة الغارديان.

«يقدم هذا العمل حججاً ذات مصداقية كبيرة تدعم نظريات مثيرة للجدل رغم أنها غاية في الأهمية».

– بنجامين شوارتز، مجلة أتلانتيك الشهرية.

«يضم هذا الكتاب بين طياته كماً كبيراً من المعلومات القيمة حول ولادة «الحرب على الإرهاب» والوضع الراهن الذي آلت إليه. لقد تمكن هذا العمل من الاستحواذ على اهتمامي من الصفحة الأولى!»

– مجلة الناشرين الأسبوعية.

«أعتقد أن الأقلام مهما أجادت الوصف فلن تفِ هذا الكتاب العظيم حقه!»

– رالف بيترز، مؤلف كتاب ما بعد بغداد: العودة إلى تقاليد الحرب والسلام.

«من النادر أن يجد المرء كتاباً يتمكن من تغيير مسار الحوار والآراء على الصعيد الدولي، إلا أن هذا العمل نجح بجدارة في تحقيق ذلك».

– مارتا ساليج، صحافة ديترويت الحرة

«تمكن هذا العمل من الضرب على بعض الأوتار الحساسة ...... كما أنه ألقى الضوء على الكثير من الجوانب المظلمة في حرب أميركا ضد القاعدة».

– ميتشيكو كاكوتاني، صحيفة النيويورك تايمز.



إن كتاب الفوقية الإمبريالية الأميركية الذي صنفته صحيفتا النيويورك تايمز والواشنطن بوست على أنه من أفضل الأعمال التي نشرت حديثاً، قد صدر أساساً باسم «مجهول» وذلك بناء على طلب وكالة الاستخبارات المركزية الأميريكية من الكاتب كشرط أساسي لمنحه الإذن بالنشر. المؤلف هو مايكل شوير، وهو الرئيس السابق للوحدة الخاصة بقضية بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية. الجدير بالذكر هو أن المؤلف قد استقال من منصبه المذكور في نوفمبر / تشرين الثاني عام 2004 بعد خبرة حوالي عشرين عاماً في العمل على القضايا المتعلقة بأفغانستان وجنوب آسيا. كما أن شوير كان قد أصدر سابقاً بقلم «مجهول» كتاب «عبر عيون أعدائنا: أسامة بن لادن والإسلام الأصولي ومستقبل أميركا». تم تقديم المؤلف في العديد من البرامج الإخبارية على محطات التلفزة المحلية والدولية، كما أجريت معه عدة مقابلات إذاعية بالإضافة إلى ظهوره في برامج وثائقية ذات صلة علاوة على أنه كان محور الإعلام المقروء في كافة أنحاء العالم.

ISBN 9953-29-894-7
9789953298948

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
www.asp.com.lb
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb